I.B.TAURIS

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سيباستيان سميث

جِبَالُ الله

الصراع على الشيشان



جبال الله

الشيشـــان

تأليف
سيباستيان سميث

ترجمة
مروان سعدالدين

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
ALLLAH'S MOUNTAINS
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Tauris Parke Paperbacks
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

ISBN: 978-614-421-909-6

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

سيباستيان سميث مؤلف وصحفي حاز على جوائز عديدة. وعمل مراسلاً في واشنطن، وموسكو ولندن للقسم الناطق بالإنكليزية في وكالة الصحافة الفرنسية، وهو يعيش ويعمل حالياً في جورجيا.

عرفان وشكر

أول الناس الذين أدين لهم بالشكر هم الشيشانيون الذين خاطروا بحياتهم لحماية حياتي، أو لمساعدتي في الحصول على القصة لوكالة الأنباء التي أعمل لها، وهو عمل كان دون مقابل في أغلب الأحيان. في تقليد قوقازي حقيقي، تجاهل كثير من هؤلاء الناس صعاباً كبيرة لتقديم المسكن والطعام لي.

أسماء بعض هؤلاء الناس موجودة في هذا الكتاب، لكن ليس جميعهم. وأخص بالشكر موسى داميف من شالي، سلامو تورلايف من نوفي تسينتروي، خانزاد باتييف وموفالدي يرمولايف من بامونت، علي عطيف من ستاري أكخوي، إسلام غونابيف من حاجي يورت، يوسف من سيرزين يورت.

وأعبِّر عن عميق امتناني لكل أولئك الذين ساعدوني في أجزاء أخرى من شمال القوقاز، والذين أحاطوني بحفاوة بالغة، بالإضافة إلى العديد من الأكاديميين والمسؤولين الرسميين الذين خصصوا لي بعضاً من وقتهم. وأخص بالذكر: في داغستان، سيد خابيتوف من نوفوسليسكوي، ناتاشا ستويانوفا من ماكاشكالا وغيسين غازيماكوميدوف في غيرمي؛ في أنغوشيا، بوريس خانييف؛ في أوسيتا الشمالية، أناتولي إيزايكو في جامعة فلاديقفقاز وفلاديمير شاكبازيدي في الجامعة الإغريقية؛ وفي كاباردينو - بالكاريا، قادير جمال وعائلته في الجبال؛ في كاراشاي - شركسيا، القائد كازبيك شومابيف والملا كازبيك شاماتييف، رسول وأصدقائه؛ في أدغيا، حمزة كازانوف، أصلان، ألمير إبيرغوف مدير المتحف، أميربي كولوف مدير فرقة الرقص القومي، وأيضاً كادر صحيفة سيفرني ققفاز، خصوصاً تاتيانا مامخياكوفا في شركسك.

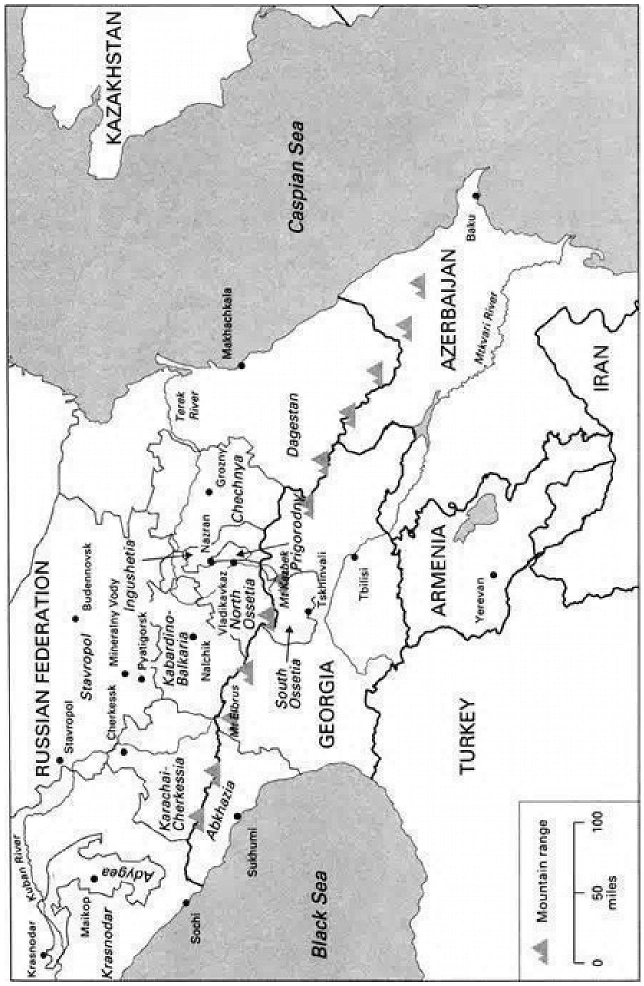
وأعرب عن عميق امتناني لكل من ساهم في هذه المخطوطة: أندرو هاردينغ، جيمس ميك، غاري سكوت وأنطوني سميث. وأشكر أيضاً آنا - ماريا بورا، لورنس بيتر، أندري بيونتكوفسكي ودمتري ترينون لإبداء ملاحظاتهم على هذا النص، ووكالة الصحافة الفرنسية وصحيفة "موسكو تايمز" لسماحهما لي باستخدام أرشيفيهما، ومركز دراسات الطاقة العالمي وفيليب أرمسترونغ لتزويدي بالخرائط.

وأشكر أيضاً مديرتي في وكالة الصحافة الفرنسية باولا ميسانا التي منحتني الوقت الكافي للكتابة، وفرصة غير محدودة للعمل في الشيشان؛ وإلى ناتاشا فيرويذر لمساعدتي على إيجاد ناشر لكتابي؛ وإلى مارينا لابينكوفا وفالانتينا بلينوفا لتعليمي الاستمتاع بالشتاء الروسي؛ وإلى المرحوم بيتر براتسروب وإلى جاك نيس أسني سيرستاد لتشجيعهما المبكّر لي؛ وإلى زملائي الصحفيين في الشيشان الذين ذكرت أسماء بعضهم في هذا الكتاب، ولكن ليس كلهم، لصحبتهم ودعمهم؛ وأخيراً إلى آنا عنايات التي تعمل لدى دار النشر آي. بي. توريس لعنايتها بالكتاب وصبرها اللامحدود على إعادة الكتابة والتأخير في إصداره.

لم يكن بالإمكان تأليف هذا الكتاب دون الاستعانة بالأعمال المنشورة سابقاً، والمذكورة في قائمة المؤلفات، لكني أدين بشكل خاص إلى مجمل أعمال ألكسندر بينسن وإس. إيندرز ويمبوش حول الإسلام في ظل الاتحاد السوفياتي؛ وإلى روبرت كونكويست لتسجيله الدقيق لعمليات الترحيل في *قتلة الأمة*؛ وإلى ماري بينسن بروكسب لكتابها حاجز *شمال القوقاز*، والذي يمثّل رؤية كلاسيكية للمنطقة؛ وإلى موش غامير لبحثه التاريخي المفصّل عن عهد الإمام شامل في كتابه *المقاومة الإسلامية للقيصر*. ولفهم تاريخ حروب القرن التاسع عشر، لا يوجد أفضل من كتاب جون إف.

باديلي بعنوان *الغزو الروسي للقوقاز*. ولفهم طبيعة الآراء المتعارضة، لا يوجد أفضل من عملي تولستوي بعنوان *حاج مراد والقفقازي*، وعمل ليرمنتوف *بطل من زماننا*. ولفهمٍ أفضل لعالم ليرمنتوف، أدين بالشكر للورنس كيلي لعمله *ليرمنتوف. مأساة في القوقاز*.

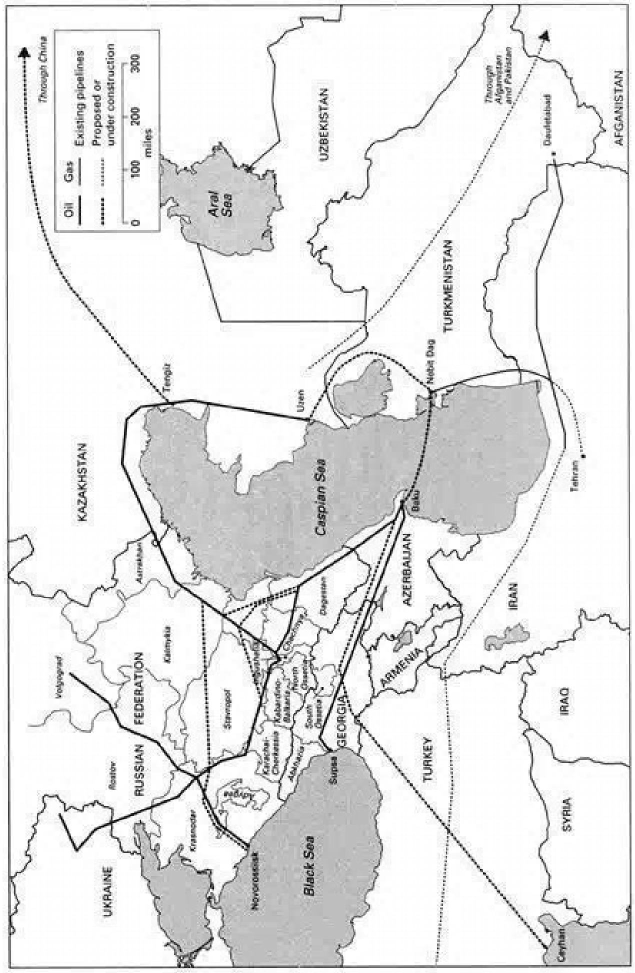
الخرائط



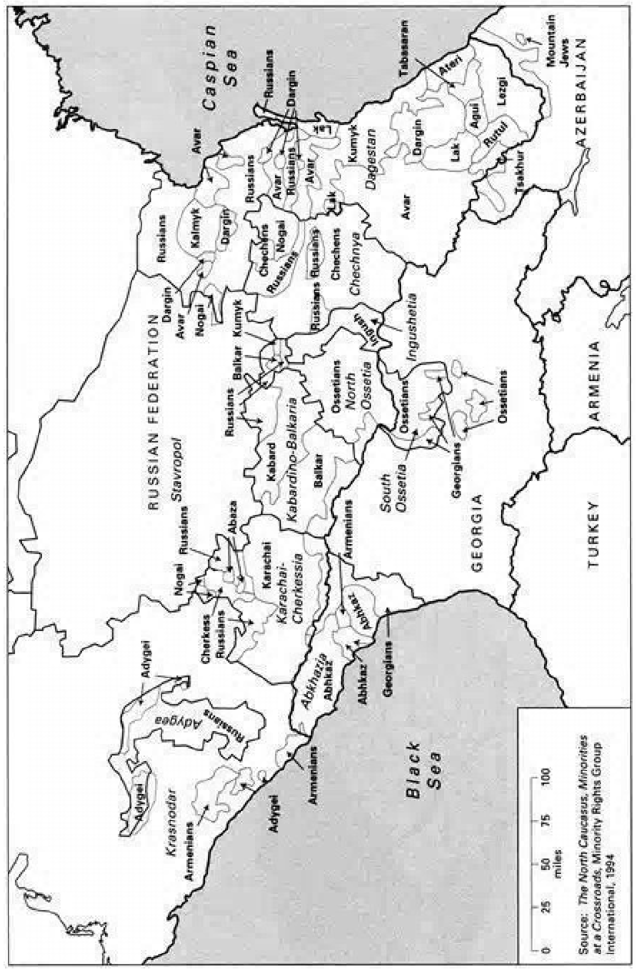
خارطة 1: جنوب روسيا والقوقاز



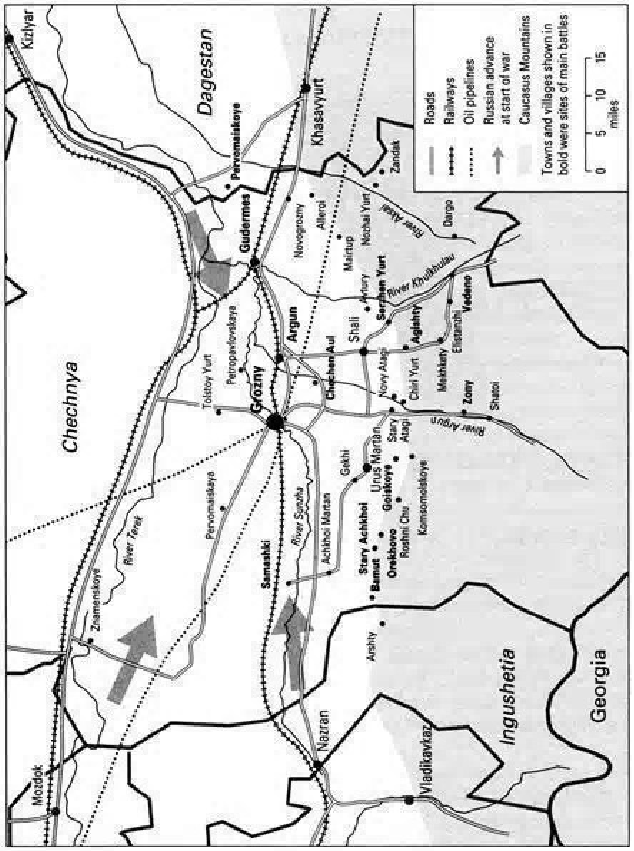
خارطة 2: مدى الاحتلال الروسي في العام 1800



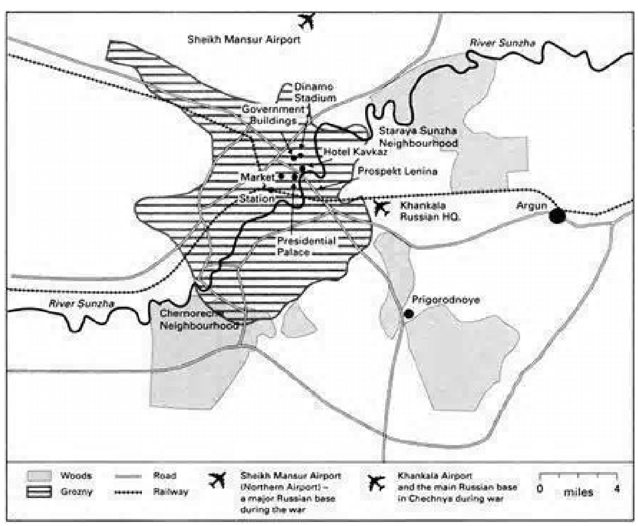
خارطة 3: خطوط نقل النفط والغاز الحالية والمقترحة



خارطة 4: المجموعات الاثنية في شمال القوقاز



خارطة 5: الشيشان خلال حرب 1994 – 1996



خارطة 6: غروزني

مقدمة

وصف **ليون تولستوي** منذ ما يزيد عن 100 سنة في حكاية قصيرة بعنوان **حاج مراد** اشتباكاً بين الجنود الروس والمحاربين الشيشان. بدأت الأحداث عندما رصدت القوات الروسية المتمركزة على حدود إحدى الغابات حفنةً من المقاتلين الشيشان على صهوة خيولهم، وتبادلت إطلاق النار معهم حتى تراجع الشيشانيون إلى داخل الغابة. في هذا الاشتباك القصير، الذي اعتبره ضباط الجيش رياضة لهم، أصابت رصاصة قاتلة جندياً روسياً؛ فيما لم يتعرض الشيشانيون لأي إصابات محققة. لقد كان هذا الاشتباك غير ذي أهمية من الناحية العسكرية. إلا أن **تولستوي** يقول إنه عند تقديم التقرير إلى القيادة العسكرية، تمّ تضخيم الحدث إلى معركة بطولية: هجوم من قوات شيشانية كبيرة، وهجوم روسي معاكس بحراب البنادق تمخّض عنه هزيمة العدو. "وفي سياق هذه الأحداث، أصيب جنديان بجراح بسيطة، وقُتل جندي آخر"، كما يقول التقرير. كانت خسائر الجبليين حوالى مئة قتيل وجريح.

كان تولستوي، الذي خدم في الشيشان، يعرف الموضوع الذي يكتب حوله. وفي **حاج مراد**، التي تجري أحداثها في القرن التاسع عشر، قدّم تولستوي وصفاً للأكاذيب التي تخدم جيشاً إمبراطورياً بطريقة مؤثّرة. لهذا نتساءل ما الذي يمكن فعله لجسر الفجوة بين الحقيقة ووجهة النظر الرسمية في حرب الشيشان المعاصرة؟

انقضى أكثر من عقد منذ أمر الرئيس **بوريس يلتسن** الجيش الروسي بإحكام السيطرة على الشيشان و"استعادة النظام الدستوري". ومرّت أكثر من خمس سنوات منذ أن أرسل **فلاديمير بوتين** الجيش مرة أخرى إلى الشيشان بهدف حماية روسيا من الإرهاب.

ويبدو أن هناك أهدافاً رسمية متغطرسة وراء ما يسمّى بالحرب الأولى (1994 - 96) والحرب الثانية (1999 - لغاية اليوم). وبكل الأحوال، أتت النتائج معاكسة تماماً. وعوضاً عن أن تكون مكاناً للنظام الدستوري، أو أي نظام آخر، تحوّلت الشيشان لتصبح غيتو (حي مغلق) غير خاضع لسيطرة القانون. يستطيع الجنود وأفراد الشرطة هناك الحصول على مكاسب غير مشروعة، والقيام بجرائم الاغتصاب والقتل وهم واثقون تماماً من الإفلات من العقاب. كانت فصائل الثوار الشيشانيين تنسف المدنيين الذين يصدُف وجودهم بالقرب من الأهداف العسكرية. لقد استغنت تلك الفصائل تدريجياً عن مهاجمة القواعد العسكرية، وأصبحت تستهدف المدنيين بكل بساطة. بالمقابل، يشكّل الشيشانيون وحدات غير نظامية مناهضة للكرملين، تقوم بتعذيب وخطف شيشانيين آخرين، وغالباً ما يكونون رفاق سلاح سابقين في فصائل الثوّار.

فيما يخص حماية روسيا من الإرهاب، أثارت حرب الرئيس **بوتين** موجات اعتداء لا سابق لها: إسقاط طائرة ركاب مدنية، عملية احتجاز رهائن كبيرة في مسرح موسكو، انفجارات في قطارات أنفاق موسكو، وحمام دم في مدرسة بيسلان. إذا استطعنا تعريف الإرهاب بأنه عنف ضد المدنيين لتحقيق أهدف سياسية وعسكرية، عندها سيكون معظم ما اقترفه الجيش الروسي في الشيشان في خانة هذه القائمة الشريرة. لقد أظهرت دراسة حديثة قامت بها منظمة **أطباء بلا حدود** أن الشيشانيين يعانون من بعض أعلى معدلات الأذيات النفسية في العالم. تقول الدراسة إن 9 من كل 10 أشخاص فقدوا عزيزاً لهم في الحرب، وأن 1 من كل 6 شاهد موت قريب له. إن 80% شاهدوا أشخاصاً يتعرضون للإصابة. كما أن ثلثي السكّان قالوا إنهم لا يشعرون بالأمان أبداً، وتعرّض كل من جرى استطلاع رأيه تقريباً إما لقصف جوي بالقنابل أو لإطلاق النار. إرهاب: إنها الكلمة المناسبة.

وفقاً لتقديرات مختلفة موثوقة، لقي ما يزيد عن 100.000 شيشاني مصرعهم في العقد الأخير، وفقد مئات آلاف آخرون منازلهم في أوقات مختلفة، أو تمّ إجبارهم على النزوح، علماً أن عدد السكان لا يتجاوز المليون نسمة. لقد تحوّلت غروزني، التي وصل عدد سكانها إلى 450.000 نسمة - وكانت واحدة من المراكز الرئيسية لمصافي البترول في الاتحاد السوفياتي السابق - إلى أنقاض مخيفة. ويترك البترول المنسكب على الأرض، والإشعاع، والألغام الأرضية، والقذائف التي لم تنفجر والغابات المدمّرة آثارها وتتسبب بتسميم الطبيعة في الشيشان. في تقديرات واقعية غير رسمية، قُتل أكثر من 20.000 جندي روسي.

رغم كل ذلك تظهر الشيشان الآن على شاشات التلفزة الروسية، التي يسيطر عليها الكرملين بزعامة الرئيس بوتين، مكاناً هادئاً ومسالماً. ومن النادر الإشارة إلى المقاومة للقوات الروسية، وكل ما يظهر الآن هو قصص تولستوي الناجحة حول قطّاع الطرق "الذين يتمّ التخلص منهم" ومكائد الإرهابيين التي يتمّ إحباطها. أعتقد أن وسائل الإعلام الروسية والشيشانية تحتضن بحماسة كل من الفيدرالية الروسية والرئيس بوتين نفسه. وفي حال قبول هذا المبدأ، سيصدّق المرء التقارير الرسمية بأن الشيشانيين صوّتوا بشكل صريح وكامل لصالح دستور يدمج بلادهم ضمن روسيا. ويعتقد المرء أن الشيشانيين سارعوا إلى مراكز الاقتراع مثل الرئيس **أحمد قاديروف**، المفتي السابق للثوار، والذي تحوّل إلى جانب الروس حالما بدأت حرب الرئيس فلاديمير بوتين. (قاديروف - الذي كان في الحقيقة مكروهاً، وتخافه ولا تثق فيه كل الأطراف في الشيشان - اغتيل في صيف العام 2004). من المنطقي أن يعتبر المرء انتقال معظم مراكز قوة قاديروف إلى ابنه رامزان أمراً طبيعياً، وهو يحب رياضة الملاكمة، ويتهمه ناشطو حقوق الإنسان بأنه أحد أبرز ممارسي التعذيب في الجمهورية.

في أواخر سنة 2004، كانت وسائل الإعلام تقدّم صورة للشيشانيين فيها الكثير من الولاء والمحبة للفيدرالية الروسية. وعلى الرغم من عجز الحكومة التي نصبتها روسيا في الشيشان، إلا أن البلد نعم بالسلام، وبصناعة فيلم فيه وبناء استاد لكرة القدم، وما سمّاه رئيس الوزراء سيرجي أبراموف "عالم ديزني"، والذي كان من الواضح أنه ليس سوى حديقة مائية في غودرميز. وللاحتفال برأس السنة الميلادية الجديدة، قام الرئيس فلاديمير بوتين شخصياً بتقليد رامزان قاديروف ميدالية *بطل روسيا*، والتي تعتبر أسمى الميداليات في الجمهورية الروسية.

في ذلك الوقت، وبعد 10 سنوات من زحف الدبابات باتجاه غروزني، قمت بزيارة إلى الشيشان، وكنت زرت هذا البلد ثلاث مرات من قبل. وكنت أعرف عاصمته جيداً، وشهدت خلال العقد الماضي مراحل مختلفة من مأساتها البطيئة الحركة. ورغم ذلك، وجدت نفسي في مكان لم أستطع التعرف عليه إلا بصعوبة. لم تكن غروزني بالتأكيد تلك المدينة المنهكة المدمّرة، وكانت لا تزال تؤدي دور المركز الإقليمي لما يعرف بالاتحاد السوفياتي السابق والتي سبق وشاهدتها سنة 1994. ولكنها لا تشبه أبداً ساحة المعركة الشرسة التي عرفتها فيما بعد. لقد أصبحت غروزني منطقة غسق - المكان الذي تصبح فيه تعاريف الحرب والسلام مبهمة، وكل الولاءات مشكوكاً بها، كما أن المتقاتلين أنفسهم لا يملكون أهدافاً واضحة.

حقيقة قيامي بزيارات سابقة لم تقلل صدمة مشاهدة حالة المدينة المرعبة. في الساحة المركزية، وهي المنطقة التي كانت مكتظة سابقاً بالمباني الرسمية، والجامعة، والمباني السكنية الكبيرة، والشوارع والحدائق الرئيسية، لم يبقَ حجر على حجر. لقد دمّرتها القنابل والقذائف، ثم سوّتها الجرافات بالأرض. تحوّل ما كان يعرف بقلب المدينة إلى صحراء. من هذه المنطقة اتسع الدمار

أميالاً ليشمل المصانع المهدمة، ومساحات شاسعة من المنازل المحطمة، والمباني السكنية الخاوية على عروشها، وصولاً إلى المواقع الطبيعية البرية التي لم يعد أحد يجرؤ على دخولها خوفاً من القنابل والألغام.

الحشود الوحيدة التي قد تشاهدونها هي تلك الموجودة في ساحات شبيهة بساحات ستالينغراد. لم تمنع الحرب الشيشانيين أبداً من العمل في التجارة، وفي مكان لا توجد فيه محال، إذ يمثّل السوق في الهواء الطلق أسلوب حياة لهم. لكن حالما يحل الغسق، تغادر هذه الحشود إلى القرى، وتصبح غروزني مظلمة، ساكنة وخطيرة. وفي تقديري، الذي وصلت إليه أثناء القيادة في الليل واحتساب النوافذ المضاءة، يعيش الآن عدد لا يزيد على ثلث السكان أو 15.000 بشكل دائم فيها، فيما كانت سابقاً أكثر المدن أهمية في القوقاز.

يتحدّث الرسميون في موسكو، وتابعوهم في الشيشان عن برامج إعادة البناء، لكن في الحقيقة لم تنجز هذه المشاريع على مدى عشر سنوات أي شيء تقريباً عدا إثراء أولئك القائمين عليها. في غروزني، يبدو عدد المباني التي أعيد بناؤها قليلاً جداً مقارنة بأنقاض المباني التي تبدو واضحة للعيان. لقد استطعت مشاهدة اثني عشر مبنى جديداً فقط، وفيما عدا بعض الاستثناءات، جميعها ثكنات ومكاتب للقوى الأمنية، ومؤسسات تخدم الصناعة النفطية أو شركات الكهرباء والغاز، والتي تمد الشيشانيين التعساء بأسباب الحياة. تعتبر غروزني أثراً حياً ليس فقط عن القوة التدميرية للجيش الروسي، لكن عن عجز الدولة الروسية على إعادة بناء السلام.

أثناء السير عبر هذه الأرض البور، اكتشفت الموقع السابق للقصر الرئاسي وحديقة الأزهار الملحقة به. وعلى الطريق، كان هناك فيما مضى فندق القفقاز، وهو مبنى غريب، طرازه نصف - سوفياتي، نصف - شرقي، كنت أقمت فيه قبل الحرب. كان هناك المصرف الوطني، والبرلمان ووزارة الأمن الداخلي. واليوم لم يتبقَ سوى الوحل على جانبي الأسفلت الذي يحدد مكان الطريق، والأرصفة، والساحات والمباني التي كانت تشرف عليه. مرّت بقربي شابة، سألتها هل تتذكّرين القصر الرئاسي؟ لقد كان هذا مركز قيادة جوهر دوداييف والحكومة الانفصالية الأصلية، إضافة إلى أنه كان مسرحاً لمعركة ملحمية كانت باكورة الحرب الأولى. أجابتني الفتاة "لا فكرة لديّ"! كانت في السادسة عشر من عمرها، أي أن عمرها لم يكن يتجاوز السادسة عندما بدأت الحرب.

وجدت بالقرب من ذلك المكان امرأة، وهي نموذج معبّر عن ربات البيوت الشيشانيات المشاكسات. كانت تجمع الماء. وهذا يعني جرّ حمولة عربة من القوارير والجرار إلى صنبور مكسور، ثم جرّ العربة إلى المنزل، حيث يتوجب عليها غلي الماء. لم يعد يتوفر الماء بشكل دائم سوى في أجزاء قليلة من الشيشان. وليست الصنابير، والمغاسل والحمامات، كما الهواتف وصناديق القمامة، سوى تذكارات عن حضارة منسية. (لكن نقص الماء لم يُعِق بناء الحديقة المائية في غودرميز).

تمتلك هذه المرأة، بكل الأحوال، شيئاً قيًّما: الذاكرة. قالت: "هناك، كان يوجد الصاغة. وكانت هناك مدرسة موسيقى. وكانت هناك جامعة، وكانت هناك مبانٍ سكنية...". وفي كل مرة كانت تُشير إلى مساحات فارغة. قالت إن الماء الذي يتدفق من الصنبور المكسور يحدد موقع مطعم المحيط ومحال السمك. وقد تذكّرت هذا الموقع جيداً، لأن أول قنبلة سقطت عليه سنة 1994، وقتلت عابري سبيل وأثارت الغضب والحنق لدى سكان غروزني. لم يتخيل أي منهم أن القادم أعظم. وقالت المرأة: "إنه مثل الحلم".

فكّروا في المدن التي تدمّرت في "اليوم التالي لميلاد السيد المسيح" سنة 2004 عندما ضرب تسونامي المحيط الهندي، وستتخيلون غروزني، مع فارق أن الطبيعة تسببت بتلك الكارثة في دقائق، فيما الكارثة الأخرى كانت بفعل وتخطيط وإصرار الإنسان على مدى 10 سنوات.

انتهت المعارك الواسعة النطاق في الحرب الثانية سنة 2000 بعد الاستيلاء على غروزني وتهجير الآلاف من الثوار - الذين لم يكن لديهم سوى تجهيزات قليلة - إلى قرى الجبال. لكن كما حدث في العراق بعد إعلان الرئيس جورج بوش الشهير بانتهاء العمليات الرئيسية، كانت الحرب تدخل أولى مراحلها الجديدة المتعددة. كل من هذه المراحل كانت أكثر صعوبة من سابقتها، بحيث وصلنا إلى نقطة اليوم لم يعد فيها أحد قادراً سواءً في روسيا أو حتى في الشيشان على تحديد ماهية الصراع بشكل دقيق.

ما تزال المعارك مستعرة في الجبال، والمدفعية البعيدة المدى تقصف الغابات، والتي يمكن سماع دويّها بوضوح في غروزني في ساعات الصباح الباكر. لكنّ المعركة تجري بعيداً عن أعين الشهود، في مناطق نوزاي يورت، فيدينو، وشاتوي. ويستمر جيل جديد من القادة، غير معروف تقريباً للعالم الخارجي، بالقتال. وحتى مقتله في آذار سنة 2005، كان قائد المحاربين، والرئيس الشيشاني الوحيد الذي تمّ انتخابه بحرية أصلان مسخادوف ما زال يقاتل. وقد خلفه شامل باساييف، وهو من القادة المحليين وأكثرهم تطرفاً. يشهد استمرار هؤلاء في القتال - كما في حالة مسخادوف الذي استمر في الاختباء خمس سنوات ونصف منذ سنة 1999 - على عدم كفاءة وفساد القوات الروسية من ناحية، وعلى إصرار الثوار وقوة تنظيمهم في جمع المعلومات وشبكة المؤيدين المدنيين الواسعة الانتشار من ناحية أخرى. ببساطة ليست هناك طريقة أخرى قد تتصرف بها مجموعة محاربة في مثل هذا المكان الصغير.

في السهول، شنّ المتمردون حملة من الاغتيالات والمناوشات الضيقة النطاق. وردّت القوات الروسية وحلفاؤها من القوات الشيشانية غير النظامية بعمليات قاسية مضادة، تراوحت من الغارات على المخابئ المشكوك بها إلى خطف أقرباء الثوار. ورغم ذلك يمكن اعتبار هذا النوع من النزاعات منخفض المستوى. وحتى في غروزني، أصبحت تلك العمليات الحربية الواسعة النطاق استثناءً. كل أسبوع، أو كل بضعة أسابيع، يقتل الثوار مسؤولاً سابقاً في السلطة الموالية لروسيا، أو ربما ينسفون سيارة جيب مليئة بأفراد الشرطة. كما يحدث غالباً، إن لم يكن دائماً، تتحصّن القوات الروسية والشيشانية الموالية لها وتقتل من تشتبه بأنه من الثوار، أو مجموعة منهم. وبكل الأحوال، أصبحت المعارك الواسعة النطاق - كما حدث عندما استولى الثوار على معظم المدينة لعدة ساعات في صيف سنة 2004 - نادرة. وأثناء زيارة خاطفة لغروزني، ربما لن يسمع المرء سوى رشقات معزولة من نيران البنادق. لم يعد هناك هجمات جوية على المدينة، أو قصف بالقنابل، أو ضربات صاروخية، كما لم تعد أي معركة تتعدى بضعة منازل أو مجرد شارع بمفرده. وأصبح الليل، الذي كان يعتبر لسنوات مسرحاً لمعارك متواصلة وهجمات صاروخية يقوم بها الثوار، ساكناً بشكل مخيف الآن. لقد التجأ الثوار إلى أماكن بعيدة للاختباء ليس فقط من القوات النظامية، ولكن من العديد من مواطنيهم الذين انقلبوا ضدهم. ويتألف تمويه أحد المقاتلين الذين التقيت بهم من معطف طويل وحذاء لامع. أخبرني أنه حتى تكتيك وضع القنابل على جانبي الطريق، والذي كان المفضّل لديهم لوقت طويل، أصبح غير فعّال. تتحرك القوات الأمنية بسرعة كبيرة، ومن الصعب تفادي موجات الاعتقال. إضافة إلى ذلك، وكما قال ذلك الرجل، تمتلك روسيا حاملات جنود وسيارات

جيب مدرّعة أكثر عدداً من الثوار الشيشان. "إنهم لا يهتمون حقيقة بتدمير عربة جنود أو اثنتين، فيما لا نستطيع نحن تحمّل خسارة رجل واحد في عملية مثل هذه".

في مواقعهم على شبكة الإنترنت، لم يخسر الثوار أياً من كبريائهم أو حبهم للقتال. ولكنّ الدلائل على الأرض تشير إلى أنه بعد كل تلك السنوات تراجعت قوات الثوار بمختلف فصائلها بشكل كبير. لقد أضعفت مصادر الجيش الروسي الهائلة قدرة المتمردين على المقاومة، وعرقلت قدرتهم على التجمّع، وقلّصت مساحة الأراضي التي يمكنهم التحرك فيها بحرية. وقللت حالة الطوارئ غير المعلنة، والتعذيب، واستخدام المخبرين (الذين غالباً ما يكونون ضحايا سابقين للتعذيب) من روابط الثوار مع المجتمع الذي يستنزفه الفقر والإرهاق من المعارك. لقد دمرت مصادر تمويل الثوار، وعلى المستوى التكتيكي البحت، حسّنت سنوات من التدريب أداء الوحدات الروسية. وبخلاف من سبقوهم في المراحل المبكّرة من الحرب الأولى، الذين كانوا بلا حول ولا قوة، غالباً ما يكون الجنود مدربين جيداً، ويمتلكون الخبرة ويعرفون إلى أين يذهبون، وماذا يتوقعون عندما يصلون إلى هناك.

على كل حال، سيكون تصديق أن الثوار منهكون تبسيطاً للأمور، والقول بأن الحرب قد انتهت، أو أنها في طريقها للانتهاء خطأ فادح. ويقوم المتمردون بقتل الجنود الروس بشكل يومي، وهم يقاتلون حتى الموت عندما تتمّ محاصرتهم. والحقيقة أن المقاومة قد انشطرت إلى نقطة أصبح من المستحيل معها إلحاق الهزيمة بها بالمعنى الطبيعي للكلمة. ولا يوجد رايخ (مجلس البرلمان) لمهاجمته، كما أن موت مسخادوف، وهو قائد سياسي أكثر منه عسكري، دفع بالكثير من مؤيديه ليصبحوا أكثر تشدداً.

تبنت المقاومة، التي امتدت من الثورة القومية إلى الحرب الأولى، استراتيجية طويلة المدى. وتمثّل مقاومة القوات الروسية بالنسبة لهؤلاء المقاتلين واجباً مقدَّسا لا مجال للاستسلام فيه. وتشكّل مجموعة من المقاتلين المؤقتين الذين تعرّضوا للظلم والاضطهاد جناحاً آخر، وهم يسعون للثأر من السلطات المحلية والجنود الروس. ومن الممكن أن يلتحق بهذا الجناح معظم رجال الشيشان، رغم أن نسبة صغيرة تحمل السلاح عملياً. ويتألف الجناح الرئيسي الآخر من المتشددين الإسلاميين، الذين تدفعهم حماستهم الثورية لارتكاب أعمال إرهابية مروّعة. هناك أيضاً قسم كبير من الرجال الذين يكونون قُطّاع طرق، وثواراً ومنتهزي فرص في الوقت ذاته. وتبقى مسألة اتحاد كل هذه الأجنحة المنفصلة موضع تساؤل، لكن الحقيقة أنها ما تزال تعمل كلها؛ والنتيجة "مأزق لا يمكن الخروج منه: لا يستطيع الثوار طرد الجيش الروسي، ولا يستطيع الجيش الروسي سحق الثوار".

يبدو أن الوضع غريب، كما أن المأزق يبدو ملائماً لعناصر قوية في كلا الطرفين. سيعتقد أي مراقب لا يملك خبرة كافية بالمنطقة أن المعدّات الروسية، وهؤلاء الجنود الذين يعتمرون الخوذات، وعملاء الاستخبارات السرية وعناصر المليشيا الشيشانية الموالية لروسيا سيصلون إلى يوم يستطيعون فيه تطهير آخر قبو وغابة من المقاومة. سيعتقد المرء أن الهدف تحقيق النصر الكامل، إلا أن فحصاً دقيقاً للواقع يكشف عن شيء مختلف تماماً: جيش مهتم بالحصول على منازل مريحة أكثر من اهتمامه بتحقيق النصر، وحرب تخليد للذات ومستمرة على المدى الطويل؛ إنها مهنة. بالنسبة لجناح الثوار المتطرف، أصبحت الحرب طريقة معيشة، وهي تعني القوة، وتعني أعضاء جدداً معظمهم من الشباب الذين بالكاد يستطيعون تخيل أي شيء آخر. إنهم أولئك الموجودون في الشيشان، وفي روسيا بشكل عام، الذين يعتبرون النظام والأمن كارثة.

لن يكون مفاجئاً، عندها، أن يتشبّه الجيش الاتحادي بالعدو الذي أُرسل لقتاله. وكما هو الحال بالنسبة لقطّاع الطرق، تتحرك القوات النظامية في مركبات تخلو من أي علامة، حيث يرتدي الجنود

نفس الأقنعة التي يضعها الإرهابيون، ويقومون بالإغارة على المنازل الخاصة وينهبونها في الليل، كما يقومون بإعدام الناس دون محاكمة. ويحتجزون الرهائن، وحتى الجثث للحصول على الفدية. إنهم ينظمون عمليات التهريب، ويقدّمون الغطاء لها ولصفقات السوق السوداء بين الشيشان التي لا تخضع لسيطرة القانون والمناطق المجاورة. لا يمكن اعتبار هذا النزاع حرباً وحسب، وإنما نسخة شرسة من صراع المافيات، والتي تبحث فيها العصابات المسلحة عن المال والنفوذ في محاولة للبقاء على قيد الحياة.

في الواقع، يمكن بيع أي شيء وأي شخص في الشيشان. فالناس يفتشون في الأنقاض بحثاً عن الآجر وبقايا المعادن، وتتمّ سرقة النفط وضخه إلى جنوب روسيا، كما أنه يتمّ اختلاس أموال التعويضات. وللقتل ثمن، إذ يبيع المواطنون الروس الأسلحة والذخيرة للشيشانيين. (للمشككين أقول: لاحظوا أن كل رصاصة وقنبلة يدوية يستخدمها الثوار هي روسية الصنع؛ ففي الشيشان لا توجد مصانع أسلحة؛ والأراضي الروسية تحيط بالشيشان من ثلاث جهات، أما جورجيا فتحيط بها من الجهة الرابعة، والطرق إليها غير سالكة إطلاقاً عدا مشياً على الأقدام). السلام، أيضاً، له ثمن: فقد أخبرني ضابط رفيع المستوى في القوات الشيشانية الموالية لروسيا أن الروس أبرموا اتفاقات مع الثوار لتطبيق هدنة في مناطق جبلية معينة. وهكذا تشتعل المعارك في أحد الوديان، فيما يكون الآخر هادئاً، بالرغم من وجود المتمردين فيه.

لهذه الاتفاقيات - والحدود المبهمة - تأثيراتها على العلاقة المعقّدة بين القوات الروسية الاتحادية وحلفائها من القوات الشيشانية غير النظامية. كان العديد من أفراد المليشيا المحلية الذين ينضمون إلى الروس، إن لم يكن معظمهم، ثواراً من قبل. فبعضهم يتطوع مع المليشيا المحلية لأنهم تعبوا من تطرّف الثوار، ويتطوع البعض الآخر لأنهم لا يستطيعون إيجاد عمل آخر. لكن بالنسبة للعديد من الشيشانيين، الانضمام إلى الروس طريقة لجعل ما يقومون به قانونياً: حمل سلاح ونهب ما تبقّى من موارد الشيشان. تمثّل الوحدات غير النظامية بلباسها الأسود، وسياراتها التي تخلو من أي علامة فارقة، وسمعتها في الاختطاف والتعذيب مصدر هلع لمعظم الشيشانيين تماماً مثل الجنود الروس. ينظر السكان إلى العديد من رجال المليشيا الشيشانية بأنهم عملاء مزدوجون، وينتج عن مساهمتهم في القتال ضد الثوار نتائج متناقضة. في الواقع، عوضاً عن مساعدة روسيا في إنهاء الحرب، تسبّب قتال الشيشانيين ضد بعضهم البعض في نشر الفوضى في المجتمع الذي يتحزّب فيه كلٌّ لعشيرته. لقد فجّر هذا الأمر صراعات دموية لا تُعدّ ولا تُحصى مما سيضمن استمرار العنف لسنوات أخرى كثيرة، وهو ما سيرحب به المستغلون للوضع من كلا الجانبين.

ولم يتمّ التخلص من مشكلة قطع الطرق في الشيشان، كما قد يتوهم القوميون الروس. ولقد اتسعت هذه الظاهرة، وتنوعت أشكالها واتخذت نطاقاً وطنياً.

بالعودة إلى سنة 1994، بدت فكرة الحرب الجديّة سخيفة. وبدا من المستحيل للمراقبين الخارجيين أن تقوم روسيا - التي تتحرك باتجاه الديمقراطية - بتحريك جيشها الضخم ضد ما وصفه مسؤولوها بأنفسهم بأنهم بضع مئات من المجرمين. في جمهورية تمتد عبر إحدى عشرة منطقة توقيت مختلف، لا تشكل الشيشان سوى رأس دبوس، ويفوق تعداد القوات المسلحة الروسية لوحدها عدد سكان الشيشان مجتمعين. لقد رفض بعض الجنرالات الاشتراك في ما يسمّى "نزع سلاح تشكيلات قطّاع الطرق". وقد أوقف أحد الجنرالات قواته عندما اعترضت طريقه مجموعة من النساء الشيشانيات المسالمات. لقد ساد التوتر الأجواء لبضعة أيام، وبدا أن هناك ما يكفي من المنطق في روسيا والشيشان للابتعاد عن حافة الهاوية. وكان ما يزال هناك شعور بمحرّمات معينة لا يمكن

انتهاكها. فعلى سبيل المثال، قام طيارو القوة الجوية بقصف الطاعنين في السن والأطفال وأي عابري سبيل آخرين، والذين يُفترض أنهم مواطنون من نفس بلدهم.

على كل حال، من الصعب تبديد هذه الشكوك دُفعة واحدة، وسيصبح أي شيء ممكناً حالما تقصف الغارات الجوية الأولى شوارع غروزني المزدحمة. في الواقع، بدت تلك الغارات الجوية الأولى بريئة تقريباً لدى استعادة أحداث الماضي، كما لو أنها جريمة بسيطة مقارنةً بالتخلي الكامل عن المبادئ الأخلاقية الذي ظهر لاحقاً. لا يزال هناك وقت بين الانفجارات للشعور بالصدمة. ثم تسقط القنابل بسرعة كبيرة، ويختفي هذا الترف أيضاً. فيصبح المستحيل ممكناً، وتنزلق الشيشان نحو الهاوية التي لم تخرج منها أصلاً.

إذاً، ما الأسباب الحقيقية وراء استحواذ الشيشان على تفكير الكرملين سنة 1994 ومجدداً سنة 1999؟ ما الذي تحتويه بقعة الأرض البعيدة هذه والتي دفعت بالقادة الروس للغرق ليس مرة وحسب وإنما مرتين في ذلك المستنقع العسكري والسياسي؟ هناك جوابان في كلتا الحالتين، يرتبط أحدهما بالأمن القومي والاعتبارات الجيو - استراتيجية، فيما يرتبط الآخر بالمصالح الأنانية للحلقة الضيقة من سياسيي الكرملين.

لطالما تمتعت الشيشان ومنطقة القوقاز حولها بأهمية استراتيجية طوال قرون. إنها موطن العشرات من المجموعات العرقية غير المعروفة، ويقع القوقاز على تقاطع طرق بين آسيا وأوروبا، وقد كان دائماً محط أطماع الدول المحيطة به كإيران، وتركيا وروسيا على وجه الخصوص. ورغم أنه من المألوف الحديث عن *الحرب الأولى* في الشيشان بين سنتي 1994 - 96، و*الحرب الثانية* التي بدأت سنة 1999، إلا أن الحقيقية أن هاتين الحربين هما الأخيرتان في مجموعة من الصراعات التي امتدت لقرون طويلة وشملت المنطقة بأسرها، بما في ذلك قرنان من إراقة الدم الروسي - الشيشاني.

عند انهيار الاتحاد السوفياتي، ظهرت هذه القضايا الجيو - استراتيجية، التي كانت راكدة تحت السطح، إلى العلن من جديد. مع استقلال جمهوريات جنوب القوقاز، تحوّلت السفوح الشمالية للجبال إلى جبهات قتال مزعجة للروس. في تلك المناطق الشمالية، تحوّل الروس القاطنون هناك إلى عامل توتر عرقي داخلي، فيما أعلنت الشيشان استقلالها. لقد واجهت روسيا في مناطق الجنوب - جورجيا وأرمينيا وأذربيجان - منافسة دبلوماسية واقتصادية متزايدة من البلاد الغربية، خصوصاً فيما يتعلق بنفط بحر قزوين. وبالنسبة للبعض، كان النزاع الدبلوماسي الشديد حول تحديد مسار خطوط نقل النفط من بحر قزوين عاملاً رئيسياً في اندلاع النزاع في الشيشان. في الأصل، تمتد أنابيب تصدير النفط الرئيسية من حقول شواطئ أذربيجان الواسعة عبر شمال القوقاز.

يتمحور الخلاف حول النفط بشكل أساسي برغبة روسيا في القضاء على الانفصاليين في الشيشان لحماية مسارات تصدير النفط. لكن لطالما كانت تلك مجرد طريقة لتحويل الانتباه عن الهدف الحقيقي. كان خط نقل النفط الروسي (الذي تمّ استبداله الآن بخط أنابيب تدعمه الولايات المتحدة ويمتد من جورجيا إلى تركيا) عديم الفائدة، ومن السهولة بمكان إعادة رسم مساره ليلتفّ حول الشيشان المضطربة. فيما يخص النفط في الشيشان نفسها، ليس هناك سوى القليل. لقد تمّ تدمير البنية التحتية، بما فيها المصفاة الضخمة في غروزني، بشكل كبير ومتعمّد.

يعتقد البعض أن العامل الاستراتيجي الآخر المؤثّر في قرار شنّ الحرب كان خوف موسكو من انتشار ثورة الانفصال الشيشانية لتشمل باقي المنطقة، وصولاً حتى إلى تترستان في قلب روسيا. على كل حال، رغم أن درجات مختلفة من الاضطراب أصابت الجمهوريات العرقية السبع الصغيرة

في شمال القوقاز، لم تسعَ سوى الشيشان لنيل الاستقلال، فيما تبدو تترستان قانعة تماماً بالحكم الذاتي.

رغم ظهور الكثير من العوامل المثيرة للقلق في بداية تسعينيات القرن العشرين، إلا أن أياً منها لم يتحول إلى خطر داهم في أواخر سنة 1994 عندما قرر مجلس أمن الكرملين في عهد الرئيس بوريس يلتسن إرسال قوات إلى المنطقة.

لكن الوضع كان مختلفاً تماماً سنة 1999. من وجهة النظر الروسية، كانت منطقة جنوب القوقاز مستقرة، لكن إلى الشمال كانت الشيشان خارج نطاق السيطرة. لقد أصبحت تلك الجمهورية المهدّمة، المليئة بالعاطلين عن العمل، والرجال المسلحين، والتي تخلّى عنها العالم الخارجي؛ مثالاً لفشل الدولة. لم يكن الرئيس المنتخب أصلان مسخادوف، الذي فاوض على انسحاب القوات الروسية، قادراً على فرض سلطته. وتلاشى الدور التقليدي لوجهاء العشائر الذين يتقاسمون السلطة في زمن الحرب. وفي خضم كل تلك الفوضى، تبدو الجماعات الإسلامية المتطرفة، الوافدة حديثاً إلى الساحة، والتي تملك المال ونوعاً من الانضباط بين صفوفها، الوحيدة التي تملك زمام القوة. لقد ظهرت الشيشان في عناوين الأخبار على أنها عاصمة الاختطاف في العالم. وكان الصحفيون، ورجال الأعمال، وعمّال الإغاثة وكل من يدخل الجمهورية معرّضين لخطر كبير. لقد قتل المختطفون بضع رهائن، وكانت أفظع العمليات تلك التي طالت أربعة مهندسين (ثلاثة بريطانيين، ومواطن من نيوزيلاندا) والذين تمّ قطع رؤوسهم بعد شهرين من اختطافهم سنة 1998.

ساءت الأمور فجأة في صيف 1999 عندما قاد الزعيم العسكري شامل باساييف المئات من الشيشانيين إلى منطقة داغستان القريبة، ليدعم في الظاهر جماعات إسلامية ناشئة متطرفة. تعرض الشعب الروسي لصدمة كبيرة، لأنه للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات يتمّ إرسال جنودهم إلى معارك خطيرة مع الشيشانيين المخيفين، لقد بدت البلاد في حالة ضعف شديد في الأشهر الأخيرة من رئاسة بوريس يلتسن. ثم ودون سابق إنذار في أيلول، مزّقت سلسلة من الهجمات بالقنابل مباني سكنية في موسكو وغيرها من المناطق، والتي أسفرت عن مقتل 294 شخصاً. ولم تُعلن أي جهة مسؤوليتها عن الحادث، ولم يتمّ إلقاء القبض على أحد، ولم يتمّ التوصل إلى أي دليل ملموس، لكنّ أصابع الاتهام أشارت على الفور إلى: الإرهاب الشيشاني.

بالطبع، كان هناك حتى في هذه المرحلة مناقشات هامة ضد إرسال الجيش للقيام بغزو شامل آخر. ولم تكن تجربة الحرب الأولى، التي انتهت قبل ثلاث سنوات فقط، تسمح باللجوء إلى الحل العسكري. لقد فشلت الحرب الأولى عسكرياً، وأضعفت صورة روسيا في الخارج، وأعاقت إصلاح الخدمة العسكرية، وساهمت في تشريد الشيشانيين، وأذكت نيران الثورة الإسلامية. وبالرغم من هذه الدروس غير البعيدة، لم يتردد الكرملين. وكان الخيار الوحيد أمامه شنّ حرب أخرى، تسبب الدمار وتبوء بالفشل مثل الحرب الأولى.

لماذا؟ الجواب بسيط بالطبع، وهو أن الكرملين أخفق سنة 1994، وفشل في التعلّم من أخطائه سنة 1999. لكن، هناك سببٌ أكثر تعقيداً وأهمية، وللكشف عنه يجب الغوص عميقاً في سياسات الكرملين نفسها.

فيما يتعلق بالحرب الأولى، وفي سنة 1994، كان يلتسن في أدنى انحسار لحياته المهنية المليئة بالاضطرابات. ولم يعد الروس، الذين تحرروا من الوهم، يؤمنون بتلك الإصلاحات الاقتصادية والسياسية؛ وكان لديهم سبب وجيه لذلك. وقد استخدم يلتسن قبل سنة من ذلك التاريخ الدبابات لإنهاء العلاقات مع المعارضة في البرلمان. لقد أصبح الملايين في فقر مدقع، ونادراً ما أصبح يلتسن،

المثقل بالأمراض والشراب، يظهر في موقع المسيطر على الأمور. في نفس الوقت، كان هناك تحوّل يجري داخل أروقة الكرملين، حيث أفسح آخر حلفاء يلتسن السياسيين الليبراليين المجال لحاشيته المتشددة بما فيها حرسه الشخصي، والذين لا يتمتعون بخبرة كافية للإمساك بزمام الأمور.

لقد أصرّ هذا الفريق الجديد على استخدام القوة لإنهاء الثورة الشيشانية القومية، والتي تجاهلتها روسيا إلى حدٍّ بعيد خلال السنوات الثلاث السابقة. ولم يتمّ تحليل الموقف بشكل جيد، فيما كان وزير الدفاع بافل غراتشيف، الذي يجب أن تكون خبرته ومعرفته أفضل بهذه الأمور، متورطاً في اتهامات بالفساد، ومستعداً للموافقة على أي شيء. كانت كل الدلائل تشير إلى أن هؤلاء الرجال، الذين يتزعمهم يلتسن، يعتقدون أنها فكرة جيدة، وأن غزو الشيشان سيوضّح للبلاد بأسرها أن الكرملين ما زال ممسكاً بزمام الأمور، وأن يلتسن، الذي يلومه القوميون المتشددون على خسارة الاتحاد السوفياتي، لن "يخسر" سنتيمتراً آخر من هذه الأراضي. وإلى جانب إيمانهم بهذا المفهوم، كانت الحرب في الشيشان تبدو في عيون فريق يلتسن واقعة لا محالة.

بالطبع لم تجرِ الرياح بما تشتهي السفن، وتحوّلت الحملة الاستطلاعية الصغيرة المظفّرة إلى نزاع مع الثوار استمر واحداً وعشرين شهراً، وقضت على آلاف الأشخاص، وانتهت سنة 1999 بانسحاب روسي مُخزٍ واستقلال الشيشان في واقع الأمر. ورغم ذلك لم تتسبب الحرب بأذى حقيقي لصانعيها السياسيين والعسكريين في موسكو، وهي حقيقة مذهلة تساعد على شرح القبول بالغزو الثاني الذي جرى بعد ذلك بثلاث سنوات.

وجد الكرملين بقيادة يلتسن نفسه هذه المرة متورطاً في المزيد من المتاعب مقارنة بما حصل سنة 1994. وكان يلتسن مريضاً (مجدداً) سنة 1999، وغير قادر على الإمساك بالسلطة. لم تكن حاشيته الأخيرة تتمتع بأي شعبية على الإطلاق. ولم يعانِ البلد من انهيار قيمة الروبل وخسارة مدّخرات ملايين الناس في المصارف سوى حينها، إنها واحدة من أحلك الفترات التي عاشتها روسيا خلال عشر سنوات من محاولتها بناء اقتصاد السوق. وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، فقد أحس الروس بالهوان لرؤيتهم الناتو يقصف حليفتهم القديمة يوغوسلافيا لإخراج القوات الصربية من كوسوفو. في موسكو، كان البرلمان بصدد القيام بإجراءات قانونية لمساءلة الحكومة حول حرب الشيشان الأولى من ضمن أشياء أخرى، فيما كان المحققون في نيويورك وجنيف يبحثون في مزاعم عن اختلاسات، وحسابات مصرفية سرية، وتبييض مليارات الدولارات. هددت الانتخابات التشريعية، على نحو خطير، الكرملين وحلفاءه في كانون الأول 1999. وجرت في تموز 2000، انتخابات رئاسية بالغة الأهمية لاستبدال يلتسن.

مع تصاعد الغضب ضد يلتسن في طول البلاد وعرضها، واجهت مؤسسة الكرملين التي هيمنت على روسيا وأثرت خلال العقد الماضي الدمار. كان أكثر المعارضين فاعليةً عمدة موسكو يوري لوزكوف، والذي كان قادراً على ما يبدو على الفوز بأي انتخابات، وكان هناك اعتقاد حقيقي للمرة الأولى بأنه قد ينتهي الأمر برجال يلتسن في السجن. لقد شكل تعيين فلاديمير بوتين كرئيس للوزراء في آب، وهو رجل لا يملك قاعدة سياسية، أو خبرة اقتصادية، أو حتى شخصية جذّابة، محاولة للتأكيد بأن يلتسن ما زال يُحكم قبضته على السلطة. لكن حصلت بعد ذلك أحداث داغستان التي تمّ قصف المباني السكنية فيها.

عندها فقط برز نجم فلاديمير بوتين فجأة، وهو رئيس سابق لجهاز الاستخبارات الروسية. وبتحمّله مسؤولية عن العمل العسكري في داغستان، أصبح ذلك الخبير في الفنون القتالية، والحاسم

والقوي الشكيمة رجل الساعة. وبإظهاره بسالة الجندي الروسي، واستخدامه لغة عنيفة وفظة، أصبح بوتين يمثّل ضمير الأمة. لقد صرّح في خطبته الاحتفالية: "اقضوا على الإرهابيين في المنزل".

لم يحتج الروس الخائفون، والساخطون والمحبطون سوى للقليل من الإقناع بضرورة شنّ حملة عسكرية أخرى بلا رحمة في الشيشان. كان هناك تعطّش ضمن الجيش للثأر أيضاً. عانت روسيا من مشاكل عديدة في أواخر عهد يلتسن، منها الفقر، والفساد المستشري، وتلوث البيئة، وترهل القوات المسلحة وتراجع معدلات الخصوبة، لكن الروس كانوا ينظرون إلى الشيشان على أنها الجرح المتقرّح في الجسد المريض بأكمله. انطلقت الفكرة بضرورة "معالجة مشكلة الشيشان"، التي تعتبر المدخل لمعالجة باقي المشاكل بما فيها شعور البلد المزمن بالأهمية على الساحة الدولية. وبالمحصلة، ما الذي يمكن لدول الناتو، التي نحّت جانباً الاعتراضات الروسية عند قصف جمهورية يوغوسلافيا، أن تقوله عندما تشنّ طائرات موسكو حربها ضد الشيشان؟

كان الخطر الذي تمثّله الشيشان سنة 1999 يتطلب القيام بعمل عنيف ضدها. وبغضّ النظر عن أي أهداف سياسية، كانت الحجة الأمنية لخوض الحرب قوية، وبالتأكيد أكثر مما كانت عليه سنة 1994. ورغم ذلك لطالما تحوّل الاحتلال الكامل إلى كارثة. اقترح بعض القادة الأكثر رشداً إغلاق الشيشان بالكامل. وتقدم البعض الآخر بفكرة تقسيم الجمهورية، مع قيام روسيا باحتلال السهول الشمالية التي يسهل السيطرة عليها. ودعا أصلان مسخادوف المحاصر إلى إجراء مفاوضات، لكن اقتراحه ذهب أدراج الرياح، ونظراً لعدم تمكّنه من السيطرة على شامل باساييف، أعلن مسخادوف أن قواته أنهكها الإعياء. وبكل الأحوال، واظب الكثيرون في الشيشان على دعمه، على الأقل كانوا يدعمون أي شخص عدا باساييف أو القادة العسكريين المتطرفين الآخرين. كانت فكرة خوض مزيد من الحروب تؤرق الغالبية العظمى التي لم يتسنَّ لها الوقت الكافي للتعافي أخلاقياً ومادياً من الحرب الأولى. لم يشأ أحد في موسكو مساعدة مسخادوف أو أي قائد معتدل آخر، وبدأت الحرب بدعم حماسي من عامة الشعب الروسي.

تصبح التساؤلات حول الطموحات السياسية التي قادت إلى اندلاع حرب الشيشان الثانية أكثر إثارة للمتاعب عند البحث في أسباب غارة داغستان، والتي تبعها تفجير المباني السكنية.

ترسّخت الفكرة في موسكو بأن غارة داغستان والتفجيرات مرتبطتان مع بعضهما البعض مباشرة، ولم يكن قرار غزو الشيشان سوى ردّ فعل على ذلك. على كل حال، بدأت موسكو تخطط للهجوم على الشيشان قبل وقت طويل من تلك الأحداث. هذا ما أكّده سيرجي ستيباشين، الذي كان رئيساً للوزراء قبل تعيين بوتين في هذا المنصب في أواخر صيف 1999. طبقاً لتفسيراته، تمّ وضع الخطة الأصلية لغزو الشيشان في آذار، قبل وقت طويل من أحداث داغستان أو تفجيرات المباني السكنية، وكان يُفترض تطبيقها في ذلك الصيف. وبكلمات أخرى، أجبر الهجوم الشيشاني على داغستان على تأجيل الغزو الروسي لبضعة أشهر.

ربما يكون المقاتلون الشيشان، كما يقول باساييف، راغبين في إقامة الدولة الإسلامية المتطرفة، والتي تمتد إلى بحر قزوين، وقد أثاروا الروس ضدهم في سعيهم لتحقيق ذلك. ومن جهة أخرى، كان باساييف، الرجل العسكري، يعرف تماماً بأنه من الصعب تحويل جبال داغستان الجرداء (مقارنة بغابات الشيشان) إلى خطوط قتال ضد المروحيات والطائرات النفاثة الروسية. لهذا من المحتمل أيضاً أن تكون مشكلة داغستان مجرد هجوم قام به الشيشانيون لصرف الانتباه عنهم وكسب المزيد من الوقت قبل مواجهة الهجوم الروسي على أراضيهم؛ والذي جرى التخطيط له طويلاً.

يمكن أن تختفي الحقيقة بسهولة بين النظريات. وربما خطط باساييف لإبعاد القوات الروسية عن الشيشان، والقيام في نفس الوقت بمحاولة لزعزعة استقرار داغستان. وربما، طبقاً لبعض الشائعات في روسيا، تمّ خداع باساييف نفسه من قبل بعض القوى في موسكو التي تتظاهر بالصداقة له، والتي شجعته وموّلت تلك المغامرة على اعتبار أن إثارة المشاكل في داغستان ستجهز أرضية أفضل للحرب الجديدة في الشيشان. بشكل عام، يغض الروس الطرف لغاية الآن، بل ويسمحون بوجود مجموعات إسلامية متطرفة في جبال داغستان. ورغم أن غارة باساييف كانت واسعة النطاق، إلا أنها كانت بعيدة عن الأولى، حيث وقعت اشتباكات على طول الحدود الشيشانية - الداغستانية عند نهاية الحرب الأولى.

وفقاً لرئيس المجلس الأعلى للبرلمان الروسي، فإن أغرب ما شاب هذه المشكلة هو انسحاب حرس الحدود فعلاً قبل تنفيذ غارة باساييف. وبنفس درجة الغرابة، ما قاله شهود عيان كثيرون، ومن بينهم صحفيون، أن المروحيات الروسية حلّقت فوق الثوار الشيشان خلال انسحابهم من داغستان، ليس لمهاجمتهم بل لمواكبتهم.

تبدو التفاصيل الرسمية لعملية تفجير المباني السكنية أقل إقناعاً. وما جعل تلك الهجمات صاعقة هو تخطيطها وطريقة تنفيذها. كان مداها لوحده، إضافة إلى الطريقة الخبيرة التي تمّ تحضير المتفجرات بها لتدمير المباني مثل منازل من الورق، مرعباً. فوق كل ذلك، وقعت هذه الهجمات في قلب روسيا مباشرة ضد مواطنين نائمين عُزّل، مما أدّى إلى اندلاع موجة من الهلع، وحالما أعلنت السلطات على لسان العمدة يوري لوزكوف على التلفزة القومية أن الشيشانيين مسؤولون عن الهجمات، كان ردّ الفعل متوقعاً. وفي موسكو، انفجر الحقد الدفين وعدم الثقة بالناس ضد القوقاز وأي شخص من المنطقة، وخصوصاً الشيشان، واتخذ أشكالاً متعددة منها الإهانة والضرب والترحيل من المدينة. وخلال الليل، كانت العنصرية وحمى الحرب تجتاحان المجتمع الروسي.

رغم ذلك، لم تستطع الشرطة إلقاء القبض على مشتبه به شيشاني واحد، ولم تعلن أي جهة مسؤوليتها عن الحادث. وفي الحقيقة لم يكن أحد قادراً على التحدّث عن الفائدة من وراء مثل هذه العملية؛ ليس علناً على الأقل. لم تكن هناك مطالب، ولم يكن هناك تهديد بتفجيرات جديدة. وأنكر باساييف - الذي لم يخجل أبداً من إعلان مسؤوليته عن هجمات إرهابية، بما فيها اختطاف الرهائن في مدرسة بيسلان سنة 2004 - تورّطه في هذه المسألة. بالإضافة لما سبق، كانت التحقيقات الرسمية روتينية، ولم يتمّ البحث بشكل جدّي بين الأنقاض بحثاً عن الأدلة، أو القيام بأعمال التحري الأساسية الأخرى، ولم يكن ذلك مفاجئاً، لأن قائمة الجرائم التي لم تُكتشف في روسيا، بما فيها اغتيالات صحفيين وسياسيين ورجال أعمل بارزين، كانت طويلة وتتزايد باستمرار. لم يكن لدى الكثيرين ثقة بالشرطة. إذاً، كيف يمكن لرجال الشرطة عندها أن يقرّروا أن الشيشانيين وراء ذلك العمل بتلك السرعة؟

ثم حدث شيء في مدينة رايزن، والذي دعم ما كان لغاية تلك اللحظة عبارةً عن نظرية مؤامرة، إذ ظهر دليل يربط بين الاستخبارات السرية وتلك الحادثة، أو حتى الحملة على الإرهاب. كان دافعهم حشد الدعم للحرب التي يريدون شنّها.

تبدو العناصر الأساسية لحادثة رايزن كالآتي: رجل يعود إلى شقته متأخراً ذات مساء، ليجد غرباء يقومون بوضع أكياس كبيرة في قبو المبنى السكني الذي يقطنه. استدعى الرجل الشرطة حالاً التي اكتشفت أن تلك الأكياس تحوي متفجرات ومؤقتاً زمنياً للانفجار عند الساعة 5.30 صباحاً من اليوم التالي. واكتُشف فيما بعد أن من قام بوضع هذه الأكياس هم رجال الاستخبارات السرية. من

الطبيعي أن يكون هناك لغط في مثل هذه الحالات، لكن الاستخبارات السرية قدّمت توضيحاً قالت فيه إن الأمر برمته سوء فهم، وأن الأكياس غير مؤذية، وتمّ وضعها في المبنى لتدريب الدفاع المدني. إلا أن الشرطة المحلية كرّرت بأن ما وجدته لم يكن لعبة، وإنما متفجرات حقيقية. لم تتقدم التحقيقات أبعد من ذلك، ولم يتمّ إثبات أي من وجهتي النظر علناً. هل كان ذلك الساكن عبارةً عن مواطن يقظ؟ أم أنه منع، في الواقع، الاستخبارات السرية من تنفيذ مجزرة أخرى؟ لم تتمّ الإجابة عن هذين السؤالين أبداً.

كما يحدث غالباً في روسيا، قد تختفي الحقيقة في ثنايا الزوايا. وربما كان الداغستانيون وحتى باساييف وراء تلك التفجيرات. لم تستهدف التفجيرات الأولى المساكن المدنية ضمن أراضي روسيا، وإنما مبنى عسكرياً في داغستان. ويبدو هذا العمل في الظاهر من تنفيذ الثوار الداغستانيين أو الشيشانيين. وبالمحصلة، كان هؤلاء الثوار يقاتلون القوات الروسية في تلك المنطقة، وربما توغّلوا أكثر، وبشكل غامض، للقيام بتفجير المباني السكنية. لكن لا يمكن القول إن الاستخبارات السرية، أو الكرملين، بحثا في هذه الإمكانية وقاما بتلك التفجيرات. وربما لن نعرف الحقيقية أبداً، وربما لن يعرفها المواطنون الروس الذين اجتاحت دباباتهم الشيشان.

إلا أن ما كان شديد الوضوح هو المنافع السياسية التي حصل عليها كل من يلتسن وصنيعُه بوتين من وراء هذا الاضطراب.

سواء كان الأمر بمحض الصدفة أو مخططاً له، منحت التفجيرات يلتسن وما يسمّى **عائلته** من رجال الأعمال وأقربائه الأزمة القومية التي يحتاجون لها. ولم يكن الأمر بمثابة إعلان حالة الطوارئ، وإنما كان مبرراً للحرب ضد أقلية مكروهة، وهو ما حوّل أنظار البلاد عن مشاكلها الأخرى. في تشرين الثاني 1999، ومع إراقة الكثير من الدماء، تحوّل بوتين العديم الشأن إلى بطل، وارتفعت شعبيته من 1 إلى 50%، وكانت ترتفع نقطة أخرى مع كل ضربة تقوم بها القوات الجوية والبرية الروسية ضد الشيشان. وبدا إعلانِ استقالة يلتسن المفاجئ غداة رأس السنة الميلادية 1999 غير متوقع، لكن توقيته كان ممتازاً. وتولّى بوتين الرئاسة بشكل آلي، مع تحديد موعد للانتخابات المبكرة في آذار 2000. ووفقاً للدستور، يجب أن لا تزيد الفترة الفاصلة بين الاستقالة والانتخابات عن ثلاثة شهور، مقارنةً بفترة أطول بكثير في حال استمر يلتسن في منصبه لنهاية ولايته الدستورية. لقد مكّنت هذه الاستقالة بوتين من تفادي ما هو غير متوقع في الحملات الانتخابية الطويلة، وما قد يحدث في الشيشان خلال أشهر الصيف، التي تعتبر الأفضل للمقاومة. وفيما بدأ بوتين بتصريف أمور الرئاسة بالطيران إلى قاعدة روسية في الشيشان والإشراف على العمليات الحربية، كان يلتسن و**عائلته** قادرين على النوم بهدوء.

يبدو تنظيم أي حكومة لتفجيرات تطال المباني السكنية لأسباب سياسية منافياً للمنطق، لكن مع وجود مثل تلك الثغرات في الرواية الرسمية، لا يمكن تجاهل ذلك الاحتمال. بالتأكيد يجب عدم التغاضي عن تورط الاستخبارات السرية في تلك التفجيرات، وعن قسوة الكرملين بقيادة يلتسن. ومع الأخذ بعين الاعتبار قصف مبنى البرلمان سنة 1993، أو الحرب الأولى في الشيشان، هل يمكن تصديق أن الحكومة الروسية لم تكن قادرة على تفجير منازل الأبرياء؟ لقد قامت بمثل هذه التفجيرات من قبل، وهدمت آلاف المنازل في الشيشان خلال الحرب الأولى بما فيها العديد من الشقق في غروزني المليئة بالروس الذين لا حول لهم ولا قوة.

إذا عملت التفجيرات على إخراج يلتسن من السلطة، فإن الحرب اللاحقة تسببت بسقوط خليفته سياسياً.

في المراحل الأولى، صوّرت وسائل الإعلام الموالية للحكومة الروسية الغزو على أنه حرب خاطفة، وأن النصر بها سيعكس نجاح روسيا ورئيسها الشاب. بالطبع لم تستطع تلك الحملة الدعائية الاستمرار. واستعر القتال كما كان الحال خلال النزاع الأول، وكان لا بد من حصار غروزني وقصفها لأسابيع قبل أن ينسحب ما تبقى من الثلاثة آلاف مقاتل المدافعين عنها. وحتى عندها، كان من الواضح أن الحرب لن تنتهي بسرعة، لأن المقاومة انتشرت عبر الشيشان، وتصاعدت في الربيع، واستمرت بكل الأشكال الممكنة ليومنا هذا.

ورغم ذلك، لم يكن التأخر في حسم الحرب ليضرّ بأسهم بوتين المرتفعة، مع أن مثل هذه الحماقة السياسية والعسكرية ستعمل على إسقاط أي حكومة في العديد من البلاد الأخرى، أو على الأقل ستقسم المجتمع بشكل عميق، ويتحول الحزب الحاكم إلى الدفاع، كما حدث في الولايات المتحدة بعد الحرب على العراق. لكن بالنسبة للرئيس بوتين الواثق دائماً من نفسه، فإن الضرر الذي حدث والمتمثّل بالإصابات الكبيرة في صفوف المدنيين والعسكريين، والإرهاب، والتطرف الإسلامي والاستنكار الدولي، لم يكن بنفس أهمية استمراره في الحكم. لقد وضعت أحداث سنة 1999 الاستخبارات السرية ورئيسها بوتين في السلطة. كما أنها أنقذت يلتسن وزمرته من الملاحقة. وسمحت الحرب للرئيس بوتين بتطبيق نظام فاشي شامل. وسوّغت الحرب تفكيك وسائل الإعلام المستقلة، والتراجع عن الحريات الانتخابية، وزيادة الرقابة على المطبوعات، وأي أهداف حكومية أخرى يمكن وضعها في خانة "الحفاظ على الأمن". وصنعت حرب الشيشان بوتين، واستخدم بوتين الحرب لإعادة صنع روسيا.

تقع المسؤولية في مأساة الشيشان الحالية على عاتق العديد من الرجال المغرورين والذين يفتقدون للكفاءة، بمن فيهم القائد الاستقلالي جوهر دوداييف، رغم أن اللوم الكبير يجب أن يقع على بوريس يلتسن. وحقيقة أن الرئيس بوتين أصبح مهندس الحرب الثانية كانت نتيجة لسياسات يلتسن الخاطئة. وحتى إذا برهن الرئيس بوتين أنه أكثر قسوة من سلفه، إلا أن أفعاله وسياساته تتطابق معه بشكل أساسي. إنه ببساطة يحاول بجهد أكبر.

من الواضح أن الرئيس بوتين ليس الرجل القادر على إنهاء الحرب. ويبدو أن مقياس الفشل لديه غير قادر على الدخول في عقلية جندي كي جي بي (الاستخبارات السوفياتية). وفي إحدى زياراته السرية السريعة إلى الشيشان، قال الرئيس بوتين من علٍ متن مروحية أن أنقاض غروزني تبدو مروّعة. ولا يحب الرئيس بوتين مناقشة هذه المسائل عادةً، كما أنه لا يتلقّى في مؤتمراته الصحفية النادرة أسئلة عن الشيشان، وعندما يفعل ذلك ينفعل بشدة على غير العادة. كان هذا البيان الوجداني حول غروزني صريحاً بشكل استثنائي، لكنه غير مناسب وساذج من رجل مسؤول بشكل كبير عن هذا الدمار.

كان من المفروض بالرئيس بوتين أن يوسّع من نظرة الحقيقة الخاطفة تلك فوق غروزني، وأن ينظر إلى جيشه، وإلى ما تبقى من المجتمع الشيشاني، وقرى الجبال، ومساكن المصابين، وصفوف الثوار. وإذا استطاع بوتين رؤية كل الشيشان، وليس فقط جزءاً منها، سرعان ما سيفهم ما حدث، حتى إذا كان أفضل وصف يستطيع إطلاقه على الوضع أنه مروّع. وحتى في مثل هذه الحالة، فقد رأى بوتين الكثير، ويستطيع المرء القول إن أنقاض غروزني مرآةٌ لعقدٍ من سياسات الكرملين المدمّرة. ولكن لا يبدو أن الرئيس قد اكتشف هذا المنطق، فالحرب بالنسبة له انتهت، وعملية إعادة الإعمار تأخذ مجراها، وأي شيء آخر غير هذا غير مسموح به.

يبقى السلام غير ممكن في غياب تقديرات موثوقة. وعلى كل حال، ورغم مقتل مسخادوف اللاعب الوحيد في هذه الأحداث الذي دعا باستمرار إلى المفاوضات، يجب عدم اعتبار مأساة الشيشان عصيّة على الحل. ويجب الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يتمّ تخصيص سوى القليل جداً من الموارد لإحلال السلام هناك، مقارنة على سبيل المثال بما تمّ تخصيصه للنزاع المحدود في إيرلندا الشمالية، هذا إذا نحّينا جانباً تلك الموارد التي تمّ تخصيصها ليوغوسلافيا السابقة. ولم يكن هناك أي وقف مشترك لإطلاق النار في الحرب الثانية. وبصرف النظر عن الاتصالات السرية المبكّرة، لم تجرَ أي محاولة للتفاوض مع المقاومة المسلحة. وكان الكرملين يقول لسنوات أنه لم يتبقَّ من يتكلم معه، في حين أنه بالتزامن مع ذلك لم يتجاوب مع أصلان مسخادوف، وقام بعدها بقتله.

ما الذي يمكن مناقشته؟ توقف معظم الشيشانيين عن التفكير في الاستقلال كهدف لهم، فهم لم يعودوا بحاجة لرموز الآن، كما أنهم توقفوا منذ وقت طويل عن الاعتقاد بإمكانية الانفصال. وهم يحتاجون لضمانات في مجالي الحياة وحقوق الإنسان، ويرغبون بأن تتمّ معاملتهم باحترام، كما أنهم ينشدون العدالة، ويحتاجون لمساعدة كبيرة: طبية، ونفسية، ومالية وعملية. ويحتاجون للعون لتحقيق الاستقرار أثناء إعادة البناء. ومن غير المنطقي أن لا يتمكن الناجون الشيشانيون في هذا العقد، أو سلالاتهم، من القول بفخر إنهم مواطنون في الفيدرالية الروسية. ولطالما كان الشيشانيون واقعيين فيما يخص موقعهم الجغرافي، ويمكن لحل وسط للقضية الرئيسية أن يحفظ كرامتهم ويعكس الحقائق الطبيعية.

تبدو حاجات روسيا الأساسية مماثلة. وتُظهر صناديق الاقتراع باستمرار أن الروس لا يهتمون بقتال الشيشانيين، وأن نطاق التعصب القومي يقع خارج هذه الحرب البشعة. في الواقع، إن كل ما يحتاج إليه الروس هو الأمان؛ أي نهاية التفجيرات الإرهابية واختطاف الرهائن. ولا تعني أرض الشيشان نفسها الشيء الكثير لمعظم من يعيش خارجها. يشتاق الروس، رغم كل شيء، إلى العيش في دولة قوية مستقرة. وكان يبدو أن الحرب الثانية تعد بذلك، لكن الوعد كان خاوياً، وإذا أمعنتم النظر في الغطاء الذي صنعه نظام بوتين الشمولي، ستجدون أن روسيا ضعيفة تماماً كما كانت أيام يلتسن.

يجب على الروس أن يدركوا أنه ليس لديهم خيار سوى محاولة بناء سلام قوي، أو الخضوع للمرض العُضال المتمثّل في الحرب المستعرة إلى ما لا نهاية.

ربما تكون هذه الأهداف صعبة، لكن الأصعب عدم تحقيقها.

يمثّل التطرف لدى كلا الطرفين المتحاربين عقبة كبيرة بالطبع أمام المفاوضات، وهو الأمر الذي تفاقم نتيجة لموت مسخادوف. يوجد على الجانب الروسي الكثير من المهتمين بالحرب لتحقيق مصالحهم الخاصة. هناك أعداد متزايدة من المتطرفين على الجانب الشيشاني، الذين لا تقبل أي حكومة روسية التفاوض معهم.

يدّعي الكرملين، في الواقع، أنه يقاتل *الإرهاب العالمي* في الشيشان، وليس الانفصاليين أو أي ثوار قوميين آخرين. ورغم تضخيم وجهة النظر هذه، إلا أنها فشلت لفترة طويلة في إثبات مصداقيتها في الغرب، الذي يرى فيها حرباً داخلية، وليس جهاداً مستورداً. على كل حال، إن التعتيم الإعلامي الشامل تقريباً المفروض من قبل موسكو جعل تمرير هذه الرسالة أسهل بكثير، بعد أحداث 11/9، منح الرئيس الأميركي جورج بوش موافقته غير المشروطة على مثل هذه الأعمال. لقد كان ذلك بالطبع مقابل تغاضي الكرملين عن نشر قوات الولايات المتحدة في آسيا الوسطى السوفياتية

سابقاً وأفغانستان. لكن منذ تلك اللحظة، بدأ قادة العالم، وصحفيون ومحللون، والذين لم يزر الكثيرون منهم الشيشان، في تغذية النظرية الخاطئة بأن الشيشان جزء من ظاهرة القاعدة.

ما هي الحقيقة؟ من ناحية، يشكّل المتطرفون الإسلاميون في الشيشان مجموعات مسلحة، ويتمتعون بدعم كبير من الجيل الشاب. إنهم يتلقون مساعدات خارجية ضخمة مما يعني امتلاك القوة والقابلية لتنفيذ هجمات إرهابية. ومن ناحية أخرى، لا يتمتع الإسلاميون المتزمتون بأي دعم من المجتمع الشيشاني الذي تهيمن عليه تقاليد صوفية محلية، وهو ما يعني عدم إفساح المجال لأي وافد خارجي، ومن النادر الذكر أن الشيشان من الناحية العملية مكان ليس من السهل على المرتزقة أو المتطوعين بلوغه. ولا وجود في الحقيقة لشيء يشبه الحدود الباكستانية مع أفغانستان. ولا يمكن عبور الحدود الجنوبية مع جورجيا سوى في أوقات محدودة من السنة، وحتى عندها لا تستطيع سوى مجموعة صغيرة من المتمردين التسلل. كما أن أرض الشيشان صغيرة للغاية، وستحتاج مجموعة صغيرة من الثوار إلى أن تكون على دراية كبيرة بالمناطق المحلية حتى تستطيع دمج العديد من الأجانب بين صفوفها. يضاف إلى ذلك أنه لا يوجد دليل مؤكد على تورّط ملحوظ للشيشانيين في قتال قوات الولايات المتحدة في أفغانستان أو العراق من أي مصدر مستقل. وللتاريخ: ليس بين المواطنين الروس الثمانية المحتجزين في *معتقل غوانتانامو* أي شيشاني.

ولا تبدو الخطوط الفاصلة بين الفصائل الشيشانية العديدة واضحة من الناحية العملية. وقد يكون أحد المتطرفين الإسلاميين ببساطة شخصاً لم يرَ خلال حياته كلها سوى الحرب. وربما يستطيع المرء الاستماع إلى أحد الثوار الأكثر اعتدالاً وهو يطلب المساعدة الغربية دون جدوى، والذي يربط بين روسيا وبين الاحتلال. عادة، يكون هذا المتطرف فقيراً، مُحاطاً بالعنف واليأس، ومن السهل عليه ردّ الأمور إلى أسباب دينية. لكن على الأرجح أن أفعاله تستمد جذورها من الانتقام، أو القومية وليس من التوجهات الدينية، بغض النظر عن الولاء لبرنامج القاعدة غير الواضح.

يبقى الاحتمال المرعب أن يهيمن المتطرفون على المقاومة المسلحة بعد موت مسخادوف، الذي يمثّل كل الإسلاميين المعتدلين والقوميين العلمانيين. إذا حصل هذا الأمر فسيكون كارثياً بالنسبة لروسيا، وبالنسبة للشيشان على وجه الخصوص. قبل سنة 1994، اشترك القادة الانفصاليون، مثل كل الشيشانيين، مع الروس بالعيش في الاتحاد السوفياتي السابق. كانوا يتحدثون الروسية جيداً، ويعرفون الثقافة الروسية، ويخدمون مع الروس في الجيش السوفياتي، كما أنهم قاتلوا مع الروس ضد إخوانهم المسلمين في أفغانستان. إلا أنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أضحت طموحات الشيشانيين الكامنة واضحة للعيان. واليوم، لقي القادة الأوائل حتفهم أو تمّ نفيهم وملاحقتهم قضائياً، وانخرط خلفاؤهم في الحرب، وهم لا يعتبرون أي شيء متطرفاً. ويبدو الإرهاب الإسلامي واحداً من توقعات الكرملين التي تحقّقت.

لا يبدو مثل هذا الخطر مرتبطاً بالشيشان وحدها. فالسياسات القاسية، والفساد، وفقدان النظام القضائي المستقل، وتراجع الديمقراطية تنتشر في شمال القوقاز بأكمله، وهي التي كانت تعتبر مشاكل خاصة بالشيشان وحدها. في أنغوشيا، تمّ إقصاء الرئيس المحلي المحبوب رسلان أوشيف من منصبه لإفساح المجال أمام أحد زملاء الرئيس بوتين في الاستخبارات. حيث تقع الاشتباكات النارية بين الجنود الروس والمتمردين كل أسبوع تقريباً. لقد أشعلت مجزرة اختطاف رهائن مدرسة بيسلان التوتر مجدداً بين سكان أوسيتا الشمالية والأنغوش، وزعزعت ولاء الأوسيتيين التقليدي للدولة ذات الهيبة، وتعاظم قلق السلطات في كاباردينو - بالاكاريا من نشاط الإسلاميين المتطرفين بحيث تمّ إغلاق جميع المساجد عدا واحد فقط. أما في داغستان، فأصبحت السياسات والأعمال أكثر

عنفاً وفساداً، مما قلل أحياناً من دور قوانين روسيا الاتحادية. ولا يمكن مقارنة نشاطات الجماعات الإسلامية المتطرفة هناك بتلك الموجودة في الشيشان، والتي تعتبر منطقة تحتوي على كل الشروط الواجبة لانتشار التطرف الديني والسياسي.

في الغرب، يمكن مشاهدة وجهات نظر أكثر واقعية حول التكلفة الباهظة التي تدفعها الشيشان بعد حادثة بيسلان. لقد أظهرت التغطية المباشرة المرعبة لاستيلاء الإرهابيين على المدرسة، والإخفاق التام لعملية الإنقاذ بوضوح مدى عمق المشكلة في هذا الجزء من العالم. ولم يُعر أحد كبير اهتمام لادعاءات الرئيس بوتين حول المؤامرات العالمية. وسرعان ما تمّ كشف زيف التقارير عن وجود أعداد كبيرة من العرب وحتى الأفارقة بين محتجزي الرهائن. لقد أثار فشل الرئيس بوتين الواضح في الوصل بين تلك الكارثة والفوضى التي سادت الشيشان خلال السنوات العشر الأخيرة الشكوك، ولم تتضمن مطالب محتجزي الرهائن، والتي تمّ حجبها عن عامة الشعب الروسي، أي عناصر *جهادية*، وإنما تمحورت حول انسحاب القوات الروسية من الشيشان. كان ردّ فعل الرئيس بوتين على تلك الأزمة عندها بأن أعلن وضع حدّ لانتخابات المحافظين المحليين وتقييد عمل البرلمان الذي لا يتمتع أصلاً سوى باستقلالية محدودة، مما أثار استغراب المجتمع الدولي.

ترى أعداد متزايدة من المراقبين الآن أن تصرف الرئيس بوتين في الشيشان يشبه إلى حدٍّ بعيد تصرفاته في المناطق الأخرى كافة، ومنها القضاء على منافسه المحتمل، ميخائيل خودركوفسكي الفاحش الثراء، وإغلاق وسائل الإعلام الحرة، ودعم التصويت للحكومة في أوكرانيا وللديكتاتور البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو. لكنّ الأمر الذي يبعث على الدهشة أنه لطالما اعتبر الشيشان نموذجاً شاذاً في بحث روسيا عن الاستقرار والديمقراطية، رغم أنه أحد أهم الأسباب في تدهور روسيا العسكري، والسياسي وحتى الأخلاقي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وليس على الهامش أبداً. كانت الشيشان السبب في قطع بوريس يلتسن العلاقات مع المطالبين بالإصلاح والديمقراطية، وهي السبب في انتخاب الضابط السابق في الاستخبارات السوفياتية "كي جي بي" فلاديمير بوتين رئيساً للبلاد، وهي السبب في تخلي القوميين المتطرفين عن أحلامهم في لعب دور مركزي، وهي السبب في فشل إصلاح القوات المسلحة.

يعتقد الروس بشكل كبير أن الشيشان مسألة ثانوية. ويصبح هذا الأمر أسهل عندما تُخفي وسائل الإعلام حقيقة ما يجري، بغض النظر عن الخراب الذي حل بغروزني والعديد من القرى الشيشانية الأخرى، وقبور عشرات الآلاف من المواطنين والجنود الروس. لكن يجب مواجهة هذه الحقائق في نهاية المطاف. ولطالما وصف الروس المرهقون طموحهم الوحيد بالعيش فيما يدعونه بلداً *طبيعياً*. لكن حتى يجابهوا الأفعال التي حدثت باسمهم، ستبقى هذه الرغبة المتواضعة بعيدة المنال.

الوضع الحقيقي في الشيشان عصي على فهم الروس العاديين والكثير من الأجانب اليوم. لم يعد يزور ذاك البلد سوى قلّة فقط من الصحفيين الأجانب. ويذهب المراسلون الروس، باستثناء مراسل أو اثنين يمتلكان الشجاعة الكافية، إلى هناك ليكونوا بوقاً للحكومة. تنقل مواقع الإنترنت كل وجهات النظر، لكنها لا تقدّم سوى القليل من الحقائق. تكمن الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة في السفر إلى داخل الشيشان والحديث مع الشيشانيين العاديين، لكنّ هذا الأمر بالغ التعقيد ويتطلب وقتاً طويلاً، وقد يكون خطيراً أحياناً.

في مثل هذا الجوّ، قد لا يجد المرء أفضل من إعادة قراءة أدب تولستوي، الذي قدّم منذ قرن مضى عدداً من الدروس البالغة التأثير حول روسيا والشيشان، والتي تستحق قراءتها من جديد.

وربما ينجذب القارئ إلى مشهد شهير في رواية **حاج مراد** حيث تدّمر فيه القوات الروسية قرية شيشانية.

لم يكن الجنود الذين وصفهم تولستوي في تلك الرواية أشراراً، وإنما كانوا يؤمنون ببساطة أن هؤلاء السكان يستحقون العقاب، إنه واجبهم، والذي ربما كان تلخيصاً للموقف الاستعماري القائل إن الناس الذين يدخلون الإمبراطورية "يفهمون بالقوة فقط". إنها نظرية قديمة جداً، وهي اليوم مفعمة بالنشاط في أذهان الروس فيما يخص الشيشان كما كان الحال بالنسبة لأسلافهم في القرن التاسع عشر.

يدعى البطل في تلك الرواية الخاصة **بتلر**، وهو شاب محبوب تقدّم له حرب الشيشان المغامرة والمجال للهروب من ديونه في **سانت بطرسبرغ**. ولا تحرّك مشاركته في عملية لتدمير إحدى القرى أي نوازع أخلاقية. ينفّذ جنوده مهامهم كما لو أنهم يجمعون الحطب أو يقطفون المحصول. إنهم ينجسون البئر والمسجد، ويطعنون فتىً صغيراً بالحراب، ويطلقون النار على الماشية، ويدمّرون أشجار الفاكهة وأكداس التبن، ويحرقون المنازل. لا تعتبر هذه الأفعال جرائم في نظر الروس. وتكون مهمتهم في ذلك اليوم إقناع الشيشانيين في القرية للتحول ضد قائد المقاومة الإمام شامل، والطلب إليهم الانضمام إلى دولة روسيا العظمى.

إنه مشهد تكرر (وما زال يتكرر) عدداً لا يحصى من المرات في قرى وبلدات الشيشان خلال العقد الماضي، مع التحول المعاصر نحو استخدام بنادق الكلاشينكوف والطائرات الحربية. إلا أن المهمة تبقى نفسها: إقناع الشيشانيين بأنهم مواطنون روس.

لهذا لا بد أن يكون الروس المعاصرون مهتمين بوصف ردة فعل القرويين الشيشانيين بعد مغادرة القوات العسكرية. وفي ضوء هذا، قد يفهمون سبب عدم انتهاء تلك المهمة بعد عشر سنوات على إرسال يلتسن للجيش للمرة الأولى إلى هناك، والتي قد تدوم إلى الأبد. ويستحق المشهد أن نقتطفه كاملاً:

"اجتمع كبار السن في مسجد القرية وجلسوا القرفصاء على أعقابهم ليناقشوا الوضع. ولم ينطق أحد بكلمة كراهية تجاه الروس. كانت مشاعر الشيشانيين، كباراً وصغاراً، أقوى من الكراهية، إنها لم تكن كراهية بقدر ما كانت رفضاً لاعتبار أولئك الكلاب الروس بشراً. ساد الشعور بالاشمئزاز، والتقزّز، والذهول من القسوة البالغة لتلك المخلوقات لدرجة أن الدافع لقتلهم - مثل الدافع لقتل الفئران والعقارب السامة والذئاب - كان غريزة طبيعية مثل الحفاظ على النفس".

لم يكن لدى القرويين سوى خيارين: إما البقاء على نفس الحال وإعادة إعمار ما بنوه سابقاً بمشقة بالغة، والذي تمّ تدميره بسهولة ويسر، وتوقّع مواجهة نفس الأمر في كل دقيقة؛ أو العمل خلافاً لقواعد دينهم والاستسلام للروس بالرغم من التقزّز والاحتقار الذي يشعرون به تجاههم.

بعد أن صلّى كبار السن، قرروا بالإجماع إرسال مبعوثين لطلب المساعدة من شامل، وبدأوا مباشرة بإعادة إعمار ما تمّ تدميره.

تبليسي 2005

تمهيد

دارغو، الشيشان

جلس شامل باساييف، البطل الشيشاني، والرجل الأول على لائحة المطلوبين في روسيا، أمامي وأشعل لفافة تبغ من نوع مارلبورو. وكنا في ساحة مليئة بالغبار على طرف دارغو، وهي قرية ضائعة عند سفح جبل كثيف الأشجار في القوقاز، بعيداً عن خطوط القتال. ورغم ذلك كانت تحوم فوقنا طائرة حربية على ارتفاع شاهق لتذكّرنا بالروس.

كان باساييف يرتدي بذلة مموهة باهتة الألوان، ويضع رقية إسلامية في خيط أسود ثخين حول عنقه. وكان يحتضن بندقية تستعملها القوات الخاصة الروسية مزودة بكاتم للصوت، ويشرب شاياً أسود محلّى بكمية كبيرة من السكر في كوب مصنوع من التنك. وجلس بالقرب منه حرّاسه الشخصيون: رجال طوال القامة، بوجوه قاسية ملتحية؛ وجوه من عصر آخر يرتبط بالكتاب المقدّس. كانت صدورهم تمتلئ بالقنابل اليدوية، ومخازن ذخيرة الكلاشينكوف، والخناجر القوقازية الطويلة المسماة*كنزال*.

خيّم الصمت التام عندما بدأ باساييف بالكلام، وهو يمتلك لحية كثيفة، وعينين داكنتين، كما أنه صغير الحجم بشكل مثير للدهشة. إنه الرجل نفسه الذي شق طريقه قبل أسبوعين إلى قلب مستشفى في بلدة بدنفوسك الروسية، واحتجز 1500 شخص كرهائن لتطبيق وقف إطلاق نار بالقوة في الشيشان، ونجا بفعلته. إنه المجرم (بحسب التعريف الروسي) الذي استخدم البشر الأبرياء دروعاً له، والذي حوّل مستشفى إلى ساحة قتال. ولكنه أيضاً الرجل الذي خدع الجيش الروسي، وأجبره على إيقاف حربه. إنه الملك في دارغو.

ويضحك باساييف قائلاً: "لقد أظهرنا لهم قوتنا"، ويضحك الجميع معه. ويلعب باساييف دور الإرهابي الشهير. إنه رجل ثرثار، ومضطرب، وقد ألقى خطاباً سياسياً فيه الكثير من الغرور في لحظة، وتباهى بما حققه في الحرب في اللحظة التالية. لكن، سرعان ما هدأت مظاهر الشجاعة، وتوقف عن الحديث عمّا حققه في بدنفوسك، أو حتى عن هذه الحرب القاسية. وعاد إلى مثله الأعلى شامل الأسطورة، المحارب الإسلامي الذي قاد صراعاً لمدة 25 سنة ضد جيوش القيصر في القرن التاسع عشر. تحدّث عن القمع الذي قام به الشيوعيون. واستعاد، فوق كل هذا، الحدث الذي غلّف الشعب الشيشاني بأكمله مثل الكفن: الترحيل الجماعي الذي قام به ستالين سنة 1944، والذي طال كل رجل وامرأة وطفل إلى آسيا الوسطى. ذلك الترحيل الذي لم ينجُ منه واحد من بين كل ثلاثة مبعدين.

بدأ باساييف بالقول: "عندما هجّرنا ستالين، استولى الروس على منازلنا الفارغة، واقتلعوا حجارة قبورنا واستخدموها في رصف الطرق، والجسور، وحظائر الحيوانات". كان صوته هادئاً، لكنه مليء بالكراهية. وبالطبع ما الذي قد يكون أكثر فظاعةً بالنسبة لشعب يعتبر الأسلاف بمثل أهمية الأحياء، والذين يرفعون أنفسهم عن مقاعد سياراتهم احتراماً عند المرور قرب المقابر؟ لقد قام السوفيات بتفكيك المئات وربما الآلاف من شواهد القبور، فقط لإهانة وإذلال الشعب الشيشاني. مات ستالين، وعاد الشيشانيون إلى أرضهم في النهاية، وحالما سنحت لهم الفرصة، جمعوا كل الحجارة مجدداً وبنوا نصباً تذكارياً، وحديقة للموتى في قلب غروزني. لقد استعادوا كرامتهم.

ثم اندلعت هذه الحرب. دماء جديدة، وعنف جديد. ويقول باساييف: "عندما اجتاح الروس غروزني، فتحوا نيران دباباتهم على النصب التذكاري، وأخذ الجنود الحجارة من المقابر الموجودة على التل المطل على "الخان ـ قلعة"، وبنوا مراحيض لمعسكرهم".

حدّق باساييف بالأرض مطولاً من قبل، خلال المزاح، لكنه كان ينظر آنذاك مباشرة إلى عيني: "أرادوا إخضاع الشعب بأكمله، وتحويلنا إلى عبيد لهم، لكننا لن نتحمّل مثل هذه الإهانات بعد الآن. لقد قاتل آباؤنا وأجدادنا حتى الموت في سبيل ذلك أيضاً. نحن أيضاً يشرّفنا الاستمرار بالقتال".

من السهل نسيان لعنة التاريخ تحت تأثير سحر جبال القوقاز. فالقمم تختفي عادة في أشهر الشتاء، ويصبح وجودها غير مرئي، مثل الضريبة، ويأمل المرء دائماً في إلقاء نظرة خاطفة. في

أحد أيام شباط، وبعد فترة تقنين استمرت أسبوعين أثناء عملي لصالح وكالة الأنباء في الشيشان، استطعت تجاوز الجرعة الزائدة من الطين، والدماء، وبرودة الحرب. وقرب الحدود، انفرجت السماء الرمادية القاتمة بشكل غير متوقع، وظهر القوقاز إلى الجنوب منا. أشار سائقي الشيشاني إلى **كازبيك**، وهي ثاني أعلى قمة في السلسلة، وضحكت بابتهاج. وبدت قمة الثلج الدائم ضخمة، ناصعة البياض، وشعرت بالارتياح لثانية واحدة فقط، وأصابني الدوار، وبدا كأن الحرب لم تقع أبداً. لكن هذه لم تكن سوى زيارتي الثالثة فقط إلى الشيشان، وقد تعلمت درساً قاسياً وهو أن القوقاز الروسي قد يبدو مثل حديقة، لكنها حديقة سامة.

وتمتد الجبال إلى مسافة بطول كوبا، أي 1100 كيلومتر، وهي تفصل المنطقة بين بحر قزوين والبحر الأسود بشكل مستقيم، مثل ضربة السيف. إلى الجنوب يقع **ممر القوقاز**، وتشكّله جمهوريات أرمينيا، وأذربيجان، وجورجيا التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي السابق، وإلى الشمال، تقع جمهوريات شمال القوقاز الروسية السبع التي تتمتع بالحكم الذاتي، وربما تكون المنطقة الأكثر تنوعاً عرقياً على كوكب الأرض.

تبدو قرية ما في إحدى الجمهوريات التي تتمتع بالحكم الذاتي مثل داغستان أو أنغوشيا بعيدة هذه الأيام، لكن لطالما كان شمال القوقاز، وسيبقى، عين العاصفة الجغرافية - السياسية. ومنذ القديم حتى عهد المغول، وهي فترة تمتد أكثر من 2000 سنة، استخدمت القبائل الآسيوية القوقاز كجسر بين آسيا وأوروبا. وأصبحت الجبال عندها عنصراً استراتيجياً هاماً بين الإمبراطوريات الروسية، والفارسية، والعثمانية. واليوم، تقع المنطقة على مشارف احتياطيات النفط الضخمة في بحر قزوين، وهي إحدى آخر المصادر العالمية الكبيرة غير المستثمرة، والتي من المحتمل أن تتحول إلى خليج عربي آخر في القرن الحادي والعشرين ومسرح لصراع دولي شرس.

كانت أولى زياراتي إلى شمال القوقاز في صيف سنة 1994 إلى الشيشان، التي أعلنت الاستقلال من جانب واحد. لم يأخذ الكثيرون هذه الخطوة الانفصالية للجمهورية على محمل الجد عندها. لم تكن الجمهورية مشهورة عندها سوى بالفوضى، والجريمة، والأوبرا الهزلية. لقد شعرت مباشرة بأنني وصلت إلى دولة غريبة، وهي بالتأكيد ليست جزءاً من نفس بلد **سانت بطرسبورغ** و**سماره**.

عندما اندلعت الحرب في ذلك الشتاء، كان من المتوقع أن يضع الجيش الروسي حداً سريعاً لثورة هؤلاء الناس البسطاء. إلا أنه وبدلاً من ذلك، لقّن المقاتلون الشيشان الروس درساً مرعباً منذ اليوم الأول للحرب، والتي يقول عنها الكثيرون إنها أسوأ من تجربة السوفيات في أفغانستان. ردّ الروس بتسوية غروزني، المدينة التي يقطنها 40.000 شخص، بالأرض. وفعلوا الشيء نفسه لكل القرى الواحدة تلو الأخرى. لقد كان الأمر خارج القدرة على الاستيعاب.

وقال الرئيس بوريس يلتسن إنه: "يفرض النظام الدستوري"، لكنّ يوماً واحداً في غروزني كان كافياً لإدراك أن شيئاً عميق الجذور يأخذ مجراه. لطالما كانت الشيشان المكان الذي تنطلق منه لعنات التاريخ والانتقام من عقالها. كانت المعارك تجري في نفس المواقع تماماً، وباستخدام نفس التكتيكات، ونفس الشعارات التي كان يتمّ استخدامها قبل 100 أو 200 سنة. لدى الشيشانيين قول مأثور: "يحاولون اجتياحنا كل 50 سنة، لكننا سنقاتل حتى النهاية"، وقد تمّ ترديده حتى أصبح شعاراً. لكنه حقيقي بشكل مخيف. كل 50 سنة.

ماذا عن بقية شمال القوقاز؟ رغم عدم وجود ثورات انفصالية مسلحة أخرى، إلا أن القوميات المسلمة الأخرى مثل **أديجي** و**أفراس** لديها قواسم مشتركة كثيرة مع الشيشانيين، تاريخياً وسياسياً.

لقد نفّذ ستالين نفس الترحيل الجماعي ضد الأنغوش، والكاراشاي، والبالاكار. لم تكن قصص تلك الشعوب معروفة فعلياً سواء في روسيا أو خارجها. لكن هل تعتبر تلك الشعوب أنها عالقة في براثن التاريخ، أم أن جمهورياتها قد أصبحت أقاليم روسية بحتة؟ وهل الشيشان تشكل الاستثناء الوحيد، وتمثّل الهفوة التي تحدث لمرة واحدة فقط؟

انتقلت من عاصمة داغستان **ماكشكالا** التي يوجد فيها مزيج عرقي لا يُصدّق، إلى جبال كاراشاي - شركسيا، وإلى قرى الدراويش المسلمين في أنغوشيا وشجرة الآلهة في أوسيتا الشمالية. في البداية، لم ألحظ سوى التنوع القبلي واللغوي، والحدود الداخلية. لكن عندما تجمّعت الأجزاء، انبثق عنها طراز خاص بتلك المنطقة. لم يعد شمال القوقاز مجرد منطقة روسية أخرى، وإنما البقايا المضطربة من إمبراطورية. من الواضح أنه حصل تغيير كبير منذ عهد القياصرة، لكن التشكيلة الأساسية - المتمثلة في المجموعات العرقية الصغيرة المنتشرة في كل مكان، والتي تقاتل للاحتفاظ بخصوصيتها الثقافية وحتى الفيزيائية - لم تتغير قط. غادرت المنطقة مع سؤال أخير، هل سينتهي النزاع، وهل سيلتقي شمال القوقاز وروسيا على أرضية مشتركة؟

اليوم، تشمخ مآذن المساجد المبنية حديثاً فوق أسطح المباني، رغم أن السوفيات اعتقدوا سابقاً أنهم استأصلوا الدين. في أمسيات الصيف الهادئة، يدعو صوت المؤذن الهادئ باللغة العربية إلى الصلاة، ويظهر رجال كبار السن ذوو لحى بيضاء مع عصي منقوشة لتساعدهم على المشي في آخر الطريق، ويمشي خلفهم أطفال يافعون يرتدون قبعات بيضاء، هؤلاء الأطفال يكونون قد تلقّوا لتوهم دروساً في الدين والإيمان. داخل المسجد، تحتجب النساء خلف ستارة تفصلهن عن الرجال، ويرتدين ملابس أنيقة وأغطية للرأس، ويركعن على سجاجيد صلاة. لا ينطق أحد بكلمة روسية واحدة، ومهما كانت الجمهورية التي تتمتع بالحكم الذاتي - من داغستان، إلى كاباردينو - بالاكاريا أو أديجي - فإن المشهد ذاته. تقول الخريطة إنها الحدود الجنوبية للاتحاد الروسي، ولكن هذا الكلام نظري. في الحقيقة، عندما يدخل المرء إلى تلك المنطقة يكون قد غادر روسيا منذ وقت طويل إلى العالم القديم، والمأساوي لجبال الله.

الفصل الأول
المنطقة المتشابكة

لماذا هي متشوقة للعودة إلى الوطن؟ إنها ترى الجبال نفسها من الحصن كما كانت تراها من قريتها - وهذا كل ما يريده هؤلاء المتوحشون.
من بطل من زماننا، للكاتب ميخائيل ليرمنتوف .

1. أرض الشر

مطار فنوكوفو، موسكو.

يعتبر مطار فنوكوفو، **الواقع خارج موسكو، البوابة إلى شمال القوقاز. من هنا تغادر كل الطائرات المتجهة إلى** غروزني، ستيفاربول، ماكشكالا، وفلاديقفقاز. **يمتلئ المطار بالباعة، والمسافرين الذين يصطحبون كميات ضخمة من الأمتعة، والمتسولين، والكلاب الشاردة وحمّالات المرضى. الشيء الوحيد تقريباً الذي يزين المطار هو لوحة جدارية كبيرة في حمّامات الرجال. تغطّي اللوحة معظم الجدار، وتظهر فيها عدّة ديناصورات غاضبة مع خلفية من الجبال والبراكين. تطير في الأجواء طائرة تجارية صغيرة بنوافذ صفراء ينظر منها المسافرون، إنها تمثّل شرنقة هشّة من الحضارة فوق عالم جبلي بدائي. بالنسبة لأولئك الذين يقضون لحظاتهم الهادئة الأخيرة قبل التوجّه إلى القوقاز، قد يكون هذا بمثابة الإنذار لهم؟!**

تعرفني النساء عند البوابة من رحلاتي السابقة إلى الشيشان، لطالما كنا نتجاذب أطرف الحديث. هن تربية سوفياتية حقيقية، إذ لا يكترثن للقادمين الجدد عند بوابة المغادرة الرثّة (المخصصة للأجانب فقط)، ويهززن أكتفاهن استخفافاً ويلتفتن بعيداً عند أي طلب. لكنني أحببت أولئك النسوة حقاً. إنهن حنونات، ويتضايقن من اضطراري للذهاب إلى غروزني، **ويدعونني *الفتى المسكين*. ويكررن دائماً نوعاً من الأناشيد المملة، ويسمحن لي باستخدام هواتفهن، وتغمرهن السعادة فعلاً إذا أعطيتهن هدية صغيرة مثل قطعة شوكولاته.**

تمتلئ الأحاديث بالمزاح، إلا أننا نتفادى الحديث عن الشيشان. في أحد الأيام، وخلال رحلتي السادسة، تمّ توجيه سؤال لي عن رأيي في الشيشانيين. ولم أنبس ببنت شفة، كما أنني لم أرغب بذلك حقاً؛ لأن لا فائدة ترجى. في كل مرة أفتح فيها فمي، كان صديقي يُسارع إلى قول جملة أخرى. كان لديّ انطباع بأن الأمر مكبوت منذ زمن طويل جداً.

إن الشيشانيين كسالى، وهذا ما أستطيع قوله بثقة - إنهم كسالى. كل ما يريدونه هو الهيبة، والأسنان الذهبية، والملابس الأنيقة، والسيارات الفارهة والكثير الكثير من الأطفال. إنهم لا يعرفون شيئاً سوى السرقة والخداع. الشعب الوحيد الذي عمل بجد في الشيشان هم الروس. أولئك الذين بنوا كل المنازل كانوا من الروس. أما كل ما يقوم به الشيشانيون فهو السرقة. إنهم إرهابيون، ومجرمون. تسيطر عصابات المافيا على الأمور هنا. والأشخاص الصادقون البسيطون أقلّية بين الشيشانيين.

كنت أرى مجرمي القوقاز يأتون ويذهبون عبر هذا المطار طوال الوقت. ورغم أنهم لا يعملون، إلا أنهم يعيشون بشكل أفضل منا نحن الروس. كيف يحدث هذا؟ نحن الروس عمّال مجتهدون، ونكدّ طوال حياتنا مقابل كوبيكات **(جزء من الروبل) قليلة، ومع ذلك يعيش الشيشانيون أفضل منا. الشيشانيون، والأرمن والجورجيون كلهم سواء. إنهم يأخذون منا، ولا ينتجون شيئاً بأنفسهم. حبذا لو شاهدتم كيف كنا نعيش في روسيا في الأيام الغابرة، في ظل حكم الشيوعيين. لم يكن هناك شيء على رفوف المتاجر. هل تعرفون لماذا؟ لأن كل شيء كان يذهب إليهم، إلى القوقازيين.**

في الظاهر، يبدو شمال القوقاز مثل العديد من المناطق الأخرى التي تقطنها أعراق غير روسية، والتي عانت لعقود من **الروسنة** (فرض الروسية). تبتعد البلدات الرئيسية عن النمط السوفياتي حيث نجد الشوارع العريضة التي تحيطها الأشجار، والمباني السكنية القاتمة اللون حول

الباحات، والساحات الرئيسية المقفرة المسمّاة **لينين** والمباني الحكومية الموحشة المبنية من الخرسانة. الروسية هي اللغة الرسمية، فيما تبدو المدارس وكل ميادين الحياة الأخرى المختلفة سوفياتية الطراز. ولكن الروسنة تتوقف هناك، ويبقى شمال القوقاز فخوراً جداً بتمايزه.

إن خرائط المنطقة متداخلة للغاية، وتمتد لتشمل تضاريس شمال القوقاز كله بجمهورياته السبع الصغيرة التي تتمتع بالحكم الذاتي: داغستان، الشيشان، أنغوشيا، أوسيتا الشمالية، كاباردينو - بالكاريا، كاراشاي - شركسيا، وأديجي. ورغم أنها تقع على السفح الجنوبي من الجبال، وضمن أراضي جورجيا، إلا أن منطقتين أخرتين هما أوسيتا الجنوبية وأبخازيا تعتبران جزءاً من عالم شمال القوقاز. لا يستطيع أحد أن يحدد بدقة عدد المجموعات الموجودة في تلك المنطقة، والتي يبلغ عدد سكانها مجتمعين 5.3 مليون نسمة. ويقول البعض إن عددها 40، فيما يقول آخرون أنها تصل إلى 100. في داغستان وحدها، والتي تبلغ مساحتها مساحة مقاطعتين إنكليزيتين، ويبلغ عدد سكانها حوالى 1.8 مليون نسمة، يبلغ عدد المجموعات العرقية الصغيرة المعترف بها رسمياً 34، ويتكلم معظمها لغات لا تفهمها الجماعات الأخرى. لكن حتى ذلك الرقم يخفي خلفه جزءاً كبيراً من هذه المسألة المعقّدة لأن مجموعات عديدة تنفصل بدورها إلى مجموعات فرعية أصغر، ونجد هذا أحياناً في قرية صغيرة واحدة، وتتكلم كلٌ من تلك المجموعات لهجتها الخاصة. تشكّل قومية **آفار** العدد الأكبر بين سكّان داغستان، مع 500.000 - 600.000 نسمة، لكنهم يتوزّعون على 14 فرعاً منفصلاً لكل منها أسماء ولهجات خاصة به.

بالانتقال شرقاً من البحر الأسود إلى بحر قزوين، نشق طريقنا عبر التضاريس المتداخلة، حيث تبدو الملامح الروسية أكثر ظهوراً في الطرف الغربي لكل من أديجي، وكاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالكاريا وأوسيتا الشمالية. يهيمن العرق الروسي هناك مع نسبة تصل إلى 68% في أديجي، والتي تمّ تهجير غالبية سكانها بعد الغزو الروسي قبل 130 سنة مضت. في الجمهوريات الغربية الأخرى، يمثّل الروس حوالى ثلث السكّان. إلى الشرق في أنغوشيا، والشيشان وداغستان، يمثّل شعب شمال القوقاز الغالبية العظمى. قد يقضي المرء أياماً بطولها دون أن يرى روسياً واحداً، وربما يكون الإسلام هنا أكثر حضوراً من أي جزء آخر من الاتحاد السوفياتي السابق.

تقول الأسطورة أنه عندما خلق الله العالم، وزّع الأمم على كوكب الأرض، ولكن تلك الشعوب اختلطت فوق ما يدعوه الرحّالة القدماء **جبال اللغات**. وقد كتب **بلني** أن الإغريق القدماء كانوا يحتاجون إلى 300 مترجم لإدارة أعمالهم في شمال القوقاز، ولاحقاً "قمنا نحن الرومان بإدارة شؤوننا بمساعدة 130 مترجماً". وتبقى الجبال لغاية اليوم مخبراً لغوياً حيًّا. في داغستان، قد تتكلم قرية ما لغة آفار، والقرية التالية دارغن، والتالية ليزغن. توجد ثلاث مجموعات لغوية رئيسية: التركية، كما هو الحال في كاراشاي وبالكاريا؛ والأوروبية - الهندية، كما في أوسيتا، والمأخوذة أصلاً عن الفارسية؛ ولغات القوقازيين الأهلية الحقيقية. تنقسم لغات القوقاز، والتي لا يمكن إيجادها في أي مكان آخر من العالم، إلى فرعين: الشرقية مثل الشيشانية، والأنغوشية، والعديد من اللغات الداغستانية، ولهجات أديجي الغربية التي يتكلمها سكان أديجي، وكابارد والأبخاز.

في الحقيقة، استطاعت هذه اللغات الازدهار بعد قرن من الروسنة، رغم أن إحداها قد تصبح عديمة الجدوى بعد مغادرة القرية التي تتكلم بها، وتمثّل مجتمعة إرادة أهل شمال القوقاز في البقاء على قيد الحياة. لقد أظهر إحصاء سنة 1989 أن كل مجموعة تعرف لغتها الأم، ويتكلم معظمهم الروسية كلغة ثانية. المجموعة الأكثر ولاءً للغتها هي الشيشانية، حيث يتكلم 98% من الشيشانيين لغتهم الخاصة. يتكلم الأنغوش، والكاباردين، والآفار، والأديجي، والكاراشاي وما يزيد عن 90%

من سكان الجبال المسجلين رسمياً لغتهم بطلاقة. يعتنق سكان أوسيتا في غالبيتهم الدين المسيحي من ضمن شعوب الجبال، وقد ساعدهم ذلك على تبني القوانين الروسية بشكل أفضل من باقي الشعوب الأخرى. بالرغم من ذلك ما يزال 87% منهم يتكلم الأوسيتية بطلاقة. قد تبدو هذه الأرقام وردية، إلا أن العديد من أهل شمال القوقاز يتكلمون أشكالاً مشوّهة من لغتهم الأم واللغة الروسية. مع ذلك تبقى هذه النسبة جديرة بالملاحظة مقارنة بمن يتكلم اللغة الغاليّة في بريطانيا على سبيل المثال. ما تزال القوميات القديمة مثل الروتشول - وهم شعب داغستاني لا يتجاوز عددهم 20.000 نسمة - تتكلم لغاتها الخاصة وتعيش في أراضيها الجبلية فيما يشبه المعجزة.

كانت القبائل تنقسم في الماضي وفقاً للغة والوديان التي تعيش فيها، ولكنها تشترك في الثقافة القتالية نفسها، وفي الموقف ضد الاستعمار الروسي في أحيان كثيرة. يمكن رؤية الأحذية الجلدية الطويلة، والثوب الطويل الضيق عند الخصر الذي يدعى **شركسكا**، والقبعات المصنوعة إما من جلد الغنم الخشن أو جلد الحمل الناعم في كل أنحاء المنطقة. يحمل كل الرجال **كنزال**، وهو سلاح حاد وثقيل، يختلف من سيف قصير إلى خنجر طويل. لقد أصبح معظم سكان المنطقة مسلمين يعتنقون المذهب السني بمرور الوقت، مع وجود أعداد صغيرة من قوميات تاتس والآذريين الشيعة. لا يوجد من يعتنق المسيحية سوى أهل أوسيتا الذين يسكنون الجبال على طول ممر داريال. بكلمات أخرى، تحولت المنطقة التي شهدت نشوء العديد من الانقسامات إلى بوتقة انصهار. تشكّل الجبال حالة ذهنية منفتحة، ويُطلق على الناس الذين يعيشون هناك اسم **كورتسي** - وهي كلمة روسية تعني *سكان الجبال*.

تعتبر الجبال جزءاً مهماً من الروابط التي توحّد سكان الجبال في كل الجمهوريات السبع التي تتمتع بالحكم الذاتي. تعيش أكثرية السكان اليوم في السهول، إما في المزارع أو المدن. ورغم ذلك، ما تزال الرابطة الجبلية تشكل جزءاً هاماً في أنساب هؤلاء السكان. يمكن للمرء أن يلتقي، عبر كل تلك المنطقة، برجال يعيشون في المدينة، ولم يسبق لهم أن حلموا يوماً بامتطاء صهوة حصان أو العيش في قرية معزولة، لكنهم مع ذلك يتكلمون عن أقربائهم في الجبال. حتى شعب الأديجي الذي لم يعش في الجبال منذ القرن التاسع عشر عندما أجبره الروس على الانتقال إلى السهول، يعتبر نفسه جبلياً.

يصل متوسط ارتفاع تلك الجبال إلى 3600 متر فوق سطح البحر. ويرتفع جبل البروس 5642 متراً، وهو ليس الأعلى في القوقاز وحسب، وإنما يفوق ارتفاعه ارتفاع أعلى قمة في سلسلة جبال الألب **مون بلان** التي يبلغ ارتفاعها 4810 أمتار. في الصيف، تبدو الغابات المورقة عند سفوح الجبال، والتي تمتلئ بالطيور والحشرات، مثل الغابات الاستوائية. يمكن رؤية الذئاب، والدببة، والخنازير البرية، والنسور، والثيران والقطط البرية في بعض أجزاء تلك الجبال. لقد تسلقت مرة جبلاً شاهقاً في أديجي، وفاجأت زوجاً من الماعز البري، وهي حيوانات كبيرة وسوداء، ولها قرون ملتفة، والتي اختفت خلف الصخور في لمح البصر. في داغستان، تختفي سفوح الجبال في الظلمة، ولا يمكن مشاهدة سوى المنحدرات الشاهقة والصخور الشامخة في ضوء القمر، حيث لا توجد سوى الرياح. وتبقى الجبال مدهشة وساحرة حتى هناك. يساهم المناخ المعتدل في هبوب نسمات دافئة عبر الوديان التي تحدّها المنحدرات الشاهقة، ويكفي نهر واحد لري أشجار الحور وبساتين الفاكهة الجميلة.

تبدو ثقافة كورتسي متناقضة. ويسود الشعور بالفخر والاعتزاز منذ العصور الوسطى، رغم أن قطع الطريق يعجب الناس. كرم الضيافة أمر مقدّس، بالرغم من حتمية النزاعات الدموية. إلا أن

الأكثر أهمية هو تقديس الحرية من قبل الأفراد، والعشائر، والقوميات وكل شعوب شمال القوقاز. تُعتبر الحرية حقاً مكتسباً بالولادة، ولا بد من الدفاع عنها بكل الوسائل الممكنة بما في ذلك القتال وشنّ الحروب. لقد ساد شكل بدائي من الديمقراطية لقرون. يعتبر الشيشانيون أنفسهم *أحراراً مثل الذئاب*، ولا يخضعون لأي سيد سوى العائلة والعشيرة. لم يكن هذا معروفاً في روسيا قبل الثورة، وكان يوجد في مناطق غربية أخرى مجتمعات كهنوتية، لكنّ النبلاء ورجال الدين هم الذين كانوا ينتخبون القادة. في القبائل الأديجية - الشركسية الغربية كان هناك قواعد صارمة للطبقات الاجتماعية التي يحتل النبلاء المرتبة الأعلى بينها، ولكن كان باستطاعة العبيد تغيير أسيادهم بشكل طوعي، وكانوا يعيشون غالباً في راحة نسبية ويتمتعون بحرية الحركة، ووفقاً لجيمس بل، البريطاني الذي أمضى وقتاً طويلاً في أديجي خلال حروب القرن التاسع عشر، كان باستطاعة الرقيق شراء حريتهم مقابل 30 ثوراً، وكانوا يصبحون أحراراً في حال موت سيدهم.

بالنسبة للروس، يشكّل القوقاز مشكلة كبيرة للإمبراطورية. وقد تكون المنطقة جميلة، إلا أن الشعب مشكوك بأمره. يتمتع معظم القوقازيين بشعر أسود وعيون داكنة اللون وهذا ما يجعلهم معروفين للروس الذين يكرهون الغرباء، ولشرطة موسكو سيئة السمعة. ما علينا سوى نسيان كل التنوّع، لأن بشرة كل القوقازيين سوداء بالنسبة للكثير من الروس. الوصف الأكثر عنصرية هو ما يدعى "الصفات القومية للقوقازيين".

يعمل معظم القوقازيين في موسكو كباعة للفاكهة، ويجلسون خلف أكوام ضخمة من الفاكهة الخضراء، والصفراء، والحمراء والتي يعتبرونها هبة وطنهم الخصب. ويستمر تفوق هؤلاء السود على منافسيهم نظراً لحصولهم على دكاكين أكثر، وتقديمهم لخيارات أوسع وأسعار أرخص، وهو ما يسبب امتعاض الروس. يساهم التجار في إذكاء الشكوك العميقة حول جمع الثروة والتي غذّتها الخُطب الشيوعية حول المضاربة في الأسواق العالمية وتخريب الاقتصاد. يدعم باعة الفاكهة رجال أعمال غامضون يخترقون شوارع موسكو بسياراتهم بي أم دبليو ومرسيدس. تؤكّد الوجوه المقطّبة الجبين والثروة الخيالية مخاوف الموسكوفيين. بالطبع هناك أيضاً مجموعات من رجال الأعمال الروس، يضعون سلاسل ذهبية، ويرتدون قمصاناً سوداء، وترافقهم فتيات جميلات، ويركبون سيارات ألمانية. لكنّ القوقازيين يمثّلون عنصر تهديد كبير، وبغض النظر عمّا تقوله جنسياتهم، يبقون أجانب وغرباء. تظهر العنصرية لدى كلا الجانبين، وربما يكون القوقازيون مخادعين، وسارقين، وهمجيين إلا أن الروس جبناء، وشرسون، وملحدون. يمكنكم سؤال أي شخص عن ذلك. وقال لي أحد الشيشانيين بجدية: "الروس، من هم؟ إنهم غجر، ليس إلا. وليس لديهم أي شيء خاص بهم، ولهذا يأخذون من الآخرين. ولقد كان بوشكين من أفريقيا، وليرمنتوف اسكتلندياً، وكانت كل طبقتهم الحاكمة تتكلم الفرنسية".

ترسم الأخبار المصوّرة من شمال القوقاز مشهداً متواصلاً لعمليات اختطاف الرهائن، والتفجيرات، والنزاع العرقي الغامض. الجانب الآخر المقبول من القوقاز الذي وصل إلى غرف معيشة الروس هو الفلكلور، مثل العروض التي يؤدّيها الأطفال وهم يرتدون قبعات من الفرو، وقفطان الشركسك، ويضعون الكنزال. يتمّ عرض فيلم **السجين القوقازي** السوفياتي الساخر بشكل ثابت سنوياً، وفيه تظهر الأزياء المزركشة والتقاليد القوقازية الغريبة في اختطاف الزوجة، إضافة إلى كرم الضيافة. كان هناك محاولة جادة لصنع فيلم حقيقي عن النزاع مع روسيا في شمال القوقاز تحت عنوان **السجين القوقازي** أيضاً، وهو مأخوذ من قصة للأديب تولستوي، ويمتلئ بالقوالب الجاهزة حول شعوب الجبال. ورغم تصويره الرائع في جبال داغستان، وترشيحه لنيل الأوسكار

سنة 1997، إلا أن **السجين القوقازي** لم يبتعد عن نفس النمط القديم المتمثل في إبراز قطاع الطرق والفلكلور. لقد استخدم ممثلو الفيلم لغات محلية مع ترجمة إلى الروسية لإظهارِ المصداقية، وظهر أحدهم يتحدث اللغة الجورجية على أنه داغستاني. ولم يستطع الكثير من عشّاق السينما الروس معرفة الفرق، فقد كان الممثلون بالنسبة لهم يتحدثون بكلام أجنبي غير مفهوم.

لقد اختلطتِ مشاعر الكراهية هذه، غير المحددة أحياناً، بعلاقة حب طويلة الأمد. في القرن التاسع عشر، أُعجب القيصر ألكسندر الثاني بنضال الشيشانيين ضد جيوشه لدرجة أنه أتاح لقائدهم المهزوم شامل العيش براحة وكرامة في الإقامة الجبرية، وقد أصبح أحد أبناء شامل جنرالاً روسياً. وكان القائد الشيشاني الانفصالي المعاصر جوهر دوداييف جنرالاً سابقاً في القوى الجوية السوفياتية، وتولى قيادة قاعدة قاذفات جوية نووية. لقد أصبح شيشاني آخر، رسلان خاسبلاتوف رئيساً للبرلمان الروسي. وحتى الطاغية ستالين كان جورجياً من منطقة القوقاز.

لقد أُعجب شعراء وأدباء روسيا الكبار في القرن التاسع عشر ليرمنتوف، وتولستوي وبوشكين بالجبال وألوانها، والقبائل القوية. وقد كتب ليرمنتوف، في سن العاشرة، أن القوقازيين يشكلون مصدر خوف له. وفي سنة 1841، وعندما أصبح في سن 26، مات في مبارزة في بياتكورزك، وهو منتجع للمياه المعدنية يطل على الجبال التي لطالما أحبها. وبالنسبة لثائر مثل ليرِمنتوف، مؤلف الرواية الرائعة *بطل من زماننا*، كان شعب شمال القوقاز وتمرده على روسيا يمثّلان أكبر إلهامٍ عرفه في حياته. اعتبرت بعض كتاباته، مثل القصيدة الآتية، مدمّرة؛ فقد كانت الحرية موضوعاً خطيراً في بلد وُلد فيه ملايين الناس كرقيق مستعبدين وتُحيط بقيصره حاشية نخبوية.

الوداع يا روسيا الوضيعة،
يا أرض العبيد، وأرض الأسياد،
والملابس الزرقاء،
والحشود الخاضعة.
ربما سأجد خلف قمم القوقاز،
راحتي من الدموع،
ومن عيون القياصرة التي ترى كل شيء،
ومن آذانهم التي تسمع كل شيء.

وكان ليو تولستوي سعيداً لرؤية الجبال وسكانها. في قصته *القوقازيين*، استفاق أولنين النبيل الشاب القادم من موسكو في رحلته الطويلة التي قطعها في عربة تجرها الخيول إلى الشيشان ليشاهد القوقازيين للمرة الأولى ويصبح مفتوناً بهم.

"نظر إلى السماء وفكّر في الجبال. نظر إلى نفسه أو إلى فانوشيا، واستمر يفكّر في الجبال.
مرّ قوقازيان بجانبه، وكان كل واحد منهما يضع مسدسه في قرابه الذي يتأرجح خلفه،
وتبدو قوائم حصانيهما بيضاء... والجبال."

لم ينظر الروس في تلك الأثناء إلى أهل شمال القوقاز سوى على أنهم إما همجيين نبلاء أو قطّاع طرق. يبرز هنا نشيد ليرمنتوف بعنوان **هدهدة القوقازي** الذي يأمل فيه الشيشاني بأن ينام طفله بسلام، رغم أنه يبكي ويشحذ خنجره القاطع. كان القوقازيون مصدر إلهام لبعض أروع أعمال هؤلاء الأدباء، الذين لم يكونوا في النهاية سوى جنود للإمبراطورية وزوّار لبلدان جديدة. لقد قاموا بمحض إرادتهم بحمل قلم في يد، وسيف في اليد الأخرى، وقاتلوا لإخضاع الشعب الذي أحبوه كثيراً. في قصيدته **الجدال**، يتوقع ليرمنتوف بأن الغزو الروسي وفقدان سكان الجبال لحريتهم أمر محتّم. لقد كتب يصف الجيوش الروسية: "مرعبة، مثل غيوم تنذر بعاصفة، إلى الشرق، أقصى الشرق، إنهم يتدفقون". كان تولستوي يؤمن بالاستعمار، وقد تطوّع للمشاركة في العمليات

العسكرية سنة 1851. كان بوشكين خلال وجوده في الجيش ينصح معارضي الغزو الذي قاده الجنرال يرملوف في بداية القرن التاسع عشر قائلاً: "يجب أن يشعر القوقازيون بالإذلال لأن يرملوف قادم".

انعكست العلاقة المتشابكة مع ساكني الجبال على السياسات الروسية في المنطقة ونتائجها المتناقضة بشكل واضح. لقد مثّل نظام الجمهوريات التي تتمتع بحكم ذاتي ضمن الاتحاد السوفياتي السابق قمة هذه التناقضات، ونظراً لطبيعة نظام الحكم الاستبدادي الشامل للحكومة السوفياتية، كان من المتوقع أن تعلن موسكو شمال القوقاز جزءاً آخر من الدولة العظمى، ولكن عوضاً عن ذلك سمح الشيوعيون للجماعات العرقية المختلفة بإنشاء حكوماتها، ورموزها، وحدودها، وعواصمها الخاصة بها. من المفيد هنا التفكير - وهذا ما يقوله مخططو الحملات الدعائية دائماً - بأن السياسة السوفياتية، والدور الروسي بشكل عام، كانا خيريين، وأن الدولة قد وجدت طريقة لعيش الأقليات الموجودة فيها. لكن في الحقيقة، أثبت ذلك الحكم الذاتي العكس، وأظهر فشل السوفيات الأساسي في إنهاء الدور الاستعماري في القوقاز، وهو الفشل الذي ما تزال آثاره اللاحقة باديةً لغاية اليوم.

لقد أظهرت موسكو كرمها بالاعتراف بوجود أقليات تمثّل شعوباً مستقلة ليست من العرق السلافي، ولها هوياتها وتاريخها الخاص. لكن ذلك الكرم لم يتجاوز الحدّ الرمزي الأدنى الذي يهدف إلى إخفاء دولة بوليسية قاسية يحكم فيها الحزب الشيوعي كل شيء، والتي لم تكن القوميات الأخرى غير الروسية فيها موثوقة 100%. على سبيل المثال، وبالرغم من أن الاتحاد السوفياتي السابق شكّل طبقات نخبوية ضمن الأقليات العرقية، إلا أنه لم يسمح باختراق سيطرة السلافيين سوى في بعض الاستثناءات المحدودة. نعم، كان جوهر دوداييف جنرالاً سوفياتياً، لكنه كان أول شيشاني يصل إلى تلك الرتبة.

في الحقيقة، إن أوطان تلك الجماعات العرقية لم تكن تتمتع بأي حكم ذاتي، وفي نفس الوقت كان يتمّ تصنيفها بمقتضى القانون على أنها بلدان أجنبية. بكلمات أخرى، بقيت تلك الجمهوريات كما كانت أيام القياصرة: أراضٍ مستولى عليها تحكمها موسكو مباشرة كمستعمرات. تمثّلت المكافأة غير المتوقعة لهذا النظام - والّتي تُعطي انطباعاً خاطئاً هذه الأيام بأن نظام الحكم الذاتي خيري - في إجبار تلك الأمم الصغيرة على إلغاء الطبقات الاجتماعية وهو الأمر الذي حفظ هوياتها ولغاتها إلى درجة كبيرة. لقد تجلى الجانب المظلم من هذا الميراث بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في سنة 1991، إذ تجمدت العلاقات بين موسكو والسكان المحليين على ما كانت عليه في بدايات القرن التاسع عشر، وليس كما يجب أن تكون في أواخر القرن العشرين. ليس في هذه العلاقات أي نشر للديمقراطية أو تحرير من الاستعمار. إن فكرة مقاومة الفكر التي تبنّاها الشيوعيون والقياصرة تبدو ساكنة الآن، لكنها ما تزال كامنة في النفوس تنتظر الانطلاق في دورة دموية أخرى.

2. الثوّار

يمثّل فندق نارت في نالشك، عاصمة كاباردينو - بالكاريا، أحد الأحلام السوفياتية في الحداثة والذي تحوّل إلى رمز للتهكم والسخرية. بني نارت، كجزء من برنامج سياحي ضخم، من الزجاج والخرسانة بالكامل، ويشرف على الحديقة المركزية. يمكن تقريباً سماع ما يفكّر به مسؤولو الحزب: "سيكون هذا مشابهاً لما هو موجود في الغرب". لكن بعد مضي عقد على تبني *الشفافية* و*البيرسترويكا* (الانفتاح الاقتصادي والسياسي في روسيا)، يواجه نارت أوقاتاً عصيبة، ولا يبدو أنه سيستعيد عافيته. تبدو الغرف الضيقة الرثة بكسوتها الخشبية المزيفة، والسجاجيد المتسخة التي تمتد

من الجدار إلى الجدار، وأجهزة التلفاز المزاجية، فارغة، ببساطة لقد أغلقت عدة طوابق من الفندق، كما لو أنها ستكون مسرحاً لموت مأساوي. المطاعم الضخمة في أسفل البناء، المصممة لاستيعاب عدد كبير من الرفاق، مقفلة هي الأخرى، فيما لا تعمل كل المصابيح في قاعة الانتظار، أما موظفو الاستقبال فلا يجدون ما يشغلون به فراغهم. ورغم ذلك أحببت النزول في نارت، ليس لأن الخيارات الأخرى لم تكن خالية من الصراصير وحسب، وإنما لأنني كنت ببساطة أبحث عن مخلوقات **نارت**، وهم عمالقة أسطوريون كانوا يطوفون في شمال القوقاز كثوار، وأبطال وقطّاع طرق.

يغرق القوقاز في الأساطير والخرافات حتى دون مخلوقات **نارت**. ويقال إن جنة عدن موجودة في أبخازيا، وأن حمامة نوح استراحت على جبل **إلبروس**. وطبقاً لروايات مختلفة، تمّ تقييد البطل الإغريقي القديم بروميثيوس في القوقاز إما إلى جبل إلبروس أو كازبك بعدما سرق النار من الآلهة، وهبط جيسون على شاطئ جورجيا أثناء بحثه عن الصوف الذهبي. لكن مخلوقات **نارت** بالتحديد قوقازية، وهي كذلك منذ فجر التاريخ، وتربطها صلات القربى بكائنات **تيتان** الجبّارة في الأسطورة الإغريقية. ورغم أن أصل نارت مجهول، إلا أنها تُنسب لكل أمة الآن باعتبارها ميراثاً مشتركاً، وأسلافاً للجميع. تعيش تلك المخلوقات في القصائد الملحمية، وأسماء المحلات وفندق نالشك، لكنها تمثّل أيضاً رمزاً للثورة والبطولة في ذهنية شعوب شمال القوقاز.

هناك **نارت** بعين واحدة، ويدعى "عين الشمس" في الأساطير الشيشانية والداغستانية، وهناك **نارت** أوسيتا الذي يعيش في قصر تحت الماء، وهناك **نارت** الذي تسلّق جبل إلبروس ليستوضح غموض القمتين التوأمين، وهناك **نارت** الذي يجلب الرفعة والمجد، و**نارت** الذي يتسبب بالخراب والدمار. في واحدة من أشهر أساطير أديجي، قام الإله بتثبيت ذلك العملاق إلى جبل عقاباً على تمرده وعصيانه. في روايات أخرى، يذكر أن كلباً وزوجاً من الذئاب وضعوا لحراسته، وكلما قضم الكلب تلك السلسلة الثقيلة، كانت تتجدد وتصبح أثقل. وفي رواية أخرى يذكر أن نارت أديجي قيّد وسلط طائر لمهاجمته. لا يمكن تمييز أسطورة **نارت** تقريباً عن نظيرتها الإغريقية، التي يتمّ فيها تعذيب **بروميثيوس** إلى الأبد. ويناقش الباحثون اليوم توقيت ظهور كل منهما، رغم أن معظمهم يعتقد أن الإغريق الأوائل ربما رحلوا أولاً من شمال القوقاز إلى البلقان.

في رواية أخرى لعقاب **نارت**، يصرخ البطل بغضب، ويتسبب ذلك بعاصفة من البَرد والرعد، ويظهر البرق عندما يضرب العملاق سلاسله، وتتساقط حجارة ضخمة على سفوح الجبال، ويصبح السكان المحليون خائفين من أن يصيبهم غضب الإله أيضاً، ويقررون عدم إطلاق سراحه؛ إنهم يرفضونه. هل يمكن أن تكون هذه الأسطورة أصل **أبريغ**، الخارج عن القانون المنعزل في الجبال، الذي يُعجب به الناس ويخافونه في الوقت نفسه؟

لقد كان الأبريغ رجالاً غادروا قراهم إلى التلال لسبب أو لآخر؛ وكانوا عنيفين، وقساة، وربما أشراراً، ومُطارَدين وقراصنة. ورغم اضطرارهم للعيش كخارجين عن القانون، إلا أن الأبريغ كانوا يحظون بالاحترام، وكانوا يُعتبرون أبطالاً في بعض الأحيان. ورغم كونهم دمويين، وسارقين، إلا أنهم كانوا رجالاً جريئين ويائسين. كان العديد من الأبريغ مجرمين، أو قد يكون أحدهم اضطر للقتل دفاعاً عن شرفه أو شرف عائلته، وفرّ لتجنب الثأر. لكن عندما حصل الغزو الروسي، استمر بعض الثوّار في القتال لوحدهم في الجبال والوديان والغابات، وأصبحوا رمزاً للحرية، وكانوا أبريغ أيضاً. قد يكون مثل هؤلاء الرجال قاطعي رؤوس، لكنهم قد يكونون أيضاً مثل **روبن هود**، مدافعين عن الناس. كانوا يُعرفون باسم **قطّاع الطرق الشرفاء**.

يدعى أحد أشهر هؤلاء **زلمخان**، الذي مات في الشيشان في بداية القرن العشرين. تنتصب بقايا تمثال له مع حصانه خارج سيرزن يورت، وهي قرية تقع على سفوح جبال القوقاز تعرّضت لقصف المدفعية والطيران الروسيين سنة 1995. وقد أحب داخا كيسلطان، وهو مؤرخ محلي، هذا الموضوع؛ وأخبرني بأن تمرّد زلمخان بدأ عندما تحوّلت مشاجرة مع زعيم القرية الذي وضعته روسيا من أجل فتاة إلى صراع دموي.

"أسر الروس زلمخان ووالده واقتيدا إلى غروزني. والباقي غير مهم. واستطاع زلمخان الهروب بحفر نفق إلى خارج السجن، وعاش من يومها في الجبال، وتحوّل إلى أبريغ. كان ذلك في سنة 1901، وكان معروفاً من قبل الجميع، ويستطيع البقاء في أي مكان مع أصدقائه، الذين كانوا يخفونه ويساعدونه. لقد بدأ في القتال ضد الجنود الروس، الذين كان يُنظر إليهم على أنهم غزاة وكافرون مسيحيون. وكلما احتاج زلمخان إلى رجال، كان يستطيع إيجادهم."

"في أحد الأيام، بعث برسالة إلى عقيد في حصن كيزلاير الروسي قال فيها: "لا تختبئ مثل امرأة، تعال وقابلني في كيزلاير". ضحك الروس وقالوا: "كيف يمكن له الوصول إلى كيزلاير المحصّنة؟ وهكذا اصطحب زلمخان 60 رجلاً يرتدون الملابس القوقازية، ودخلوا مباشرة إلى كيزلاير وسرقوا البنك. قبل مغادرتهم، ترك زلمخان رسالة للعقيد يقول فيها: "لقد انتظرتك. أين كنت؟" حدث ذلك سنة 1907، بعدها عاد إلى الجبال ووزّع الأموال على شعبه، وأعطى بعضاً منها إلى اليتامى. أصيب بالمرض وهو شاب في العقد الرابع من عمره، وكان عليه رؤية أقربائه في شالي، إلا أن أحد أقاربه لأمه وشى به، فمات هناك وهو يقاتل."

يمثّل زلمخان حالة تقليدية: فهو مناهض للروس، وسارق بنوك، ويجيد استخدام السلاح، ولا يمكن التغلب عليه إلا أنه وقع أخيراً ضحية للخيانة. لكن الدفاع عن الأبريغ ليس سهلاً دائماً، ويعتمد ربما على الجانب الذي يناصره المرء، وهم في الغالب الأعم يرتبطون بقطع الطريق والسرقة. تقول إحدى الأساطير إن الله عندما وزّع الأغنياء على العالم كله، نسي القوقاز، وعندما أدرك هذا الخطأ، سمح للناس هناك بالذهاب إلى الجيران وأخذ ما يحتاجونه. ويقول ليرمنتوف في *بطل من زماننا*: "تجري السرقة في دماء هؤلاء الشركس (أهل شمال القوقاز). وسيسرقون أي شيء إذا سنحت لهم الفرصة. سيأخذون حتى الأشياء التي لا يريدونها لأن الأمر عندهم سيّان". في الواقع، كانت السرقة جزءاً من الحياة العامة في شمال القوقاز في القرن التاسع عشر. ولكن عمليات السطو تلك لم تكن عادية أو صغيرة، وإنما تشكّل غارة كاملة تدعى *نابغ*. في مجتمع القرن التاسع عشر، لم تكن مهاجمة الروس أو قرى الجماعات العرقية الأخرى واختطاف الماشية والرهائن تعني الحصول على البضائع التي لا يمكن تأمينها بأي طريقة أخرى وحسب، وإنما وسيلة للارتقاء بالمستوى الشخصي أيضاً. إن شأن العائلة يرتفع عندما يكون رجالها شجعاناً خلال الغارات وينجحون في سرقة الخيول، والأغنام والأشياء الأخرى أثناء التعرض لإطلاق النار. كلما زادت الأعمال البطولية الشجاعة، كلما زادت الغنائم، وهذا بالطبع يعني المزيد من الكرامة. إلا أن العائلة التي لا يوجد فيها رجال مقاتلون تفقد هيبتها، ويمكن مهاجمتها بسهولة.

ومثل نارت والذئاب، يفضّل ثوّار شمال القوقاز الأسطوريون والحقيقيون الموت بطريقتهم الخاصة. إنه جزء من هالة الأبريغ. لقد مات آخر أبريغ شيشاني مناهض للسوفيات سنة 1976. تقول الأسطورة أنه نزل من الجبال - حيث عاش لعقود - إلى مقبرة القرية في كومزومولسكوي، واستعدّ للموت. كان في العقد السابع من عمره آنذاك، وحيداً ومريضاً ولا يزيد وزنه عن 38 كيلوغراماً. تمّ التعرّف عليه وإبلاغ السلطات السوفياتية التي حاصرته في المقبرة وقتلته فيها، ولكن ليس قبل أن يتمكن من اصطياد ضابط الاستخبارات السوفياتية المكروه وبعض الجنود الآخرين.

عندما حاصرت القوات الروسية تسعة من الأبريغ في رواية تولستوي *القوقازيين*، قرروا أيضاً القتال حتى الموت، ولتفادي أي إغراء بالهروب، ربطوا أنفسهم ببعضهم البعض، وجهّزوا أسلحتهم وأنشدوا أغنية الموت.

لم ينقرض الأبريغ بعد، وخصوصاً في الشيشان، وهو المكان الذي اجتاحته الفوضى في بداية التسعينيات، وأصبح مرتعاً للخارجين عن القانون. أحد هؤلاء الأبريغ هو ألودي حمزتوف، المبتز الوسيم الذي استخدم ماله غير الشرعي في شراء أسلحة لدعم الدفاع الأسطوري عن بلدة أرغون ضد الروس عند بداية الحرب سنة 1994. مثل معظم الأبريغ، عاش ألودي ومات بسبب السلاح، فقد انتهى نتيجة لصراع دموي بدأ بقتله لرجل عجوز.

يعتبر البعض رسلان لابزانوف الشيشاني أبريغاً آخر، وهو سفّاح مخيف ينتقل مع جيشه الخاص في سيارات بي أم دبليو، وعربات الجيب اليابانية الصنع. لقد انشق عن جوهر دوداييف بعدما أصبح الأخير الرئيس الانفصالي للشيشان سنة 1991، وانتهى به المطاف بالعمل مع قوات الغزو الروسية. لكن مهما تكن الحقيقة حول لابزانوف، والتي تؤكّد كل الدلائل على أنها بشعة، فقد لعب دور الأبريغ، ومنح المال للفقراء من سكان قريته تولستوي يورت في شمال القوقاز، كما بنى منزلاً له على شكل قصر صغير، مع برج ومتاريس خرسانية، يحرسه حرّاس أشدّاء مزودون بمدافع رشاشة. عندما التقيته سنة 1995، كان لابزانوف يضع خواتم وأساور ذهبية ضخمة، بالإضافة إلى مسدسين، وخنجر كنزال، وبندقية آلية، ورشاش من نوع "عوزي" ومدفعاً رشاشاً على طاولته. كان يمتلك أيضاً غرفة مليئة بمعدات الفيديو. كانت زوجته النحيلة تضع تبرجاً أبيضَ ثقيلاً على وجهها، ربما كان لابزانوف الوحيد الذي يمتلك جهاز تكييف في كل الشيشان، وعندما سألته عن الفصيل الذي يدعمه في الشيشان، أجابني: "أنا إلى جانب الفقراء". لقد أصاب العنف لابزانوف أيضاً، واعتبره المقاتلون الانفصاليون خائناً، وقتله سنة 1996 أحد رجاله من مسافة قريبة في قلعة تولستوي يورت.

يتقن أهل شمال القوقاز استخدام الخيول في المعارك بفضل خبرتهم التي اكتسبوها عبر التاريخ من الأبريغ. ووصف جيمس بيل في ثلاثينيات القرن السابع عشر كيف تحوّل محارب عجوز أشيب من أديجي إلى مصدر فخر للعائلة.

"لم تكن أعماله البطولية مجرد سلب ونهب، فقد كان يذهب إلى الحروب بصحبة أولاده الخمسة (فقد أحدهم مؤخراً في الحملة العسكرية عبر كوبان)، والذي أجبر أكبرهم سناً على تدريب نفسه بمهاجمة جنديين بمفرده، لقد استطاع الشاب ذبح أحدهما وأسر الآخر".

بغضّ النظر عن كونهم قطّاع طرق، لطالما كان أهل القوقاز يتمتعون بثقافة خاصة ضاربة الجذور. وحتى قيام الثورة البلشفية، كان كل رجل يحتفظ بسلاح ناري في منزله، وكانت تتمّ تربية الأولاد على معرفة استخدام السلاح، ولم يكن الرجل يذهب إلى أي مكان دون سلاحه. كانوا يعتبرون أن خنجر كنزال "محكمة الاستئناف الأخيرة"، وتمّ نظم قصائد على شرفه. ويتقد هذا الحب اليوم، رغم أنه لا يظهر سوى بشكل متوار.

دعاني رجل عجوز في أعلى جبال داغستان، وتحديداً في مدينة **غوينب**، لتناول الغداء في منزله الواقع في زُقاق متفرّع من شارع الإمام شامل. كان سيد بوتين يبلغ من العمر 77 عاماً، وبطلاً من أبطال الحرب العالمية الثانية، إضافة لكونه مواطناً سوفياتي التربية بشكل كامل. وكان ما يزال يستخدم كلمة توفارش، أو رفيق، ويعتقد أن انهيار الاتحاد السوفياتي كارثة. في الحقيقية، لم يكن لديه الكثير ليقوله ضد الحكم السوفياتي، ولم يتطرق إلى الاضطهاد الديني، وترحيل أهل الجبال من

إخوته المسلمين، أو القمع السوفياتي الدموي لمحاولات القوقازيين نيل الاستقلال بعد الثورة البلشفية. كان رجلاً مخلصاً للعهد السوفياتي أكثر من الحكم الداغستاني. سألته قبل مغادرتي إذا كان يملك كنزالاً، لأنني اعتقدت أنه بسبب تقدمه في العمر قد يكون لديه قطعة أثرية مثيرة للاهتمام. وأخيراً، وبشكل غير مقصود، ضربت على وتر حسّاس بقولي: "القوقازيون يحبون أسلحتهم"، فأجابني: "هذا شأن مضى. لقد أخذوا ذلك. أخذ السوفيات كل شيء ولم يتركوا لنا شيئاً. لا كنزال، ولا بنادق ولا حتى بنادق صيد. هذا محزن يا توفارش".

بالرغم مما قاله سيد بوتين، لا يوجد نقص في الأسلحة اليوم في داغستان. فالمرء يستطيع شراء أي سلاح مشاة من الترسانة الروسية من السوق السوداء. في الشيشان المجاورة، وحتى قبل الحرب الأخيرة، كان يوجد سلاح على الأقل في كل منزل، وقلة هم الرجال الذين لا يعرفون كيفية إطلاق النار أو تنظيف البنادق، وأول ما يفتخر الآباء بإظهاره لضيوفهم هو مهارات الكاراتيه التي يتمتع بها أطفالهم. كان أحد الرجال الذين قابلتهم، وهو محارب في صفوف القوات الانفصالية، يجمع السكاكين لدرجة أنه صنع سكينه الخاص به. كانت تلك السكاكين ثقيلة وحادّة، ومنقوش عليها آيات من القرآن الكريم. كان جاره خبيراً في الفنون القتالية، ويمتلك سيفاً حاداً بمقبض مزدوج لدرجة أن المرء يستطيع حلق شعر ذراعيه به.

إذا كان الرجال في الماضي يمتلكون خيولاً سريعة وقوية، ويستطيعون امتطاءها مثل الآلهة (يعتبر الروس خيول كابارد من بين أفضل خيول العالم)، فاليوم يمتلك الرجال عدداً من السيارات السريعة قدر ما يستطيعون، وقد تخلّوا عن اللادا والسيارات السوفياتية الأخرى لصالح سيارات أفضل وأسرع، ويستطيع المرء القول إنه تمّ استبدال الرموز القديمة المتمثلة بخناجر كنزال والخيول السريعة ببنادق الكلاشينكوف وسيارات بي أم دبليو.

رأيت في الشيشان سيارات رولز رويس، وبورش، وليموزين أميركية سوداء والأكثر غرابة على الإطلاق سيارة شرطة أميركية أصلية، كاملة مع العلامات والأضواء، تلاحق الماشية الشاردة، يمتلك قائد أنغوشيا سيارة جيب هامفي خاصة بالجيش الأميركي، كما أن أحد المناظر المؤثرة فعلاً هو موكب سيارات قادة الجماعات العرقية في داغستان، والذي يبلغ حوالى 20، وتمثّل كل سيارة فيه جماعة داغستانية مختلفة، والذي مرّ عبر الشيشان للمشاركة في محادثات أزمة الرهائن سنة 1996. تنتشر سيارات المرسيدس، والبي أم دبليو، والكاديلاك وعربات الجيب اليابانية أمام منازل القرى والمزارع الموحلة، وتتميز بأبواقها القوية وأضوائها الساطعة. يقفز الحرّاس الشخصيون الذين يحملون رشاشات من السيارات قبل أن تتوقف تماماً، ويظهر المندوبون في بحر من القبعات المصنوعة من جلد الحمَل والمعاطف الأنيقة. يعتبر هؤلاء الرجال أكثر ثراءً من أسلافهم في القرن التاسع عشر، لكنهم يواجهون بعض الصعوبات في التعرّف إلى بعضهم البعض.

كان أحد رجال الأعمال، والذي يبلغ من العمر 24 عاماً، والذي التقيته في العاصمة الداغستانية **ماكشكالا**، يتحدث عن سياراته كل دقيقتين. وقال لي: "أمتلك في موسكو سيارة بي أم دبليو من الفئة السابعة، وهنا في ماكشكالا لديّ تويوتا لاندكروزر"، ووصف سيارة البي أم دبليو بأنها شيء رائع. وهو شاب ضخم البنية، تمتلئ أصابعه ومعصماه ورقبته بالذهب، وهو ثمرة ما وصفه "بالقليل من التجارة هنا وهناك". لكن المؤثر فعلاً أن لديه رمزاً آخر للجبال: "يعيش أهلي في أعلى الجبال، لن تصدق جمال وروعة الطبيعة هناك. في أيام السوفيات، اعتاد الأرمن على الذهاب إلى هناك وإنفاق آلاف الدولارات لصيد الحيوانات. ستُصاب بآلام الرأس في أول يوم لك هناك، إلا أنك ستعتاد بعدها على الجو، وتشعر كما لو أنك إله. توقفت مرة إحدى السيارات على بعد كيلومتر مني، وكنت قادراً

على شم رائحة العادم في غضون لحظات لأن الجو نظيف جداً هناك. في الحقيقة لا أذهب إلى هناك كثيراً، ولم أعد إلى ذلك المكان منذ أن غادرته سوى مرة واحدة فقط. لا يوجد ما نفعله في الأعلى، لا يوجد سوى المسنين، إنهم يعيشون حتى يبلغوا 120 سنة".

ووفقاً للدراسات الحديثة، تبقى غرائز المقاتل ملتصقة بالأرض. في إحدى الأمسيات التي قضيتها في بلدة كراشايفسك الجبلية في كاراشاي، عبر بعض الجنود الروس من الحامية المحلية الشارع من أمام سيارتنا، وكنت برفقة ثلاثة رجال من كاراشاي، ويدعى أحدهم مراد وعمره 23 عاماً، والذي قال: "اُنظروا، لقد غادروا، سيشربون حتى الثمالة الليلة"، فيما كان الجنود، الذين دفعوا قبعاتهم إلى الخلف، يسيرون باتجاه السوق. وقال مراد: "نسمع دائماً صوت عيارات نارية عندما يخرج الجنود من الحامية ليلاً، والحمد لله أنهم لم يُطلقوا النار علينا بعد. لكن إذا فعلوا ذلك، نستطيع التسلل عبر ذلك الحشد وأخذ أسلحتهم، ليس لدينا الكثير، لكننا نمتلك سكاكين، وسنقطع بها الكثير". واعتقدت أن مراد كان يتفاخر أمامي لأن المرء غالباً ما يفكر بتلك الطريقة في القوقاز، خصوصاً عندما يسمع مثل هذا الكلام الكبير، ويلتقي الكثير من المحاربين المؤقتين. لكني شاهدت مراد لاحقاً يرمي بالسكاكين في بستان فاكهة. لقد استطاع إصابة شجرة تفاح صغيرة من مسافة عشر خطوات، وكانت السكين تترك أثراً على جذع الشجرة في كل مرة.

في قصيدته **إسماعيل بيك**، كتب ليرمنتوف بأن القوقازيين "يردّون الخير بالخير، والشر بالشر، والكراهية معهم لا حدود لها تماماً مثل الحب". توقع معظم الجنرالات الروس أيام القياصرة، الذين هزموا نابليون، وبنوا إمبراطورية امتدت من بولونيا إلى المحيط الهادئ، أن يركع القوقازيون أمام قوتهم، ولم يأخذوا بالحسبان بعض أشرس حروب العصابات في التاريخ. قبل أن تبدأ الحرب في الشيشان سنة 1994، اعتقد الناس الشيء ذاته: إن كلام الشيشانيين الكبير حول المقاومة ليس سوى وهم، ولكن القتال وإتقان استعمال السلاح يجري في عروق أشخاص مثل مراد. إنه موجود في الدماء. عميقاً في الدماء.

حاج يورت، الشيشان

أخبرني فيزيت عبر الظلمة الحالكة أن: "الشيء الوحيد الذي قام الروس بتعليمنا إياه هو كيفية القتال". كان المقاتل الشيشاني الشاب يجلس على سفح تل بالقرب من مكان مقدّس للمسلمين يدعى حاج يورت، في بقعة جميلة من القوقاز تدعى الجبال السوداء.

كانت الحرب في شهرها السادس في منتصف العام 1995، وتمّ إجبار الشيشانيين على التراجع. كنا نتواجد في أحد آخر معاقل الثوار. كانت الليلة هادئة، لا يعكّر صفوها سوى هدير الطائرات الروسية، التي تقوم بإلقاء الشهب النارية الضخمة التي تهبط بشكل جميل مثل الثريات فوق الجبال.

يقول فيزيت: "عند بداية هذه الحرب، لم نكن نعلم الكثير حول القتال. ولكن مثل أسلافنا بالضبط، تعلمنا بسرعة، وقد دفعوا ثمن ذلك. لن يستولوا أبداً على هذا الوادي، ولا على قريتنا، ولا على الجبل المقدّس، على الأقل طالما أنا حيّ."

سحب فيزيت كنزالاً طويلاً، ولا أتذكّر أنني شاهدت ذلك الخنجر معه، لكنه يحمله بيديه الآن عوضاً أن يكون في معطفه. "اُنظر إلى هذا الكنزال. أعطاني إياه صديق من أفتوري عند بداية الحرب، كان ملكاً لجده، الذي كان أبريغ. هل تعرف من هو الأبريغ؟ قاطع طريق. إنه خنجر جميل هذا الكنزال. إنه متين، وثقيل، وقاسٍ، وحادّ". إنني لا أعتقد أن فيزيت استخدم كنزاله كثيراً، لكنّ الكثيرين من هؤلاء الثوار يحبون وضع الكنزال إلى جانب قنابلهم اليدوية، ومخازن ذخيرة الكلاشينكوف والمسدسات. إنها طريقة للقول إن القتال على طريقة الأجداد مستمر.

وفيزيت رجل جبال أصيل، وهو يعتقد أن ساكني السهول رقيقون، إنه يحتفظ بصواريخ مضادة للدروع محلية الصنع في حظيرته، ولديه ستة أطفال. يقول فيزيت إنه يحب الحرية

والأسلحة، وهما متلازمتان بالنسبة له.
بعدما أرجع فيزيت كنزاله إلى غمده، سحب مسدساً لامعاً لم أعرف من أين جاء به. لقد أبرزه أمامي مثل ساحر، وسمعت حين أدار مخزن الذخيرة صوت احتكاك السلاح في الليل.
وقال ضاحكاً: "هذا المسدس عبارة عن قطعة أثرية هنا. وقد أعطاني إياه جدي. إنه يعود إلى أيام القيصر نيقولا، وقد صنع بالقرب من موسكو، ويستطيع إحداث سلسلة من الثقوب، إن الأسلحة نقطة ضعفنا."
حاصر الروس حاج يورت بعد سنة من لقائنا، وسمعت أن فيزيت مات نتيجة إصابته بقذيفة مدفعية.

3. القرى

قلّما تغطي النساء اللواتي قابلتهن وجوههن، وهن في الغالب جميلات، ويصبغن الجلد تحت العينين بلون قاتم؛ وأياديهن مخضبة بالحنّة، إنهن يرتدين غالباً ملابس مزركشة بالألوان الحمراء والزرقاء والصفراء. أما مظهر الرجال فيبدو أكثر صرامة وجاهزية للحرب، وهم مسلحون دائماً، وتكون لحاهم الطويلة مصبوغة عادة بلون أحمر فاتح.
هذا ما قاله الجنرال السير آرثر ثورلو كنغهام أثناء ترحاله في شرق القوقاز سنة 1871.

كنا نقود السيارة عبر أديجي، عندما أوقفتنا الشرطة على أحد الحواجز واستجوبتني لمدة نصف ساعة. لقد اشتبهوا بأن خريطة المنطقة السياحية العادية التي كانت بحوزتي تحمل خططاً مشفّرة لهجمات إرهابية، وكان جواز سفري وبطاقتي الصحفية سبباً في بعض الإرباك. وقالوا لي إنني أول أجنبي يرونه منذ وقت طويل، وكان آخر من مرّ قبلي رجل صيني.

يبدو أن حواجز الطرق ترمز إلى ما يحدث في شمال القوقاز، حيث توقفت الروسنة وبدأت الحياة الطبيعية. لقد وضعت الحواجز الأمنية عبر كل المنطقة وخارج كل مدينة رئيسية. يبدو أحياناً مستقبل أفراد القوات المسلحة متوقفاً على هذا الموقع، المخصص لمقاومة المجرمين العاديين أو حتى الإرهابيين، ولكنه في نفس الوقت يرمز إلى قوة روسيا. تتمركز الشرطة المكوّنة من مزيج من العرقيات الروسية المختلفة والشيشانيين في مبانٍ خرسانية ضخمة، ولا تظهر سوى للتدقيق في أوراق المسافرين. يرتدي أفراد الشرطة غالباً معاطف طويلة، ويحملون بنادق كلاشينكوف آلية، ويشكّلون مزيجاً من البيروقراطية، والوحشية وجنون العظمة، دون أن ننسى الرشى الإجبارية التي قد تسبب الحنق.

بعد ذلك، وصلنا إلى القرى أو **آول** كما يدعونها في شمال القوقاز، وسواء كان الطريق مغلقاً أم لا، يحس المرء بأنه يعبر فاصلاً نفسياً في كل مرة يدخل فيها آول (قرية). إنها بلاد أخرى، إذ إن الروابط العائلية فيها أهم من الدولة، والمسجد أهم من الشرطة، ولا حدود لكرم الضيافة.

الحياة قاسية من بحر قزوين إلى البحر الأسود. قد يسكن في تلك المستوطنات ما يزيد عن 30.000 شخص، لكنهم رغم ذلك يعتبرون أنفسهم قرويين ويتصرفون على هذا الأساس. معظم السكان فقراء، وتتحول الشوارع المتسخة إلى أنهار من الوحل في الشتاء، إنهم يعانون من نقص في إمدادات الغاز والكهرباء، وتتجول الحيوانات في الشوارع، ولا وجود لنظام صرف صحي، ولا حتى لمياه عذبة إلا من صنبور واحد يروي كل القرية.

كما كان الحال في الاتحاد السوفياتي السابق، الاقتصاديات الشكلية لجمهوريات القوقاز التي تتمتع بالحكم الذاتي منهارة، وتعتمد بشكل هائل على المساعدات التي تأتيها من موسكو. ورغم ذلك، تتمتع تلك القرى بحيوية لا يمكن تجاهلها والتي غالباً ما تكون مفقودة في نظيراتها الروسية، التي تعاني من إفلاس القرى الجماعية وغرق عمّالها في اليأس والإدمان على الشراب. تنمو قرى شمال القوقاز باضطراد، ويتمّ استبدال مظاهرها البدائية تدريجياً بمنازل جديدة وخطوط غاز حديثة.

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد السكان من أصل روسي يتضاءل في كل المنطقة، وذلك عبر تراجع معدلات الولادات، والهجرة إلى مناطق أخرى من روسيا. في المقابل تزايد عدد الجبليين بنسبة بلغت حوالى 16.3% من سنة 1979 لغاية 1989، وبمقارنة هذا الرقم مع النسبة العامة لزيادة عدد السكان التي تبلغ 9.3%، سنجد أن تعداد السكان من العرق السلافي قد تراجع فعلاً حوالى 3.1%.

ويعيش الفقراء في أكواخ صغيرة لكنها ملائمة عادةً. والبؤس نادر حتى بين الفقراء كثيراً. يحب الأثرياء الجدد الإسراف والتبذير، لكنهم لا يهجرون قراهم عادة، ويفضلون بناء قصر على أنقاض كوخهم القديم. إنهم يعيشون في أي بناء من الأكواخ الصغيرة المنتشرة إلى المباني الشاهقة التي تشبه القصور بجدرانها وبواباتها المصنوعة من الآجر، وغالباً ما يتمّ تزيين الباحة الداخلية بأعمال خشبية متقنة. وفي الداخل، تُفصل غرف الرجال عن النساء. وتُعلّق السجاجيد على الجدران، ويكون الديكور خيالياً لدى الأثرياء لأن القوقازيين يحبون التفاخر. ولكنهم يشتركون في الحمّامات التي تخرج منها دائماً روائح كريهة سواءً كانوا أغنياء أم فقراء، والتي تشبه أكشاك الحراسة فوق حفرة في الأرض.

في أنغوشيا، نزلت في قصر ضخم يبدو مثل مزيج من سانتا برباره وألف ليلة وليلة، وهو مليء بالمرايا، وجدرانه ذهبية اللون، مع أعمال خشبية لامعة، وأقمشة أرجوانية وثريات بيضاء. لم يكن المرحاض بعيداً فقط في ساحة البناء، وإنما دون باب، وكان هناك ثور مربوط على بعد خمسة أمتار منه فقط. ونادراً ما شعرت بأنني عُرضة للهجوم هكذا من قبل.

لا علاقة لنمط الحياة المتواضع والمريح هذا بالمافيا الشيشانية التي لطالما تحدّث الناس عنها، إلا من ناحية الهيكلية الاجتماعية. وتقدّم العائلات الكبيرة التي تحكمها تقاليد التعاون المشترك العمالة المجانية للآخرين، وهو ما يميزها عن الكثير من نظيراتها الروسية. وقد لا يكون القوقازي غنياً، لكنه رغم ذلك يعيش في بيت جميل لأن الأقرباء يساعدونه في البناء، وبالمقابل يساعدهم في بناء منازلهم. ومع توفّر المناخ المناسب والأرض الخصبة يصبح كل ما تحتاجه التعاون لإنتاج محصول جيد وبيعه في الأسواق. وليس نادراً أن يكون لدى العائلات أربعة أطفال أو أكثر، والذين يعمل جميعهم في الأرض في سن مبكرة.

يزرع القوقازيون الخضار ويربّون الماشية حتى في المدن. ويتمّ بناء المنازل ضمن أراضٍ فسيحة، مع ترك المجال لفسحة صغيرة توضع فيها خلايا نحل وتُزرع فيها دوالي العنب التي تشكّل سطحاً حياً. بالنسبة للروس وعائلاتهم الصغيرة، فإن كل ما يتجاوز الإنتاج الضيق الخاص بمطبخهم مستحيل عادةً. وتصنع إحدى العائلات الروسية التي التقيتها في منطقة ستافروبول، التي تحدّ شمال القوقاز من الشمال، شراباً أبيض طيب المذاق، وعندما نصحتهم بعد رشفات قليلة، وكلي حماسة، بأن يوسّعوا أعمالهم، ضحكوا وهزّوا رؤوسهم. يكبر الصغار ويرفضون القيام بالأعمال الزراعية. ولا يستطيعون استخدام عمّال مأجورين، ولهذا لا يصنعون من الشراب سوى ما يكفي لعشائهم. العكس غالباً صحيح بالنسبة للعائلات القوقازية. ويبدو أن لديهم طريقة خاصة لإنجاز الأعمال، وقد تحوّلوا خلال فترة قصيرة من بروسترويكا غورباتشوف في أواخر ثمانينيات القرن العشرين إلى تجار ماهرين. يدرّ تطريز الملابس دخلاً إضافياً على إحدى العائلات الشيشانية التي التقيتها في قرية أفتوري رغم الحرب. لقد حوّلت هذه العائلة منزلها البسيط إلى مصنع صغير. تجلس عدّة نساء أمام آلات التطريز كل النهار، ويحوّلن قطع القماش إلى ملابس صيفية. ويأخذ قريب لتلك العائلات البضاعة إلى جنوب روسيا ويبيعها إلى تاجر آخر محققاً ربحاً جيداً.

قالت لي ناتاشا، المرأة البلغارية المتزوجة من دارغين في العاصمة الداغستانية ماكشكالا إن ازدهار الأعمال الصغيرة بدأ بعد ذهاب الناس إلى مكّة المكرّمة لتأدية مناسك الحج، حيث تعلّموا أصول التجارة في الأسواق السعودية الكبيرة. "تورّط الناس في المشاكل لأنهم كانوا يتاجرون، ولم يكونوا يصلّون - لقد كانوا يبيعون القرآن الكريم. ثم انطلقت فكرة السفر وشراء البضائع وإعادة بيعها هنا، وبدأ الناس بالذهاب إلى الصين، ومن المدهش بالنسبة للنساء هنا أنهن أول من بدأ التجارة مع الصين، ثم تركيا وبعدها بولندا. الآن يذهب الجميع إلى الإمارات العربية المتحدة. ويأخذون معهم عندما يسافرون مبلغ 10.000 دولار أميركي، ويستثمرونه لمدة أسبوع. وتذهب صديقة لي إلى اليونان في الشتاء حيث تتاجر بالفرو وتجني 10.000 في كل مرة. لقد تدبّرت تجديد أثاث شقتها بالكامل. أولئك هنّ نساؤنا! ورجالنا ليسوا بنفس المرونة - إنهم يذهبون إلى موسكو وينضمون إلى عصابات المافيا".

إن المافيا، في سياقها الروسي، كلمة شديدة المرونة. وقد يكون أولئك التجار الصغار في القوقاز بعيدين جداً عن العصابات الإجرامية التي تعمل في المدن الروسية، لكن الكثير منهم يعملون بالتأكيد من خلف ظهر السلطات. إنهم يستسيغون أحياناً خرق ما يعتبرونها قوانين مناهضة للأعمال. لقد كتب أحد الرحّالة الإنكليز في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعد زيارة قبائل أديجي، أو ما تبقى منها بعد اجتياح الروس لها: "يتمّ احترام الاستقلالية الشخصية لدرجة أن الأبناء لا يُطيعون أهلهم".

أخبرني أحد سكّان أديجي كيف استخدم عربة الجيب الروسية القوية "نيفا" للتجول على الطرقات الموحلة حيث لا وجود لنقاط تفتيش الشرطة، وعمل في تجارة بضائع صغيرة مثل الفودكا وأشرطة الكاسيت من الأقاليم إلى المراكز الكبيرة مثل ستافروبول وكراسنودار. من الواضح أنه استمد أفضليته على التجار التقليديين لأنه ببساطة لم يعمل بشكل نظامي وتفادى الضرائب، كما أنه دفع الرشى للشرطة، ولم يكن عليه التصريح عن منشأ البضاعة. لم يكن غنياً بأي حال من الأحوال، لكن وضعه كان أفضل من جيرانه الروس، وهو الأمر الذي كان مبعث خلاف كما قال.

ازدهرت التجارة خارج الأسواق الرسمية في الشيشان حتى في خضمّ الحرب. ومثّل سوق السبت "وول ستريت" في قرية كرشالوي الشرقية. تنتشر هنا، سيارات الأودي، والبي أم دبليو، وكل السيارات الروسية، وأكياس الحبوب، والطحين، والمكسرات، والفاكهة، والعسل، وقطع التبديل، والأنابيب، والمفروشات على مساحة شاسعة. يتجمّع الخيّالة في تلك الساحة، ويختبرون الخيول أمام حشد من الرجال الذين لفحت الشمس وجوههم، ويرتدون قبعات سوداء طويلة. بعيداً تتجمّع مجموعة من الرجال ذوي الملامح القاسية إلى جانب امرأة تبيع مسحوق الغسيل - إنهم تجّار السلاح. وعلى الرغم من انتشار القوات الروسية على بعد كيلومترات قليلة، إلا أن الشيشانيين يستطيعون شراء بندقية كلاشينكوف مقابل 100 دولار، أو قاذفة قنابل مضادة للدروع مقابل 200 دولار. ويتمّ عرض الأسلحة بشكل مكشوف، وادّعى رجل قاسي الوجه أسود الشعر، ويحمل مسدساً على خصره، بأنه يستطيع بيعي دبابة. وقال لي: "تستطيع الحصول على كل ما ترغب به!".

وربما يكون المشروع الأكثر إثارة للدهشة في هذه المنطقة موجوداً في أنغوشيا، وهي جمهورية زراعية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن 300.000 من الأنغوش الأصليين والقليل من الروس، والتي أطلقت منطقة حرّة قرب الشاطئ في سبيل تحويلها إلى جزيرة **جيريسي** القوقاز. في البداية، بدا المشروع جنونياً إلا أن مؤسسة أوفشورنايا زونا قامت ببنائه وإدارته لسنوات عديدة، وهي تموّل سلسلة من مشاريع التنمية ابتداءً من فندق آسا في العاصمة نارزان. قد يُصاب المسافرون المتعبون بنوع من الهلوسة لرؤيتهم فندقاً حديثاً بأرضيات رخامية، وحمامات مياه ساخنة، وغرف نظيفة،

وبارات، وكادر ودود من الموظفين، وأجهزة تلفاز في الغرف. إنه فندق فريد من نوعه في شمال القوقاز، والذي يبدو فيه الموظفون القساة، والمناشف الصغيرة، والأسرّة المتسخة والحمامات المظلمة بعيدة.

رغم العقوبات التي فرضتها الحكومة الروسية على أوفشورنايا زونا سنة 1994، إلا أن المشروع استمر بالعمل، رغم أنه عانى مثل الأعمال الأخرى في شمال القوقاز وروسيا الجديدة بشكل عام. في سنة 1997، قامت موسكو بإلغاء المنافذ الضريبية كافة في ذلك المكان. كان متجر المجوهرات (الوحيد) في نارزان إحدى علامات التطوّر في أنغوشيا. كان ذلك المتجر على زاوية سوق عام فارغ من أيام الحقبة السوفياتية، ويمكن رؤية الشارع المحفور من نوافذه، والذي تتسابق عليه السيارات الرباعية الدفع اليابانية والأميركية الجبّارة مع سيارات اللادا الروسية المتواضعة. من الناحية الرسمية، لم يكن ذلك المتجر سوى علامة أخرى على ازدهار الأنغوش. إذا كنتم تصدّقون وزارة الداخلية الروسية، فإن لجمهورية أنغوشيا علاقات مشبوهة طويلة الأمد مع تجارة الذهب السرية. وتُلقّب نارزان ببوابة الذهب الروسي، مع افتراض وجود ثلاث عائلات فيها تهرّب الذهب الروسي نحو أقصى الشرق. بنفس الطريقة، أصبحت نوستيا الشمالية شهيرة كمركز لتهريب الفودكا، وداغستان كسوق سوداء للكافيار المستخرج من بحر قزوين.

رغم أن الأمر يبدو متناقضاً، إلا أن حب الحرية والفوضى يتماشى مع القوانين الاجتماعية الصارمة جداً. ينتمي أهل شمال القوقاز عادةً إلى عائلات، وعشائر وقبائل هرمية أبوية، يرأسها مجلس من كبار السن إما لكل عائلة على حدة أو للقرية ككل. لقد فككت الثورة الروسية هذا النظام، ولكنه عاش بشكل معدّل وخصوصاً في أقصى شرق المنطقة. في داغستان، تنقسم معظم القوميات إلى **تخمو**، أو عشائر عائلية ممتدة، والتي لا تتزاوج من بعضها تقليدياً وغالباً ما تدخل في صراعات دموية طويلة. وتدير تخمو شؤون القرية وتضع قوانينها. ما تزال التخمو فاعلة لغاية اليوم ضمن الجماعات العرقية المختلفة في الجبال. في الشيشان وأنغوشيا، تُحكم قبائل كبيرة تدعى **تيب** سيطرتها على عدّة قرى في وقت واحد، وهي تتكلم لهجتها الخاصة. وهناك علاقات متشابكة بين أفرادها، الذين يرتبطون بمجالس الكبار. وهم يتبعون أيضاً قوانين انتقام وكرم ضيافة وزواج كعشيرة واحدة.

في الجمهوريات الغربية، ما يزال لدى قوميات كاراشاي وبالاكار مجالس تخمو، لكن قبائل أديجي - سركسيا، المنتشرة عبر ثلاث جمهوريات مختلفة، ليس لديها قوانين عشائرية صارمة. لقد اختفى النظام الاجتماعي لقبيلة أديجي الموغل في القدم، والذي كان أرستقراطياً فيما مضى، بعد الغزو الروسي، ولم يتبقَ منه، مثل كل شيء آخر، سوى العنصر الأبوي.

هناك احترام للأكبر سناً بشكل آلي، ويضم اجتماع كبار القرية - عند الأحداث الهامة عادةً - ذوي اللحى البيضاء الذين لا يستطيعون المشي سوى باستخدام العكاكيز، وبعض الرجال في الستين من العمر. إن الاحترام، والشعبية والثقافة بالإضافة إلى العمر المتقدم هي التي تعطي الحق للرجل بأن يدعو نفسه كبيراً، ولا بد له أن يرتدي قبعة بنية أو رمادية من جلد حملان القوقاز تدعى **باباخا**.

يضم مجلس كبار القرية غالباً رجالاً مباركين مثل أولئك الذين قاموا برحلة الحج إلى مكة المكرّمة، أو الأشخاص الذين يعرفون اللغة العربية.

يتخلّى الرجال عن مقاعدهم للأكبر سناً، ويعتبر التدخين والشراب محظوراً أمامهم، حتى لو كانوا أشقاء. وفي أديجي، عندما يوافق كبير العائلة على الشراب، يقوم باقتراح النخب الأول ويفتتح الحفلة، ويتبعه الجميع بابتهاج متحررين من التقاليد العادية.

يتمتع الكبار في الشيشان بنفوذ كبير، وغالباً ما يلعبون دور الوسيط بين العائلات المتناحرة أو بين القرى والقوات الروسية خلال الحرب، ويقررون أحياناً فيما إذا كانت قريتهم ستقاتل أم لا. من ناحية أخرى، قد لا يتمتع الكبير بسلطة حقيقية سوى داخل عائلته، حيث يوافق فيها على الزواج، ويشرف على الجنازات والشؤون الداخلية الأخرى. تنتشر هذه الحالة بشكل كبير بين قومية كابارد خصوصاً في وسط جمهورية كاباردينو - بالاكاريا، حيث تقلّص دور الكبير في الحياة العامة نتيجة للحكم الشيوعي. بالرغم من ذلك، يلعب الكبير دوراً حيوياً في المنطقة في المحافظة على العادات والتقاليد ضمن العائلة، وبشكل أوسع ضمن المجتمع.

يضرب الإسلام واحترام الرجال والنساء كبار السن الممزوجان بالشهامة جذوراً عميقة في المجتمع في بعض المناطق. ولا يتوجب على النساء ارتداء الشادور ووضع الحجاب وحسب، وإنما وضع وشاح على سبيل المثال، وحياتهن مخصصة لخدمة الرجال بشكل أساسي. حتى في الأسر الأقل تشدداً في شمال القوقاز، لا تأكل النساء مع الرجال في نفس الوقت أبداً، ويتعجب المرء خلال الزيارات إن كانت النساء يأكلن أصلاً، وذلك دون ذكر النوم أو الذهاب إلى الحمامات. ويبدو أنهن موجودات للخدمة. وعندما سألت رجلاً في كاراشاي - شركسيا عن الوقت الذي تتناول فيه النساء الطعام في داره؛ أجابني مازحاً: "ماذا، هل تعتقد أنهن يأكلن حقاً؟".

ينتشر الفصل بين الجنسين إلى الشارع. وعندما قصدت شابتان جميلتان من قرية دارغو الشيشانية الجبلية النبع ورأتا ستة مقاتلين يغسلون أحذيتهم من الطين، تراجعتا بشكل آلي حوالى 50 قدماً بعيداً عن مصدر الماء، وانتظرتا حتى فرغ المقاتلون، وعندما مرّ الثوّار بجانبهما، أشاحتا بوجهيهما جانباً، وهي إشارة عن اللباقة التي غالباً ما نشاهدها في الجبال. يتوقع من النساء أن يكن محتشمات ورقيقات على حدٍّ سواء، إضافة إلى امتلاكهن لذراع قوية. تتضمن واجبات النساء القيام بحلب الأبقار، وأعمال البستنة، وإصلاح الأعطال المنزلية، وجلب الحطب لإشعال النار. تكون عملية جلب دلاء أو قِراب الماء من النبع أو العين عملية شاقة للغاية، ولا أدري عدد المرات التي شاهدت فيها النساء اللواتي يضعن الوشاح يسحبن قِراب الماء إلى المنزل على عربات عبر الشوارع الموحلة، فيما يفترش الرجال الأرض على الطريقة العربية وهم يدخنون ويأكلون بذور دوّار الشمس أو يدردشون فقط.

في حفلة الزفاف، التي تأخذ وقتاً كافياً للتجهيز لها، تختلط شهامة الرجال وحشمة النساء، ووفقاً لجيمس بيل، يبدأ الرجال من قبائل أديجي في القرن التاسع عشر ليلة زفافهم بتمزيق مشد خصر زوجاتهم باستخدام كنزال بمزيج من العنف والرغبة. في الشيشان، يقوم أصدقاء العريس باصطحاب العروس من منزلها إلى حفلة الزفاف في قافلة من السيارات، ويستخدمون الأبواق ويطلقون العيارات النارية من النوافذ. في المناطق الهادئة من شمال القوقاز، لا يسمح لأهل العروس بدخول حفلة الزفاف، التي تُقام بعد اتفاق الكبار من كلا الطرفين على مهر العروس. في حالات نادرة، يخطف الرجل عروسه ببساطة، إما لأنه لا يحبذ الطريقة العادية في التفاوض على المهر، أو لأن العروس لا تبادله الحب. عندما يتمّ اختطاف فتاة ما، يبدأ الكبار بالتفاوض ويحاولون التوصل إلى اتفاق، أو يحاول أقرباؤها أحياناً إنقاذها بالقوة. أخبرني أحد الثوار الشيشانيين سنة 1996، بعد وقت قصير من انتهاء الحرب، أن أحد رفاق السلاح الشباب ويدعى علي - خان قد حاول مؤخراً *اختطاف* فتاة. وقال: "ذهبنا إلى حيث تُقيم، وخرج علي - خان للحصول عليها. وقد صرخت عندما رأته وخرج أهلها من المنزل. أصابه الخوف فابتعدنا. وهكذا أصبح علي - خان موضع سخريتنا الآن لأنه أثناء الحرب لم يخف من شيء، وإنما خاف من فتاة بعدها".

حاج يورت

سيباستيان! تعال إلى هنا.
كان المكان حالك الظلمة خارج منزل إسلامٍ في جبال الشيشان، قرب فيدينو. ولم أستطع رؤيته، لكني كنت أشعر بحجمه لأنه كان رجلاً ضخماً.
تعال إلى هنا.
غادرت المنزل إلى الساحة ورأيت إسلام واقفاً قرب حديقة الخضار.
هيا بنا، لندخّن.
هيا بنا.
وأعطيته لفافة تبغ في الظلام، ووضعت يدي حول شعلة القدّاحة بحرص. وعندما كنا ندخّن، كنا نضع الطرف المشتعل من لفافات التبغ في راحة الكف ونهمس. كان الوضع شبيهاً بما كان يحدث في المدرسة.
قال إسلام، الأب، ورب المنزل، والمقاتل في الحرب الشيشانية: "لا أريد أن يراني عمّي. لا يصح أن أدخّن أمامه."

يعتبر كرم الضيافة تقليداً راسخاً آخر في شمال القوقاز. وقد دعاني الشيخ كازبيك في كرايشيفسك لأكون ضيفه في منزله المجاور للمسجد بعد عشر دقائق من لقائنا. بعد عدّة ساعات، ذبح خاروفاً على شرفي، وقام بطهوه في قِدر كبير على نار مكشوفة في بستان الفاكهة. كان القمر فوقنا هلالاً ناصع البياض، وإلى يمينه نجمة وحيدة، تماماً مثل الرمز الإسلامي. كان يمكن رؤية تضاريس أخاديد المنحدرات الصخرية القريبة. في الداخل، كانت عدّة نساء، لم ينبسن ببنت شفة خلال كل مدة إقامتي هناك، يحضرن طبقاً وراء طبق من الضأن، والبطاطا المقلية، وسلطة الخيار، والشاي وشراب اللبن الرائب الذي يدعى **عيران**، والذي شربناه مباشرة من إبريق كبير.

كرم الضيافة يعني السخاء، وهو ينغرس في جذور نفسية الجبليين أيضاً. يعتبر فتح الأبواب للغرباء جزءاً من التآخي بين كل أفراد المجتمع الإسلامي، وهم يكرمون الضيف لأن كل البشر سواسية ـ سواسية تحت الله والجبال. يعتبر الضيف *ابن العائلة*، كما وصفته لي امرأة من أديجي، ويجب تدليل وحماية الابن. وكتب جيمس بيل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كيف أنه في أديجي:

"يمكن للقاتل أن يجد ملاذاً له في منطقة إسلامية أخرى. ويتمتع (القاتل) الآن بالأمان في قرية صانع الأسلحة المحترم سوبيش؛ وهنا يظهر الاعتراف الكامل بهذا المبدأ، لأن صانع الأسلحة ذاك يستطيع التجوّل بحرية وأمان في المكان الذي تمّ فيه ارتكاب الجريمة."

في الحقيقة، إن كرم الضيافة من العادات الشديدة الأهمية، ويمكن أن يصبح مبالغاً فيه بشكل محرج. وتوجّب عليَّ تناول الشاي في الشيشان، والذي كان في الواقع غداءً كبيراً، ثلاث مرات في غضون ساعات قليلة لأنني كنت بحاجة للتكلم مع ثلاثة أشخاص مختلفين. تجاوزت ضيافة كازبيك، الشيخ من كاراشاي، والذي عاملني بلطف شديد، الحدود المعتادة. وأعتقد أنه تجاهلني مرة عندما كان يرشّ نفسه بماء الكولونيا، مما جعله يتجه نحوي ويبدأ برشّي أنا أيضاً، وقد رفض الاستماع لاحتجاجاتي رغم اندفاعي باتجاه الحائط. في أماكن أكثر تحرراً في شمال القوقاز، يتمّ استقبال الضيوف بالترحاب وتقديم الفودكا لهم بعد اقتراح الأنخاب. وقول لا قد يجعل الأمور تسوء بشكل كبير.

في أورازا بيرم، وبمناسبة انتهاء شهر رمضان المبارك، تمت دعوتي لحضور مهرجان العيد في قرية بلتشيس. وبدأ النهار باحتفال عند الفجر يدعى **نماز** في المسجد، ثم اتجه كل الذكور إلى المقبرة للصلاة على أرواح موتى العائلة، وكانت شواهد القبور مزيّنة بالهلال الإسلامي، وصور من العهد السوفياتي، وكتابات بلغة أديجي ورمز القبيلة. في ذلك الوقت، كانت النساء يحضّرن المرحلة الثالثة والأكثر أهمية في ذلك اليوم؛ الوليمة. يتكرر النمط نفسه كل سنة: يقوم كل منزل

بتحضير وجبة ما، ويدعو رب العائلة كل أقربائه من الذكور، ثم ينتقلون إلى المنزل التالي. وبتلك الطريقة يمكن لكل رجل أن يفخر بكرمه، ومنزله، والعمل الدؤوب لنسائه اللواتي يتجمّعن بفخر خلف المنزل.

عند المنزل الأول، كانت الطاولة مليئة بأطباق اللحم، والدجاج، والسلطة والكثير من الأطعمة الأخرى. كانت المقبرة والمسجد قد استنزفتا قوى الجميع، ولم نكن قد تناولنا طعام الفطور بعد، ولهذا كان من الجيد أن نأكل شيئاً. وقدّم لي أحد الأشخاص زجاجة فودكا، والتي بدت غريبة قليلاً في ذلك الوقت وفي عيد إسلامي، لكني تناولت منها القليل. واقترح الجميع الأنخاب. وقد شعرت بنشوة في رأسي، ونظرت إلى ساعتي فوجدتها تشارف 9.45 صباحاً. لقد حذّرني أحدهم قائلاً: "لا تحاول مجاراة كبار السن في الشراب. إنهم معتادون على ذلك. تناول فقط ما تقدر عليه". لكن الأوان كان قد فات عندها: ألا يعرف أن ضيف الشرف ممنوع عليه رفض الضيافة؟

ذهبنا إلى منزل آخر لتناول وليمة أخرى، ثم إلى التالي وهكذا. كنا نذهب بالسيارات أحياناً ومشياً أحياناً أخرى. ورغم أنني أضعت العدد، إلا أنني أعتقد أنه بحلول الساعة 3.00 بعد الظهر، كنا قد زرنا ستة منازل، والتقينا نفس الرجال متوسطي العمر في كل واحد منها. عند كل توقف، كان هناك صلوات (وتلاوة قرآن) وبعدها تناول شراب. وفي الخارج، رآني صاحب أحد المنازل أداعب كلبه الضخم المفعم بالنشاط، وألحّ عليَّ أن أحتفظ به. كان علي الاعتذار لدقائق عديدة لتفادي اصطحاب الكلب معي إلى موسكو. بدا المضيف مستاءً وهو يقول: "كل شيء للضيف. وإذا أحببت شيئاً وكنت ضيفاً، سيكون علينا منحه لك. رأيت أنك أحببت الكلب. هذه هي طريقة أديجي".

كيف تردّ لهم الجميل؟ ما الذي تستطيع تقديمه بالمقابل لشخص منحك، وأنت غريب، وقته، وثقته، وأفضل غرفة لديه، وأشهى طعام يمكنه تحضيره؟ في الحقيقة، إن تقديم المال يسبب الإساءة، وهو مرفوض بكل الأحوال. لقد كتب ف. سي. كروف، مؤلف *القوقاز القارص* بعد مغادرته لقرية أكرمت وفادته في سنة 1875: "رغبنا بتقديم تعويض لهم حتى لا يخسروا شيئاً مقابل لطفهم وكرمهم، لكنهم كانوا رجالاً أعظم من جميع من سبق والتقيتهم، وقد سببت لنا طريقة الدفع مشاكل كبيرة". عندما حاول كروف منح مضيفه نقوداً، إضافة إلى بعض الهدايا، أخبره الأخير: "نفضّل عدم أخذ النقود. ليست من عاداتنا تلقّي مبالغ مالية مقابل صداقتنا".

أمضيت مرة عدّة ليالٍ على أرضية مدرسة في أنغوشيا مع عائلة من اللاجئين الشيشان، الذين تمّ تدمير قريتهم بامونت بالكامل. وعندما حاولت منحهم 100 دولار قبل مغادرتي، رفضوا بشدة. وقال موفلادي: "لا نقبل بهذا هنا". كان ذلك رجلاً تدمّر منزله وممتلكاته بالكامل، وقُتل أخوه بصاروخ مروحية، وهرب لا يملك شيئاً سوى عائلته، والقليل من الملابس وجراره. كان يسهر على راحتي كل يوم، ويتأكد من حصولي على مساحة للنوم والعمل. لم ألحظ سوى في اليوم الأخير العلب المعدنية الزرقاء والبيضاء التي قال عنها: "مساعدات إنسانية - لحم معلّب". إن الشيشانيين شعب فخور بنفسه. ولا بد أن يكون الشيشاني فقيراً معدماً حتى يقدم لضيفه مساعدة إنسانية من علبة معدنية. لهذا عندما رفض النقود، ربطت 100 دولار إلى ملاحظة قلت فيها: "آسف إذا كنت أسأت إليك، لكني أصر على أن تأخذها". خططت لوضع النقود والرسالة على الطاولة قبل مغادرتي، ليجدوهما لاحقاً. لكن كان هناك الكثير من الناس في تلك الغرفة بحيث أني لم أجد اللحظة المناسبة، وغادرت دون أن أمنحهم النقود، ولطالما شعرت بالذنب مع هؤلاء الناس.

من بين كل قوانين الجبال غير المكتوبة، وجدت أحدها يتمتع بمقام عالٍ: الثأر. وهو المجال الذي تبدو فيه روسيا بعيدة جداً، لأن قانونها منسي ويتمّ تطبيق قوانين قديمة عوضاً عنه. هناك حوادث

منتظمة من عمليات الثأر، على الأقل في أجزاء من داغستان وفي كل الشيشان وأنغوشيا. قد تنشأ العداوة من الأخذ بثأر قديم، أو قد تقتل العائلة الفتاة التي تحمل قبل الزواج، وبالطبع حبيبها؛ لكن هذا القانون الظلامي يعمل كرادعٍ قاسٍ. في ذروة الحرب في الشيشان، تزايدت حالات الموت والسرقة من قبل قطّاع الطرق. أصبحَ الكثير من الناس جياعاً، والكثيرون منهم مسلحين. بالطبع كنت خارج دائرة الثأر، وكان أصدقائي الشيشانيون يعتبرونني ضيفهم - وأن مرتبتي عالية، وسرعان ما اعتدت أثناء سفري بصحبة غرباء أو أدلاء على التوقف أمام منازل أصدقائي وتعريفهم بزملائي، قبل المضي قدماً. أقول لهم أنني أردت إلقاء التحية وحسب، ولكن الجميع كان يعرف معنى ذلك: أصبح أصدقائي يعرفون زملائي ويعرفون وجوههم وسياراتهم. إنها وسيلة للتأمين على حياتهم، لأنهم خارج شبكة الأمان الاجتماعي. لطالما كان الروس ضحايا الجرائم في الشيشان، ولأسباب مشابهة، كل المتسولين تقريباً في الشيشان من أصول روسية، لأن العائلة القوقازية ستفعل المستحيل لتمنع تحوّل أحد أبنائها إلى الشارع، وأن يسبب العار لاسم العائلة.

من الشائع في تلك البلاد إلغاء حكمٍ الإعدام في اللحظة الأخيرة. لقد شهدت في قرية فيدينو في جبال الشيشان *محاكمة* شاب قتل رجلاً آخر في حادث سيارة، وأضحى يواجه نتيجة لذلك إضافة لعائلته الثأر. امتلأ الشارع في ذلك الصباح بعدّة مئات من الرجال الذين يقودهم الكبار الملتحون، الذين يستخدمون العكاكيز ويرتدون قبعات **أستراخان**. كان البعض يرتدي ملابس شركسية ورثوها عن أجدادهم. صلّى الرجال ولوّحوا بالعصي مثل السيوف، ومشوا في الشارع، فيما كانت قمم القوقاز المكسوة بالثلج تلوح في الأفق. حالما وصلوا إلى الساحة الرئيسية، توقفوا وانضموا إلى دائرة من الكبار، ثم أتى قائد الثوار في القرية شرفاني باساييف بالمتهم، وقد غطّى وجهه بقلنسوة، ووضعه أمام الكبار. بدأت الابتهالات بعدما رفع كل الرجال أكفهم إلى الأعلى، فيما كانت شفاههم تتمتم كلمات غير مفهومة تحت سماء الخريف الصافية. ثم انتظر الجميع قرار الكبار. غير مذنب. تبخّر كل التوتر. سيكون هناك مصالحة، وليس ثأر. وابتهل الرجال مجدداً لتمجيد الله.

شالي، الشيشان

كنا نأكل البطيخ في حديقة في جنوب الشيشان، وكان هناك هدنة حرب في الصيف، وكانت الأسلحة صامتة آنذاك، وقد انسحبت القوات الروسية من البلدة بعد إحكام سيطرتها عليها، وتركت المنطقة بسلام للمرة الأولى منذ نصف سنة. كان الناس يبحثون عن عمل، ويبنون منازلهم من جديد، ويقيمون حفلات الزفاف. قدّم لي صديقي المزيد من الشاي، إنه رجل متحضّر، ومثقف. لكن في وقت مبكّر من ذلك الصيف، ضربت القوات الروسية وقتلت وسلبت ابن عمه واثنين من أعز أصدقائه. ولديه الآن نزاع دموي، وطالما أن الثأر مستمر فإن الحرب مستمرة هي الأخرى.

"لقد اختفوا في أيار. وبحثنا عنهم في كل مكان: هنا، وفي جنوب روسيا وفي مقر قيادة القوات الروسية. ثم قرّرنا البحث هنا من جديد. كنا نعرف المنطقة التي اختفوا فيها، وهكذا بدأنا بالحديث إلى جنود الوحدة الموجودة هناك. جندي، ثم آخر، وآخر ورابع. لقد قبضنا عليهم. أعني أننا أخذناهم بالقوة. لقد اختطفناهم. كنا ندفع للشيشانيين الذين يعملون مع الروس في الاستخبارات السرية 1000 دولار لكل من أولئك الرجال ثم أخضعناهم للاستجواب.

هذا عمل غير شريف فعلاً. لقد احتفظنا بأحد أولئك الجنود ثلاثة أيام، فيما احتفظنا بآخر أسبوعاً. وقد أعدناهما لأنهما لم يكونا يعرفان شيئاً. كنا نُعيدهم كأسرى حرب محررين، ولم يكن الروس يطرحون أسئلة. كان ذلك بمثابة المكافأة بالنسبة لهم، وكانوا يقولون إنه تمت استعادة أولئك الجنود من الثوار، وكانوا يتظاهرون بأن تلك الهدايا التي أعطيناها لهم ليست سوى محصلة لأعمالهم.

ثم أتى الرابع. وكان قد شاهد كل شيء بعينيه. وقد كان موجوداً هناك وأخبرنا بكل شيء. لقد شاهد رجالنا الثلاثة في سيارتهم الجديدة عندما أوقفهم الروس بالقرب من مستشفى الأمراض النفسية. لقد وضعوا جميعاً في حفرة. وسيقت السيارة إلى حفرة أخرى حيث دمّرتها إحدى المدرعات، ودُفنت. أطلقت القوات الروسية النار على ابن عمي وأصدقائي، بعد أن ضربوهم، ورُدمت الحفرة التي سقطوا فيها، وبنوا طريقاً فوقها تمر عليه السيارات كل يوم.
أخذنا هذا الجندي الذي كان أسيراً لدينا إلى الموقع، والذي لن يستطيع أحد التخمين بوجود حفرة فيه. إنها في منتصف المخيم تماماً. كانت المركبات تمر من فوقها. وقد وجدنا رجالنا إضافة إلى رفات اثنين آخرين مدفونة هناك."
وقال لي: "لا أعرف إذا كان ذلك الجندي قد اشترك، لكني لا ألومه على أي حال. فهؤلاء المجندون مثل الحيوانات، إنهم جاهلون، وأخبرني الجندي أن ضباطه أجبروه على إطلاق النار على جثة ميتة للتعوّد على قتل البشر. لا يمكن إلقاء اللوم على المجندين، فهم بالكاد بشر لا يحملون أي وثائق، وإنما مجرد صفيحة معدنية. لم يخبرهم أحد عن وجهتهم عندما تمّ إرسالهم إلى الشيشان في المقام الأول.
الرجال الذين خططوا لهذه الجرائم كانوا ملازماً أول واثنين آخرين. طلبت من مصادري أن تأتيني بذلك الملازم الأول، وإلا فإنني سأفتش العالم بحثاً عنه. كنا نعرف هوية هؤلاء الرجال، ولدينا أسماؤهم. كانوا يخرجون في دوريات بشكل منتظم، وعند خلو المكان من المارة كانوا يعمدون إلى إيقاف السيارات، ويضعون الناس في عربة مدرعة، ويسرقون ما بحوزتهم، ويدمّرون سيارتهم، ويسحقونها مثل الفطيرة، ويبيعون قطعها ويقتلون الناس بإطلاق النار عليهم ليلاً حيث يكون هناك الكثير من إطلاق النار بكل الأحوال.
نستطيع استلام هؤلاء الرجال ميتين، لكننا نحتاجهم أحياء، وهذا يكلّف الكثير من المال. أردتهم أحياء، وأردت أن أنظر في عيونهم. لم يكن مهماً فيما لو غادروا هذا المكان، لأنهم لا يستطيعون الهرب منا.
"لن نقتلهم، سوف يعيشون. لكننا سنفعل بهم شيئاً يجعلهم لا ينسون الشيشان حتى آخر أيامهم، وسيكونون قادرين على تناول الطعام، لكنهم لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم أو عائلاتهم مرة أخرى.
أنت تُدرك بأن ابن عمي والاثنين الآخرين كانوا بصفاء الكريستال، ولم يكونوا سياسيين أو أي شيء آخر، لقد كانوا مثل الكريستال صفاءً، كانوا الأفضل. لقد سرقوا منهم المال، وقتلوهم مثل الكلاب.
لقد ترعرعوا معاً، كانوا يدعونهم بحاملي البنادق الثلاثة. عندما بدأت الحرب، منعهم أهاليهم من الانضمام إلى الثوار. لهذا غادروا، ولم يعودوا إلا بعد أن اعتقدوا أن الحرب انتهت، وهذا ما حصلوا عليه. كانوا جميعهم في العقد الثاني من عمرهم. كان شامخان الأقوى والأكثر عناية بصحته بينهم جميعاً. وقد قطعوا أصابعه وكسروا أضلاعه قبل أن يُطلقوا النار عليه. حصل الآخر على حفرة في رأسه، فيما كسرت قدم الثالث.
يعتقد الروس أن كل شيء انتهى هنا. وأنهم يسيطرون على هذا التل أو ذاك، لكنهم يكتشفون أن عليهم القيام بالكر والفر. إنهم لن يعيشوا بسلام هنا، أبداً. لقد نسوا أن لدينا ثأر الدم وهو شيء مخيف. سنأخذ بالثأر، وسنبقى أحياء."

الفصل الثانينيران الحرية

"هذا الكوخ البسيط، الذي كان مصدر الراحة والاطمئنان، احترق بنيران حرية القوقازي".
ليرمنتوف.

1. شعب التلال

يقدّم الروس غزوهم للقوقاز بأنه عمل جيد، وهدية للشعب هناك. يقولون إنهم أحضروا لنا الحضارة. لكنهم يتجاهلون أن لدينا عاداتنا الخاصة، وحياتنا الخاصة، وثقافتنا الخاصة.
أصلان توف، كبير علماء الآثار في متحف التاريخ في العاصمة الأديجية ميكوب.

في مرتفعات أديجي الحرجية، وخلف قرية خامشكاي، هناك ضريح يعود لما قبل التاريخ، يقع بين موقف للحافلات، ومقلع للحجارة. لقد وضعت ألواح كبيرة من الحجارة الرمادية التي تغطيها الطحالب فوق بعضها البعض لبناء حجرة وحيدة لها أربعة جدران. تتكوّن واجهة الضريح من حجر واحد ضخم بطول حوالى مترين وعرض متر ونصف، مع ثقب دائري بحجم الرأس محفور بعناية على مستوى الأرض، مثل كوّة السفينة. تقول اللوحة المتهالكة المخصصة للسياح بأن عمر الحجارة يبلغ بين 3000 - 3500 سنة، وأن لا أحداً من السكان المحليين أو الروس يعرف حقيقة هذا الضريح (دولمن) الغامض.

لكل شخص في شمال القوقاز نظريته عن المكان الذي أتى منه شعبه، والتي غالباً ما تكون أغرب من الخيال. لا يستطيع أحد إثبات أيٍّ من تلك الفرضيات بشكل قاطع. فالأسطورة تقول إن الشيشانيين "ولدوا عندما وضعت أنثى الذئب صغارها". ويقول الإمام شامل، من قومية آفار في داغستان، والذي قاد أكبر حروب القرن التاسع عشر ضد الروس، أن الإسكندر الأكبر نفى كل مجرمي إمبراطوريته إلى القوقاز، وهكذا تكوّن هذا الخليط الإثني المذهل. يدّعي أهل أوسيتا بأنهم يتحدّرون مباشرة من قبائل سيثيا وسارمتيا العظيمة، وآخرون يتحدّرون من جينكيزخان، أو تيمورلنك. تصبح النظريات سخيفة أحياناً، مثل الادعاء الذي سمعته من شيشاني مخمور بأن شعبه يتحدّر من جيش روماني مفقود.

من غير المرجح اكتشاف الحقيقة، وتشكّل سهول شمال القوقاز جسراً برياً بين آسيا وأوروبا، وقد استضافت على الدوام إما غازياً أو تاجراً؛ فارسياً، ويونانياً، وغوطياً، وعربياً، ومنغولياً، ويهودياً، وتركياً، وسلافياً. لقد امتزجت اللغات والعرقيات في هذا الخليط الثقافي، بشكل واضح أو غير واضح، لتشكّل هذا التشابك الذي نراه اليوم. إننا نرى الشيء نفسه عندما يتعلق الأمر بالدين. لقد وصلت المسيحية إلى شمال القوقاز الوثني في القرن الرابع بعد الميلاد وتبعها الإسلام الذي ضرب جذوراً عميقة في الأرض في داغستان بحلول سنة 733 بعد الميلاد.

ترمز تلك الأضرحة **دولمن** إلى الغموض الذي يلف هذه المسألة. وهي تعود إلى سنة 2000 قبل الميلاد، ويبدو أنها نتاج الوافدين الجدد إلى شمال القوقاز، حتى أنها تشبه الأبنية الموجودة في أوروبا. لكن لا أحد يعرف على وجه الدقة، كما هو الحال في سهول سالزبوري في إنكلترا، من أين جاءت هذه الأضرحة، ومن بناها، أو كيفية استخدامها. لدينا فهم أفضل لأرخبيل ضخم من مقابر الدفن تحت الأرض يدعى **كورغان**، والذي يشغل مساحة بحجم البحر الأسود في شمال القوقاز.

تعود ثقافة كورغان، التي يتمّ بموجبها دفن الميت على ظهره ورفع ركبتيه للأعلى، وطمره بالمَغرَة (تراب مع فلز الحديد يكون عادةً أحمر أو أصفر اللون)، وغالباً ما تصحبه مقتنياته وزوجاته، إلى الألفية الثالثة والثانية قبل الميلاد. يقع أحد أقدم وأشهر قبور كورغان في تل ترابي في ميكوب، العاصمة الحالية لأديجي. يعود تاريخه إلى 2200 قبل الميلاد، ولم يتمّ اكتشافه سوى

في نهاية القرن التاسع عشر، إنه يحتوي على مجموعة نفيسة من 17 قطعة ذهبية رائعة، وأوانٍ فضية وحجرية، وأسلحة من الواضح أنها جاءت عبر الجبال من جورجيا، أو من ميسوبوتاميا، وأحجار كريمة وتركواز تشير إلى صلات ببلاد فارس وأفغانستان. لا يمكن مقارنة هذه المقتنيات سوى بما كان يملكه أغنياء اليونان في ذلك الوقت. لقد سُرقت العديد من مواقع الدفن، ولكنّ الكثير من محتوياتها الذهبية وجد طريقه أيضاً نحو المتاحف الروسية. تقبع كنوز ميكوب في متحف **هيرمتاج** في سانت بطرسبرغ.

يشكّل اتساع الإمبراطورية الإغريقية ووصول هجرات القبائل الآسيوية التي كانت تحتل سهول روسيا الجنوبية العلامات الفارقة في تطوّر شمال القوقاز. شكّل شعب **سيثيان**، الذي كان يتكلم لغة هندو - إيرانية، أحد أبرز الوافدين الجدد، وقد غزا منطقة البحر الأسود على صهوة الجياد حوالى 850 قبل الميلاد. بعد فترة قصيرة من ذلك، بدأ المستوطنون الإغريق في إقامة مستعمراتهم على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم وعلى طول مضيق بحر آزوف. لقد بدأت كلتا المجموعتين بالامتزاج مع أهل القوقاز المحليين، مثل الميوتيان، وهم أسلاف شعب أديجي الحالي أو الشركس.

يعتقد المؤرخ الإغريقي هيرودوتس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أن شعب سيثيان كان قوياً بشكل خاص، وهو الذي تقول الأسطورة إنه يتحدّر من سلالة نتجت عن تزاوج هرقل وامرأة أفعى. كان المحاربون، كما قال، يشربون دماء أعدائهم، ويقطعون رؤوس الموتى دائماً للحصول على المكافآت من قادتهم. كانوا يعلّقون فروة رأس العدو على الجدران، وكلما ازدادت مناديل المائدة التي يستطيع الرجل الحصول عليها، كلما ازدادت مكانته الاجتماعية بين الناس. صنع العديد منهم عباءات لأنفسهم، تشبه إلى حدٍّ بعيد المعاطف الطويلة التي كان الوثنيون يرتدونها، بنسج كمية من فراء الرأس تلك معاً.

ووفقاً لما قاله هيرودوتس، نشأت المحاربات الأسطوريات ومقاتلو الأمازون من فروع قبيلة سيثيان أيضاً. رغم أن أحداً لم يأخذ مقولته تلك على محمل الجد لوقت طويل، إلا أن علم الآثار أظهر وجود نساء يجدن استعمال السيف في سهول ما يعرف الآن بجنوب روسيا. لقد كانت قبائل سيثيان، ومن بعدهم **السارماتيان**، الذين طردوا سيثيان من شمال القوقاز رغم ارتباطهم بهم، تحب أيضاً الجمال والغموض. لم يكن لدى قبائل **أمازون** سيوف فقط، وإنما قوارير عطر وتعاويذ أيضاً. عمل الحرفيون الإغريق على صنع الأطباق الذهبية، والمجوهرات، والحلي لزبائنهم الهمجيين القادمين عبر البحر الأسود.

كانت مدافن سيثيان - سارماتيان رهيبة، لكن مدهشة. كان يتمّ دفن أصحاب السمو الملكي في كورغان إلى جانب أكوام من الذهب، والأسلحة، والخيول. وكما كتب هيرودوتس: "مع أفراد مختلفين من منزله: إحدى محظياته، ورئيس الخدم، والطاهي، وسائس الخيل، وخادمه الخاص، وحاجبه - وجميعهم يموتون خنقاً". بعد سنة من ذلك كان يتمّ خنق 50 جواداً ممتازاً، و50 شاباً وتحنيطهم، ووضعهم على خوازيق حول الكورغان ليشكّلوا حراساً مرعبين لملكهم الراحل.

كان النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد عصراً ذهبياً لشمال القوقاز، تعايشت خلاله قبائل الميوتان - الأديجي، والتراسيان، والإغريق، والسيثيان ومن بعدهم السارماتيان بسلام فيما كان يعرف بمملكة البوسفور. امتدت تلك المملكة، التي كانت مستعمرة إغريقية في البداية، من شبه جزيرة القرم إلى أرض الأديجي على الساحل الشمالي للبحر الأسود. منذ حوالى سنة 480 قبل الميلاد، ثبتت المملكة دولتها الغنية المستقلة، وازدهرت تحت حكم سلالة جديدة بدأت مع حاكم من تراسيان يدعى سبارتوك في العام 438 قبل الميلاد.

كانت مملكة البوسفور بوتقة لانصهار الحضارات: الإغريق الذين يعملون بالتجارة، والسيثيان الذين يطوفون السهول، والميوتان الذين يعملون بالزراعة والأكثر استقراراً. من الناحية السياسية، وجدت الدولة القوة في المرونة. كان هناك ملك مركزي، لكن زيادة عدد النبلاء المحاربين ضمن السيثيان والميوتان أبقت على استقلال تلك القبائل. وقد وحدتهم التجارة معاً. كانت لديهم جمعياتهم التجارية الخاصة بهم إضافة إلى عملة نقدية مستقلة. لقد سيطروا تقريباً على كل الأعمال في منطقتي بحر آزوف والبحر الأسود، وكانوا يتعاملون مع الإغريق بالعسل، والخشب، والفراء، والجلود، والأسماك، والشراب، وزيت الزيتون، والآجر. كان يتمّ تصدير كميات هائلة من الأسماك من الميناءين الرئيسيين بانتيكابايوم (كيرش حالياً) وفاناغوريا، المتقابلين عبر المضيق الضيق الذي يلتقي فيه بحر آزوف بالبحر الأسود. ومن السهول، كان رعاة بقر السيثيان والسامارتيان يرسلون اللحوم والغلال، مما جعل مملكة البوسفور سلة خبز أثينا.

في القرن الأول قبل الميلاد، انتقلت مملكة البوسفور إلى فضاء الإمبراطورية الرومانية، وبدأت رحلة الانحدار البطيء، انتشر فيها الاضطراب السياسي، والحروب، وتعرضت للغزو ومن ثم التدمير من قبل قبائل **هنس** في القرن الرابع الميلادي. تدل آثار البحر الأسود اليوم على موقع مملكة البوسفور، وما يزال ميراث تلك الدولة القديمة وشعبها حيين لغاية اليوم. وما يزال المتحدّرون من قبائل سارماتيان يعيشون لغاية اليوم في أوسيتا، حيث تعكس اللغة، والموسيقى والدين الوثني تلك الحقبة التاريخية القديمة. بشكل رمزي، أعاد أهل شمال القوقاز تسمية جمهوريتهم ألانيا على اسم ألان، وهي إحدى قبائل سارماتيان الرئيسية، عندما انهار الاتحاد السوفياتي. لقد تركت قبائل ألان بصماتها عبر أوروبا، نتيجة لقتالها مع وضد الرومان. وتحمل قرى عديدة في فرنسا، مثل ألينكون، علامات بارزة عنهم. لقد انتهى المطاف بما يزيد عن 5000 من فرسان سارماتيان، الذين كانوا يحرسون جدار هادريان بين إنكلترا واسكتلندا، بالانتقال إلى قرية ريبشيستر في لانكاشير في القرن الثالث بعد الميلاد. ويرجع الفضل في إدخال سلاح الفرسان إلى الجيوش الرومانية إلى قبائل سارماتيان، التي كانت السبّاقة إلى ما أصبح فيما بعد ظاهرة الفارس الأوروبي.

ربما بدأ نظام الفروسية نفسه، الذي يتضمن ثقافة الحرب والشرف، في القوقاز أيضاً، حيث ما تزال الشهامة جزءاً من شخصية أهل الجبال.

هناك أيضاً انعكاسات ملموسة للماضي في مئات التصميمات الغامضة التي تدعى تامكاز، وهي أشكال أنيقة وبسيطة تبدو مثل العلامات التي يتمّ استخدامها على الثيران الإسبانية. يعود تاريخ تامكاز إلى القرن الأول بعد الميلاد، وهي ما تزال تستخدم لتخليد ألقاب أديجي، ويمكن رؤيتها محفورة على شواهد القبور في مدافن ذلك الشعب. تعيش المملكة المفقودة أيضاً في ظلال اليونان القديمة، وتبدو في نسخة نارت من أسطورة بروميثوس. ما تزال معتقدات الإغريق بواجبات الضيافة ومراسم الخدمة في الهياكل القديمة تعيش لغاية يومنا هذا في أديان أديجي وأوسيتا الوثنية. لكن ربما يكون السيف الإغريقي هو الأكثر صموداً عبر الزمن، وكل ما عليكم فعله هو الذهاب إلى متحف ومشاهدة ذلك السلاح الذي يبلغ عمره 2500 سنة، مع نصله الحاد وقبضته المعقوفة، وسرعان ما ستدركون "أن هذا السلاح ليس سوى سلف بعيد لخنجر كنزال".

اتسعت دائرة الغزوات بعد انهيار مملكة البوسفور. ولاحقاً للغزو الذي قام به القوطيون سنة 240 بعد الميلاد، قامت قبائل **هنس** الآسيوية بغزو البلاد سنة 370 بعد الميلاد، ثم أتى الآفار، والخزر والأتراك مع إمبراطورية اعتنقت الديانة اليهودية، واستمرت في شمال القوقاز من القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر.

في الفترة الواقعة بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلادي، انتشر الشراكس؛ الذين اعتنقوا الدين المسيحي بشكل مبكّر، في المنطقة الواقعة غرب البحر الأسود في ظل حكم إقطاعي للأمراء الذين كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي واسع. دفع الشراكس ثمناً باهظاً ثمناً لفشلهم في تحويل وحدتهم الثقافية إلى نظام سياسي مركزي، لأن ثروة التجارة مع العالم الخارجي في ذلك الوقت كانت مسألة بالغة الأهمية. أقام شراكس أديجي علاقات تجارية مع البيزنطيين المسيحيين والإيطاليين في جنوا والبندقية، وأصبحوا مشهورين بصناعة الألبسة الموشحة بالذهب والأسلحة المتقنة، وقاموا بتصدير أبناء شعبهم أيضاً؛ الرجال كمرتزقة والنساء كمحظيات. ساهم الجنود الشراكس في إقامة حكم المماليك في مصر، وهيمنوا على ذلك البلد بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر. إن الجنود من أصول شركسية يتواجدون بشكل واضح في القوى الأمنية للعديد من بلاد الشرق الأوسط لغاية يومنا هذا.

خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر، اجتاحت حشود المغول البالغة القوة، والتي أرسلها جنكيزخان، كلاً من الأناضول، وجنوب روسيا، ومعظم أوروبا، وشمال القوقاز. وفي نهاية القرن الرابع عشر، أتى الدور على تيمورلنك ليغزو آسيا والقوقاز مما أوقف ازدهار الشراكس، ودفع بقبائل سارماتيان - ألان والقبائل الأخرى إلى الجبال المنيعة الحصينة، ولكن المعزولة في الوقت نفسه. مثل كل الغزوات التي سبقتهم، سرعان ما تلاشى المغول واضمحلت آثارهم. لكن سرعان ما تعرض القوقاز لغزو جديد. كما هو الحال سابقاً، اجتاح أولئك الغزاة البلاد على صهوة الجياد مزودين بإمدادات عسكرية هائلة، مع بعض الفروقات؛ فقد أتوا للمرة الأولى من الشمال، وليس من الشرق، وكانوا مسيحيين، وبدا غزوهم كما لو أنه باقٍ للأبد، لقد كان هؤلاء هم الروس أنفسهم.

2. الحرب المقدّسة

"تعتبر هذه العشيرة المسيحية الصغيرة نفسها متحضّرة جداً، وقد بدأت في زاوية ضيقة من الأرض، وتحيط بها القبائل المحمدية شبه المتوحشة والجنود الروس من كل جانب، إنها لا تعترف سوى بالقوقازيين بوصفهم كائنات بشرية، وتستخف بكل ما عداهم."

القوقازيون كما وصفهم ليون تولستوي.

خيّم ظلام العصور الوسطى في القرن السادس عشر بعد هزيمة المغول الساحقة سنة 1480، ووجد أهل شمال القوقاز أنفسهم بين فكّي قوتين عظيمتين تدينان بدينين مختلفين؛ روسيا المسيحية، والإمبراطورية العثمانية المسلمة.

بحلول سنة 1556، استطاعت الدولة الروسية أن تتوسع وتُحكم سيطرتها على ميناء أستراخان ذي الموقع الاستراتيجي على بحر قزوين. بعد ذلك بوقت قصير، اندفعت على اليابسة لتتجاوز الفولغا، وصولاً إلى نهر **تيرك** الذي يحدّ أوسيتا، والشيشان، وأنغوشيا. كان لدى روسيا حلفاء يقطنون جنوب الجبال في جورجيا وأرمينيا اللتين تدينان بالمسيحية، والذين طلبوا المساعدة ضد الفرس المسلمين - الإمبراطورية الثالثة، والأضعف في المنطقة. في البحر الأسود، وضعت تركيا حلفاء لها بشكل استراتيجي ضمن ما تبقّى من الشعب المغولي الذي يعيش في شبه جزيرة القرم، في ظل حكم الخان.

احتلت القبائل الشركسية من أديجي كامل النصف الغربي من شمال القوقاز، وبذلت كل من تركيا وروسيا جهوداً خاصة للفوز بولائها. وتعاملت موسكو باكراً مع الأقلية المسيحية، مثل توقيع اتفاقية مع الأمراء من قبيلة كابارد سنة 1557، وتزوّج القيصر إيفان من ابنة زعيم لقبيلة كابارد يدعى تيمروك سنة 1561. لكن هذه التحالفات، ورغم تصويرها من قبل المؤرخين السوفيات على

أنها التاريخ الرسمي لدخول شمال القوقاز إلى روسيا، كانت سطحية ولا معنى لها بالنسبة لأمراء وحكّام الشراكس. ففي الفترة الواقعة بين أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن الثامن عشر، وعندما أصبح واضحاً أن روسيا ستغزو أراضيها، تحركت قبيلة كابارد مع القبائل الشركسية الأخرى في أديجي بعيداً عن روسيا، وانضمت إلى العالم العثماني، وبحلول سنة 1580، أصبح الإسلام الدين المهيمن في المنطقة.

كان الهدف النهائي السيطرة الاستراتيجية على صلة الوصل بين آسيا وأوروبا. لقد اعتبر الأتراك الشراكس وسيلة لتطويق الفرس، والسيطرة على البحر الأسود، وإبقاء الإمبراطورية الروسية الناشئة في الزاوية. بالنسبة للروس، كان الشراكس جسراً نحو البحر الأسود وبالتالي طريقاً نحو فارس، وتركيا وحتى الهند. تمتلك بلاد فارس جذوراً في القوقاز تمتد إلى العالم القديم، لكنها كانت خاسرة في ذلك الوقت نتيجة إضعافها من قبل منافستها الإمبراطورية العثمانية، وتمّ دفعها جنوباً من قبل الروس وإخراجها من ممر القوقاز في بداية القرن التاسع عشر.

اتجهت طلائع الروس جنوباً إلى حيث يتواجد القوقازيون، وشكّلوا آلة استعمارية بشرية، وواجهوا النار بالنار. مثل منافسيهم في الصراع على القوقاز، لم تكن أصول سكّان تلك البلاد معروفة. ويدّعي بعض القوقازيين بأن أصولهم السلافية امتزجت مع قبائل سيثيان، وسامارتيان أو الخزر لينشأ عنها عرق فريد. يعتقد الكثيرون أن أصل القوقازيين يعود للمغامرين السلافيين والعبيد الروس الفارين في العصور الوسطى، والذين شكّلوا عصابات من قطّاع الطرق المتحررة من أي دولة أو قوانين، والتي تتجول في جنوب روسيا على صهوة الجياد. استقر القوقازيون تدريجياً على ضفاف أنهر الدون، والفولغا، والدنبر وشكّلوا شخصية منفصلة تهوى الاستقلالية والتفرّد، والطريقة الشائعة للحياة الريفية. خضعت الجماعة القوية التي استقرت بجانب نهر الدنبر لسيطرة الدولة الروسية في أواخر القرن الثامن عشر، ووافق بعدها القسم الأكبر من القوقازيين على الانضواء تحت السيادة الروسية مقابل تمتعهم بحكم ذاتي واسع سنة 1654. كان هناك مجموعتان رئيسيتان في القوقاز، واحدة في الغرب على طول نهر كوبان، والأخرى في الشرق على طول نهر تيرك وتحتل منطقة الأرض السوداء، وهي أغنى الأراضي الزراعية في الإمبراطورية الروسية الناشئة آنذاك.

كان القوقازيون مهيئين وجاهزين تماماً للحرب. كانوا يعيشون في قرى يديرونها بأنفسهم تدعى **ستانيتسا**، وكانوا متحررين من الرق؛ ولكن توجّب على كل رجل منهم أن يخدم في الجيش لمدة 25 سنة. في بعض المجالات، كانوا أشبه بنسخة مبكّرة عن رعاة البقر الأميركيين الذين يجيدون امتطاء الخيول، ويمتلكون ذهنية معينة، والأهم من ذلك كله أنهم يحبون الاستيطان في الأراضي الخصبة. وعوضاً عن الاعتماد على الجيوش المتلهفة للعودة إلى الوطن لإقامة حاميات عسكرية في القوقاز، كانت موسكو قادرة دائماً على إخضاع البلاد الجديدة باستخدام القوقازيين أنفسهم، والذين كانوا يحرزون انتصارات مستمرة.

أخلص القوقازيون في خدمة القيصر والصليب المسيحي، ولهذا نشأت علاقة حب - كراهية بينهم وبين العدو المسلم. لقد حافظوا على لباس أهل شمال القوقاز المزركش وأسلحتهم، وقدّسوا الفروسية، واعتمدوا على تكتيكات رجال القبائل العسكرية، وهاجموا القرى المحلية باستمرار. لقد تزاوجوا أحياناً من بعضهم البعض مما نشأ عنه عرق مختلط بارع الجمال.

كتب ألكسندر دوما، مؤلف *الكونت مونتي كريستو*، و*الفرسان الثلاثة* والكثير من كتب الترحال المثيرة، في *مغامرات في القوقاز* أن القوقازيين أنفسهم كانوا منقسمين إلى مستوطنين على نهر

الدون، وأولئك الذين عاشوا على التخوم، أو "الخط".

ويقول: "يولد قوقازي *الخط* على مرأى العدو الذي سيقاتله، ويتآلف مع الخطر منذ نعومة أظافره، ويصبح جندياً عند بلوغه الثانية عشرة من عمره... ومن جانب آخر، يولد قوقازي *الدون* في بيئة زراعية ويقضي طفولته في السهول الوادعة لذلك النهر الهادئ المهيب."

يصف تولستوي في كتابه **القوقازيون** شعباً شديداً وشجاعاً، ويفهم المنطقة بشكل أفضل من الضباط الروس المتغطرسين الذين لا يهمهم سوى الرياضة والأوسمة. لم يكن القوقازيون أنفسهم سوى غرباء بشكل أساسي، وغزاة لوطن الآخرين، وما تزال العصبية القبلية والإسلام منتشرين بشكل كبير بينهم لغاية اليوم. شعر رحّالة وكتّاب القرن التاسع عشر، بمن فيهم تولستوي، بأن أهل الجنوب يبدون مثل أهل شمال القوقاز ظاهرياً، لكن هناك دائماً درجة بينهم، فهم لا يتقنون امتطاء الجياد ولا إطلاق النار مثلهم. بشكل عام، هناك فرق أساسي واحد: كان أهل شمال القوقاز يقاتلون دفاعاً عما يمكن وصفه بأرضهم منذ بدء التاريخ.

يصف تولستوي في كتابه **القوقازيون** حادثة قام فيها قوقازي من الجنوب، والذي كان أحد عناصر دورية ليلية، بالهجوم على شيشاني وقتله أثناء محاولته التسلل عبر النهر للقيام بغارة. كان هناك شعور أولي بالسعادة لأن قوقازي الجنوب فاق الشيشاني ذكاءً وقضى عليه، ولكن ساد بعد ذلك شعور بالخجل كما لو أن اللعبة لم تكن عادلة.

تمتم، وهو ينظر بإعجاب إلى الجثة: "لقد كان رجلاً أيضاً."
يقول قوقازي آخر من الجنوب: "نعم، لو استطاع الإمساك بك، لما كان لديك فرصة للنجاة."

ما تزال قرى **ستانيتسا** القديمة موجودة لغاية الآن على *الخط* عبر المنطقة، وهي أماكن تحمل أسماء مثل **برافوبرزنوي** أو "الجانب الأيمن من الضفة" على نهر تيرك في شمال الشيشان. لقد انهارت منزلة أهل جنوب القوقاز كثيراً تحت الحكم السوفياتي، لكنهم كانوا مدركين تماماً لموقعهم التاريخي الغريب، كحراس للمصالح الروسية في شمال القوقاز، ولقدرتهم على فهم الشعب المحلي المسلم بشكل أفضل من الروس.

"ولدنا لنطأ كبرياء موسكو،
ونجعله في غبار الأرض،
إنه يقاتل، وينتصر، قريباً وبعيداً.
ذلك العرق الشمالي اللعين."
أغنية تترية حول الشيخ منصور.

في سنة 1785، شاهد رجل دين شيشاني يدعى منصور رؤيا يأمره فيها النبي محمد (صلعم) بشن حرب مقدّسة **غزوة** ضد الروس المحتلين. لم يكن أحد متأكداً من طبيعة تلك الثورة، لكن البعض قال إنه صاحب رؤيا حقيقية، فيما قال البعض الآخر إنه راهب إيطالي مرتد ومغامر. يطول الشك حتى اسمه الحقيقي. لكن أصول منصور ليست موضوع البحث الآن. فمثله مثل معظم الأشخاص الروحانيين، بدأت حياته الحقيقية منذ تاريخ رؤيته للضوء رغم أنه لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره بعد، ومات بعد أقل من 10 سنوات، وأصبح كل ما يهم بشأنه هو تلك الرؤيا التي تكلم عنها.

والرواية التي يمكن الاعتماد عليها هي أنه من أصول شيشانية، ويدعى أوشرما، من قرية ألدي. كان أوشرما رجلاً ورعاً، ويلتزم التقاليد الصوفية الإسلامية الغامضة، ويتبع *الطريقة*، أو ما يدعى النقشبندي. لقد شاعت هذه التقاليد في مدينة بخارى في آسيا الوسطى لقرون عديدة، لكنها كانت جديدة بالنسبة لأهل شمال القوقاز، ولم يكن واضحاً كيف أصبح أوشرما ما أصبح عليه. لقد غيّر

اسمه إلى منصور بعد تلك الرؤيا، والتي تعني المنتصر في اللغة العربية، واتخذ لقب الشيخ لنفسه. لقد ساهم في نشوء جيل من محاربي الشيشان الورعين، كما أنه كان جندياً بنفسه. يقول عنه أحد كتّاب السير الذاتية في بداية القرن العشرين: "كان ينام مرتدياً معطفه ومسلحاً بالكامل. كان يفسّر تلك العادة الغريبة بالقول إنّ من العار على الشيشاني أن ينام دون ثياب، لأن الشيشاني برأيه يجب أن يكون مستعداً دائماً لكل الاحتمالات، ولا يستطيع الاعتياد على الراحة أبداً".

في الوقت الذي ظهر فيه الشيخ منصور، كان الغزو الروسي يزحف إلى الأمام، ببطء لكن بثبات بالنسبة للأجيال المتعاقبة، ووصل إلى ذروته في ستينيات القرن الثامن عشر. كانت هناك معوقات كبيرة مثلما حدث سنة 1605 عندما حاصر رجال الجبال الداغستانيون جيشاً مؤلفاً من 10.000 جندي، وقتلوا معظمهم بمساعدة الأتراك. لقد ساهم ذلك في إبطاء الغزو، لكنه لم يعنِ التخلي عنه. وحتى بعد تلك الكارثة المبكّرة، كيف أمكن للقيصر بوريس غودونوف معرفة أن قتال تلك الجيوش الكبيرة الثقيلة الحركة ضد المحاربين من الثوّار في التضاريس المعقّدة سيستمر إلى ما لا نهاية في المستقبل؟ وهل كان يؤمن أن الأمر سيستغرق 250 سنة أخرى قبل أن تسيطر روسيا على شمال القوقاز؟

في سنة 1772، احتل بطرس الأكبر مدينة ديربنت في داغستان على بحر قزوين، وبعدها باكو، ثم سيطر على ساحل أذربيجان، بعد سنة من ذلك. بعد مضي عقد من الزمن، سجّل الروس أعظم انتصاراتهم على الإطلاق بانتزاع شبه جزيرة القرم ممن تبقّى من المغول، والتتار، والعثمانيين الذين كانوا يوفرون الحماية لهم. لقد أصبح الطريق مفتوحاً إلى البحر الأسود، مما فتح شهية أولئك الحالمين في سانت بطرسبرغ الذين أرادوا إكمال الطريق إلى إسطنبول، أو القسطنطينية كما كان المسيحيون لا يزالون يرونها، والوصول إلى الهند. كان حصن **فالديقفقاز** آخر المعالم البارزة في هذا المجال، والذي شيّده الروس سنة 1784 للسيطرة على القوقاز والتحكم بالطريق الشمالي - الجنوبي الرئيسي عبر الجبال، وهو الآن طريق يسلكه الجيش الجورجي عبر ممر داريال إلى جورجيا المسيحية. لقد نتج عن حالة الحرب والسلم المتواصلة بين الأوسيت والكابارد ضرب إسفين بين القبائل المسلمة في الشرق والغرب. وأثناء ذلك، تقدّم *الخط* الروسي المؤلف من جدار هائل من الحصون ومستوطني جنوب القوقاز نحو الأمام.

بدأت حملة منصور العسكرية التي امتدت ست سنوات بنصر شهير سنة 1785 على القوات الروسية في نهر سونزها في الشيشان. اجتاحت قوات الإمبراطورة كاثرين الثانية قريته ألدي، لكن القوات حوصرت بعد مغادرتها للقرية المدمّرة ووقعت في كمين. وكحصيلة عامة، مات حوالى 600 جندي وضابط. كان منصور يهدف إلى لمّ شمل شعوب شمال القوقاز وتوحيدها، وقد استطاع في مرحلة ما جمع حوالى 20.000 رجل تحت قيادته من داغستان إلى نهر كوبان في الغرب. على كل حال، باءت معظم المعارك الكبرى في ذلك الوقت بالفشل العسكري، ولا يمكن مقارنتها بحمامات الدم الأولى التي كانت تجري في غابات الشيشان. لم يكن رجال منصور مدربين، وكان عليهم مواجهة الجنود الروس المنضبطين والمسلحين جيداً، إضافة إلى فصائل أهل جنوب القوقاز. نقل منصور حربه المقدّسة من الشيشان إلى داغستان، وهاجم حصن كيزلاير الروسي دون أن يتمكن من الاستيلاء عليه. فيما بعد انتقل إلى كاباردينو - بالاكاريا الحالية، لكنه أجبر على الخروج منها، بعدها نقل قتاله إلى قبائل الشراكس في أديجي مستفيداً من نشوب الحرب بين روسيا وتركيا.

في النهاية، كان منصور ضحية الحظ السيئ المحض. فقد تواجد في حصن أنابا التركي على ساحل البحر الأسود عندما هاجم الروس الحصن المهم واستولوا عليه، حيث أسروه. بعد وقت

قصير استعاد الأتراك حصنهم بموجب اتفاقية مع الروس، لكن إلقاء القبض على منصور جعلها معركة مهمة بالنسبة للروس. أحضر منصور ليمثل أمام كاثرين الثانية، ومن ثم سجن.

رغم موته بعد ذلك بفترة قصيرة، وكان ما يزال في الأربعين من عمره، صمد ميراث تعاليم منصور الصوفية الروحانية و*غزواته* أكثر من كاثرين وكل من عاش في تلك الفترة. كانت *الطريقة الصوفية*، أو المنهج الديني، الذي نشر تعاليمه مخصصاً لأهل شمال القوقاز، وهو الشكل المثالي من الدين لمواجهة الضغوط العسكرية الثقافية الخارجية. لا تحتاج الصوفية لمبانٍ رسمية مثل المساجد، ويمكن لأعضائها غير المسجلين رسمياً، والذين يدينون بولاء كبير لهذه الطريقة، الظهور أو الاختفاء بسهولة كما يشاؤون. وإضافة إلى *الطريقة النقشبندية* التي أنشأها منصور، أدخل كونتا حاج ما يدعى *الطريقة القادرية* الأكثر حدَّة في خمسينيات القرن السابع عشر. تدعى الشعائر الدينية للصوفيين *الذكر*، وهي سلسلة من الابتهالات التي تسمو بالروح إلى مصافٍ عالية. تختلف أشكالها بشكل كبير. وضمن جماعة النقشبندي، تُقام حلقات *الذكر* بكتمان وهدوء، لكن هذه الحلقات تكون صاخبة بالنسبة لأتباع *القادرية*، إذ يشكّلون جماعات صغيرة تدور وترقص في حلقات، وتقفز عالياً في الهواء لتستقر على نفس نقطة ارتقائها، أو تضرب الطبول، طبقاً لمقاطع خاصة. وقد يستمر *الذكر* لساعات.

نظراً لقوة هذه التعاليم الصوفية، حاول الروس منع *الذكر* في أواخر ستينيات القرن السابع عشر، فيما استخدمت السلطات السوفياتية تكتيكات أكثر عنفاً وقسوةً، فقد كانت تجمع وتقتل القادة الروحيين وتقوم بإغلاق المساجد. على كل حال، لم تنجو كلتا الطريقتين من الاندثار وحسب، وإنما ازدهرتا حتى إبّان العهد السوفياتي بشكل خفي وسري، في داغستان، والشيشان، وأنغوشيا. وشكّلت شعائر *الذكر* حجاباً لا يمكن اختراقه حول أحاسيس وثقة هؤلاء الأشخاص بأنفسهم. عزّزت الجماعات المغلقة على نفسها التي تجتمع في كل مكان، وما تزال تجتمع، للقيام بحلقات *الذكر* من الإحساس بالانضباط والانتماء إلى العصبية العرقية والنقاء الديني. من الناحية النفسية، يتمّ توظيف الانضباط الصوفي الذي يظهر في حلقات *الذكر* بشكل ممتاز للدخول في المعركة. يظهر العديد من أتباع هذه الطرق غير خائفين من الموت، لأنهم يشعرون بالقرب من الله، وزوّدهم التدريب ضمن إخوانهم بروح الفريق الواحد وبالانضباط اللازم للقتال. هذا ما كان بالفعل عندما أطلق منصور الطريقة النقشبندية، والتي ألهمت جيشه القيام بأعمال بطولية فذّة، وظهر هذا جلياً في تسعينيات القرن العشرين في الشيشان حيث كان المقاتلون يأتون مباشرة من الأخوية ويجدون ما يحتاجون إليه في *الذكر*.

جيخي، الشيشان

خمسة عشر رجلاً يشكلون حلقة. يرفع أحد المصلّين عند بداية *الذكر* بصوت عالٍ، بطيء وحزين بابتهال مع لحن متناغم وإيقاع متجانس. تنشد فرقة المنشدين: "لا إله إلّا الله، لا إله إلا الله". ثم ما يلبث الابتهال أن يصبح أقوى وأسرع حتى يتورّد وجه قائد الجماعة، وتتسمر عيناه بالسماء فوق الساحة المطلية جدرانها باللون الأزرق.

يقف الرجال متراصين إلى جانب بعضهم البعض، ويصفقون بحرارة وينشدون. يصفّق القائد بيديه فوق أذنيه، ويزداد زخم الآخرين، ويصفقون بأيديهم، وينتقلون من قدم إلى أخرى، ثم يضربون الأرض بأقدامهم، ويصدحون بالصوت: "لا إله إلا الله". يصل بعض الرجال إلى النشوة التي يريدونها من *الذكر*. يمكن التعرّف عليهم فوراً: أولئك الذين يتقطّر العرق من وجوههم، وتتبلل قمصانهم في الحرارة الشديدة، أولئك الذين تومض عيونهم، أولئك الذين يصفّقون ويضربون الأرض بعنف، لكنهم لا يشعرون بشيء. وبين الفينة والأخرى، يكسر

أولئك التناغم الجماعي ويصرخون بابتهالات خاصة بهم بأصواتٍ لا يمكنهم السيطرة عليها، أو يصرخون بهتافات النشاط، والنشوة، والفرح.
تتحول الحلقة فجأة إلى هرولة بطيئة بعكس عقارب الساعة، ويستمر الإنشاد والابتهال والخطوات المنتظمة، ثم الدوران اللولبي الذي لا تبدو فيه سوى قمصان وقبعات المشاركين. يسحب الرجال أرجلهم الخلفية ويضربون الأرض بالأرجل الأمامية. وتقف النساء بالجوار ويرششن الماء لتهدئة الغبار، لكن سرعان ما تجف الأرض، ويتسبب الرجال بسحابة غبار تعلو كواحلهم في الساحة. إنها نوبة، ثم يتوقف الخمسة عشر رجلاً فجأة ويتجهون إلى داخل الحلقة، بتزامن رائع.
يشير ابتهال القائد الجديد والطويل إلى الله إلى الهدوء بعد الدوران. لكن التصفيق والضرب بالأرجل يستمران مجدداً، وبقوة كبيرة بحيث أن الأرض تهتز على بعد عدّة أمتار. ثم تصدح صرخة طويلة ومتناغمة بالقول: *الله*، ثم تتغيّر السرعة مجدداً، وتجعل الخمسة عشر مبتهلاً يتحركون بإيقاع أبطأ، ثم تبدأ الحمّى مجدداً ويبدأون بالدوران في حلقات. وعندها تقصف مقاتلة روسية القرية، وتطير على ارتفاع منخفض فوق أسطح المنازل، وتختفي داخل الأرياف. ولم ينظر أحدهم للأعلى. وتعلو الصيحات أكثر فأكثر.

3. أسد داغستان

استلّوا سيوفكم أيها الناس!
وتعالوا لنجدتنا:
ودّعوا النوم والهدوء،
أدعوكم باسم الله.
الأغنية الحربية للإمام شامل.

كل الحياة في جيمري، الواقعة في قلب الجبال الداغستانية، مأخوذة من الصخور. الأرض قاسية جداً لدرجة أن السكّان من قومية آفار ابتكروا مجرفة فريدة خاصة بقريتهم. وهي مصنوعة يدوياً وتستخدم يدوياً. وهم يمسكون مقبضاً بشكل عظم الترقوة، ويضعون أقدامهم على دعامة تشبه العصا، ويضغطون النصل في الأرض الجافة الحجرية القاسية. قد يصبح الهواء في جيمري معتدلاً بشكل غير متوقع وذلك بسبب مناخ الوادي، ولكن الأرض التي يجب أن تمنح الحياة مخيفة للغاية بحيث تبدو المنازل مكدّسة فوق بعضها البعض مثل قرص العسل. وعندما يجد القرويون مكاناً يستطيعون سقايته وزراعته بالدراق أو العنب؛ يستخدمون كل شبر من التربة؛ ثم يقومون بتسوية المنحدرات باستخدام المعاول ويبنون مصاطب صغيرة للحصول على بعض الأمتار الإضافية. ويمكن مشاهدة المنحدرات الشاهقة المزروعة على جانبي وادي القرية، إضافة إلى الصخور الشامخة. وتوجد وراء هذه المنحدرات، وعلى امتداد البصر، المزيد من الجبال ذات التربة الجافة، والحجرية القاسية.

إنها مسقط رأس شامل من آفار الذي ولد سنة 1796. ولم يكن شامل رضيعاً موفور الصحة، لكنه لم يتعافَ فقط وإنما أصبح صعب المراس مثل أرضه القاسية. ثم أمضى ثلاثة عقود من حياته في الدفاع عن أرضه، وكان رأس الحربة في القتال ضد ما يصل إلى نصف مليون جندي روسي في واحدة من أكثر الصراعات الجديرة بالاهتمام بين ثوّار وقوة عظمى في التاريخ.

في سن مراهقة شامل، اندفع الروس عميقاً في السهول الخصبة لشمال القوقاز، ودفعوا بخطّهم من البحر إلى البحر. وأشاعت الحملات العسكرية الاستعمارية الروسية الفوضى في البيئة الاجتماعية، وأدخلت المشروبات الروحية للمسلمين، ودفعت بالسكان المحليين الخائفين نحو الجبال، وأفسدت توازن القوى الطويل الأمد بين ممالك القرى، والطغاة والعشائر المحلية. وكانت نتائج حملات الجنرال الروسي يرملوف، من سنة 1816 إلى 1826 أكثر سوءاً. وكان يرملوف رجلاً

شبيهاً بالدب، وله وجه بليد وشعر أشيب، وكان يتسلى بحياة البشر. وقد اتخذ من الوحشية سياسة رسمية له، وقام بتحريك جيشه مثل قبضة عملاقة. "أريد بأن يحمي الرعب من اسمي خطوط جبهاتنا... وأن تكون كلمتي قانوناً بالنسبة للسكان المحليين، وأن تكون حتمية أكثر من الموت". في هذا الكابوس، كان القرويون إما خاضعين، وبكلمات أخرى مجبرين على الاستسلام، أو يتعرضون للفناء. وكان يتمّ إحراق قرى بكاملها وذبح سكّانها في *غارات تأديبية* للثأر من هجمات رجال القبائل على الحصون الروسية أو الوحدات المحلية الموالية لموسكو. ودكّت المدفعية شمال القوقاز الذي بادر أهله بالهجوم على الحصون على صهوة الجياد.

بنى يرملوف حصناً كبيراً سنة 1818 في سهول الشيشان وسمّاه غروزني، التي تعني *الوعيد*. وكان يرى بأن السكان المحليين همجيون، ولا يفهمون سوى القوة. وكان يأمل بإحلال *التهدئة* في داغستان والشيشان بحلول سنة 1820، ومن ثم يتولّى أمر القبائل الأخرى التي تثير المتاعب في كابارديا وشركسيا في الغرب. ويقول الرجل بغطرسة: "انطلاقاً من الإنسانية الصرفة، أنا قاسٍ لا أرحم. وإعدام رجل واحد ينقذ مئات الروس من الموت". اجتاحت نفس حملات السيف والنار أراضي أديجي - شركسيا، في المناطق الخصبة إلى الجنوب من نهر كوبان. وكتب العميد نورينغ في تقريره سنة 1786: "البارحة واليوم دمّرنا غلال قبائل أبازا وكالميك، ووطئناها بحوافر خيولنا، وأمرت الضابط المسؤول وقائد الحملة الرائد يانوف بأن يحرق كل ما تبقّى".

في تلك الأيام، كان الشيشانيون وبعض الداغستانيين يعيشون أحراراً، ولا يخضعون لأي سلطة عدا القبيلة والقرية. كان هذا الجزء من شمال القوقاز معزولاً بشكل كبير عن العالم الخارجي، دون حلفاء عسكريين أو رعاة سياسيين. إضافة إلى ذلك، لم تكن شعوب الجبال تقيم تحالفات قبلية داخلية، ولا تفهم غالباً لغة بعضها البعض. باتجاه الغرب، كان المجتمع الجبلي مختلفاً جداً، لكنه لم يكن مستعداً لمقاومة الغزو الروسي، وكانت القبائل الشركسية تتمتع بمقدار معقول من الثروة التي تتمثل في الذهب، والعبيد، والحيوانات وخصوصاً خيول الكابارد الرائعة؛ مع مجتمع مصنّف إلى طبقات النبلاء والإقطاعيين والفلاحين الأحرار والعبيد. وعلى الرغم من اللغة والثقافة المشتركتين والدين الإسلامي المنتشر بينهم، لم يكن الشراكس قادرين على توحيد إقطاعياتهم المختلفة. ولطالما رغبت قبيلة كابارد في الوسط في إبرام الصفقات مع الروس، فيما عارضت القبائل قرب البحر الأسود مثل شابسوغ أي تواصل مع الشماليين بأي شكل كان. ورغم أن الشراكس كان لديهم صلات تجارية، ودينية وسياسية مع الإمبراطورية العثمانية، إلا أنهم اكتشفوا مدى ضآلة العامل الذي يشكلونه بالنسبة لهذا التحالف.

كان شامل الرجل الذي حاول فعل شيء في هذه الفوضى. وبخلاف منصور، كان معروفاً جداً. عندما تمّ إعلان شامل إماماً، أو قائداً دينياً، لداغستان سنة 1834، كانت قواعد الغزوات طويلة الأمد موضوعة من قبل سابقيه الاثنين، الإمامين الأول والثاني. وكان الإمام الأول يدعى غازي محمد، وهو صديق مقرّب لشامل وجاره في جيمري. في سنة 1829، جمع غازي محمد مريدي الطريقة النقشبندية الكُثر، وشكّل القاعدة لجيش في سبيل خوض الحرب المقدّسة. وأطلق سلسلة من الضربات السريعة ضد الروس مكّنت رجاله من تعلم فنون القتال بسرعة. بسبب إتقانهم استخدام السيف، والبندقية، وفنون الغارات، ومعرفتهم البلاد عن ظهر قلب؛ لم يتطلب الأمر سوى استقطاب وتطرّف التعاليم النقشبندية لتحويل هؤلاء الأشخاص البسطاء إلى جنود. أصبحت تحركاتهم التي تتسم بالشجاعة والتعصب والبطولة معروفة باسم **المريدية**.

ضرب المريدون بعيداً عن المنحدرات السوداء لداغستان، وهاجموا القوات الروسية من غرب أنغوشيا إلى شمال كيزلاير وشرق حصن ديربنت الواقع على بحر قزوين. يقول ألكسندر دوما في ما قد يكون مبالغة بأنه شاهد خلال رحلته الأخيرة إلى شمال القوقاز قطع 600 رأس خلال تدمير كيزلاير. بحلول سنة 1831، كان لدى الروس قوة مكوّنة من 20.000 جندي يطاردون غازي محمد، وبعد سنة من ذلك، حوصر رجاله في وادي صغير قرب جيمري. ولم ينجُ من بين الخمسين رجلاً ومن ضمنهم الإمام، والذين تحصّنوا في منزل حجري صغير في منحدر شاهق حاصرته القوات الروسية، سوى اثنين. وكان أحدهما شامل.

ما يزال هروب شامل عبر الجنود الروس الذي حاصروه عملاً شهيراً لغاية الآن. ويقال إنه خرج من باب المنزل، وقفز فوق رؤوس الخط الأول، ثم شق طريقه عبر الخطوط الأخرى من الجنود، واختفى في الظلام، وقد غطّت الدماء جسده من حراب البنادق وضربات السيوف. ويستطيع المرء مشاهدة الموقع اليوم، وهو وادٍ ضيق لا حياة فيه يصل إلى جيمري. تشير إحدى العلامات إلى المكان الذي نزل فيه شامل بعد قفزه من فوق رؤوس الجنود، ومن السخيف أنه بعيد جداً، ويستطيع المرء أن يتخيل بأن السكان المحليين الفخورين بما حصل يدفعون تلك النقطة بعيداً كل سنة. ولكن بغض النظر عن المسافة التي قفزها الشاب شامل، شكّل هروبه معجزة. تطلب الأمر سنتين إضافيتين، وهي الفترة الفاصلة التي قاد فيها الإمام الثاني حمزة بيك الثورة، قبل أن يتولى شامل زمام الأمور ويصبح الإمام الثالث. لكن تلك القفزة نحو الحرية كانت اللحظة التي أطلقت الأسطورة: قدّيس بالنسبة لشعبه، وشيطان بالنسبة للروس، وهكذا انطلقت مقولة القرن التاسع عشر باللغة الإنكليزية لوصف أمر عجيب غريب: "شامل، أسد داغستان".

جيمري، داغستان

لا يوجد شيء موغل في القدم في جيمري، فقد جرى تدمير المدينة خلال الحرب ضد شامل من قبل الشيوعيين. لكن أي مكان ينبثق من أرض صخرية يبدو قديماً بشكل مباشر، والشوارع مرصوفة بالحجارة وهي شديدة الانحدار وضيقة جداً، والمنازل صغيرة ومتزاحمة، مع أسطح منبسطة، والتي يتمّ استخدامها كمصاطب. في بعض الأماكن، يمكنك الانحناء خارج النوافذ ومصافحة من قد يعبر الشارع. ونجد الكثير من التفاصيل داخل المنازل - أكثر مما قد يعتقد المرء من النظر من الخارج - مع باحات صغيرة مفتوحة على الأقبية، والغرف داخل الغرف، والشرفات والأسقف. تغطّي دوالي العنب سطح المنازل، كما توجد شرفات مغلقة في بعض المنازل تطل على الشوارع، وهي عالية بما فيه الكفاية ليتمكن الفارس من المرور تحتها على صهوة جواده دون أن يضطر للانحناء.

سجّلت في حاسوبي المحمول أربع كلمات لتذكيري بالمشاهد التي لم يتسنَّ لي الوقت لأكتب عنها شيئاً: "ينابيع، دماء، دون خمر". وتلخص هذه الكلمات بطريقة ما عالم جيمري.

الينابيع: هي المكان الذي تلتقي عنده النساء لملء المياه من الصنابير المجاورة لمنازلهن، وتبادل الأحاديث والأقاويل. تجتمع النساء السمينات والشابات عند الحوض، وترتدي معظمهن ألبسة سوداء ويضعن وشاحاً أسود، والذي يتباين مع جرار الماء اللامعة، وجريان الماء المتدفق تحت أشعة الشمس الساطعة. وبعض الشابات رائعات الجمال فعلاً، ويلتفتن برؤوسهن بعيداً عندما كنت أمر بجانبهن. وتتوقف العجائز عن الحديث ويراقبنني، بوجوه خالية من أي تعبير.

الدماء: يقومون بذبح نعجة في الساحة الرئيسية، ويجري نهير من الدماء نزولاً على الشارع المرصوف بالحجارة. ويثير اللون الأحمر الفاقع الانتباه في مثل تلك البيئة الموحشة.

دون خمر: حالما يدخل المرء إلى وادي جيمري الذي تحدّه الصخور، تظهر لافتة واضحة على الطريق: "عزيزي المسافر! أنت تدخل أراضي قرية جيمري، أرض الأئمة. وللحفاظ

على صفاء ميراث الأئمة، نطلب منك عدم إدخال مشروبات كحولية إلى هذه الأرض المباركة."
لقد اندثر منزل شامل الأصلي منذ أمدٍ بعيد. وتمّ بناء منزل آخر في الموقع ذاته، وهو مغلق تماماً بالجدران التي تحيط بالباحة الرئيسية والبوابة الخشبية الكبيرة التي تطل على الشارع. والمنزل مزدحم من الداخل، إلا أن هناك الكثير من المساحات والأماكن المكشوفة، مثل السطح الذي جلست عليه تحت الشمس والذي تحدّه الصخور من كل جانب. قدّم لي حسين خزيماكوميدوف، الذي يتحدّر من عائلة شامل، الشاي وتحدّثنا عن علاقات القوقازيين مع روسيا. وقال لي: "لا يستطيعون شراء صداقتنا. لا أحد يستطيع شراء الروح. وكل ما يستطيعون فعله هو شراء قادتنا؛ وهذا ما فعلوه."
لا توجد سوى بعض السيارات في جيمري، لكن الشوارع فيها ضيقة جداً بأي حال. وتمشي الحمير والأبقار في الشوارع، والتي تقودها نساء مسنّات يرتدين الأسود من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، أو أطفال ذوو شعر داكن. يوجد في نهاية الطريق المسجد. ويستطيع من ينظر من المئذنة نحو الأسفل أن يرى ساحات منازل القرية. وينكشف أمامنا عالم بأكمله يتمّ استخدام كل مساحة فيه؛ هذه الزاوية للبقرة، وتلك للدجاج، وأخرى للخضار، وأماكن لنشر الغسيل. ويمكن رؤية الأطفال والنساء مشغولين على أسطح المنازل وفي الباحات؛ فيما الرجال ـ كما هو شائع في شمال القوقاز ـ ليسوا موجودين لنتمكن من رؤيتهم.
يقع قبر غازي محمد، الإمام الأول، على مشارف القرية. ويوجد داخل مبنى بسيط على شكل كوخ يشبه الضريح، وهو مقصد لمريدي الطريقة الصوفية. كما هو حال مكان موته في الوادي الضيق، هناك مئات المناديل الملونة المعلقّة فوق الضريح، وترفرف تلك الرايات الحمراء والبيضاء والخضراء فوق العشب الذهبي الذي ينمو بسلام بين حجارة القبر.
رغم أن للقرية تاريخاً دامياً، لكن لم تنشب أي حرب هنا منذ 70 سنة مضت، والآن المسجد مفتوح دائماً بعد أن رحل الشيوعيون. لقد اختفت الكثير من المخاوف القديمة. لقد أمعنت النظر في المنحدرات الصخرية السوداء ونحو النهر المتعرّج الذي يعبر الوادي، وأخبرت حسين عن مدى دهشتي لمدى تطابق الحقيقة مع لوحات القرن التاسع عشر الرومانسية التي رسمها بعض الضباط الروس. ولم يكن ذلك المديح في موقعه الصحيح لأن حسين أخبرني: "لا تأتِ على ذكر الضباط الروس أبداً. لقد دمروا جيمري ثلاث مرات أيام شامل كما تعرف. ولا أستطيع إحصاء عدد المرات التي دمروا فيها محاصيلنا بحيث لم يعد لدينا ما نأكله". ويبدو من المستحيل نسيان الماضي في مثل هذه الحالة.

وما يزال أهل شمال القوقاز يتذكّرون حكم شامل بالكثير من الفخر. وبخلاف القادة السابقين، لم يتحدَّ الروس وحسب، وإنما لمّ شمل المقاومة لمدة ثلاثة عقود، ونفّذ عمليات عسكرية ضد الجيش الذي هزم نابليون. وإلى جانب كونه عبقرياً عسكرياً، كان قائداً دينياً استخدم الإسلام وقسوته الشخصية للوصول إلى قلب فروع القبائل المختلفة وتوحيدها في إطار الجبليين المسلمين. دمّر الجيش الروسي القاسي في النهاية فرسان، ومدفعية، وسيوف الاتحاد الذي شكّله شامل، ولكن ثقافة المقاومة عاشت لغاية يومنا هذا، هي ما شكّلت أسطورة شامل الكبرى.

لقد فرض شامل نمط حياة قاسٍ وقوانين الشريعة الإسلامية الصارمة على أتباعه، وشنّ حرباً ضد الغازي الجبار دون النظر إلى النتائج. لكنه كسب احترام كل سكّان الجبال، وأرعب غير الملتزمين بأسلوبه وأمّن الحماية لأي قرية كان الروس يهددونها. لقد كان الإمام قاسياً لا يرحم، وعرض رؤوساً مقطوعة للخونة على الملأ للعبرة، وقطع في إحدى المرات جسد سفاح إلى أجزاء صغيرة وأحرق أفراد عائلته أحياء. حاول الروس استغلال حالة عدم الرضا، ودبّروا سنة 1851 انشقاق أحد كبار قادة شامل ويدعى حاج مراد، وهو الشخص الذي خلّده تولستوي في روايته. لكن حكم شامل الدموي كان معتدلاً مقارنة بالفوضى التي تسبب بها الروس، الذين دمّروا العائلات والقرى ليس انتقاماً، ولكن كسياسة متبعة. كما يحدث غالباً في حروب العصابات، فضل المدنيون قسوة أحد أبناء ملتهم على الغزاة الأجانب.

كان شامل أيضاً إدارياً مبتكراً ومفعماً بالحيوية والنشاط. كان يفرض الضرائب، والغرامات، ويجد حلولاً لمشاكل الصراعات الدموية الداخلية، كما أنه عسكر المجتمع بالكامل. من بين المادة الخام لآلاف المقاتلين المدربين جيداً وغير المنظمين في صفوف جيشه، كان شامل ينتقي نخبة من الجنود الورعين الذين أسماهم **النواب**، واختار بعد ذلك قوة نظامية أكبر من **المرتزقة** الذين أتوا بمعدل رجل واحد من كل عشرة منازل لينضموا إلى الجيش. وكانت المنازل التسعة الأخرى تعتني بمتطلبات **المرتزق**.

في المعركة، استطاع شامل التغلب على جنرال روسي بعد الآخر، ولم يكن لقواته نظير عند القتال رجل لرجل. كتب أحد أفضل الجنرالات الروس في القرن التاسع عشر فليامينوف الآتي:

"رجال الجبال الأصليون متفوقون في أشياء كثيرة على فرساننا العاديين وقوات الجبليين الموالية لنا. يبدو أنهم ولدوا على صهوة الجياد، واعتادوا على ركوبها منذ نعومة أظافرهم، وأصبحت لديهم خبرة كبيرة في هذا المجال... إن النجاح في إتقان الفنون العسكرية ضرورة لا بد منها لأبناء البلد. ولا يستحق أحدهم بدون تلك المهارات بين مواطنيه أي صداقة، أو ثقة أو احترام. ويصبح عُرضة للسخرية، وموضعاً للازدراء حتى بالنسبة للنساء."

كانت قوات شامل تتكون أساساً من الفرسان، أو المشاة الذين يذهبون إلى أرض المعركة ويعودون على صهوة الجياد، فلم يكن لديهم سوى القليل من الأسلحة الثقيلة. كان يتمّ الاستيلاء على المدفعية، وهي نواة الآلة العسكرية الروسية، كما هي الحال في الحرب الشيشانية الحديثة، من العدو لاستعمالها في صنع أدوات يدوية بدائية - تكرر الشيء نفسه في الحرب الأخيرة. وطالما بقي أهل شمال القوقاز في أراضيهم، وبخاصة في الجبال العالية لداغستان وغابات الشيشان، وتمتعوا بالأفضلية نتيجة لذلك. يقول شامل الساخر: "أنا مجرد رجل جبال عادي. ولكن غاباتي وجبالي تجعلاني أكثر قوة من عدّة سلاطين. يجب أن أشكر ودياني لأنها ساعدتني كثيراً في القتال من أجل تحرير داغستان".

شكّلت الاشتباكات والغارات المفاجئة صلب تكتيكات الجبليين، وحتى أفضل الجنود الروس، الذين تمّ إرغامهم على الخدمة في أراضي العدو، كانوا في خطر عظيم. باستخدامهم للسيف المعقوف وخنجر الكنزال، تسبب أهل شمال القوقاز بخسائر كبيرة للقوات الغازية. يتكوّن المتحف غير الرسمي في جيمري من غرفة بسيطة من المقتنيات في منزل رجل عجوز، والتي تحتوي على سيفين معقوفين من القرن التاسع عشر. والسيفان مقوّسان قليلاً، وطويلان وما زالا حادّين. رغم أنهما خفيفان بشكل مدهش، إلا أنه يقال إن نصال سيوف شامل كانت قوية جداً بحيث يمكنها رسم دائرة دون أن يصدر عنها أي صوت. ويقول ألكسندر دوما: "قد يرتدي الشيشاني، أو الشركسي ملابس رثّة، لكن سيفه، وخنجره وبندقيته تكون دائماً من النوع الممتاز. ما يزال بعض الجبليين يمتلكون سيوفاً تعود إلى عهد الصليبيين، وما يزال بعضهم يرتدي معاطف سعاة البريد ودروعاً يزينها الصليب الأحمر، غير مدركين تماماً أنها تذكارات من غزو القدس أو القسطنطينية. وكل ما يعرفونه هو أن هذه النصال ما تزال حادّة كالشفرات".

كان باستطاعة الروس الاستيلاء على أي هدف بتخصيص ما يكفي من الرجال والسلاح له. ولكن كما اكتشف الخلف في حرب الشيشان الحديثة، فإن السيطرة على الهدف لا تعني السيطرة على الشعب أو المنطقة المحيطة. والأسوأ من ذلك أنه كلما زاد توغل الجيش في الأرض، كلما أصبح مكشوفاً أكثر أمام كل أنواع الهجمات التي كان ينفذها شامل. وتعتبر أكثر تلك الحملات العسكرية دموية هي تلك التي قادها الكونت فورونتسوف سنة 1845 للاستيلاء على مركز قيادة شامل في دارغو. وترأس فورونتسوف، القائد الجديد والمحترم للشيشان، جيشاً من 21.000 جندي،

وتقدّم دون مقاومة تذكر نحو سفوح الجبال. وفي 18 تموز، 1845، قاد جيشاً من 11.500 جندي نحو دارغو، وهي قرية بائسة كان المخططون الاستراتيجيون في سانت بطرسبرغ يتوهمون أنها قاعدة عسكرية رئيسية.

تقدّمت الحملة العسكرية جيداً، وحصل فورونتسوف على رضا القيصر نيكولاس الأول. لكن شامل لم يكن قد هُزم بعد، وإنما قام بانسحاب تكتيكي، وهو تراجع تقوم به الأفعى قبل الهجوم. عندما وصل الروس إلى نقطة اللاعودة، اتضحت صعوبة موقفهم مع كل عملية ثانوية مثل مطاردة فلول الشيشانيين في الغابات المحيطة، والتي كبّدتهم المزيد من الضحايا. لم تكن رؤية العدو الذي يقوم بعمليات القنص وينصب الكمائن في الغابات ممكنة. لقد كانت مصيدة شامل محكمة الإغلاق.

بدأ حمام الدم عندما بدأت إمدادات محتلي دارغو بالنفاد. تمّ إرسال جزء من تلك القوة لطلب التعزيزات، ولكنها وقعت في كمين رهيب في الغابة نجم عنه مقتل 556 وجرح 858 شخص، وأصبحت باقي القوة في دارغو دون طعام أو ذخيرة. في 25 تموز، بدأ فورونتسوف انسحاباً كاملاً من السهول. لكن الكابوس كان أبعد ما يكون عن الانتهاء. أثناء تراجع الجيش المتعب والممزق، والمثقل بأعداد كبيرة من الجرحى، تابع شامل شنّ الغارات عليه، واحدة بعد الأخرى. مات الكثير من الرجال يومياً، وترك الجنود أمتعتهم من الرعب، وضاعت المدافع، وفي مواجهة السيوف وجد الجنرالات أنفسهم يقاتلون إلى جانب رجالهم. بحلول نهاية الشهر، وعندما وصلت القوة أخيراً إلى مكان الالتقاء بالتعزيزات في قرية آمنة، كان عدد القتلى من حملة دارغو يصل إلى 984 جندياً، من بينهم ثلاثة جنرالات، و2753 جريحاً و179 مفقوداً. ولم يتحقق أي شيء.

لخّص القنصل البريطاني في أوديسا، جيمس يميز، في تقريره عن تلك الكارثة الفرق الكبير في المعنويات بين الجانبين، ووصف القتال بين الجيش الإمبراطوري وثوار شامل - الذين يقاتلون دون مساعدة من العالم الخارجي - المستمر منذ عشر سنوات بقوله: "مُنيت القوات (الروسية)، المفعمة بالحيوية والنشاط في البداية نتيجة وجود قائد جديد ذي شخصية مرموقة، بانتكاسة كبيرة أدّت إلى حالة من الإحباط الأخلاقي الكبير، ويُخشى أن يكون شامل، والقبائل القوقازية الحرة، قد وصلوا إلى درجة خطيرة لا تنفع معها كل خطط التهدئة المستقبلية".

يا شباب شركسيا، اندفعوا إلى المعركة،
لأن الشباب الشجاع يحب الحرب دائماً.
وإذا متّم ستصبحون شهداء، وإذا نجوتم ستحصلون على نصف المجد!
أغنية حربية شركسية من القرن التاسع عشر.

في الغرب، قرب البحر الأسود، لم ينضم الشراكس أو أهل أديجي إلى دولة شامل المتشددة. ورغم أن المبشرين العثمانيين نجحوا في تحويل بقايا المسيحية والوثنية إلى الإسلام، إلا أن أهل أديجي لم يكونوا مهتمين بالتحوّل إلى مريدين أو أتباع الصوفية النقشبندية. ورغم هذه الفروق الدينية، إلا أنهم خاضوا حرباً شرسة ضد نفس العدو، وباستخدام نفس التكتيكات.

سجّل جيمس بيل واحدة من أفضل وثائق شهود العيان في القتال الشركسي، وهو أحد البريطانيين القلائل الذين لعبوا دوراً غير رسمي من خلف الستار في تشجيع الثوار. تشير كل الدلائل أنه ساهم في تزويد الثوار بمساعدات ضخمة من لندن. وفي كتابه *إقامة في شركسيا - 1837، 1838، 1839*، يصف بيل الجو الاحتفالي الذي تحضّر فيه مجموعة كبيرة من المقاتلين، والتي يبلغ تعدادها حوالى 1500 شخص، نفسها لتنفيذ غارة داخل الأراضي التي تحتلها روسيا. كما هي العادة، ولمنع تسرب الخبر عبر الجواسيس، لم يتمّ تحديد هدف الغارة سوى في اللحظة الأخيرة مع التأكيد على الانضباط الصارم. وكتب بيل: "كان المشهد العام غير مألوف، ومثير، ورائع. تجمع

من الجبليين المحتشدين، رجالاً وفتياناً، رُكباناً وعلى الأقدام، وقد اختلط الحابل بالنابل، مع رايات زعمائهم المحترمين ترفرف فوقهم؛ غزو تطوّعي لإمبراطورية عظمى للثأر من تخريب منازل مواطنيهم".

الفرق الرئيسي في العمليات الحربية عند هذا الطرف من القوقاز أنها جرت على طول ساحل البحر الأسود، وتضمنت قصفاً بالقنابل من سفن البحرية الروسية. كما واجه رجال شامل المدفعية من الغابات، كان الشراكس في أدنى نقاط ضعفهم عندما واجهوا النيران من الأسلحة الكبيرة. لم يكونوا قادرين على فعل شيء سوى في القتال القريب؛ ثم هلكوا جميعاً. وكتب بيل: "لم يستجب سوى **محمد** للدخول في تحدّي على الأرض، وقاتل".

> **"أطلقت السفن نيران مدفعيتها لبعض الوقت، ونزلت كتيبتان مؤلفتان من حوالى 3000 رجل مع قطعتي مدفعية إلى الشاطئ على زاوية الخليج تحت غطاء من النيران الكثيفة. منع الهجوم المباغت أي قوة شركسية معقولة من التجمّع، وانتشر مباشرة حوالى 10.000 مقاتل في الجوار، والذين بقوا في مجموعات خلف ما يمكن للوادي أن يقدمه من تغطية حتى تمكّنت المدفعية الروسية من التقدّم عبر البساتين. نتج عن ذلك صراع دموي، وقاتل، كما هو مذكور سلفاً، لصد الروس الذين لم يكونوا قادرين على التقدّم أكثر من نصف الطريق نحو القرية الصغيرة، والتي كانوا ينوون تدميرها دون أدنى شك."**

كان الشراكس وشامل على اتصال مستمر، وكانوا يشجعون بعضهم البعض بأخبار آخر النجاحات، ولكن القبائل لم تتّحد مطلقاً. لقد فشلت محاولة شامل الجريئة والواسعة النطاق لنقل المعركة إلى منطقة كاباردا المركزية الحاسمة، ومعظم أراضي ما يطلق عليه اليوم أوسيتا، سنة 1846 نتيجة للحظ السيئ، والمناورات الروسية الذكية والتردد القاتل لقبائل كابارد. لقد أدرك شامل متأخراً أن حملة كاباردا، التي تشير إلى حدود قدراته الهجومية البعيدة المدى، تشكّل قمة الذروة بالنسبة له. استمرت المقاومة بشكل مثير للدهشة من جبل إلى آخر بالنسبة للجيل التالي، ولكنها تحوّلت إلى حرب دفاعية آنذاك ضد مهاجم مزود بموارد غير محدودة تقريباً، وأصبحت بالتالي حرباً لعينة.

ترافق فشل الهجوم الذي قام به شامل أيضاً مع بداية قيادة نائب الملك فورونتسوف للمنطقة. وبالرغم من أن شهرته أتت من كارثة دارغو، إلا أن فورونتسوف في الواقع هو من أمر بوضع خطة مبكّرة لخنق المقاومة ببطء وصبر. لقد كتب مؤلف الخطة فليامينوف سنة 1828 الآتي:

> **"يمكن تشبيه القوقاز بالقلعة القوية، المحصّنة بقوة الطبيعة، والمحمية بالحواجز العسكرية الاصطناعية، والتي تذود عنها العديد من الحاميات. ولن يحاول سوى رجل مخبول اختراق هذا المعقل. سيرى القائد الحكيم ضرورة الاستعانة بالفنون العسكرية؛ وسيكون عليه تحديد الخطوط الدفاعية التي تتقدمها الخنادق وحقول الألغام ليحكم السيطرة على المكان."**

تمّ نشر 500.000 جندي روسي في المنطقة تدريجياً، وضاق هامش المناورة على المقاتلين، وانقطعت عنهم سبل الإمدادات. تمّ تجميع المدنيين المتعبين في السهول، حيث يمكن السيطرة عليهم بسهولة أكبر. لقد تمّ دفع الرشى وتقليد المناصب للقادة المحليين الراغبين في التعاون مع الروس. لم يكن دفع رجال المليشيا للقتال خلافاً لشروطهم الخاصة في الشيشان بالأمر السهل لأن البلاد مليئة بالغابات الكثيفة مما يجعلها كلها تقريباً أمكنة مناسبة لشن الهجمات المباغتة. كان ردّ فعل الروس يتجلّى في قتال الأشجار وليس العدو. تمّ قطع أو حرق مساحات واسعة من الغابات، والتي لا يمكن تعويضها أبداً، لإخراج رجال شامل من مخابئهم. عندما كانت الشجرة أكبر من أن يعمل فيها الفأس، كان يتمّ تفجيرها.

كانت فرصة الجبليين الحقيقية الوحيدة تتمثل في التدخل الخارجي. كانوا يستطيعون القتال لسنوات، لكنهم لم يكونوا يستطيعون إجبار الروس على التراجع سوى بمساعدة من الأتراك أو البريطانيين. كان هناك سبب للأمل. بشكل عام، استطاعت شعوب أخرى كان أعداؤها يفوقونها عدداً مثل الإغريق الحصول على دعم دولي لصراعها من أجل الاستقلال في القرن التاسع عشر. كان شامل يعتقد على وجه الخصوص بأن المساعدة ستأتي من بريطانيا، ومن ثم من باقي القوى العظمى المنافسة لروسيا.

كان هناك جماعات دعم شهيرة في إنكلترا، وكانت الصحف تمتلئ بإنجازات الجبليين. كتبت صحيفة *التايمز* سنة 1846: "يُعتقد أن شامل، إمام داغستان، ما يزال صامداً في الجبال إلى الشمال من خونزاك. لقد اقتربت منه قوة من 4000 جندي روسي وقوقازي موالٍ لها بقيادة الجنرال غوركو، لكن تعزيزات الثوار التي يقودها تينغوز الذئب وأسد شيبسوك انطلقت من الجبال لتمزّق الخطوط الروسية". كان لدى شامل ممولون آخرون، وكانت روسيا وبريطانيا تلعبان عندها ما يسمّى **اللعبة الكبرى**، وهو صراع تجسسي لإحكام النفوذ على آسيا الوسطى، والسيطرة أخيراً على الهند، جوهرة التاج البريطاني. خاف بعض البريطانيين من أن تقوم روسيا باستخدام القوقاز كمعبر إلى آسيا، وأن تحاول غزو الهند، ولهذا السبب طالبوا بمساعدة شامل ليصدّ تقدم الروس. لكن أولئك المحاربين لم يكسبوا الجدال أبداً. ورغم أن شامل طلب المساعدة بشكل مهذّب في رسالة إلى الملكة فكتوريا، إلا أن الجواب الذي لطالما رغب به لم يصل أبداً.

> **كتب شامل: "السنوات عديدة أيتها الملكة المبجلة، خضنا حرباً ضد روسيا، التي غزتنا. يجب علينا الدفاع عن أنفسنا كل سنة ضد الجيوش الغازية الجديدة التي تتدفق على وادينا. إن مقاومتنا عنيدة، ويجب علينا إرسال نسائنا وأطفالنا بعيداً كل شتاء إلى مخابئهم في الغابات، حيث لا شيء هناك، لا طعام، لا ملجأ ضد البرد القارس. ومع ذلك تأقلمنا مع هذا الوضع الجديد. إنها مشيئة الله... ونتوسل إليكِ، ونحثّك أيتها الملكة على مساعدتنا."**

كان لدى الشراكس فرصة حقيقية للحصول على المساعدة، فقد كانت حربهم في قلب صراع القوى بين روسيا وتركيا للسيطرة على البحر الأسود، وفي صلب اهتمامات القوى الأوروبية لمنع روسيا من قتال الإمبراطورية العثمانية السيئة الطالع. في لندن، وباريس، وإسطنبول وموسكو، كان واضعو الخطط الاستراتيجية يراقبون عن كثب مقاومة الشراكس على طول نهر كوبان، وسفوح جبال القوقاز وساحل البحر الأسود.

أتت الفرصة العظيمة في حرب القرم عندما أخرجت بريطانيا، وفرنسا وتركيا روسيا من ميناء سيفاستوبول في القرم سنة 1855، ونتيجة لذلك من البحر الأسود. حاول قائد الجيش التركي عمر باشا الاستفادة من الموقف، وقام بإنزال قوات في القوقاز لدفع الروس نحو الشمال. لكن جيشه الضخم وقادة شمال القوقاز فشلوا في التنسيق، ولم يكن الشتاء فصلاً مناسباً لتلك العملية، ولهذا أضاع الأتراك اللحظة التاريخية، وانسحبوا سنة 1856 من المنطقة. لم يكن أحد يستطيع إنقاذ تلك الحملة العسكرية سوى المساعدة البريطانية، لكن نتيجة للكلفة الباهظة التي تكبّدتها للفوز في حرب القرم، لم تكن لندن متحمسة للقتال من جديد إلى جانب الأتراك.

كانت معاهدة باريس سنة 1856، التي أنهت حرب القرم، المسمار الأخير في نعش شمال القوقاز. رغم اعتبار البحر السود منطقة منزوعة السلاح، وإنهاء عمليات البحرية الروسية فيه، إلا أن روسيا استعادت شبه جزيرة القرم، وتخلّت تركيا عن مطالبتها بساحل البحر الأسود وهو ما كان يعني التخلي عن الشراكس. أصبح بإمكان روسيا آنذاك تحويل كامل اهتمامها بعد انتهائها من القرم إلى شمال القوقاز؛ لقد كانت النهاية قريبة.

في سنة 1859، قاد الأمير بارياتنسكي 40.000 جندي للقضاء على شامل. وحوصر **أسد داغستان** في قرية كونيب الداغستانية الجبلية. لم يكن معه سوى 40 رجلاً، وفي ذلك الوقت، تخّلى عنه شعبه الذي تعب من الحرب وإراقة الدماء. بعد حصاره من قبل جيش هائل، لم يكّن لديه سوى خيار واحد: إما الاستسلام أو إرسال آخر رجاله إلى حتفهم. أدرك شامل مصيره، وسلّم نفسه بكامل الشرف العسكري. تقول الأسطورة أن بعض الشيشانيين في مجموعته استطاعوا الهروب واستمروا في القتال لسنة أخرى. لكن حرب شامل الملحمية التي امتدت ربع قرن انتهت في كونيب، وانتهت معها إمامته وطريقته الصوفية المريدية المخيفة.

كان بارياتنسكي، الذي حلّ مكان فورونتسوف كنائب للملك في القوقاز، شخصاً أرستقراطياً مثيراً للانتباه، وجنرالاً لامعاً. في مقارنة مع يرملوف، قام بارياتنسكي برشوة القرى المسلمة عوضاً عن إحراقها. كذلك أتقن الاستراتيجية العسكرية في تطويق الجبال وتدمير الغابات. كان إلقاء القبض على شامل في كونيب، وهي قرية يسكنها الآفار، وتجثم على سفح أحد الجبال، عرضاً رائعاً للقوة الكاسحة التي يمكن استخدامها بطريقة هادئة ومنهجية.

لم يبقَ من كونيب الأصلية الآن سوى الخرائب التي يمكن بالكاد تمييزها، وتمّ بناء قرية جديدة إلى الأسفل قليلاً من الجبال. يمكن الوصول إلى المكان المكشوف الآن والذي حصل فيه الاستسلام عبر طريق موحل. لقد تمّ استخدام برج صغير من الحجارة البيضاء للدلالة على المكان، ولكنّ القوميين الآفار نسفوه قبل عدّة سنوات وفقاً لأقوال للسكان المحليين، ولم يتبقَ سوى كومة من الحجارة اللامعة. بالقرب من ذلك المكان، ترك أتباع الطريقة الصوفية أشرطة ملونة لتزيين أشجار الكرز التي تنمو حول أنقاض المسجد الذي كان شامل يصلي فيه. إلى الأسفل من التل، توجد ثكنة عسكرية أقام فيها الجنود الروس عندما أطلق الرئيس بوريس يلتسن الحرب ضد الشيشان. ويقع معسكرهم خلف الحصن الحجري القديم، والذي تنتشر فيه المشاعل، والذي بناه أسلافهم قبل قرن ونصف.

استمر استسلام شامل في إشعال خلاف حاد في شمال القوقاز. بعد تسليمه لسيفه المعقوف، تمّ ترحيله إلى روسيا حيث تغيّرت حياته كلياً. بدأ الرحلة بزيارة إلى سانت بطرسبرغ، ثم عاش في الإقامة الجبرية في كالوغا، ليس بعيداً عن موسكو، وعقد صداقة مع القيصر ألكسندر الثاني، ودفن نفسه في الدراسات الدينية. أصبح أحد أبنائه جنرالاً روسياً، وآخر جنرالاً تركياً. عاد أحد أحفاد شامل إلى القوقاز وقاتل الروس في داغستان في عشرينيات القرن العشرين.

مات شامل سنة 1871 بعد سماح القيصر له أخيراً بتنفيذ رغبته الكبرى؛ الحج إلى مكة. لقد كانت نهاية غريبة، فقد تحوّل الأسد إلى حمَل وديع؛ المحارب المبارك، والرجل المبارك. لم تكن آخر أيام الإمام مفاجئة لأولئك الذين عرفوه. كان هناك الكثير من الدلائل على نهجه السلمي، أو على الأقل إنسانيته العادية، حتى في أحلك ساعات صراعه مع الإمبراطورية الروسية.

في سنة 1839، وخلال إحدى أعنف المعارك لإحكام السيطرة على أخولكو في داغستان، خطف الجنود الروس ابن شامل البالغ من العمر سبع سنوات فقط والذي يدعى جمال الدين. تمّ إرسال الصبي إلى سانت بطرسبرغ، وتولّى رعايته القيصر نيكولاس الأول شخصياً، وأصبح شخصاً روسياً بالكامل، ونسي جذوره الجبلية. لم ينسَ شامل كلاً من ابنه وعملية اختطافه. في سنة 1854، أسر رجاله الأميرة الجورجية آنيت تشافشادز، وأصبح شامل قادراً أخيراً على استرجاع ابنه. يقال إن شامل الأقسى من الصخر بكى. لكن المأساة ازدادت عمقاً، لأن جمال الدين لم يستطع التعرف على والده بعد ترعرعه في بلاط القيصر. لم يستطع ذلك المخلوق الذي نشأ في أرض

غريبة التأقلم مع حياة الجبال القاسية، وازداد شوقه إلى العالم الوحيد الذي عرفه - عالم العدو - فمات في غضون أشهر قليلة.

قدّمت الأميرة تشافشادز بعد إطلاق سراحها شهادة غريبة فريدة عن شخصية شامل. رفعت تلك المرأة الفاتنة، والتي كانت محظوظة للنجاة من محنتها، من شأن ذلك المقاتل الزاهد، وقالت عنه إنه صادق، ومتقشف، وحكيم، ويحب القطط حباً جمًّا.

قال حسين خزيماكوميدوف الذي يتحدّر من نسله: "يقول البعض إنه أخطأ بالاستسلام، وتوجّب عليه القتال حتى آخر رجل".

> **"لكني أعتقد أنه فعل شيئاً حكيماً. نعم، كان يمكنه القول "النمت جميعنا"، لكنه لم يفعل ذلك، وعوضاً عن ذلك قدّم نفسه فداءً لكل الآخرين. وكان متأكداً أنهم سيقطعون رأسه أو سيشنقونه عندما يستسلم. وكان يعرف أنهم إذا استمروا بالقتال سيموتون عن آخرهم، وكان يعرف ما قد يحل بالقرية بعد ذلك. قال الناس إنه كان خائفاً، لكنّ ذلك القول سخيف. لقد واجه ذلك الرجل كل المواقف المخيفة، وجُرح عشرات المرات، وعوضاً عن ذلك، أظهر سمو مقامه ليس كمحارب فقط وإنما كسياسي أيضاً. لقد أدرك أن الناس متعبون من الحرب."**

كانت نهاية شامل محط اهتمام الشراكس الذين تفرّقت مقاومتهم، وأدركوا أنهم لا يستطيعون الاستمرار أكثر من ذلك. بالعودة إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أخبر أحد زعماء الشراكس جيمس بيل بالآتي:

> **"لا يستطيع الروس قهر هذا البلد. قد يستطيعون، بسبب قوة سفنهم ومدافعهم، وضع أنفسهم على بعض النقاط الأخرى من ساحلنا، ومن المؤكد أنهم يستطيعون السيطرة عليه كله، لكن ذلك لن يشكل فرقاً في تصميمنا على المقاومة حتى النهاية، لأنهم إذا احتلوا هذه التلال سنتراجع إلى تلك الجبال التي تكسوها الثلوج ونقاتلهم."**

للتاريخ، حافظ الشراكس على كلمتهم، واستمروا بالقتال خمس سنوات أخرى بعد هزيمة شامل حتى تمّ القضاء عليهم أيضاً في معركة أيبغا التي استمرت أربعة أيام في التلال في أيار من سنة 1864.

بخلاف أرض داغستان القاسية، سكن الشراكس أرضاً زراعية خصبة. وكان لديهم أيضاً ساحل البحر الأسود الهادئ والاستراتيجي. كان السكّان العقبة الوحيدة التي تقف بين روسيا وتلك الأرض الغنية. لهذا عندما انهارت المقاومة العسكرية أخيراً، حوّلت القوات الروسية انتباهها نحو التطهير العرقي المنظم. قامت القوات المحبطة من معارضة هؤلاء الناس البسطاء التي استمرت 35 سنة بتنظيم عمليات حرق وسلب واسعة النطاق. وأصبحت الجبال - تلك الحصون الشامخة - خاوية على عروشها.

كتب بارياتنسكي سنة 1860: "حطّموا مقاومة الجبليين. أخرجوهم من الجبال إلى السهول وضعوا أهل جنوب القوقاز والروس في الأماكن التي تسيطرون عليها". اندفع حوالي 400.000 إلى 500.000 شركسي إلى الساحل، حيث ركبوا السفن المتوفرة، بما فيها تلك التي وفّرها الروس، ورحلوا إلى تركيا، هاجرين ما كان وطنهم منذ فجر الزمان. مات الآلاف نتيجة الأوبئة والجوع في ذلك الهروب المرعب المخزي. هناك قصص عن الزعماء الشراكس المهزومين الذين امتطوا صهوة جيادهم المثقلة بالأسلحة وتوجهوا إلى البحر عوضاً عن مواجهة ذلك العار.

تمّ فصل قبائل أديجي التي بقيت عن بعضها البعض، ووضعها في مناطق خاصة تسهل السيطرة عليها. تحرّك أهل جنوب القوقاز أخيراً إلى جانب المستوطنين السوفيات الآخرين نحو تلك الأرض التي تمّ إعلانها جزءاً مكملاً من روسيا. اليوم، تنتشر القبائل الشركسية في ثلاث جمهوريات

منفصلة تتمتع بالحكم الذاتي، وهي أديجي، وكاراشي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكاريا. وعلى ساحل البحر الأسود الذي كان مسرحاً لنزاعات ساخنة فيما مضى، لا وجود لقبائل أديجي إطلاقاً، وإنما بعض قبائل شابسوغ، وهناك مستوطنة سوتشي الساحلية والتي تعتبر مقصداً صيفياً لأغنياء روسيا. حتى في جمهورية أديجي نفسها، لا يشكل عرق أديجي المتحدّر من ميوتان مملكة البوسفور سوى أقلية، والبقية من القومية السلافية. على الساحل إلى الجنوب من الجبال، ضمن جورجيا، حولت عمليات الترحيل قبيلة أبخاز إلى أقلية أيضاً. قال لي طبيب في ميكوب، عاصمة أديجي: "يوجد في أميركا هنود ومحميات؛ وهذا ما فعلوه بنا هنا".

وبالإضافة إلى الشراكس، تمّ إجبار العديد من الشيشانيين، والأنغوش، والداغستانيين والأوسيت المسلمين على الرحيل عن منازلهم. ولا يمكن معرفة عدد أهل شمال القوقاز الذين تمّ تهجيرهم على وجه الدقة بسبب عدم وجود سجلات لهم. من كان لديه الاهتمام الكافي لإحصائهم؟ تشير التقديرات الكلية إلى 1.2 مليون شخص، ويمثلون أكثر من ربع سكان المنطقة في ذلك الوقت. واليوم، يبلغ تعداد سلف الشراكس والقوقازيين المنفيين ما بين واحد و3.5 مليون طبقاً لتقديرات مختلفة، ويعيشون في تركيا، والأردن، وسورية وفلسطين المحتلة (إسرائيل) وحتى في الولايات المتحدة. شعب بأكمله تشرد في مهبّ الريح.

وبالرغم من عدم قدرة أحد خلال أيام الهزيمة على معرفة ذلك، إلا أن مأساة التطهير العرقي لقومية أديجي تكررت على نطاق أوسع بعد 80 سنة فقط؛ ليس بفعل القياصرة هذه المرة، وإنما بفعل رجل سمّى نفسه جوزيف ستالين.

نوفوسفوبودنايا، أديجي

يقول حمزة كازانوف، أستاذ التاريخ الأشيب من أديجي، والذي اصطحبني إلى قرية نوفوسفوبودنايا القوقازية، والبعيدة في أعماق الجبال: "ادّعوا اليوم أن هذه الأرض كانت دائماً روسية، وأرادوا منذ زمن ليس ببعيد الاحتفال بالذكرى 150 بما يدعونه إنشاء سوتشي، لكن شعبنا كان هناك قبلهم بقرون عديدة."

مشينا معاً إلى موقع يوجد فيه أنقاض كنيسة. لقد شهد ذلك المكان سنة 1861 لقاء ألكسندر الثاني بزعماء الشراكس، وعرض عليهم حينها فرصة أخيرة للاستسلام. رفض الزعماء العرض، وأبيدوا في غضون ثلاثة أيام. شعر هؤلاء القوم بأنهم سينتصرون عندما بنوا هذه الكنيسة على شرف زيارة القيصر، ولكنها مهجورة اليوم. ما يزال قوس البوابة الكبيرة موجوداً، لكن ليس هناك جدران، ولا تقود تلك البوابة سوى إلى المزيد من العشب الذي ينمو بين الأحجار. كان هناك صرح مع تمثال نصفي للقيصر، لكن ذلك كله اختفى الآن، وتمّ تدميره وفقاً لما يقوله السكان المحليون إبّان الثورة الشيوعية. يقول كزانوف: "أتمنى أن يعترفوا فقط بأنه كان عليهم قتالنا من أجل هذا كله. وأنهم أخذوها منا عنوةً، وأنها المكان الذي عاش فيه أسلافنا."

4. الخيانة

يا شعوب أوروبا! تعلّموا القتال لنيل الحرية والاستقلال من المثال البطولي لسكّان جبال القوقاز.

من البيان الشيوعي.

عندما استطاعت الثورة البلشفية الانقلاب على القيصر نيكولاس الثاني سنة 1917، وانفجرت الحرب الأهلية في كل أنحاء روسيا، اعتقد القوقازيون أن فرصتهم لنيل الحرية قد حانت. كان لا يزال الكثير من الناس الذين يتذكرون الإمام شامل على قيد الحياة. استمرت ثوراتهم على فترات متباعدة منذ الانتصار الروسي في نهاية القرن التاسع عشر، مثل العصيان الذي اجتاح معظم

المنطقة والذي تمّ التنسيق له بالتعاون مع القوات العثمانية خلال الحرب العثمانية - الروسية سنتي 1877 - 1878. ضربت دعوة لينين إلى الحرية، وحقوق الإنسان وإنهاء نظام القيصر المكروه على الوتر الحسّاس لدى الجبليين، الذين قال عنهم: "جرّدتهم المستعمرات الروسية بشكل منهجي من أخصب أراضيهم. ورُحِّلوا تدريجياً إلى الصحارى المقفرة، حيث واجه أولئك الناس الموت المحقق".

للاستفادة من انهيار السلطة المركزية، قامت عدّة محاولات لتوحيد شمال القوقاز في دولة واحدة مستقلة. مثلما فعل منصور وشامل فيما مضى، اعتقد القادة القوميون أن أملهم الوحيد يكمن في الوحدة بين القوميات الصغيرة. وإضافة إلى ذلك، كانت روح كورتسي القومية العامة بنفس قوة النعرات العرقية المختلفة، وتشكّل عاملاً هاماً في سبيل تحقيق الاتحاد. في بداية أيار 1917، وقبل انتصار البلاشفة في تشرين الأول، جمعت منظمة **جبليون متحدون** ممثلين عن داغستان، والشيشان، وأنغوشيا، وشمال أوسيتا، وكاباردينو - بالاكاريا، فيما لم توجّه الدعوة إلى قبائل أديجي الشركسية فقط. اتحدت تلك المنظمة مع جماعات في جنوب القوقاز في تشرين الأول، لكن عقد التحالف انفرط بسبب الثورة. في كانون الأول، تمّ إعلان تشكيل حكومة تيرك - الداغستانية، لكنها انهارت خلال ستة أسابيع. شكّلت الثورة البلشفية جمهورية تيرك الموالية لها في آذار 1918 على نفس الأراضي التي تشكلت عليها السلطة المنهارة.

جاءت أكثر المحاولات التي قام بها القوميون جدَّية للاتحاد ضد حكم الروس وفوضى الحرب الأهلية الحمراء - البيضاء في نيسان 1918، مع إنشاء جمهورية **جبال شمال القوقاز**. وأعلنت الحكومة الجديدة، التي خلفت منظمة **جبليون متحدون**، السيطرة على معظم الأجزاء الشرقية من شمال القوقاز، وفي 11 نيسان، أعلنت الاستقلال، ووقعت اتفاقية صداقة مع تركيا، وتلقّت وعوداً بالمساعدة من البريطانيين والقوى الأوروبية الأخرى التي كانت تدعم الجيوش القيصرية في صراعها ضد البلاشفة.

لم يكن شمال القوقاز أقرب للفوز بالحرية مما كان في تلك الفترة في عقول قادة جمهورية الجبال. كتب وزير الخارجية حيدر باميت رسالة من المنفى يصف فيها إعلان الاستقلال بأنه: "كان نتيجة منطقية للعملية التاريخية التي بدأت بقتال استمر قرناً كاملاً لتحقيق الاستقلال، وقام به أهل شمال القوقاز ضد الإمبراطورية الروسية. كانت فترة عبودية قاسية تخللتها الثورات، والعصيان المسلح وترحيل قرى بأكملها إلى سيبيريا". كان هناك خطة لإنشاء فيدرالية تشمل كامل القوقاز، وذلك بتوحيد الشمال مع الدول الجنوبية الثلاث: أرمينيا، وأذربيجان، وجورجيا والتي أعلنت الاستقلال بعد ظهور جمهورية الجبال مباشرة.

لكن ثبت أن نظرة جمهورية الجبال واهمة، فقد نتج عن إعلان الاستقلال اندلاع القتال بين الجبليين والسكّان المحليين من القوميات الأخرى، مما أنهى فترة تعاون قصيرة بين الأعداء التاريخيين. من الداخل، كانت حكومة الجمهورية منقسمة حول دعم الجنرال *الأبيض*، أنطوان دينكن، في صراعه الطويل ضد البلاشفة. كان هناك إشارات على أن دينكن سيعترف بجمهورية الجبال مقابل مساعدته ضد الجيش الأحمر، وقد أحكم السيطرة على المنطقة بمساعدة سكان القوميات الأخرى. شنّ الأنغوش عمليات حربية استمرت أسبوعاً كاملاً، لكنهم تراجعوا عندما فشلت جمهورية الجبال في تقديم المساعدة لهم. كان هذا التراخي سبباً في فتح الشيشان وداغستان أمام دينكن، وبحلول نيسان 1919، توقفت الجمهورية عن أداء أعمالها، وتفرّق قادتها.

ظهر من بين الرماد اتحاد أشد تطرفاً، كان شغله الشاغل العمل على إخراج الروس من البلاد مهما كلف الأمر، وإعلان **إمارة شمال القوقاز**. لقد أنشأ ذلك التحالف سنة 1919 أوزون حاجي، وهو شيخ شيشاني من أتباع الطريقة النقشبندية ويبلغ من العمر تسعين عاماً. كان ذلك التحالف يغطي نظرياً نفس الأراضي التي شغلتها جمهورية الجبال الأولى، والذي قرر إنشاء دولة إسلامية متشددة ترتبط بتركيا، وتطبّق الشريعة الإسلامية حصراً. كان البلاشفة قد وعدوا الجبليين عندها، انطلاقاً من مصالحهم الانتهازية، بأن يحترموا حكمهم الذاتي وحريتهم الدينية مقابل مساعدتهم في هزيمة دينكن. بحلول شباط 1920، أخرج تحالف الجيش الأحمر مع حركات شمال القوقاز الاستقلالية الجيش الأبيض من المنطقة. تمّ استقبال السوفيات كمحررين. لكن سرعان ما خابت آمال أهل شمال القوقاز مجدداً، لأن الشيوعيين سرعان ما احتلوا القوقاز بأكمله، شمالاً وجنوباً، وفرضوا الحظر على الإمارة وبقايا جمهورية الجبال، وقاموا بإعدام الكثير من الأشخاص الذين ساعدوا الجيش الأحمر على طرد دنكين أو وضعوهم في السجن.

ماتت أحلام الاستقلال، ولكن جذوة المقاومة استمرت بالعيش في ظل حكم الروس المناهضين للإسلام في جبال داغستان والشيشان. أعلن القوقازيون *الغزوة*، أو الحرب المقدّسة، وكان التمرد في سنتي 1920 - 21 انتحارياً مثل كل ثورات شمال القوقاز الأخرى. لم يستطع الثوار حشد سوى 10.000 رجل مسلحين ببنادق قديمة، وسيوف و40 رشاشاً، وواجهت قوة القرويين هذه جيشاً سوفياتياً متمرساً بالقتال مؤلفاً من حوالى 40.000 رجل، ومزوداً بأسلحة ثقيلة وحتى بطائرات حربية. لكنّ الشعبين الداغستاني والشيشاني دعما المقاتلين الذين اتصفوا بالشجاعة والتقيّد بتعاليم الصوفية الروحانية. في النهاية، ربح السوفيات بالطريقة التي ربحت بها الإمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر بخنق الثورة وادياً بعد وادي، وترحيل أو ذبح المناصرين المدنيين دون رحمة، ولكن المقاومة كانت ملحمية. اتخذت المعركة الأخيرة في كيدتال جنوب داغستان أسلوباً قوقازياً صرفاً. وواجه ما لا يزيد عن 300 ثائر مسلحين بأربعة رشاشات فقط ستة أفواج مشاة وأربع فصائل فرسان. قاتل الثوار حتى النهاية، ولم ينجُ منهم أحد.

حياة مديدة أيها العزيز ستالين!
هذا أملنا وابتهالنا لأجلك.
لقد استعاد القوقازيون شبابهم،
وسيأتون إليك، وشعبهم يغني:
اسم ستالين يلمع مثل النجمة!
أنت، وآباؤنا وإخوتنا،
منحتمونا السعادة، وفتحتم
بوابات واسعة إلى فرح المستقبل.
حياة مديدة أيها العزيز ستالين!
هذا أملنا وابتهالنا لأجلك.
من أغنية شيشانية عن ستالين في الفلكلور الشيشاني - الأنغوشي سنة 1940.

أحضرت الشيوعية معها الكهرباء، والتعليم، والمستشفيات، وشقّت الطرقات، واستفادت من ذلك حتى قرى الجبال العالية التي كان سكّانها يعيشون في العصور الوسطى. كانت الرواتب، والبيوت، والعطلات الرسمية والدور الاجتماعي لكل رفيق أشياء ثابتة وغير قابلة للنقاش، مثل حصص الطعام. فاقت أعمال الشيوعيين الحالمين في بعض الأحيان التوقعات، ولم يتمّ إعلان منطقة شمال القوقاز كفردوس وحسب وإنما أصبحت مقصداً رئيسياً للسائحين السوفيات. انتشرت **التورباز**، أو المنتجعات السياحية، في كل مكان بما فيها عشرات مراكز المياه الساخنة. ارتادت نخبة الحزب

الشيوعي مدينة سوتشي، وترددت على أكواخ صيد خاصة بها في جبال كاراشاي، فيما قام الحزب بتنظيم رحلات سياحية لعمّال المصانع من كل أنحاء الاتحاد. أصبح القوقاز، الذي كان مسرحاً لصراع مرير في الماضي، مكاناً للاستمتاع بالشمس، والمياه المعدنية، والتزلج، والمشي في الجبال، والفنادق السياحية الفخمة.

بدأ الحكم السوفياتي بسياسية مرنة ملفتة للأنظار، وقد سمحت **جمهورية الجبال السوفياتية** التي وحّدت معظم شعوب القوقاز باعتماد الشريعة الإسلامية فيها إضافة إلى اكتسابها حكماً ذاتياً واسعاً. لكن ذلك لم يدم طويلاً، وبين 1921 - 1924 عملت موسكو على تقسيم كل قومية إلى جماعات صغيرة يسهل السيطرة عليها، ظهرت في تلك الأثناء "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية المتمتعة بالحكم الذاتي"، وما يدعى بمناطق الحكم الذاتي.

لم تكن تلك المناطق منفصلةً عرقياً سوى بالاسم. وكانت حكومة "الجمهورية الاشتراكية" مرتبطة بموسكو مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للمناطق، لكن معظم قادتها كانوا من العرق الروسي، ولم يكن مسموحاً سوى لبعض الأشخاص البارزين في المجتمع المحلي بالوصول إلى مراكز القيادة. لم تكن منطقة الحكم الذاتي أفضل حالاً. كانت جيوب الأقليات العرقية تلك تابعة إما إلى ستافروبول أو المناطق التي يحكمها الروس مباشرة، دون أن تستطيع تقرير شيء فيما يخص شؤونها. كانت خرائط وتقسيمات تلك المناطق عُرضة للتغيير باستمرار لأن المخططين الروس كانوا يعيدون رسم حدودها مراراً وتكراراً. مثّل التقسيم الأخير سنة 1936 متاهةً من الكينونات الاصطناعية التي تجمع بين جنباتها جماعات عرقية منفصلة ومتنافسة في أحيان كثيرة، كان ذلك بمثابة الضمان لاستمرار السلطة السوفياتية كقوة وحيدة. إنه المبدأ الإمبريالي القديم: فرّق تسد.

تمّ فصل قوميتي الآفار والشيشان، واللتين لطالما توحدتا في الحروب ضد الروس. وُضِعَ الآفار في "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية" في داغستان، فيما وضع الشيشانيون في "الجمهورية الاشتراكية السوفياتية" المشتركة بين الشيشان وأنغوشيا. حصلت أوسيتا الشمالية على جمهوريتها الاشتراكية الخاصة، لكن المنفصلة عن أوسيتا الجنوبية عبر الجبال التي تمّ إنشاء مناطق حكم ذاتي فيها تابعة لجمهورية جورجيا السوفياتية. واجه الشعب الشركسي مصيراً معقّداً بشكل خاص، إذ تحولت أراضي أديجي إلى منطقة حكم ذاتي تابعة لمنطقة كرسندار. تمّ ضم الشراكس إلى قومية كاراشاي الناطقة بالتركية في منطقة تتمتع بالحكم الذاتي تدعى كاراشاي - شركسيا تتبع ستافروبول. تمّ وضع الكابارد مع البالاكار الناطقين بالتركية في جمهورية كاباردينو - بالاكاريا الاشتراكية السوفياتية. نتج عن هذه السياسة، وبحركة واحدة، تقسيم ليس فقط الجماعات الشركسية وإنما جماعات كاراشاي والبالكار أيضاً.

توقع أهل شمال القوقاز أن يحصلوا على الحرية في نهاية الحقبة الانتقالية. وعوضاً عن ذلك، حصلوا على الإلحاد الشيوعي، واللغة الروسية، والموظفين الروس، والملكية العامة للأراضي. تمّ إغلاق المساجد أو تدميرها، وتمّ اعتقال رجال الدين أو قتلهم. حتى بعد حرب سنتي 1920 - 21، استمرت الثورات مع كل جيل وفي كل منطقة وصولاً إلى دخول الاتحاد السوفياتي الحرب العالمية الثانية. كان هناك تمرد ضد الاضطهاد الديني في داغستان سنة 1927، وضد شيوع ملكية الأراضي من داغستان إلى كاراشاي سنتي 1929 - 30، وتضمنت معارك كبرى ضد قوات الجيش النظامي في الشيشان. في صيف سنة 1937 لوحده، تمّ اعتقال 14.000 شخص بارز من الشيشان وأنغوشيا، والآلاف منهم في إحدى ليالي شهر تموز لوحدها، وحتى عندها، بقي المسلمون

المحافظون يحضّون الناس على المقاومة، وتشبث الجبليون بأسلوب حياتهم وصعدوا إلى قمم الجبال لتشتعل المقاومة المسلحة بعدها.

5. العقاب

"لا أستطيع إخبارك بكل ما حدث، لأنك لن تجد متسعاً في كتابك. ووحده الله يضمن عدم حدوث ذلك مجدداً."

رجل من كاراشاي يتذكّر ترحيل ستالين لكل شعبه سنة 1943.

وضعت الحرب العالمية الثانية أهل شمال القوقاز في مهب ريح التاريخ. وغزت ألمانيا، الساعية وراء مصادر نفط باكو، المنطقة واحتلت معظمها سنتي 1942 - 43، رغم أنها لم تصل أبداً إلى ممر القوقاز. عندما خرج النازيون من المنطقة، بدا كما لو أن الحرب على القوقاز انتهت بالنسبة للعالم. لكن بالنسبة للجبليين، لم تكن تلك سوى بداية الكابوس. اتهم ستالين، دون تقديم أي دليل ملموس، أربعاً من شعوب شمال القوقاز بالتعاون مع النازية: وقال كلمته الشهيرة: "لايكفيداتستا"؛ أي *التصفية*.

في عمليات لم تستغرق سوى يومين، ونفّذت بأعصاب باردة، وضعت الشرطة السرية شعوب كاراشاي، والشيشان، والأنغوش وبالاكار بالكامل في قطارات الماشية، ورمت بمن بقى منهم أحياء في أراضي آسيا الوسطى القاحلة. بالطبع كان ستالين قد جهّز معسكرات اعتقال، ومسيرات، وأدوية قاتلة، وعمليات ترحيل واسعة النطاق. حصلت الإبادة الجماعية، إذ اختفت شعوب كاملة، وتمّ قتل الناس على أساس انتمائهم العرقي. ولم يكن أحد يعرف ذلك لا في الاتحاد السوفياتي ولا خارجه.

بلغ عدد المهجّرين من شمال القوقاز حوالى 618.000 شخص، بناءً على إحصاء سنة 1939 السوفياتي. اختفى 76.000 شخص من كاراشاي في تشرين الأول - تشرين الثاني من سنة 1943؛ و408.000 شيشاني و92.000 أنغوشي في شباط 1944؛ و43.000 بالاكار بعد شهر من ذلك. تمّ اجتثاث عدد غير معروف من البالاكار، والأديجي والأوسيت المسلمين. أشار روبرت كونكويست في كتابه **قتلة الأمة** إلى أن هذه الأرقام قد تكون منخفضة، مع الأخذ بعين الاعتبار النمو السكاني بين الإحصاء السوفياتي وتاريخ الإبادة الجماعية.

كان المبيدون مشغولين في أمكنة أخرى للقضاء على شعوب كالميك، والإغريق، وألمان الفولغا، والتتار في شبه جزيرة القرم، وحتى شعب مسخيتا البعيد والصغير المنتشر في آسيا الوسطى وسيبريا العملاقتين. كل هذا دون أن نذكر الترحيل القاسي، لكن ليس الكامل، لشعوب البلطيق والأوكرانيين والآخرين الذين يسكنون نفس المنطقة. لم يعلم نكيتا خروتشوف بهذه الجرائم سوى بعد جيل كامل، وتحديداً سنة 1956، بعد سنة من ذلك سمح لما يدعى "بالشعوب المعاقبة" بالعودة إلى أوطانها التي كانت تعتقد أنها لن تراه ثانية.

كاراشايفسك، كاراشاي - شركسيا

كان محي الدين، من قومية كاراشاي البالغ من العمر 60 سنة، يخدم على الجبهة الأوكرانية في الجيش السوفياتي. رغم أنه نجا من القتال إلا أنه لم يُعامل كبطل، واكتشف أن عائلته، وكامل شعبه قد تمّت إبادتهم.

الغضب الذي شعر به محي الدين طوال تلك السنين جعله غير قادر على الحديث عمّا حصل. تبدو قصته غير مترابطة، وتأتي في سياق المعاناة الإنسانية. وقف أمامي، مرتدياً قبعة صلاة إسلامية ومعطفاً قديماً، متردداً.

كل ما فهمته منه: أنهم أخذوه من جبهة المعركة للعمل في معسكر للأخشاب، ثم إلى معمل للأسلحة، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذي تمّ ترحيل شعب كاراشاي إليه، وتتبع

آثارهم أخيراً إلى كازاخستان ووجد من تبقى من عائلته. قال لي بصوت متعب كسير: "مات والدي من الجوع، ومات أبناء أربع من شقيقاتي أيضاً."

حاصر الجنود سكان الجبال في المنازل التي كانت تأويهم سابقاً للراحة أو للانتشار فيما بعد لتنفيذ عمليات حربية. لم يمنحهم أولئك الجنود سوى 15 دقيقة إلى ساعتين للاستعداد، وأخذ ما يستطيعون حمله من المتاع. كانوا ينقلونهم عادةً من القرى إلى محطات القطار في البلدات القريبة بالشاحنات الأميركية **ستودباكر** المؤجرة للاتحاد السوفياتي، هذه معلومة يعرفها الجميع. يقول تاكو ماكاييف بابتسامة مريرة: "أتوا إلينا وأرادوا وضعنا في تلك الشاحنات الأميركية، لكنها لم تكن مناسبة لشوارعنا الضيقة. خططوا جيداً لكل شيء، ولم يتركوا أي شيء للصدفة. ولم يمنحونا سوى 15 دقيقة لجمع بعض المتاع، دون أن نعرف حقيقة ما يجري. لم نعرف وجهتنا حتى وضعونا في عربات القطار".

قتلت الرحلة على متن القطار عبر الشتاء السيبيري القاسي المرضى في غضون أيام. كان الحرّاس يرمون الجثامين إلى الخارج عندما يجدونها في عربات البضائع الباردة الخانقة. يقول تاكو: "أتذكّر أن القطار كان يتوقف لمدة 15 دقيقة، وكنا نحاول إشعال النار في الثلج. وماتت إحدى النساء في العربة، وحاول ابنها دفنها إلى جانب السكة الحديدية. وكانت الأرضية متجمدة، لكنه وجد حفرة وضعها فيها. لقد تركها هناك".

لا توجد أرقام حقيقية لعدد الناس الذين ماتوا هناك. لم يكن هناك صحفيون، أو نشطاء حقوق الإنسان، أو محاكم مستقلة. تشير التقديرات الموثوقة إلى موت 20 - 30% من المهجّرين، خصوصاً كبار السن واليافعين الذين لم يستطيعوا تحمّل البرد، والجوع، والأوبئة. تمّ إطلاق النار على مئات وربما الآلاف منهم: ومجدداً، لن يعرف أحد عددهم بالتحديد. وتروي إحصاءات السكان المنشورة في كتاب **قتلة الأمّة** قصة أولئك الناس. في فترة امتدت 13 سنة بين 1926 - 39، (وهي فترة مضطربة تخللتها آلاف عمليات الإعدام والاعتقالات التي قام بها السوفيات)، بلغ النمو السكاني في الشيشان 28%، وفي بالاكاريا 28%، وكاراشاي 37%، وأنغوشيا 24%. عند مقارنة ذلك بفترة النفي القسري، نجد أن النمو السكاني بلغ 2.5% للشيشانيين، ولم تزد أعداد البالاكار إطلاقاً، وزادت أعداد كاراشاي بنسبة 8%، والأنغوش 15%. لقد تمّ إضعاف تلك الشعوب والقضاء على خصوبتها.

يبقى الجرح عميقاً، ليس فقط بالنسبة للجيل الذي نجا من رحلة القطارات والجيل الذي ولد في المنفى، وإنما للأجيال التي تتحدّر منهم بعد ذلك. أصبح التهجير جزءاً من الهوية القوية للشيشانيين، والأنغوش، وكاراشاي والبالاكار لأن ذلك العقاب كان بسبب العرق. هيمن ذلك الحدث على كلٍ من الحياة الشخصية وحياة الأمة ككل. أضحى كل شخص ضحية دون استثناء. وحتى بالنسبة لأولئك الذين ولدوا بعد التهجير، كان من المستحيل عليهم نسيان تلك المأساة لأن آباءهم، وأقاربهم، وقراهم وكامل شعبهم تلقوا العقاب فقط بسبب العرق الإثني.

بكت تمارا، وهي جدّة طاعنة في السن، عيناها داكنتان، وتضع وشاحاً أحمر اللون، حالما بدأت بسرد القصة. رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الثامنة من عمرها عندما أرسلتها القوات السوفياتية إلى كازاخستان، إلا أنها عاشت في خوف يومي دائم من تكرار ما حدث، وأن يختفي شعبها دون تفسير.

"بدايةً، أتى الجنود ليعيشوا في منازلنا وعاملناهم كضيوف. استقبل كل منزل عدداً كبيراً منهم. لقد تناولوا الطعام معنا، ونشروا معدّاتهم في كل مكان. استقبلنا حوالى 30 جندياً في منزلنا، وأقاموا معنا لمدة تزيد على الشهر.
يوماً ما، أبلغونا بعقد اجتماع مهم جداً، وأخذوا كل الرجال بعيداً. كان لديّ ثلاث شقيقات، ركبنا جميعنا عربة قطار، وولد لي أخ على متن القطار. لقد تجمّدت من البرد. كان قطاراً

لنقل الماشية، ولم يكن هناك نوافذ، وإنما ظلمة فقط. لم يخبرونا بشيء إطلاقاً كما أنهم لم يخبرونا عن وجهتنا.

كان هناك بعض الناس في قرى أخرى في ذلك الوقت، وعندما تمّ ترحيلهم، فصلوهم عن عائلاتهم، واستغرق الأمر سنوات وسنوات قبل أن يجدوا أقاربهم مجدداً. في القطار، كنا نصرخ من عربة إلى أخرى محاولين معرفة فيما إذا كان هناك أقارب لنا. يا إلهي، لا أستطيع نسيان ذلك أكثر من ساعة واحدة، لغاية يومنا هذا."

صوفيا مخاديلوفا، امرأة جبلية من قومية كاراشاي تبلغ من العمر 103 سنوات، كانت في الأربعين من عمرها عندما أتى الجنود إليها. وتقول: "كان الوقت في الصباح الباكر، فجأة أخبرني أولئك الجنود الذين استضفناهم في منزلنا، كما هو حال كل منازل القرية، بأن لدينا ساعتين للاستعداد لرحلة. لم يكن لدينا فكرة عن وجهتنا، أو ما يريدونه".

"وضعونا في عربات البضائع في محطة القطارات. كانت العربات باردة وسوداء، كان الجميع يصرخ لأنهم لم يستطيعوا الرؤية أو يجدوا مكاناً يجلسون فيه. ولم نكن نعرف وجهتنا، ولم يكن لدينا فكرة عنها. كان هناك امرأة روسية متزوجة من كاراشاي، وضعت معنا، وهي من أخبرتنا: "لا تقلقوا، نحن ذاهبون إلى آسيا الوسطى، إنه مكان جيد، وسنكون جميعنا بخير. كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ذلك المكان."

استمرت الرحلة 20 يوماً. كان هناك امرأة عجوز وفتى إلى جانبي. كلاهما ماتا من البرد، وأبقيناهما سراً بيننا حتى لا يرميهما الحرّاس من القطار، لأنهم كانوا يرمون الجثامين مثل النفايات. أردنا الاحتفاظ بجثتيهما ودفنهما لاحقاً.

كان النفي في معظم الأحيان إلى كازاخستان وقيرغيزستان. سكن أهل شمال القوقاز في مناطق استيطان خاصة وقرى عادية تحت ما يشبه الإقامة الجبرية الواسعة. كان محظوراً عليهم مغادرة قراهم دون تصريح خاص، تمّ التضييق على استخدام لغاتهم الخاصة. بدأ المهجّرون ببطء إعادة بناء حياتهم من العدم، وعملوا في المزارع التعاونية، ومعسكرات العمل أو المصانع. تقول امرأة كاراشاي: "عشنا مثل الغنم في كازاخستان؛ عائلات كاملة في غرفة واحدة". لكن عندما رأى الكازاخيون أننا لسنا قطّاع طرق وإنما عمّال نشيطون، بدأوا بمساعدتنا. شاهدوا كيف نعمل بجد في المزارع التعاونية، وكيف بدأنا بتشييد منازلنا شيئاً فشيئاً. بدأ الكازاخيون بتشغيلنا، وفي النهاية طلبت السلطات الشيوعية منا عدم الذهاب إلى وطننا. بالطبع عندما أتى التصريح، غادرنا جميعنا. ولكني تزوجت من كازاخي. وتقول مبتسمة: "إنهم أفضل المسلمين على الإطلاق".

ترك المهجّرون خلفهم أراضٍ فارغة، وقرى قفرة، وقلّة من الرجال استطاعت الهرب إلى الجبال رغم مطاردتها من قبل وحدات الجنود السوفيات. تمّت إزالة أسماء الجمهوريات التي نُفي سكّانها من الخرائط، وتمّ تدمير أي علامات على ثقافتها، بما فيها المقابر والمساجد. سكن آلاف الروس، والأوكرانيين، والجورجيين، وقوميات أخرى من شمال القوقاز مثل الآفار، ولاكس والأوسيت في منازل الشعوب المهجّرة، وشكّلوا قنبلة عرقية موقوتة تمّ التغاضي عنها حتى انهيار الاتحاد السوفياتي سنة 1991.

بمرور الوقت، لم يلاحظ العالم ما جرى، وبقيت السلطات الشيوعية صامتة. تمّ الاعتراف بحقيقة تهجير الأنغوش والشيشان سنة 1946، ولكن الشعوب الأخرى اختفت دون أي أثر. يقول جورج أورويل إنه في حال درس أي شخص المراجع بعناية، كما فعل كونكويست في كتابه **قتلة الأمّة**، سيجد دلائل غير كاملة لما حدث آنذاك. في النسخة الأولى من **الموسوعة السوفياتية الشاملة**، التي انتهى العمل عليها سنة 1948، تحوّلت كاباردينو - بالاكاريا ببساطة لتصبح كابارداين، فيما أخذت الشيشان - أنغوشيا اسم إقليم غروزني. لم يكن هناك تفسير أو تعليق على ذلك. ولم يأتِ أحد على ذكر كاراشاي.

الفقرة 1:

"تؤكّد الأطراف المتعاقدة بأن الإبادة الجماعي1ة، سواء أُرتكبت في وقت السلم أو في وقت الحرب، جريمة بموجب القانون الدولي الذي يلتزم بمنعها ومعاقبة مرتكبيها."

الفقرة 2:

"طبقاً لهذا الميثاق، فإن الإبادة الجماعية تع1ني أياً من الأفعال الآتية التي يتمّ ممارستها بقصد القضاء على جزء أو كامل، جماعة قومية، أو عرقية، أو دينية، مثل:

(أ) قتل أعضاء في الجماعة.

(ب) التسبب بالأذى الجسدي أو النفسي الشديد لأعضاء في الجماعة.

(ج) التأثير بشكل متعمّد على ظروف حياة الجماعة للتسبب بفنائها الطبيعي كلياً أو جزئياً.

(د) فرض إجراءات تهدف إلى منع الإنجاب ضمن الجماعة.

(هـ) تحويل أطفال إحدى الجماعات بالقوة إلى جماعة أخرى.

من ميثاق الأمم المتحدة حول منع ومعاقبة جرائم الإبادة الجماعية، المعتمد سنة 1948، والذي دخل حيز التطبيق سنة 1950، وأقرّه الاتحاد السوفياتي سنة 1945.

لقد بقي منطق تلك العملية لغزاً غامضاً، كما هو الحال دائماً مع عمليات القمع المشابهة. لكن ما هو السبب وراء معاقبة أهل شمال القوقاز بالتحديد؟

لقد احتلّ الألمان، الذين كانوا يسعون أساساً وراء صناعة النفط الأذربيجانية، تلك المنطقة لفترة وجيزة قبل أن يخرجوا منها. لم يتأكد أحد فيما إذا استطاع النازيون، أو خططوا على الأقل، لتشكيل وحدات محلية مناهضة للسوفيات، تماماً كما فعلوا مع الأقليات الأخرى في الاتحاد السوفياتي. إذا أخذنا بعين الاعتبار التاريخ القاسي لشمال القوقاز، سندرك فوراً أن الألمان لم يستطيعوا إيجاد حلفاء لهم. لم يكن الشيشاني أو البالاكاري العادي ليشعر بالولاء لحكومة اعتبرت ثقافته خارجة عن القانون، وأخذت أراضيه، وأرسلت شرطتها السرية لقمع قادته. كان العديد من الناس العاديين دون شك سعداء خفيةً لرؤية الألمان، أو أي أحد آخر، يهاجم السوفيات.

ليس من المؤكد فيما إذا كان البعض في شمال القوقاز، الذين عملوا باستقلالية تامة عن الألمان، قد استفادوا من تلك الفوضى لمهاجمة السلطات السوفياتية بنفس الطريقة التي هاجم بها آباؤهم الروس لأجيال طويلة. على سبيل المثال، اندلع عصيان مسلح واسع النطاق في جبال الشيشان سنة 1940. وتمّ قمعه، كالعادة، باستخدام القوة المفرطة بما في ذلك القصف الجوي. لكن هذا حدث قبل زمن طويل من وصول الجنود الفاشيين إلى أي مكان قريب من القوقاز، ويجب التأكيد بأن الجنود الألمان لم يضعوا أقدامهم في الشيشان مطلقاً.

أخبرني رجل شيشاني عجوز عن حادثة غريبة تشير إلى جوّ عدم الثقة، والخوف والجهل الذي رافق أيام العمليات الحربية، مع انتشار جواسيس الشرطة السرية في كل مكان، وتقدّم القوات الألمانية، وانشغال الناس العاديين بالنجاة بحياتهم. قال لي: "نزل بعض المظليين السوفيات في الجبال. ووحده الله يعلم ما كانوا يفعلون. ربما يتدربون أو شيئاً من هذا القبيل. لم يكن الناس يعرفون في تلك الأيام ما كان يجري في الأعلى هناك، فقد كانوا فقراء جداً، ويعيشون معزولين عن العالم الخارجي. عندما رأوا أولئك الجنود يهبطون من السماء، أحاطوا بهم وقتلوهم، وصنعوا ملابس لهم من المظلات". لا أحد يعرف على وجه الدقة ما حدث في ذلك اليوم عندما التقى أولئك الفلاحون الشيشان القساة بالجنود. لكن ربما تمّ استخدام حوادث مثل هذه لتبرير الاتهام القائل إن كل الشيشان تعمل لصالح الألمان.

تقول صوفيا مخاديلوفا، المرأة من قومية كاراشاي: "لم يكن هناك ألمان حول أماكن تواجدنا سوى لأشهر معدودة. لم نفعل أي شيء خاطئ. لقد أخذوا كل حيواناتنا عندما كانوا هنا، إنني أتذكّرِ

ذلك. لم يرَ الألمان سوى بعض الناس. كان يجب فتح تحقيق حول مسؤولية ما حدث، لكن عوضاً عن ذلك أخذوا الجميع؛ حتى الأطفال الذين كان آباؤهم يقاتلون على خطوط الجبهة".

بغضّ النظر عن بعض الحوادث المتفرقة، والتي تختلف عن نمط العصيان المسلح في الماضي، لم يكن هناك شيء يمكن اتهام الجبليين به. يناقض التوقيت لوحده الادعاء بأن ما حدث كان لمنع السكّان غير الموالين من مساعدة العدو لأن القوات الألمانية كانت قد غادرت المنطقة عندما حصل التهجير.

قاتل أفراد من شمال القوقاز الألمان في الجيش الأحمر ووحدات الثوار، وبشكل بطولي غالباً، وكما هو متوقع من شعوب تتمتع بمثل تلك التقاليد القتالية. إن لائحة *أبطال الاتحاد السوفياتي* من شمال القوقاز طويلة، ولا تتناسب مع عدد أفراد تلك الجماعات العرقية الصغير. لقد حصل الشيشانيون والأنغوش، الذين لم يتجاوز عددهم النصف مليون نسمة عند بداية الحرب العالمية الثانية، على 56 وساماً من فئة *بطل الاتحاد السوفياتي* في الجيش الأحمر، وتمّ منح أوسمة للمزيد من أفراد تلك الشعوب لكن دون إخبار السلطات الشيوعية عن هوياتهم الحقيقية. حتى اليوم، لا يعرف سوى القليل من الروس أن ما يزيد عن 300 شخص من الذين ماتوا خلال الدفاع الانتحاري عن حصن بريست في بيلاروسيا، وهي المعركة التي ترمز إلى البطولة الأسطورية السوفياتية، كانوا من الشيشانيين والأنغوش. بطريقة مماثلة، حصل 14 كاراشاياً على وسام *بطل الاتحاد السوفياتي* من أصل عدد السكّان البالغ 76.000 نسمة، رغم أنه لم ينجُ أحد منهم ليرى وسامه. خلال الحرب كانت الطائرات الألمانية أو القوات النازية تضرب مدنهم - مثل غروزني ونالشيك - بالقنابل.

لغاية حصول عمليات التطهير العرقي، كانت الدعاية السوفياتية ترفع من شأن مساهمة أهل شمال القوقاز في المجهود الحربي، وتقول إن الشيشانيين، والأنغوش، والكاراشاي والبالاكار مثال المواطنين السوفيات. قبل سنتين فقط، كان كالينين، وهو رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس السوفيات الأعلى، يقول: "إن القوقاز يمثل برهاناً عملياً ساطعاً على تأثير الإصلاح المفيد للنظام السوفياتي على نفسية وشخصية الشعب. لقد أصبح القوقازيون شعباً اشتراكياً... وأصبحت كل الأرض السوفياتية، من الحدود إلى الحدود، وطنهم المحبوب".

كانت عمليات التطهير العرقي على الأرجح نتيجةً لتلاقي مصالح القوى المختلفة؛ بعضها عملي، وبعضها نفسي. تقول إحدى أدق النظريات أن ستالين أراد إنهاء عصيان الشيشان الدائم، وأنه لم يكن يثق غريزياً بالكاراشاي، والبالاكار والمسخيتان لأن أصولهم تعود إلى تركيا، وهي أكبر منافسي روسيا. من المستحيل اليوم إثبات نظرية تقول إن والد ستالين، المعروف بأنه جورجي، كان من أوسيتا وعانى من عقدة النقص للانتماء إلى ما يدعوه الروس *الشعوب الصغيرة*. لقد غيّر ستالين، الذي زعم أنه جورجي بالكامل، لقبه الأوسيتي إلى دزوكاشفيلي الجورجي، ومن ثم كما تقول النظرية، تحوّل بكرهه الذاتي ليصبح طاغية روسي تاريخي. لم يتمّ التحقق من صحة هذه النظرية، لكن كما يظهر من تجربة هتلر، فإن جنون العظمة وذِهان الطغاة يمكن أن يُفضي إلى نتائج كارثية.

غروزني، الشيشان

تقول ناتاشا: "كانت الأمور مختلفة تماماً حينها". إنها امرأة تبلغ من العمر 70 سنة، وتتحدّر من عائلة من جنوب القوقاز عاشت في الشيشان لثلاثة أجيال. لقد رأت الكثير،

وتتذكّر اليوم الذي تمّ فيه تهجير الشيشانيين جيداً. لقد كانت تلك حقبة أخرى قبل الحرب، ولم تتغير الكثير من الأمور منذ القرن التاسع عشر.

"كانت النساء الشيشانيات عندها يرتدين ملابس طويلة مع جوارب سميكة. كن يضعن وشاحاً على الرأس. كان الرجال يرتدون ملابس طويلة شركسية، مع جيوب للرصاص، ولغاية فترة التهجير، كانوا يحملون دائماً الكنزال، ويضعون النطاق. بالطبع، كانت خناجر الكنزال لامعة، وكان يتمّ التباهي بها أمام الفتيات وأثناء الرقص. كانوا يضعون باباخا مذهلة (قبعة طويلة من جلد الحمل). وكان الشيشانيون ينزلون إلى غروزني، التي لم يكن يسكنها سوى الروس آنذاك، من الجبال ويبيعون الزبدة والبيض. يا لها من زبدة! آه، وأكياس كبيرة من البندق. لم يكن رجالهم مثل رجالنا الروس. كانت نساؤهم يمشين خلفهم، ويفعلن ما يقولونه لهن. وليس مثل رجالنا، الذين يطيعون الزوجة دائماً! وأتذكّر عجوزاً من يرملوفكا. كان يبلغ 92 سنة من العمر، ولديه ثلاث زوجات. واحدة على كل جانب وثالثة جميلة خلفه.

"لم يكن بيدهم فعل أي شيء. أعني ما الذي كان سيقاومون ضده؟ ويعتبر المقاتلون *الثوار الشيشان* أنفسهم خارقين هذه الأيام، لكن في تلك الأيام لم يكن هناك ثوار حقيقيون، وإنما مجرد قطّاع طرق. كل ما كانوا يملكونه هو أسلحة صيد، لكن ما الذي يمكنها أن تفعله ضد القوات العسكرية؟ وما الذي يستطيعون فعله ضد شيء مثل ذلك؟ هل تعرف ما قاله بريا (رئيس الاستخبارات السرية)؟ أنه لم يكن كافياً إرسالهم إلى كازاخستان، وإنما إغراقهم جميعاً في بحر قزوين.

"كل ذلك حدث بسبب بعض الأبريغ، أو قطّاع الطرق. لم يكن هناك مقاومة منظّمة ضد السوفيات، وإنما بعض قطّاع الطرق الذين فتحوا نيرانهم على القوات وصرخوا بأنهم سيساعدون الألمان ويقتلون كل الروس. لقد عاش معظم الناس بسلام، يربّون الأبقار والدجاج، وبسبب بعض الأشرار، عانت أمّة بأكملها."

أفاقت ناتاشا في يوم التهجير لتجد أن جيرانها الشيشانيين قد اختفوا. "نهضت والدتي في الصباح وتساءلت: ماذا حدث؟ أين هم؟". وذهبنا إلى محطة القطارات وكانت العربات مقفلة عندها. كان الناس يصرخون وينتحبون. كان الكثيرون منهم من الجبال، ولا يعرفون التحدّث بالروسية، وكانوا يصرخون بالشيشانية من العربات. كانت الشرطة السرية تهدد بأنها ستُخرج الناس من العربات وتقتلهم."

هل كانت ناتاشا خائفة من الموت أثناء ذلك الاضطهاد الجماعي الكبير، حتى عن طريق الخطأ؟

"لم يطرق الجنود بابنا. وكانوا يعرفون بأننا روس، وبالطبع كانوا يعرفون كل شيء."

مات ستالين سنة 1953، لكن خروتشوف لم ينتقده إلا في شباط 1956 في خطاب سرّي أمام مؤتمر الحزب الشيوعي العشرين، وفتح أخيراً الطريق لخلاص أولئك المنفيين. قال خروتشوف: "أيها الرفاق، دعونا نتوصل إلى بعض الحقائق".

"يُعتبر الاتحاد السوفياتي مثالاً عن الدولة المتعددة القوميات لأننا وثّقنا بممارسة المساواة والصداقة بين كل الشعوب التي تعيش في وطن الأجداد العظيم. كل تلك الأعمال الوحشية من صنع ستالين، وهي انتهاك فظ لمبادئ لينين الأساسية للسياسة القومية للدولة السوفياتية. نشير هنا إلى التهجير الشامل لشعوب بأكملها من أراضيها، والذي لم يستثنِ الشيوعيين أنفسهم. لم يكن لأعمال التهجير تلك أي اعتبار عسكري على الإطلاق."

خرق خطاب خروتشوف سنة 1956 الصمت الرسمي، ولكن تطلّب الأمر سنة أخرى قبل القيام بما يلزم لتحرير الشعوب المهجّرة. صدرت مراسيم لإعادة توطين شعوب شمال القوقاز في كانون الثاني 1957. حزمت الشعوب المعاقبة كل ما استطاعت جمعه خلال 15 سنة، وبدأت رحلة العودة. كان جيل كامل قد وُلد في المنفى وترعرع في كازاخستان أو أذربيجان، لكن الشباب انتظروا دائماً اليوم الذي يستطيعون فيه العودة إلى الوطن الذي لم يسبق لهم رؤيته أبداً. كان جيل آخر قد تقدّم في السن، لكنه أراد دائماً "الموت في الوطن"، كما أخبرتني امرأة أنغوشية. أخرج البعض منهم موتاهم ليرافقوهم في تلك الرحلة.

عندما عاد أهل شمال القوقاز، اكتشفوا أن الكثير من التغييرات طرأت على وطنهم المحبوب. لم يتوقف الأمر على احتلال منازلهم، وإنما وجدوا المساجد مهدّمة، والمقابر مبعثرة في العديد من القرى، والتي تمّ استخدام حجارتها كمواد بناء تطبيقاً لسياسة متعمّدة في تدمير ثقافة الجبليين (المعاقبين). في مقبرة قرية كامينوموست التي كان يسكنها الكاراشاي، ما تزال المدافن مبعثرة في الحقل. عندما عاد الكاراشاي إلى قريتهم، تمّت إبادة الكثير من العائلات، ومرّ زمن طويل جداً قبل أن يتمّ التعرّف على بعض المقابر، ويتمّ وضع حجارة جديدة لها. وما تزال مشكلة الموتى المنسيين تؤرق مضاجع الشيشانيين.

تقول تمارا الشيشانية: "عندما عدنا إلى المنزل، كانت كل المساجد مدمّرة. ذهبنا إلى منازلنا القديمة، كان هناك روس يعيشون فيها. لقد رفضوا أن يغادروها، وقالوا: نحن لسنا خائفين منكم، اذهبوا بعيداً. كان معنا بعض النقود، ولهذا ذهبنا واشترينا منزلاً آخر".

يقول ماجومد البالاكاري: "كان يسكن في منزل عائلة والدي تسعة أشخاص عندما نفوهم منه. ولم ينجُ سوى والدي، ومات والداه، وشقيقته وأشقاؤه جميعاً. حالما سمحوا لنا بالعودة، رجعنا إلى قريتنا لنجده محترقاً، ولم يبقَ منه سوى الجدران. هكذا بدأنا ببنائه من جديد". ويقول بفخر: "نعيش الآن في نفس المنزل كما كان الحال دائماً، حتى بعد أن تغيّر شكله"، ويتابع: "احتل الروس والكابارد وبعض الجورجيين المنازل الأخرى في القرية. لم يكن لدى الكثير من الناس أي خيار آخر سوى الدفع واستخدام النقود التي ادّخروها لشراء منازلهم من جديد. كانت خالتي شديدة القوة وقالت للناس الذين احتلوا منزلها: "إذا لم تخرجوا منه، سأقتلكم غداً، وسأقطع رؤوسكم". لقد غادروا، ووجه الكثيرون منا إنذارات مثل تلك، لأننا شعب عملي كما ترى".

يتندّر أهل شمال القوقاز بأنهم بناة جيدون جداً، لأن الروس يواصلون تدمير منازلهم. هناك بعض الحقيقية في ذلك. كان كازر جمال، وهو رجل بالاكاري قوي البنية يبلغ من العمر 75 سنة، وشهير بكونه صياداً بارعاً، يبلغ من العمر 19 سنة عندما نفاه السوفيات إلى قرية فيرخني. في كازاخستان، بنى قومه منازلهم الخاصة. ولدى عودتهم وجدوا قريتهم القديمة، وقد تحوّلت إلى أنقاض، ولهذا بنوا قرية جديدة بالكامل إلى الأسفل قليلاً من المكان القديم.

يقول كازر: "لقد كانت جميلة"، وهو يصطحبني إلى الأساسات المدمّرة للقرية المدمّرة، والتي لا تزال ظاهرة في تضاريس سفوح الجبال. أشار إلى بقايا المنزل الذي ترعرع فيه. "كانت الشوارع ضيقة، ويتمّ بناء المنازل متلاصقة مع بعضها البعض. قام أحد المهندسين الروس المختصين بعمارة المدن بزيارتنا، ولم يصدق ما رأى. استمر المزاح عندما رأى المهندس منازلنا متكدّسة بهذا الشكل على سفوح الجبال، واعتقد أنها مجرد منزل واحد كبير: "حتى في موسكو ليس لدينا مبانٍ مع هذا العدد الكبير من الشقق".

لم يتمّ الكشف عمّا قام به ستالين سوى بشكل جزئي في خطاب خروتشوف. لم تتمّ معاقبة المسؤولين عن عمليات التطهير العرقي أبداً، وجرى تغليف الاتهامات نفسها بالأعذار، ووفقاً لخروتشوف: "كان ستالين مقتنعاً بأن ذلك ضروري لحماية مصالح الطبقات العاملة ضد مخططات الأعداء وضد هجمات المعسكر الإمبريالي". لم تكن عمليات التهجير "بسبب أفعال الطاغية المستبد، والذي كان يعتقد أن ذلك لمصلحة الحزب". يؤكد خروتشوف أن ستالين هجّر حتى "الشيوعيين والعمال بحقد أسود".

لم يفعل خروتشوف الشيء الكثير لتغيير السياسات الاستعمارية للحكم الروسي في شمال القوقاز، والتي قوّضت كل مقومات الشعور الوطني. لم يتمّ اعتبار عمليات التهجير أحداثاً سيئة. لم

تتمّ إقامة النصب التذكارية، كما لم يذكر أحد ما حدث في الكتب السعيدة التي كان يراها كل أولئك القادمين إلى المنطقة لقضاء عطلاتهم السوفياتية في **توربار**. تحمّل الشعب المعاقب معاناته بصمت، ولم يذكر كتاب سياحي عن كاراشاي - شركسيا منشور في 1992، بعد سنة على انهيار الاتحاد السوفياتي، أي شيء عن إبادة الكاراشاي. "تمّ تحرير منطقتنا في كانون الثاني سنة 1943... وثارت كل الشعوب السوفياتية ضد الفاشية. تمّ تنظيم 13 مجموعة مقاومة في منطقتنا، وماتت نساء كاراشاي - شركسيا دفاعاً عن وطنهن".

تمّ تزييف التاريخ البعيد، والذي لا يمكن نكرانه ببساطة، ليناسب البرنامج السياسي. تأثر المتطرفون بشامل الذي اعتبروه بادئ الأمر بطل الشعب في قتال القيصر، ثم الشخص الأفضل من القيصر، وأصبح بعد التهجير قاطع الطريق والشيخ الرجعي.

عاشت الثقافة مع فرق الرقص الرسمية التي ترتدي الأزياء الوطنية المميزة، فيما تمّ اعتبار الخبز اليومي للمجتمع الشيشاني المتمثّل في المساجد، وحفلات الزفاف، ومراسم الدفن، ومجالس الكبار رجعية ومتخلفة. أخذت الروسنة اللغوية منحاً جديداً خلال سنوات حكم خروتشوف وبريجينيف، التي استمرت من خمسينيات إلى ثمانينيات القرن العشرين. كان يقال إن القوميات غير السلافية لديها *حاجة داخلية* للغة الروسية، وأن العلاقة الطويلة والمنهجية للمنطقة مع اللغة العربية، وخصوصاً في داغستان، قد انتهت. في أربعينيات القرن العشرين، أصبحت الأبجدية الروسية إجبارية. في سنتي 1958 - 59، تمّ إلغاء حق التدريس باللغة الأم، وبين 1961 و1982، تمّ إلغاء 31 لغة من المدارس بما فيها الأديجية، والبالاكارية، والكاراشية والشيشانية - الأنغوشية. وفيما يخص الأدب الوطني، يوجد كتاب بحجم *لائحة طعام* بعنوان **أغاني الشيشان والأنغوش البطولية الملحمية**، وهو مكتوب باللغة الروسية ومليء بالدعاية لها. في المقطعين الأولين من هذا الكتاب، المطبوع بالروسية سنة 1979، هناك ما يدعى "أغنية إلى ستالين".

كانت العقود الأخيرة من حكم الاتحاد السوفياتي هادئة في شمال القوقاز. ولم يكن هناك ثورات أو حروب، واعتقد السوفيات أن حلمهم بإقامة *عائلة من الأمم* السوفياتية السعيدة قد تحقق. لكن النار كانت تحت الرماد. تحت سطح هذا العالم الجديد الشجاع، كان هناك انفعالات وإرهاب العالم القديم.

غروزني

بعد مضي نصف سنة على الحرب في الشيشان، نظرت إلى الرزمة الصغيرة من البطاقات البريدية التي أهداني إياها أحد المقاتلين الشيشان عندما كانت الدبابات الروسية تقترب للمرة الأولى من غروزني. وقال لي الثائر: "احتفظ بها حتى تتذكّر مدى روعة مدينتنا"، وأخرج 17 صورة من جيب صدر بذلته المموهة.

كانت البطاقات البريدية مطبوعة سنة 1988 عندما كان الاتحاد السوفياتي لا يزال موجوداً. لكن بعد ستة أشهر من القتال في الشيشان، لم يبقَ الشيء الكثير: تمثال لينين، الذي حطّمه الشيشانيون؛ والسيرك، الذي قصفته قنابل القوات الجوية الروسية؛ ومبنى البرلمان، الذي دمّرته القنابل؛ والجسر الموجود فوق نهر سونزا، الذي تحوّل آنذاك إلى كومة من الألواح الخرسانية وقضبان الفولاذ؛ ومعهد النفط، الذي دمّرته النيران؛ ودائرة سير مينوتكا، المليئة بالحفر نتيجة للقصف؛ وضاحية شيرنوش، التي كانت الملاذ الأخير للشيشانيين، والتي ضربتها قذائف المدفعية الروسية.

هناك فقرة على علبة البطاقات السوفياتية تقول: "أهلاً بكم إلى غروزني. إنها تنمو وتتطور كل سنة. يتمّ شق الشوارع العريضة التي تحدها الأشجار عبر المباني السكنية الجديدة، كما تمّ تشييد أبنية جديدة متعددة الطوابق."

الفصل الثالث
المنطقة المتشابكة المجزّأة

لن يكون باستطاعة روسيا التعامل مع هذا الوضع. هناك شعوب كثيرة ذاقت طعم الحرية.
المير أبيرغوف، مدير متحف تاريخ أديجي في ميكوب.

1. الجبهة الجديدة

في سنة 1936، أعلن الفوهرر بنفسه: "إذا انضم أهل القوقاز والأورال، بثرواتهم غير المحدودة من المواد الأولية، وغاباتهم الغنية في سيبيريا، وحقول الذرة المترامية الأطراف في أوكرانيا، إلى القيادة الألمانية تحت الزعامة الاجتماعية القومية، فستسبح ألمانيا في السمنة."
من كتاب القوقاز السوفياتي، لمؤلفه ديفيد توتييف.

تشبه القوة الروسية إحدى دمى **ماتروشكا** التي يجدها السائحون الروس إلى جانب قبعات الفراء وعلب الصدف. كلما انزاحت طبقة من تلك الدمية، تبدو بنفس الشكل ولكن أصغر حجماً. أفسحت الدولة القيصرية المجال من الناحية الجغرافية لإمبراطورية الاتحاد السوفياتي المشابهة لها. عندما انهار هذا الأخير سنة 1991، انهارت معه العديد من المستعمرات، مع 14 جمهورية سوفياتية سابقة من أستونيا إلى قرغيزستان والتي استقلت جميعها. في الداخل، كان هناك مثال صارخ على دمية ماتروشكا الأصلية: 89 منطقة وجمهورية تتمتع بالحكم الذاتي ضمن الفيدرالية الروسية.

تحوّل شمال القوقاز، الهادئ سياسياً أيام السوفيات، إلى جبهة القتال الجديدة لروسيا في مواجهة جمهوريات جورجيا، وأرمينيا وأذربيجان المستقلة، وتركيا المسلمة والعضوة في الناتو، وإيران. كان ممر القوقاز الشغل الشاغل بالنسبة لموسكو حيث برز تراجع نفوذها نتيجة لازدياد نفوذ الإسلام وتركيا على طول خاصرتها الجنوبية الاستراتيجية. كان هناك رؤى متعددة لتركيا، التي عقدت قمة للجماعات الناطقة بالتركية في أنقرة سنة 1992، لإعادة بناء صلاتها بما يقارب 120 مليون مسلم ناطق بالتركية، بمن فيهم الآذاريون الذي ينتشرون من إسطنبول إلى المآتا.

كان فقدان ممر القوقاز يعني خسائر اقتصادية هائلة بالنسبة لروسيا، خصوصاً أن العديد من وحدات الإنتاج السوفياتية كانت خارج الحدود الروسية، بما فيها محطات إنتاج النفط الحيوية في أذربيجان ومصنع الطائرات الحربية سوخوي - 25 في جورجيا. أكثر ما أثار حفيظة الروس هو فقدانهم لحقول النفط في بحر قزوين، وهو ما كان يعتبر جزءاً من الكنز السوفياتي، والذي يقبع الآن في مياه البحر قبالة الشواطئ الأذربيجانية، والذي تعتبره حكومة باكو ملكاً لها. هناك أيضاً حقول نفط وغاز طبيعي هائلة في كازاخستان وتركمانستان المستقلتين على الجانب الآخر من بحر قزوين.

لم يكن هناك سياسة روسية محددة في البداية. كانت موسكو ترسل قواتها أو دبلوماسييها مثل رجال الإطفاء من أزمة إلى أخرى في محاولة للحفاظ على الاستقرار، وبالتالي نفوذها. في سنة 1993، تحوّل البحث الفوضوي والدموي أحياناً عن استراتيجية معينة إلى سياسة خارجية عدوانية. تجدّد إحساس روسيا بدورها كقوة عظمى، أو **فيلكايا ديرزافا**، وتحوّلت عن الإصلاحات الديموقراطية على الطريقة الغربية لتتخذ منهجاً في إصلاح نظامها القديم على أسس إمبريالية جديدة وواقعية سياسية. في الواقع كان الجيش في حالة يرثى لها، فيما اختفت الدولة الأمنية السابقة، وخسرت موسكو بين ليلة وضحاها أراضي شاسعة بشكل لا يصدّق، من أستونيا إلى قرغيزستان. لكن الحلم الإمبريالي القديم نجا من أزمة الثقة في تسعينيات القرن العشرين، بنفس الطريقة التي

تستمر فيها النجوم الحمراء بالتربع على أبراج الكرملين، وهي تنظر إلى الصقر الإمبريالي الذهبي المزدوج الرأس الجاثم على مبنى الحكومة.

في تلك السنة، أعاد الكرملين جزءاً من نفوذه المفقود في منطقة ممر القوقاز، مع توقيع البلاد المستقلة حديثاً اتفاقية *كومنولث الدول المستقلة* الذي تهيمن عليه روسيا. تمّ إجبار جورجيا على الخضوع بعد حدوث ثورات داخلية فيها، ودعم الروس للحروب الانفصالية التي قامت بها أقلية الأبخاز وسكان أوسيتا الجنوبية، والتي أضعفت القائد الجورجي، ووزير خارجية الاتحاد السوفياتي السابق إدوارد شيفاردنادزه، والذي لم يملك خياراً في النهاية سوى طلب المساعدة من موسكو. كان هناك خطة مشبوهة في أذربيجان تتضمن دوراً سرياً لموسكو في تدبير انقلاب سنة 1993 لاستبدال الرئيس الوطني أبو الفاز الشيبي، على الأقل مؤقتاً، بمسؤول يمكن التحكم به هو حيدر علييف، وهو آخر من تبقى من أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوفياتي أيام بريجينيف. استعادت روسيا أيضاً دورها الذي انحسر خلال سنوات 1988 - 1994 في الحرب بين أذربيجان والانفصاليين الأرمن الذين يعيشون في جيب ناغورني - كاراباخ. كما دعّمت روسيا الأرمن المسيحيين بشكل عام، ولو بصورة غير رسمية، وأبقت تركيا خارج اللعبة، وحذّرت سنة 1992 من حرب عالمية في حال تدخّلت أنقرة لدعم الآذريين. عملت روسيا على تحسين علاقاتها مع إيران، القوة الثالثة السابقة في المنطقة، والتي تشاطر موسكو هدف تقليل نفوذ الولايات المتحدة في منطقة قزوين.

يحتل النفط خلفية صراع تلك القوى؛ الكثير من النفط. هناك تقديرات مختلفة للمخزون الذي يمكن استخراجه تتراوح من 25 مليار إلى ما يفوق 100 مليار برميل. تعتبر المنطقة بالتأكيد مصدراً مستقبلياً هاماً لإمداد العالم بالطاقة. لقد اتحدت شركات النفط الغربية العملاقة، بنفوذها المالي والتقني الواسع، في تسعينيات القرن العشرين للحصول على فرصة إصلاح البنية التحتية السوفياتية المتهالكة، وتمّ إجبار حكومة روسيا الساخطة على المضي قدماً للانضمام إلى طابور الانتظار.

قاومت روسيا الادعاءات الأذربيجانية في ملكية الحقول البحرية، معتبرة أن قزوين بحيرة، وليس بحراً، ولهذا يجب على كل البلاد الخمسة التي تملك شواطئ عليه أن تشترك بمصادر الطاقة. وضعت أذربيجان، التي تعرف أن الامتلاك يساوي تسع أعشار القانون، يدها على المكان، ولم يعد باستطاعة روسيا بعد ذلك فعل شيء على المدى المنظور.

أخيراً في أيلول سنة 1994، وقّع اتحاد من تسعة لاعبين رئيسيين في مجال النفط *صفقة القرن* بقيمة ثمانية مليارات دولار لاستثمار واستغلال ثلاثة حقول نفط آذرية يقدّر مخزونها بـ 3.8 مليارات برميل من النفط الخام. كان الاتحاد المسمّى **شركة التشغيل الأذربيجانية الدولية**، والتي تمتلك الشركات الأميركية ما يزيد على ثلث الأسهم فيها، يأمل بأن يحصل على كميات صغيرة من النفط بشكل مبكّر بحلول سنة 1997، ومن ثم الحصول على 700.000 برميل يومياً من النفط الرئيسي بحلول سنة 2010. ساعدت موسكو في تحقيق أهدافها مغادرة **الشيبي** المناصر للأتراك، واستبداله **بعلييف**. رغم أنه لم يكن رجلاً مطواعاً، إلا أن علييف كان يتعرض لضغط كبير نظراً لحرب ناغورني - كاراباخ. فازت شركة **لوك - أويل** الروسية بحصة تبلغ 10% من الشركة الآذرية، وسرعان ما بلغ عدد شركات الاتحاد 12، من بينها **بريتش بتروليوم** و**أموكو** اللتان حصلتا على نسبة 17.1 و17% على التوالي، ويستمر هذا الكنز الاستثماري بالنمو طوال الوقت. تمّ إبرام

المزيد من الاتفاقيات بين الشركة الآذرية وشركات جديدة لتطوير حقول نفطية إضافية حول قزوين في سنتي 1996 و1997.

انتهزت روسيا فرصة عظيمة للاستفادة من الامتيازات النفطية والبقاء لاعباً استراتيجياً رئيسياً في ممر القوقاز وذلك بملكيتها لخط الأنابيب الوحيد الذي ينقل النفط الخام من أذربيجان إلى الأسواق العالمية، ونظراً لوقوع مسار أفضل خط بري لنقل النفط من حقول تينغز الواسعة شمال كازاخستان في أرضيها. وبكل الأحوال، سرعان ما عانى هذا الخط، الذي يمر عبر شمال القوقاز وجنوب روسيا إلى ميناء نوفوروسيسك على البحر الأسود، من منافسة مريرة. أرادت جورجيا تأهيل خط أنابيب موجود سابقاً لديها والذي يتّجه مباشرة من باكو إلى سوبسا على البحر الأسود. كان هناك أفكار أخرى لخطوط أنابيب تمتد مباشرة عبر أذربيجان وأرمينيا إلى تركيا، أو تقطع جنوب إيران وبعد ذلك إلى تركيا. وكانت كل البدائل الأخرى أقصر من الخط الروسي المتعرّج، رغم أن جميع مساراتها تعاني من المشاكل كما تقول موسكو: الحرب الأبخازية في جورجيا؛ وحرب ناغورني - كاراباخ في أذربيجان؛ والعقوبات الاقتصادية الأميركية على إيران.

توقف النزاع على مسار خط أنابيب النفط سنة 1995 بتسوية مؤقتة: سيتمّ استخدام كلا خطي الأنابيب الروسي إلى نوفوروسيسك، والخط عبر جورجيا إلى ميناء سوبسا لنقل النفط الخام. أوضح رجال صناعة النفط بأنهم على المدى الطويل سينقلون الجزء الأكبر من النفط في القرن القادم عبر جورجيا إلى ميناء جيهان على الساحل الجنوبي لتركيا، وهو الخيار الذي سيحرر أذربيجان من الاعتماد على روسيا. هناك أيضاً أفكار طموحة لربط تينغز مباشرة مع باكو عبر بحر قزوين، وهو ما يعني تخلّي آسيا الوسطى عن روسيا أيضاً.

بكل الأحوال، لا تزال معظم خطوط الأنابيب التي لا تمر عبر الأراضي الروسية في مراحلها الأولى، وقد أظهرت موسكو تصميمها على اللعب بقوة. جرت محاولات عديدة لإضعاف حيدر علييف، والتي يلقي الآذريون فيها باللائمة على روسيا. رغم أنه كان في السبعينيات من العمر عندما أصبح رئيساً، إلا أن هناك مخاوف جدّية حول ما سيحدث عندما سيغادر منصبه. قد يتسبب موت علييف بجولة جديدة من القتال في ناغورني - كاراباخ، أو بفوضى سياسية داخل أذربيجان، وهو ما قد يمنح موسكو عذراً للتدخل مجدداً. حام التهديد الروسي فوق *صفقة القرن* مثل ضيف غير مرحّب به، وذلك عندما ادّعت الملكية المشتركة لبحر قزوين. كان من الواضح أنه طالما أن الحرب الدبلوماسية حول مسار تصدير النفط لم تحسم، فإن القوقاز مهدد بالمزيد من الحروب الطاحنة.

بعد ذلك، انتقل التركيز إلى شمال الجبال، التي تقع في قلب الحدث بسبب خط الأنابيب ولأنها أصبحت آنذاك منطقة جبهات قتال. اتجهت الأنظار إلى شمال القوقاز مجدداً. سنة 1991 فاجأت الشيشان موسكو بإعلانها الاستقلال، ودخلت أوسيتا الشمالية وأنغوشيا حرباً للسيطرة على شريط ضيق من الأرض سنة 1992، طالب الكثير من الناس بحكم ذاتي أوسع والتخلّص من خريطة ستالين. كان الوضع خطيراً، وفي حال انهار بيت الورق العرقي في كاراشاي - شركسيا وكاباردينو - بالاكاريا، أو إذا انضمت أنغوشيا إلى ثورة الشيشان الانفصالية المسلحة، فقد تتمزق المنطقة بأكملها نتيجة الصراعات التي لا يمكن تخيّلها. سيعرّض ذلك خط الأنابيب الذي يمر من داغستان، والشيشان، وأنغوشيا، وأوسيتا الشمالية، وكاباردينو - بالاكاريا وكاراشاي - شركسيا للخطر، وقد تتعرض سلّتي الخبر كراسنودار وستافروبول، وهما المقاطعتان اللتان تضمان أخصب الأراضي في جنوب روسيا، للتهديد جراء ذلك، وإذا لم تستطع روسيا السيطرة على الجبال الشمالية، فإن

نفوذها واقتصادها المرتبطين بممر القوقاز سيتلاشيان. ويبدو أن شمال القوقاز ليس سوى طبقة من دمية ماتروشكا التي لا ترغب روسيا بأن تفصلها؛ مهما كلّف الأمر.

بياتيكورسك، منطقة ستافروبول

كل ما عليكم قوله في شمال القوقاز هو نيفتيبروفود، أو خط أنابيب النفط، **وسيعرف الجميع قصدكم. رغم أن الكثير من الناس لم يرَ الخط أو يعرف مساره بالضبط، إلا أنهم جميعاً يعرفون معناه. يتمتع خط أنابيب باكو ـ نوفوروسيسك بشهرته الخاصة، مثل الجبال. عندما ينظر الناس إلى الحرب في الشيشان، فإنهم يفكرون في خط الأنابيب.**

لقد عقدت العزم على زيارة خط الأنابيب. وفكرت في الأمر طويلاً عندما كنت في الشيشان، حيث يمكن مشاهدة أعمدة الدخان المتصاعدة من محطات الوقود التي تضربها القنابل عبر الأفق، والتي تحجب الشمس أحياناً. في الشيشان لا يتكلم الناس العاديون عن الذهب الأسود، وعن صفقات القرن أو حمّى النفط.

أقلّتني سيارة أجرة من نوع لادا متهالكة خارج بلدة بياتيكورسك إلى الأرياف، حيث يغطي الضباب والثلج أرض ستافروبول السوداء. لم يكن هناك أثر لخط الأنابيب، وتفقّدت خريطتي للمرة العاشرة. كنا في ذلك الوقت نسير على طريق وعرة متجمدة جزئياً، وفجأة ظهرت لوحة مع كتابة باللونين الأحمر والأسود عليها تقول: "انتبهوا! خط أنابيب نفط. استعداد كامل. منطقة محمية."

"توقف"! إنه هنا. كان خط الأنابيب تحت أقدامي، ويمتد من الشرق إلى الغرب. إنه مجرى الذهب الذي يمتد عبر التضاريس الوعرة لخاصرة روسيا الجنوبية. إنه نعمة ونقمة في الوقت ذاته.

توجد بالقرب من ذلك المكان مزرعة تعاونية معزولة. كانت تبدو مهجورة، عدا بعض الكلاب الجائعة الواهنة وبعض التجهيزات الصدئة. وجدت رجلاً عجوزاً داخل أحد الأكواخ الذي يتكون من غرفة واحدة. هو رجل يعيش فوق واحدة من أهم المصالح الاستراتيجية لروسيا الجديدة، أحد أهم أسباب الحرب في الشيشان، والسبب وراء موت عشرات الآلاف من الناس. توقعت أن أرى بعض الحكمة في ذلك الرجل العجوز الذي يعيش وحيداً على مصدر الطاقة ذاك، وأن يكون الشخص البسيط الذي يفهم الحقائق العظيمة. عندما كنا نتحدث في كوخه الدافئ، كانت الحرب تستعر على بعد حوالى 200 كيلومتر إلى الشرق. وسألته عن رأيه.

كان من الواضح أن الرجل العجوز لا يعرف حتى بأنه يعمل قرب خط الأنابيب، ولا يفهم السبب الذي دفع بأجنبي للظهور أمامه فجأة. وقال لي: "لا أعرف شيئاً عن السياسة، ولا أرغب بأن أظهر في أي صحيفة". ضغطت عليه ليقول رأيه حول الوضع في الشيشان، فأجابني: "بداية، هجّرهم ستالين حتى آخر رجل فيهم. ثم أتى خروتشوف، وسمح لهم بالعودة. هكذا جرت الأمور."

2. الصلاة

ليحفظنا الله من الانحراف عن الطريق القويم.

امضوا أيها الرفاق المقاتلون في سبيل الله.

من ترتيلة الإمام شامل.

أصبح شمال القوقاز في بداية تسعينيات القرن العشرين مرادفاً للسياسيين، والجنرالات، والثوار الوطنيين. لكن قبل ظهور المنظّرين والمقاتلين بوقت طويل، كانت الثورة تموج بين الناس العاديين، وهم الناس الذين كانوا سوفياتيين، والذين اكتشفوا الآن ـ كما لو أنهم ينظرون إلى المرآة للمرة الأولى ـ هويتهم الحقيقية. شكّل ذلك بالنسبة للبعض منهم صدمة مثيرة لاكتشاف الذات، فيما وجد البعض الآخر المرآة متسخة، والضوء متقطّع، لا يمكن جمع أجزاء الصورة المتباعدة إلا ببطء. من هؤلاء الأفراد، انبثقت تلك العملية في مجتمعاتهم، ثم إلى كامل المنطقة، واتسمت بإعلان الصراع الديني، والثقافي، والتاريخي إلى حدٍّ بعيد مع روسيا.

تمثل الوجه الأكثر بروزاً في الولادة الجديدة لشمال القوقاز في المساجد. لم يكن هناك سوى بعض المساجد القديمة. فقد دمّر السوفيات معظمها، إلى جانب العديد من الكنائس المسيحية، ولكنّ دور العبادة الجديدة انتشرت في ظل حكم الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف سنة 1987. بحلول تسعينيات القرن العشرين، انتشرت المساجد الجديدة، أو **ميشتي** كما يسمّونها بالروسية، في كل مكان. ارتفعت مآذن الآجر الأحمر فوق شوارع القرى، وفتحت المساجد ذات الطراز المعماري الفريد أبوابها للمصلين، وأضحت القبب الزاهية الألوان تتلألأ من بعيد تحت أشعة الشمس. تمّ بناء مسجد جديد في مطار داغستان الرئيسي خارج ماكشكالا على بحر قزوين، وفي ماكشكالا نفسها كان يتمّ بناء مسجد ضخم بمساعدة تركيا. يوجد أحد المساجد المفضّلة لديّ في جنوب غرب الشيشان. فقد انتهى العمل في البناء الرئيسي، وهو عبارة عن قاعة أنيقة من الآجر، إلا أن كل شيء توقف بسبب الحرب، والقسم الوحيد الذي برز من المئذنة كان الحديد، أو السلم الحلزوني الذي يشمخ عالياً نحو السماء.

إلى جانب المساجد، ظهرت المدارس الإسلامية، أو **المدرسة**، وتجدّد تدريس اللغة العربية. كان هناك تدفق ثابت من الحجاج إلى مكة، الذين كانوا يسافرون من موسكو، ثم أصبح هناك رحلات مباشرة من مينرلاني فودي في شمال القوقاز. في مقابل الدعاية المضادة للإسلام والأقليات العرقية في الصحف، أصبح هناك الآن إرساليات ثابتة عبر مطارات شمال القوقاز من القرآن الكريم باللغة الروسية الآتي من الشرق الأوسط والكتيبات التعريفية مثل **لنتعرّف على الإسلام**، والمكتوب عليها أنها *هدية من إخوتكم في الإيمان*، والتي تأتي من المجلس العالمي للشباب المسلم.

كان الكثير من الناس في المنطقة يجهلون الإسلام، وكان هذا بمثابة إحياء وليس إعادة اكتشاف للدين. ترعرعت أجيال بأكملها في دولة ملحدة، واعتاد أولادها على فكرة جني المال والتحوّل إلى مستهلكين للسلع السوفياتية عوضاً عن الذهاب إلى المسجد. كانت تلك هي الحالة السائدة في أديجي، حيث قضى حوالى 125.000 شخص من السكان المحليين الحقبة الشيوعية مدفونين في جيب عرقي صغير ضمن مقاطعة ستافروبول، وفقدوا الكثير من هويتهم وثقافتهم. يقول محمد خافتسيف، وهو شيخ قرية في أديجي، ويقال إنه علّم نفسه بنفسه: "بالطبع، كان الإيمان أكبر قبل الثورة الشيوعية".

> **"لغاية سنة 1991، لم يكن مسموحاً لنا إظهار إيماننا. كان يوجد مسجد كبير على بعد خمسين متراً من هنا. كان هناك أربعة مساجد أخرى في القرية. وأيام الجمعة، كانت تُقام صلاة ضخمة في المسجد الكبير، أما في الأيام الأخرى فكان الناس يذهبون إلى المساجد القريبة من بيوتهم. تمّ تحويل المسجد الرئيسي في بادئ الأمر إلى مدرسة، ثم بعد 10 سنوات تمّ إغلاقه. لم يكن لدينا دين لمدة 75 سنة. ولم يتبقَ سوى مسجد واحد، لكن لا أحد يذهب إليه. وما زال كبار السن لا يجدون راحة بالوقوف والصلاة لله تعالى، لكن الأمور تستقيم الآن خصوصاً مع الأطفال."**

في ميكوب، عاصمة أديجي، ولد المفتي، ساجد خواجه، وهو عضو من شتات أديجي في سوريا. تحدّث إلينا بالأديجية، التي تراجعت عبر الأجيال منذ القرن التاسع عشر، ولكنه لا يعرف الروسية. يقول المفتي ساجد خواجة "أتيت إلى هنا سنة 1990 من سوريا. وأعتبر هذا المكان وطني. ورغم أن العيش في سوريا أسهل، إلا أنها أرضنا المعلّقة قلوبنا بها".

سألته فيما إذا كان متفاجئاً من مستوى معرفة الإسلام في أديجي، خصوصاً أنه قادم من الشرق الأوسط. يقول: "يرغب الناس بالعودة إلى الإيمان، وتتمّ مراسم الدفن الآن بشكل لائق. لكن في الوضع الحالي لا يمكن تعويض كل شيء، وليس لدى الناس الوقت أو المال للتركيز وقبول الإسلام. إنهم يفكّرون بأشياء أخرى". هناكِ صعوبات أيضاً بالحصول على تمويل لبناء المسجد الكبير في

ميكوب، ويقع موقع البناء مهجوراً خارج مكتب ساجد الصغير. على كل حال، تمّ بناء سبعة مساجد في القرى النائية خلال ست سنوات، كما قال.

هناك مشاكل مشابهة في كاراشاي، والتي تضررت ثقافتها كثيراً أثناء التهجير، ولا يزال بعض مواطنيها يعتقدون أنهم لا يستطيعون الصلاة بحرية. كان كبار السن يخافون من الاستخبارات السرية، فيما بدت الرهبة على الجميع من الحرب في الشيشان، والتي يرون فيها حرباً ضد الإسلام. يقول كزبك شاماتيف، الشيخ المضياف في قرية كاراشايفسك أن المساجد أعادت فتح أبوابها بدءاً من سنة 1992 فقط.

"الشباب هم الذين يهتمون، فيما لم يتغلب الكبار على مخاوفهم. في تلك الأيام، كان يتمّ إلقاء القبض على من يصلي، وكان الجميع يصلون سراً، ولم يستطيعوا التغلّب على ذلك. قبل وقت قصير، أتى شيخ من دمشق لزيارتنا، ولكن كبار السن كان لديهم شكوك حوله. هل هو شيخ حقيقي، هل هو شيوعي، هل أرسله أحد ما؟

بالنسبة لعدد كبير من الناس، ما زال الإسلام لا يعني الشيء الكثير. فبعد الثورة السوفياتية، قاموا بجمع كل كتبنا، ونسخ القرآن، والمخطوطات وأحرقوها. كانوا يقولون لنا: "ليس لديكم آداب". ثم قتلوا كل المثقفين. ولهذا لم يكن لدينا أي تعليم. أعتقد أنها كانت خطة روسية لنزع قوانين الشريعة منا، وجني المال من خلال بيعنا الفودكا."

لكن من جديد، يجتذب الإسلام بعض الشباب الذين يعتقدون أنه رسالة عظيمة. في شركسك عاصمة كاراشاي ـ شركسيا، تمّ افتتاح معهد إسلامي، وتقوم مجموعات من الشباب بالحج إلى مكة كل سنة. في مسجد مؤقت في مدينة المعرض القديمة في كاراشايفسك، تتراوح أعمار كل الرجال الذين يصلون بين العشرينيات والثلاثينيات من العمر.

كازبك نفسه رجل شاب يثقّف نفسه بنفسه. يقول: "عندما كنت صغيراً، رأيت جدّتي تصلي وهي خائفة من أن يراها أحد. وقد أثّر بي ذلك المشهد. ترعرعت كملحد، ولكن بطريقة ما بقيت تلك الصورة عالقة في ذهني. في أحد الأيام مرضت، وبقيت في المستشفى بضعة أشهر. كان إلى جانبي هناك أحد كبار السن الذي كان يحتضر، ورأيته يكتب شيئاً بالعربية ويصلي. سألته عمّا يفعله، فأجابني: "أصلي لله. وطلب مني أن أتذكّر تلك الصلوات، وأنها ستحميني من الشر. تذكّرت تلك الآيتين، وبدأت بدراسة العربية شيئاً فشيئاً. وعند السماح بذلك قبل بضع سنوات، وجدت ترجمة روسية للقرآن الكريم".

تكرر السيناريو في كاباردينو ـ بالاكاريا، الجمهورية المجاورة. ويقول نصر، وهو رجل في منتصف العمر، والذي شعر بأن صحوة الإسلام لم تصله إلا بشكل متأخر: "يذهب الشباب إلى تركيا وأماكن أخرى لتعلّم القرآن الكريم. إنني أبلغ من العمر 44 سنة، ولا أعرف القرآن الكريم. ولم أتعلّمه قط. أنا أؤمن بالله، لكني لا أعرف كيف أصلي. تسعون بالمئة من أصدقائي لا يصلّون أيضاً. لقد كنا نعيش في الاتحاد السوفياتي، إذا كنت تعرف ما أعني. وأتذكّر جدّتي تصلّي، لكننا لم ندرس اللغة العربية أو التركية في المدرسة، ولا حتى أي شيء آخر يتعلق بالدين. لم يكن هناك دين في مجتمعنا. ويبدو الآن أن أولئك الصغار الذين يذهبون إلى تركيا وأماكن أخرى ويعودون بالمعرفة منتشرون في كل مكان. في الماضي، كان شيوخ الدين رجالاً في الخمسين من العمر، وهم الآن لا يتجاوزون 25 سنة".

كما كان الحال في الماضي، كان الجزء الشرقي من المنطقة المتمثّل في الشيشان، وداغستان، وأنغوشيا هو الذي مهّد الطريق للجميع. لقد امتلكت تلك الجمهوريات، التي انتشرت فيها *الطريقة* الصوفية، القدرات التنظيمية والتقوى لدى تابعيها لتقاوم عقوداً من الشيوعية. فيما لم يكن الإسلام في النصف الغربي المتمثّل في كاباردينو ـ بالاكاريا، وكاراشاي ـ شركسيا، وأديجي عميق الجذور أو

محصَّنا أمام النفوذ الشيوعي. في الجمهوريات الشرقية، كان الإسلام أكثر وضوحاً في الحياة الوطنية. كانت النساء يضعن الحجاب، رغم عدم تغطيتهن للوجه، وكان العديد من الرجال يرتدي طاقية الصلاة. كان من الشائع رؤية الرجال يصلون على جوانب الطرقات، أو في أي مكان آخر، وذلك في أوقات الصلاة المسمّاة **ناماز**. توافد المدّرسون من المملكة العربية السعودية ومناطق أخرى في الشرق الأوسط إلى المنطقة، وكان لهم تأثير كبير في الجامعات والجوانب الأخرى من الحياة العامة، كان هناك إحياء للشريعة الإسلامية في أجزاء كبيرة من الشيشان.

أثارت قوة وسرعة انتشار الإسلام الدهشة، لكنها لم تكن دون تفسير، لأنه كان مزدهراً دائماً بشكل سري. كان الحفاظ على الدين أساسياً خلال التهجير، لأن الإسلام في شمال القوقاز متمازج تماماً مع الهوية العرقية. كان فقدان الإيمان يعني فقدان كل شيء، والحفاظ عليه يعني إنقاذ أمة. يقول رجل عجوز من بالاكاريا نجا من التهجير: "كنا جميعاً مسلمين وساعدنا بعضنا البعض، وكنا نقوم بصلواتنا نوماز بشكل سرّي، ونُغلق الأبواب والنوافذ. تمّ اعتقال بعض شيوخنا، ولكن معظم الناس حافظوا على تقاليدهم وإيمانهم بتلك الطريقة".

كان الشيشانيون والأنغوش بشكل خاص قادرين على النجاة بفضل العالم الروحاني للأخوية الصوفية، وبفضل التنظيمات السرية، والمتعصبة في بعض الأحيان، والتي قادت المقاومة ضد الجيوش القيصرية وبعدها البلاشفة. لدى عودة المهجّرين إلى أوطانهم في أواخر خمسينيات وبداية ستينيات القرن العشرين، انتشر بينهم ما يعرف *بالإسلام الموازي*، أو قيام جماعات صغيرة بالعبادة على الطريقة الصوفية سراً، في المنازل الخاصة عبر الشيشان، وأنغوشيا، وفي جبال داغستان أيضاً.

أصاب الإحباط المخططين السوفيات من هذه *الانتهاكات* كما كانوا يدعونها. قاوم أهل شمال القوقاز، الذين كان يُفترض بهم أن يكونوا مثالاً يُحتذى للمواطنين السوفيات، الزواج من أديان أخرى، أو حتى من أعراق مختلفة. كانوا يقومون بمراسم الدفن على الطريقة الإسلامية، ويزورون الأماكن الصوفية المقدّسة والتي كانت في معظمها مقابر *المريدين*، وهم المقاتلون المناهضون للروس أو السوفيات. نقل روبرت كونكويست، في **قتلة الأمّة**، سنة 1973 تعليقاً في صحيفة **سوفياتسكي داغستان** يعكس الغضب الشيوعي:

> **"في السنوات الأخيرة، كانت الإمبريالية تحاول إدخال نظرية حديثة صغيرة إلى الاتحاد السوفياتي تدّعي الحاجة إلى رفض النسق الواحد. يدّعي هذا المفهوم البرجوازي الفوضوي... تفوق الحرية الفردية... ووفقاً لهذه النظرية، فإن المؤمن مسؤول أمام الله وحده، ولأن الحكومة ـ الحكومة السوفياتية، ليست قوة برجوازية ـ فإنها لا تستمد شرعيتها من الله، لأنها تعمل ضد إرادة الله، ويجب عصيان أوامرها. يروّج بعض عناصر *المريدية* المتطرفة لهذه النظرية في داغستان والشيشان."**

رغم إعلانهم الجهاد المقدّس، إلا أن شعوب شمال القوقاز تمتعت تقليدياً بالتسامح الديني. كان هناك علامات تحذير في تسعينيات القرن العشرين بأن إحياء الدين القوي، والمتطرف في بعض الأحيان، قد يهدد هذه الميزة. في سنة 1997، وفي قرية بويناكسك، دفن جمهور مسلم غاضب شخصين، رجلاً وامرأة، حيين في الجامع الرئيسي. اتهم العامة الشخصين باختطاف الأطفال لبيع أعضائهم، ولكن الكنيسة ألقت باللوم على التعصب الشيشاني، قائلة إن عائلة المرأة التي ماتت تبرأت منها.

سورخوخي، أنغوشيتا

عمل الصوفيون سراً لأن السلطات القيصرية منعت نشاطهم. ولاحقهم السوفيات دون هوادة لأنهم كانوا يعتبرونهم أعداء للدولة، وأنهم يقفون خلف الكثير من عمليات المقاومة. في الشيشان، يمكن رؤية الكثير من طقوس الدراويش، والذكر هذه الأيام. لكن ما زال الصوفيون يتسلحون استعداداً للحرب؛ الحرب ضد الروس.

الوضع مختلف في أنغوشيا، ورغم الشعور بانتشار الصوفية في ذلك البلد، إلا أن ذلك ليس واضحاً للعيان. وهم موجودون وغير موجودين في كل مكان. حالما يبدأ أي شخص بتوجيه الأسئلة، سينظر إليه الناس هناك نظرات غريبة، ولن يحصل سوى على بعض الأجوبة المقتضبة التي لا تشجع على طرح المزيد من الأسئلة. هل هم جهلة، أم أنهم لا يرغبون بالحديث بكل بساطة؟ ولا تحصل على جواب على ذلك أيضاً. إنه جزء من الجدار الصوفي الذي أبعد جهاز الاستخبارات السوفياتي كي جي بي، والجدار الذي حمى المؤمنين خلال التهجير إلى آسيا الوسطى. إنه الجدار الموجود في روح أمة شمال القوقاز. تلك الروح التي عاشت بالرغم من تدمير روحهم الظاهرية.

تعتبر الحاج بطل واحدة من أشهر الجماعات الصوفية في أنغوشيا. فقد حصلت على نسخة مكتوبة من *التعاليم والمعتقدات الروحية* السرية بعنوان الصوفية في الاتحاد السوفياتي، لمؤلفيه ألكسندر بينيسين وإندرس ويمبوش. الحاج بطل هي: "الجماعة الجهادية الأنقى في كل الطريقة الصوفية". وتقودها عائلة بيلخوريف في قرية سورخوخي الأنغوشية، والتي فاقت سمعتها الآفاق. أنشأ بطل، الذي ذهب إلى مكة وأصبح حاجاً، الجماعة سنة 1867، وكرّس نفسه لقتال الروس الملحدين. حذا جميع أفراد الأسرة حذوه، ومات العشرات منهم على أيدي الروس أو السوفيات.

تحوّلت سورخوخي لتصبح متاهة من المنازل الأنيقة المبنية من الآجر والمزارع على سفح جبل خصيب. ولا وجود لإشارات عن المحاربين المتعصبين، أو الجماعات المناهضة للروس. في الحقيقة، يبدو المكان هادئاً ومزدهراً. سألت مع سائقي الأنغوشي أول قروي صادفناه: "هل تستطيع إرشادنا إلى المكان الذي يعيش فيه بيلخوريف؟". وقال: "في الأعلى هناك"، وهو يشير إلى طريق موحل يتعرج ضمن متاهة المنازل. حالما وصلنا إلى هناك، كان علينا أن نسأل مجدداً. "من هناك". ودخلنا في شارع أصغر من سابقه، لكن لا شيء يدل على أننا وصلنا. بدأت أفقد أعصابي مرة أخرى. إنه السؤال القديم ذاته: هل يجهلون الاتجاهات الصحيحة، أم أنهم لا يتكلمون؟ وسألنا مجدداً، وأخبرونا: "انتظرا هنا." قبل أن يمر وقت طويل، ظهر فتى حليق الرأس وقال: "من هنا". جرى نزولاً في الزقاق الموحل، وتبعناه ببطء بالسيارة إلى ساحة كبيرة، تشكّل نموذجاً للساحات في شمال القوقاز. خلعت حذائي ودخلت، وأجلستني امرأة في غرفة عالية السقف على أحد جدرانها سجادة وعلى الجدار الآخر صورة كبيرة لمكّة المكرّمة.

عندما دخل أحمد بيلخوريف، وهو قائد جماعة الحاج بطل بالوراثة، كان أول شيء قام به هو واجب الضيافة، وسألني فيما إذا كنت أرغب بتناول الطعام أو شرب الشاي. أراد لاحقاً أن يعرف كيف وجدته. كان من الواضح أنه لم يصدّق أنني ببساطة أخذت الاسم من كتاب غربي عن الصوفية. وبالطبع لم يكن الكتاب معي، ولم أستطع إثبات صحة ما أقول.

رغم أن بيلخوريف رجل عجوز، إلا أن يديه متينتان وقويتان. تحدّث معي في مواضيع شتّى، ونادراً ما أجاب على أسئلتي، ولكنه قال الكثير ولم أقاطعه. لقد سخر من الأميركيين، واليهود، والروس ومن الأوسيتين خصوصاً، الذين وصفهم بخونة القوقاز لاحتضانهم المسيحية وروسيا. كان فخوراً بالأنغوش بشكل مبالغ فيه. "كنا أول الشعوب على الأرض". وعندما انتبه إلى أنني أسجل الملاحظات، ارتفعت حرارة حديثه، وسألني فيما إذا كان باستطاعتي العودة في اليوم التالي. عندها فقط لاحظت وجود عصبة ملتصقة تحت قبعة الصلاة من الخلف، وهي علاج تقليدي للألم. وقال لي: "لديّ صداع."

في اليوم التالي، كان بيلخوريف ينتظر، وحالما جلسنا معاً، أخذ يخبرني عن ربّه، والضغينة التي حملها وسلفه التقي الحاج بطل، وأظهر لي صورة قديمة له يرتدي لباساً شركسياً أسود، ويبدو وجهه جميلاً لكنه قاسٍ قليلاً.

"عندما بدأوا بسحقنا، جعلنا ديننا أقوياء، ووحّدنا كشعب واحد. كنا نقتسم الخبز بيننا. في كازاخستان، إذا عرفنا بأن قرية ما جائعة، كنا نتسلل في الليل من خلف الحرّاس ونمنحهم الطعام. لقد جعلنا الله أقوياء."

"يقول القرآن الكريم أنه إذا جاء الكفّار إلى أراضيكم ودمّر شعبكم، يجب عليكم إعلان الجهاد، أو الحرب المقدّسة. وهذا ما حدث في الشيشان وهنا. وخلال التهجير، جاء الروس بالجرّافات ودمّروا كل مقابرنا وآثارنا القديمة. لقد أرادوا تدمير ثقافتنا. لكننا عدنا وبنينا كل شيء من جديد. هم يدمّرون الشيشان مجدداً الآن. لكنهم لا يستطيعون هزيمة الشيشانيين والأنغوش، لأنهم دائماً ينتفضون ويأخذون بالثأر."

تابع قائلاً: "انتبه، قاتل الحاج بطل **خارج هذا المنزل الجنود القيصريين لثلاثة أيام، وقُتل 40 من أبنائه وأقاربه منذ ذلك الحين. قتل الشيوعيون والدي، ووضعوني في السجن لمدة ست سنوات ونصف في نورلسك."**

تقع نورلسك في أقصى منطقة القطب الشمالي، وهي منطقة متجمدة دائماً. يرتبط اسمها بالنسبة للروس بالجحيم. "تركوني 29 يوماً على أرضية خرسانية في منتصف الشتاء لأموت. لكني بقيت على قيد الحياة. في إحدى المرات، كان هناك الكثير منا نحن الأنغوش معاً، وأقمنا الذكر في السجن. طلبت من الحرّاس بكل بساطة أن يبتعدوا عنا. لقد كانت تلك شؤوننا الخاصة كما تعلم."

"في سنة 1974، قمت بالحج إلى مكّة المكرّمة. كنت أول الشيشانيين أو الأنغوش الذي يقوم بتلك الرحلة. ثم أقنعتهم بأن يسمحوا لي باصطحاب الآخرين. في سنة 1975، أقنعت السلطات بفتح المساجد، بمعدّل مسجد واحد لكل منطقة. بدأنا تدريجياً بفتح المساجد في كل قرية، والمعاهد الإسلامية والمدارس. كان الإسلام يولد من جديد. لكنني لم أستعد الإسلام، لأنه كان موجوداً هنا على الدوام. كان هنا، سراً، طوال الوقت."

تزوج بيلخوريف ثلاث مرات. ولم تنجب أول زوجتين له الأطفال، فيما أنجبت الثالثة ستة. يقول إن الحاج بطل **لا يستسلم بسهولة. فقد رأيت مسجده في القرية، والذي يعود تاريخ إحدى المآذن فيه إلى زمن** الحاج بطل **نفسه، فيما تمّ بناء المآذن الأخرى تحت رعايته. تغطي السجاجيد، من كل الألوان، الأرضية في الداخل، وهناك طابق في الأعلى، حيث يصلي الأطفال، وهو شبيه بالشرفة المرتفعة، ويمتد على مسافة 50 متراً ومبني من أخشاب لامعة منقوشة وجديدة. في الساحة، هناك *مدرسة*، أو معهد ديني، وهي مليئة بالأطفال الصغار الذين يرتدون قمصاناً بيضاً، ويتعلمون العربية من شاب يافع يرتدي ملابس بيضاء أيضاً. ووقفوا جميعاً على أقدامهم عندما دخلنا.**

ذهبنا إلى المقبرة الواقعة على هضبة خارج سورخوخي، والتي يوجد عند مدخلها مسجد صغير تمّ بناؤه حديثاً للحجاج، الباب مقفل دائماً بصخرة صغيرة. الحاج بطل **مدفون في آخر المقبرة، وتغطي الكتابات العربية شاهدة قبره، المطلية باللون الأخضر، ويوجد فوق القبر قبعة معدنية بلون ذهبي مصقول، ويرقد إلى جواره زوجته وثلاثة من أبنائه.**

عندما كنا نغادر البلدة، توقفنا عند كومة كبيرة من الحجارة المنقوشة إلى جانب الطريق تماماً. إنها شواهد قبور الأنغوش التي تحطّمت خلال التهجير. سألت بيلخوريف فيما إذا كان قبر الحاج بطل **قد بُعثر أيضاً. وأجابني: "لا شيء يستطيع إلحاق الأذى بتلك الصخور. سيفشل كل من يحاول، وسيشعر كما لو أنه تلقى ضربة على الرأس. وستصاب عائلته بالأمراض."**

انتشر هذا الانبعاث الديني، الذي اجتاح المنطقة في نهاية ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن العشرين، في أوسيتا الشمالية أيضاً رغم أنها الجمهورية الأكثر تأثُّرا بالروسنة، لكن مع اختلاف واحد: أن للوثنية بقايا داخل النفس الأوسيتية. رغم أنهم يوصفون عادة بالمسيحيين، إلا أن الأوسيتيين في الحقيقة مزيج من المسيحيين والمسلمين وأتباع ديانات أخرى، إنهم يعبدون آلهة ما قبل المسيحية والأشجار.

أشهر عناصر التقاليد الوثنية هي ديانة **واسترزي**، الذي يقع روضه المقدّس على بعد 30 كيلومتراً من العاصمة فلاديقفقاز، ويعتبر واسترزي حامياً للمحاربين والمسافرين، ورمزاً للذكورة، وهو شخصية غامضة ترتبط جذورها الهندو - إيرانية بعبادة الشمس، والقمر وآلهة الحرب وأبطال **نارت** القدماء في القوقاز. إنه يظهر في أغلب اللوحات التي تصوّره فارساً من العصور الوسطى، طويل اللحية، مكشوف الأعضاء التناسلية، ويمتطي حصاناً أبيضاً.

على أمل تحوّل الأوسيتيين إلى المسيحية بشكل كامل، شجّعت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية استبدال القديسين المسيحيين بالإله واسترزي وبقية الآلهة الوثنية، وعلى رأسهم خوسو، القدير. لكنهم عوضاً عن التخلي عن آلهتهم، قاموا بمزج القديسين، ونشأ عن ذلك هجين بين خوسو وإله المسيحية. تمثّلت ذات الإله واسترزي في القديس جورج، فيما تبادل **وسيلة** إله الغلال والرعد الأدوار مع القديس إليا.

لا حاجة لرجال الدين في المعتقد الأوسيتي الشائع. بعد فترة من الصيام الشديد والعديد من أنخاب الفودكا الدينية، تقوم العائلات والقرى الأوسيتية بتضحية الأغنام والثيران لهؤلاء الآلهة وتتضرع طلباً لمساعدتهم. يكون النخب الأول دائماً إكراماً للإله الرئيسي خوسو - وهو يقابل إله المسيحيين، أو الله لدى الأقلية المسلمة - والنخب الثاني للآلهة المحليين، الذين يتمتعون باختصاصات متعددة، تتراوح من جلب الحظ السعيد إلى المساعدة في الاستمطار، وإنقاذ المسافرين وحمايتهم من الأعداء. وهناك عدّة **شوبارك،** أو **قوى الظلام؛** والتي "لا تظهر سوى للصوص"، كما قال لي أحد علماء الأعراق البدائية في فلاديقفقاز.

لا يحظى أي إله بالاهتمام الذي يحظى به واسترزي. وتقول أسطورة الروضة المقدّسة خارج فلاديقفقاز أن هيتاك كان يهرب من أعدائه في القرنين الرابع والسادس عشر عندما صرخ واسترزي من الجبال وأخبره بأن يختبأ هناك. انهار هيتاك مرهقاً على السهول قائلاً إنه لا يستطيع الاستمرار أكثر، وانحنت مجموعة من الأشجار (الغابات اليوم) بشكل إعجازي وخبّأته. وتقول إحدى نسخ الأسطورة التي سمعتها إن هيتاك كان كابارد اعتنق المسيحية، وكان يهرب من أقربائه المسلمين، وتقول رواية أخرى إنه كان أبريغاً (قاطع طريق) فاراً. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الروضة كاتدرائية واسترزي نابضة بالحياة، وتذكاراً لهيتاك، ومعبداً في الهواء الطلق للقديس جورج.

نجت تلك العقيدة من الحظر الديني أثناء الحكم السوفياتي، ومن معتقد التقمّص الذي يؤمن به الأوسيتيون. منذ العام 1991، يوجد عدّة ادعاءات بقيام واسترزي بزيارة القرى، وتحوّلت الغابات، التي تسمّى روضة هيتاك، إلى مكان مقدّس. تتكوّن تلك الروضة من أشجار الدردار والزان، والتي تغطي أقل من 13 هكتاراً، وتأخذ شكل المثلث. تمّ بناء معبد مع عمود خشبي كبير مزين بالزخارف، إلى جانب قاعة كبيرة تأخذ شكل الذئب لإقامة الاحتفالات السنوية. وتزرع كل قرية شجرتها الخاصة في تلك الروضة.

قمت بزيارة خاطفة لتلك المنطقة بعد انتهاء الصيام، ووجدت المئات من زجاجات الفودكا، ولوازم الحفلات ملقية على الأرض. بالرغم من فقدان سلال المهملات، يعامل الأوسيتيون روضتهم باحترام وتبجيل ديني كبيرين. وجدت داخل المعبد القريب من الغابات رجلين في منتصف العمر واقفين أمام العمود المزخرف، وأيديهما مرفوعة في الهواء. بعد فترة قصيرة وضعا بعض النقود في صندوق تبرعات تحت لوحة ضخمة لواسترزي. ينهض المؤمنون الذين يمرّون على الطريق الرئيسي، على بعد كيلومتر تقريباً من الروضة، من مقاعد سياراتهم ويتمتمون ببعض الصلوات لواسترزي. ممنوع عليهم كسر أي غصن من أشجار الغابات المقدّسة، والتي يتمّ تزيينها بالشرائط ولوحات القديس جورج والتنين. بسبب قوة خصوبته، لا تستطيع النساء التلفظ بكلمتي هيتاك أو واسترزي، وكان هناك موجة من الضحكات الخجولة في كنيسة أرثوذكسية أوسيتية في فلاديقفقاز عندما سألت راهبة - وكان سؤالاً بريئاً بالطبع - إذا كانت تستطيع شرح مسألة واسترزي لي. قالت الراهبة وهي تعدّل وضعية وشاح رأسها بعصبية: "ممنوع علينا قول اسمه، ليغفر لي الرب".

يقول مؤرخ محلي شاب في فلاديقفقاز: "عندما كان الإلحاد في أوج قوته، كان هناك عائق حقيقي أمام التقاليد المحلية. كان أول أمين عام للحزب الشيوعي في أوسيتا روسياً. لكن الأمور تعود إلى نصابها الصحيح الآن. يقول رئيسنا (أوسيتا الشمالية) إنه مسيحي، لكنه يشارك أيضاً في احتفال واسترزي، ويحتل الإله واسترزي موقعاً مهماً جداً بالنسبة لنا، وتقول جدّتي، مثلاً، إنها رأت باب السماء مفتوحاً، وأنه كان يقف هناك. ما تزال القرى تراه بين الفينة والأخرى. إنه يعود دائماً، وفي الحقيقة إنه لم يغادر أبداً. وخلال زمن السوفيات، كان ربّ (صاحب) المنزل يجمع عائلته ويصلي له ويشرب نحباً".

لم تكن تلك المعتقدات مثار إعجاب الروس أو السوفيات قبلهم. لكن الجميع يعرفون بأن سكان أوسيتا الشمالية - بمعتقداتهم تلك - يشكلون متراساً ضد ثورات المسلمين، وهم دائمو الانشغال بالصلوات للأشجار ورفع كؤوسهم المليئة بالفودكا لرجل يظهر من الغيوم على حصان أبيض.

فلاديقفقاز، أوسيتا الشمالية

توقفت عند كنيسة أرثوذكسية روسية في فلاديقفقاز، وطلبت رؤية الكاهن. ظهر لي رجل نحيل أشقر الشعر، أزرق العينين، يرتدي رداءً أسود. سألته عن رأيه بواسترزي إلى جانب المقارنة الاستثنائية مع القديس جورج. أجابني الكاهن، مدافعاً مباشرة، وبأسلوب بيروقراطي لم أتوقعه: "هناك أساطير، لكن لا يوجد ما يؤكّدها. نحن لا نراها من الزاوية نفسها، إننا نعتقد بتحريم الصلاة له لأنه لا يوجد دليل حقيقي عليه."

سألت عن سبب تشبيه الأوسيتيين للإله واسترزي بالقديس جورج. فقال الكاهن: "هناك الكثير من المعتقدات المشابهة بين الناس البسطاء، حتى إذا لم تكن منطقية. هناك دائماً أشياء غريبة وتعصّب مثل هذا. نحن نصلي للقديس جورج، ولكن ليس لذلك الرجل على الحصان الأبيض لأن لا علاقة لنا به."

3. الاكتشاف والإصلاح

"تتألف العليّقة الشوكية التتارية من ثلاثة براعم وتبدو إحداها مكسوراً فيما تبدو بقية الساق مثل ذراع مبتورة. هناك زهرة على كلا البرعمين الباقيين. تكون الأزهار حمراء في البداية، ولكنها سوداء الآن. كان أحد الأغصان مكسورا ويتدلى نصفه الأعلى مع الزهرة الترابية إلى الأسفل، وما يزال الغصن الآخر، والذي يكسوه الوحل الأسود، قائما ...ويبدو كما لو أن جزءاً من الجذع قد تمزّق، وبرزت أجزاؤه الداخلية للخارج، وكما لو أن هناك ذراعا مبتورة وعينا جاحظة. لكنه رغم ذلك لا يزال قائما، ولن يستسلم للإنسان الذي دمّر كل أبناء جنسه من حوله."

من كتاب الحاج مراد لتولستوي.

انبثقت الجماعات العرقية في شمال القوقاز بنفس الطريقة التي انتشرت بها المساجد في الأماكن التي كان الدين محظوراً بها، واحدة تلو الأخرى، مؤكّدة على هوياتها المتمايزة. انكشفت ضحالة الوحدة السوفياتية بين ليلة وضحاها. كانت رحلة إعادة اكتشاف الذات بالنسبة للأقليتين اليهودية الجبلية والعرقية الإغريقية مذهلة. يعتبر اليهود الجبليون، المعروفون على نطاق واسع باسم **التات،** إحدى أصغر الأقليات مع عدد لا يتجاوز 18.000 نسمة، ولكنهم حافظوا بشكل مذهل على اليهودية واللغة الفارسية التي أتقنوها منذ ما يزيد عن 1000 سنة مضت في بلاد فارس. كانت نهاية القيود السوفياتية على الثقافة والدين تعني أن التات، المنتشرين حول ديربنت في داغستان وناشليك في كاباردينو - بالاكاريا، يستطيعون مجدداً افتتاح المراكز الثقافية وإصدار صحيفة خاصة بهم. لكن استعادة الهوية الحقيقية كانت تتطلب خطوة أكبر بكثير تتمثل في مغادرة شمال القوقاز والهجرة إلى *إسرائيل* ليكتشفوا هويتهم كمواطنين *إسرائيليين* يتكلمون العبرية، وهو ما كانوا يفعلونه في الماضي. من بين 14.000 يهودي جبلي كانوا موجودين في ناشليك في سبعينيات القرن العشرين، لم يعد

هناك سوى 4.000 منهم عندما زرت المدينة سنة 1996. بدا أن اليهود الجبليين انتظروا العودة إلى *وطنهم* طوال تلك السنين.

تنتشر الجماعة العرقية الإغريقية في نفس المواقع التي كان يرتادها أسلافها، لقد قطن **البونتك** المتحدّرون من الإغريق في الأناضول فيما يعرف الآن باسم تركيا، وفي شبه جزيرة القرم، وساحل القوقاز منذ 3000 سنة مضت. كان هؤلاء تجاراً، وجنوداً، ومستوطنين ما تزال مسارحهم، ومعابدهم، وحصونهم المدمّرة تنتشر حول البحر الأسود. استطاع الإغريق النجاة عصراً بعد آخر حتى حصول كارثة القرن العشرين المتمثّلة في الطرد الجماعي لكل البونتك سنة 1923 من تركيا (وتمّ طرد كل الأتراك بطريقة مماثلة من اليونان)، والذي تبعه عمليات قمع وتهجير لهم في عهد ستالين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. حتى أثناء ذلك، حافظ بونتك الاتحاد السوفياتي على هويتهم الإغريقية، رغم عدم ذهابهم إلى اليونان واختلاف لغتهم المهجورة عن اليونانية الحديثة.

فتحت *سياسة المكاشفة* الفصل التالي من حياة البونتك، ومنحتهم حق *العودة* إلى اليونان، والعودة إلى بحر إيجه لإغلاق الدائرة التاريخية. خلال السنوات السبع الأولى من الهجرة، التي بدأت سنة 1989، قام حوالى 90.000 بونتك بالرحلة، والتي كان لها اسم خاص في اليونان - **بالينوستسي**. وعلى غرار اليهود الجبليين، دخل البونتك بلداً أجنبياً بالكامل، وشعروا بأنهم غرباء عملياً وتمّت معاملتهم على هذا الأساس أيضاً. ما يثير السخرية، والحزن في الوقت نفسه، أن لهجتهم التي صمدت طوال تلك العصور قد شارفت على الموت الآن لأن الوافدين الجدد قرروا التخلي عنها.

لا تتطلب عملية التجديد الثقافي والروحي من الشيشانيين، والبالاكار، والأديجي وبقية سكّان الجبال السفر، ولكنها إلى حدٍّ ما كانت محفوفة بمخاطر أكبر. حصلت الأوطان أخيراً، والتي تدعى الآن *جمهوريات*، على حكم ذاتي حقيقي وليس صوري. ولكنّ القادة الوطنيين ارتأوا الذهاب إلى أبعد من ذلك بكثير مزودين بدعم شعبي كبير. لقد سعوا إلى تحقيق استقلال الجمهوريات التي مزّقها السوفيات على قاعدة فرّق تسد، والتي حصلت فيها مجموعات لا تمت لها بصلة على أراضٍ كانت ملكاً لجماعات أخرى تمّ انتزاع أراضيها منها خلال التهجير. أرادوا الحصول على استقلالٍ سياسي أوسع، أو في بعض الأحيان، قطع العلاقات مع روسيا. كانت الكلمة الشائعة بعد جرائم القياصرة، وستالين وعمليات النفي والتهجير هي **ريبيليتاتسيا** أو *الإصلاح*.

يبدو مصطلح *تقرير المصير العرقي* جديراً بالاهتمام، ولكن باستطاعة أي شخص أن يلحظ مباشرة أن مطالب إحدى الجماعات تمثّل انتهاكاً لحقوق جماعة أخرى في مكان معقّد مثل شمال القوقاز. هذه هي القنبلة الزمنية الخفية في خريطة ستالين. يتطلب تقليل المخاطر وبناء فيدرالية روسية ديموقراطية التعاون الكامل بين السلطات المركزية والجبليين، ولكن موسكو التي تعاني نفسها من الاضطرابات السياسية، وقفت على الحياد. ربما يعود السبب إلى أنه من الأسهل تجاهل شمال القوقاز عوضاً عن إصلاحه، وربما لأن روسيا ما تزال تتأرجح بين الماضي الاستبدادي والمستقبل الديموقراطي، وسيكون لفشل المركز نتائج مأساوية.

تتقسم داغستان، التي يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، إلى 34 قوميةً مختلفةً. هناك تقديرات غير رسمية تقول إن عدد القوميات يفوق 100. وتقع **أرض الجبال** فوق نفط أزيري، وعلى مسارات سكك الحديد والطرقات، فيما تعتبر العاصمة مكشاكالا الميناء الروسي الأخير الذي يعمل على مدار السنة على بحر قزوين. يبدو الوضع الداخلي متفجراً، وهناك حقد سياسي ومناطقي دفين بين الجماعات العرقية الرئيسية، والتي قامت بإنشاء أحزاب قومية عرقية تبعاً لمصالحها السياسية

والاقتصادية، وأحياناً العسكرية. هناك 34 قومية، وكلها في مساحة أصغر من أسكتلندا. تمتلك الجماعة الأكبر - الآفار - تنظيماً يدعى **الجبهة الوطنية** تيمناً بالإمام شامل، والتي تقول التقارير الروسية إن عدد منتسبيه يصل إلى 10.000 مقاتل.

كما هو الحال في كل مكان، اختلطت الأمور في داغستان نتيجة التأثيرات اللاحقة لهندسة ستالين المجتمعية. عندما تمّ اقتلاع الشيشانيين القاطنين في داغستان وتهجيرهم إلى جانب بقية شعبهم سنة 1944، نزلت الجماعات الأخرى، وخصوصاً **اللاك**، من المناطق الجبلية لتحتل قرى الشيشانيين الفارغة في السهول. لم يكن لدى تلك الجماعات أي خيار آخر. كان الكرملين قادراً على تحريك القوميات بنفس الطريقة التي يحرّك بها الموظف الأقراص على طاولة لعب القمار.

عندما تمّ السماح للشيشانيين بالعودة، حاولوا استجداء أو شراء منازلهم القديمة. في الغالب، كان عليهم بناء قرى جديدة بالكامل، لكنهم لم ينسوا أبداً منازلهم وممتلكاتهم الأصلية. يقول مراد، البالغ من العمر 44 سنة، والذي يعيش في قرية نوفوسلسكوي المبنية في السهول شمال خاسافيورت، أن والديه عاشا في **كالينين آول** قبل التهجير. "تمّ إجبارهما على الرحيل مشياً على الأقدام، والسير إلى محطة القطار ليتمّ ترحيلهما، وحالما أصبحا في عربة القطار، احتل الآفار منزلهما فوراً". لكن ذلك المنزل، الذي لم يعش فيه إطلاقاً، ما زال يمثّل هاجساً لمراد. "جميعنا نعرف المنزل، ولقد ذهبت إلى هناك وألقيت نظرة، ولم ننسَ ما حدث إطلاقاً؛ قام جدّي بدفن أسلحته الشخصية هناك".

سبّب قرار الحكومة الداغستانية سنة 1992 بإرجاع ممتلكات 57.000 شيشاني محلي قرب الحدود الشيشانية الداغستانية، وإعادة توطين اللاك في السهول قرب مكشاكالا غضب مجموعة ثالثة هي **الكوميك**. ويعتبر الكوميك، وهم شعب ناطق باللغة التركية، هذه السهول التي سيقطنها اللاك أراضي تابعة لهم. كان نفوذ الكوميك يتناقص هناك على مدار السنين، أولاً بوصول الآفار، الذين أجبرهم الشيوعيون على النزول من الجبال بالقوة، والآن من قبل اللاك. يعتبر الكوميك أنفسهم الآن أقلية في أرضهم الخاصة.

تمّ تأسيس حزب كوميك وطني يدعى **تينغليك** سنة 1989، ويطالب بدولة منفصلة لهم على بحر قزوين تتمتع بالحكم الذاتي، ويهدد باستخدام القوة لمقاومة نفوذ اللاك. يعمّق هذا من العلاقات المتوترة أصلاً بين الكوميك والآفار، الذين يهددون بالاستعانة *بجبهة الإمام شامل*. يعتبر ذلك مثالاً عن الحقوق المتوازية لكن المتناقضة لعدّة جماعات: الحق المفهوم *للقومية* للسيطرة على أراضيها الخاصة؛ وحق الجماعات العرقية الأخرى بالاستيطان بحرية؛ وحق الحكومة الداغستانية بتقديم مصالح الجمهورية العامة على مصالح الجماعات العرقية الخاصة.

قد تنشأ مشكلة أكثر تفجراً أيضاً في أقصى الجزء الجنوبي من داغستان بسبب الخلاف على حقوق قومية **الليزيغ** التي تعيش في داغستان وأذربيجان أيضاً. يعيش الليزغيون، الذين يبلغ عددهم رسمياً 466.000 نسمة، والذي قد يصل إلى مليون في تقديرات غير رسمية، في أقصى جنوب داغستان والشمال الشرقي لأذربيجان. عندما انهار اتحاد الجمهوريات السوفياتية، انقسمت تلك القومية بالحدود بين روسيا وأذربيجان المستقلة، وأصبح من الصعب عليها فجأة زيارة بعضها البعض، أو التجارة فيما بينها أو إقامة أي علاقات أخرى. انتشرت الرشوة والتهريب عبر الحدود لدرجة أنه أطلق على المعبر الروسي الرئيسي لقب **الجسر الذهبي**. كان هناك مشكلة إضافية بالنسبة لـ 175.000 **ليزغي** في أذربيجان لأنهم مسلمون سُنّة، وجدوا أنفسهم فجأة بين الأغلبية الآذرية الشيعية.

رداً على ذلك، نشأت الجبهة الوطنية الليزغية **سادفال** لإعادة توحيد الليزغيين على كلا جانبي الحدود في منطقة تتمتع بالحكم الذاتي ضمن داغستان، والتي يجب إعادة تشكيلها نفسها لتصبح فيدرالية من جمهوريات مصغّرة تتمتع بالحكم الذاتي ضمن روسيا. لهذا يهدد الطموح الليزغي ليس وحدة الأراضي الداغستانية وحسب، وإنما الآذرية أيضاً، والتي تقف بحزم ضد أي طموح من هذا النوع. تفضّل موسكو، التي يعتريها القلق من فقدان السيطرة على تدفق الأسلحة عبر الحدود وتهريب المواد الممنوعة، الوضع الراهن. وهكذا تبقى المشكلة دون حل مثل النار بلا دخان.

يتوقع البعض أن تتحول داغستان إلى عشرات الدول اليوغسلافية المصغّرة. وبكل الأحوال، ساعد تعقيد الخريطة العرقية على منع حدوث أزمة لزمن طويل. ولا توجد مجموعة واحدة كبيرة بما فيه الكفاية لتهيمن على الجماعات الأخرى، وسيكون لادعاءات أي جماعة عرقية سواء كانت سياسية أو مناطقية انعكاسات سلبية لدى العديد من الجماعات الأخرى. يحكم الجمهورية مجلس وطني من 14 عضواً، يمثّل كل منهم واحدة من الجماعات العرقية الرئيسية، ولمنع جماعة واحدة من الاستئثار بكل شيء، صوّتت شعوب داغستان سنة 1992 بشكل ساحق ضد الملكية الخاصة للأراضي وضد وجود رئيس واحد، ولكن ربما يكون انتشار ثقافة **غورتسي** والدين الإسلامي العاملين الأهم اللذين يحافظان على الهدوء في داغستان.

استطاعت العديد من الجماعات الوصول إلى قمة الحياة الاجتماعية بالقوة أو بالخداع. تسيطر الجماعات الأكثر عدداً على القوة السياسية الرئيسية والمصادر الاقتصادية الأوسع في الجمهورية. في بداية تسعينيات القرن العشرين، كان **ماجومد علي ماجوميدوف** رئيس المجلس الحاكم، وهو قائد حكيم منذ أيام الحقبة السوفياتية ومن العرق الدارغي (280.000 نسمة)، وكان رئيس الوزراء عبد الرزاق ميرزابيكوف من قومية كوميك (232.000)، وكان الدارغيون مسؤولين أيضاً عن عمليات الجمارك المربحة. أما الآفار (496.000) كانوا مسؤولين عن شركة النفط الداغستانية، وكل قوات الشرطة والاستخبارات السرية الهامة. وكان ماجومد خاشيلايف يرأس **لجنة صيد السمك** المسؤولة عن جمع الكافيار في بحر قزوين، وهو بطل أوروبا السابق في لعبة الكاراتيه ومن قومية اللاك (92.000)؛ وكان نادر شقيق خاشيلايف الأصغر رئيساً لاتحاد **مسلمي روسيا**.

ثبّتت موسكو أقدامها في داغستان، وكانت سياستها تعتمد على دعم الاقتصاد وعدم التدخل في الأعمال المشبوهة والنشاطات السياسية في الجمهورية التي تتمتع بالحكم الذاتي. بالمقابل، كانت السلطات المحلية موالية لسياسات الكرملين، وحافظت على استقرارها وتوازناتها الداخلية. أثبتت الحكومة الداغستانية موالاتها في الانتخابات الرئاسية الروسية سنة 1996، وقد صوّت الداغستانيون القرويون بشكل ساحق في الجولة الأولى لصالح منافس الرئيس بوريس يلتسن الشيوعي، وفي الجولة الثانية الحاسمة، كان يلتسن يحتاج لكل صوت، وعندما جاءت النتائج من داغستان، أظهرت انعكاساً كاملاً عن أرقام الجولة الأولى؛ وهي مفاجأة فقط لأولئك الذين يجهلون كيفية إدارة المنطقة.

لم يكن معروفاً إلى متى قد يستمر ذلك الوضع. ابتكر المتنافسون الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة نظاماً من التوازنات الدقيقة. لكن في نفس الوقت، تعرّضت تلك الصراعات المعتدلة إلى خطر الخروج عن السيطرة. وفي غضون بضع سنوات من انهيار الاتحاد السوفياتي، أصبحت داغستان مكاناً ينتشر فيه العنف، والمنطقة الأولى في روسيا، باستثناء الشيشان، في معّدلات القتل والاختطاف السياسي. لقد أصبح الإرهاب عملاً شائعاً.

إذا أخذنا مثلاً حالة **غامد غاميدوف**، رجل الأعمال الدارغي المشبوه والشهير، والذي ينتمي إلى قبيلة معروفة جداً، والذي بنى علاقات سياسية واسعة بحيث أضحى يهدد السلطة التي يمثلها ماجومد علي ماجوميديف، وبقية النخبة الشيوعية سابقاً التي تشكّل المجلس الوطني، ففي سنة 1994، احتل شعبه المرتبة الثالثة في انتخابات البرلمان المحلي. ثم في آب 1996، كان غاميدوف، الذي استمرت شعبيته ونفوذه بالارتفاع طوال السنتين الماضيتين، يقف في قلب مكشاكالا عندما أودى تفجير سيارة مفخخة بحياته وحياة ثلاثة أشخاص آخرين وجرح 20 شخصاً. بالطبع، كما هو حال معظم الاغتيالات السياسية في داغستان، لم تتمّ إدانة أحد. ولكن مناصري غاميدوف توعّدوا بالثأر كما هو الحال دائماً في القوقاز الذي يبدو أنه لن يستقر قريباً.

ظهرت سطوة العصابات الإجرامية واضحة مجدداً في سنة 1996، عندما دمّرت قنبلة موضوعة بعناية مبنى سكنياً في كازبيزك على ساحل بحر قزوين. كان يسكن في ذلك المبنى ضباط حرس الحدود وعائلاتهم، وقتل 67 شخصاً، من بينهم 21 طفلاً. كان الانفجار مروَّعا جداً لدرجة أن الناس اعتقدوا في البداية أنه مرتبط بالحرب في الشيشان، أو ربما بحادث غريب، وتبيّن لاحقاً - وبشكل غير رسمي - أنه جزء من صراع المافيا، ودرس لحراس الحدود الاتحاديين الروس لمنعهم عمليات التهريب تلك السنة. مع الأخذ بعين الاعتبار موقع الهجوم وحقيقة أن حرس الحدود يقومون بدوريات على ساحل بحر قزوين، قد يكون الجُناة مرتبطين بمافيا الكافيار. بالطبع، بالرغم من الهدير العاصف في موسكو ومكشاكالا، لم يتمّ إلقاء القبض على أحد.

تعتبر الحدود المتوترة للجمهورية سرطاناً آخر يأكل استقرار داغستان منذ زمن طويل. قد تؤثّر الفوضى في الشيشان المجاورة والطامحة لتحقيق الاستقلال على الاستقرار في داغستان بشكل خطير، والتي تعاني من استخدام العصابات الإجرامية أراضيها كممر إلى روسيا، ومن انتشار الأفكار الانفصالية. تهدد العلاقات العابرة للحدود بين الشيشانيين الأصليين وأولئك القاطنين في داغستان بإضعاف وحدة أراضي الجمهورية. إلى الجنوب، تبدو مشكلة قومية الليزيغ المقسّمة مثل النار تحت الرماد، وكلما طال انقسام هؤلاء الناس بين داغستان وأذربيجان، وفصلهم من قبل حرّاس الحدود الفاسدين، كلما أصبحوا أكثر دعماً لفكرة إنشاء ليزغستان الموحدة المستقلة. قد يؤدّي ذلك إلى انفراط عقد داغستان كجمهورية. ولا تبدو موسكو في موقف الممسك بزمام الأمور لمواجهة مثل هذا الموقف.

يقول الجنرال الروسي ليف روخلين عن السياسة في داغتسان: "يبدو أن كل شيء معدّ للانفجار. من سيسمح لنيران الحرب بالاشتعال مجدداً في القوقاز؟... وفي الظروف الحالية في داغستان، فإن عدم انفجار الوضع في الجمهورية يمثّل مفاجأة كبيرة". وتستمر ساعة القنبلة الموقوتة الداغستانية بالعمل.

..."قلّما تمر ليلة دون أن يتمّ اختطاف أحد ما طلباً للفدية "

ألكسندر دوما في بلدة خاسافيورت الداغستانية سنة 1858.

سيرى أي شخص واقعي في داغستان أن التقسيم سيقود إلى كارثة. بكل الأحوال، تمّ إجبار جماعتين عرقيتين مختلفتين على العيش معاً في جمهوريتي كاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكار، ويبدو أن تفكيك خريطة ستالين غير ممكن عملياً. كان شعب كاراشاي، الذين يبلغ عددهم 150.000، ويعيشون في الجزء الجنوبي الجبلي من كاراشاي - شركسيا، من أوائل الشعوب التي طالبت بإعادة رسم الحدود لاستعادة ما فقدته سابقاً. وفي تسعينيات القرن العشرين، تمّ السماح لهم أخيراً بإقامة نصب تذكاري للتهجير في مدينتهم الرئيسية كاراشايفسك، وذلك بعد 50 سنة من وقوع الإبادة الجماعية. يوجد خارج البلدة تمثال لامرأة وطفل، للتذكير دائماً بالرحلة القاتلة إلى آسيا

الوسطى. يوجد إلى الخلف من ذلك التمثال جدار تذكاري لرجال كاراشاي الذين ماتوا في الجيش الأحمر وهم يقاتلون النازيين، وعندما كان ستالين يقول إنهم يتعاونون. يعتبر النصب التذكاري بنفسه نصراً على الماضي، ولكنّ الأعشاب الضارة نمت عبر شقوق حجارة الأرصفة القريبة منه، ويبدو أن لا أحد يزوره. استغربت أن يكون الشعب الكاراشاي قد اعتاد تحمّل الألم داخل نفسه بحيث أتى النصب التذكاري متأخراً وأصبح لا يعني الكثير.

في سنة 1991، سمحت موسكو لكاراشاي - شركسيا بالانفصال عن سلطة منطقة ستافروبول والتحوّل إلى جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي الكامل - وهي بذلك قادرة على إدارة ميزانيتها الخاصة، وسن قوانينها المحلية، ووضع دستورها الخاص، وتشكيل حكومتها. قاد ذلك إلى تحسين حياة شعب الجمهورية، ولكن الكاراشاي الذين تقودهم حركة متطرفة تدعى **جاماغات**، كانوا يضغطون منذ سنة 1988 للحصول على المزيد، والانفصال لتشكيل منطقتهم الخاصة التي تتمتع بالحكم الذاتي في أعالي الجبال. لقد كانوا يتمتعون بهذه الاستقلالية قبل التهجير سنة 1943. وتمّ إجبار الكاراشاي بعد 14 سنة على العيش في جمهورية كاراشاي - شركسيا المشكّلة حديثاً آنذاك إلى جانب الشراكس والروس. يدافع قادة كاراشاي عن الفكرة قائلين بأن استعادة المنطقة القديمة ستكون بمثابة إغلاق الباب على الماضي الأليم. إنها عملية الإصلاح.

رغم عدم وجود سوى 415.000 نسمة في كاراشاي - شركسيا، إلا أن مزيجها العرقي معقّد للغاية، ووفقاً لإحصاء سنة 1989، كان الروس يشكّلون الأغلبية بنسبة 42%، يتبعهم الكاراشاي بنسبة 31%، والشراكس بنسبة 9% والآباز، وهم مجموعة أخرى تنتمي إلى عائلة أديجي، بنسبة 7%. وهناك أيضاً أقلية النوغيس، وهي جماعة آسيوية تتحدّر من المغول. ووفقاً للنمط الشائع، يمثّل الكاراشاي والشراكس الأغلبية في المناطق الريفية، فيما يعيش الروس حول العاصمة شركسك ويسيطرون على المفاصل الحكومية الرئيسية. وفي هذا السياق، تبدو مطالب الكاراشاي بالانفصال مثل اللعب بالنار. وفي وقت قريب ستصبح مطالب جاماغات وحلفائها الإسلاميين جدّية للغاية، وستهدد سلسلة من ردود فعل الجماعات الأخرى بتفكيك جمهورية كاراشاي - شركسيا الصغيرة أصلاً إلى ما قد يصل إلى خمس مناطق عرقية بالغة الصغر. يريد الشراكس الحصول على الحكم الذاتي، ويفضّل الروس أيضاً الانفصال، وضمّ مناطقهم إلى إقليم كراسنودار في جنوب روسيا.

في آذار سنة 1992، قرر 79% من المصوّتين في استفتاء شعبي إبقاء كاراشاي - شركسيا جمهورية موحّدة، وساهم مزيج من الإرهاق الناجم عمّا حدث في تلك الأيام والقيادة الناجحة لرئيس الجمهورية الموالي لموسكو، والذي كان بنفسه من قومية كاراشاي، في نزع فتيل الأزمة مؤقتاً على الأقل، وكجزء من محاولة لإبعاد خطر التقسيم بعيداً، حاولت السلطات منح لغات الجماعات العرقية الخمس دوراً متساوياً، مما جعل اللافتات خارج المباني الحكومية مزدحمة بالكلمات.

تسبب ذلك بالإحباط المرير للقوميين الكاراشاي. وعندما التقيت واحداً من قادة حركة جاغامات المنحلّة الآن، ويدعى كازبك شومابيف، في شركسيا سنة 1996، توقّعت بياناً نارياً منه؛ لأنها بالمحصلة حركة تلقّت الدعم الفعلي من القائد الاستقلالي الشيشاني المتعصب جوهر دودابيف. وعوضاً عن ذلك، وجدته هادئاً وعميق التفكير، وقد استقال عند أول إخفاق، ولكنه واثق بأن الجدال لم ينتهِ بعد. ورغم أن القوميين يعترفون دائماً بأن تقسيم الجمهورية إلى أربع أو خمس كينونات عرقية متنافسة سيحوّل الاتصالات والعلاقات الاقتصادية إلى كابوس، إلا أن شومابيف ما يزال يعتقد أن الفكرة جديرة بالتطبيق.

"نحتاج حقاً للانفصال، ونستطيع فعل ذلك. وكما تعرف، تمّ تهجيرنا سنة 1943 وتعرّضنا للإبادة المنظمة طوال 14 سنة، ومات نصف شعبنا، ثم عدنا، وأخذوا منا المناطق التي كانت

تتمتع بالحكم الذاتي قبل التهجير، ووضعونا في إقليم ستافروبول ليكون قادتنا من الروس.
كنا تحت رحمة مسؤولي الحزب لمدة 33 سنة، وأرادوا مناطقنا الجبلية للسياحة وبناء الأكواخ الحكومية فيها، ولكنهم لم يكونوا راغبين بنا، حتى أنهم درسوا القيام بعملية تهجير ثانية في أواخر سبعينيات القرن العشرين.
عندما انهار الاتحاد السوفياتي، أدركنا أننا بحاجة لمناطقنا لإعادة إصلاح الوضع بأكمله وبشكل قانوني، وكجزء من العملية الديموقراطية. لم نكن نرغب بحمل السلاح، أو التحوّل إلى انفصاليين أو أي شيء من هذا القبيل. وكل ما أردناه هو إعادة الإصلاح. الآن، بعد الانتخابات، يقولون إن كل شيء هادئ، وأن كل شيء بخير، ولكننا سنرى لاحقاً. لا تزال القضايا البالغة التعقيد التي كانت وراء ما حدث موجودة. وما يزال الكاراشاي راغبين بالانفصال، وهي رغبة الآخرين أيضاً. في آذار 1994، صوّت السكان من أصل روسي على انفصال أراضيهم مجدداً بحيث يستطيعون الاندماج مع روسيا.
إنهم يقولون إن الشعب متعب، وهو كذلك، ولكن الشعب لن يتخلى أبداً عن تلك القضايا حتى يكون هناك حل ما. خلال 50 سنة، كان هناك صمت رسمي، ولم يكن أحد يتكلم عن المشاكل. والآن، كل القضايا مفتوحة للملأ مرة أخرى."

إلى الشرق في كاباردينو - بالاكاريا، يبقى البالاكار البالغ عددهم 80.000 نسمة فقراء وممتعضين نتيجة فشل مماثل للفوز بحكم ذاتي منفصل، وكما هو الكاراشاي، ارتكزت حركة البالاكار على إعادة الإصلاح انطلاقاً من التهجير. أشار قادة البالاكار إلى أن 391.000 من الكابارد يسيطرون على السلطة فيما يفترض أنها جمهورية مشتركة، وأنه تتمّ سرقة الرساميل الروسية الرسمية المخصصة للمساعدة في تطوير مجتمعهم. وكان ردّ فعل الكابارد عنيفاً، وطالبوا باستعادة أراضيهم التي تمّ تسليمها للكالابار أثناء التهجير.

عندما أشار القوميون البالاكار إلى خرائط سنة 1944 والتي تظهر فيها أراضيهم المفقودة، أحضر القوميون الكابارد خرائط تعود لسنة 1863 التي تظهر فيها أماكن البالاكار عالياً في الجبال دون أي أراضٍ لهم في السهول. هذه قضية أخرى من قضايا شمال القوقاز التي تستخدم فيها كل قومية الماضي بما يتناسب وحاجاتها الراهنة. رغم ذلك في سنة 1991، وأثناء النزاع الكبير على ملكية الأراضي، صوّت ممثلو كلتا القوميتين على فصل كاباردينو - بالاكاريا إلى دولتين منفصلتين تتمتعان بالحكم الذاتي. حظي استفتاء البالاكار على إنشاء دويلة منفصلة بموافقة 95% من الشعب، وبسيناريو مشابه لما حدث في كاراشاي - شركسيا، تأرجحت الجمهورية على حافة الفوضى، ولم يكن الأمر يحتاج سوى إلى عواطف جيّاشة لتحويل حادث عرَضي - مثل ضرب رجل ثمل من البالاكار لشريكه في الشراب الذي من الكابارد - إلى سبب لمواجهات عرقية جدّية.

أدّى النزاع المستمر على الأراضي إلى جعل الانفصال المقترح مستحيلاً. ثم تلاشى الزخم القومي بعد ذلك. وفي استفتاء عام على مستوى الجمهورية سنة 1994، وفيما كانت نُذر الحرب تتجمع فوق الشيشان القريبة، صوتت الأغلبية لإبقاء كاباردينو - بالاكاريا موحدة، ولكن النزاعات تستمر في الغليان تحت السطح الهادئ. بعد سنتين، وفي تشرين الثاني 1996، قام مجلس البالاكار بمحاولة أخرى، لكنها فاترة، للانفصال. وبوجود عوامل ديموغرافية معاكسة لرغبتهم، ظهر موقف البالاكار ضعيفاً للغاية. لم يكونوا يشكّلون وقتها سوى 11% من سكّان الجمهورية، فيما كان الكابارد يشكّلون 49% والروس 32%.

قال لي زوجان قابلتهما في قرية بابوجينت في سفوح الجبال العالية في القوقاز إنهما كانا يصارعان لإبقاء رأسيهما فوق مستوى المياه بعد عودة عائلتيهما من التهجير في نهاية خمسينيات القرن العشرين، وأن السلطات أجبرت العائلتين على بناء قرية جديدة أسفل أنقاض القديمة في الجبال العالية. "كان علينا البدء من الصفر دون أي مساعدة تقريباً من الحكومة، وكنا نعمل مثل

العبيد، ورغم أننا عشنا في الجبال، إلا أن الكابارد حصلوا على السهول التي توجد فيها أراضي الرعي، ولم يتبقَ لدينا الشيء الكثير؛ هذه الغابات والصخور فقط. يقول رجل عجوز يبلغ 65 سنة: "لقد حصل الكابارد على الأراضي الخصبة، والسهول". وسألته فيما إذا كان يصدّق نتائج الاستفتاء التي تقول بإبقاء كاباردينو - بالاكاريا جمهورية موحّدة. وأجابني: "لقد أردنا الانفصال، لكن "هم" لم يسمحوا لنا". في شمال القوقاز، "هم" تعني الروس دائماً.

رغم أن الإحباط الذي أصاب الشعوب المهجّرة، والتي لم تستقر بشكل مناسب بعد العودة، أدّى إلى ظهور الحركات القومية المتطرفة في شمال القوقاز، إلا أن أحداً لا يعرف على وجه الدقة كيف تغيرت الحدود والجماعات العرقية قبل نصف قرن مضى. كانت عمليات التطهير العرقي تتمّ خلال الحروب أو أثناء العهود الاستبدادية، وتنعكس الأمور وقت السلم أو في ظل الديموقراطية.

قامت موسكو، التي غمرتها الفوضى السياسية في بداية تسعينيات القرن العشرين، بمحاولة فاشلة لإصدار قانون آذار 1991، والذي أقرّه ما كان يعرف ببرلمان روسيا السوفياتية، لإعادة إصلاح وضع الشعوب المضطهدة بما في ذلك العودة إلى الحدود الأصلية. ينص القانون، الذي جرى إيقاف العمل به بعد ذلك، على حق القوميات المضطهدة "بالعودة" إلى "أوطانها التقليدية"، ولكنه ينص كذلك على "عدم انتهاك حرمة حقوق الناس الذي يعيشون في أراضي القوميات المضطهدة". كان القانون متناقضاً في أحسن حالاته، وعبارةً عن صندوق "باندورا" (صندوق الشرور) في أسوأ الحالات، والذي قد يعمل على تفجير النزاعات الحدودية الملتهبة أصلاً.

يلوم شومابيف، قائد الكاراشاي السابق، عقلية روسيا الإمبريالية الجديدة، ويتهم موسكو برفض أخذ مطالب القوميات الصغيرة على محمل الجد، وأنها ما تزال تعتبرهم ملطخين بالعقاب الذي نالوه أيام ستالين. وبالنسبة لشومابيف، والمتطرفين القوميين الآخرين في شمال القوقاز، لم يكن قانون إعادة الإصلاح سنة 1991 كافياً.

"كان عاماً جداً، ولم يدخل في التفاصيل أو يقدم مقترحات محددة. ولم يكن الأمر يشبه ما حدث في الولايات المتحدة عندما تمّ وضع الأميركيين من أصل ياباني في معسكرات خلال الحرب العالمية الثانية، ثم الاعتذار منهم وتقديم التعويضات المالية لهم. أو مثل ألمانيا التي اعتذرت من اليهود ومنعت كل شيء معادٍ لهم.

عوضاً عن ذلك، عادت شعوبنا المهجّرة في أواخر خمسينيات القرن العشرين لتجد أن نفطها يتمّ استغلاله كما هي الحال في الشيشان، وأن أراضيها تمّ توزيعها كما هي الحال مع الأنغوش، وأن تماثيلها التذكارية تمّت إزالتها كما هي الحال مع الكاراشاي، وفقدت أراضيها كما هي الحال مع البالاكار. إننا ندرك الآن أن تلك المشاكل لا يمكن حلّها اليوم لأن المواقف الإمبريالية القديمة ما تزال موجودة. وما يزال الناس في السلطة، مثل يلتسن وسواه، يفكّرون بطريقة الأيام القديمة. إنه الرماد المتبقي من إمبراطورية انهارت.

إذا طبّقوا عملية إعادة الإصلاح فيما يخص الشعوب المضطهدة، فلا أعتقد أن شيئاً ما سيحدث في شمال القوقاز. ولتحقيق ذلك، نحتاج إلى الديموقراطية، ولكن تسيطر على قادتنا العقلية السوفياتية، ولن يعرفوا الديموقراطية ما لم يروها. إن روسيا حبيسة ماضيها الإمبريالي. وهم يقولون أنهم يريدون الفيدرالية، مثل الولايات المتحدة نوعاً ما، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك عندما توجد ثقافة عمرها 5000 سنة هنا، وثقافة مختلفة هناك، وثقافة روسية أيضاً؟ كيف يمكن أخذ كل تلك الثقافات وصهرها في بوتقة واحدة فقط؟

رسلان خاناخا، مؤرّخ أديجي.

جلست في إحدى الأمسيات، في ميكوب عاصمة أديجي، مع رجل عجوز يدعى **أشقر**، وقام الرجل بفتح زجاجة فودكا بالتزامن مع تقليبه لقائمة من الشكاوى الوطنية. كان الغزو الروسي والاحتلال السوفياتي في أعلى القائمة. وقال أشقر: "كتب ماركس أن العالم سيتعلّم الحرية من مثالنا. ولكن انظر إلى ما جلبه الروس لنا - الفودكا، لم نكن نشرب تلك الأشياء من قبل، لأننا مسلمون".

كان الأديجي يناضلون أيضاً لإعادة الإصلاح، رغم أنهم تخلصوا الآن من جرائم الشيوعيين والاستعمار الذي حل بهم قبل قرن مضى. وكان وضعهم خطيراً لأنهم تعرّضوا منذ الغزو القيصري إلى تهجير شامل نتج عنه تشتتهم في أصقاع أجنبية كثيرة. وعزّز النظام السوفياتي من هذا التشتت، ووضع كلاً من الأديجي، والشراكس، والآباز، والأبخاز، والشابسوغ، والكابارد المقربين لهم في مناطق وجمهوريات مختلفة. كان هناك خوف من اختفاء الشعوب الأديجية نتيجة تطبيق تلك السياسات.

كان الفخر العرقي لدى أشقر واضحاً للعيان، ربما لأنه كان مكبوتاً لوقت طويل. ذهبنا بالسيارة عبر مركز البلدة لزيارة صديق، وتوقفنا عند أحد الأسواق لشراء بعض الدجاج. كان الظلام مخيِّما، وانتشرت الكلاب الشاردة والفوضى العارمة بين أكشاك البيع البالية، وهو مشهد مألوف في الشوارع بعد الحقبة السوفياتية. حالما توقفت السيارة، اتجهت نحونا ثلاث نساء روسيات يضعن وشاحاً على رؤوسهن ويتدافعن بالمرافق، وعرضن علينا بعض الدجاج والنقانق. كان مشهداً كئيباً، ووصل كبرياء أشقر إلى مستويات عالية جديدة، وسألني بفخر فيما كنا نبتعد بالسيارة: "هل رأيت ذلك؟ أولئك نسوة روسيات. ورغم أنه يتعين علينا البيع في الأسواق أيضاً، إلا أننا لا نغرق أبداً في مثل تلك التصرفات. لقد كان الأديجيون أرستقراطيين".

اعتبر أشقر أن لغته الأديجية ضعيفة، فيما قال لي العديد من الأديجي الآخرين إنهم يواجهون صعوبة في جعل أطفالهم يستخدمون هذه اللغة. في جمهوريتهم التي تتمتع بحكمها الذاتي الخاص، لا يشكّل الأديجيون الذين يبلغ تعدادهم 125.000 نسمة سوى 22% من السكّان، أما الباقي فهم من القومية السلافية. وهناك 7 من كل 10 يستخدمون اللغة الروسية باعتبارها اللغة الأم. ويقول أحد علماء الآثار في أديجي: "إن الحفاظ على ذاكرتنا الوطنية أمر بالغ الصعوبة، حيث امتزج السكان الأصليون بالإغريق القدماء. وقد فقدنا الكثير، وأصبح لزاماً علينا أن نبرهن على ما كنا عليه. هم يقولون لنا دائماً بأنه ليس لدينا حضارة. ولكن لدينا حياتنا، وأزياؤنا، وعالمنا الخاص"، وأظهر لي مجموعة من الصور الأرشيفية لأوانٍ خزفية تقليدية، وسيوف قديمة وأواني شرب ذهبية من العصور الوسطى.

لا تشكّل الحركة الوطنية الأديجية تهديداً استراتيجياً، ربما بسبب تمثيلها لعدد قليل فقط من الناس، أو لأن أديجي محاطة بأراضٍ تسكنها غالبية من العرق الروسي، وهي قدّمت واحدة من أنجح القصص في إيقاف مدّ الحركات الانفصالية. رغم معارضة الغالبية الروسية المحلية، التي لم تكن راغبة في اكتساب هوية جديدة حيث لا يكون للأقلية سوى مناصب شرفية، إلا أن أديجي استطاعت الارتقاء من منطقة تتمتع بالحكم الذاتي إلى جمهورية كاملة سنة 1991. بعد جدال طويل، والكثير من المعارضة من جانب الروس، تمّ إقرار دستور الجمهورية سنة 1995، والذي يمنح الأديجيين القول الفصل في إدارة شؤونهم الخاصة.

لقد انتهت الأيام التي كانت فيها حقوق تلك الشعوب الموغلة في القدم تتمثل في إقامة فرقة أو فرقتين للرقص، وتمّ تقسيم المقاطعات الانتخابية تبعاً للحدود العرقية للتأكد من حصول الأديجيين على عدد معقول من بين 45 نائباً يشكّلون البرلمان. في سنة 1996، كان هناك 18 نائباً من أصل أديجي، وهو عدد يفوق نسبتهم إلى عدد السكّان الإجمالي، ورغم أن الروس احتفظوا بالأغلبية الكافية من الأصوات البرلمانية، إلا أنهم لم يحصلوا على نسبة الثلثين اللازمة للتغلب على الفيتو (حق النقض) الرئاسي، أو لإقالة الرئيس. كان على المرشحين لمنصب الرئاسة أن يكونوا قادرين على التحدّث بكلتا اللغتين الأديجية والروسية، وهو قانون يضمن بشكل فعّال أن يكون الرئيس من

القومية الأديجية لأن معظمهم يتكلم اللغتين، فيما لا يتقن الروس الأديجية، وهي لغة معقدة جداً. أفضت تلك الترتيبات بنتائج معاكسة تقريباً لما كان سائداً في الحقبة السوفياتية حيث كان القادة الكبار في الجمهوريات العرقية دائماً من الروس، بغض النظر عن النسب السكانية، وكان ذلك نصراً للأديجيين، ولكن من يعلم، ربما تنفجر قنبلة موقوتة أخرى إذا قررت الأغلبية الروسية المحلية تغيير القوانين الحالية.

كان أديجييو الداخل أوفر حظاً من بقية القبائل المنتشرة على البحر الأسود في أديجي - شركسيا، والتي كانت قوية فيما مضى وتدعى **شابسوغ**. لقد تعرّضت تلك القبائل نظرياً للإبادة الكاملة في القرن التاسع عشر، وعاش من تبقى منها في بلدات صغيرة حول سوتشي وتوابز على ساحل البحر الأسود كجزء من إقليم كراسنودار، ورفضت سلطات كراسنودار كل محاولات شابسوغ للفوز بشكل من أشكال الحكم الذاتي، أو الانضمام إلى جمهورية أديجي، والتي استشعرت خطر قيام الأقليات الأخرى بنفس الخطوة. على كل حال، حصل الشابسوغ على حق تعليم اللغة الأديجية في المدارس الموجودة في قراهم.

كان **أصلانبيك كيراشيف**، وهو مسؤول سابق في الحزب الشيوعي الأديجي، أول من طالب بإنشاء جمهورية أديجي، وترأس ما كان يُعرف *بلجنة الأربعين* التي تشكّلت من مجموعة من المثقفين. وقال إن الحركات الأديجية كانت محاولة مباشرة لاستعادة أسطورة حروب القرن التاسع عشر.

> **ويقول: "تمّ اتهامنا بالقومية والانفصالية، لكن هذا لم يكن هدفنا. وأردنا فقط التأكد من عدم سيطرة جماعة عرقية معينة على الجماعات الأخرى بالقانون، كما كان الحال دائماً. لقد تمّ تدميرنا في القرن الأخير وعانينا من تحويل الملكية الخاصة إلى عامة، ومن كل التجارب الأخرى التي قلّصت أعدادنا، وقرّرنا أن ما حدث كافٍ، وأننا يجب أن نحصل على بعض الضمانات. من قبل، لم يكن تعليم التاريخ أو اللغة الأديجية مسموحاً، كما هو الحال الآن. ولدينا برامج لغة أديجية في التلفاز والصحف، وكلية في الجامعة."**

هناك مقاعد جلدية كبيرة على أرضية رخامية بيضاء في الممثلية الجديدة لأديجي في موسكو. تكلّم المبعوث، الذي يعتبر سفيراً داخلياً نوعاً ما، بكل صراحة: "في القرن التاسع عشر، وأثناء حروب القوقاز والمعارك بين الروس والأتراك، لم يأتِ السكّان من أصل روسي بمحض إرادتهم، وإنما دفعهم القياصرة بالقوة نحو بلادنا، وكانوا يدفعون لهم الأموال ويجبرونهم على انتزاع أراضينا. ولن يكون من العدل إلقاء اللوم على سلالتهم والقول "أنتم سرقتم"، ولكن في نفس الوقت نريد أن يتمّ الاعتراف بحقوقنا، وأننا أمة مجيدة".

في سنة 1990، أنشأت الجماعات العرقية من أصل أديجي والمبعثرة في شمال القوقاز، بما فيها الكابارد والشراكس والشابسوغ، منظمة موحدة تدعى **أديجي خيس**. كانت تهدف إلى إعادة توحيد الجماعات العرقية الأديجية التي ما تزال في روسيا، والمساعدة على عودة المهجّرين من تركيا، والشرق الأوسط والولايات المتحدة، وإنجاز عملية إصلاح ما جرى في القرن التاسع عشر. لم تحقق تلك المنظمة سوى نجاح جزئي في هذا المجال. وقدّمت أديجي خيس أرضية مشتركة للقبائل القوقازية المبعثرة منذ قديم الزمان. ولم يحالف النجاح محاولات إعادة المهجرين على مدار السنين، ويتطلب إقناع الناس بالعودة والعيش في روسيا خلال تسعينيات القرن العشرين، وخصوصاً أنهم لا يتكلمون الروسية، جهوداً أكبر من الحفاظ على الكبرياء العرقي. ورغم روابط اللغة، التي احتفظ بها الكثير من المهجّرين في الخارج، إلا أن شعوب أديجي تعرّضت لعمليات روسنة عميقة، وعلى الأرجح أن هناك اختلافات الآن بمقدار الأشياء المشتركة مع أبناء عمومهم في الخارج.

تناولت إحدى القصص التي سمعتها على لسان **تاتيانا مامخايكوفا**، وهي المراسلة الشركسية لصحيفة **سيفيرني قفقاز** الإقليمية، شركسياً أردنياً عاد للعمل كرجل دين، وأنه حضر جنازةً سمع فيها أحد إخوانه الشراكس، الذي بالكاد يعرف العربية، يقرأ قصيدة حب عربية عوضاً عن آيات من القرآن الكريم، واستقر عائد آخر في منزل خاص في كاراشاي - شركسيا، وأصبح مسؤولاً عن مزرعة جماعية، وبدأ يعظ عمّاله عن الجد والعمل الشاق في الإسلام، ولكنه اكتشف أنهم اعتادوا منذ زمن طويل على الطريقة السوفياتية في العمل أقل ما يمكن والعودة إلى منازلهم باكراً. وتقول تاتانيا: "كان هناك ترحيب حار به في البداية، لكنهم كرهوه فيما بعد، ورغم بناء عدد كبير من المنازل الخاصة للعائدين، إلا أن أي عائلة أخرى لم تعد إلى هنا، ولم يرغب أحد ممن غادر هذا المكان بالعودة لاحقاً إليه".

في سنة 1996، عقدت أديجي خيس مؤتمرها الثالث في شركيسك، وحضر المؤتمر ولي عهد الأردن الذي تستضيف بلاده الكثير من المهجّرين، وممثلين عن الجاليات الأديجية من عشرات الدول حول العالم، وازدحمت القاعة التي استضافت المؤتمر بكل أطياف الجالية الأديجية: رجال مسنّون يرتدون الأزياء التقليدية؛ وممثلون عن المهجّرين من نيوجرسي؛ وفتيات بيضاوات طوال القامة؛ وقرويون بسطاء في ملابس سوداء؛ والكثير من الحرّاس الشخصيين حليقي الرأس الذين يرتدون ملابس فضفاضة، وقمصان حريرية سوداء.

كانت أديجي خيس تقوم بعملها في الترويج للعلاقات بين المهجّرين وأوطانهم. لكني لم أستطع مقاومة الشعور بأن الحركة، مثل العديد من التنظيمات الوطنية الأخرى في شمال القوقاز، قد فقدت الزخم الذي بدأت به في تلك السنوات الانفعالية التي أعقبت انهيار القوة السوفياتية، وفور انتهاء القتال للحصول على حكم ذاتي واسع في بداية تسعينيات القرن العشرين، أصبح المزيد يعني التطرف والمطالبة بالاستقلال أو إعادة رسم الحدود المتنازع عليها. في معظم المناطق، لم يكن أحد مستعداً لذلك. كانت الشيشان الاستثناء الوحيد، وقد دفعت الثمن غالياً عندما شنت روسيا عليها هجوماً كاسحاً لاستعادتها سنة 1994.

كان ولي العهد الأردني ضيف الشرف، وقد أحرز المنظمون نجاحاً باهراً باستضافته، ولقي منهم ضيافة قوقازية كاملة. تمّ استقبال الأمير الشاب، الذي يتكلم الإنكليزية بلهجة أميركية، بترحيب حماسي في القاعة المزدحمة في أديجي. ورغم ترجمة ملاحظاته إلى الروسية، إلا أن كلماته كانت فارغة وتشبه إلى حدّ بعيد ما يقوله مايكل جاكسون. وقال الأمير بصوت خافت: "يدين العالم بالفضل للأديجي. وهم قدّموا أفضل ما عندهم حيثما عاشوا، إن ثقافتكم جميلة، وأنتم شعب جميل". وكان الأديجي يصفّقون فقط ليثبتوا لأنفسهم بأنهم ما زالوا موجودين.

بودنوفسك، إقليم ستافروبول

اصطف سكان القوقاز من أصل روسي، وهم يرتدون العباءات الزرقاء والحمراء وقبعات الفرو، في صفين متقابلين، وكانوا يصرخون "اليوبا!"، والتي يمكن ترجمتها "مرحى!". ونزل الرئيس بوريس يلتسن، الذي شنّ حملة دعائية واسعة ضد الشيوعي غينادي زيوغانوف في الانتخابات الرئاسية سنة 1996، من سيارة الليموزين زيل واتجه مباشرة نحوهم.

سار الاجتماع بشكل جيد. وحصل يلتسن على حصان أصيل، وألقى بالمقابل خطبة فيها الكثير من المديح لهؤلاء الذين استقبلوه. وبدا الأمر مثل الانصهار الخيالي بين عامة الشعب والسلطان الروسي: السكان المسلحون والرئيس الذي يحب الشراب في موقف شبيه بما كان يحدث أيام القياصرة. لقد تدافعت المناكب هنا في بودنوفسك، في عمق إقليم ستافروبول، على مشارف شمال القوقاز.

قال يلتسن بابتهاج: "لقد سببتم الرعب للشيشانيين. وأصبحوا يفهمون أن لا أحد يستطيع العبث مع سكان من أصل روسي! وأخبر يلتسن هؤلاء المحتشدين أنهم "حصن الدولة الروسية"، ووعد بمساعدتهم على "استعادة الطريقة التقليدية في الحياة". ثم قال إنه سيرسل لهم مليارات الروبلات للمدارس. وابتهجوا مجدداً. ورجع إلى سيارة الزيل وغادر.

بالنسبة للسكان من العرق الروسي، سببّت سنوات الاضطراب تلك قلقاً كبيراً لهم. كان سقوطهم مدوًّيا لأنهم كانوا في مواقع السيطرة سابقاً. وكان القوقاز في السابق مكاناً للمنتجعات، وقضاء العطلات الجبلية وإجازات الصيف الطويلة. وقد تحوّلت الإمبراطورية السوفياتية بأكملها الآن إلى أنقاض؛ وحتى هنا على مقربة من قلب الأراضي الروسية، أخذت الأقليات، التي التزمت الصمت فيما مضى، تطالب بحقوقها الانفصالية. وكان هناك فقر في كل مكان سببه انهيار الاقتصاد السوفياتي، ويرافقه شعور بالعجز والخطر. وبدأ الروس يشعرون بأنهم غرباء في منازلهم، وغادر عشرات الآلاف منهم الشيشان لوحدها.

بالنسبة للسكان من أصل روسي، شكّل الاضطراب الاستراتيجي في القوقاز فرصة جديدة للعيش والنشاط. وأصبحت الخرائط عُرضة للتغيير كما حدث أثناء الحملات العسكرية في القرن التاسع عشر، وتحرّك الجبليون الوطنيون على طول الجبال، وانتقل السكان من أصل روسي شمالاً إلى أقاليم كراسنودار وستافروبول، وعادت قراهم، أو "ستانيتس"، التي كانت غارقة في الفقر والظلام أثناء الحقبة السوفياتية، إلى واجهة الأحداث فجأة. إنها المواجهة بين الصليب والهلال مرة أخرى.

أخرج السكان من أصل روسي ملابسهم الرسمية والصور القديمة، وشحذوا سيوفهم ووضعوا أوسمة أجدادهم على صدورهم، وضغطوا لاستعادة أوضاعهم الاجتماعية القديمة كفلاحين مسلحين لهم إدارتهم وقوانينهم الخاصة، وطالبوا بامتلاك الأراضي وتشكيل وحدات خاصة بهم ضمن الجيش الروسي على أن تكون مهمتها حراسة الحدود.

بمزيج من التغطية المتعاطفة في وسائل الإعلام الروسية وأعداد كافية من السراويل المقلّمة بالأحمر ومعاطف القرن التاسع عشر، قطع السكّان من أصل روسي - والذين تشير التقديرات إلى أن عددهم يصل إلى خمسة ملايين يسكنون حول روسيا، وحوالى 60.000 في شمال القوقاز وحدها - شوطاً طويلاً، وتلقّوا دعماً قوياً من الكنيسة الأرثوذكسية، ويلتسن، وقطاع واسع من الوطنيين الروس في موسكو. وساهم صعود الجناح اليميني في السياسات الروسية منذ سنة 1993 على تشجيعهم. لكن كان هناك عقبات رئيسية لإعادة إطلاق "كوزاشيستفو"، أو "الروس الأصليين".

إلى جانب تراجع أعدادهم تحت الحكم الشيوعي، عانى السكّان من أصل روسي من مشكلتين رئيسيتين لاستعادة توازن مجتمعهم. المشكلة الأولى بسيطة: إن موسكو استغلتهم وساعدتهم في الوقت ذاته. وتبيّن أن معظم الدعم الذي تلقّاه يلتسن بهدف الاستفادة من الإمبريالية الجديدة كان مخادعاً. لقد منحت مراسيمه التشريعية السكّان من أصل روسي بعض الامتيازات، مثل تصنيفهم كشعب مضطهد. ورغم دعمه لهم للحصول على بعض المراكز العسكرية الرسمية، إلا أنه لم يتخذ قرارات عملية بهذا الشأن.

كانت المشكلة الثانية أكبر لكنها ليست ملموسة: الصعوبة التي كان يجدها السكّان من أصل روسي في إيجاد أسباب العيش، وعندما كانت الإمبراطورية موجودة، كان دور هؤلاء السكّان استعمارياً. وقد عاشوا في الأمكنة التي غزتها دولتهم الأم، وبالتعريف كانت أوطانهم دائماً ملكاً لأشخاص آخرين أولاً، حتى بعد أن مرّت قرون على ذلك. كانوا دائماً مستعدين للاندفاع نحو الأراضي الجديدة لخدمة الدولة، ومثل أسماك القرش، كان عليهم الاستمرار في الحركة دائماً. في

السنوات الأخيرة من النظام الملكي الروسي، ومع بدء انهيار الإمبراطورية، لعبوا دوراً جديداً: قمع اليهود، ورجال الثورة وكل الآخرين الذين يخرجون عن الخط. ولكن مجيء البلاشفة وضع حداً دموياً ومفاجئاً لمغامراتهم، وفشلت حقبة يلتسن في منحهم دوراً جديداً.

يبدو أن السكّان من أصل روسي في شمال القوقاز يتشبّهون بأجواء الحرب الأهلية الأميركية ومعركة واترلو، حيث يقوم رجال في منتصف العمر بارتداء أفضل ملابسهم، وإطلاق النار في الهواء، والاستلقاء أرضاً بعد أن يتظاهر شخص ما على الجانب الآخر بأنه سيطلق النار عليهم. أصابت هذه المشكلة حرس الشرف، الذين اصطفوا لاستقبال يلتسن في بودنوفسك خلال حملة إعادة انتخابه، والمكوّن من خليط من الشباب النحيل والآباء الممتلئين الذين يرتدون أزياء غير مناسبة، ويضعون أوسمة تعود إلى المتاحف ولا يتقنون التنسيق بينهم أثناء إلقاء تحية "اليوبا".

رغم ذلك، طالب قادة السكّان من أصل روسي بدور محوري ضمن الجيش كسبيل وحيد لتعزيز مكانتهم. لقد عقدت كل تنظيماتهم اتفاقيات في منتصف تسعينيات القرن العشرين لحراسة الحدود بين سيبيريا ومنغوليا، واتخذت مواقع لها على الحدود مع كازاخستان مما أزعج الحكومة الكازاخية، وشاركت وحدات غير رسمية كمرتزقة أو متطوعين في العديد من الحروب إبان العهد السوفياتي، بما في ذلك الحروب في الشيشان، وأبخازيا ومولدافيا على الحدود مع رومانيا. يدّعي قادة السكان من أصل روسي في شمال القوقاز أن بمقدورهم تجنيد جيش من 100.000 رجل، وتتسع قائمتهم من الأسلحة المطلوبة لتشمل إضافة إلى السيوف والبنادق في السنوات الأولى الدبابات، والطائرات والمدفعية فيما بعد.

رغم أن فكرة تسليح فرق كاملة من هؤلاء السكان كانت تروق للكرملين، إلا أنه لم يتخذ أي خطوات عملية بهذا الاتجاه. ورغم ادعاءات يلتسن بأن الشيشانيين يعيشون في رعب، إلا أن الحرب المستعرة هناك بخلاف ما كان الوضع عليه أيام أسلافهم، جعلت السكّان الحاليين لا يحبذون الذهاب إلى ساحة المعركة. ومنذ حصولهم على تلك الأوسمة في القرن التاسع عشر، لم يعودوا الشعب الذي لا يمكن قهره. تطوّع مائتا رجل للقتال في ظل نظام العقود القصيرة الأجل الاحترافية، لكنهم جميعاً تخلوا عن ذلك، وحزموا حقائبهم، وعادوا لمنازلهم بعد أسبوعين فقط من الحرب في جنوب الشيشان. وتشير تقارير أخرى إلى أن إصابات وحدة قتالية من سكان القوقاز من أصل روسي وصلت إلى 22 قتيل و150 جريح في ثلاثة أسابيع. ووجد السكّان من أصل روسي في الشيشان، والذين كان يعيش معظمهم في غروزني وفي مجموعة من القرى على طول نهر تيرك في الشمال، أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه، وانتقلوا شيئاً فشيئاً للعيش بأمان في جنوب روسيا.

كاد مشروع إحياء قرى العهد الاستعماري يتسبب بتحويل العلاقات المتوترة بين السكان من أصل روسي والجبليين في جمهوريات عديدة إلى صراع مفتوح، وقد شرح أحد الكابارد ذلك بقوله: "إعادة تنظيم القوة العسكرية للسكان من أصل روسي في القوقاز ستكون بمثابة تسليم الأوابد في روسيا للقبائل المغولية". وفي أديجي، تقع القرى التي يقطنها سكان من العرق الأديجي بين القرى الروسية، وهو ما يمنح الشعور للأديجي بأنهم محاصرون. ويقول أستاذ التاريخ حمزة كازانوف: "إنهم يبالغون في ردود الفعل، ومتحمسون للحرب، ويبدو أن حكومة يلتسن تشجعهم على ذلك. وأنا لا أحب تشوّقهم للقتال. وفي البداية، اعتقدت أن الأمر مجرد مزاح، ولكنهم يستعيدون ثقافتهم الآن. إنهم يجعلوننا نشعر بعدم الارتياح هنا".

يمثّل الاحتفال بتاريخ 21 أيار أحد أهم مطالب شعوب أديجي التي اعترفت بها موسكو، وهي ذكرى الانتهاء الرسمي لغزو القرن التاسع عشر، ومناسبة لتذكّر ضحايا شركسيا، إلا أن السكّان من

أصل روسي لم يحفلوا كثيراً بهذا التاريخ. وأخبرني أحد المسؤولين في حكومة أديجي: "هم قلقون في موسكو من غضب السكان من أصل روسي. وفي نفس الوقت، طلب رئيسنا (الأديجي) من هؤلاء الناس عدم ارتداء أزيائهم علناً، وقال لهم إن ذلك سيساعد في التهدئة، وأن تلك الأزياء قد تتسبب في إثارة الأديجي وخروجهم إلى الشوارع في أزيائهم الشركسية والكنزال. وبالطبع كان يمزح قليلاً، ولكن مثل تلك الخطوات ضرورية لمنع انطلاق شرارة النزاعات".

عشية زيارة يلتسن إلى بودنوفسك، جلست مع سكان محليين من أصل روسي في بناء متهالك يعتبرونه مقراً لقيادتهم. كان هناك رجل طاعن في السن يرتدي ملابس سوداء تبدو فاشية، وعدّة شباب يرتدون مزيجاً من لباس الجيش المموه والجينز، والباقي، وهم مزيج من الرجال في منتصف العمر والمسنين، يرتدون ملابس عادية. من الغريب أن يكون الكثير من السكان ذوي الأصول الروسية، والذين تجمعوا لرؤيتي، مصابين بحَوَل العيون. وعلى الجدار، هناك علم روسي كبير ثلاثي الألوان مع نسر إمبريالي مزدوج الرأس عند نهاية الصارية.

قال ألكسندر مايفسكي الذي يبلغ 38 عاماً، وهو **أتامان**، أو زعيم منتخب للسكان من أصل روسي: "ستأخذ عملية استرجاع ما فقدناه وقتاً طويلاً جداً. وبعد أن سلبونا حياتنا، نحتاج لأن نولد من جديد. سنعمل مع أطفالنا حالما يستطيعون المشي". وقال إن روسيا تحتاج لجيش محترف، وهو الشيء الذي لا يجادل فيه أحد، وأن السكان من أصل روسي يجب أن يكونوا في مقدمة التغيير.

سألته فيما إذا كان شمال القوقاز، المحطم نتيجة الحرب في الشيشان، والحرب بين الأنغوش والأوسيت والنزاعات العديدة الأخرى، قادراً على تحمّل جماعة عرقية مسلحة أخرى. وأجابني: "كل ما نريده هو العودة إلى عاداتنا".

نعم، ولكن ألا يعني ذلك النزاع؟ "لا، كل ما نريده هو استعادة الكرامة. لقد تعاملنا جيداً مع كل الشعوب. لسنا موجودين في القوقاز منذ 10 سنوات فقط، وإنما نحن هنا منذ مئات السنين. كل ما نريده هو تقديم المساعدة، وأن يسود النظام. وتعود أسباب كل هذه الفوضى، في الشيشان وأماكن أخرى، إلى فقدان النظام".

في مستعمرة نوفوسفوبودنايا في سفوح جبال أديجي، كان السكان من أصل روسي أقل حماساً حول دورهم في الحفاظ على النظام. وتمّ تشييد قريتهم بعد إخراج الأديجيين من المنطقة سنة 1864. ولكن تلك الطليعة السابقة للإمبراطورية تحطّمت وهجرها أهلها، وأصبحت ضحية لانهيار الاقتصاد السوفياتي رغم أنها لم تستفد من الانتعاش السابق للسكان من أصل روسي. ويقول بيوتر رومانينكو، أحد المعمّرين من أصل روسي، والذي ولد سنة 1923: "يستطيع المرء العيش جيداً هنا، ولكن عليه أن يعمل في الأرض ويحبها. ولا يحب اليافعون الأرض الآن، وهم يهربون بعيداً عنها".

عاش ذلك الرجل في كوخ ريفي بالقرب من مقبرة القرية. ورغم أن ساحته كانت ما تزال نظيفة، ومليئة بالإوز والأغنام، إلا أن الخوف اعتراني من فكرة أنه حالما سيعبر الطريق إلى المقبرة، ستختفي مزرعته؛ وسيؤدي ذلك إلى حصول فراغ آخر في قائمة السكان من أصل روسي. وفي مركز القرية، جلست مجموعة من الشباب الذين يرتدون المعاطف والأحذية الجلدية يحتسون الجعة تحت أشعة الشمس.

بياتجورسك

ترتدي بياتجورسك مجدها الإمبريالي الغابر مثل معطف قديم رائع. فيها شوارع طويلة تحدّها الأشجار من الجانبين، ومبانٍ قديمة بزخارف جميلة وأقواس فيها الكثير من الزجاج.

لكن في الداخل، تمّ تصميم الكثير من المباني طبقاً للأسلوب السوفياتي بحيث يغطي جدرانها الورق البني، ولها رائحة مواقف الحافلات. ولا يمكن فعل الكثير هنا، كما أن منتجعات المياه المعدنية القديمة الشهيرة، التي تنتشر في كل مكان على هضبة مارشوك، مهجورة تماماً، ولا ينقص المطاعم التي تشبه الكهوف، والمليئة بالمقاعد والسجاجيد الحمراء، والثريات والمفارش البيضاء للطاولات، سوى الزبائن. يقال إن الناس توقفوا عن المجيء إلى بياتجورسك عندما اندلعت الحرب في الشيشان، رغم أن الفساد انتشر قبل ذلك بكثير. وما زال هناك الكثير من المياه المعدنية في المنطقة. وهناك صنابير خاصة يمكن للمرء أن يملأ زجاجات منها مجاناً. وما زال الناس يشربون ذلك الماء رغم أن رائحته كريهة نظراً لاحتوائه على مواد معدنية.

ما يزال الكوخ الذي عاش فيه ليرمنتوف مع رفاقه في الجيش، وكتب تحت سقفه *بطل من زماننا* موجوداً لغاية يومنا هذا. تشير مسلّة على هضبة مارشوك إلى الموقع الذي مات فيه في مبارزة وهو بعمر 26 سنة، وهو مكان شهير الآن لالتقاط صور المتزوجين حديثاً.

انقضت أيام المناظرات الكلامية، ومبارزات الحب والكراهية بين الشعراء المبعدين والأميرات القادمات من موسكو للاستمتاع بهواء الجبال منذ زمن بعيد. أما في الوقت الحاضر، فيبدو الأمر على شكل إعلان في الصحيفة المحلية: "ثلاث فتيات يرغبن بالزواج من ضباط". أو كما هو الحال في فندق إنتوريزت حيث تعزف الفرقة الموسيقية أغنية ليدي إن ريد **(السيدة التي تلبس الأحمر) تحت أضواء الملهى الثلاثية الألوان، ويبدو عدد فتيات الليل أكبر من عدد الزبائن أنفسهم. وفي كهف يطل على المدينة بأسرها، حيث من المحتمل أن يكون بيتشورين قد التقى سراً الأميرة ماري في رواية** بطل من زماننا**، وجدت ستة شباب يسعلون من التدخين، ويستمعون إلى إحدى أغاني الراب من آلة تسجيل:** أريد أن أجرحك، أجرحك.

لم يطل التغيير كل شيء. وعندما عاش ليرمنتوف هنا قبل 150 سنة، كانت روسيا تحاول غزو الشيشان وباقي القوقاز. واليوم، ما تزال بياتجورسك مليئة بمدافن الضباط الروس، فيما تقوم قوات الشرطة المزودة بأسلحة ثقيلة بحراسة المدينة من تسلل الثوار الشيشان.

مع انتهاء عقود من القمع الشيوعي، أصبح مسموحاً الآن للسكان من أصل روسي، والذين أثاروا مخيلة ليرمنتوف، ارتداء بذّاتهم القديمة والتجمّع من جديد.

ووفقاً للسكان، هناك الكثير من الأشباح في هذه المدينة. وفيما كنا نقود سيارتنا نحو بياتجورسك في الضباب أثناء الليل، مرّ أمامنا فجأة فارس عبر الشارع الرئيسي، وقطع أضواءنا الأمامية للحظة، قبل أن يختفي في الريف المليء بالصخور إلى يسارنا. وضغط السائق على المكابح، لكنني بقيت أتساءل فيما إذا كان ما رأيناه حقيقة أم خيالاً.

4. أحلام الوحدة

بدا **موسى شابينوف** رجلاً عجوزاً يعرف أنه قد فشل عندما التقيته أول مرة في نالشيك سنة 1996. ولكنه قبل ذلك بعدة سنوات، كان يقود محاولة استثنائية لتحقيق حلم موغل في القدم لتوحيد الجبليين تحت سقف سياسي واحد. وهو نفس طموح قادة شمال القوقاز من الشيخ منصور إلى التحالفات التي كان نصيبها الإخفاق خلال الثورة البلشفية. إذا وحّدت الأمم المبعثرة الصعبة المراس، التي يقل عدد كل منها عن 100.000 نسمة، قواها سيصل عددها إلى عدّة ملايين وسيتغير ميزان القوى في المنطقة بشكل مثير، وسيتعين على روسيا أن تواجه خصماً نداً لها.

تمتع شابينوف، من قومية كابارد، بدعم معظم الوطنيين المتطرفين في المنطقة عندما أنشأ **اتحاد شعوب القوقاز**، ومنذ البدايات البسيطة، وضع الاتحاد أهدافاً طموحة للغاية في استبدال الحكم الروسي في شمال القوقاز، وانتخاب أعضاء للبرلمان من 16 قومية صغيرة مختلفة، وتشكيل قوات برلمانية في مرحلة لاحقة. على كل حال، فقد الاتحاد تماسكه بحلول سنة 1994، إلى جانب الكثير من الحركات الوطنية الأخرى، وتنحّى شابينوف الذي خسر معركة معقّدة مع روسيا على النفوذ، وتحوّلت وحدة شمال القوقاز مجدداً إلى مجرد أسطورة.

عندما التقيته، كان **شابينوف** يرتدي قبعة تقليدية من الصوف تدعى باباخا ومعطفاً طويلاً من الجلد الأسود. وكان سعيداً لرؤية صحافي بعد فترة طويلة من اختفاء اسمه من عناوين الصحف. جلسنا في غرفة أحد المكاتب خلف طاولة طويلة، ولكن دون علامات فارقة أو ورق أو إشارات؛ لا شيء على الإطلاق.

تمّ تأسيس المنظمة في آب سنة 1989 في سوخومي عاصمة أبخازيا، وهي منطقة هادئة على البحر الأسود ضمن جورجيا، وتقع إلى الجنوب من سلسلة جبال أديجي. كان الاسم الأصلي **مجلس الشعوب الجبلية للقوقاز**. لقد وقع الميثاق ممثلون عن الشيشان، والأنغوش، والأديجي، والكابارد، والشراكس، والأباز، والشابسوغ، والأبخاز والآفار؛ أي كل شعوب جبال القوقاز الأصلية. وتمّ تعيين **شابينوف** رئيساً للمجلس.

جرى التركيز منذ البداية على مصير الأبخاز، وهم شعب يعود في أصوله إلى قبائل أديجي - شركسيا في شمال القوقاز. والأبخاز خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين، والذين تمّ تهجيرهم جماعياً في القرن التاسع عشر، وتحوّلوا إلى أقلية لا تشكّل أكثر من 20% من عدد السكان البالغ 537.000 على أرضهم الأم تاريخياً. ويشكل الجورجيون حوالى 45% من تعداد سكان أبخازيا حالياً، والباقي روس وأرمن.

بصورة مطابقة لما كان يحدث إلى الشمال من الجبال، طالب الأبخاز بحكم ذاتي واسع، وبعد ذلك الانفصال عن جورجيا وتشكيل جمهورية مستقلة. كان القادة الوطنيون الأبخاز، وعلى رأسهم الأستاذ فلاديسلاف أردزينبا، ينظرون إلى الجورجيين على أنهم محتلون، بنفس الطريقة التي ينظر بها الوطنيون في شمال القوقاز إلى الروس. ورأى الجورجيون، أثناء سعيهم للحصول على الاستقلال من الاتحاد السوفياتي، والذي تحقق سنة 1991، في الثورة الأبخازية المتنامية مصدراً للمتاعب تسببت به موسكو لإبقاء جورجيا ضعيفة داخلياً. إضافة إلى ذلك، يتساءل الجورجيون عن السبب الذي يدعو الأبخازيين للانفصال رغم أنهم لا يشكلون سوى أقلية؟ وتلك هي المشكلة القديمة لمعظم الاضطرابات في شمال ذلك الإقليم.

فيما تصاعد النزاع بين الأبخاز وجورجيا، صعّدت منظمة **شابينوف** من نشاطها أيضاً. ففي تشرين الثاني 1991، عُقِدَ مؤتمر آخر، وتوسّع الاتحاد المشكّل حديثاً ليشمل سكّان أوسيتا الشمالية وعدّة قوميات أخرى من داغستان. أعلن الاتحاد أنه "الوريث الشرعي لجمهورية شمال القوقاز المستقلة (1918)". بكلمات أخرى، أعلن أنه دولة مستقلة بنفسها تمتد من بحر قزوين إلى البحر الأسود. قال **شابينوف**: "ليس لدينا أي فرصة حقيقية كأقليات صغيرة جداً، ويجب علينا الاتحاد وهو ما سيمكّننا من الفوز بالقوة السياسية والاقتصادية. لقد أردنا التحول إلى فيدرالية، لكن مع احتفاظ كل جمهورية بدولتها المستقلة، مع عضوية الأمم المتحدة".

بحلول نهاية سنة 1991، وعلى خلفية فشل العصيان المسلح الذي قام به المتشددون الشيوعيون في موسكو في آب، ومع اقتراب انهيار الاتحاد السوفياتي، وصل الوضع في أبخازيا إلى نقطة الغليان. حاولت جورجيا، التي بلغ عدد سكانها آنذاك حوالى 5.4 مليون، والتي أحكمت السيطرة على أرضيها، قمع ثورة الأقلية في أوسيتا الجنوبية، والتي أرادت مغادرة الحكم الجورجي والاتحاد مع أوسيتا الشمالية على الجانب الروسي من الجبال.

في آب 1992، اندفعت القوات الموالية عادةً لقائد جورجيا الجديد، وزير الخارجية السابق للاتحاد السوفياتي إدوارد شيفاردنادزه، في أراضي أبخازيا وسيطرت على العاصمة سوخومي. رغم أن تلك القوات كانت أقرب إلى المليشيا السيئة التدريب منها إلى الجيش النظامي، إلا أنه كان

ينبغي عليها التعامل مع الانفصاليين الأبخاز بسرعة، والذين هربوا شمالاً إلى القرب من الحدود مع روسيا.

رداً على ذلك، قام الأبخاز مدعومين بعناصر من الجيش الروسي ومجلس السوفيات الأعلى (البرلمان) في موسكو بهجوم معاكس مما أشعل حرباً وحشية تقابل فيها الجورجيون والأبخاز والذين كانوا فيما مضى جيراناً، وأصبحوا يقتلون بعضهم بعضاً آنذاك. ألقى كلا الجانبين، وخصوصاً الجورجيين، باللوم على الطرف الآخر لفظاعة العمليات الحربية والتي يعجز اللسان عن وصفها. كان الأبخاز متهمين بتطهير مناطق بأسرها عرقياً وذلك بحرق المدنيين أحياء ونهب القرى. كان الجورجيون متهمين بإشعال فتيل حرب كراهية ومحاولة مسح الهوية والأرشيف الوطني للأبخازيين، وخصوصاً التاريخ المكتوب لأبخازيا.

كان **موسى شابينوف** الطموح في انتظار مثل هذه الحرب، ولم يكن مسموحاً لأعضاء الاتحاد المسلحين عبور الجبال لدعم أوسيتا الجنوبية، ولكن هذه المرة لم يكن باستطاعة الروس أو النظام السياسي الموجود في شمال القوقاز والمدعوم من موسكو الوقوف في طريق **شابينوف**. واندفعت كتائب **أبخازيا** من المتطوعين الشيشان، والأديجي، والكابارد والداغستانيين للقتال إلى جانب المتمردين الأبخاز.

تتراوح التقديرات لعدد المقاتلين الذين أتوا من شمال القوقاز بين 500 و1000. وفي كل الحالات، كانت مساعدة هؤلاء بالإضافة إلى مساندة الأسلحة الروسية الثقيلة، مثل قاذفات الأهداف الأرضية سوخوي، والأنظمة الصاروخية المتعددة الأغراض كراد، بالغة الأهمية بالنسبة للأبخاز. بعد ثلاثة عشر شهراً من نشوب الحرب، وفي تشرين الأول 1993، استطاع الأبخاز التفوق على الجورجيين واستعادة سوخومي. هجر معظم السكان من أصل جورجي، والذين يصل عددهم إلى 250.000، منازلهم وهربوا إلى الأراضي الجورجية.

اعتبر الاتحاد والقوميون في شمال القوقاز عموماً أن الحرب وإنشاء أبخازيا المستقلة علامة مضيئة لهم، ونصراً لكل الأمم الصغيرة. في رأي **شابينوف،** أثبتت الأحداث في أبخازيا ولأول مرة منذ سنة 1918 أن شعوب الجبال تستطيع العمل سياسياً وعسكرياً كقوة موحدة. إلا أن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً لأن الدور الرئيسي فيما حدث كان للروس.

ويبقى دور موسكو في كل تلك الأحداث ضبابياً. ولم يكن لدى روسيا استراتيجية منسقّة للتعامل مع القوقازيين حتى سنة 1993 - 94، وظهر ذلك الفراغ السياسي جلياً في أبخازيا. ورغم حياد روسيا على المستوى الرسمي، إلا أن قادة القواعد العسكرية الروسية المحلية كان لهم دور كبير في الحرب. ولم يكن القادة الروس يتلقّون التعليمات من المركز، وكانوا يتصرفون سواء في الأراضي الجورجية أو الأبخازية باستقلالية تامة عن بعضهم البعض، وأحياناً ضد بعضهم. وهكذا فيما كانت الطائرات الروسية تقصف الأراضي الجورجية نيابةً عن الأبخاز، زوّد الضباط الروس داخل جورجيا القوات الجورجية بالمعدّات ليتمّ استخدامها ضد الأبخاز. وتقول المصادر العسكرية في موسكو أن أطقم الدبابات الروسية شاركت في الحرب إلى جانب الجورجيين، وواجهوا رفاق سلاحهم الذين يساعدون الأبخاز. وبالطبع، قد لا يكون لدى قادة القواعد في سوخومي خيار بديل عن مساعدة الأبخاز لأنهم كانوا موجودين في وسط تبادل إطلاق النار. ونظراً لانتشار الفساد في القوات المسلحة، كان من السهل أيضاً شراء تعاون القادة الروس المحليين.

وفضت الحكومة الروسية باستمرار الاعتراف بتورطها في تلك الحرب، حتى عندما كان الأبخاز يحصلون على أسلحة متطورة بشكل غامض. وعندما تقدّمت الحكومة الجورجية بشكوى

حول المقاتلات الجوية الروسية، نفى وزير الدفاع الروسي بافل غراتشيف بشدة أي اشتراك من قبل قواته. وادّعى بعدها أن القوات الجورجية تقصف بعضها (سيتمّ استخدام نفس الأكاذيب لاحقاً في الشيشان)، ثم اعترف بالحقيقة بعد ذلك. وأخيراً، تمّ إسقاط طائرة روسية.

وللمزيد من الحيرة والارتباك، كان من الصعب أيضاً تحديد طبيعة العلاقة بين موسكو والاتحاد. ولم يتلقَ الأبخاز المساعدة من القوات الروسية النظامية وحسب، وإنما من وحدات مرتزقة الجناح اليميني الروسي، والروس القاطنين في القوقاز، وعملاء الاستخبارات السرية الروسية وفقاً للجورجيين. وشكّل كل هؤلاء، إلى جانب وطنيي شمال القوقاز، تحالفاً غريباً قوامه قوات فوضوية حماسية تكتسح ما كان إمبراطورية سوفياتية سابقاً.

ويعتقد البعض في روسيا والقوقاز أن الاستخبارات السرية الروسية كانت تسيطر على الاتحاد وتقوم بإدارته، بالاشتراك مع **شابينوف**، كجزء من خطة لإضعاف جورجيا. وقال شيفاردنادزه أن روسيا في حالة حرب مع جورجيا. ووفقاً لبعض المحللين، قامت إدارة المخابرات العامة الروسية بتدريب شامل باساييف، الشاب الذي كان قائداً لمقاتلي شمال القوقاز، للعمل في أبخازيا. وبكل الأحوال، يبدو من غير المحتمل أن يكون لدى موسكو الرغبة الإيديولوجية أو المادية لإدارة مثل تلك المؤامرات المعقّدة في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. ومن المحتمل أن يكون الجيش قد حاول ببساطة استغلال الاتحاد، وأن الحرب كانت أفضل فرصة لذلك، والعكس بالعكس. ورغم أن الاتحاد ربما كان مخترقاً من العملاء الروس، إلا أنه كان مليئاً أيضاً بالوطنيين المتشددين المناهضين للروس، والذين يعارضون البرنامج الروسي بالتأكيد. وبعد أبخازيا، كان الاتحاد يتطلّع لاستقلال كل شمال القوقاز، وكان التنسيق متزايداً بينه وبين القائد الشيشاني الانفصالي جوهر دوداييف. ولا بد أن الروس ندموا على اليوم الذي سمعوا فيه باسم باساييف، لأنه أصبح مع كتيبته الأبخازية سوطاً على القوات الروسية في الشيشان بعد ذلك بسنتين.

وتقول سفيتلانا تشيرفونايا، في كتابها الذي يقدّم وجهة النظر الجورجية حول أبخازيا بعنوان *النزاع في القوقاز*"، أن "الاتحاد لم يكن سوى صنيعة روسية خرجت عن السيطرة مثل "الجني الذي تحرّر من الزجاجة". "وأثبتت المنظمة أنه لا يمكن لأحد السيطرة عليها. وأثبتت شعوب الجبال التي تتوق إلى الحرية، والتي تعارض العيش سواء في الإمبراطورية السوفياتية أو الروسية أنها صعبة المراس ولا يمكن توجيهها بسهولة ضد جورجيا الديموقراطية".

وكانت الحرب الأبخازية المحاولة الأخيرة لإعاقة سعي شيفاردنادزه لفصل جورجيا عن الفلك الروسي. وانتهت الحرب المبكرة في أوسيتا الجنوبية بخطة وساطة روسية فشل معها الجورجيون في استعادة السيطرة على تلك الأراضي. وعندما هزم الأبخاز جيش شيفاردنادزه في أيلول سنة 1993، استفاد الجورجي الثائر والرئيس السابق زياد غامساخورديا من الفوضى السائدة لإعلان عصيانه المسلح. ولم يترك ذلك أمام شيفاردنادزه، المحاصر في تبليسي، سوى خيار واحد للخروج من الأزمة؛ أي المساعدة الروسية. ووعدت موسكو بالاستجابة، ولكن ليس دون مقابل: توقيع شيفاردنادزه على اتفاقية انضمام جورجيا إلى "رابطة الدول المستقلة"، وموافقته على استضافة 20.000 جندي روسي. وفي 8 تشرين الأول، انضم القائد الجورجي إلى "رابطة الدول المستقلة". وكان الوقت قد تأخر كثيراً لقلب الأوضاع في أبخازيا، ولكن تدخّل قوات المارينز الروسية سمح لشيفاردنادزه باستخدام قواته لهزيمة غامساخورديا في بضعة أيام فقط، وسمح له ذلك بالحفاظ على السلطة.

وكانت روسيا قادرة على تحويل تلك الفوضى العارمة لمصلحتها، وبسط سيطرتها من جديد على جورجيا. وكان ذلك ضرورياً دائماً للسيطرة على القوقاز بشكل عام. ولم تكن جورجيا المسيحية، بساحلها الطويل على البحر الأسود، توفّر موطئ قدم هام في ممر القوقاز وحسب، وإنما تحد كل الجمهوريات الصغيرة السبع التي تتمتع بالحكم الذاتي في شمال القوقاز. وبدون جورجيا، سيكون الجنوب الروسي عُرضة دائماً للحركات الانفصالية الداخلية والتهديد الخارجي من تركيا.
ومثّل ذلك الانتصار السياسي الروسي انتقاماً حلو المذاق للجيش الروسي والقوى الأخرى التي تتحرق شوقاً للإمبراطورية السوفياتية، والتي كانت تلوم شيفاردنادزه على تفكيك الوجود السوفياتي في أوروبا الشرقية عندما كان وزيراً لخارجية غورباتشوف. وكان أحد أهداف تلك الحركة اكتشاف نتيجة تكتيكات اليد القوية على المدى الطويل، لأن الروس تركوا الجورجيين يبنون علاقات واسعة مع الغرب ومع أوكرانيا عبر البحر الأسود، متجاوزين جارهم الشمالي.
وكان النصر الأبخازي، كما حدث في أوسيتا الجنوبية، باهظ الثمن. وبعد مرور ثلاث سنوات على انتهاء تلك الحرب، ما زال الفقر الشديد يعصف بأبخازيا التي أصبحت شبه خالية من السكان ولم تحصل على الاعتراف الدبلوماسي بها. وانتشر حوالى 3000 جندي روسي على طول الحدود الجورجية الأبخازية (انخفض العدد إلى 1600 لاحقاً)، كقوات حفظ سلام في الظاهر، ولكنها تضمن في الواقع عدم حصول أبخازيا على الاستقلال التام. واستمر شيفاردنادزه في التأكيد بمرارة على وجود أطراف تلاعبت بالنزاع، ولكنه لم يستطع فعل شيء تجاه ذلك. ورغم تصاعد الدعوات الجورجية لإنهاء عمل "قوات حفظ السلام"، إلا أن الجميع كانوا خائفين من أن يكون ذلك مجرد محاولة جورجية أخرى لاستعادة السيطرة على إقليمها، والمزيد من الموت في بساتين الحمضيات والكروم، دون التأكد من إحراز النصر.
وكنت أظن **شابينوف** مجرد شخص مخادع قبل أن ألتقي به. وكنت أعتقد أنه يؤمن جدًّيا بقدرة شمال القوقاز على تحدّي السيطرة الروسية، وأن الاتحاد الحالي قد يحقق نجاحاً أكبر مما حققه سلفه الذي لم يستمر فترة طويلة سنة 1918. ولكن الحرب في أبخازيا لم تحرز سوى نجاح وهمي. ولم يكن نصر الجبليين موضع تساؤل وحسب - خصوصاً بعدما ساعدوا روسيا على تقسيم وحكم جورجيا - ولكنهم أثبتوا عجزهم في المحافظة على تعاونهم عند الضرورة، وتراجعهم إلى الجانب الشمالي من الجبال.
وانفجرت التناقضات الداخلية بين 16 شعباً جبلياً ضمن الاتحاد نفسه. وكانت شعوب الأديجي والشيشان منقسمة. ولم ترغب شعوب البالاكار والكاراشاي، المتنازعة مع شعوب الأديجي، في الانضمام إلى الاتحاد. ولم يكن الجميع سعيداً بتزايد نفوذ الرئيس الشيشاني دودابيف. وكان هناك أيضاً انقسامات بين المتشددين الذي أرادوا مواجهة السلطة الروسية والمعتدلين، إضافة إلى انقسام بين المتعصبين الإسلاميين وأولئك الذين يحاولون إبقاء الدين خارج المعادلة السياسية.
وأصرّ الاتحاد دائماً على أنه صانع سلام إقليمي وليس منظمة قتالية، وفي نهاية سنة 1992، كان لديه الفرصة لممارسة نفوذه في قضية محبوكة بعناية: نزاع على الأراضي بين الأوسيتيين الذين يدعمهم الروس والأنغوش. ولكن الاتحاد كان عاجزاً، ووقف بلا حراك أمام نزاع حدودي تحوّل إلى حرب، وأثبت الروس مرة أخرى أنهم القوة الإقليمية الوحيدة. وعند بداية الاضطرابات في الشيشان سنة 1994، مات الحلم بجمهورية الجبال كقوة سياسية.

نالشك، كاباردينو - بالاكاريا

كان شابينوف يدعى يوري، وهو اسم روسي محض. ولكنه غيّر اسمه الأول إلى موسى عندما دخل السياسية الوطنية. وما يزال ذلك النوع من الكبرياء، والذي يقترب من الغرور، موجوداً لديه لغاية الآن. وعندما طلبت أخذ صورة فوتوغرافية له خارج مبناه السكني في نالشك، مشى حولي ليجعل أشجار الشارع خلفية للصورة، وليس مدخل منزله المتهالك السوفياتي الطراز، والذي قد يبدو أكثر إثارةً. ولم أعترض.

ويلعب شابينوف الآن دور الجاهل الذي لا يعرف شيئاً بعد أن فشل الاتحاد في تحقيق أهدافه. وأخبرني أن السلطات تحقق في نشاطاته وأنه يغير مكتبه باستمرار. وقال: "إنهم يطاردوننا. ويطردوننا خارج المكان"، مشيراً إلى مكتبه الخالي. "وقد طردونا من مكتب آخر قبل ذلك. ويعمل الكثير من شعبنا انطلاقاً من منازلهم."

واستغربت في الحقيقة وجود الكثير من "شعبه" فعلاً، أو إذا كان على تواصل مع السياسة بنفسه. إنه محبط وغاضب للغاية، وكلما تحدّثت إليه أكثر، كلما أصبحت رؤاه أكثر غموضاً.

"عندما ينتهون من الشيشان - وهذا سيأخذ وقتاً طويلاً جداً - سيتابعون. وسيتوجهون إلى داغستان وأنغوشيا. وسوف يسحقون الأوسيتيين. وسيرغب الكثير من الناس في القوقاز بإقامة مجرد مستعمرة ضمن روسيا. ولكن روسيا لن تتوقف عند ذلك؛ إن هدفهم هو تدمير القوقاز."

"ورغم أنهم موجودون الآن في الشيشان، إلا أن يلتسن يقوم بتجهيز جيشه المكوّن من مليوني جندي للقتال في أي مدينة روسية في حال خسر الانتخابات. وفي تلك الحالة ستنشب حرب أهلية في روسيا دون شك. وقريباً، كل تلك البلدان الغربية، التي وقفت دون حراك فيما كان يتمّ تدمير الشيشان، ستواجه أيضاً الجيش الروسي المتوحش بأسلحته النووية. ولن يشبه الوضع ألمانيا، وإنما سيكون أسوأ؛ هتلر مع أسلحة نووية. وعندها سيرى القادة الغربيون ما سيحلّ بهم."

ويتابع: "لقد تعلّمت الشعوب درساً من الآن. ولكن ليس من طبيعة شعوب القوقاز أن تصمت لفترة طويلة. وستدفع روسيا الثمن. وسيعانون من عقاب دستويفسكي."

5. الدماء الأولى

في القوقاز، الشيء الوحيد الذي لا يمكن الصفح عنه هو الدم.

أناتولي ايزاينكو، أستاذ التاريخ في جامعة فلاديقفقاز.

أهل أوسيتا الشمالية متميزون، لأنهم يعيشون ضمن جيران يتكلمون إما لغات القوقاز الأهلية أو اللهجات التركية، وهم الوحيدون الذين يتكلمون لهجة فارسية ترتبط بشكل غير مباشر بلغة أجدادهم السارماتيان. ويبدو أن مصير الأوسيتيين مرتبط دائماً بمساعدة الغزو الروسي. وتحدّ أراضيهم جانبي الممر الاستراتيجي الرئيسي لسلسلة القوقاز، وهو الممر الذي بنى فيه الروس الطريق العسكري الجورجي الرائع. إضافة إلى ذلك، تدين الأغلبية الأوسيتية بالمسيحية، فيما يعتنق جيرانهم الإسلام منذ القرن التاسع عشر، وهو ما يجعل الأوسيتيين أقرب بشكل طبيعي إلى روسيا الأرثوذكسية.

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي، أخذت أوسيتا الشمالية تفتش عن هويتها العرقية الخاصة بها، وأصبح سكّانها مهتمين بوضعهم الخاص في شبكة القوقاز المعقّدة. وكانت هناك قضيتان مميزتان بشكل خاص، وتزيد كلتاهما من الخوف القائم أساساً من زيادة التعداد السكاني في الجمهورية الذي يصل إلى 632.000 نسمة. والقضية الأولى هي الحرب في أوسيتا الجنوبية عبر الجبال، والفيضان من اللاجئين الذي نتج عنها؛ أي ما يقارب 100.000 وفقاً لبعض التقديرات. والقضية الثانية هي المشكلة الأكثر تعقيداً المتمثّلة في النزاع مع الأنغوش على الأراضي الواقعة على جانب أوسيتا الشمالية من الحدود، وهي منطقة إلى الشرق من فلاديقفقاز وتدعى بريغورودني. وكانت هذه الأرض تعود للأنغوش قبل التهجير، وأرادوا استعادتها ضمن سلطتهم. ويمثّل ذل النزاع حلقة ضمن سلسلة من النزاعات التي تغلي وتهدأ بين الفينة والأخرى عبر شمال القوقاز دون الوصول إلى

مواجهة كبيرة. ولكن هناك احتمال حصول الانفجار هذه المرة، وسيجد الجبليون أنفسهم يقاتلون الجبليين، وسيتعمّق الانقسام بين الأوسيتيين وجيرانهم المسلمين.

ويعتبر الأوسيتيون أنفسهم أكثر تحضراً من كل شعوب شمال القوقاز الأخرى، ويتحدّرون من سلالة أعلى من باقي "الغورتسي" الآخرين. وينظر الكثيرون برعب إلى التأثير العميق للإسلام في أجزاء من هذه المنطقة، ويعتبرون المجتمعات القائمة على العلاقات القبلية من داغستان إلى أنغوشيا بدائية. وينظر الأوسيتيون إلى مزيجهم الخاص من المسيحية، والإسلام والوثنية على أنه نعمة. وهناك أيضاً قانون تراتبية داخلي يعتبر فيه الأوسيتيون الشماليون أنفسهم في درجة أعلى من أقربائهم في أوسيتا الجنوبية.

وتبدو مدينة فلاديقفقاز عالمية الطراز نسبياً. ونساؤها طوال القامة وبارعات الجمال، ويرتدين ملابس مزركشة، ويتمتعن بحرية أكبر مما تتمتع بها النساء في الجمهوريات الإسلامية الأخرى. ويجلس الرجال والنساء معاً في المطاعم، وهو الشيء الذي لا يمكن رؤيته في أي مكان آخر هنا. ويتمتع مركز المدينة بسحر خاص، وهو مليء بعربات القطار الكهربائي، والشرفات المغلقة والأبراج المصطنعة. وفي الصيف، ينزع الرجال والنساء ملابسهم عند المسابح حول بُرك الماء قرب نهر تيرك. ووجدت منظر النساء اللواتي يرتدين البكيني منعشاً بعد المشاهد الغريبة التي رأيتها في شمال القوقاز. وشعرت كما لو أنني عدت إلى روسيا.

ولا يختلف أهل أوسيتا الشمالية عن جيرانهم في هوسهم بالماضي والعرق الذي ينتمون إليه. وكانت تلك هي المواضيع المفضّلة لدى بوجي، سائق سيارة الأجرة التي أقلّتني. وقد كان مزاجه جيداً، ليس فقط لأنه سيأخذ أجرة جيدة للذهاب إلى غابات الوثنية خارج فلاديقفقاز، ولكن لحصوله على جمهور مجبر على سماع نظرياته حول تميّز الأوسيتيين.

وكان بوجي المصارع الهاوي يصرخ كما لو أننا في سيارة مكشوفة ونسير بسرعة عالية، وليس في سيارة بطيئة من نوغ **فولغا**. "هل تعرفون لماذا لا توجد أعداد كبيرة منا؟ لأننا نقاتل في كل أنحاء العالم. لقد أطلقوا علينا اسم **ألان** ونقاتل الجميع في كل مكان، مثل المرتزقة. ونحن أقوياء. ولا أتحدث عن نفسي بالطبع، لأنني لا أريد أن أقتل أي شخص، فأنا مسيحي ومسامح؛ نحن جميعاً كذلك. خذوا زوجتي على سبيل المثال، إنها مسلمة، وتقيّة".

وتابع بوجي: "هل تعرفون من هو أعظم أوسيتي على الإطلاق؟ ستالين. لم يكن جورجياً، وإنما أوسيتياً. ولا تصدّقوا من يقول إنه كان سيئاً. لقد كان قائداً عظيماً. وبكى الناس من كل الأعمار عندما مات لأنه لا يتكرر مثل هؤلاء الرجال سوى مرة كل قرن من الزمن".

وذكرت له التهجير والقمع، لكن بوجي لم يكن يستمع، وتابع قائلاً: "كان ستالين ذكياً. ولم يكن يسمح بشكل خاص لسكان البلطيق وهؤلاء الخونة بكتابة الشعر بلغاتهم الخاصة لأنه كان يعرف إلى أين يقود كل ذلك. وقد كان محقاً: حالما حصلت دول البلطيق على الاستقلال، انهار الاتحاد السوفياتي بأكمله".

وفي إحدى الأمسيات وبينما كنا في مقهى في فلاديقفقاز، بدأ أناتولي إيزاينكو، أستاذ التاريخ المتحمس من جامعة المدينة، كلامه من حيث انتهى بوجي. وتكلّمنا مطولاً عن السارماتيان والحملات العسكرية التي قاموا بها عبر أوروبا، والسيثيان الأوائل. وصدحت موسيقى إيقاعية ساحرة من مكبّرات الصوت المخفية في مكان ما في دوالي العنب التي تتسلق جدران المقهى. وقال أناتولي بإثارة: "اسمع! إنها موسيقى السيثيان التي نسمعها. إنها تعود إلى آلاف السنين. وحضارة سيثيان موجودة حولك في كل مكان. وأنت تجلس بين شعب سيثيان. وإذا نظرت إلى ما تأكله، (نوع

من البيتزا الأوسيتية المليئة بالجبن)، ستجده من حضارة سيثيان أيضاً. إنها رمز للشمس التي كانوا يعبدونها. وإذا نظرت إلى الطريقة التي قطعتها بها، وإلى الاتجاهات الثمانية، ستجد أنها أشعة الشمس؛ إنه رمز شمسي".

وقال أناتولي، وهو رجل ساحر نصفه روسي ونصفه أوسيتي، أن الأوسيتيين يؤمنون بأنهم "شعب أعلى مكانةً نوعاً ما. ولا يهتمون كثيراً بالأرض، كما يفعل الأنغوش والشيشان. وبالنسبة لهم، لا تشكل الأرض أهمية قصوى، وإنما يتركّز اهتمامهم على الروح، والأصدقاء والتقاليد. ولديهم تاريخ لا يضاهيه سوى اليهود". وعندما يسافر المرء للمرة الأولى في شمال القوقاز، تبدو مثل هذه الأشياء مترفة، لكنه يعتاد عليها أخيراً، وتبدو في النهاية منطقية.

ولا تحتل الأرض حيزاً واسعاً من الوعي عبر الحدود مع أنغوشيا، رغم أنها تعني الكثير بالنسبة للشعوب المكبوتة. وعندما قام ستالين بتهجير الأنغوش، لم يكونوا يفكرون سوى بالعودة إلى وطنهم. وتعرّضت ثقافتهم وموروثاتهم الجينية للهجوم، ولكن الأرض كانت شيئاً ثابتاً لا يمكن إزالته. ورغم أنهم لم يكونوا موجودين رسمياً، وتمّت إزالتهم من الموسوعات وتوزيع أراضيهم إلى أمم غيرهم، إلا أن المبعدين كانوا يعرفون مكان دفن آبائهم، وكان ذلك بالنسبة لهم دليلاً حاسماً على هويتهم الخاصة. وأصابتهم الصدمة عندما اكتشفوا بأن أراضيهم الزراعية الخصبة في بريغورودني قد أحاطت بها الحدود من كل جانب وسكنها الأوسيتيون.

وفي ظل الحكم السوفياتي اللاحق للنفي، اشترك الأنغوش مع الشيشانيين في جمهورية واحدة. وعندما أعلن الشيشانيون الاستقلال عن روسيا سنة 1991، قرر الأنغوش بشكل ساحق عدم اللحاق بهم، وحصلوا عوضاً عن ذلك من موسكو على جمهوريتهم الخاصة التي تتمتع بالحكم الذاتي ضمن الفيدرالية الروسية. ولم يكن لدى جمهورية الأنغوش الجديدة، التي اكتسبت الوجود القانوني في كانون الثاني 1992، أي مدينة أو شيء آخر لتتباهى به. وتحوّلت قرية نازران السريعة النمو إلى عاصمة للجمهورية، فيما تولى الرئاسة الجنرال السابق في الجيش الروسي رسلان أوشيف، والذي كان على موكبه تفادي المواشي أثناء مروره عبر البلدة. وبالنسبة للأنغوش البالغ عددهم آنذاك 270.000 نسمة، كانت استعادة السيطرة على أراضي بريغورودني عبر حدود أوسيتا الشمالية الشيء الأكثر أهمية على الإطلاق.

وظهر أن الولاء لموسكو خطوة أولى جيدة، واستجاب الرئيس يلتسن بإيجابية، ووعد الأنغوش خلال حملته الانتخابية سنة 1991 بحل مشاكلهم في نهاية تلك السنة. وشجّعهم أيضاً إصدار قانون سنة 1991 الخاص بإعادة توطين الشعوب المنفية، وأن رئيس البرلمان الروسي رسلان خزبولاتوف كان شيشانياً. وأثناء ذلك، مع أو بدون موافقة، أعلن الأنغوش استعادة أراضيهم. وبحلول سنة 1992، عاد 30.000 إلى بريغورودني وفقاً لأرقام رسمية، رغم أن الرقم الحقيقي، بما فيه عدد الأشخاص الذين خرقوا نظام الإقامة الأوسيتي، يقترب من 60.000. إضافة إلى ذلك، ولزيادة الضغط لضم الإقليم رسمياً إلى أنغوشيا، زاد الأنغوش من مطالبهم الاستفزازية لضم الجانب الشمالي من مدينة فلاديقفقاز، أي كل شيء على الضفة اليمنى لنهر تيرك، بما فيها المنطقة الصناعية. وكان هذا الجزء من فلاديقفقاز أراضي أنغوشية منذ سنة 1924 في الأيام الأولى للاتحاد السوفياتي، فيما كان الأوسيتيون يسيطرون على الضفة اليسرى. ولكن الخرائط تغيرت منذ سنة 1934، قبل النفي بقليل، وتمّ اعتبار فلاديقفقاز بعدها جزءاً من أوسيتا الشمالية.

وتصاعد التوتر سنة 1991. وقام الأوسيتيون بإزعاج الأنغوش في بريغورودني، وبدأت هجرات جماعية بطيئة من اللاجئين بعبور الحدود إلى أنغوشيا. ورفض العديد من الأنغوش

الخضوع للأمر الواقع. وخلال تشرين الثاني من تلك السنة، تمّ تنظيم مظاهرات صاخبة في نازران بإلهام من العصيان المسلح في الشيشان. وبدأ كلا الجانبين بحمل السلاح. واستطاع الأنغوش الحصول على ما يريدونه من سوق السلاح الشيشاني، وقاموا بتجميع كامل قوتهم في فلاديقفقاز. وكانت أوسيتا الشمالية هي الجمهورية الوحيدة في روسيا التي تتمتع بالحكم الذاتي، والتي تستطيع إنشاء *حرس وطني* رسمي، والذي يعتبر قوات مسلحة نظامية. وإضافة إلى ذلك، أصبحت الجمهورية القاعدة الجديدة لبعض القوات التي انسحبت من الاتحاد السوفياتي السابق وأوروبا الشرقية، بما فيها ألمانيا الشرقية. وجاء مع تلك القوات مزيج من صفقات الأسلحة في السوق الرسمية والسوداء. وكانت الحرب في أوسيتا الجنوبية مصدراً آخر للأسلحة، وانتقل المحاربون السابقون هناك إلى أوسيتا الشمالية.

ولم يكن واضحاً من بدأ بإطلاق النار أولاً. وفي أواخر تشرين الأول عام 1992، مرّت عربة جنود مدرّعة تابعة للقوات الأوسيتية الشمالية فوق طفل أنغوشي في إحدى قرى بريغورودني. ونتج عن ذلك اشتباكات بين الجماهير الأنغوشية والشرطة الأوسيتية، مما أدّى لمقتل عدد من الأشخاص من كلا الجانبين. وفي 24 تشرين الأول، أصدر القادة الأنغوش أوامر لقراهم بإقامة المتاريس والاستعداد للدفاع. وفي 30 تشرين الأول، بدأ الأوسيتيون بضرب القرى الأنغوشية بالقنابل. وهكذا أخرج الأنغوش في اليوم التالي الشرطة الأوسيتية من قرية تشيرمن، واستولوا على الأسلحة وهاجموا المناطق الأوسيتية حتى سيطروا على كامل منطقة بريغورودني. ومع استمرار القتال العنيف، أعلن الرئيس بوريس يلتسن حالة الطوارئ في المنطقة في 2 تشرين الثاني، وأمر 3000 جندي تابعين للداخلية الروسية ووحدات مظليين بالتدخّل.

وانتهت المعركة بكارثة للأنغوش الذين افتقروا للسلاح الثقيل، وتمّ إخراجهم من منازلهم حتى خلت بريغورودني بالكامل. وأحصى المسؤولون الروس 65.000 لاجئ من أوسيتا الشمالية فرّوا إلى أنغوشيا. وفي الأرقام الرسمية، مات 419 أنغوشياً، و171 أوسيتياً و60 من قوميات أخرى. وتشير أرقام أخرى إلى مقتل 750 شخص وجرح 500. وبالمحصلة، تمّ إحراق كل المنازل الأنغوشية التي يبلغ عددها 3000.

وقال الأوسيتيون أن اللوم يقع على الأنغوش، وأنهم أثاروا ردود فعل غاضبة بالهجوم على فلاديقفقاز. والقصة التي يمكن سماعها في كل مكان، والتي تتكرر باستمرار مع أن من المستحيل إثباتها، أن المدنيين الأنغوش في أوسيتا الشمالية عرفوا مقدَّما بالهجوم الأنغوشي الكبير للسيطرة على بريغورودني وفلاديقفقاز، وتسللوا سراً من منازلهم قبل بدء الهجوم، وتركوا جيرانهم وأصدقاءهم من الأوسيتين دون تحذير. وقال لي أحد الأوسيتيين: "فلاديقفقاز بالنسبة للأنغوش مثل روما بالنسبة للبرابرة".

ولم يكن الأنغوش بريئين تماماً، فقد كان الوطنيون يطالبون بتقسيم فلاديقفقاز. ويمكن إلقاء اللوم على المقاتلين الأنغوش بنفس المقدار على نظرائهم الأوسيتيين اليافعين في إثارة الحوادث القاتلة الأولى. ولكن لم يتمّ شن هجوم على فلاديقفقاز، وجرى القتال في بريغورودني. وتبدو القصة القائلة بأن السكّان الأنغوش قد خانوا جيرانهم الأوسيتيين عن سابق إصرار وتصميم سخيفة. فقد تمّ إلقاء القبض على الكثير من الأنغوش دون أن يعرفوا بشن الحرب المفاجئ، وكان عليهم الفرار من أوسيتا الشمالية تحت ظروف يائسة، وغالباً ما تكون خطيرة، فقط بعد بدء القتال.

وكان القتال الحقيقي من جانب واحد فقط، وكان الأمر شبيهاً بالبرنامج التدريبي أكثر منه معركة حقيقية. وتعرضت القرى لنيران المدفعية أولاً، فيما كانت المروحيات تقوم إما بإطلاق النار أو

تحديد الأهداف. ثم هاجمت القوات المزودة بعربات الجند المدرعة المستعمرات، ولم يكن أي من الأنغوش بمنأى عن الأذى. واشتعلت النار في الكثير من منازل الأنغوش، ولم يكن ذلك نتيجة القتال. ويمكن رؤية ذلك في الأنقاض بعد مرور سنوات على الحرب. واتهم الأنغوش القوات الروسية في المنطقة بدعم الأوسيتيين بشكل مباشر لتنفيذ تطهير عرقي في بريغورودني، ولم تكن دعواهم دون أساس. ولم يكن باستطاعة سوى القوات المسلحة الروسية تقديم الأسلحة الثقيلة، والمروحيات، والأطقم القتالية على ما يبدو. وهناك حقيقتان واضحتان للعيان. الأولى، لم تتدخل القوات الروسية، كما ينبغي لها، لمنع ذبح المدنيين. والثانية، أن النتيجة النهائية للحرب - والتي قد لا يكون الهدف من ورائها كما يصرّ الأوسيتيون - كانت التطهير العرقي. وهذا ما تحقق عندما فرّ الأنغوش بشكل جماعي حفاظاً على حياتهم.

و كان المشهد كئيباً عندما ذهبت إلى بريغورودني في شباط سنة 1996. ورغم مرور ثلاث سنوات والوعود التي قطعتها موسكو وفلاديقفقاز بالعمل الجاد، لم يتمكن سوى جزء يسير من الأنغوش من العودة إلى منازلهم. ولا يمكن رؤية سوى هياكل المباني المهجورة على جانبي الطرق في قرى بريغورودني، فيما لا يزال الآلاف من الناس يعيشون قرب الحدود مع أنغوشيا في معسكرات لاجئين إلى جانب الطريق.

وعاش العدد القليل من الأنغوش الشجعان بما فيه الكفاية للعودة إلى بريغورودني، والذين استطاعوا الحصول على مستندات أوسيتية ضرورية، في أكواخ مخصصة للبنائين تدعى *فاغونشيكس*، أو حاولوا ببطء إعادة بناء منازلهم. وإلى جانب هذه القضايا المثبتة رسمياً، لم يضع أي أنغوشي قدمه على الأرض الأوسيتية والعكس بالعكس. وتمّ إحاطة الحدود بمنطقة أمنية، ونقاط تفتيش لوزارة الداخلية الروسية، ولكن العنف استمر. وخلال السنة الأولى فقط بعد انتهاء الحرب، تمّ رصد غارات عابرة للحدود من كلا الجانبين مسؤولة عن تفجير ما يصل إلى 167 منزلاً أنغوشياً، و107 منـازل أوسيتية. وفي تلك الأثناء، كان لاجئو أوسيتا الجنوبية يحتلون منازل الأنغوش الفارغة في بريغورودني. وكان أهل أوسيتا الجنوبية مكروهين من الأنغوش، وينظر إليهم أهل أوسيتا الشمالية بشكل متزايد على أنهم عبء ثقيل، لكن لا مكان آخر يذهبون إليه، بعد أن تدمرت منازلهم في جورجيا.

وفي قرية داشنوي المهجورة في بريغورودني، وهي واحدة من 13 قرية عانت من مصير مشابه، لم تتمّ إعادة بناء سوى 40 من أصل 400 منزل أنغوشي أصلي. وخلف الأنقاض كان هناك شارع من المنازل التي لم يصلها العنف وما تزال مسكونة؛ إنها منازل أوسيتية. وكان الأنغوش الذين عادوا قلقين من أن يتمّ ضربهم أو إطلاق النار عليهم، وتعرّضوا لعملية إذلال مستمرة على رقعة الأرض التي ولدوا عليها. وما تزال راديمخا، وهي امرأة تبلغ 32 سنة، والتي عادت لتحاول بناء منزلها في داشنوي من جديد، تتذكر الساعات الأولى من الحرب بوضوح. وتقول: "بدأت في ليلة الجمعة - السبت. وسمعنا يوم الأحد أن القوات الروسية آتية وقلنا: "الحمد لله، سينتهي كل شيء قريباً". ولم يكن لدينا قبو في منزلنا، ولهذا كنا دون حماية من القنابل. ولكن الحرب لم تتوقف، وإنما سارت نحو الأسوأ. وفي الوقت الذي غادرنا فيه، كان الناس يموتون في كل مكان والمنازل تحترق. وكان هناك مروحيات تحلّق فوق رؤوسنا دائماً".

وعاشت راديمخا مع قريبتين لها - يمثّلن ثلاثة أجيال مختلفة - في "فاغونشك" واحد يقع في زقاق موحل قريب من أنقاض منزلهن القديم. واستولى اللاجئون من أوسيتا الجنوبية على مبنى سكني يبعد حوالى كيلومتر واحد. وقالت راديمخا: "كان علينا جلب خبزنا في شاحنات خاصة من

أنغوشيا كل يوم لأننا لم نستطع الذهاب إلى السوق. وكان الأطفال يقومون بإلقاء الحجارة علينا". ورغم أنني وجدت صعوبة في تصديق الأمر، إلا أنني مشيت إلى المتجر، ومرّت شاحنة الخبز بجانبي، وكان هناك أطفال من أوسيتا الجنوبية يركضون في الشارع ويصرخون، رغم أنهم لم يكونوا يرمون الحجارة. وداخل المتجر، كان لدى الأوسيتيين الجنوبيين تقاليد المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية: "لا نريد إقامة أي علاقة مع هؤلاء الأنغوش، لقد قتلوا الأوسيتيين، ويتساءلون: كيف لنا العيش مع العدو؟ هذه أراضٍ أوسيتية، والجميع يعرف ذلك، وهو أمر واضح".

واكتشفت بدهشة أن الرجال الذين يعملون على أنقاض أحد منازل الأنغوش لم يكونوا أنغوشاً على الإطلاق، وإنما كانوا أوسيتيين. هل كان ذلك مثالاً عن إعادة الإصلاح؟ وسألت البنائين عن سبب قبولهم بهذا العمل، وقال أحدهم وهو يصحح كلامه: "لم يكن لدينا عمل، ولهذا نبني لهم، لا ليس لهم، ولكن لكسب بعض المال". وسألتهم كيف يتعاملون مع الأنغوش، وأجابني أحدهم: "كيف لك أن تتعامل مع العدو؟". فيما قال آخر: "هذا صحيح، لقد بدأوا الحرب. وهم سعوا لها وحصلوا عليها. إنهم مسؤولون. لقد فجّروا منازلهم بأيديهم".

ولم تكن هناك سيارات على الطريق الموحل عندما حاولت الرجوع إلى فلاديقفقاز بعد ظهيرة ذلك اليوم. واستطعت سماع أصوات بعيدة لنيران المدافع. وأخبرني أحد المارة: "تدريب لأجل الشيشان". وكان هناك عدّة رجال شرطة يقفون على ضفة النهر الرمادي. ونزلت لإلقاء نظرة. وكان هناك امرأة غريقة وقد انتفخ جسدها العاري تقريباً، فيما كان رجال الشرطة يدخنون تحت المطر. وأخيراً، سمعت صوت حافلة، وكانت تحمل بعض العمال الأوسيتيين، وانتقلنا من بريغورودني إلى فلاديقفقاز بصمت كامل.

وللإحساس بالألم والكراهية اللتين تسبب بهما ذلك النزاع، ما على المرء سوى زيارة متحف تاريخ الأنغوش في نازران. فلقد تمّ تخصيص قاعة واحدة للحرب وعمليات التهجير التي قام بها ستالين. وكان الأمر بالنسبة للأنغوش تكراراً لما يحدث باستمرار. وتوجد في المتحف فهارس مليئة بالصور الدموية عن المحرقة الأنغوشية في بريغورودني، وعن نساء تمّ قطع رقابهن. ويمتلئ الحائط بصور لرجال مبتسمين، شبان وشيوخ، ماتوا وهم يقاتلون، ولأطفال قضوا نحبهم.

وتظهر في إحدى اللوحات دبابة روسية تجول عبر الحقول، والمنازل المحترقة، وأنغوشي مثبّت بعمود يحترق، وأوسيتي يطعن امرأة، وخنزيران يشطران رضيعاً أنغوشياً مسلماً إلى نصفين. ويظهر ذلك الرعب في لوحة أخرى لهيرونيمس بوش: أشلاء أجساد، وقوات في زي عسكري سوفياتي، ومروحيات ونيران تملأ السماء، وبوريس يلتسن صغير يخرج من طاحونة. وتصوّر اللوحة التالية الرمز الكامل للنفي وهو أجساد متجمدة مُلقاة إلى جانب مسارات القطارات الفارغة.

وعانى الأنغوش أكثر من غيرهم في تلك المذبحة التي فقدوا فيها منازلهم. وساهمت الحرب في أوسيتا الشمالية بإيقاظ الشعور القومي أيضاً. ورغم ادعائهم بامتلاك حضارة أعلى، إلا أن كراهية الأوسيتيين للأنغوش انعكست عليهم سلباً. ويطالب الجميع الآن، من مسؤولي الحكومة إلى سائقي سيارات الجرة، بعدم عودة الأنغوش مجدداً، ويقولون إن الشعبين لا يستطيعان ببساطة العيش جنباً إلى جنب. وليس الخوف المتجدد وانعدام الثقة بالمسلمين سوى جزء من تلك الكراهية، كما لو أن دور أوسيتا الشمالية كمعقل للمسيحية في منطقة إسلامية يكمن في نبوءة تحقيق الذات.

وتقول زايرا: "في قرآنهم، كتبوا أن على كل مسلم أن يقتل على الأقل 20 كافراً؛ وخصوصاً المسيحيين الأرثوذكس"، وهي امرأة رقيقة في الستين من عمرها، وتعمل في إحدى مكتبات

فلاديقفقاز. "زوجي طبيب، ولكن هل تعلم ما كان الأطفال الأنغوش الصغار يقولونه في المستشفى عندما كانوا يمرضون؟ "يجب أن تتحسن صحتنا لأننا لم نقتل أي أوسيتي بعد".

وقررت إلقاء نظرة داخل مسجد فلاديقفقاز الجميل. وقد بُني بالقرب من تيرك في القرن التاسع عشر، ونجا بأعجوبة من الحقبة الشيوعية، رغم عدم وجود من يصلي فيه آنذاك. ومع مغادرة أنغوش بريغورودني، لم يبقَ من المصلين سوى قلّة من مسلمي أوسيتا الشمالية.

وقال أحدهم ويدعى يوري أنه اكتشف مؤخراً قدره المحتوم، وأنه أصبح يأتي بانتظام إلى المسجد، رغم أن الإعلان عن الهوية الإسلامية في أوسيتا الشمالية قد أضحى صعباً منذ الحرب. وفي سنة 1995، فتحت قذيفة حفرة في الجدار الجنوبي للمبنى، ولهذا تمّ وضعه تحت الحراسة الدائمة. ولا تزال الروابط العرقية أقوى من الإخوة الإسلامية التي قد يشعر بها يوري نحو الأنغوش. "لا، أشعر بكره شديد تجاههم، وأنا مستعد للقتال إذا كان ذلك ضرورياً. لقد عاشوا جيداً، وكانت لديهم منازل جميلة. ما الذي قد يطلبونه أكثر؟".

حدود أنغوشيتا ـ أوسيتا الشمالية

جلس ماجومد وإلبروس، وكلاهما في بداية العشرينيات، معاً على العشب واشتركا في تناول البيتزا وشرب قدح من الفودكا. وضحكا مثل أطفال المدارس الذين يدخنون في الغابات، ولكن جسارتهم كانت أكثر خطورة.

ماجومد أنغوشي، وإلبروس من أوسيتا الشمالية، وهما صديقان وجاران قبل الحرب، عندما كان ماجومد لا يزال يعيش في فلاديقفقاز. وتطلّب الأمر أربع سنوات تقريباً من السلام ليستطيعا الاتصال ببعضهما البعض، وكان ماجومد شجاعاً بما فيه الكفاية ليعبر الحدود متخفياً في سيارة عاتمة النوافذ. والآن، يعودان إلى نقطة التفتيش على حدود أنغوشيتا ـ أوسيتا الشمالية، ويستعدان لتوديع بعضهما مجدداً.

ويقول ماجومد: "كان الأمر مخيفاً. كان علي التسلل خفية عن كل عائلتي في أنغوشيا، وعدم إخبارهم عن المكان الذي سأقصده. وسيكون الأمر خطيراً إذا أوقفت الشرطة الأوسيتية السيارة التي أقلّتني. ولكن حالما وصلت إلى فلاديقفقاز، سار الأمر جيداً. وذهبنا إلى شقتي القديمة، وكان هناك لاجئون من أوسيتا الجنوبية فيه. ولم يكن لديّ الكثير لأخبرهم إياه، ما عدا أنه عليهم العودة إلى منازلهم. وبكى جيراني القدامى عندما رأوني من شدّة الفرح."

6. التسلّق نزولاً

في سنة 1993، هزّت سلسلة تفجيرات انتحارية العلاقات الروسية بالديموقراطية على الطريقة الغربية، وهزّت معها الحريات الجديدة في شمال القوقاز. وفي موسكو، واجه الرئيس يلتسن تحدياً كبيراً من برلمانه، أو مجلس السوفيات الأعلى، الذي كان يسيطر عليه الوطنيون الشيوعيون المتشددون. وعلى أحد المستويات، كان يلتسن يمثّل قوى تفكيك التركة السوفياتية وفتح روسيا للغرب، فيما كان مجلس السوفيات الأعلى يناضل لإيقاف الإصلاح الاقتصادي. وعلى مستوى آخر، كانت الخطوط الأيديولوجية غير واضحة المعالم، وكان الوصول إلى السلطة هو الهدف الرئيسي لكل المتنازعين. وعلى مستوى ثالث، اتخذ الصراع طابعاً شخصياً مريراً، ووضع يلتسن ضد من كانوا حلفاءه في الماضي، وهم رئيس البرلمان رسلان خاسبلاتوف، ونائب الرئيس ألكسندر روتسكوي.

وتحوّلت تلك المواقف أخيراً إلى صراع مادي، مع تمترس البرلمان المنحل في مبناه الأبيض الكبير على ضفاف نهر موسكو. وفي 3 تشرين الأول، حاول مناصرو العصيان المسلح اقتحام مبنى التلفاز، وكانت النتيجة حصول حمام دم بما في ذلك سقوط ضحايا من المدنيين. واستدعى يلتسن في

اليوم التالي الجيش، واستسلم قادة الثورة بعد أن فتحت الدبابات النار على البرلمان من زاوية قريبة جداً.

وقاد ذلك الفعل الشنيع إلى حقبة من خيبة الأمل، وتحوّل الروس المرهقون من علاج الصدمات للاقتصاد الحر إلى الشيوعية الجديدة، أو القومية المتشددة أو الفاشية. وقد تدل المشاهد المميزة لأهل موسكو الذين يمشون بهدوء مع كلابهم في "كوتوزوفسكي بروسبيكت" على طول النهر فيما الدبابات تقصف مبنى البرلمان على تعطّشهم للنظام والقانون مهما كلف الثمن. أما بالنسبة للرئيس يلتسن، فقد خرج منتصراً، ولكنه لم يبقَ الرجل نفسه وبطل الديموقراطية الذي دافع قبل ثلاث سنوات عن مبنى البرلمان ضد القوات السوفياتية وتسبب بانهيار اتحاد الجمهوريات السوفياتية.

وكان أول الناس الذي استشعروا المخاطر الجديدة هم القوقازيون. وتصاعدت مشاعر عدم الثقة وكراهية القوقازيين منذ أن أحسنوا استغلال الحريات الاقتصادية أيام غورباتشوف لبيع محاصيلهم الزراعية في موسكو، وتحولوا بعدها إلى واحدة من أنجح المجموعات الاقتصادية البارزة. ونتيجة للإجراءات الأمنية الصارمة التي اتخذها عمدة موسكو **يوري لوزخوف**، تمّ طرد آلاف القوقازيين من العاصمة. وهذا ما جعل الشارع الروسي يلتف حوله، خصوصاً أن **لوزخوف** لم يكن قومياً وحسب وإنما على اتصال مباشر مع ناخبيه.

وجرت الانتخابات البرلمانية الجديدة في كانون الأول من تلك السنة. وكان من المتوقع أن يبلي حزب **خيار روسيا** والموالي ليلتسن حسناً. وعوضاً عن ذلك، لمع نجم الحزب الديمقراطي الليبرالي العنصري الذي يقوده فلاديمير زيرنوفسكي، مع التصويت لواحد من كل خمسة على قائمة الحزب. وقبل مضي وقت طويل، تغلغل تأثير زيرنوفسكي في حكومة يلتسن، حتى أن وزير الخارجية المحبوب لدى الغرب أندريه كوزريف عانى من هذا الأمر. وقد خرجت الإمبريالية الجديدة عن السيطرة. وكانت العقيدة العسكرية الجديدة التي تمّ تبنيها في تشرين الثاني من تلك السنة هي الأساس القانوني لهذا التحوّل، والتي ركّزت على السيطرة على ما يدعوه الروس **الحدود القريبة** - وبكلمات أخرى الأراضي السوفياتية سابقاً - والأعداء الداخليين وليس الخارجيين. وبالنسبة لأهل القوقاز، مهّدت تلك العقيدة الطريق لاستخدام الجيش في النزاعات المحلية، وركّزت على أن التهديدات الرئيسية التي تواجهها روسيا هي "النزاعات المسلحة التي تنشأ عن القومية المتطرفة والتعصب الديني". وأصبحت جبهة شمال القوقاز بسرعة واحدة من أكثر المناطق عسكرةً في الفيدرالية الروسية، وتجاوزت الحدود المسموح بها في اتفاقية "الحد من الأسلحة التقليدية في أوروبا".

وتحت الضغط، بدأت الحركات القومية المناهضة للروس بالتفكك. وتخلّى الأشخاص العاديون عن العنف والسياسة للتركيز على تحسين ظروف الحياة في فوضى الإصلاحات الاقتصادية. وكان تغيير التاريخ خطيراً. ويقول أوليغ غوزينوف، وهو من قومية كابارد، ونائب رئيس التحرير في صحيفة "سيفيرني قفقاز": "أصبح الناس هنا ساخرين. وصدّقوا في البداية أن إخراج الشيوعيين بالقوة سيكون نهاية متاعبهم، ولكن الحركات القومية فقدت مصداقيتها أيضاً. وفهم الناس أن كل شيء مرتبط بموسكو، وأن تلك الحركات القومية لا تملك برامج حقيقية، وأنها لا تعتمد سوى على الأحاسيس والمشاعر المناهضة للروس".

ويستطيع حسان دومانوف، رئيس لجنة العلاقات العرقية لدى حكومة كاباردينو - بالاكاريا، أن يتذكّر اللحظة التي بلغت فيها القومية في الجمهورية ذروتها، والتي كانت في أيلول 1992 خلال مظاهرة قومية كبيرة في الساحة المركزية في نالشك، خارج مبنى حكومة كاباردينو - بالاكاريا. وكان السبب المباشر لأعمال الشغب قيام الشرطة الروسية باحتجاز **موسى شابينوف** لوقت قصير،

ولكن الناس كانوا يطالبون أيضاً باستقالة السلطات المحلية التي تمّ تعيينها أيام الحقبة السوفياتية، والمزيد من الحكم الذاتي للكابارد. وكان المزاج الشعبي غاضباً، وعلى حافة الفوضى الشاملة، وتمّ إعلان حالة الطوارئ. وتمّ استدعاء نخبة من قوات وزارة الداخلية الروسية لتعزيز القوات الأمنية المحلية داخل المبنى الحكومي. وحدثت أيضاً بعض الشرارات المعتادة؛ مثل طعن جندي ومقتل امرأة (من الواضح أنها أحداث عرضية)، ومحاولة المتظاهرين اقتحام المركز التلفزيوني والاستيلاء على عربة مدرعة. ووفقاً للأسلوب القوقازي، كان العديد من أفراد شرطة مكافحة الشغب من الرجال المحليين الذين يعرفون بأن المظاهرات قد تكون السبب الرئيسي لعدم خروج العنف عن نطاق السيطرة.

ولم تكن الاحتجاجات تصدر عن جماهير حاشدة، وإنما عن أشخاص عاديين ومثقفين أيضاً يؤمنون بإمكانية انبعاث شمال القوقاز، وأن باستطاعتهم تحدّي القوانين السائدة. ولكن العنف آنذاك، وتعصب قادة مثل **شابينوف**، قسّما المحتجين الذين ينتمون إلى أصول واحدة إلى أقلية متشددة وأغلبية رأت أن الحركة القومية ستقود إلى اشتباكات مادية مع الشرطة وقوات الجيش. وتراجعت التظاهرات ومعها الكثير من الطاقة المحركة للقومية.

ويقول دومانوف: "الناس الذين شاركوا في تظاهرات الساحة لم يكونوا يفهمون حقيقة ما يطالبون به. وكان الأمر قابلاً للتطور حتى الوصول إلى المطالبة بالاستقلال الكامل. وعندها ستفرض علينا روسيا الحصار بكل بساطة، وسنكون مثل الفئران. وما حدث هنا سنة 1992 كان حركة خطيرة. ويصلّي الناس الآن حمداً لأن الأمور انتهت". ويقول أحد زملاء **شابينوف** في الجامعة أن التظاهرات كانت رائعة، ولكن الناس في كاباردينو - بالاكاريا كانوا قادرين على كبح جماح أنفسهم في الوقت المناسب. "كانت الجماهير تؤمن دائماً بهذه الأساليب مثل **شابينوف** في الأوقات الصعبة. وكل الناس لديهم لحظة جنون، وأعتقد أن تلك كانت لحظتنا".

واندلع النزاع الأنغوشي - الأوسيتي بعد فترة قصيرة من انتهاء تلك التظاهرات، وشكّل إنذاراً لأولئك الذين قد يحتاجون لأي تحذير جديد. وعندما أصبح من الواضح أن القوات الروسية قد سلّحت وربما ساعدت أهل أوسيتا الشمالية، تأكّدت شكوك الكثير من الناس في جمهوريات شمال القوقاز بأن موسكو لن تتردد باستخدام القوة لإحكام سيطرتها على المنطقة. ورأوا أن الحرب تمثّل طريقة موسكو في إثبات أنها الوسيط الحقيقي الوحيد، تماماً كما فعلت في أبخازيا. وقال الرئيس الأنغوشي رسلان أوشيف أن الحرب كانت محاولة لدفع الشيشانيين لمساعدة الأنغوش، مما منح القوات الروسية سبباً لمحاربة جوهر دوداييف. ومهما تكن القضية، نجحت الحرب في الحد من خطورة الفكر القومي، وفي تقسيم شمال القوقاز إلى معسكرات تاريخية، دعم الروس الأوسيتيين وعاقبوا المسلمين. فرّق تسد.

وقال لي أوشيف: "لم يكن الأمر يتعلق بالكراهية بين الأنغوش والأوسيتيين، وإنما لعبة سياسية. ويهتمّ الناس الذين يثيرون هذه المشكلة بالحفاظ على روسيا الاستعمارية كما كانت. وفي القوقاز، كانوا دائماً يقسّمون الناس إلى من يحبون ومن يكرهون، وأولئك الجديرين بالثقة من الذين لا يستحقونها. وكانوا دائماً يتطلّعون إلى الجمهوريات الموثوقة التي ستحمي مصالح روسيا. ولم يكونوا يعتبرون الشيشان، وأنغوشيا، وكاباردينو - بالاكاريا وبعض الداغستانيين أهلاً للثقة ولهذا كان يجب تقسيمهم وإحكام السيطرة عليهم. وكانوا ينظرون إلى أوسيتا، بأي حال، على أنها معقل لروسيا".

وأعادت روسيا تأكيد هيبتها بتقديم الدعم للقوى السياسية الموالية لها. وفي كانون الثاني عام 1993، نظّمت روسيا أول اجتماع طاولة مستديرة للتنظيمات التي تدعم العملية الديموقراطية من كل أنحاء المنطقة في بياتيغورسك. ولم يقدّم "اتحاد شعوب القوقاز" أو أي حركات قومية قوية أخرى الدعم لذلك الاجتماع، والذي أصبح صلة الوصل بين المركز والجمهوريات، وأشار إلى أن موسكو راغبة في وضع سياستها الإقليمية على مسار أكثر ثباتاً.

وساهم عامل آخر في الاستقرار الجديد وهو سيطرة موسكو على الإنفاق المالي، فقامت بتقديم رساميل تزيد عن نصف ميزانية كل الجمهوريات التي تتمتع بالحكم الذاتي في المنطقة. وعلى سبيل المثال، قدّمت مساعدات تبلغ قيمتها 88% من ميزانية داغستان في سنة 1994. وبالتزامن مع ذلك، عملت موسكو بشكل وثيق مع البيروقراطيين الشيوعيين السابقين، وهم الرجال الذين شغلوا مناصب الأمناء العامين أو رؤوساء الحزب في المناطق المحلية أو الجمهوريات التي تمتعت بالحكم الذاتي أيام الاتحاد السوفياتي. وكان هؤلاء يتولون الحكم في أديجي، وكاباردينو - بالاكاريا، وأوسيتا الشمالية وداغستان. وفي كاراشاي - شركسيا، عطّل صراع دستوري على السلطة العملية السياسية حتى قدّمت روسيا الحل: اختيار قائد الجمهورية من قبل الكرملين. وكان هؤلاء جميعاً ممن يأخذون مصالح روسيا بالاعتبار، ويكبحون المعارضة ويحافظون على الوضع القائم.

"كان هؤلاء البيروقراطيون الموجودون دائماً في السلطة قادرين على التمسك بها لأنهم يعرفون كيفية إدارة الحكم. وكانوا يعرفون الأمور المالية وسواها. ولم يكن لدى الحركات القومية القيادات المدرّبة، والفنيون المحترفون كما لدى الشيوعيين القدامى. ويقول فلاديمير ديجويف، أستاذ التاريخ في جامعة فلاديقفقاز: "كان القادة الشيوعيون المحليون القدامى قُساة، ولكن عمليين". وشرح أن قوة الشيوعيين السابقين لها جذور اقتصادية عميقة، لم تأتِ من دعم موسكو لهم فقط، وإنما من دعم المافيا أيضاً، والتي انتعشت خلال حقبة الأسواق السوداء في سنوات حكم غورباتشيف. "كانوا يحكّون ظهور بعضهم بعضاً. ويحتاج الموظف إلى التعليم، والزواج ومصروف الجيب؛ ولهذا كان يتعامل مع أحد "سماسرة الصفقات" ليكون متأكّدا من أن سلطات الضرائب ستتركه وشأنه".

وبحلول سنة 1994، وبمعزل عن القضية الرئيسية في الشيشان، والتي كان يواجه فيها مقاتلو جوهر دوداييف وضعاً صعباً للغاية، لم يكن هناك سوى أنغوشيا كي يتمّ إخضاعها. وكانت تلك مشكلة فريدة بالنسبة للسلطات المركزية. وبخلاف الجمهوريات الأخرى، لم يكن في أنغوشيا قيادة موالية جاهزة منذ أيام السوفيات. وعوضاً عن ذلك، كان هناك أوشيف المستقل برأيه على رأس شعبه الجاهز للحرب، وكان يطلب ثمناً مرتفعاً للاستقرار؛ يجب أخذ أنغوشيا على محمل الجد. ولم تكن الجمهورية لتأخذ طريق الشيشان الانفصالي، ولكنها أرادت حكماً ذاتياً سياسياً واقتصادياً حقيقياً. ولم تكن ستهاجم أوسيتا الشمالية، ولكنها أرادت عاصمة جديدة لها. ولم تكن تؤيد القومية المتطرفة، ولكنها أرادت إصلاحاً شاملاً لتضع تاريخها الحافل بالحروب والنفي وراءها. ووافقت موسكو على الكثير من تلك المطالب.

وكانت الصفقة بين موسكو والأنغوش فريدة في شمال القوقاز. ووافق البرلمان الروسي على إنشاء عاصمة جديدة تدعى ماغاس - أو مدينة الشمس - إلى الأسفل من سفوح جبال القوقاز، وخلال السنوات 1994 - 1997، سمحت الحكومة لأنغوشيا بفرض ضريبة خاصة كطريقة في تحصيل مبالغ إضافية في سبيل التطوير الاقتصادي. وبدأت الجمهورية النائمة بتحويل نفسها بكل حماس إلى ما كان أوشيف، وهو محارب قديم في أفغانستان، يدعوه "جمهورية مثيرة للاهتمام وتنعم بالرفاهية؛ مثل هونغ كونغ، وسنغافورة ومالطا".

وكانت فكرة ماغاس طموحة للغاية، إلا أنها غريبة في الوقت نفسه؛ بناء بلدة في الحقول الفارغة بالقرب من الموقع الأثري لمستوطنة **آلان** القديمة والتي تدعى ماغاس أيضاً. وعوضاً عن الالتقاء بالجماهير في قاعة البلدة الريفية في نازران، تصوّر أوشيف قصراً رئاسياً جميلاً محاطاً بالمباني الحكومية كمقر له. وأظهرت أعمال أحد الفنانين كلية للشريعة، وساحات عامة، ومناطق مشجّرة ومباني سكنية مريحة على طراز ضواحي المدن الغربية وليس السوفياتية. ولم تكن عملية الإصلاح تلك تتمّ عبر تجديد القديم، وإنما عبر ابتكار جديد بالكامل.

وفي سنة 1996، زرت العلامة المرئية الوحيدة لماغاس، وكانت عبارة عن علامة حجرية منقوش عليها الكلمات الآتية: "هنا سيتمّ بناء عاصمة جمهورية أنغوشيا". وإلى الخلف من تلك العلامة لم يكن هناك سوى الحقول الفارغة وسلسلة الجبال إلى الجنوب. ولكن العمل كان قد بدأ على البنية التحتية، وبدا أن الأنغوش يصدّقون فعلاً بأن المشروع سيقلع. وقال بوريس خانييف، نائب مدير مشروع البناء: "بحلول سنة 2000، سيكون لدينا تسعة أحياء - أي حوالى 10.000 شخص. وبحلول سنة 2010، سيكون هناك 30.000 شخص. وسيكون لدينا مستشفيات، ومدينة رياضية، ومنتزه على ضفاف النهر وقاعة موسيقية".

وسجّلت حوالى 5000 شركة في المنطقة الحرّة، والتي منحت ميزات تفاضلية فيما يخص الضرائب، واستطاعت جذب 100 مليون دولار بعد 18 شهراً من التشغيل وفقاً لأحد التقارير. وتدفق المال على حلم أوشيف، وبدأت الجمهورية تزدحم بمزيج غريب من الأتراك، والسلوفاك، واندفع حتى البناءون الاسكتلنديون للعمل في ماغاس والعديد من المشاريع الأخرى. وكان هناك فندق آسا في نازران، ومدارس، وشوارع ومنازل على الطراز الغربي، ومحطات وقود، ومعملان، وثلاث محطات لتوليد الطاقة الكهربائية ومطار ضخم. وأخذ الناس يتوافدون من المناطق المجاورة للاستمتاع بالمشهد فقط.

وكانت هذه المشاريع موضع انتقاد في موسكو لأنها تعمل على إفساد أنغوشيا، وتسمح لها بإنشاء أسواق سوداء قانونية وتجفيف منابع الضرائب الروسية، وهو ما يعني بالمقابل عدم القدرة على دفع المعاشات والرواتب في البلد. وتحت ضغط ترشيد نفقات الموازنة، ألغى الكرملين في النهاية المنطقة الحرة. وكان هناك بعض الحقائق حول تلك الاتهامات، مع الأخذ بعين الاعتبار حالة الإفلاس في الدولة الروسية القريبة، لكن الانتقادات أخطأت في تقدير أن الأحوال الخاصة للجمهورية تتطلب حلاً غير عادي. وفي الحقيقة، لم تتعامل موسكو بمهارة كافية مع الأنغوش؛ وقد كان ذلك مثالاً عن دمج إحدى الأقليات بشكل جديد في الفيدرالية الروسية.

وقدّم الأنغوش معروفاً كبيراً لموسكو بعدم إعلانهم الاستقلال إلى جانب الشيشان سنة 1991. وفي سنة 1994، وفيما كانت القوات الروسية تتحرك ضد الشيشان، كانت موسكو بحاجة لدعم وولاء الأنغوش أكثر من أي وقت مضى. وأنكر الأنغوش بالطبع أن روسيا قامت بشرائهم. والصحيح أيضاً أن ماغاس لم تحصل على موافقة البرلمان الروسي سوى في كانون الثاني 1995، بعد سنة من بدء الحرب في الشيشان. ولكن المشروع تلّقى أولاً مباركة الرئيس بوريس يلتسن في بداية نيسان 1994، تماماً قبل الحرب عندما كان الوضع يتدهور نحو الأسوأ. وحصلت المنطقة الحرة على الموافقة في حزيران 1994. وحالما اندفعت القوات نحو الشيشان، تطوّع الكثير من الأنغوش للقتال إلى جانب الشيشانيين، واشتبكت إحدى الفصائل المدرعة مع القوات الروسية فيما كانت لا تزال داخل أنغوشيا. ولكن الجمهورية بقيت هادئة ومحايدة بشكل عام. وعمل أوشيف، المعارض للغزو الذي قامت به موسكو، جاهداً لإبقاء جمهوريته بعيدة عن النزاع. وكان الدعم الذي

يتلقاه الشيشانيون يمر عبر قنوات غير رسمية. واستطاعت أنغوشيا أن تحصل من تلك الصفقة على بعض المزايا التي كانت بحاجة إليها بعد الشيوعية. وبالنسبة لموسكو، كان الأمر يستحق كل الأموال التي تمّ صرفها لأجله.

نازران، أنغوشيتا

كان أوشيف يتمتع بشخصية ساحرة، وكان يعرف ذلك. وكان قادراً على التأثير على أي شخص بنظرة عينيه الزرقاوين، وزي الجنرال العسكري الذي يرتديه في أنغوشيا والبذلة الرسمية في موسكو. وكان يسافر عبر الجمهورية دائماً بأسطول من السيارات الأجنبية، ولكنه كان دائم التواصل أيضاً مع الجمهور، وغالباً ما كان يحضر مباريات كرة القدم في استاد نازران الترابي الصغير، ولم يكن يفصله عن الحشود سوى حاجز بسيط. وعندما كان المذيع يعلن أن الرئيس يحضر المباراة، كان الناس يصفقون.

وكان حضور أوشيف قوياً أيضاً في موسكو. ويبلغ تعداد سكان أنغوشيا أكثر من 250.000 بقليل، وهو أصغر من عدد سكان مدن كثيرة، إلا أن أفكار أوشيف كانت كبيرة وحاز على الاحترام لأنه قدّم نموذجاً جديداً للقائد القوقازي الذي يختلف عن الصورة النمطية للقومي الذي يلوّح بالسلاح، أو الموظف القديم الذي يفعل أي شيء تزلفاً واقتراباً من موسكو.

ويوجد في مكتبه صورة بالطول الكامل لرجل ثاقب النظرة، وهو أحد بنّائي القلاع الأنغوشية الغامضة في أعالي القوقاز. وهي الصورة التي يرى أوشيف نفسه عليها؛ أي البنّاء الذي تعامل مع الحقبة السوفياتية، وعاد بعدها إلى القيم القوقازية، وقدّم شكلاً جديداً بالكامل من الشراكة مع الفيدرالية الروسية. إنها العودة إلى المستقبل.

وقام أوشيف بنقل حماسه وطموحاته إلى الآخرين، وبشكل لا يُصدّق أحياناً. ويقول: "لا يوجد خطر من استقلالنا. ولا نرى في ذلك حلاً لكل مشاكلنا. ولا يهتمّ الرجل العادي في الشارع بالاستقلال أبداً."

"ما نريده بالنسبة لماغاس هو أن تصبح أجمل مدينة في الفيدرالية الروسية في غضون 20 سنة. وهي ستكون بالتأكيد الأحدث. ولم يفعل أحد شيئاً مماثلاً من قبل، أي البدء من العدم؛ فقط بطرس الأكبر عندما بنى سانت بطرسبرغ. ونرغب بأن يكون لدينا جمهورية بمقاييس عالمية، واقتصاد سوق. وسيأتي السياح إلى جبالنا الجميلة. ورغم أن جمهوريتنا صغيرة، إلا أنها ستكون معروفة في جميع أنحاء العالم."

وتجاوزت أهداف أوشيف ماغاس، والفنادق والمعامل. وكان يعتبر أنها فرصة مواتية أمام أنغوشيا التي تواجه تحدياً حقيقياً: "نريد كسر دائرة المأساة التي أحاطت بنا وبالشيشان دائماً. ونريد تصحيح تلك الأخطاء التاريخية. وهذا هو أهم شيء بالنسبة لنا."

الفصل الرابع
الذئب الشيشاني

"لم يكن هناك سوى أمة واحدة رفضت فلسفة الإذعان... إنها الأمة الشيشانية. والشيء الغريب أن الجميع يخافها، ولا يستطيع منعها من العيش بالطريقة التي ترغب بها. ولم تستطع السلطات التي حكمت البلد لمدة 30 سنة إجبارها على التقيّد بقوانينها... ولم يحاول أي شيشاني العمل مع السلطات أو القيام بما تريده. وكان موقفهم تجاهها مزيجاً من الكبرياء والعدائية".

ألكسندر سولزينتسين يصف الشيشانيين أثناء التهجير.

1. الثورة

غروزني

عند الغسق، تهرب الحياة من العاصمة الشيشانية، ويبدو نظام جوهر دوداييف متداعياً، وتقوم سيارات مدرعة ورجال مزودون ببنادق آلية بحراسة المداخل إلى ساحة القصر الرئاسي. وما يزال الكثير من الناس يخرجون لشراء لفائف التبغ من الأكشاك أو للحصول على ما يأكلونه من السوق الذي تضيئه مصابيح الزيت والشموع. ويتحدث بعض الرجال بصوت خافت في ظلال البوابات، أو يجلسون القرفصاء متخفين عند الجدار. ولا يقضي أي شخص وقتاً أكثر من اللازم في الخارج. وفي الهيكل الخرساني للقصر الرئاسي، لا يزال هناك ضوء في مكتب الرئيس دوداييف في الطابق الثامن. وربما يكون مشتعلاً لأغراض دعائية، أو ربما لأن الرئيس يعمل فعلاً، ويبني حلمه في دولة مستقلة، ويوقع المراسيم مع وضع رمز "الذئب الوحيد" عليها الخاص بجمهورية الشيشان.

وفي الليل، يظهر شباب شيشانيون لقضاء وقت في قيادة سياراتهم والتسابق بها في الشوارع المقفرة. إنها حياة الليل على طراز غروزني. ويوجد وفرة من القطع الأجنبي مع هؤلاء الشباب الذين استطاعوا الحصول عليه نتيجة عقد صفقات مشبوهة، وهم يقودون سياراتهم من طراز ب.م.ف بشكل سيئ، فقط لإظهار أنهم لا يهتمون. وأخبرني أحدهم أن هناك مسابقات يقود فيها السائقون سياراتهم بسرعة على تل، ويحاولون القفز من فوق خندق عرضه 20 متراً في ساحة مينوتكا القريبة من مركز المدينة. وهناك رهانات بآلاف الدولارات على مثل تلك السباقات التي تتحطم فيها الأجساد والمركبات.

إنها ليلة الدوران باستخدام فرامل اليد. وما كان مني إلا أن التحقت بالحرّاس على أحد المتاريس بالقرب من القصر الرئاسي. وإلى أسفل الطريق، كان الفتيان يضغطون على دواسات الوقود ويصرخون عبر النوافذ على بعضهم بلغة شيشانية غير مهذبة. وارتفع هدير السيارات التي تسابقت عبر الشارع باتجاهنا. وعلى بعد 50 متراً منا، استخدم السائقون فرامل اليد لتستدير سياراتهم بدرجة 180، ثم عادوا إلى نقطة البداية بسرعة جنونية.

وإلى أسفل الشارع خلفنا، كان هناك نيران بندقية آلية. وأصغيت السمع، ولكن الحرّاس لم يعيروا الأمر اهتماماً. ثم سمعت صراخاً، وضحكات والمزيد من الرصاصات. وارتفع شهاب إشارة عسكري أحمر فوق ساحة القصر الرئاسي خلفنا، وبدأت الكلاب تنبح بشكل جنوني. وسألت الحارس فيما إذا كان كل شيء على ما يرام. وقال لي: "إنها ليلة هادئة تماماً."

وفي خريف سنة 1994، كانت ثورة الشيشانيين التي قادها الجنرال جوهر دوداييف على وشك الانهيار. وقد اختفت الدولة السوفياتية بعد ثلاث سنوات من إعلان الاستقلال. وتمّ انتزاع تمثال لينين من مكانه، ولم يبقَ سوى قدميه الحديديتين اللتين تبرزان من قمة القاعدة. ويرمز العلم الشيشاني الأخضر - الأحمر - الأبيض مع ذئب أسود يرقد تحت البدر إلى إنشاء دولة جديدة. واعتمدت الجمهورية الجمعة يوم الراحة، وهي عطلة المسلمين. وفي مدينة مبنية لتتسع 400.000 شخص،

كان هناك سوق ضخمة مليئة بكل شيء من البنادق الهجومية إلى الملابس الحريرية؛ وكلها من تجارة غير شرعية. ورأيت مكتبة واحدة ومطعمين ومتجراً واحداً فارغاً. وكان هناك بضعة هواتف تعمل، فيما طالت البطالة الجميع تقريباً. وللدخول إلى الشيشان، على المرء المرور عبر القوات الروسية التي تحاصر الحدود. وحالما يصل إلى هناك، ينتابه الشعور بأن روسيا قد أصبحت بعيدة جداً.

وانتشرت علامات الثورة على كل المنحدرات وفي كل مكان. وتتبع الشرطة التي توجّه السير للرئيس دوداييف، وينتمي أفرادها إلى الشعب الشيشاني وليسوا روساً أو سوفيات. ورغم ذلك، لا يزالون يرتدون ملابس شرطة الطرق السوفياتية، وهي نفسها ملابس شرطة موسكو وفلاديفوستوك. وغيّرت الشيشان في عهد دوداييف التوقيت المحلي. وأضحى هناك تأخير بمقدار ساعة واحدة عن موسكو، وهو ما خرق طغيان التوقيت الموحد للعاصمة الروسية، ولكن لم يضبط سوى المناصرين للاستقلال ساعاتهم على "توقيت دوداييف"، فيما بقي الآخرون يتبعون توقيت موسكو كما كانوا طوال حياتهم. وفي ساحة سير مينوتكا، كان هناك راية ضخمة سوفياتية الطراز تعلن "الحرية - 1991" فوق صورة لذئب. ولكن ما هي الحرية التي يتكلمون عنها؟ ودمدم سائقي: "الحرية هي أن تمتلك بعض النقود في جيبك، وهذا ما لم نحصل عليه منذ سنوات".

وتبادل الشبان الأحاديث في الساحة الرئيسية خارج القصر الرئاسي المؤلف من 11 طابقاً، وهو مبنى خرساني بناه السوفيات. وجلس كبار السن، الذين يضعون قبعات أستراخان العالية، ويرتدون السراويل الفضفاضة والأحذية الجلدية الطويلة، على مصاطب بين مشاتل الورد، وكانوا يناقشون المستقبل الغامض مع الشبان الذين يرتدون بذلات أنيقة، والملابس المموهة أو الجينز الأسود ومعاطف الحرس الرئاسي. وكان كلا الجيلين يحملان البنادق. وفي داخل القصر، كان الحرّاس يرتدون شيئاً بين ملابس الأميرال وخدم الفنادق. وكانوا يقفون إلى جانب الحائط أو يجلسون القرفصاء على الأرضية يتبادلون أطراف الحديث ويأكلون بزر دوّار الشمس. ولا شيء يوحي بالجدّية والانضباط بينهم سوى ما يحملونه من بنادق آلية. وشاهدت أحد الحرّاس، الذي تبرز ناصيته من قبعته، يشم وردة حمراء قطفها من إحدى تلك المشاتل الضخمة في الساحة الرئيسية، وأخبرني أنه يريد الذهاب إلى أميركا.

ورغم وجود الكثير من معارضي دوداييف خارج غروزني، إلا أنه لا وجود لكلمة واحدة ضد الثورة أو "جوره" في الساحة الرئيسية للمدينة. وتمتم محمد، وهو شاب أقلّني في سيارته الجديدة من طراز فولفو في يومي الأول هناك: "لمدة 70 سنة، لم نرَ النور، أو نعرف معنى الحياة. والآن بعد ثلاث سنوات من الاستقلال لم تتحسن حياتنا. ولا يريد الروس سوى نفطنا. ولكننا قرّرنا بأننا نريده أيضاً، وأن نبيعه لمن نريد: الروس، البريطانيون أو مهما كان". وكان الذهب الأسود، الذي اختفى في خزائن موسكو في العهد السوفياتي، مهماً للثورة. ورغم تراجع الاحتياطيات، إلا أن المناطق الأخرى تستفيد من تكرير النفط الخام.

وعندما سألت وزير الاقتصاد تايماز أبوبكروف عن سبب سوء الخدمات في الشيشان إذا كان باستطاعتهم بيع النفط لمن يرغبون، وقال لي بهدوء أنه يستطيع إعداد إجابة من خمس نقاط لي. وزوّدني أبوبكروف، الذي كان يجلس تحت صورة ميخائيل غورباتشيف، الذي سمح بظهور العديد من الثورات، بعشر نقاط. ولكنه لم يجب أبداً عن السؤال. وكان سكّان الشيشان شديدي الحماس في أيلول سنة 1994، ولم يكن للحصار الروسي أي تأثير مادي، رغم أنه تسبّب بأضرار نفسية، وساهم في ظهور عقلية الحصار.

"ستجد أن الناس الذين لا يملكون المال هم الذين قدّموا لنا الدعم. فيما وقف من امتلك المال دائماً ضدنا، وهم نفس الناس الذين كانوا يعيشون جيداً قبل 10 سنوات لأنهم كانوا أعضاء في الاستخبارات (كي جي بي) أو القوات الخاصة التي تعمل مع الروس. والمعارضة على استعداد لتوقيع أي وثيقة يعطيها إياهم الروس عن الحالة في الشيشان، وهذا ما يتلقون الأموال لأجله. ولسنا بحاجة للمال، وإنما بحاجة للاستقلال".

ولا يعتبر الكثير من الشيشانيين أنهم بحاجة للمال. وعلى الرغم من الحصار، هناك دائماً لحم وفاكهة في الأسواق. ويعيش الناس في قرى الشيشان في منازل فسيحة مترفة مقارنة بنظرائهم في الريف الروسي الفقير المحطّم والذي يعاني من مشكلة الكحول. ولكني وجدت لاحقاً أن هذه الثروة خادعة في معظم الحالات. واستطاع أغلبية الناس العاديين كسب أموال إضافية في أواخر ثمانينيات القرن العشرين بالسفر إلى روسيا وآسيا والقيام بأعمال موسمية كبنائين وسائقي شاحنات. وكانوا يكسبون ذلك المال بالعمل الشاق، ثم يقوم الرجال وعائلاتهم ببناء منازل أنيقة بأنفسهم. وكانت العملية بأكملها تستغرق من عدّة سنوات إلى ما يقرب من عقد. وعاش الشيشانيون العاديون جيداً، في منازل خاصة جميلة، ولكنهم لم يكونوا أغنياء؛ كان هناك فرق.

ولهذا عندما تحدّث وزير الاقتصاد عن عدم الحاجة إلى المال، ربما كان يشير فقط إلى الرجال في قصور الآجر التي ترتفع وسط حقول الذرة حول غروزني، وهم الذين يتجولون في الجوار وينقلون مواشيهم في السيارات الألمانية المستوردة وحتى الرولز رويس والفيراري. وظهرت طبقة جديدة من الأغنياء، وهم رجال عصابات تزييف الأموال، والمافيا النفطية و"تجار الحقيبة" الناجحون الآخرون، والشيشانيون الذين هاجروا للخارج، وأحضروا معهم الأدوات الكهربائية أو الملابس وباعوها بربح كبير في روسيا. ولم يكن هؤلاء الرجال بحاجة فعلاً للمزيد من المال، ومثّلت الثورة والحرية في بيع النفط بالنسبة لهم نجاحاً منقطع النظير.

وفي نفس الوقت، كان هناك خوف من الكوليرا، وكانت المستشفيات في الأراضي الخاضعة لسيطرة دوداييف خالية من كل شيء تقريباً من الأسبرين إلى المسكّنات. وغالباً ما كانت إمدادات الماء والكهرباء تتوقف، ويتمّ إغلاق المستشفيات مؤقتاً. وكانت المدارس الوحيدة التي يتمّ التدريس فيها هي تلك التي يتبرع لها الآباء، أو التي لا يمانع فيها المدرّسون العمل دون مقابل. ولم يكن هناك تجهيزات في "المستشفى الجمهوري الأول" وسط غروزني، ورفض كبير الأطباء التحدّث إليَّ. وفيما كنت أغادر، شرحت لي ممرضة الوضع همساً، ثم انفجرت بالبكاء وتوسّلت إليَّ عدم نشر اسمها. وإلى الشمال الغربي من الشيشان، هدّدني رجال دوداييف المسلحون بإطلاق النار عليّ وعلى سائقي وعلى نصير للمقاومة عندما حاولنا زيارة عدّة مستشفيات ومدارس قروية. وقد اعتبرونا "مثيرين للمشاكل".

"الشيشان ليست ملكاً لروسيا، إنها ملك لله."

شعار استقلال الشيشان.

كانت إطاحة الشيشانيين بالشيوعيين المحليين وإعلان الاستقلال عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية في الأول من تشرين الثاني 1991 عملاً استثنائياً في ذلك الوقت، وهو يبدو الآن خطأً جسيماً دفع مئات آلاف الناس حياتهم ثمناً له. ولكنه بدا شيئاً محتوماً عندها. وفي سنة 1990، كان الشيشانيون في مهب الريح. وكان رئيس الاتحاد الروسي ضمن الاتحاد السوفياتي بوريس يلتسن يضغط باتجاه التخلص من الحزب الشيوعي الفاسد. وكانت جملته الشهيرة التي يحثّ فيها الجمهوريات السوفياتية على ذلك: "احصلوا على أكبر قدر من السلطة تستطيعون الحافظ عليه".

وكان ذلك مثار إعجاب الشيشانيين، وأطلقوا بعد ذلك نسختهم الخاصة من تلك الظاهرة التي اجتاحت المنطقة بأكملها؛ البحث عن الدولة المستقلة.

واستفاد جوهر دوداييف من اللحظة. وقد كان شخصاً غريباً عن القومية، وقائداً دينياً بالدرجة الأولى. وقبل أن يتولّى قيادة "مجلس الشعب الشيشاني القومي المناهض للشيوعية" في تشرين الثاني 1990، كان جنرالاً في القوة الجوية السوفياتية، وقائداً لقاعدة القاذفات النووية في تارتو، وهي بلدة في أستونيا التي كان الاتحاد السوفياتي يسيطر عليها. ومنصبه لوحده كان يعني أنه رجل الحزب الشيوعي، وأنه يتمتع بثقة الاستخبارات السوفياتية (كي جي بي). خدم دوداييف في أفغانستان، وشارك في القصف الوحشي للمدنيين، وكان - كما اعترف هو نفسه - مسلماً مرتداً. وتدعى زوجته **ألا** وهي فنانة روسية ترسم اللوحات وتنظم القصائد، دون نجاح كبير.

وهناك أسباب أخرى للشك بنوايا دوداييف وإلى أين يتجه بالشيشان، وهي شكوك حول علاقاته بالكرملين وتهديداته بشن حرب مقدّسة. هل كان رجلاً متهوراً، أم مجنوناً؟ وأخبرني صديق شيشاني: "لا أحبه لأنه جنرال سابق، ولا يتمتع الجنرالات سوى بعقلية الحرب، ولا يعرفون كيف يحكمون وإنما كيف يقاتلون". وكان الأوان قد فات لذلك. "وأتذكّر أنه عندما جاء دوداييف إلى الجبال لم يتحدث عن جمالها أو الأعمال التي يمكن إقامتها، أو أي شيء من هذا القبيل. وإنما قال إن تلك الأراضي مناسبة لحرب العصابات. وأدركت عندها أنني لا أحبه".

ولكن تقديم دوداييف كان سهلاً بالنسبة لمعظم الشيشانيين، فقد كان جنرالاً، وهو أول شيشاني يترقى في الرتب إلى القمة، ومقاتل حقيقي. ورغم أنه خدم الروس طوال حياته، إلا أنه لم يكن خائفاً منهم. وعندما طلب هذا الطيّار الأنيق، بشاربه الرفيع الذي يبدو كما لو أنه مرسوم بقلم رصاص أسود، العون من أبطال الاستقلال الشيشاني والله، ابتهج مناصروه، ومعظمهم من الشيشانيين القرويين الفقراء. وهناك من قدّم تفسيراً حتى التناقضات في خلفيته بالقول إن جوهر خطط للانتقام من روسيا سراً طوال حياته، حتى عندما وصل إلى مرتبة جنرال القاذفات النووية، وأن فرصته قد حانت الآن. ويشرح آخرون بأنه رفض قمع حركة الاستقلال الأستونية عندما كان في البلطيق مما أظهر توجهاته القومية. وإضافة إلى ذلك، فقد خاض التجربة الشيشانية الأساسية: بعد بضعة أيام من ولادته في الشيشان سنة 1944، وقع التهجير وكان أول شيء عرفه هو البرد والإذلال في السهول الكازاخية.

وعندما اقتربت نهاية اتحاد الجمهوريات السوفياتية سنة 1991، أصبح باستطاعة القوميين الشيشان تذوّق طعم النصر ضد الشيوعيين، وكان جوهر قائدهم. ويقول: "العبد الذي لا يحاول تحرير نفسه هو عبد مرتين". وهي كلمات ستصبح جزءاً من عقيدته الشخصية، ومن شريعة جوهر.

وفي آب سنة 1991، حاول جناح سوفياتي متشدد في موسكو يائساً إيقاف مد التغيير وإبقاء الاتحاد السوفياتي متماسكاً. وقبل بوريس يلتسن التحدّي وأعلن أن العصيان المسلح الشيوعي غير قانوني. وأصبح مبنى البرلمان المحاصر في موسكو رمزاً مقاوماً للتمرد؛ أي رمزاً للحرية، والديمقراطية وتقرير المصير القومي. وطلب يلتسن المساعدة من كل الديمقراطيين واستعد لقتال الدبابات. واستجاب لندائه بإقامة المتاريس داخل البرلمان آلاف الأشخاص، وكان بينهم شامل باساييف، أمير الحرب المستقبلية في أبخازيا، والذي لم يكن عندها سوى طالب في موسكو. وفي كل المناطق والجمهوريات النائية، طلب الكرملين من القادة المحليين الاستعداد للمواجهة. وبالنسبة لمعظم الشيوعيين، مثل الأمين العام للحزب الشيوعي الشيشاني دوكو زافغايف، كان الأمر يتعلق

بالتخمين الصحيح - من سينتهي إلى القمة، الجناح المسلح أم يلتسن؟ وبقي زافغاييف المراوغ على الحياد، ولكن بدلاً من الانتظار صامتاً دون إعلان موقف، خطا على نهج دوداييف وأدان عصيان الشيوعيين المسلح، ودعا كل الشيشانيين لدعم حركة يلتسن الديمقراطية. وكان ذلك اختراقاً هاماً احتاجه دوداييف في ذلك الوقت.

وحاولت حكومة زافغاييف، مثل الجناح العسكري الشيوعي في موسكو، إيقاف التغيير، وضيّقت الخناق على القوميين، وزجّت ببعض القادة في السجن وأعلنت حالة الطوارئ. ولكن فصيل دوداييف كان يمتلك الكادر المؤهل والطاقة اللازمة للعمل. وفي كل يوم، كان هناك مظاهرات ضخمة ضد الحكم السوفياتي في قلب غروزني. وفي 22 آب، سيطر المتظاهرون على برج التلفزيون، وظهر دوداييف على الهواء ليعلن قيام الثورة. وبعد أسبوعين من ذلك، وفي 6 أيلول، اجتاح الحرس الوطني لبرلمان دوداييف مجلس السوفيات الأعلى، أو البرلمان السوفياتي، ورمى الرئيس الروسي للـ "جوركوم" (اللجنة المحلية) في غروزني بنفسه، أو تمّ رميه من نافذة في الطابق الثالث ومات. وفي 15 أيلول، عقد مجلس السوفيات الأعلى آخر جلساته محاطاً بمقاتلي الحرس الوطني، وصوّت البرلمان على حل نفسه وقبول استقالة دوكو زافغاييف. وكانت الثورة قد اكتملت عندها تقريباً.

وكان هناك معارضة قوية لدوداييف، وخصوصاً بين المثقفين الذين عارض بعضهم الثورة بسبب طابعها القومي، فيما رأي البعض الآخر في سقوط النظام القديم نهاية لوضعهم الخاص كنخبة سوفياتية منتقاة. ونتج عن ذلك العنف زخم لا يمكن إيقافه، والذي تصاعد أكثر بسبب رد فعل موسكو على الأحداث التي ستجري لاحقاً.

وتمّ تنظيم انتخابات مشكوك بصحتها في 27 تشرين الأول عام 1991، والتي فاز فيها دوداييف بأغلبية ساحقة، مع نسبة تصويت بلغت 90% ونسبة تأييد له بلغت 72% وفقاً للنتائج الرسمية الثورية. وتشير التقديرات غير الرسمية أن عدد المصوتين لم يتجاوز 10 إلى 12%. ولم تكن الحقيقية حاضرة في الأذهان عندها. وكما هو الحال في جميع الثورات، لا يهتمّ أحد سوى للنشاط والشخصية القوية اللذين كان يتمتع بهما دوداييف. وبعد خمسة أيام، وقّع دوداييف مرسوماً يؤكد استقلال الشيشان عن الاتحاد السوفياتي.

ورغم أن موسكو، وخصوصاً رئيس البرلمان رسلان خزبلاتوف، قدّمت الدعم لدوداييف في معركته ضد زافغاييف، إلا أن العلاقات سرعان ما تدهورت. وأعلن نائب الرئيس ألكسندر روتسكوي، وهو جنرال سابق في سلاح الجو أيضاً، أن الشيشانيين خرجوا عن السيطرة، ووجه لهم الأوامر بإلقاء السلاح والتصرف مثل المواطنين الروس الملتزمين بالنظام. وادّعى أن مناصري دوداييف ليسوا سوى عصابة لا يتجاوز عدد أفرادها 250 شخصاً. ورد دوداييف الهجوم بإعلان حالة الحرب، والتي دفعت روتسكوي لإلقاء خطاب ناري آخر حول "الفوضى الحكومية" في الشيشان. وأمر الرئيس يلتسن "الجماعات المسلحة غير القانونية" بتسليم أسلحتها أو مواجهة العواقب من المركز الاتحادي. وتجاهل دوداييف الإنذار النهائي ومضى في انتخاباته، فقط ليحصل على الشرعية القانونية التي كان يشكك بها خزبلاتوف.

وبلغت سياسة شفير الهاوية مرحلة جديدة في 8 تشرين الثاني عندما أعلن يلتسن حالة الطوارئ في الشيشان وأنغوشيا رداً على إعلان استقلال دوداييف، وهو ما كان يعني تعليق الحقوق الدستورية. واندفع مئات الجنود إلى غروزني من أجل *استعادة النظام* والدفاع عن *وحدة الأراضي الروسية*.

وكان دوداييف جاهزاً. وعندما وصلت القوات إلى مطار خانكالا العسكري في شرق غروزني، وجدت نفسها محاطة بالحرس الوطني ولا خيار أمامها سوى الدخول في قتال شرس أو الاستسلام المذل. وبالتزامن مع ذلك، أعطى شامل باساييف مثالاً عن القسوة البالغة التي ستطبع النزاع الشيشاني - الروسي بطابعها بخطفه طائرة ركاب إيرفلوت على متنها 178 شخصاً. وتمّ إجبار الطائرة على تغيير مسارها إلى أنقرة في 9 تشرين الثاني، وبعد خمس ساعات على مدرج المطار، حوّلت مسارها وطارت مجدداً إلى غروزني حيث تمّ إطلاق سراح الرهائن دون أن يتعرضوا للأذى. وقال باساييف أن هدفه الوحيد كان توجيه الأنظار إلى انتشار القوات الروسية في بلاده. وقد اقتنعت السلطات التركية بوجهة نظره، وقالت إن باساييف لم يقم *بعمل إرهابي*، وإنما *بفعل احتجاجي*. وكانت تلك خلفية متوترة لانتخابات دوداييف الرئاسية التي كانت تجري في نفس اليوم، 9 تشرين الثاني، مع تجمّع الآلاف من المتظاهرين في "ساحة الحرية" خارج القصر الرئاسي.

ووقفت موسكو على حافة الحرب. ورفض البرلمان الروسي المصادقة على حالة الطوارئ التي أعلنها يلتسن، مما دفع هذا الأخير إلى إلغاء ذلك المرسوم بعد رؤيته لخطر إراقة الدماء. واستقلّ جنود وزارة الداخلية في غروزني الحافلات وغادروا الشيشان. وفاز دوداييف بأولى المواجهات مع موسكو، وفي الشوارع هلّلت حشود القوميين التي أوصلته إلى السلطة ابتهاجاً.

وتفادى الجميع إراقة الدماء، ولكن الأوضاع كانت مليئة بالمخاطر القادمة لاحقاً. ومن جهة، أثبتت موسكو عجزها عن القيام بأعمال حاسمة والتفاوض بشكل جيد. ومن جهة أخرى، اكتشف دوداييف أن وضع مواطنيه في مواجهة مع الغيلان الروسية كان مفتاح زيادة شعبيته. وبوقوفه ضد القوات الروسية في المطار، أزاح دوداييف القناع عن الضعف المادي للدولة الروسية الجديدة. وفي الحقيقة، لم تتغير تلك العوامل بعد مرور ثلاث سنوات كاملة مرّت خلالها العلاقات الروسية - الشيشانية بمراحل من الركود وسوء الفهم وصولاً إلى الحرب.

2. نهاية البراءة

"لم أكن أسعى للسلطة، والغنى أو الوظيفة. ولم يكن لديّ دائماً سوى فكرة واحدة: القتال في سبيل حق الشعب الشيشاني في الاستقلال. إنه هدف حياتي، ولن أتوارى خجلاً منه. ليس بسبب أي ظروف أو تحت أي ضغط."

جوهر دوداييف.

وضع دوداييف خططه في كتب وكرّاسات رسمية، مثل "الطريق الشائك إلى الحرية"، والتي يظهر فيها على الغلاف الخارجي للكتاب في مقعد الطيار، مبتسماً رافعاً إبهام يده. وقد وعد الرئيس بحقوق متساوية للأغلبية الشيشانية البالغ تعدادها 900.000 نسمة، والأقلية الروسية التي لا تتجاوز 300.000 نسمة، وأن كلتا اللغتين ستكون رسمية في البلاد. ورغم أن الجمهورية ستكون مستقلة ومحايدة عسكرياً، إلا أنها ستبني علاقات اقتصادية متينة مع روسيا. وستتمتع كل الأديان بحريات متساوية، وسيتمّ إطلاق سراح أي شخص تمّ اعتقاله لدوافع سياسية في ظل النظام القديم.

ولا يوجد أي خطأ في البرنامج، ومع أن الانفصال نفسه كان أمراً صعباً من الناحية التقنية، إلا أن طموحات الشيشان كانت تتمتع دون شك بقوة أخلاقية وتاريخية. ولم يسبق للشعب الشيشاني أن اندمج مع روسيا بإرادته؛ وفي الحقيقة لم يترك فرصة سانحة للثورة إلا واستغلها عبر أجيال متعددة، وكان انهيار الاتحاد السوفياتي خصوصاً فرصة جيدة للانفصال عن موسكو. وعلى المستوى الأخلاقي على الأقل، لم يكن هناك سبب يمنع الشيشان من سلوك نفس الطريق الذي سبقتها إليه أستونيا الأكبر منها قليلاً، أو أي من الجمهوريات السوفياتية السابقة الأخرى.

ولم يتمّ طبع تلك الكتيبات بعناوينها المثالية ومقدّماتها العلمية سوى بعد أن أصبحت مناسبة للمتاحف. وفي غضون أقل من سنة على تغيير دوداييف لتوقيت الجمهورية، بدأت الجالية الروسية في مغادرة الشيشان بالآلاف، وبدأ الاقتصاد يشهد تراجعاً واضحاً، وسيطرت طبقة جديدة من فاحشي الثراء على الحكومة، فيما كان قطع الأعناق ينتشر في الشوارع. وكان هناك وزير للاقتصاد، ولكن دون اقتصاد؛ ووزير للخارجية، ولكن دون اعتراف دبلوماسي؛ وجبال من المراسيم الرئاسية حول القانون والنظام، ولكن لا شيء سوى حكم السلاح.

وساهمت كل تلك العوامل في سنة 1994 في منح السياسيين الروس أسباباً لتبرير الحرب بإعلانهم أن الشيشان *الدولة الإجرامية الأولى*. ولكن الحقيقة الصعبة والتي تمّ تجاهلها طويلاً هي أن السياسيين ورجال الأعمال الروس كانوا حاضرين بأنفسهم لدى ولادة حقبة دوداييف، رغم أنها لم تكن سياسة رسمية للكرملين. ويمكن إرجاع سبب معظم ما كان يحدث في الشيشان إلى روسيا، ولكن الوضع لم يتغير لثلاث سنوات طوال. وكما يعرف أي رجل أعمال روسي يدفع للمافيا، كان السلام يكلّف مالاً. وهكذا كان يبدو أن الشيشان متروكة للسرقة والخداع، فيما كانت روسيا مستفيدة من الوضع القائم. ولم تكن الشيشان المستقلة، في جانب منها، سوى شركة قطاع مشترك مشبوهة أخرى.

ولم يعانِ الشيشانيون الراغبون في تهريب البضائع أي صعوبات في تجاوز الحصار المفروض من قبل يلتسن. ومن جهة، كان هناك الحدود البرية الطويلة مع داغستان، والتي لم تكن تسمح بتطبيق تعليمات موسكو؛ ومن جهة أخرى، كانت هناك أنغوشيا، التي لم يتمّ ترسيم الحدود معها منذ انفصال الشيشان - أنغوشيا. وسرعان ما تحوّل الحصار العسكري، الذي يتلقى أفراده الروس رواتب هزيلة، إلى مصدر لتدفق الأموال. وتستطيع أي عربة اجتياز نقاط التفتيش مقابل مبلغ معين، وفي حال الضرورة تستطيع الشاحنات السير على المسارات الموحلة التي لا تقصدها دوريات الجنود الروس. وكان الهدف من كل ذلك الحصار جعل التجارة غير قانونية، وإلغاء دور رجال الأعمال الشرعيين وتنشيط دور السوق السوداء.

وكانت القطارات التي تأتي إلى الشيشان عبر خط روستو - باكو الذي يعبر القوقاز تتعرض للغارات بأسلوب الغرب الأميركي - 559 قطاراً في سنة 1993 لوحدها، كما زعم الروس. ومع بقاء مطار *الشيخ* منصور في غروزني مفتوحاً، غذّت الرحلات غير المجدولة سوق سلاح من الطراز الأول، وأصبحت غروزني بوابة روسيا للبضائع المستوردة بشكل قانوني وغير قانوني والتي لا تخضع جميعها للضرائب. وكانت ظاهرة "تجارة الحقيبة" مألوفة في كل أنحاء الاتحاد السوفياتي السابق، ولكن البضائع الشيشانية المعفاة من الضرائب تفوقت على كل المنافسين. وأصبح سوق غروزني ملاذاً للتسوق بالنسبة لشمال القوقاز، مع وجود أكبر وأرخص تشكيلة ممكنة من البضائع: أجهزة التلفاز والفيديو اليابانية من هونغ كونغ والإمارات العربية، والعطور الفرنسية، والملابس الرياضية الغربية، والأشغال الخشبية والجلد التركيان. وقد يكون سوق السلاح أشهرها على الإطلاق، ويقع عند جدار مقسم الهاتف. وهناك، يستطيع رجال لهم نظرات حادة، ويضعون نظارات عاتمة، ويرتدون معاطف جلدية بيع أي شيء من رشاش بورز (الذئب) المصنوع في الشيشان إلى منصات إطلاق الصواريخ المضادة للدروع، أو معدّات أثقل. وفي بلاد يتمّ فيها تبجيل الأسلحة، يعتبر هذا المكان مكة (محجًّا).

ويبدو الخط الفاصل بين المسؤولين الروس الذين يغضون الطرف عما يحدث، والذين يعملون مع العصابات طمعاً بالمال، غير واضح على كل جبهة تقريباً. ويقول سيرجي شاخري، وزير

القوميات الروسي، والمسؤول عن العلاقات مع الأقليات العرقية، أن 150 رحلة عارضة تغادر غروزني شهرياً، مما يخرق قوانين الطيران الروسي. ولكن هناك حلقة مفقودة في الادعاءات الروسية حول كون المطار ثقباً أسود قانونياً، إذ لا يستطيع الطيارون الإقلاع والهبوط في غروزني دون تعاون مسؤولي الحركة الجوية الروس، ولا يستطيعون بالتأكيد الطيران إلى البلطيق، وسلوفاكيا، أو ربما إلى أيٍّ من محطاتهم الدولية الأخرى. وفي النهاية، يمكن الضغط دبلوماسياً على الدول الأخرى حتى لا تستقبل الطائرات الشيشانية، أو يستطيع الطيران الحربي الروسي ببساطة فرض منطقة حظر طيران فوق الأجواء الشيشانية.

ورغم أن الشيشان قد تخلت عن كل القوانين الروسية وأعلنت استقلالها، إلا أن موسكو استمرت في دفع الأموال الاتحادية اللازمة لتسديد المعاشات التقاعدية والحاجات الاجتماعية الأخرى طوال سنة 1992 وبداية سنة 1993. ولكن مقدار الأموال التي كانت تسرق على الطريق، وما كان يصل منها إلى مستحقي الرواتب التقاعدية مسألة أخرى تماماً. وفي إشارة أخرى إلى قرار كل من الشيشان وموسكو العيش مع بعضهما البعض، احتفظ دوداييف بمركز شبه رسمي، وكان يوضع اسمه في المنشورات الرسمية على أنه "رئيس" الشيشان. وفي سنة 1993، وجّه رسائل مودة للرئيس يلتسن، متمنياً له الحظ السعيد في صراعه على السلطة مع البرلمان. ولم تنقطع العلاقات الهاتفية حتى بداية الحرب، عندما قصفت الطائرات مقسم الهاتف.

وربما تكون أفضل هبة لدويلة تريد الاستقلال هي الجيش، وهذا ما حصلت عليه الشيشان في سنة 1992. وقد انسحبت القوات السوفياتية التي كانت متواجدة سابقاً في غروزني بسرعة بعد شعورها بالتهديد من السكان المحليين القوميين. ووفقاً لتقرير رئيس الأركان الروسي في حزيران 1992، تركت تلك القوات خلفها 42 دبابة، والكثير من المركبات المدرعة الأخرى، و145 مدفع هاون وقطع مدفعية أخرى، و40.000 سلاح ناري. وكان هناك الكثير من الذخائر المختلفة في قاعدة التدريب في غروزني، وسرت شائعات لم يتسنَ التحقق من صحتها حول وجود مواد نووية في قواعد عسكرية قديمة.

ومرة أخرى، يتمّ دفن الدليل. وكانت الرواية الروسية للأحداث، والتي تبدو صحيحة، أن الجنود تخلّوا عن الأسلحة نتيجة التهديد. وبين أواخر سنة 1991 وبداية سنة 1992، كان هناك هجمات مستمرة للحشود الشيشانية على المتاريس في غروزني، مع وجود رجال يحملون أسلحة ويختبئون خلف مجموعات من المدنيين. وكانت الغارات تتسبب أحياناً بإراقة الدماء؛ ومات 20 شخصاً كما يذكر أحد التقارير في حادثة واحدة. وطبقاً لمصادر روسية، كان الجيش يعتقد أن المقاومة الجدّية ستقود إلى حمام دم. وقال أحد مصادر الجيش أن الشيشانيين كانوا يهددون حياة أسر الضباط في حال عدم مغادرتهم للجمهورية. وفي موسكو، كان هناك إجماع على أن الوقت حان لتقليل الخسائر عبر المفاوضات ومغادرة المكان؛ وهو ما حدث لاحقاً عندما غادرت القوات الروسية دون سلاحها.

وقاد وزير الدفاع الجديد بافل غراتشيف المفاوضات (أو الصفقات، وفقاً لما قد تراه) في ذلك الوقت. ونتج عن استفسار البرلمان الروسي عن الحرب في الشيشان قيام غراتشيف بإصدار أمر في أيار سنة 1992 يفوّض فيه القيادة العسكرية في شمال القوقاز بتسليم 50% من المدرعات والأسلحة الأخرى الموجودة على الأراضي الشيشانية إلى دوداييف، وأن يتخلّى الجيش عن الباقي. وتقول تقارير أخرى أن دوداييف حصل على 80%. ووفقاً لصحيفة "سيفودنيا"، احتفظ دوداييف بالكثير من تلك الأسلحة. وحتى بعد مرور خمس سنوات، يبرز السؤال الآتي: ما مقدار الأسلحة التي تمّ التخلي عنها، وكم بيع منها؛ وإذا تمّ بيعها، لمن؟

وكان هناك أموال كثيرة تأتي من سوق النفط. وكجزء من الاتحاد السوفياتي، كانت حقول الشيشان الصغيرة، والتي تنتج نفطاً عالي الجودة، تقدّم 90% من وقود الطيران للبلاد، رغم أن هذا لا يشكل سوى جزء صغير من الإنتاج النفطي الكلي. وفي تسعينيات القرن العشرين، وصل الإنتاج الشيشاني إلى حوالى 3.5 مليون طن سنوياً، وهو أقل بكثير من معدل الإنتاج في الحقبة السوفياتية. وكانت الاحتياطيات السهلة الاستخراج محدودة للغاية، كما أن جزءاً من الاحتياطيات النفطية موجود الآن في الأراضي الأنغوشية.

وكان تكرير نفط المناطق الأخرى من المشروعات التي تدر ربحاً جيداً، والتي تشكل جزءاً هاماً من دخل غروزني، إضافة إلى رسوم عبور خط أنابيب "عبر القوقاز" في الأراضي الشيشانية. وكانت تلك الأموال تشكّل أفضل فرص دوداييف للتغلب على الفقر المدقع الذي تسبب به شح الرساميل الروسية وفساد حكومته. وربما كان دوداييف قادراً على إنقاذ جمهوريته الفتية باستخدام أموال النفط لغايات اقتصادية واجتماعية، ولكن الأموال تبخّرت عوضاً عن ذلك.

وكان تواطؤ المسوؤلين الروس والشيشانيين في تلك المسألة واضحاً للغاية. وفي ظل الحصار أو عدمه، كان النفط يصل بانتظام من سيبيريا، ثم يخرج من غروزني عبر ميناء نوفوروسيسك الروسي على البحر الأسود. ووفقاً لتقرير البرلمان الروسي في سنة 1992، كان كلٌ من رئيس الوزراء إيغور غايدار وخليفته (وكان عندها نائباً لرئيس الوزراء للطاقة) فيكتور تشيرنوميردن يعملان بهذه التجارة بشكل مباشر. وجاء في التقرير أن مصافي غروزني تعاملت مع 15 مليون طن من النفط في سنة 1991، و9.7 مليون في سنة 1992، و3.5 مليون في السنة التالية. ويقول يوسف سوسلامبيكوف الذي احتل مناصب مرموقة عديدة في الشيشان قبل أن يتنحّى مع دوداييف، أن سنة 1992 شهدت شحن أربعة ملايين طن من الديزل، و1.6 مليون طن من البنزين، و125.500 طن من الكيروسين، و36.600 طن من زيت المحركات إلى خارج غروزني. ويقدّر أن تلك المنتجات تساوي بحسب أسعار الأسواق العالمية آنذاك ما مجموعه 130 مليون دولار أميركي.

ويقول سوسلامبيكوف: "بالطبع كانت دوائر معينة عليا من الحكومة الروسية مشتركة في عمليات بيع النفط، وخصوصاً أن النفط الروسي كان يمر حتى سنة 1994 عبر الشيشان. ولا يوجد ذكر لأي من هذه النشاطات في ميزانية الدولة. وأثناء ذلك، كان يتمّ نقل عشرات ملايين الأطنان من المنتجات النفطية الروسية - الشيشانية إلى أجزاء أخرى من *رابطة الدول المستقلة*، وأيضاً إلى نوفوروسيسك وتوابس في طريقها إلى أسواق أخرى". ولم يصدّق أحد في الشيشان سوسلامبيكوف - خصوصاً أنه كان يعمل على إقناع الآخرين بالعمل ضد دوداييف، ولكن لا يمكن نكران ما يقوله: "لم يتمّ شراء منتجات زراعية، أو طعام، أو إدخال تكنولوجيا جديدة لإنعاش الاقتصاد الشيشاني، أو ملابس بأموال ذلك النفط".

وقامت أستونيا المستقلة حديثاً بتغيير عملتها سنة 1992، وحوّلت احتياطياتها من الروبلات السوفياتية إلى الشيشان وليس إلى المصرف المركزي في موسكو، وهو ما مثّل أحد أهم إنجازات دوداييف المالية. وتمّ نقل حمولة طائرات من الروبلات السوفياتية إلى غروزني، والتي استمر العمل بها حتى تحوّلت روسيا إلى الروبل الروسي في صيف 1993. ورأيت لاحقاً، خلال الحرب في سنة 1995، أطفالاً يلعبون في الشوارع بتلك العملة الورقية التي لا قيمة لها عندها بالقرب من أنقاض المصرف المركزي، والذي سوّته القاذفات الروسية بالأرض مثل المباني الحكومية الأخرى.

وفي قلب تلك الفوضى، استخدم رجال الأعمال الشيشانيون جمهوريتهم كقاعدة للجريمة المنظمة، لأنهم كانوا يعرفون أن الشرطة الروسية لا تستطيع ملاحقتهم. وفي حادثة خاصة، تمّ

اغتيال شقيقين ذهبا إلى لندن للتحضير لصك العملة الشيشانية في شقة صغيرة في ماريليبون، وهو ما أشعل موجة ثأر انتهت بمقتل امرأة بريطانية بريئة لا ذنب لها سوى أنها قريبة الشابين اللذين تمّ اتهامهما بعملية الاغتيال.

ووفقاً لكتاب *عالم الجريمة في روسيا* المنشور سنة 1995، كان الشيشانيون في موسكو متورطين بشكلٍ كبير في حلقات البغاء، وإنشاء شركات سيارات الأجرة، وشركات الحماية وتجارة السيارات. ونظّم الشيشانيون في سانت بطرسبرغ تجارة نقل بضائع السوق السوداء من البلطيق؛ وتمّ إلقاء القبض على عصابة شيشانية لتزييف الأموال في تلك المدينة سنة 1994. وكانت السيارات الفارهة اختصاصاً شيشانياً محضاً. ويصف أحد المحتالين المشهورين البدايات في ألمانيا، حيث كان يتمّ إجبار مالكي سيارات مرسيدس وب.م.ف على بيع سياراتهم بأسعار منخفضة أو سرقتها. وفي الوقت الذي يتقدّم فيه المالك بشكوى حول السرقة، بعد تأخير متفق عليه لعدّة أيام، تكون السيارة في طريقها إلى الشيشان بمساعدة عملاء الجمارك الفاسدين. ويتمّ تقديم مستندات مزوّرة في غروزني، وتصبح السيارة جاهزة لاستخدامها من قبل رجال العصابات، أو لإعادة بيعها وسرقتها مرة أخرى. وتمتلئ الشيشان بالسيارات الأجنبية المسروقة، والتي تحمل غالباً لوحاتها السويدية أو الألمانية الأصلية.

ولكن أشهر السارقين كانوا "فوسدوشنكي" أو "رجال الهواء" الذين يستطيعون جني الثروة من لا شيء، إما بتزييف العملة أو بالنصب على البنوك. وكانت إحدى أشهر طرق الاحتيال تتمثل بإنشاء شركة وهمية في المقاطعات لإصدار سندات دفع وهمية، أو ما يعرف **بأفيسو** بالروسية، لصالح شركة ثانية في موسكو عبر التحويلات المصرفية. ورغم أن الشركة الأولى لا تدفع شيئاً في الحقيقية، إلا أن الشركة الثانية تحصّل الأموال المحوّلة نقداً.

وفي حزيران سنة 1992، قالت وزارة الداخلية الروسية أن عصابات المافيا في روسيا، وخصوصاً في الشيشان، سحبت 30 مليار روبل من المصرف المركزي باستخدام *أفيسو* مزورة. وقالت السلطات إن الوضع تحت السيطرة. وفي شهر تموز من ذلك العام، قالت وزارة الداخلية إن الأموال المفقودة تصل في الحقيقة إلى عدّة مئات من مليارات الروبلات. وفي عملية احتيال واحدة، وهي السرقة الأكبر في تاريخ روسيا، تمّ توجيه الاتهام لعصابة شيشانية بسحب 60 مليار روبل (تساوي عندها 700 مليار دولار أميركي)، وتمّ على إثرها إيقاف التعاملات المصرفية مع الشيشان.

ومرة أخرى، يوجد تواطؤ في فضائح *أفيسو* - رغم عدم القدرة على إثبات ذلك - من الجانب الروسي. ويبرز تساؤل هنا عن مدى كفاءة موظفي المصرف المركزي الذين ينظمون عمليات التحويل المالي الضخمة تلك، والذين لم يستطيعوا اكتشاف أمر تلك الشيكات! وحول استمرار المصرف المركزي في العمل وقتاً طويلاً قبل أن يقرر إيقاف التعاملات المالية مع النظام المصرفي الشيشاني؟! ويعترف دوداييف بسرقة مئات المليارات من الروبلات وأن بعض *أفيسو* المزورة جاءت من الشيشان؛ لكنه ينكر تورط حكومته في الأمر.

ويجب التأكيد، وعلى نطاق واسع، بأن المجرمين الشيشان يعكسون ببساطة ما كان يجري حولهم. وفي بداية التسعينيات من القرن العشرين، كانت روسيا تحت سيطرة التنظيمات الإجرامية، وكانت السلطات جزءاً من اللعبة في العديد من المواضيع، وكان ذلك نتيجة فساد الحقبة السوفياتية وغياب القانون والنظام في روسيا الديموقراطية. ولم يكن الكثير من رجال الأعمال الروس قادرين على العمل دون دفع أموال حماية في السنوات الأولى. ولم يكن الشيشانيون وحدهم المتورطين في

عمليات الاحتيال المصرفية. وأثبت دوداييف خصوصاً، عجزه عن مكافحة الفساد. وقد اعترف بوجود المشكلة، ولكنه ألقى باللوم على الخطط الروسية، وتفادى أي مسؤولية من طرفه كما تشرحها العقائد المنشورة من طرفه في تلك الكتيبات البائسة الملقاة على قارعة الطريق.

وجرت محاولة لقلب نظام دوداييف في سنة 1992، ودخل في السنة التالية معركة مع البرلمان لتمديد فترة حكمه، والتي أثّرت على خططه في الحصول على المزيد من الصلاحيات الرئاسية. وردّ دوداييف بتنظيم استفتاء شعبي مشكوك بنزاهته، والذي أظهر تأييد 97% من الشعب له. لكن عندما استمرت المشكلة، قام دوداييف في نيسان سنة 1993 بحل البرلمان، وفرض منع التجول بمرسوم رئاسي. ومجدداً، تعكس الشيشان الوضع في روسيا بشكل غريب، حيث قام الرئيس يلتسن في تشرين الأول من تلك السنة بحل البرلمان بنيران الدبابات، وأعاد كتابة الدستور ليمنح نفسه صلاحيات واسعة جديدة.

وكان الروس، الذين حلموا بالسلام في ظل الجمهورية الشيشانية الجديدة، يغادرون منازلهم بالآلاف إلى مناطق ستافروبول وكراسنودار في جنوب روسيا. وواجه الكثير ممن بقوا مضايقات مستمرة، أو تمّ إجبارهم على مغادرة شققهم أو تعرّضوا للسرقة أو للقتل. وكان دوداييف يعلم بتلك الأحداث، لكنه ألقى باللائمة على مثيري المشاكل الروس؛ ولا علاقة له بالموضوع على الإطلاق.

وبخلاف الشيشانيين، لم يكن لدى السكّان من العرق الروسي شبكة من العلاقات العائلية المتشعبة، والتي تؤمن لهم الطعام والمسكن في حال كانوا فقراء أو تعرّضوا للمشاكل. وفوق ذلك، كانوا خارج نظام الثأر مما جعلهم أهدافاً سهلة للمجرمين الذين كانوا يعلمون أن شرطة دوداييف لن تتدخل أبداً. وقام شباب شيشانيون بزيارة إحدى المتقاعدات الروسيات في غروزني، والتي يعرفها الجميع باسم تيوتيا أو العمّة ناتاشا، في شقتها الصغيرة في غروزني. وعندما لم يجد أولئك الشباب أي شيء يأخذوه، قاموا بسرقة أسنانها الذهبية.

وتقول لودميلا، وهي نصف روسية ونصف أميركية، والتي هربت من غروزني لتعيش في كاباردينو - بالاكاريا: "في بداية تسعينيات القرن العشرين، كانوا يستطيعون أخذ أي شيء منا لأننا روس، ولسنا منهم. لم أكن أجرؤ على المشي لوحدي. وفي أحد الأيام، وبينما كنت في السوق، أمسك بي رجل وبدأ بسحبي بعيداً، ولكن شقيقتي كانت موجودة هناك وبدأت بالصراخ، واستطعنا الهروب منه. وبعد ذلك، طلب والدي مني ومن شقيقتي الحضور إلى هنا، وبقي مع أمي هناك. ورغم أن جيراننا الشيشانيين طيبون ودافعوا عنا فيما مضى، إلا أنهم كانوا يدعون والدي، الذي عمل في مصفاة النفط، بالخنزير الروسي، رغم أنه ليس روسياً، وإنما أميركياً".

ومرة أخرى، لا تبدو الشيشان قضية معزولة، وإنما نسخة متشددة عن الأحداث التي تجري في العديد من الجمهوريات المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفياتي المنهار، حيث أصبح ما مجموعه 25 مليون روسي أقليات وغرباء بين ليلة وضحاها. وهربوا جماعياً من الحرب الأهلية والفقر في طاجيكستان، وعانوا من التمييز السياسي واللغوي في دول البلطيق. وبالطبع، لم يكن أولئك الروس الهاربون من الشيشان يعرفون بأنهم ليسوا سوى أولى موجات اللاجئين. وحصلت موجة اللجوء الثانية سنة 1994 عندما أرسلت موسكو جيشها، ووجد الروس المحاصرون أنفسهم يتعرضون للقصف من قبل حماتهم. وعند نهاية الحرب سنة 1996، اختفى المجتمع الروسي من الشيشان بالكامل تقريباً.

وكما في أي مكان آخر، تمتع الروس بوضع خاص في الشيشان قبل الثورة، وهيمنوا على السلطات واحتفظوا بمعظم الوظائف الهامة، خصوصاً في صناعة النفط حيث كان 90% من

الموظفين من الروس. ولم يتمّ تأهيل سوى بعض الشيشانيين في كليات الصناعات النفطية. وكان يتمّ إرسال الشيشانيين الذين يتمّ تأهليهم في تلك الكليات عادة إلى مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي. ولم تكن السياسة الرسمية تسمح آنذاك للشيشانيين بالوصول إلى مراكز السلطة أو حتى الهيبة. ونتيجة لذلك، لم يكن العدوان على الجالية الروسية مأساة لأفرادها وحسب، وإنما كان كارثة على الاقتصاد الشيشاني أيضاً.

ولم يكن هذا ما وعد به دوداييف في تلك الأيام الأولى المليئة بالعواطف الجيّاشة. وتحوّل ذلك الجنرال، الذي كان يلبس بذلات مقلّمة عوضاً عن الزي العسكري التقليدي حتى لا يتهمه الناس بأنه ديكتاتور، إلى رئيس لإحدى جمهوريات الموز. ونتيجة لعدم قدرته على إدارة بلده الصغير، حوّل تركيزه إلى روسيا. واستخدم *اتحاد شعوب القوقاز* كمركبة لحلمه الصغير والخطير في توحيد القوى القومية في شمال القوقاز ضد روسيا. وجاء الاعتراف الدبلوماسي الوحيد الذي فاز به من الرئيس الجورجي الأول السيئ السمعة زياد غامساخورديا، الذي عاش في المنفى في غروزني. وأصيب دوداييف، مثل غامساخورديا قبله، بجنون العظمة. وعندما اعتقد بأن روسيا ليست كبيرة بما فيه الكفاية ليسيطر عليها بشعبه البالغ تعداده مليون نسمة، طار إلى العراق، والأردن والسودان ليعلن دعمه لـ "قتال الإسلام ضد روسيا، والولايات المتحدة والغرب عموماً".

3. الحرب الزائفة

كانت المفاوضات الرامية إلى جعل دوداييف يوقع على اتفاقية الاتحاد، والتي تضع الشيشان ضمن الفيدرالية الروسية، تنهار في كل مرة. وكان الرئيس يلتسن يرفض اللقاء بجنرال القوى الجوية المرتد، والذي كان يصر على وجوب معاملته كرئيس دولة. وكان من الواضح أن كل ذلك الصخب عديم الفائدة، رغم استفادة دوداييف منه، وتزايد الاحتقان السياسي بحلول سنة 1994. وفي صيف تلك السنة، أطلقت موسكو ما كان يبدو أنه حرباً سرية نموذجية، لكنها في الواقع كانت الخطوة الأولى نحو المستنقع.

وشكّل ائتلاف تدعمه روسيا من معارضي دوداييف، ويتخذ من منطقة نيدتيرشني الشمالية الغربية مقراً له، *مجلساً مؤقتاً*، وأعلن في آب 1994 أنه يمثّل الحكومة الشرعية في الجمهورية. وبدأ *المجلس المؤقت* مباشرة في استخدام التمويل الروسي السري لبناء جيش، وتشديد الخناق على الوضع الاقتصادي في المناطق التي يسيطر عليها دوداييف. وتمّ تجديد المستشفيات والمدارس التي تديرها المعارضة، وأصبحت الطبابة متاحة وبدأ المعلّمون في استلام رواتبهم. وقال المتحدث باسم المعارضة في القاعدة الرئيسية في زنامينسكوي: "نحتاج للفوز بقلوب الناس". وأخبرني أن قواته تلقّت للتو مليوني دولار من موسكو. وإلى جانب المال، جاءت البنادق، والدبابات، والمروحيات والرجال. ولكن كما هو الحال في أي عملية سرية، كان إنشاء معارضة لدوداييف أكثر تعقيداً مما يعتقد، وسرعان ما ظهر جهل روسيا بهذه الجمهورية الصغيرة التي تحاول إخضاعها لسيطرتها.

وكانت أول مشكلة في قادة المعارضة أنفسهم. وكان أمراء الحرب أولئك - والذين كان يلتسن يدعوهم "القوات الصحية" - مجموعة من الشخصيات المشكوك فيها والتي سمح لها الكرملين بالقتال لاستئصال *عصابات دوداييف*. وتمّ تعيين عمر أفتورخانوف قائداً رسمياً للمعارضة، وهو شخصية من شمال الشيشان المؤيدة تقليدياً للروس، والذي كان يطير إلى موسكو ويلتقي مسؤولي الكرملين. ولكنه لم يكن يتمتع بتأييد واسع، ولم ينضم الكثير من الناس إلى ما اعتقدوا أنه جيش روسي بالوكالة. وإلى جانب أفتورخانوف، كان هناك بيسلان غانتيمروف، وهو رجل ثري في

الثلاثين من عمره، وكان مناصراً لدوداييف عندما كان عمدة لمدينة غروزني، ولكنه انقلب عليه فيما بعد. وكان هناك أيضاً رسلان لابزانوف السيئ السمعة والجابي الفاسد والمدان، والذي انقلب ضد دوداييف.

وواجه فتيل إشعال حرب أهلية مشكلة أخرى تمثلت في رغبة الشيشانيين أنفسهم بعدم حصول حمام دم. ويمتلك المجتمع الشيشاني وسائل عميقة الجذور في حل النزاعات الداخلية، كما أن اتفاق الآراء هو الطريقة التقليدية لحل المشاكل. ولطالما كرر الشيشانيون من كلا الجانبين على عدم حصول حرب أهلية واسعة النطاق في أمتهم من قبل، إلا أن البغضاء بين مناصري ومعارضي دوداييف تصاعدت خلال ذلك الصيف الحار. وكانت الولاءات مقسّمة بين القبائل المختلفة، ولم تكن هناك مساحة للجدال المنطقي، وساد حكم القبائل. ولكن رغم وجود بضع مئات من الرجال المسلحين، المزودين بالقنابل اليدوية، والذين يرتدون الملابس المموهة ويضعون النظارات الشمسية لدى كل من مناصري دوداييف ومعارضيه، إلا أن قتالاً بينهم لم يقع أبداً. إنها حرب زائفة!

ولأغراض الدعاية على الأقل، كان الوضع ملائماً لكلا الطرفين. وأثبت ما كانت موسكو تدعوه "نزاعاً شيشانياً داخلياً" أسوأ الشكوك الروسية بأن الشيشانيين شعب عنيف لن تقود ثورة استقلالهم سوى إلى الفوضى فقط. وأدّى تقديم الروس مساعدة عسكرية للمعارضة إلى وضع حجة قوية في يد دوداييف. ولمدة ثلاث سنوات، كان هذا الأخير يتبجح بأنه في انتظار خوض معركة قوقاز كبيرة أخرى، واستطاع عندها القول أخيراً بأن موسكو تستعد للغزو.

وكانت الكميات الكبيرة من المعدّات العسكرية، وولع الشيشانيين بالسلاح، والحلقة المستمرة من عمليات الثأر وتدخّل موسكو كفيلة بتصعيد الموقف. وفي أواخر أيلول، حصلت واحدة من أشرس المعارك التي شاهدتها لغاية الآن، ومات فيها 20 - 30 شيشانياً وهم يقاتلون بعضهم البعض تحت الشمس الحارقة على سفوح الجبال خارج قرية تولستوي يورت. وتمّ تفجير دبابة وحاملة جنود مدرّعة، وتصاعدت أعمدة الدخان الأسود نحو سماء الصيف الصافية. وأحدثت هذه المعركة صدمة حقيقية. وفي اليوم التالي في تولستوي يورت، تجمّع مئات المعارضين الذين يرتدون القبعات الشيشانية للقيام بمراسم الجنازة، ووقفوا في جماعات حول المقابر المفتوحة لأولئك القتلى. وحاول أحد الرجال إمساك نفسه عن البكاء فيما كانت المعاول تهيئ القبور. وصلّى الجميع، وتوجّهت أكفهم تضرعاً إلى السماء.

وقال لي أحد القرويين بوجهه الذي ملأته التجاعيد: "كان هناك خيانة"، وأخبرني عن قريب له تلقّى رصاصة في ظهره. "لم يحدث هذا قط في الشيشان من قبل. ونحن لا نطلق النار من الخلف". وطلبت رؤية خزبولاتوف، لكنهم أخبروني أن أحد أبناء عمومته قُتل وأنه في مجلس العزاء ولا يرغب برؤية أحد. ولدى عودتي إلى غروزني، كان جميع من تكلّمت إليهم، حتى رجال دوداييف الذين كانت نتائجهم أفضل في تلك المعركة، يشعرون بالصدمة. وقال صاحب أحد المطاعم ومناصر لدوداييف: "كم عدد القتلى؟ 30؟ هذا رهيب". لقد كانت تلك حرب أهلية لم يرغب بها أحد.

وبقي تفصيل واحد في ذهني من ذلك اليوم، ويتعلق بمدى الثقة التي ظهر عليها غانتميروف عندما رأيته في قاعدته في تولستوي يورت عند نهاية المعركة. وكانت لحيته طويلة وأنيقة، وشعره الأسود مسترسلاً خلف رقبته، ويضع مسدساً في حزام سرواله الجينز الجديد. ورغم أن جيشه الصغير قد تعرّض لضربة موجعة، إلا أن غانتميروف كان هادئاً بشكل مدهش كما لو أنه يعرف أن هناك مساعدة كبيرة في طريقها إليه.

وقد وصلت المساعدة بالفعل. وفي 26 تشرين الثاني عام 1994، انضم جنود الجيش الروسي النظامي ودباباته سراً إلى قوات المعارضة في محاولة منسّقة للاستيلاء على غروزني. واندفعت خمسون دبابة، بطواقم من المرتزقة الروس، إلى مركز المدينة وبدا كما لو أن الهجوم يجري كما هو مخطط له في البداية. وفي غضون ساعات، أعلنت وكالة الأنباء الروسية "إيتار تاس"، ودون أن تذكر القوات الروسية، عن استيلاء رسلان لابزانوف على القصر الرئاسي. ثم ظهرت الحقيقة: كان جيش روسيا السري هو من وصل فعلاً إلى مركز المدينة، ولكن ليدخل فقط في سلسلة من الاشتباكات المخططة سلفاً. وهرب لابزانوف ورجاله إلى تلال تولستوي يورت، تاركين خلفهم شوارع مليئة بالمدرعات الروسية المحترقة، وعدداً من الجنود الروس الأسرى. ووفقاً لحكومة دوداييف، مات 300 جندي روسي ومعارض شيشاني في تلك الموقعة. ورغم أن مناصري دوداييف يبالغون دائماً في تقديم خسائر العدو، إلا أن جميع من شاهد مركبات الجنود الروس ملقاة في الشوارع بعد تعرّضها للكمائن كان يعرف أنها معركة من طرف واحد.

وفي البداية، تملّصت السلطات الروسية بمن فيهم وزير الدفاع بافل غراتشيف، وأنكرت أي علاقة لها بالمعركة. وجاء رد فعل دوداييف بعرض 20 جندياً من القوات الخاصة الروسية أمام الصحفيين ومبعوثي البرلمان الروسي. وفي 28 تشرين الثاني، هدّدت الحكومة الثائرة بإعدام أولئك الرجال. وبالرغم من استمرار النفي الروسي، كان هناك اقتناع شعبي بأن "إف. إس. كي"، (الوكالة التي خلفت "كي. جي. بي" والتي عرفت لاحقاً باسم "إف. إس. ب") قامت بتجنيد أولئك الرجال. والأكثر من ذلك أنه تمّ تجنيد الكثيرين من فرقتي **كانتيميروبسكايا** و**تامانسكايا** التابعتين للجيش الروسي النظامي. ويقول أحد أولئك المجندين غير المحظوظين ويدعى نيكولاي بوتخين بأن القادة وعدوه بمبلغ 600 دولار أميركي مقابل الاشتراك في عملية سريعة لمساعدة الروس المعرضين للخطر في الشيشان. وتفيد تقارير أخرى بأن هؤلاء المرتزقة يجب أن يحصلوا على 1600 - 1900 دولار أميركي؛ وكل ذلك في جيش يعتبر الجنود العاديون فيه نظرياً عمالة كادحة ويعيش ضباطه في ظروف صعبة. وهذا هو ثمن الحروب السرية عادةً: عندما تسوء الأمور، تصبح مكشوفة للعامة بشكل مرعب.

وانهارت سياسة موسكو في الشيشان. وأصبحت تلك الإخفاقات المتمثلة في انهيار المفاوضات أولاً، وفي تنفيذ انقلاب عسكري لاحقاً معروفة لكل الأمة. وتمّ إغلاق الباب أمام أي حساب. ورغم أن دوداييف كسب المواجهة المباشرة الثانية مع الروس، إلا أنه لم يكن قريباً من إحكام سيطرته على الوضع. وظهرت الطائرات الحربية فوق غروزني بعد المعركة وقصفت المطار، وقتلت ستة أشخاص ودمّرت أسطول طائرات التدريب والطائرات الزراعية. وقاطع صوت قنابل القصف مؤتمراً صحفياً لدوداييف، ويتذكّر الصحفيون الذي حضروا في ذلك الوقت أنهم اضطروا للنزول تحت الكراسي عندها لينظروا إلى الجنرال الذي بقي هادئاً يجلس في مقعده. وأصرت موسكو على أن تلك الطائرات تعود *للمعارضة*، رغم أن ذلك الخيال الجامح كان غريباً في تلك المرحلة.

في 29 تشرين الثاني، وبعد ثلاثة أيام من كارثة غروزني، جلس يلتسن وحلقته الداخلية المؤلفة من عشرات المستشارين في الكرملين للتفكير في الخطوة التالية. ولم يكن ذلك بالاجتماع الحكومي العادي، وإنما كان اجتماعاً لمجلس الأمن السري. ونتيجة تمتعها بكامل السلطة والنفوذ، اتخذت تلك المجموعة الصغيرة من المسؤولين، والتي وضعت مصير الشيشان بين يديها، قراراً سريعاً: إرسال الجيش إلى هناك؛ والقيام بكل الأعمال؛ والغزو. وكان الغزو خطأ تاريخياً، لكنهم اتخذوا ذلك القرار بناءً على الوضع في ذلك الوقت. وكانت موسكو قد تجاهلت الشيشان مدة ثلاث سنوات، ولهذا لم

يكن أمامها الكثير من الخيارات. إما أن يعترف الكرملين بشرعية دولة الثوار ويفتح محادثات عالية المستوى مع دوداييف، أو أن يتابع في سياسة التدخل المباشر في شؤون تلك الجمهورية. وكان يلتسن يشعر بأن المحادثات مع دوداييف، والذي أهانه وروسيا مراراً، مستحيلة. وكان القيام بشن حرب سريعة وخادعة، في الجانب الآخر، خياراً مثيراً. وسيقوم الكرملين بمعاقبة الشيشانيين، وسيبدو يلتسن قوياً وتستفيد حاشيته بأكملها لأسباب مختلفة.

وكانت الحاجة إلى حل مشكلة خط أنابيب النفط العابر للقوقاز أحد العوامل الرئيسية التي زادت من الضغط على يلتسن للتحرك ضد الشيشان. وتمّ توقيع عقود الاستثمارات الضخمة في حقول النفط على الشواطئ الآذرية في أيلول من تلك السنة، وكانت صناعة النفط الروسية في سباق مع الزمن لتضمن اختيار خط الأنابيب الذي رسمته. وكان ذلك يعني إحكام السيطرة على الشيشان. وهناك قول سائد بأنه يمكن مد خط أنابيب للنفط حول الشيشان، ولكن تلك الخطة تعاني من مشكلة كبيرة، وهي أنها تحتاج إلى وقت طويل للتنفيذ قد يمتد لسنوات، وهذا يعني تطبيق سياسات تهدئة طويلة المدى.

وبكل الأحوال، وقفت العوامل السياسية خلف تلك الحرب. وخلال شتاء تلك السنة، كان تركيز يلتسن منصباً على حملة إعادة انتخابه سنة 1996، والتي لا تبعد أكثر من سنة ونصف، لأن شعبيته المتدهورة إلى أبعد حد وصلت إلى 8% فقط. وكان القوميون يكرهونه لأنه تسبب بانهيار الاتحاد السوفياتي، ومناصرو الديمقراطية يلومونه على فوضى السوق الحرة والإصلاحات الديمقراطية. ولهذا كان اتخاذ خطوات صارمة في هذا الجزء الصغير من الاتحاد الروسي هو حجر الزاوية في العودة إلى دولة النظام والقانون، وإنهاء حالة الفوضى أو "بارداك" التي تعصف بالبلاد. وكان يلتسن متفهماً تماماً للأحوال السياسية السائدة، ونجح في إدراك حنين سكان البلد إلى الإمبراطورية السوفياتية والعظمة الروسية. وسيتمكّن بعد إعادة الشيشان إلى الحظيرة الروسية من القول بأن تلك الدولة العظمى بأمان مع يلتسن. وأخيراً، سوف تتذكره الجماهير على أنه يلتسن الحامي.

وكان هناك عاملان سمحا للرئيس يلتسن بتنفيذ خطته الصبيانية المريضة. الأول هو القوة الذاتية الكبيرة التي تراكمت لديه بموجب الدستور الذي فرضه بالقوة سنة 1993. فلقد أصبحت الرئاسة بموجب ذلك فوق مستوى الشبهات، وتحوّل البرلمان ليصبح مجرد قاعة مناقشات، مما جعل يلتسن، مثل القياصرة والأمناء العامين للحزب الشيوعي في الكرملين قبله، حاكماً أكثر منه رئيساً. والعامل الثاني هو تأثّر يلتسن، مثل أي مَلَكية، بحاشيته المقرّبة، وخصوصاً بعد ظهور مشاكله الصحية وإفراطه في الشراب. وكان كل من يستمع إليهم يلتسن يتمتعون بنفوذ كبير ويتخذون كل القرارت الرئيسية تقريباً، ولم يكن هناك حاجة لاستشارات خارجة عن نطاق الكرملين؛ إنها سياسة الغرف المليئة بالدخان فعلاً.

وتلاشت حلقة يلتسن التي تشكّلت بعد الحقبة السوفياتية من الليبراليين المثاليين، والمناصرين للغرب والسوق الحرة بحلول سنة 1994، وتلاشت معها المعارضة للقيام بأعمال عسكرية في الشيشان. وتمّ إقصاء رئيس الوزراء الإصلاحي إيغور غايدار، ومستشار حقوق الإنسان سيرجي كوفالف، فيما استطاع وزير الخارجية أندريه كوزايرف رؤية التوجّه الجديد وغيّر من اتجاهه المناصر للغرب، قبل أن يتمّ إقصاؤه أخيراً. وبقيت الشخصيات الأخرى المعتدلة نسبياً في الكرملين، مثل نائب رئيس الوزراء سيرجي شاخراي، وكبير موظفي الرئاسة سيرجي فيلاتوف، والتي كانت تعتقد بأن إعادة النظام إلى الشيشان سيساهم في إعادة انتخاب يلتسن. وكان شاخراي الطموح نشيطاً

للغاية، ويأمل في الاستمرار مع يلتسن في حال نجحت تلك السياسة الدموية في إبقائه داخل الكرملين.

وكانت ما تدعى "جماعة الحرب" ضمن حلقة يلتسن الضيقة تقرع الطبول عالياً، وضمّت قادة القوى الأمنية، وضباط "كي جي بي" السابقين الذين تحولوا إلى سياسيين متشددين، ولكل منهم مصالحه ومشاريعه الخاصة. وكان هناك رأي مشترك بينهم أيضاً يقول بأن الحرب ستعمل على إفشال البرنامج الإصلاحي مما يؤدي إلى استعادة السيطرة على الداخل واتّباع سياسة خارجية متشددة، خصوصاً في الاتحاد السوفياتي السابق، وسيؤدي ذلك إلى تحقيق إمبراطورية جديدة في وقت قصير.

وكان *مجلس الأمن القومي* أداة القوة الرئيسية لتنفيذ مآرب الحاشية المتشددة، وهو تجمّع للوزراء وجميع قادة الأجهزة الأمنية. وفي ظل أمينه العام أوليغ لوبوف، الرجل القادم من مدينة يلتسن التي تدعى سفيردلوفسك في الأورال، وسّع المجلس من دوره الاستشاري باتجاه اتخاذ القرارات المصيرية. وأصبحت تلك المنظمة، التي كانت تجتمع خلف أبواب مقفلة ولم يكن لها دور في الدستور، واحدة من مؤسسات يلتسن الأساسية في إدارة البلاد.

ولم يكن جميع أعضاء *مجلس الأمن القومي* ضد عملية الإصلاح أو يفضلون شن الحروب، وكان رئيس الوزراء فيكتور تشيرنوميردن أبرز المعارضين لتلك الأفكار. ولكنّ أشخاصاً آخرين مثل وزيري الداخلية والاستخبارات السرية فيكتور يرين وسيرجي ستيباشن، كانا يديران النقاشات. وكان يرين، وإلى درجة أقل ستيباشن، صقرين فيما يخص الشيشان، ويدعمان دوراً حاسماً للدولة الروسية. وبالنسبة لهما، كانت الأزمات الداخلية تعني المزيد من القوة ومصادر التمويل ونهاية للإصلاحيين الليبراليين المكروهين. ومن الناحية الأيدلوجية، كانا يتلقيان الدعم من وزير القوميات (الأقليات العرقية) نيكولاي يغورف، والذي كان حاكماً لإقليم كراسنودار الذي يحد شمال القوقاز، ويحمل حقداً دفيناً تجاه القوقازيين.

وكانت وزارة الداخلية، والتي تعد منظمة مميزة بذاتها في بلد ديموقراطي، تبني جيشاً هائلاً لاستخدامه على أراضيها. وكان لدى الوزارة 250.000 جندي مؤهلين بالكامل، وحوالى 300.000 شرطي في روسيا بحلول سنة 1997، ولديها أيضاً أسلحة ثقيلة مثل الدبابات، والكثير من وحدات القوات الخاصة. وكانت تلك القوة تمثّل تناقضاً صارخاً مع حالة الجيش النظامي المنهار، وهي ظاهرة أصبحت أكثر وضوحاً عندما اندلعت الحرب الشيشانية. ورغم أن قوات الجيش النظامية تقوم بمعظم العمليات القتالية القاسية، إلا أن جنود وزارة الداخلية كانوا أفضل تجهيزاً باللباس والطعام والرواتب.

وتمّ تقليص وحدة "إف. إس. كي" (التي أخذت مكان كي. جي. بي) بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ولكن بعد مضي فترة من الزمن على رئاسة يلتسن، انعكست الصورة وتوسّعت مراكز الاحتجاز ووحدات المداهمة. وكانت الشيشان تمثّل مكاناً طبيعياً لتجرّب "إف. إس. كي" (والتي أصبحت "إف. إس. ب" لاحقاً) عضلاتها. ولم تحقق حربها الزائفة في ذلك الصيف النجاح المطلوب. وبكل الأحوال، كان الغزو الكبير الذي ينتهي بالنصر المؤزر، وبغض النظر عن أي فوائد أخرى، سبباً في تغاضي الناس عن المحاولة المحرجة لاجتياح غروزني في 26 تشرين الثاني.

وكان العديد من المسؤولين، الذين لم يكونوا أعضاء في مجلس الأمن القومي، في قلب الفريق المنادي بالحرب. وكان لأوليغ سوسكوفيتش، وهو رجل بالغ التأثير في الكرملين واحتل منصب

نائب رئيس الوزراء، علاقات واسعة مع المجمع العسكري - الصناعي، وكان يريد استعادة الدولة لسيطرتها على الداخل الروسي وخصوصاً الاقتصاد. وكان مسؤولاً خلال الحرب عن إعادة بناء غروزني وذلك من خلال مشروع فاسد اختفت فيه مبالغ مالية اتحادية كبيرة دون إعادة ترميم ولو مبنى واحد. وكان بوريس بيرزوفسكي شخصاً آخر من عالم المال، وأحد أساطير الصناعة في روسيا. وبعد أن تمكنت شركته **لوغوفاز** من شراء **أورت**، وهي أول محطة تلفزيونية قومية، في نهاية سنة 1994، تزايد نفوذ بيرزوفسكي في الدعاية المضادة للشيشان والتي أشعلت شرارة الحرب.

وكان هناك أيضاً رجلا أمن الكرملين أيام يلتسن، وهما رئيس الحرس الخاص ألكسندر كورزاكوف، وصديقه السابق في "كي. جي. بي" الجنرال ميخائيل بارسوكوف رئيس الحرس الرئاسي في الكرملين. ولم يكن أيٌّ منهما عضواً في مجلس الأمن القومي، لكنهما دعما فريق الحرب بشكل كبير. وكان لكورزاكوف خصوصاً تأثير كبير على يلتسن، وخدمه بإخلاص لعقد من الزمن. وقد استطاع كورزاكوف، المرتبط أيضاً مع بيرزوفسكي، إنشاء وحدة استخبارات جديدة من أعضاء "كي. جي. بي" سابقين، والتي أصبحت وحدة التحليل لدى الكرملين ونافذة يلتسن على العالم. وفيما يخص الأمن القومي الداخلي، كان رجل مثل كورازوف يستطيع فعل الكثير. وكان هناك تقارير بأنه وضع خططاً إضافية لإنشاء جهاز أمني آخر يدعى "حرّاس الأمة"، ويتألف من نخبة صغيرة من الأعضاء الذين يخدمون الكرملين ولا شيء سوى الكرملين.

وكان وزير الدفاع بافل غراتشيف شخصية محورية أخرى في اجتماعات مجلس الأمن القومي. وكان يلتسن، الذي أراد الغوص في الشيشان، بحاجة لغراتشيف ليخبره بأن الجيش مستعد لتلك العملية. وقام غراتشيف، الراغب بالاحتفاظ بمنصبه، بما أراده الرئيس بالضبط.

ورغم أنه محارب قديم في الحرب السوفياتية - الأفغانية، إلا أن غراتشيف لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية عندما قام بتلك القفزة المهنية الاستثنائية ليكون أول وزير دفاع بعمر 44 عاماً. ولغاية ذلك الوقت، لم يكن قد تولّى قيادة أكثر من فرقة عسكرية، وكان واضحاً أنه لم يكن على مستوى ذلك الدور المعقّد الذي يتطلب منه الإشراف على الانسحاب من أوروبا الشرقية وإصلاح القوات المسلحة. وكان غراتشيف يتمتع باحترام متفاوت الدرجة ضمن الجيش، ووجد آذاناً صماء من قبل الكرملين فيما يتعلق بزيادة الميزانية. ولم يمضِ وقت طويل حتى هاجمت وسائل الإعلام الروسية غراتشيف على خلفية اتهامات بالفساد في كل مفاصل القوات المسلحة التي فقدت معنوياتها. وبدأ الأمر مع ادعاءات بحصول عملية احتيال كبيرة خلال الانسحاب من "مجموعة القوى الغربية" في أوروبا الشرقية. وتمّ اتهام غراتشيف بعدها بالحصول على سيارة مرسيدس من أموال ميزانية إعادة تمركز القوات المنسحبة. واجتاحت موجة من الغضب البرلمان الذي طالب باستجوابه. وأخيراً في تشرين الأول 1994، مات ديمتري خولودوف، المراسل الشاب لصحيفة "موسكوفسكي كومسوموليت"، والذي كشف قصة الفساد، في تفجير استهدفه في موسكو. ولم يتمّ إيجاد القاتل أبداً.

وبعد معركة 26 تشرين الثاني للسيطرة على غروزني، أنكر غراتشيف دون مبالاة اشتراك القوات النظامية الروسية في الحرب. وقال: "إذا كان الجيش الروسي هو الذي يقاتل، سيتمكن فوج مظليين واحد من إنهاء كل المشاكل في ساعتين". وبالطبع، كان ذلك خداعاً. وكان غراتشيف يعرف حالة جيشه، ويعرف براعة المقاتلين الشيشان في إحراق الدبابات التي استعارها جهاز "إف. إس. كي" من الجيش، وخصوصاً بعد أن عرفوا أن المشاة لا يحمون تلك المركبات. وكان يعرف أن كل ذلك سيحدث مجدداً. وكان غراتشيف ضعيفاً جداً من الناحية السياسية، ولم يستطع مقاومة سطوة

"إف. إس. كي" ووزارة الداخلية وبقية مجموعة الحرب. وكان من الأسهل بالنسبة له أن يقوم بإخبار يلتسن بما يريد سماعه.

واستفاد غراتشيف من تلك المقامرة، مؤقتاً على الأقل. وحالما بدأت الحرب، لم يعد أحد يتحدّث عن فساد الجيش، أو عن المرسيدس، أو ديمتري خولودوف؛ وكان هناك شائعات عن ترقية غراتشيف إلى رتبة مارشال. واستطاع الجنرال الضخم البنية الاحتفاظ بمنصبه وتفادي الدعاوى القضائية ضده على حساب حياة الآلاف من جنوده الشباب.

وكان يلتسن قد اتخذ قراره. ولم يجرؤ سوى عضو واحد في مجلس الأمن القومي على معارضة الغزو العسكري، وهو وزير العدل يوري كالميكوف، والذي وصف لاحقاً كيفية طلب يلتسن من جميع الأعضاء أن يصوتوا بالموافقة قبل حتى أن يتناقشوا بالمسألة. وكان ذلك أسلوب التصويت الديموقراطي المعتمد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، مما يظهر أن بعض العادات لا تتغير أبداً. وصوّت جميع أعضاء المجلس البالغ عددهم 13 بالموافقة. ولم تلقَ احتجاجات كالميكوف في المناقشات أي آذان صاغية. وكما قال أوليغ لوبوف: "كان الكرملين بحاجة لحرب خاطفة ومظفرة".

وبعد يوم من اجتماع مجلس الأمن القومي، وقّع يلتسن مرسوماً يأمر "باستعادة الحالة الدستورية، وفرض النظام والقانون على أراضي جمهورية الشيشان"، والذي اقتبس تعابيره من اللغة القانونية الزائفة للسوفيات. ولم يتمّ إطلاع الأمة على المرسوم، وبدأ غراتشيف - الذي منحه المرسوم مهلة أسبوع واحد لتحضير الغزو - بحشد القوات على الحدود الشيشانية فوراً.

وتمّ إقصاء آخر الإصلاحيين في حاشية يلتسن، أو قطع اتصالاتهم الهاتفية عن الكرملين. ووصف أحد البرلمانيين الليبراليين لاحقاً أعضاء مجلس الأمن القومي بأنهم "مجموعة من المجانين"، فيما وصف مستشار الرئيس إميل بين القرار بأنه "مغامرة تآمرية". وقال غايدار، رئيس الوزراء السابق: "إذا تمّ الضغط على هذا الزر، سنرى بكل تأكيد انهيار المؤسسات الديموقراطية في روسيا". واستقال كالميكوف الذي صدف أنه شركسي من العرق الأديجي.

وفي غروزني، كان جوهر دوداييف، بأوهامه واستخفافه التام بالديموقراطية، يتحمّل بشكل خاص مسؤولية ما سيحدث. وقد وقع ضحية للدب الروسي عندما كان هناك فرص للمفاوضات، وهدّد بالحرب عندما كانت التسوية السياسية قادرة على حفظ السلام. وبدأ حكمه بإطلاق تهديد في تشرين الثاني عام 1992 بتفجير محطات توليد الطاقة النووية الروسية، وهدّد عشية الحرب في تشرين الثاني عام 1994 بقتل الأسرى فيما كرّر وزير خارجيته التهديد المتعلق بالمحطات النووية. ولم يكن ذلك التباهي بالنسبة لدوداييف سوى تكهّن بما سيحدث لاحقاً. ولكن اللوم الحقيقي لا يتحمّله سوى بوريس يلتسن وحده. ورغم ادعائه بتمثيل دور المصلح العظيم، إلا أن يلتسن فشل في اقتباس المثل الفرنسي **النبالة تقتضي الشرف**، ورفض السمو عن مستوى الإهانات التي وجهها له دوداييف. ولم يقم بدعوة القائد الشيشاني إلى الكرملين في بداية تسعينيات القرن العشرين، كما أنه لم يسافر إلى القوقاز عشية الحرب ليجلس على نفس الطاولة ويحاول التوصل إلى حل ممكن مع خصومه. وبالنتيجة، كان دوداييف رجلاً مزهواً بنفسه، وكان سيوافق في حال وجد بعض التكريم الرسمي على تسوية ما لجمهوريته. ولكن يلتسن، الفاشل هو أيضاً، والشديد العزم على الاحتفاظ بالسلطة، والذي كان يستمع للأكاذيب من حاشيته، رفض الفكرة.

وفي نهاية تشرين الثاني، تمّ نشر رسالة من قادة شمال القوقاز يطلبون فيها من يلتسن: "المسؤول عن الدستور الروسي، وحقوق الإنسان والمواطنين والحريات بأن يتخذ كل التدابير اللازمة لفرض النظام الدستوري، والدفاع عن حقوق المواطنين والمصالح القانونية، خصوصاً حقي

الحياة والأمن". ووقع على تلك الرسالة، المكتوبة في موسكو والتي تعتبر دعاية كلاسيكية، قادة مناطق كل من أديجي، وكاراشاي - شركسيا، وكاباردينو - بالاكاريا، وأوسيتا الشمالية، وستافروبول، وكراسنودار وروستوف. وغاب عنها توقيعا كل من القائد الداغستاني ماجومد علي ماجوميدوف والأنغوشي رسلان أوشيف. وقال أوشيف لاحقاً: "فهمت أنه بعد هزيمة المعارضة الشيشانية، كان على قوى الكرملين أن تفعل شيئاً بسرعة. وأظهرت تلك الورقة ما يتوجب القيام به. وقرر بلد عظيم معاقبة الشيشان الصغيرة".

وفي 9 كانون الأول، وبعد القرار السري بشن الحرب في اجتماع مجلس الأمن القومي، أصدر الرئيس يلتسن مرسوماً عاماً يأمر فيه القوات المسلحة "بنزع سلاح كل الوحدات غير الشرعية"، كما وصفها البيان. واتجه كل من غراتشيف ويرين إلى الحدود الشيشانية للانضمام إلى يوغوروف وستيباشن.

وفي 10 كانون الثاني، اختفى يلتسن في إحدى المستشفيات ليقوم بما وصفها الكرملين *عملية في الأنف*. وفي اليوم التالي، اجتاح جيش مؤلف من 30- 40.000 جندي ما زالوا تحت التدريب في أرتال مسلحة حدود الشيشان الواسعة والمكسوة بالثلوج. ولم يعش الكثيرون منهم ليحتفلوا بأعياد الميلاد حسب توقيت الطائفة الأرثوذكسية.

غروزني

التقيت في أيلول سنة 1994، أثناء حفل استقبال بفندق "القفقاز" في ساحة غروزني الرئيسية، بثلاث نساء مسنّات صامتات، ورجلين يحمل كل منهما بندقية، ومراهق تتقد عيناه شرراً ويحمل قاذفة صواريخ مضادة للدروع. وكنت النزيل الوحيد هناك، ومقابل 7 دولارات حصلت على *جناح مترف* له نوافذ تطلّ على القصر الرئاسي.

وجرت عملية تجديد كبيرة لفندق "القفقاز"، وكنت واحداً من أوائل النزلاء. وكانت واجهة المبنى مطلية باللون الوردي، مع شرفات بيضاء مقوّسة على كامل الطابق الأعلى. وفي الداخل، كانت قاعة الانتظار سوفياتية الطراز، وتشبه ردهة دار الجنائز، مع وجود الكثير من الرخام، ومرايا كبيرة تبدو عديمة الفائدة في الظلام.

وقد يكون *الجناح المترف* مستوحى من فيلم إثارة، إذ كان هناك غطاء من الساتان الوردي فوق السرير الكبير، وسجاجيد جميلة على الأرض، فيما تبدو الصنابير الذهبية في غرفة النوم كما لو أنها تعصر الشراب وتوفّر حمام الرغوة. وقد فتحت إحداها، ولكن لا شيء: لا شراب ولا رغوة ولا حتى ماء. وكانت هناك رائحة كريهة تأتي من الزاوية. وفتحت غطاء المرحاض وأدركت أن المياه مقطوعة عن الفندق منذ وقت طويل جداً.

وعندما تقدمت بشكوى في الطابق السفلي حول الماء، ضحك الرجلان اللذان يحملان السلاح، وصاحت إحدى النساء المسنّات قائلة: "أنا خجلة مما يحدث. ولو كان الأمر باستطاعتي، لكنت استضفتك في بيتي". وشعرت بالأسى لأنني جعلتها تصرخ، وشدّدت على أن الماء ليس بمشكلة فعلاً. وقال أحد الرجلين اللذين يحملان السلاح: "مترف!"، وضحك الآخرون فيما أسقط الغلام قاذفة الصواريخ التي يحملها على الأرض بضوضاء كبيرة.

واغتسلت في ذلك المساء باستخدام نصف دزينة من قوارير المياه المعدنية الروسية التي كان الكشك القريب من الفندق يبيعها إلى جانب كل أنواع الشوكولاته ولفائف التبغ الغربية، وذلك رغم الحصار المفروض على البلاد منذ ثلاث سنوات تقريباً.

وكان النوم مستحيلاً. فقد اختار البعوض *الجناح المترف* مهداً له، فيما انكمشت تحت الملاءة أتصبب عرقاً. ومن الخارج، كنت أستطيع سماع أصوات إطارات السيارات التي يقودها الشبان في السباقات. قتلت بعض البعوض، مما ترك بقعاً من الدم على الجدران المطلية باللون البيج، واتجهت بعدها إلى الشرفة. ومرّت في الظلام حاملة جنود مدرّعة مليئة بالرجال، الذين يضعون رباطاً للرأس وأحزمة ذخيرة على أجسادهم. وتبدو الأحاديث المنفعلة في الشيشان كما لو أنها ستؤدي إلى حدوث مشاكل، ولكنها تنتهي دائماً بالضحك.

وحوالى منتصف الليل، حاولت النوم مجدداً، ولكن صوت التلفاز في الممر كان عالياً جداً. وخرجت من غرفتي لأجد جنديين مواليين لدوداييف مستغرقين في النوم أمام الجهاز، ويمسك كل منهما برشاش كلاشينكوف. وكانت إحدى الخادمات تمسح الممر. وتفاجأت لرؤيتها في ذلك الوقت، خصوصاً أنه لم يكن هناك نزلاء غيري. واقتربت مني وسألتني فيما إذا كانت تستطيع التحدّث إليَّ. وأضافت: "ليس هنا"، مع إشارة نحو الرجلين المسلحين النائمين.

وذهبنا إلى غرفتي. وكانت امرأة شقراء روسية، في الثلاثين من العمر، ووجهها بالغ الجمال رغم ظهور بعض التجاعيد عليه نتيجة للظروف السائدة. وقالت لي: "لا أطيق الوضع عندما يأتي هؤلاء الجنود إلى هنا لأنهم يخيفونني". وسألتها: "ما الذي يفعلونه؟"، وهو الشيء الذي لم أكن قادراً على تحديده طوال اليوم. وقالت ببساطة: "إنهما يعيشان هنا". وأكملت: "هل تعرف نوع الحياة التي نعيشها هنا؟ لم أتلقَ راتبي منذ شهور، ولكني عاجزة عن فعل أي شيء. وأنا خائفة وأريد مغادرة هذا المكان."

وسألتني إذا كنت أستطيع اصطحابها إلى موسكو. "لديّ ابنة صغيرة، لكننا نستطيع القيام بشيء ما. وإذا بقيت معك في البداية، سوف أستطيع الوقوف على قدمي". وأخذت بيدي، ووضعت ذراعي حولها. ولكني كنت حديث العهد بالشيشان لأختبر المأساة. وكان الأمر شبيهاً بمحاولة تهدئة شخص يبكي ولكنه لا يعرف اللغة التي تتحدث بها. ولم أفهم سوى متأخراً سبب حزن فندق "القوقاز"، والخادمة الروسية، والمرأة العجوز في قاعة الاستقبال، والحرّاس النائمين، والغرف الفارغة. وانتابني شعور مفزع بأن كل هذا سرعان ما سيذهب، وينفجر ويتلاشى في بحر من النيران.

الفصل الخامس
الغضب

... إن المرء يفضل القول إن: "المعركة هي شيء يحصل بين جيشين، والتي تؤدي إلى الانهيار الأخلاقي ومن بعد ذلك الجسدي لأحدهما أو لكلاهما؛ وهذا أقرب ما يكون لتعريف عملي للمعركة والذي من المحتمل أن يدركه المرء...".

من وجه المعركة، جون كيجن.

1. رأس السنة الجديدة

"تذكروا أن هدفنا المشترك هو أن نساعد الشعب الشيشاني، كي ينجو من البلاء الذي حل به، ومساعدته على استرجاع الحياة الطبيعية والمستقرة والهادئة ... إن مهمتكم المحددة هي أن تجردوا قطاع الطرق من السلاح وجعلهم يستسلمون، أو تقوموا بتدمير أسلحتهم الثقيلة. أنتم تتمتعون بحماية الدولة والدستور الروسي، وتتمتعون بحماية الرئيس الشخصية."

الرئيس بوريس يلتسن في خطابه الموجه للقوات المسلحة في 27 كانون الأول، قبل أربعة أيام من اقتحام غروزني.

لقد بدأ الوميض الأول والرئيسي للغارة الجوية على غروزني بعد وصولي بساعتين. فقد قدنا السيارة طيلة الليل من داغستان عبر طرقات يسيطر عليها الثوار، وتفادينا الوحدات المسلحة الروسية، وقمنا بدخول المدينة عند الفجر. كان هناك غارة جوية على المدينة خلال تلك الليلة، وحالما وصلنا شاهدنا حطاماً حديثاً، وزجاجاً محطماً، وتقاطعات مغمورة بالمياه المتدفقة من الأنابيب الرئيسية المكسورة. التف العديد من الناس حول مكان سقوط قنبلة. وكان هناك بقع دماء خارج مطعم أوكين المحطّم، تحولت إلى متاهة لآثار أقدام حمراء متجمدة.

في الأحياء الشرقية من المدينة، كانت القنابل قد حطمت صفاً من الأكواخ عند تقاطع الطرق. تجمع حشد من الناس عند بقايا أحد المنازل التي دفُنت امرأة تحت حطامه. كان الحطام مثيراً للشفقة - كتاب لفن الطبخ، حقيبة ملابس مكسورة، فراش، خزف صيني مكسور، دمية مغطاة بالغبار - ومتناثراً على الطريق أو بارزاً من كومة قرميد أو حجارة. قام الصحفيون بالتقاط الصور، بينما حاول المتفرجون إيجاد الجثث.

استمرت الغارات الجوية خلال الليل، وكان المدنيون في غروزني يختبئون في الليل، ويستأنفون أعمالهم في النهار. وكان ذلك هو الميثاق غير المكتوب. وفي أول صباح من تغطيتي لأجواء الحرب لصالح وكالة الصحافة الفرنسية في 22 كانون الأول، كان هناك العديد من الناس والسيارات في الشوارع. وعلى الرغم من التفجيرات الليلية، كانت تسود حالة طبيعية في الأجواء، أو على الأقل كان هناك أشخاص يحاولون التعافي بصورة طبيعية.

في الساعة العاشرة صباحاً، كان هناك صوت طائرة. رفع الناس أبصارهم إلى السماء الممتلئة بالغيوم، وشاهدوا مقاتلة بعد أخرى حتى أصبح من الصعب تمييز ضجيج المحركات المختلفة. حامت الطائرات عالياً فوق الغيوم إلى أن أصبحت غير مرئية، ولم يعد الناس يسمعون سوى الصوت: الهدير العنيف للطائرات المقاتلة تحوم في الأجواء، والصراخ المثير لدى انقضاض تلك الطائرات. بدأ القصف، وهرب الناس. كانت الانفجارات مثل قصف الرعد، وتحدث في كل اتجاه، ويصدر عنها صدى كبير عبر ساحات وشوارع غروزني. وأخيراً، كانت هذه غارة جوية في وضح النهار.

لم أشهد حرباً من قبل، ولغاية الآن لا أستطع تصديق ما حصل. حدّقت في الأجواء الفارغة مذهولاً من الضجيج. وبعد ذلك، بدأ الدخان يتصاعد من أماكن عديدة في المدينة. وركضت مع زميلي كريس بيرد من الأسوشيتد برس عبر مركز المدينة باتجاه أقرب مركز يتصاعد منه الدخان. وكان يجب عليّ أن أراه لأشعر بأنه حقيقي. منع الركض كل الأصوات عدا صوت التنفس إلى أن حلّقت طائرة فوق رؤوسنا بشكل مباشر مما جعلني مذهولاً وألهث مرتبكاً. أخيراً، شعرت بالخوف.

كلما اقتربنا أكثر من مصدر الدخان كلما ركض الناس بالاتجاه الآخر. كانت تعابير الجميع متشابهة؛ وجوه مرتبكة متوترة، وعيون تستشيط غضباً. مضينا قُدماً، وكانت هناك سيارة وشاحنة تحترقان بجانب الجسر فوق نهر سونزها بجانب معهد النفط، وكان الدخان الأسود يتصاعد من ألسنة اللهب الحمراء. إلى جانب المعهد، كانت هناك حديقة صغيرة وأشجار ممزقة فيما اتسخ الثلج بالسواد. تعثّرت تقريباً بجثة على الرصيف، ثم رأيت جثة ثانية والمزيد من الدماء تجري من الشجيرات. كان رأس كلا الجثتين مقطوعاً، ولم يكن هناك أي أثر للرأسين وإنما مجرد رقاب مبتورة ودماء متخثرة في الثلج. وشعرت باشمئزاز، لم أستطع النظر إلى المركبات المحترقة لتفقّد الضحايا. وركضنا عائدين فقد كانت الحرب حقيقية.

كان ذلك اليوم الذي قابلت فيه باول لوي، مصور وكالة ماغنوم. كنت في غرفة الفندق لتوثيق أخبار الغارة الجوية عبر تلكس فضائي محمول عندما ركض للداخل، وكانت الأوساخ تغطّي وجهه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وكل ما قاله: "مجزرة، مجزرة حقيقية، أشلاء الجثث في كل مكان". كان ذلك قاسياً للغاية فقد قصف الروس من جديد ذلك التقاطع في ميكرورين، حيث كان الناس يبحثون عن جثة امرأة في الليلة الماضية. تماماً في نفس المكان. وقتلت الشظايا 15 - 20شخصاً، من بينهم المصورة الأميركية سينثيا إلبوم الجميلة الوجه، والتي تبلغ من العمر 28 عاماً والتي كانت إحدى أول 20 صحفياً يلقون حتفهم في الحرب. وكانت موجودة في مساحة مكشوفة عندما أطلقت الطائرة صواريخها. نجا بعض الشيشانيين، بالإضافة إلى باول، ومصور آخر، وستيف لمان، لأنهم اختبئوا خلف جدار على بعد بضعة أمتار فقط.

وعندما وصلت إلى هناك كانوا يقومون بإزالة الجثث. أصابت الصواريخ خمس سيارات كانت تمر أثناء الغارة. شاهدت ذراعاً تمتد يدها السوداء النحيلة المفتوحة مثل مخلب باتجاه السماء من سيارة لادا محترقة. في الاتجاه الآخر، جلس سائق في منتصف العمر، ميتاً خلف المقود، متراجعاً للخلف، وعشرات الشظايا تملأ وجهه، ودموع حمراء على جلده الرمادي اللون. مشت امرأة يافعة عبر البرك الصغيرة الممتلئة بزيت السيارات والدماء وفي الطين والثلج حيث سمعتها تقول: "هذا كابوس، كابوس، كارثة".

وفي ذلك الصباح، قامت كل الفرق الصحفية تقريباً بمغادرة غروزني، بعد أن وضعت المعدات في حافلة إجلاء خاصة. كان ضجيج الطائرات يملأ السماء، فيما الخوف والذعر يملأان الجو. لقد كان مشهداً مزعجاً.

"لا تستهدف الضربات الجوية سوى المواقع العسكرية التي تنطلق منها النيران."

رئيس الوزراء تشيرنوميردين.

"يقوم الشيشانيون بتدبير الانفجارات في المناطق السكنية."

مجلس الأمن القومي في الكرملين.

كنت أشاهد التلفاز في موسكو، عندما عبرت القوات المسلحة في البداية الحدود الغربية للشيشان ثم الشمالية - الغربية والشرقية في منتصف كانون الأول. وكان طول أرتال عربات الجند المدرّعة والدبابات يبلغ عدّة أميال، وكانت تخترق السهول المغطاة بالثلج بمرافقة المروحيات التي تحوم على

ارتفاع منخفض فوق أعمدة الهاتف. كان هناك شاحنات محملة بالجنود، وكان العلم الروسي الثلاثي الألوان الأحمر والأبيض والأزرق يرفرف على الهوائيات. لقد كان ذلك أكبر انتشار قتالي للقوات المسلحة الروسية منذ الحرب السوفياتية في أفغانستان، وكان منظر تلك الأرتال المدرعة يبهر الأنظار.

بالطبع، كنت أعرف - والجميع يعرف - أن جيش القوة العظمى السابقة في مأزق. لقد كان ذلك الجيش يخسر آلاف القتلى سنوياً لأسباب غير حربية، وكان بعضها يعود للحوادث ومعظم الحوادث كانت الانتحار أو الموت أثناء التدريب. وعلى سبيل المثال، مات 2.824 جندياً سنة 1992 وفقاً للتقارير الرسمية، و40.000 وفقاً لتقارير غير رسمية. لقد كان الضباط الفقراء الذين انسحبوا من أوروبا الشرقية، يعيشون في عربات السكك الحديدية، والخيم، والقاعات العامة أو في السفن. تحوّل المجندون المراهقون، الذين يتقاضون خمسة دولارات في اليوم (إذا كانوا محظوظين) إلى عبيد فعليين، يعملون في بناء الطرق المدنية، وقطف الملفوف، وجني محصول البطاطا. لقد كان بعض هؤلاء المراهقين يبيع الأسلحة أو يتسول للحصول على الطعام، كان الجنود قريبين من الموت جوعاً، ويتعرضون للصقيع الشديد أو ينفلتون من عقالهم، ويقتلون رفاق سلاحهم في قواعدهم المعزولة. كان وزير الدفاع بافل غراتشيف متورطاً في الكثير من الفضائح التي تخص الجيش، وكنت أعرف كل هذا.

لقد كانت هناك علامات تحذير أخرى. وحتى بعد أسبوع من العمليات، كان التقدّم الروسي الثلاثي المحاور باتجاه غروزني بطيئاً. لم تكن هناك أي جهود لمحاصرة الطرف الجنوبي للمدينة، وهو الطرف الأكثر صعوبة، والأهم استراتيجياً لارتباطه بالأرياف والقرى في جنوب الشيشان التي يسيطر عليها الثوار. لم تظهر أي علامات تردد على الشيشانيين. في كل مكان من غروزني، كان الشعار يقول: "الحرية أو الموت". وكان دوداييف جريئاً، ولم يكن يعاني من نقص في المقاتلين المتطوعين - البويفكس، أو المحاربين في روسيا.

بشكل لا يصدق، رفض بعض جنرالات الأمة الاشتراك في الحرب. وتمرّد الجنرال إدوارد فوربيوف، نائب قائد القوات البرية الروسية، على إعلان الحرب وقال إن الجيش ليس مستعداً. وشجب الجنرال بوريس غروموف_ الذي يتمتع باحترام كبير في الجيش وقاد الانسحاب السوفياتي أفغانستان_ الحرب. وهذا ما فعله زميل غراتشيف الجنرال المظلّي ألكسندر ليبيد ونائب وزير الدفاع الجنرال فاليري ميرونوف. حتى الجنرال إيفان بابيتشيف، والذي قاد أحد الأرتال الثلاثة المتقدمة نحو غروزني، فقد رفض بشكل مؤقت أن يمضي قدماً، لأن طريقه كان مكتظاً بالمدنيين، وقال: "ممنوع استخدام السلاح ضد المدنيين المسالمين. وممنوع إطلاق النار على الشعب".

ولكن الفرق كان مثيراً للضحك، فقد كان عدد سكان الشيشان بأكملها أقل من مليون نسمة، وكانت مساحة الجمهورية قرابة 150.000 كم[2] أي أصغر من ويلز أو صقلية. ويمكنك أن تنتقل من جهة إلى أخرى في غضون ساعتين فقط. وكان تعداد القوات المسلحة الروسية قرابة 1.7 مليون جندي، ويصل العدد إلى 2.4 مليون جندي إذا ما أضفنا قوات وزارة الداخلية وحرس الحدود. إلى جانب ذلك، كانت دعاية الكرملين - أن الهدف هو إعادة النظام الدستوري، ونزع سلاح العصابات المسلحة الخارجة عن القانون - تتكرر كثيراً لدرجة أنها أصبحت تبدو نصف حقيقية. ولم يعد الكرملين يقول كلمة الحرب، ولم يعلن حالة الطوارئ، بل قام بتعطيل الحقوق الدستورية. ولم تكن تلك الحرب سوى غارات الشرطة على أحياء المسلمين العنيدين.

لم يكن الجيش الروسي قد تعرض لأي اختبار منذ أيام أفغانستان، ولكن بالنسبة للغريب، كانت تلك الأسلحة الخضراء على التلفاز تبدو بأنها لا تقهر. كان العدد الكبير من الرجال والآليات يبدو ساحقاً، وكان هناك شعور محرج لرؤية تلك المطاردة. ستقوم القوات المسلحة الروسية بإعادة النظام بأسلوبها المميز. كان هناك أحد المصورين الصحفيين، الذي يبدو أنه شهد الكثير من الحروب، يشاهد التلفاز معي وقال: "إننا في المكان الذي يجب أن لا يتواجد فيه المرء عندما يتحركون حقاً. هل تدرك ما تستطيع تلك المروحيات فعله؟".

لقد تحطّمت غروزني - التي بناها الجنرال الروسي سنة 1818_ بفعل القصف الذي أمر به الرئيس يلتسن. بدأ السكان الذين وصل عددهم إلى 400.000 نسمة بالتلاشي، وخرجت أرتال اللاجئين إلى الجنوب غير المحاصر، بعد أن أخذوا معهم ما استطاعوا أن يحملوه في سياراتهم فقط، حيث جلس الأطفال في الخلف شاحبي الوجوه ومتوتري الاعصاب. فيما جلست الكلاب التي تخلى عنها أصحابها على طول الطريق تنتظر رجوع أصحابها، وتحوّل بعضها إلى كلاب متوحشة، وشكّلت جماعات، وتجولت في الشوارع الخالية. ولم يستطع قرابة 120.000 شخص المغادرة، لأنه لم يكن لديهم المال ولا الأقارب لمساعدتهم على الفرار أو لأنهم لم يمتلكوا العاطفة ليتخلوا عن أوطانهم. وكان معظم الباقين من أصول روسية، الذين لم تكن لديهم علاقات عائلية كبيرة في الأرياف بعكس الشيشانيين. وتعرّض الروس، الذين وعد يلتسن بحمايتهم، للقتل من سلاح طيرانهم.

بالانتقال المدهش والسريع من عدم التصديق إلى القبول، تعلّم أهل غروزني العيش مثل البشر البدائيين، لقد كانوا ينامون تحت الأرض، ولا يفكرون سوى بالبقاء. توقفت إمدادات الكهرباء والمياه، لذلك أخذ الناس يستخدمون الثلج، ويتجمعون متجمدين حول الشموع ومصابيح الزيت. لم يخرج الناس من منازلهم ما لم يكونوا مضطرين لذلك. وأصبحت الشوارع الواسعة والمحميات الكثيفة الأشجار خالية تماماً، وكان الظلام يخيم على المدينة في الليل. وأخليت المستشفيات، إلا أن الأطباء استمروا بالعمل في حالات الطوارئ، وكان هناك طاقم خاص للإنقاذ، يتفقّد المواقع التي تتعرض للقصف، ويقوم بانتشال الجثث الممزقة. وفي بعض الأحيان، كانت العمليات تجري على ضوء الشموع.

في فترة الميلاد حسب التقويم الغربي، كنت أقيم في غروزني مع ستة صحفيين آخرين. كان الآخرون ينامون في أنغوشيا أو داغستان، ويقودون سياراتهم ذهاباً وإياباً كل يوم. كنا نعتقد أننا نستطيع تغيير شيء ما. كان الأمر بسيطاً: كان يجب علينا أن نكتب ما يحدث خلال إعادة النظام الدستوري، وسيتحرك العالم بعدها. عند المساء، كنا نتجمع حول المذياع، لكي نستمع إلى الأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية، والتي كانت في بعض الأحيان، تقتبس من تقاريري التي أرسلها لوكالة الصحافة الفرنسية، مما جعلني أتأكد أن هناك فائدة من عملي. في بعض الأحيان، كنا نسمع بأن واشنطن أو لندن قد شجبت التفجيرات أو حثّت موسكو على إنهاء ذلك الجنون، وكنا نشعر بارتياح كبير لدرجة أننا احتفلنا في إحدى الليالي. كان ذلك عملاً ساذجاً. لم نكن قد فهمنا بعد مدى ضآلة تأثير تقاريرنا، وأن المجتمع الدولي لن يتخذ خطوات عملية لوقف تلك الحرب.

في إحدى الليالي، قصفت الطائرات مجموعة من الأبنية السكنية التي تقع في آخر الشارع الذي يتواجد فيه فندقنا، والمسمى البيت الفرنسي. تسببت الانفجارات بتحطيم زجاج نوافذنا، وأرسلتنا بخطى حثيثة إلى القبو. في الصباح، مشيت في الشارع ورأيت أن القصف دمّر مبنيين سكنيين. في وسط الأنقاض، جلست امرأة مسنة، وبجانبها كرسي خشبي عليه بطانية صفراء وعند أسفل قدميها جثتان. وكان اسمها آنا فولكوفا وهي روسية. قد اختفى الطابق الرابع بأكمله حيث كانت شقتها. كانت

تتأرجح للأمام والخلف على كرسيها الصغير بين أكوام القرميد والأثاث المحطم. وكانت الجثتان، تعودان لابنها المتوسط العمر وزوجته النائمة إلى جواره، كانا يبدوان وكأنهما على قيد الحياة، وكانت يداهما متلامستين تقريباً، ووجهاهما للأعلى. وكان يوجد إلى جانبها كتاب أسود اللون؛ ربما كان الإنجيل المقدس. لم يكن هناك شيء آخر.

قالت المرأة المسنّة: "كنت أجلس على الأريكة عندما سألتني زوجة ابني عن الوقت. حسناً، كانت الساعة في المطبخ، ولم يكن هناك كهرباء، لهذا أعطتني مصباحاً، لأذهب وأرى. عندما خرجت من الغرفة، انفجرت قنبلة. عندما استعدت وعيي وجدت نفسي بين الأنقاض". إن الحياة والموت مجرد فرصة.

في المستشفيات، بدت الدماء في الشوارع، وعلى الثلج، وفي أعلى السلالم، وأسفل الممرات المتجمدة المهجورة. لم يكن لدى الأطباء سوى القليل من الأدوية أو العقاقير، وكانوا يعرفون بأن القنابل ستضرب المستشفى، ولهذا بدأوا بإرسال الجرحى إلى خارج المدينة؛ إلى القرى. غالباً ما كان هؤلاء الأطباء، الذين لا يتلقون أجوراً، ويتناولون طعاماً سيئاً ويتعاملون مع مجموعات من الجثث الممزقة، يثرثرون بكلام غير مفهوم عندما نجدهم في الصباح. كانت معاطفهم البيضاء ملطّخة ببقع دم حمراء، لقد أصبحت عيونهم سوداء، وفاحت منهم رائحة الكحول.

صرخ أحد الأطباء وهو يهتز غضباً وإرهاقاً: "كيف يمكنهم فعل هذا، كيف يمكنهم تفجير النساء والأطفال كل يوم"، ورفع البطانية عن جثة ولد صغير موجودة في الممر وقد اخترقت مقذوفة صدره، كان الولد لا يزال يرتدي سترته الخارجية وقبعة التزلج عندما مات. قال الطبيب: "إنهم فاشيون". ثم أمسك بيدي وأراني الصبي، ووجه لي أمراً: "لا تنسَ مطلقاً ما رأيته الآن. عدني بذلك".

في المشرحة المؤقتة في مستشفى الجمهورية الأول، وضع العاملون هناك الجثث المجهولة الهوية في صف واحد، وقد كانت برودة الطقس تحميها من التحلل. في الغرفة الأولى، كان هناك قرابة 50 جثة تكومت مثل الخشب، مسودة اللون، وكانت معظمها عارية، وتفتقد لقدم أو ذراع مثل تماثيل عرض الأزياء. لم أنظر إلى ما يوجد في الغرفة الثانية. إلا أنه لم يكن هناك من خيار آخر يحول دون بحث الأقارب عن جثث أقاربهم في كل الغرف. كانوا يأتون على شكل جماعات خائفين من أن تقضي عليهم الغارات الجوية وهم خارج أقبيتهم. ورغم أنني كنت أعرف أنها ما يدعوه الصحفيون بالقصة الجيدة، إلا أنني لم أمتلك الشجاعة للتحدث إليهم.

وبطريقة ما، بقينا نعتقد أنه سيكون هناك حدّ وأن الجنون يجب أن ينتهي. كان الأبرياء عالقين هنا لأن الحقيقة غير مقبولة بالنسبة لهم. عندما أخبرني أحد الأطباء مع ريتشاد بيستون في صبيحة أحد الأيام بأن دار الأيتام قد تعرّضت لقصف مركّز، نظرنا إلى بعضنا، وفكرّنا بنفس الشيء: مستحيل. إن دار الأيتام خلف ذلك الحدّ.

لكن الطبيب كان محقاً. كان أحد جوانب دار الأيتام المؤلف من خمسة طوابق في شمال غروزني مدمَّرا بالكامل، مما ترك الغرف الداخلية مكشوفة مثل بيت الدمى. أصبحت الحديقة سوداء اللون جراء الحريق، وفقدت تماثيل الحيوانات فيها رؤوسها، وتحولت المراجيح إلى رماد. كان هناك صاروخ لم ينفجر بعد في ما كان يدعى بالملعب. نزلنا إلى القبو، فوجدنا أن 40 يتيماً قد نجوا. قال المعلمون إن الهجوم كان سيطال كل الأطفال الذين يخرجون إلى الحديقة للعب فيما لو حصل بعد نصف ساعة فقط. لقد تفادى الجميع حصول مجزرة. كان من الواضح أن الرعب قد أصاب

الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم الثماني سنوات، ولكن الصغار ضحكوا لأنهم اعتقدوا أن هناك لعبة أخرى في الملعب.

بعد أسبوع أو شيء من هذا القبيل، بدأ كل ذلك يبدو طبيعياً، فقد أصبح الموت مألوفاً. عندما ضربت القنابل مبنى البرلمان المقابل لقصر الرئاسة، لم يكن الشيشانيون يعتقدون بأن مجرد رؤية الجثث برهان كافٍ، "لقد جعلونا نمشي فوق الجثث المنتشرة على الدرج، ونتفحّص الأدمغة التي تبعثرت على الجدران والأرض. لقد رفضنا، ولكنهم أصرّوا. وكان يجب علينا أن نرى الأدمغة. هذه أدمغة، تستطيعون الآن أن تروا ماذا يفعلون بنا؟".

في المستشفى الجمهوري، استلقت امرأة روسية جريحة في غرفة باردة، تصارع ألمها، وكانت عيناها تدوران وتتنفس بشكل غير منتظم: "لقد بدأوا القصف، ولم يكن لدينا وقت للهرب، ضربني شيء ما في ظهري، ففقدت وعيي. هذا الأمر غير مقبول لأنه يمثّل قتل شعب. وسأكتب عن ذلك لإحدى الصحف".

عالياً في تلال كاربينسكي بالقرب من مصافي النفط غرب غروزني، تدبّر البويفكس الشيشانيون الحصول على بعض قطع المدفعية في السفوح التي تطل على رتل روسي يتقدّم باتجاههم. كانت تلك إحدى القواعد الأمامية لخط الدفاع حول المدينة والذي يتصدّى لنحو 30.000 من القوات المسلحة. في كل يوم، كانت الطائرات والقذائف المدفعية تسحق كاربينسكي. كانت السماء سوداء من الدخان المتصاعد من مصفاة النفط القريبة، والتي تمّ تدميرها، لقد أحدثت القذائف المنفجرة علامات على ثلج القمم. وبغض النظر عن الخنادق، لم يكن هناك أي ملجأ آخر.

قال خضر كاشوكاييف، القائد العملاق الملتحي الذي ينظر إلى روسيا على أنها شيطان: "كان هناك صوت انفجارات، وتبادل لإطلاق النار في كل مكان. كانت الليلة الماضية كابوساً. لكن إذا كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون الاستيلاء على المدينة دون قتال، فإنهم يقترفون خطأً كبيراً. سأخبرك لماذا: ليس المهم هنا أن تكون موالياً لدوداييف أو لا، لأننا نحارب من أجل الحرية، ومن أجل عائلاتنا. أنا شيشاني، وأريد ببساطة أن يكون لدّي الحق لأتكلم بلغتي الأم".

في أواخر كانون الأول، أصبح من الواضح أن العمليات الروسية المباشرة بقيادة غراتشيف، قد ضلّت طريقها. لقد تقدمت القوات المسلحة بثلاثة أرتال: واحد من أنغوشيا، وآخر من داغستان، والثالث من الشمال الذي أصبحت فيه بلدة موزدوك نقطة الانطلاق الرئيسية. كانت الخطة تقضي بفرض حصار على المدينة، ولكن بعد مرور عشرة أيام على الغزو، كانت القوات عالقة في القرى خارج غروزني، وتتردد في محاولة اقتحامها. لم يكن الحصار كاملاً، ومع وجود روابط إلى القرى والجبال الجنوبية، كانت خطوط إمداد البويفكس مفتوحة تماماً.

لقد كان باستطاعة القوات الروسية أن تطلب أسلحة ثقيلة طويلة المدى مثل الدبابات، ومدافع الهاون، ومدافع الميدان، ومنصات إطلاق صواريخ غراد وهوريكان، وبالطبع مقاتلات ومروحيات. لكن كل تلك القوى النارية المؤثّرة كانت تفتقد للتحفيز والتدريب، بما في ذلك طياري القوى الجوية الذين كانوا يتدربون، وفقاً لبعض التقارير، 19 ساعة فقط وليس 100 كما ينبغي. إن البيروقراطية والمشاكل التنظيمية تتسببان بتراجع أداء أي جيش كبير، وهو ما ظهر واضحاً في سرعة إرسال وحدات غير جاهزة للقتال إلى الشيشان.

ثبت أن التقدم في المناطق المأهولة - وحتى ضمن القرى - صعب جداً. لم يهرب الشيشانيون جراء نيران المدفعية والتي كانت تمهّد لإرسال جنود المشاة؛ وهي الناحية التي يظهر فيها ضعف القوات الروسية. لم تكن الآلة العسكرية الروسية مؤثرة سوى في المساحات المكشوفة أو ضد

المواقع الثابتة. لم يكن ممكناً مقاومة الدبابات والعربات المدرّعة التي تحميها المروحيات في المناطق المكشوفة خارج غروزني، لقد شدد الحصار على غروزني ببطء. في كل يوم، كان الجانبان يستعدان للمواجهة المحتومة.

حارب الشيشانيون في مجموعات متنقّلة ذات اكتفاء ذاتي، وكان شعورهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم عالياً جداً، مما جعلهم يفقدون الخوف من الموت. كان الشيشانيون يرتدون ثياباً فصفاضة مصنوعة منزلياً من الملاءات البيضاء، ويضعون أوشحة بيضاء حول أسلحتهم ليخفوها في الثلج، ويعملون في مجموعات يصل عددها إلى 15- 30 شخصاً، ونادراً ما تكون المجموعة أكبر من ذلك. قد تمتلك المجموعة المسلحة جيداً مدفعاً رشاشاً، وسلاحاً مضاداً للدروع بالإضافة إلى بندقية آلية لكل رجل. قد يكون مع المجموعة عدة رجال غير مسلحين يقومون بحمل الذخيرة أو الجرحى. كانت العديد من المجموعات تتألف من جيران أو حتى أقارب من قرية واحدة، وعادة ما كانت تلك الجماعات تنتخب قائدها. لقد تحول تمرّد دوداييف البسيط إلى عصيان شعبي واسع النطاق نتيجة للحرب التي شنّها الرئيس يلتسن ضد الشيشانيين، وخصوصاً القصف الجوي الذي تعرضوا له.

كان السلاح المضاد للدروع آر بي جي نجم ترسانة الشيشانيين دون شك، وهو عبارة عن قاذف صواريخ محمول، الذي قد يحوّل رجلاً واحداً إلى قاتل للدبابات على المدى القريب. إنه سلاح خفيف يمكن حمله طوال النهار والركض به، ويحقق إصابات دقيقة على مسافة بضع مئات الأمتار، إنه مثالي لقتال الشوارع. يمتلك الشيشانيون عدّة نماذج روسية منه، تتراوح من البازوكا الذي يمكن استعماله عدّة مرات إلى السلاح الوحيد الطلقة. هناك أيضاً صواريخ مضادة للدبابات أكبر وأقوى، بما فيها تلك التي يمكن توجيهها سلكياً والتي تعتبر عالية الدقة ضمن مدى عدّة كليومترات، إنها أكثر فائدة في المساحات المكشوفة خارج غروزني.

تطلب التكتيك الدفاعي الشيشاني البسيط درجة عالية جداً من الهدوء أثناء التعرّض للنيران. وهو يقوم بشكل كبير على الاختباء وتدمير المركبات على المدى القريب بالسلاح المضاد للدروع، بالإضافة لإطلاق النار على الجنود، إذا نجوا، ثم تبديل المواقع أو الذهاب إلى الحفر الفردية لتجنب نيران الدعم التي قد يطلبها العدو. إن تغيير الموقع يعتبر مفتاح النجاح. كان المحاربون، الذين يعرفون غروزني بالتفصيل، ينتقلون إما سيراً على الأقدام أو بواسطة العربات الروسية القاسية وسيارات اللادا، والتي تحوّلت إلى حاملات للجند وسيارات للإسعاف. إن المجموعات الأكبر تذهب إلى خط المعركة بوساطة الشاحنات أو الحافلات المتهالكة. يمتلك الشيشانيون بالإضافة إلى الأسلحة السالفة الذكر أسلحة ثقيلة كدّسها دوداييف، وتتضمن قطع مدفعية، ومنصات إطلاق صواريخ غراد، ودبابات. لم تكن هذه الأسلحة منيعة ضد النيران أو ضربات المروحيات، ولهذا عادوا إلى نفس التكتيك: إطلاق النار والتحرّك. يمكن نصب صواريخ الغراد على ظهر شاحنة عادية، وإطلاقها من هناك، ثم تحريك الشاحنة نحو المخبأ.

من هم البويفكس؟ لقد ادّعى وزير الدفاع بافل غارتشيف بأن عددهم يصل إلى عشرات الآلاف، بمن فيهم 60.000 من المرتزقة الأجانب و10.200 من المجرمين الخطرين، ولكن تلك كانت مجرد دعاية. يبلغ تعداد نواة القوة الشيشانية، وفقاً لعدة مصادر في الشيشان، أكثر بقليل من 3.000 رجل زمن الحرب؛ وتقول بعض التقديرات إن بضع مئات فقط من المقاتلين يشاركون طوال الوقت، ويقدّم الآلاف من المقاتلين المرحليين الدعم لتلك القوة الرئيسية، إضافة إلى عدد لا يمكن إحصاؤه من المناصرين والممولين.

كان بين الشيشانيين جنود يمتلكون الخبرة، ومن بينهم متطوعون من العالم الإسلامي، وأوكرانيا والبلطيق، بالإضافة إلى الشيشانيين الذين تدربوا في أفغانستان أو الذين قاتلوا في أبخازيا مع أمير الحرب الشاب شامل باساييف. هناك أيضاً ضباط سابقون في الجيش السوفياتي، بمن فيهم بالطبع جوهر دوداييف ورئيس أركانه كولونيل المدفعية السابق أصلان مسخادوف والذي تحوّل إلى جنرال شيشاني آنذاك. لقد افتقد معظم المقاتلين للخبرة العسكرية. بين رجال خضر في تلال كاربينسكي، كان هناك مزارعون، وسائقو شاحنات، وأستاذ يرتدي نظارات تحت خوذته. إن الشيء المهم، هو أن كل الشيشانيين، عدا اليافعين منهم، أدّوا الخدمة في الجيش السوفياتي. هذا يعني التآلف الكبير مع الأسلحة الروسية الموجودة لدى دوداييف، والمعرفة الكاملة بنقاط ضعف دبابات وعربات العدو المدرّعة.

كان معظم البويفكس متأثرين بالأساطير الوطنية عن المحاربين والدفاع عن الحرية وليس بالسياسيين. ربما كانوا من مناصري دوداييف، ولكنهم كانوا يستخفون به ويحتقرون سرقة فريقه للشيشان. لقد كان جواب أي مقاتل عن سبب حمله للسلاح: "حماية وطني!". يذهب الكثير من الشيشانيين إلى ما هو أبعد من ذلك، ويعتبرون أن الانضمام إلى المقاومة مسألة ذات شأن كبير بالنسبة لهم. روى لي ثائر يدعى موسى في أحد الأيام قصيدة كان قد نظمها على شرف الذئب الشجاع، الذي حاول قتل معذّبه حتى بعد أن وقع في الفخ، وتعرّض للإصابة من قبل الراعي - ذئب شيشاني حقيقي.

تملّكت الكراهية الذئب
وسيطر الألم على جسمه القوي.
ثم رأى الراعي عيني الذئب في الظلام
وشعر لأول مرة بالشفقة
الشفقة على هذا اللص الرمادي الجلد والذي مات تماماً.

لعب الدين دوراً داعماً وحاسماً للمقاومة، رغم أن هذه الحرب لم تكن حرباً دينية بين المسلمين والمسيحيين بأي طريقة كانت. كانت صيحة تعزيز المعنويات الله أكبر أساسية عند بدء المعركة، ولكنّ العديد من الشيشان لم يكونوا مسلمين يؤدون شعائرهم عند بداية الحرب. كما أن كل من دوداييف ومسخادوف - مثل أي ضباط سوفيات سابقين - لم يكونا غريبين عن الفودكا، وكان أكثر الشيشانيين ورعاً جاهلين تماماً، بالمفهوم الأكاديمي، لعقيدتهم. مع ذلك، كانت معتقدات وتقاليد الجماعة الصوفية واحدة من أهم عناصر تعزيز المعنويات والشعور بالهوية العرقية. لم يكن مفاجئاً أن يتعمّق الالتزام الديني أكثر كلما طالت الحرب، مما ساعد على تحلي المتطوعين بالنظام، والذي يشكّلون أحياناً وحدات مسلحة غير نظامية. إضافة إلى ذلك، كان المقاتلون الشيشانيون متحدين بإحساسهم الغريزي للدفاع عن النفس، والذي نشأ لديهم نتيجة للذاكرة الجمعية لعمليات التهجير، وكل الحروب التي خاضها شعبهم. كان شعارهم "ليس مجدداً".

في أواخر كانون الأول، كانت ساحة الحرية التي يجب عبورها للوصول إلى القصر الرئاسي مكاناً مثيراً للأعصاب. فقد كانت تلك المنطقة تتعرض باستمرار للقصف، وكانت الساحة واسعة جداً بحيث تستطيع الطائرة الظهور فوقها فجأة، وتقصفها دون أن يكون هناك وقت للركض نحو المخبأ. لقد اعتدنا الركض عبر تلك الأرض القاتلة، وحتى الرجال الطاعنين في السن، الذين تحدوا الطائرات لتأدية "الذكر"، كانوا يدورون في الثلج كما كانوا يفعلون قبل الحرب، اختفوا تدريجياً.

من المثير للدهشة أن آخر بناء في الساحة تعرّض لضربة مباشرة كان القصر الرئاسي المليء بأكياس الرمل، إلا أنه لم يكن قد تعرض للأذى من قبل. لم تكن نجاة القصر، والفشل الروسي في

قطع رأس القيادة الشيشانية سوى مثال واحد عن الطريقة الغريبة التي كان الكرملين يدير بها الحرب القصيرة والمظفّرة. لم يكن سراً أن دودابيف وقيادته يقضون معظم وقتهم في نفس ذلك البناء. على العكس من ذلك، كان أول المباني الرئيسية التي تمّ تدميرها بالكامل المصرف المركزي الشيشاني، وتقول الإشاعات إن أحد أسباب الحرب هو إخفاء وثائق الإدانة في فضائح الاختلاسات المالية آفيسوس التي حدثت في أوائل تسعينيات القرن العشرين.

بالنسبة للشيشانيين، كان القصر الرئاسي رمزاً قوياً للتمرد والعصيان. كانت الطوابق العليا مهجورة، ولكن في الأسفل في الأقبية والخنادق العميقة، كان العمل يسير كالعادة. كانت الأقبية مكتظّة، ولم يكن يوجد في العديد من الممرات والغرف سوى شمعة واحدة أو مصباح زيتي يضيء أكوام الأسلحة، والذخائر، والقنابل اليدوية، ورايات الثوار الشيشانيين بالألوان الخضراء والحمراء والبيضاء، وقبل كل شيء، كان المكان دافئاً وآمناً، وكان هناك دائماً مجموعة من الشخصيات التي تخدم لإحداث انطباع بالاستمرارية، وأن ثورة الشيشانيين لم تُخفق.

كان هناك رجلان يقولان إنهما ناطقان باسم الحكومة المتقاعسة، وقد لقبا نفسيهما بالصحفيين الشيشانيين، وكانا يجلسان في غرفة مليئة بالدخان، ومزخرفة بالنقوش العربية، والمصابيح الزيتية. قال شخص أوكراني إنه أتى ليحارب من أجل حرية الشيشان، ولكنه قضى الكثير من وقته في الملجأ، لقد كان من الشخصيات الثابتة هناك، وكان يتصيد الصحفيين الجدد بهذه القصة الرومانسية، قبل أن يتعلموا البقاء بعيدين عنه. كانت الشخصية المفضلة لديّ ذلك الأميركي - الروسي، الذي قال إنه يمثّل حركة وقف العنف الدولية في واشنطن العاصمة، وقال بصدق: "ليس لديّ أي أمل بأن أفعالي الشخصية ستحقق أي اختلاف". ولكن ما يبدو بيروقراطياً في واشنطن العاصمة، يبدو صخباً في غروزني.

كان آخر رجل يغادر المبنى هو وزير الإعلام موفلادي يودغوف، والذي كان مكتبه في الطابق الرابع. كان يرتدي لباساً شيشانياً من الجينز ومعطفاً أسود، ويضع قطعة معدنية فوق نافذته المحطمة. كان يوجد على الطاولة معدات فيديو ثمينة ومسدس. وبالرغم من أنه لم يكن متعاوناً أبداً، إلا أنني كنت معجباً به وقتها.

كل يوم، كان القتال يقترب من غروزني. وفي أواخر كانون الأول، تقدّمت الدبابات الروسية لتقطع الطريق الشرقي الرئيسي من العاصمة إلى أرغون. وعند خروجي لتغطية المعركة، تركت سيارتي مع سائقي الشيشاني عثمان الكبير في السن، واختبأت في خندق إلى جانب الطريق حالما رأيت الدخان. كانت أربع مروحيات تحلق على ارتفاع منخفض، فوق تلك السهول التي كان الثلج يغطيها، وكانت تطلق الصواريخ على صف من الأشجار إلى يميننا، حيث كان الشيشانيون يتمركزون. ما لبث الدخان أن تصاعد من مكانين في الحقل، لقد احترقت دبابات أو عربات مدرّعة. وفجأة، اكتشفت المروحيات موقعنا. تركت إحداها السرب، وقصفت الحفرة التي كنا فيها، مما جعل الثلج يتطاير من حولنا. كانت تلك مواجهة مفتوحة، ولم يكن لدى الشيشانيين أي فرصة للمقاومة.

سقط الطريق، وقطع الروس خطوة للأمام لتشديد الحصار على غروزني. في 29 كانون الأول، دخلت القوات الروسية المدعومة بالمروحيات والمدفعية في معركة ضارية مع الشيشانيين الذين يقودهم شامل باساييف في خانكالا، وهي مهبط للطائرات في الأطراف الشرقية للمدينة. لقد استطاع الشيشانيون صدّ الروس، ولكنها كانت المرة الأولى التي يحدث فيها قتال على مشارف غروزني. جلسنا في تلك الليلة نستمع للطائرات وهي تقصف أهدافها دون أن نستطيع رؤيتها، وأخذت الانفجارات تومض عبر السماء، وشعرت بأن الوقت يتوقف. وحتى عندها، كان الشيشانيون بعيدين

كل البعد عن الاستسلام. قاموا بوضع شجرة تنوب كبيرة في ساحة الشيخ منصور، وزينوها بالكامل، للاحتفال بالسنة الجديدة.

"لقد أرسلني القائد الروسي: سيُبقي على حياتك إذا استسلمت دون قتال."

وأجاب حمزة على ذلك: "لم آتِ إلى هنا من أجل المال يا كيغرمان. لقد أتيت كي أحظى بالشهادة في الغزوة. وإذا استسلمت لك، سيضحك عليّ كل شعبي بازدراء."

"ومثل ذئب متعب وجائع ومتشوق للوصول إلى الغابة، ومثل حصان جائع مندفع بحماس إلى المرج النظيف الجديد؛ كذلك رفاقي متعطشون للقتال حتى الموت. كما أنني لا أخافك يا كيغرمان. إنني أسخر من كل قواك، لأن أملنا هو في الله، الجبار."

من "أنشودة موت حمزة" الشيشانية التي ظهرت في القرن التاسع عشر.

في صباح الميلاد، أخفقت غارة جوية في إصابة الكوخ الذي كنا نمكث فيه على بعد عدة شوارع، لقد حطمت الغارة زجاج النوافذ، وأشعلت النار بعدةِ بيوت وسيارات، وتسببت بحفرة كبيرة على جانب إحدى الشقق السكنية. زحف الناجون الذين غطّاهم الغبار إلى الشارع، وهم يسحبون رجلاً ميتاً. بعد ذلك ظهرت امرأة مسنّة، ورفعت عصاها التي تمشي عليها باتجاه السماء. وخوفاً من غارة ثانية، قمنا بإخلاء المنطقة، وذهبنا إلى فندق مهجور في مركز المدينة بجانب ملعب دينامو. كان هناك كهرباء، واستطعنا أن نكتب، ولكن حالما وصلنا، بدأت قذائف المدفعية تضرب بالقرب من موقعنا. وهزّت الانفجارات الجدران والأرض، وحطمت النوافذ، وقطعت الأنفاس. كان ذلك أول قصف مدفعي على مركز المدينة. بدأ الشيشانيون عندها بالردّ على إطلاق النار بصواريخ الغراد التي كانت تتمركز خلف فندقنا. تعرضنا لقصف مدفعي آخر، وشعرت أن الأرض تكاد تنشق. ثم سمعنا هدير المروحيات الذي تبعته نيران المدافع الرشاشة والبنادق داخل المدينة. أتى الناس من أطراف المدينة مذعورين: وصلت الدبابات الروسية إلى الضواحي. لقد بدأ اجتياح غروزني.

تحت الضغط العصبي والنفسي، قمت بطباعة برقية عاجلة على التلكس الفضائي من أجل تقديمها للأخبار، ثم خرجت مع زميلتي في وكالة الصحافة الفرنسية إيزابيل أستغاراغا، لننضم إلى الزملاء بيل كازبيرني من سي بي إس، وباول لوي، وكيري سكوت من ذا ساندي تايمز. كان علينا التفكير بسرعة، وأن ننسى الفوضى القديمة: هذه المرة، كان آلاف الجنود في الدبابات والعربات المدرّعة يهاجمون المدينة من ثلاثة اتجاهات مع تغطية من المروحيات والطائرات. لم أعتقد شخصياً أن الشيشانيين قادرون على الصمود. سيتمكن الروس من الاستيلاء على المدينة في غضون ساعات نظراً لأعدادهم الكبيرة. قال باول، وهو مراسل خبير بالحروب، إن ذلك أسوأ بكثير مما حدث في سراييفو، إنه جنون، لقد بدا كلامه مقنعاً. كان هناك إشاعات عن فرق روسية خاصة مهمتها اصطياد الصحفيين. وقال: "يجب علينا الخروج من هنا. سيكون ذلك قتال شوارع، وجحيم حقيقي". لقد حان وقت الانسحاب.

ذهبنا في سيارتين عبر مناطق مكشوفة بعيداً عن ملعب دينامو، والتزمنا أطراف الشوارع، وتنشّقنا رائحة البارود في الهواء، وشعرنا بأن المدينة تتحطّم. ثم حدث شيء غريب خلف مركز المدينة. نظرت مع إيزابيل إلى الخارج ورأينا الشيشانيين - عاديين غير مسلحين - يقفون في الطريق. لم يكونوا يركضون. لم يكن لدى كل هؤلاء الناس سوى فرصة وحيدة للنجاة، ولكنهم مكثوا في منازلهم. ولم يكن تمردهم قد انهار بعد. كان ذلك كافياً؛ قررت وإيزابيل المكوث أيضاً. ولم نستطع مغادرة المدينة. بالإضافة إلى ذلك، وبصفتنا صحفيين، كنا نزوّد محطات الإذاعة والتلفاز حول العالم بالأخبار، خلال بضع ساعات فقط أصبحنا المصدر المستقل الوحيد للمعلومات. وكان لدينا التزام وعهد، ولوّحنا للآخرين وقلنا لهم وداعاً.

لم يهدأ صوت المدافع الرشاشة والقنابل المتفجّرة عند المركز. وانبعث الدخان الأسود من مصافي الزيت المحترقة التي تعرّضت للقصف على مشارف المدينة عبر سماء الشتاء الباهتة، وقرابة الساعة الثانية من بعد الظهر، اختفت الشمس. وفي البعيد، كانت نيران المصفاة، تقذف الجبل الهادئ باللهب بين الحين والآخر، وتغسل الأفق بوهج برتقالي اللون. وعند الليل، كان وميض الانفجارات الصفراء والرصاصات الخطّاطة الحمراء هي الأضواء الأكثر إشعاعاً، والتي تنحني مساراتها مثل النجوم الساقطة فوق أسطح المنازل.

لقد أخطأت موسكو التقدير. هرب قطّاع الطرق الشيشانيون حسب الدعاية الروسية، إلا أن الشيشانيين الحقيقيين بقوا. وعندما اندلعت الحرب في المركز، اندفعت حشود الشيشانيين من القرى إلى الجنوب، ومن بينهم رجال غير مسلحين والذين كانوا يمزحون بالقول إنهم "خارجون للعمل". وكانوا يبدون، في قبعات التزلج والمعاطف المصنوعة من الجلد، مثل حشود في طريقها لمتابعة مباراة كرة القدم. وغالباً ما كانت الفرق المؤلفة من خمسة أشخاص تشترك ببندقية واحدة، ولكن الجميع كانوا يستطيعون الحصول على شيء ما: مسدس، رشاش، قنبلة يدوية، أو قنبلة مولوتوف. ولم يكن لدى الكثيرين منهم قائد أو أي خطة لدعم المقاومة. كان الرجال يمشون باتجاه صوت القتال، ويتحركون بلا مبالاة مدروسة، وبغرور تقريباً.

وقال عيسى، الذي يبلغ من العمر 23 سنة ويعمل موظفاً في محل: "كل شارع يدافع عن نفسه. بهذه الطريقة أصبح الجميع يعرفون بعضهم البعض. وكنا نفعل ما بوسعنا، حتى ولو كان مجرد صنع قنابل نفطية. إلا أننا لم نكن نستطيع الجلوس في المنازل". وكانت جماعته المؤلفة من أربعة أشخاص، تشترك برشاش، وبندقية آلية واحدة. بعدها ظهر صبيان بعمر 12 سنة تقريباً، كانا يرتديان معطفين رجاليين تصل ياقتهما إلى فوق أذنيهما، أما أكمامهما فكانت مثنية للأعلى، كانا يسيران على الأقدام ممتلئين بطاقة الرجال، كانا يشيران إلى الكلاشينكوف بحسد ويتهامسان. وقال ليش، الذي يبلغ من العمر 39 سنة، والذي كان بحاراً في البحرية السوفياتية: "انظر إلى هذين الصبيين. إنهما يساعداننا في الحصول على الأسلحة والذخيرة. إنهما لا يخافان من أي شيء، لا من الدبابات، ولا من الصواريخ". فضحكت المجموعة. وفتح رشاش النار في مكان ما أسفل الشارع، فتفرقنا.

كان البويفكس مرتاحين؛ وأخيراً حصلوا على معركة في منطقة تلائم الأسلحة القصيرة المدى وتكتيكات حرب العصابات. قال أحد المقاتلين، ويبلغ من العمر 38 سنة، ويحمل بندقية هجومية وقنابل مضادة للدبابات، ومقتنع بأنه سيموت شهيداً: "المعركة أفضل في الظلام وداخل المدينة. إنهم ضيوفنا هنا، ونحن المضيفون. وليس لديهم هدف في قتالهم هذا، نحن نقاتل من أجل وطننا، ولسنا خائفين من الموت. لديهم طائرات ودبابات، بينما كل ما نملكه هو ثقتنا بالله والسلاح المضاد للدروع. ولكننا نعرف ما الذي نقاتل لأجله".

اكتظت الشوارع المظلمة بسيارات اللادا المتسخة، والتي خرج منها رجال وبنادق وذخيرة؛ كشف الضوء الشاحب لقذائف الإشارة الروسية أو الأبنية المحترقة مقاتلين مثل الأشباح في ثيابهم الفضفاضة البيضاء والعمامات الإسلامية الخضراء؛ كانت أغصان الأشجار تخفي وراءها مواقع الرشاشات، كان حزام ذخيرتها يومض في الثلج، وكانت المتاريس موجودة في الطوابق العليا من الأبنية السكنية، كان الثوار ينتظرون مع أسلحتهم المضادة للدروع تقدّم المدرعات الروسية إلى الشوارع العريضة إلى الأسفل منهم.

تسللت مجموعة شيشانية عبر البيوت الصغيرة خلف القصر الرئاسي، حيث أوقع الروس في كمين. التزمت المجموعة بالسير إلى جانب الجدران، وتوقفت للتشاور مع رفاق السلاح الذين يختفون في الظلال. لم يكن لديهم قائد، كانوا يستشعرون ببساطة طريقهم إلى المواقع الأمامية. وسمعنا صوت قذائف دبابة في الظلام، فاحتمينا بأحد الجدران، ركض أحد رجال المجموعة في الشارع المظلم خلف الدبابة. إلا أنها لم تكن دبابة روسية، إنما من قوة الدبابات الشيشانية الصغيرة. ابتسم الرجل للجنود فيها وهو يسحب قنبلة يدوية من سترته قائلاً: "إنهم محظوظون، ولولا حظهم لتلقوا هذه".

فجأة ظهرت تلك الشخصيات الإعلامية الشيشانية، والتي لم تكن على وفاق مع المراسلين الأجانب، لتصوّر القتال حول القصر الرئاسي. كان أحدهم على وشك أن يلقى حتفه. في لفتة بارعة، دون ذكر الشجاعة، ترك آلة تصوير ليلية تعمل على أحد نوافذ الطابق العلوي ووصلها بتلفاز محلي حيث نقلت صوراً حية للنيران التي وجهتها المدرعات الروسية على ذلك المبنى. وقال زلمخان يندربابييف نائب الرئيس دودابيف بصوت مختنق عندما شاهد الصور: "مصير الشيشان سيتقرر هذه الليلة".

لم يكن أي شخص عادي في روسيا يعرف حقيقة ما يجري. تجمعت العائلات على طول البلاد من موسكو إلى فلاديفوستوك في مطابخ الشقق لتشرب شمبانيا سوفياتسكوي والفودكا قبل الخروج لإشعال الألعاب النارية والاحتفال ببداية سنة 1995. لم يكونوا يفكّرون في الشيشان سوى من خلال التقارير الرسمية والتي تقول إنها مسألة *إعادة النظام*. تماماً قبل منتصف الليل، في رأس السنة الجديدة، أعلنت وكالة أنباء إيتر تاس بأنه تمّ الاستيلاء على قصر دودابيف الرئاسي.

ولكن حتى الدعاية لم تستطع إخفاء الحقيقة طويلاً: لقد مزقت القوات الروسية إلى أجزاء. وذلك من خلال استخدام خطة غريبة مشابهة لما قام به شامل عندما دمّر جيش الأمير **فورونتسوف** في غابات دارغو سنة 1845، سمح الشيشانيون للروس بالاندفاع عميقاً وصولاً إلى مركز المدينة، ثم باغتوهم بقذائف الهاون، والقذائف المضادة للدروع، والأسلحة الخفيفة من كل الاتجاهات. لقد وصل الجنود الروس فعلاً إلى ساحة الحرية خارج القصر الرئاسي، ولكن ليدركوا فقط أنهم وقعوا في فخ ذبحهم.

في توثيقه الكلاسيكي لتحول القرن في الحروب القوقازية، كتب ج. ف. بادلي عن حملة **فورونتسوف**، ولكنه قد يكون يصف غروزني سنة 1994:

> **لقد حلت النتيجة الطبيعية لتلك الاحداث. وأصبح المركز مفصولاً عن المقدمة، والمؤخرة عن المركز، وتجمع العدو بين المنطقتين، وقام بإطلاق النار من كل المواقع الممكنة، ومن وراء كل جذع شجرة - وحتى من الأغصان فوق رؤوسنا، وكانت أشجار الزان الضخمة تمنح مواضع لإطلاق النار لعدد ضخم من القنّاصين الشيشانيين، تماماً كما حدث في حملة غرابي - وعندما يحصل الاضطراب في كل مكان، يندفع الشيشانيون لإكمال ما بدأوه بالسيوف والكنزال.**

هذه المرة، كان الشيشانيون في المباني السكنية المكّونة من تسعة طوابق وفي الأقبية، وليس في أشجار الزان، كانوا يستخدمون الرشاشات وليس السيوف.

لقد أضاع أطقم الدبابات طريقهم، وبدأ المقاتلون باصطيادهم، ولم يجرؤ جنود المشاة على الخروج من عرباتهم المدرعة والدخول في الاشتباكات النارية، إلا أنهم لقوا حتفهم بالصواريخ المضادة للدروع داخل عرباتهم؛ وفشل القادة في التنسيق بينهم، لقد انطلقت نيران الأسلحة الروسية الثقيلة على رجالهم. وخلال 24 ساعة، كان الهجوم قد اندلع، وبقي القصر الرئاسي في أيدي

الشيشانيين. كانت واحدة من أسوأ هزائم الجيش الروسي؛ وأسوأ من المعارك في أفغانستان. أخبرني ضابط كان يتابع الأرقام في موسكو بأن ألف جندي لقوا حتفهم، وتعرّض قرابة 3000 للإصابة. وتقول إحصائيات غير رسمية إن عدد القتلى وصل إلى 2000 شخص.

كان سيرجي، وهو مجند روسي في فوج المشاة المحمول رقم 81، والذي قال إنه من مدينة سمارا وأنه يبلغ من العمر 20 سنة، ولكنه يبدو أصغر بكثير، واحداً من الجنود الذين وقعوا في الأسر تلك الليلة. مع الأخذ بعين الاعتبار مئات الجنود الذين ماتوا أثناء محاولتهم الهرب من عرباتهم المدرعة التي وقعت في الكمين، لقد كان سيرجي محظوظاً. وعندما التقينا كانت الحرب مستمرة منذ عدة شهور، وكان مستلقياً بعدما تعرّض للإصابة في مستشفى شيشاني بارد، كان يأمل بأن يتمّ إطلاق سراحه أو مقايضته بأسرى آخرين. وعندما كنا نتحدث، كانت طائرات قواته الجوية، تحلّق فوق المستشفى مما جعله يفزع، لم أستطع التفكير بأنه لن يعود إلى منزله.

مثل العديد من المجندين، كان سيرجي بالكاد قد سمع عن الشيشان قبل أن يتمّ إرساله إليها ليعمل كميكانيكي لعربات الجند المدرعة خلال الهجوم.

> **عندما تلقينا الأوامر بمغادرة سمارا، لم نكن نعرف وجهتنا. في البداية، تمركزنا إلى الشمال من غروزني. في السنة الجديدة، طلبوا منا تشكيل رتل عسكري، لم يكن لدينا أدنى فكرة عن المكان الذي سنقصده. ثم قالوا إننا سنتجه إلى غروزني. وقالوا إنه لا يوجد أي قتال هناك، وإنما مجرد مجرمين مسلحين فقط، ولم يذكروا وجود المدنيين. وعندما وصلنا إلى مفترق الطرق، بدأ المقاتلون بإطلاق النار علينا من شقق في الطابق الخامس أو السادس. كانوا يطلقون النار من كل مكان. ولم يكن لديّ أي فكرة عن سبب إطلاقهم للنار، ولكنهم أصابونا. خرجنا من العربة المدرعة، واختبأنا في منزل صغير. كنت في العربة المدرعة مع أربعة آخرين، بمن فيهم أحد الضباط. أصبنا جميعاً. وجلسنا هناك لأربع ساعات، وتوقعنا بأنهم سيضربون المنزل بالقذائف المضادة للدروع، وكنا بانتظار ذلك. ثم صرخوا علينا لنخرج، ونستسلم، وأخذونا كأسرى. كل ما أريده الآن هو الذهاب إلى المنزل، هذا كل ما أبغيه.**

حسب بعض التقارير، إن أكثر من نصف فوج سمارا المؤلف من 1000 رجل لقوا حتفهم، أو تعرضوا للإصابة، أو وقعوا أسرى. وكانت أعمارهم تتراوح بين 18 و19 سنة، وهم مجندون ليس لديهم خبرة في القتال. في الواقع، تمّ إبادة اللواء 131، الذي كان يتمركز في مايكوب عاصمة أديجي، بالكامل تقريباً. وقد حقق ذلك اللواء هدفه بسهولة، فاستولى على محطة السكة الحديدية في مركز غروزني، ليجد نفسه محاصراً من جميع الاتجاهات لمدة 24 ساعة. قال تقرير روسي إن خسائر لواء مايكوب وصلت إلى 20 دبابة من أصل 26، و102 عربة جند مدرّعة من أصل 120. وتحدّث الناجون عن مئات الجنود الذين ماتوا.

وقدّم لي فولوديا - وهو جندي قوات خاصة محترف، أصابت الشظايا رأسه بعد 12 ساعة من القتال في رأس السنة - تحليلاً عملياً: "بالطبع كنت أعرف ما سيحدث. وكنت أعتقد بأنه يجب أن يكون هناك المزيد من جنود المشاة. وأنه كان ينبغي عدم الذهاب مباشرة إلى المركز، لأن ذلك لن يخيف البويفكس. ولكنني كنت أنفذ الأوامر. ولم يكن معظم رجالنا جاهزين، وكنت أعرف ذلك. إلا أن مهمتي لم تكن إدارة الهجوم، كما تعلم يوجد أشخاص يخططون لهذه الأشياء. ولهذا السبب لديهم تلك النجوم الكبيرة على أكتافهم".

وقال نيكولاي - وهو مجند آخر قابلته بعد شهور عند نقطة تفتيش، وكان يتمنى أن يعود إلى الوطن: "لم يرَ أحد شبيهاً لما حدث، ولن يعرف أحد ذلك. لقد كان ذلك جحيماً، وكانت مدفعيتنا تطلق النار على زملائنا الذين لقوا حتفهم في كل مكان. لقد كانت كارثة".

سيسجل ما حدث في غروزني على أنه هزيمة تاريخية، ليس بنسبة الخسائر المادية والبشرية وحسب، وإنما بسبب الفشل الكبير على مستويي القيادة والتدريب، من المجندين وحتى الجنرالات. يقع معظم اللوم على غراتشيف، المحارب القديم في أفغانستان. ونتيجةً لقيادته الشخصية للعمليات، كان في موقع أفضل من أي شخص آخر ليعرف ما سيحدث عندما تتحرك الدبابات والعربات المدرعة دون غطاء من جنود المشاة نحو شوارع مليئة بالقنّاصة الشيشانيين والمقاتلين الذين يحملون الصواريخ المضادة للدروع. وكان قد قال ذلك بنفسه قبل الحرب: "يجب أن يذهب جنود المشاة أولاً، لأن الدبابات لا ترى شيئاً، وهي فعّالة في الحقول فقط، ولكنها عمياء في المدن، ومن الضروري وجود جنود المشاة لحراسة الدبابات". وكان غراتشيف يعرف جيداً أن الجيش السوفياتي السابق لا يتضمن ضباط الصف، ولا الضباط الشباب القادرين على قيادة وحدات مشاة صغيرة، وهي جوهر قتال الشوارع الناجح والطريقة الوحيدة لحماية الأرتال المدرعة. ومع ذلك تقدّم عبر المدينة. وبعد إظهار مثل ذلك التهور وعدم الرأفة بالمدنيين خلال المرحلة الأولى من الحرب، كان يعامل جنوده، الذين كان معظمهم مراهقين، بنفس الطريقة.

عكست الهزيمة أيضاً القوة العددية الوهمية للقوات المسلحة. بصورة رسمية، كان هناك قرابة 1.7 مليون شخص يخدمون في الجيش، ولكن لم يكن هناك على أرض الواقع سوى 1.2 مليون وفقاً لبعض التقديرات، ولم يكن هناك وحدات مستعدة للقتال من بين هؤلاء سوى النذر اليسير. حتى قوات النخبة من المظليين وتشكيلات الدبابات، لم تكن في كامل قوتها، فقد كانت تضم العديد من المجندين الإلزاميين بين صفوفها. وبالنتيجة، تمّ تشكيل الوحدات التي ذهبت إلى الشيشان على عجل من الرجال الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي ليعرفوا أسماء بعضهم البعض، دون ذكر التدريب الذي يجب أن يخضعوا له قبل الذهاب إلى أرض المعركة. وكان الاضطراب نفسه منتشراً بشكل كبير بين المستويات العليا لفروع الجيش النظامي المختلفة وبين وزارة الداخلية وفي تبادل المعلومات الاستخباراتية. وحالما اصطدم الهجوم بمثل تلك المقاومة العنيدة، انهار التنسيق بين تلك الفروع، مما حدّ من تأثير التفوق العددي.

قد يكون اقتحام غروزني قبل وصول التعزيزات أحد الأخطاء الأساسية الأخرى. ووفقاً لأحد المحليين الروس فقد تمّ نشر 24.000 جندي، مع 80 دبابة و200 عربة مدرّعة في الغزو الأولي؛ ورفعت التعزيزات التي وصلت بعد فترة قصيرة من بدء الهجوم على غروزني العدد إلى 38.000 رجل و230 دبابة و450 عربة مدرّعة. ولدى اقتحام غروزني، لم يتمّ استخدام القوات الخاصة العالية التدريب لإدارة المخابرات العامة، وهو شيء غريب.

ماذا كان بوسع غراتشيف أن يفعل؟ في حال تبادل الآراء مع جنرالاته، كان سيرفض تنفيذ الهجوم، وسيذهب إلى يلتسن ويقول له الحقيقة. ولكن غراتشيف كان مفلساً في الوقت الذي ذهبت فيه القوات إلى الشيشان، بحيث لم يستطع فعل شيء سوى السباحة مع التيار. وكان يعرف بأن مستقبله يعتمد على يلتسن وعُصبة الكرملين وليس غروزني. وكان أبعد ما يكون عن الاهتمام بحياة جنوده، وحياة المدنيين أو الدستور. ووفقاً لمصدر عسكري مطّلع، لم يكن قرار غراتشيف باقتحام غروزني في رأس السنة الجديدة، كما هو حال معظم السياسية الروسية في الشيشان، سوى نزوة. وكانت هذه المرة نزوة ثمالة خلال حفلة في 30 كانون الأول في قاعدة موزدوك على شرف عيد ميلاد وزير الدفاع في الأول من كانون الثاني. وسمّاها ذلك المصدر: "هدية عيد الميلاد".

لم يكن غراتشيف من النوع الذي يعتذر أبداً. وتمّ صرف أو تحييد كل الشخصيات العسكرية المعارضة للحرب، وقال غراتشيف إن: "المجندين ماتوا والابتسامة على وجوههم". وعندما تحدّث

الناشط في مجال حقوق الإنسان سيرجي كوفاليف، والذي تعرّض لهجوم لاذع من يلتسن لعدة أسابيع، أطلق عليه غراتشيف: "عدو روسيا، وخائن". وبالنسبة للناشط الآخر سيرجي يوشنكوف، زميل كوفاليف، فقد قال عنه غراتشيف إنه: "شخص وضيع وتافه يدافع عن الأوغاد الذين يريدون تدمير روسيا".

بعد أسبوعين من اقتحام غروزني، قال نائب وزير الدفاع الجنرال جورج كوندراتيف بأن كل شخص كان في الشيشان يعرف الحقيقة، ولكن الكرملين، وغراتشيف، والبرلمان الروسي يرفضون قبولها: "ليست العصابات هي التي تقاتل في الشيشان فقط، وإنما الشعب الشيشاني. وقد حمل الرجال السلاح، ويقاتلون دفاعاً عن منازلهم وأراضيهم وعن قبور أسلافهم".

غروزني

في الثاني من كانون الثاني عام 1995، لم يكن هناك أدنى شك حول من سيربح المعركة. كانت رايات الذئب بالألوان الأخضر والأحمر والأبيض ترفرف عالياً فوق القصر الرئاسي والشوارع المحيطة به، والتي تحول لونها إلى الأسود نتيجة الانفجارات وامتلأت بالدبابات المعطوبة والجنود الروس القتلى.

سمعت صوت نيران البنادق الآلية، وانحنيت عند جدار بالقرب من نهر سونزها والقصر وانتظرت. وعلى بعد مترين فقط، كان هناك روسي ميت. كان يافعاً جداً، وقد انحنت قدماه نحو الاتجاه الخاطئ كما لو أنه لم يستطع أن يقرر أي طريق يجب أن يسلك، وجحظت عيناه الزرقاوان من محجرهما، مثل كرات في حوض سباحة مخطط. كان جسده مشوهاً، ويبدو مثل أي مجند صغير يستطيع المرء رؤيته في جميع أنحاء روسيا، بيديه الملطختين بالزيت وجلده المصفر وملابسه التي يعود طرازها للحرب العالمية الثانية. لم يكن الموت قد قضى على وجه المجند الطفولي. وتساءلت كم سيموت المزيد مثله في ذلك اليوم.

كان ينبغي علينا التسابق في ساحة الحرية للوصول إلى القصر الرئاسي. وفي الداخل، كان المقاتلون الشيشانيون المتعبون والمتسخون يأخذون قسطاً من الراحة، ويدخنون وينظفون الأسلحة. كان بعضهم يأكل بسرعة، كانوا يتناولون قطعاً من أرغفة الخبز الكبيرة الدائرية الشكل، مع الطماطم المخللة في جرار كبيرة وعميقة. وكان بعضهم الآخر يتكلم بهدوء بلغاته الأصلية، فيما كان آخرون صامتين، ويحدقون دون حراك.

جلس رئيس الأركان الشيشاني، الجنرال أصلان مسخادوف في ملجأ مرهقاً، ومحاطاً بالخرائط، وصناديق الذخيرة، وأكوام من الصواريخ المضادة للدبابات. وبالقرب من ذراعه، كانت هناك حزمة من جوازات السفر الحمراء للجنود الروس الموتى أو الأسرى. كان مسخادوف المعسول اللسان، والهادئ، بشعره رمادي، الأكثر تكلفاً بين القادة الشيشانيين. إلا أن عينيه كانتا قاسيتان.

حاول العقل المدبّر للانتصار الشيشاني أن يبدو رسمياً، وأجبر نفسه على قول بيان رسمي يعرض حقيقة ما كان يجري. وبدأ بصرامة قائلاً "تعرّضت القوات الروسية التي اجتاحت المدينة قبل يومين لهزيمة فعلية". ولكن صوته تهدّج.

كان مسخادوف يعرف بأن الحرب لم تنتهِ بعد، وأن الطائرات ستعود، وأن الأسلحة الثقيلة ستتمكن يوماً ما من إخراج رجاله من هذه المدينة المليئة بالدخان إلى القرى، وأن تلك ستكون فقط بداية المجزرة في الشيشان.

لكن في تلك الفترة الفاصلة بين حمامات الدم، وفي الدقائق الأولى التي أعقبت معركة رأس السنة في غروزني، ومع انتشار رائحة الحريق في الهواء، لم يكن لديه ما يقوله سوى: "حتى أنا مذهول. أنا مندهش من شجاعة هؤلاء الناس."

سقط القصر الرئاسي في 19 كانون الثاني، بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من اجتياح غروزني. وأصاب الارتباك المقاومة الشيشانية. قصفت الدبابات، والمدفعية، والطائرات المبنى الخرساني المكوّن من أحد عشر طابقاً بشكل يومي من مسافة قريبة. وانهارت المدينة من كل اتجاه. وتحوّل فندق القفقاز إلى أنقاض، واحترق مبنى البرلمان، وتمّ تفجير مساحات كبيرة من المنازل والمباني

السكنية المحيطة بالقصر أو التهمتها النيران. ومع ذلك، بقي القصر الرئاسي صامداً، حتى عندما انهار القسم الخلفي بكامله - أطنان وأطنان من الخرسانة، مع أقسام ضخمة من الأرضيات الكاملة - وامتلأ القسم الأمامي بالثقوب نتيجة القصف المدفعي. وبشكل يدعو للدهشة، بقي المدافعون عن البناء والمحميون في خنادق عميقة، يطلقون النيران بكثافة حتى عندما اقتربت منهم القوات الروسية.

أخيراً، استطاعت القوى الجوية الروسية، التي اكتسبت سمعة بعدم الكفاءة، إسقاط قنبلتين خارقتين مصممتين للنفاذ من خلال أحد عشر طابقاً والوصول إلى الخنادق العميقة قبل أن تنفجر. وفي تلك الليلة، زحف الشيشانيون الذين نجوا، وعبروا نهر سونزها المتجمد لتأسيس مواقع جديدة على الضفة البعيدة. في اليوم التالي، اجتاحت القوات الروسية الأنقاض، ورفعت علم الاتحاد الأزرق والأبيض والأحمر بأسلوب الجيش الأحمر، وهو عمل وصفه الجنرال كوندراتيف: بتدنيس المحرّمات.

أعلنت الحكومة الروسية أن الاستيلاء على القصر يعني هزيمة جوهر دوداييف والبويفكس. وقال الرئيس يلتسن إن: "المرحلة العسكرية لفرض الدستور الروسي قد انتهت فعلياً"، وأعلن غراتشيف أنه يفوض قيادة العملية لوزارة الداخلية. وحتى قبل أسبوع من إخلاء القصر الرئاسي، قال بافل فليغنور، محرر العمود اليومي في صحيفة سيفودنيا، والذي كان ينقل باستمرار وجهة نظر وزارة الدفاع، إن القوات الروسية على وشك الفوز بالحرب: "يبدو أن آخر مناصري دوداييف الذين يختبئون بيأس في ملجأ القصر الرئاسي قد فهموا أخيراً بأن اللعبة قد انتهت".

لكن اللعبة لم تكن قد انتهت عبر نهر سونزها. لقد قام المقاتلون الشيشانيون بتجميع أنفسهم من جديد، كانوا يعيشون في الأقبية، ويقاتلون من نوافذ الشقق، فيما سلّم المدنيون المحاصرون أنفسهم للموت. استمرت المعركة لأكثر من ستة أسابيع، كان المقاتلون يحاربون ليس من أجل دوداييف، ولكن بدافع ما يمكن وصفه بالوطنية. وبالنسبة للروس - الذين كانت مقاومة الثوار ضد الغزاة النازيين في الحرب العالمية الثانية مصدر فخر لهم - لم يكن خطأهم بتقدير مدى صمود تلك المقاومة سوى سوء تقدير آخر.

بعد معركة رأس السنة الجديدة، تخلى الروس بشكل كبير عن الهجوم باستخدام جنود المشاة والعربات المدرّعة، وعادوا إلى استراتيجية الحرب العالمية الثانية في القصف الجوي والمدفعي المنظّم لحي تلو الآخر حتى يتأكدوا من تأمين المدينة. كان يجب تدمير معظم غروزني، مثل القصر الرئاسي الأسير لتحريرها. وقدّرت مصادر روسية بأن الجيش استخدام قذائف من عيار 100 - 122 ملليمتر ولغاية 152 ملليمتر لتحقيق تغطية نارية عالية، إضافة إلى منصات إطلاق صواريخ الغراد والهوريكانس، والقصف الجوي. لقد ساعدت المدفعية في إبقاء حركة الشيشانيين في حدّها الأدنى، وتقدمت القوات البرية الروسية فقط بعد انهيار المدينة واحتراقها مع تعزيزات تدفقت على الشيشان طوال الوقت في أرتال مؤلفة من مئات المركبات.

كانت الأسابيع الأخيرة من المعركة على غروزني يائسة، وكانت القذائف تنهمر على المدينة كل بضع ثوان، ولأكثر من ساعة؛ هذا يعني ثلاثة إلى أربعة آلاف قذيفة في الساعة، مقارنةً بثلاثة آلاف قذيفة كان الصرب يوجهونها في اليوم على سراييفو. كانت الشظايا تضرب أي حي في أي وقت، مما جعل فترات وقف إطلاق النار أكثر وسائل الراحة ترفاً. في إحدى اللحظات يكون المرء واقفاً، ويتحدث أو يدخّن، ثم يستلقي على الأرض مثل سوط، ويزحف إلى مدخل الملجأ، أو يتمسّك بالأرض ملتصقاً بالإسفلت. وبشكل لا يصدق، بقيت مداخل غروزني الجنوبية في أيدي الشيشانيين،

مما قدّم مخرجاً ومساراً جاهزاً للهرب، ولكن المدفعية كانت تعني أن ذلك الطريق أصبح أكثر خطورة مع الأيام.

في ملجأ بالقرب من ساحة بروسبيكت لينين، حيث كان الشباب يقيمون سباقاتهم باستخدام سيارات بي أم دبيليو، كان أحد الثوار الشيشانيين ينظف بحذر سلاح مجموعته الوحيد المضاد للدروع. واستلقى قرابة 20 رجلاً على فُرشٍ في الظلام، مع وجود أنبوب غاز مكسور، يخرج منه وهج برتقالي وحرارة يحتاجها الموجودون هناك. كان هناك أرغفة من الخبز الشيشاني وبعض الخضار المخللة. لقد بدا الرجال متعبين ومتسخين. لم يكن هؤلاء المقاتلون يملكون سوى 10 بنادق، وبالإضافة للسلاح المضاد للدروع، مما يعني أنهم يتناوبون على استخدامها.

كان القائد يبلغ من العمر 28 سنة، والذي يدعوه أحد رجاله بالقائد الأسطوري. كان يعمل في الشرطة، ويرتدي قميصاً من جزيرة هاواي، وبدلة فضفاضة خضراء متسخة. كان هناك تميمة حول عنقه، وقال: "إنها تحميني من الرصاص، والشظايا، والعربات المدرعة والدبابات. لقد أعطتني إياها فتاتي في القرية. وهناك آيات من القرآن بداخلها".

قال رجل آخر يقيم في القبو ويبلغ من العمر 44 سنة: "نحن فقط ندافع عن أرضنا. هم يمتلكون طائرات، ومروحيات، وأنواع متعددة من الصواريخ، ومدافع هاون أما نحن فلا نمتلك سلاحاً سوى روحنا. لكننا نعلم لماذا نحن موجودون هنا. نحن لا نقاتل من أجل دودايف، ولسنا مهتمين بالسياسة؛ إننا نقاتل من أجل أرضنا. نحن نعرف ما حصل سنة 1944، وفي القرن التاسع عشر. لقد حاربنا مع الروس خلال التاريخ، ولم نعد نريدهم هنا الآن".

حتى في شباط، كانت وحدات مثل هذه منتشرة في كل أنحاء جنوب غروزني، وادّعى القادة السيطرة على ثلث المدينة. لكن ذلك كان مجرد دعاية. في الحقيقة، إن معظم المنطقة الواقعة جنوب غروزني الصغيرة، لم تكن أكثر من أرض مشاع. بقيت دبابة شيشانية واحدة في غروزني، كانت تقوم بإطلاق النار على المناطق المعزولة ثم تغيّر موقعها. وعند التحرّك في الشوارع سيراً على الأقدام، كان المقاتلون يحاولون تفادي التعرض للقتل بقذائف المدفعية عوضاً عن الاشتباك مع العدو. وفي مثل تلك الحالات، ومع انعدام التواصل اللاسلكي، كان التنسيق صعباً. وقال ليش، المتطوع اليافع: "إننا نقاتل، ولكن لا يوجد توجيه حقيقي لنا. وليس لدينا قادة، وإنما يستطيع أي شخص أن يضع يديه على سلاح ما".

مهما ساءت الأحوال، يستطيع المرء أن يشعر بالعنصر الجنوني في الأجواء؛ الشيشانيون الذين لا يتخاذلون مطلقاً، والذين لا يصدقون أبداً أنهم سيخسرون. كان أحد المقاتلين يقول: "لسنا نفكر بالفوز فقط، وإنما نحن واثقون من ذلك". بقي الشيشانيون في غروزني شهراً آخر بعد أن التقيت بذلك المقاتل، ولم أستطع أن أعرف أبداً فيما إذا كان قد نجا.

وجدت خارج غروزني، رجلاً عجوزاً يرتاح إلى جانب الطريق. وكان قد مشى مع زوجته إلى خارج المدينة وهما يحملان حقيبتين من المقتنيات. وسألتهما عن وجهتهما، وقالت المرأة ببساطة إلى هناك، وأشارت إلى الجنوب، إلى الجبال. وقال الرجل المسن: "هذا ليس قتالاً أو حرباً. وكل ما يفعلونه هو الضرب والتفجير، وتدمير المدينة بطريقة منهجية، شارعاً بعد آخر. كان هناك 15.000 شخص في حينها، ولم يكن هناك سوى 100 عندما غادرت. وحالما يتمّ تدمير منطقة ما، ينتقلون إلى التالية. سأغادر لفترة قصيرة، لكنني سأعود إلى وطني فيما بعد. غداً يبدأ شهر رمضان، وأحتاج للاستحمام استعداداً له، وحتى يمكنني الموت على نحو لائق".

تلعثم الرجل العجوز بالكلمات: "هذه تكتيكات المغول. ولا أفهم ماذا يفعلون، أو ما يفعله مقاتلونا لحل تلك المسألة. ولا يوجد فائز هنا، يجب أن يتوقفوا جميعاً". توقف الرجل العجوز قليلاً، ثم تابع: "لقد ولدت في الجبال، وكنت في التاسعة من عمري عندما تمّ نفينا إلى كازاخستان، لقد عشت في غروزني منذ عودتي. ومن يعلم، ربما كانوا يستعدون لنفينا مجدداً. ويقولون إن الرجال لا يبكون". واستدار يبكي.

في بداية شهر شباط، اخترقت الدبابات الروسية المدينة من الجنوب الشرقي، وأغلقت واحداً من آخر المخارج الكبيرة. وصمد البويفكس، ومعظمهم من كتيبة شامل باساييف، حتى نهاية الشهر، بعد ذلك، هربوا إلى أرياف الشمال بعدما شدد الخناق على المدينة. في 6 آذار سقطت غروزني رسمياً بعد احتلال حي تشيرنوريش الجنوبي.

تشير الأرقام الروسية الرسمية أنه بحلول نهاية شباط لقي قرابة 7000 بويفكس شيشاني حتفهم، إضافة إلى مقتل 1146 جندياً روسياً، وجرح 5000، وفقدان 40 آخرين ربما وقعوا أسرى. دون أدنى شك، تمّ تضخيم عدد القتلى الشيشانيين لأنه من غير المقبول أن يكون كل ذلك العدد على خطوط الجبهة. أما بالنسبة للروس، تقول تقارير غير رسمية أن خسائرهم كانت أكبر من ذلك بكثير. حيث قال ضابط استخبارات مسؤول عن الإحصائيات، بقي مجهول الهوية، إن 4000 جندي لقوا حتفهم. من المؤكد أن عائلات الجنود لم تصدق وزير الدفاع. وخاطرت عشرات ربات البيوت الروسيات بحياتهن، وتجوّلن في الجانب الشيشاني من الخطوط للبحث عن أولادهن. فيما قامت أخريات بتفتيش أماكن عرض الجثث (المشارح) وعربات القطارات المبرّدة في المعسكر الروسي الكبير في موزدوك. وتمّ إخبار أمهات أخريات بأن أبناءهن ماتوا، حيث حصلن على بعض البقايا لدفنها، ليكتشفن بعد ذلك أن أولادهن على قيد الحياة، وأن البقايا التي استلمنها تعود لجنود آخرين مجهولي الهوية.

ورغم أن المدنيين تعرضوا لأعنف الغارات، إلا أنه من المستحيل تقريباً تحديد أعدادهم بدقة. هناك تقديرات تشير إلى أن 120.000 شخص بقوا في غروزني خلال المعركة التي استمرت تسعة أسابيع، ومعظمهم من أصل روسي. ووزّعت منظمة حقوق الإنسان الروسية ميموريال دراسة شملت 400 لاجئ، وقدّرت أعداد القتلى في غروزني بحوالى 25.000 شخص. ويبدو ذلك الرقم كبيراً جداً، لكن قد لا يعرف أحد الأرقام الحقيقية أبداً.

رغم التوقعات الجديدة بانتهاء الحرب، إلا أن المقاومة انتشرت عبر الشيشان مثل النار في الهشيم، مما استلزم استخدام قرابة 80.000 جندي روسي في نفس الوقت. وحتى في غروزني، لم يستطع الرئيس يلتسن تحقيق أي انتصار. وحوّلت حملته لإعادة النظام الدستوري المدينة إلى أرض قاحلة من الحجارة والألغام الأرضية والكلاب الجائعة التي تبحث عن الجثث البشرية الملقاة في الشوارع، والتي حافظت على شكلها لوقت طويل بسبب البرد.

تحوّلت أنقاض القصر الرئاسي إلى نصب تذكاري، وبقيت رايات الثوار الخضراء تظهر على الجدران بعد وقت طويل من استيلاء الروس على غروزني. وبعد سنة، لم تبدُ نهاية الحرب في الأفق، لقد دمّر الروس الغاضبون المبنى بتفجيرات يمكن التحكم بها. وكل ما تبقّى كان أكواماً كبيرة من الأنقاض الإسمنتية. ولا يزال الناس يشيرون إليها بوصفها القصر الرئاسي.

موسكو

أعلن الرئيس يلتسن على الملأ في مناسبتين بأنه أمر القوى الجوية بإيقاف القصف على غروزني. ولكن القصف استمر.

في 5 كانون الثاني 1995، عاد سيرجي كوفاليف، المنشق السوفياتي السابق والمدافع عن حقوق الإنسان، إلى موسكو بعد قضاء ثلاثة أسابيع في غروزني. كان ضعيفاً، منهك القوى، ونظارته السميكة تعلو أنفه، ولم يكن لدى كوفاليف سوى سؤال واحد: "من يكذب؟."

"سوف أضع هذا السؤال بتصرف الرئيس: ماذا يدور في تفكيره عندما يخاطب الناس؟ هل نسي إصدار الأمر الذي صرّح به علناً، أم أن القرار لم ينفذ؟... ربما لا يستطيع أحد أن يكذب عليه بصفاقة كما يفعلون معنا، لأنه يجب أن يكون المرء أحمقاً للغاية ليصدق كل تلك الأكاذيب. وحاولت الدعاية النازية أن تبدو صحيحة على الأقل."

2. الإنسان ضد الآلة

"لن ترى أشخاصاً يحاربون هنا، وإنما مجرد آلات فقط."

محارب شيشاني ينسحب من مدينة شالي،

وهي آخر بلدة سيطر عليها الثوار في السهول.

كانت غروزني مكاناً يستطيع فيه جيش الثوار القتال، وكان فيها أقبية وجدران، وأماكن للنوم، والأكل، والاختباء، وأماكن لنصب الكمائن بالإضافة إلى نقاط استراتيجية حيث تستطيع وحدة مؤلفة من 20 رجلاً صدّ الدبابات الروسية القوية. لكن في السهول الجنوبية، لم يكن هناك أي من ذلك وهذا ما أدّى لتراجع الشيشانيين.

تنتشر السهول على مساحة تعادل اتساع هولندا، ومعظمها خالية من الأشجار. إلى جانب غروزني، كان معظم الشيشانيين يعيشون في هذه المنطقة: بلدات ريفية مثل أوروس مارتان، وشالي؛ وقرى خصبة مثل جيرمنشك، والمدينتان الوحيدتان إلى جانب غروزني أرغون وغوديرمز. إلى الجنوب من تلك المناطق، هناك إقليم الثوار الطبيعي في جبال القوقاز، حيث ترتفع التلال المغطّاة بالأشجار من السهول، مع العشرات من القرى الموجودة في الوديان، والى الأعلى توجد المنحدرات الصخرية العارية والشاهقة، الأقل سكّانا، والتي توجد فوقها أخيراً القمم العالية المكسوة بالثلوج بشكل دائم.

عندما انسحب الشيشانيون من غروزني، كان الجنرال مسخادوف شديد الصلابة، ولم يأمر بانسحاب مباشر إلى الجبال، وإنما بالقتال من أجل كل شبر من الأراضي المنبسطة. وبالنسبة لمسخادوف، كانت تلك مسألة شرف، ومفتاحاً لصراع أوسع يحدد من كان على صواب: الكرملين، الذي صنف الانفصاليين الشيشان مع قطّاع الطرق، أم الشيشانيين الذين أعلنوا دولتهم الشرعية المستقلة؟

أخبرني مسخادوف في شالي: "يسعى الروس للسيطرة على غوديرمز، وبعد ذلك شالي، ودفعنا إلى الجبال. ثم سيعلنون بأنهم ربحوا الحرب، ويقولون إننا مجرد قطّاع طرق نختبئ في التلال. وكل ما أريده هو أن أظهر مستعداً لخوض حرب حقيقية، جيش ضد جيش، وموقع ضد موقع. كانت تلك رؤياه ونظرته في إيقاف الجيش الروسي المحمول على أرض منبسطة مكشوفة، باستخدام بضعة آلاف من جنود المشاة المتطوعين الذين يفتقرون للتدريب العالي.

كانت الأسلحة الثقيلة ملكة الأراضي المنبسطة، وليس أسلحة جنود المشاة القصيرة المدى مثل القذائف المضادة للدروع والبنادق القاتلة في المدينة. كانت السماء تهتز وترتعد خلال المعارك الليلية. كان الشيشانيون لا يزالون يملكون صواريخ غراد التي ينطلق العشرات منها في نفس الوقت بلهب أحمر، نحو الصفوف الروسية، وتنفجر بوميض أصفر الواحدة تلو الأخرى. بعدها يأتي الرّد، بوابل كثيف من النيران التي تخطئ الهدف أحياناً: المدفعية، وصواريخ الغراد التي تضيء انفجاراتها سماء الليل، ونيران المدافع الآلية والرصاص الذي يخّلف خطاً أحمر أو أصفر خلفه. كان هناك جمال في العنف.

كانت رشاشات المروحيات فعّالة أكثر من ذي قبل، وكانت تطير بسرعة على ارتفاع منخفض بحيث يمكن رؤيتها فوق أسطح المنازل أو صفوف الأشجار، فترجو من الله أن لا تلحظك على الطريق أو في الميدان. كان المقاتلون يحفرون الخنادق، ولكن طائرات المراقبة كانت تصور مواقعهم وتقود نيران المدفعية إليها. إذا لم تكن المدفعية كافية، كانت الطائرات تستطيع قصف المواقع بدقة، وكانت أهدافها مرئية كأنها مرسومة على ورقة.

كانت دفاعات الشيشانيين الوحيدة هي الضباب والغيوم المنخفضة خلال شهور الشتاء، وعدد صغير من المدافع المضادة للطائرات. بشكل عام، كانت نيران الرشاشات تتسبب بانفجارات ضخمة، وكان الدخول في القرى أو الاحتماء فيها التغطية الوحيدة المتوافرة للمقاتلين، والتي قد تحاصرها العربات المدرعة الروسية خلال ساعات، والتي كانت تتحرك بسهولة عبر الحقول بعيداً عن مدى معظم أسلحة المشاة المضادة للدروع، وحالما تتعرض قرية ما للحصار، كان مقاتلو البويفكس يوجهون القوى النارية الروسية باتجاه السكان المدنيين المحاصرين.

الأسوأ من ذلك، أن الحرب الطويلة الأمد أظهرت إحدى نقاط الضعف الاستراتيجية الرئيسية للشيشانيين، والتي تتمثل بعدم وجود المنفذ نحو قوة حليفة عبر الحدود كما كان الحال مع الثوار الفيتناميين، الجزائريين أو الأفغان. الدولة الوحيدة التي تحاذي الشيشان هي جورجيا، ولكن المعابر إليها مغلقة بجبال القوقاز. في الحقيقة كان هناك الكثير من المناصرين في داغستان إلى الشرق وفي أنغوشيا إلى الغرب، وكان يوجد طريق إمداد غير مباشر من تركيا عبر أذربيجان وبعد ذلك داغستان. لكن تلك المناطق الحدودية كانت بعيدة جداً عن المخابئ الآمنة لأنها كانت تحت السيطرة الروسية جزئياً على الأقل، وكان على نشاطات الثوار هناك أن تبقى سرية. لم يكن لدى الروس، من ناحية أخرى، أي من هذه المشاكل. فقدكانت الطائرات المحمّلة بالقنابل تستطيع الطيران من قواعدها في جنوب روسيا في غضون دقائق، وتمركزت المروحيات في مطارات غروزني، فيما كان جنود المشاة يستطيعون الانتقال بسرعة إما براً أو عبر السكك الحديدية.

كنت أعتقد في ذلك الوقت أن قوات مسخادوف - وكما وعد - كانت تحارب من موقع إلى آخر ضد واحد من أكثر جيوش العالم قوةً، ولكن التضحية كانت بلا جدوى. في الحقيقة، كانت قواته تتراجع كل أسبوع إلى مناطق أبعد، ولم تكن سوى مسألة وقت قبل أن يفرّوا إلى التلال، ويتركوا خلفهم القرى المدمرة.

بينما كان مسخادوف يتشاور مع القادة في شالي، والذين كانوا يجلسون القرفصاء في الساحة الرئيسية فيما باشر أحدهم برسم خريطة في التراب، ظهرت مروحية فجأة في سماء القرية وفتحت النار عليهم، رد الشيشانيون بفتح نيران رشاشاتهم من نافذة فوقنا. كان من المتوقع حدوث قصف مدفعي في أي لحظة، وبدأنا بالاختباء. كانت حرب مسخادوف النظامية تدور في كل المناطق المحيطة بنا. ولا داع للقول إنه غادر مع حراسه الشخصيين الساحة الرئيسية بسرعة.

رغم ذلك، كان للاستراتيجية منهج قاسٍ. ألحّت حكومة جوهر دوداييف بأنها المكافئ القانوني للكرملين منذ البداية. ولا يمكن قبول أي محادثات سلام ما لم تكن بين دولتين مستقلتين، وليس بين روسيا وبعض الأقاليم المنفصلة. قام مسخادوف بتوسيع تلك المواجهة إلى ميدان القتال. وادّعت روسيا بأنها تحارب قطّاع الطرق الشيشانيين، ولكنّ مسخادوف أجبر الجيش الروسي على الاعتراف بأنه يحارب جيشاً شيشانياً نظامياً، مهما كان الثمن.

تسوتسين يورت

كان سعيد مطأطئ الرأس، يركض على طول الخندق الملتوي والموحل خارج قرية تسوتسين يورت، وبعد ذلك عبر أرض قاسية ثم أعلى مرتفع أرضي طبيعي. وزحف إلى أعلى المرتفع وطلب مني اللحاق به. وسلّمني المنظار. كانت الدبابات الروسية تتقدم على بعد مئتي متر في الحقل المنبسط. كانت مدافع الدبابات الطويلة تتوجه فوق رؤوسنا باتجاه القرية خلفنا.

قال سعيد: "لا أريد أن أقاتل، وأتمنى أن يوضع دوداييف في حلبة ملاكمة مع يلتسن ليتقاتلا بنفسيهما. لكنني أدافع عن وطني. لقد فقدنا غروزني وآرغون، وقد نفقد شالي قريباً إذا لم ينصرنا الله، وقد نفقد تسوتسين يورت أيضاً. لا يمكن للمرء أن يتوقع مني التخلي عن سلاحي لأن ذلك سخيف. لقد تحدثت خلال المفاوضات مع القادة الروس في وسط هذا الميدان تماماً. إنهم بشر، إنهم لا يريدون أن يحاربوا بتاتاً، إنهم يريدون الذهاب إلى وطنهم. لا أحد يريد القتال."

"لدينا هذا الخندق هنا، لكنه لا شيء في الواقع. إنهم يستطيعون جعل الصواريخ تنهال عليه في أي لحظة يريدون. إنهم يملكون جميع المعدات. إنهم لا يحاولون اجتياحنا براً، لقد توقفوا عن فعل ذلك منذ معركة رأس السنة الجديدة في غروزني. سوف يبدأون ببساطة بإطلاق النار من مسافة بعيدة، لأنهم يعرفون كيف يقومون بذلك. وسنموت إذا كان يتوجب علينا ذلك."

فرزت الحرب في السهول المحاربين المتمرسين من الرجال الذين يقاتلون بشكل جزئي في أثناء ارتفاع حمّى الوطنية خلال المعركة في غروزني. كانت الحافلات والشاحنات، التي امتلأت واجهاتها بالشظايا في شهري شباط وآذار، تنقل الرجال الذين ظهر عليهم التوتر والانفعال. كما ظهر التوتر أيضاً في القرى، التي أعلنت نفسها حيادية خوفاً من التعرض للقصف، ومنعت دخول مقاتلي البويفكس إليها.

بقيت أوروس مارتان، التي كان لقادتها تاريخ في معارضة دوداييف، خارج الحرب منذ البداية، ونتيجة لذلك تمتعت بأمان فريد من نوعه في ذلك الاضطراب الكبير، وتضخم عدد سكانها حتى أصبح أكثر من 50.000 شخص. خارج قرية غويتي، والتي تقع على مسار التقدم الروسي وتمتلك قوات مسلحة قوية معادية لدوداييف، تناقش الكبار بحدة مع مجموعة من المقاتلين الشيشانيين ومع بعضهم البعض. لقد كانوا أمة واحدة، ولكنهم انقسموا الآن للأبد، وكان الزعماء يرتدون معاطفهم وقبعاتهم الطويلة، فيما كان المحاربون اليافعون يرتدون ثيابهم الفضفاضة البيضاء وأحذيتهم الملوثة بالطين. مثل هذه القرى كانت خائنة بالنسبة للبويفكس، لكنّ سكان قرية غويتي وكثيرين آخرين رأوا تدمير غروزني، وكانوا يعرفون أن مجتمعاتهم القروية أكثر هشاشة من ذلك بكثير. وكانوا يعرفون أيضاً أن الروس لن يتوقفوا عند حدٍّ معين، ولهذا عملوا حتى لا تكون قراهم مناطق حرب.

اعتزل الكثير من البويفكس العمل في ذلك الوقت، إما لأنهم لم يروا أي أمل في الاستمرار، أو لأنهم كانوا غير قادرين جسدياً. ونشأ البعض الآخر مريضاً من العناصر الإجرامية التي انتشرت في قوى المقاومة، وأمراء الحرب التافهين، والغنائم، وقطع الرقاب بحيث لم يعد هناك شيء أفضل بالنسبة لهم من القتال. وكانت الأسلحة والذخيرة تنفد من المحاربين في كل مكان.

وقرر غسان، وهو شاب في بداية الثلاثينيات، التوقف عن القتال في آذار والعودة إلى عائلته: "قلت إنني لن أكون جزءاً من تلك اللعبة بعد الآن. إن لديهم الطائرات التي تقصفنا والدبابات التي تطلق علينا النار، ولغاية اليوم لم أرَ طائرة أو دبابة واحدة إلى جانبنا".

وتكلمت إليه طويلاً بعد كل ما حدث، ولكن سرعان ما خيّمت المرارة والحزن على صوته: "كنا تقريباً آخر الناس الذين قاتلوا في غروزني. وعندما انسحبنا، قمنا بعبور نهر سونزها. ولم نستطع استخدام، وغضنا إلى أعناقنا في تلك المياه المتجمدة. وتعرّضت للإصابة مرتين بسبب الشظايا،

ولقي ثلاثة من 18 شخصاً في مجموعتي حتفهم. ولكني فهمت الآن بأن تلك لم تكن سوى مسرحية هزلية. وأستطيع الخروج الآن وقتل جندي روسي، ولكن تلك ليست معركة قتالية".

"أعتقد أن دوداييف كان يعتمد على مساعدة جيراننا القوقازيين، ولكن لم يساعدونا أبداً. ولم يساعدنا أحد. وكان رجال الأعمال وأفراد العصابات أول من غادر. وذهبوا جميعهم إلى بيوت كبيرة بأمان، وتركوا الناس الفقراء خلفهم والذين حملوا السلاح وقاتلوا. ويبدو أننا قمنا باختيار خاطئ".

لكن مقابل كل بضعة مترددين، أفرزت الحرب مقاتلاً انتحارياً، وهم جوهر القوة القتالية التي قاتلت منذ اليوم الأول والتي ستقاتل حتى النهاية. وفي قرية ستاري أتشخوي الجنوبية، قال رسلان الثائر الطويل الأحمر الشعر والذي شارك في كل جبهات القتال، أنه كان يحاول التمسك بموقعه؛ وكان ذلك الهدف الوحيد.

ومثل غسان، كان يعرف بأنه لا يستطيع تحطيم الجيش الروسي. وقال رسلان: "يمكننا إيقاع رتل عسكري في كمين، وحتى تدميره. ولكن لديهم اتصالات، ويمكنهم استدعاء المروحيات والطائرات خلال ست ثوان فقط. وفي البداية، لم نتخيل ذلك مطلقاً؛ القصف المدفعي والجوي. وكنا نعتقد أننا سنخوض قتالاً قريب المدى؛ رجل لرجل. كيف بوسعنا أن نعرف ما سيحصل؟ واعتقدنا أننا سنحارب في المدينة، ولكن بعد ذلك انتقل القتال إلى القرى".

وبدلاً من الاستسلام، دخل رسلان حرباً شخصية من الندم سوف تستمر للنهاية. وقال:"يجب أن نتابع حياتنا الآن".

وكنا نقابل بعض الشخصيات الضئيلة الحجم التي تحمل البندقية في يدها ضمن مقاتلي البويفكس. وكان هؤلاء أطفالاً فقدوا كل شيء وأصبحوا محاربين عديمي الشفقة. وكان ماجومد، يتيماً يبلغ من العمر 13 سنة، والذي قابلته في آذار. وكان يرتدي عمامة خضراء حول خوذة التمويه، وتتدلى أربع قنابل يدوية من شريط قطني على صدره الصغير. ولم يصبح صوته رجولياً بعد، ولكنه قتل وسوف يقتل من جديد.

وبدأ كلامه:"ليس لديّ أم، واختفى والدي قبل الحرب. وكان لديّ ستة أعمام عندما بدأت الحرب، ولقي اثنان منهم حتفهما، ولم يتبقَ لي شيء الآن. ولهذا ذهبت للقتال، ولكن أقاربي منعوني من الذهاب مرتين واستسلموا بعدها. ووجدت مجموعة من المقاتلين وسألوني لماذا لست في المنزل. وشرحت لهم السبب؛ أعطوني بندقية، وسأمضي في هذا الطريق حتى النهاية".

وتعرّض ماجومد للإصابة مرتين. واخترقت رصاصة قنّاص ساقه اليمنى، وأصابت شظية ظهره وقدمه اليمنى. وقال:"أنا مندهش لأنني ما زلت على قيد الحياة". وكان من الصعب التحدث إلى ماجومد لأن عمره لم يكن يتجاوز 13 سنة فقط، ولكن نظرته تبدو لرجل يبلغ من العمر 20 سنة، وعندما رأيته يلتقط بندقيته الكلاشينكوف بطول جسده تقريباً، كان المنظر مضحكاً، ثم مذهلاً، وبعد ذلك حزيناً بشكل بائس. وقال: "كنت أذهب للمدرسة من قبل، وكنت طبيعياً. أما الآن فإن حلمي الوحيد بأن يغادر الروس من هنا".

ومنذ اليوم الأول للمعركة، تمّ إجبار الكثير من البويفكس على القتال ثأراً لقيام الروس بقصف أقاربهم وأصدقائهم. وكان العنف الشديد ضد المدنيين، وخاصة من قبل القوى الجوية، حافزاً لتطوع الكثير من الناس للقتال مع الانفصاليين. وكانت القنابل تسقط في كل مكان، دون منطق أو تخطيط، على الطرقات، والبيوت الصغيرة، والمباني السكنية، والغابات، وحتى في وسط الحقول الواسعة الفارغة. وقتلت أو جرحت الغارة الجوية على مدينة شالي في بداية كانون الثاني ما يقارب 100 شخص كانوا يتجمعون في السوق. وعادت الطائرات لتقصف المستشفى في نفس اليوم.

ولأن الشيشان مكان صغير، لا يمكن لأحد أن ينسى الحرب. وربما لم تتعرض قرية أحدهم للقصف، ولكن الأجواء كانت مليئة كل يوم بأصوات الطائرات الحربية والإنفجارات. وفي مناسبات نادرة، كانت السماء الرمادية تصبح صافية، وكانت الطائرات تحلّق على ارتفاع منخفض وتنطلق عبر الغيوم، ويتمكن الشيشانيون أخيراً من رؤية معذبيهم. ويسرع الآباء لإبعاد أبنائهم عن الشوارع، وحتى في القرى المعادية لدوداييف كان الرجال يرفعون أبصارهم عالياً ويلعنون. وقرأت عن رجل كان يطلق النار يومياً مع ابنه الصغير على صورة قائد القوى الجوية الروسية بيوتر دينكن.

وفي شباط، أسقط مقاتلو البويفكس إحدى تلك الطائرات النفاثة التي كانت تطير على ارتفاع منخفض قرب آول في الشيشان باستخدام سلاح مضاد للطائرات. وضحك مقاتل شيشاني كان يجلس لالتقاط الصور بجانب مؤخرة الطائرة التي تحمل نجمة السوفيات الحمراء وقال: "لا مزيد من الطيران بالنسبة له". وتبعثر بقية الحطام عبر الميدان المليء بالثلج.

وسألت عن الطيار فقال لي مقاتل آخر يدعى سلطان: "حاول الخروج من القمرة، لكن مظلته خذلته، وكان لا يزال حياً عندما ضرب الأرض، ولكنّ قدميه تحطمتا ويديه تمزقتا. وكانت الكلمات الوحيدة الذي قالها: "الديّ منزل وابن".

وسألت عما حصل بعد ذلك، ومرر سلطان إصبعه على عنقه وابتسم، ولكنّ مقاتلاً آخر قاطعه بسرعة: "لا، لا، إنه يمزح. لقد أخذناه إلى المستشفى ولكنه كان ميتاً عندها". ثم قال بعد أن شاهد أنني صدّقت سلطان؛ كانوا يخبرونني دائماً بأن الثوار يقطعون رؤوس الجواسيس والطيارين: "أظهرت وثائق الرحلة أنه قصف غروزني 17 مرة. هل تستطيع أن تتخيل؟".

> *"بعد سماعه أن الشيشانيين، الذين حصروا أنفسهم في ثلاثة بيوت ورفضوا الاستسلام، يطلقون النار بكثافة وأنهم قتلوا المقدّم وجرحوا عدة جنود، جلس فولكفسكي (رئيس الأركان) مع العقيد برومر الذي يقوم المدفعية وفسيوفولوفسكي وبوغدانوفيش لإيجاد حل للمشكلة.*
>
> **...وتمّ إحضار أسلحة خفيفة، واخترق الرصاص البيوت الثلاثة من الطرف إلى الطرف. وبعد الجولة الثانية، سارع الناس ليقولوا بأننا نضرب شعبنا من ناحية أخرى. وإذا قمنا بتأمين جانب واحد بالرماة الماهرين، فإن ذلك سيفتح طريقاً أمام العدو للهرب. ولم يكن ممكناً التفكير بذلك، ولهذا أعطيت الأوامر لإيقاف إطلاق النار وإحراق المنازل.**
>
> **...وشيئاً فشيئاً، توسعت النيران لتطال المنزلين الآخرين؛ ولم يكن أمام العدو سوى الاستسلام أو الموت حرقاً.**
>
> **...توقف إطلاق النار عندما تقدم أتارشكوف وصرخ بالشيشانية أنه يريد التفاوض. واستمع المدافعون للعرض وتشاوروا مع بعضهم لبضع دقائق، وبعد ذلك ظهر شيشاني نصف عارٍ، وقد تحول لونه إلى الأسود من الدخان، وألقى خطاباً قصيراً، تبعه وابل من النار من كل الفجوات.**
>
> **وكان لأقواله التأثير الآتي: "لا نريد الاستسلام، والمعروف الوحيد الذي نطلبه من الروس هو أن يخبروا عائلاتنا بأننا متنا مثلما عشنا بعد أن رفضنا الخنوع لأي قمع أجنبي."**
>
> **وأنشد الشيشانيون، العازمون على الموت بقوة، أغنية موتهم، وكانت أصواتهم مرتفعة في البداية وتنخفض شيئاً فشيئاً كلما تناقصت أعدادهم بتأثير النيران والدخان... ومن الأنقاض التي يخرج منها الدخان، زحف ستة جرحى داغستانيون، الذين بقوا على قيد الحياة بما يشبه المعجزة؛ ورفعهم الجنود وحملوهم إلى الإسعاف. ولم يتمّ القبض على أي شيشاني حياً؛ وانهى اثنان وسبعون رجلاً حياتهم في ألسنة اللهب."!**

تطويق الشيشانيين سنة 1832 في قرية غيرمنشوك كما وصفه الجنرال الروسي تورناو.

كانت ساماشكي، الواقعة غرب الشيشان، قرية سهلية مثالية - يعيش حوالى 4.000 شخص في متاهة مزدهرة من المنازل القرميدية المحاطة بالبوابات الخضراء - الزرقاء، والباحات، وحيوانات المزارع، ودوالي العنب والأراضي المزروعة بالخضار. وإذا كانت غروزني ذائعة الصيت بسبب

تمركز المقاتلين فيها، فإن ساماشكي هي المدينة المنسية؛ القرية العادية التي لم يسمع بها أحد، والتي أصبحت فجأة عرضة لدوّامة من العنف الوحشي والبدائي لدرجة أن هؤلاء الذين اعتادوا على العنف تعرضوا للصدمة فيها.

بدأ كل شيء في نهاية كانون الثاني مع واحدة من تلك المناوشات القصيرة والتي لا تحمل أي معنى، والتي انطلقت في جميع أنحاء الشيشان بعد أن ترك المقاتلون غروزني تدريجياً واتخذوا مواقع لهم في قراهم. واندفع رتل مكوّن من حوالى اثنتي عشرة دبابة، وحاملات الجند المدرّعة وشاحنة اتصالات في الجزء الشمالي من ساماشكي عند غروب الشمس في يوم ضبابي وبارد. ولم يكن هناك تحذير مسبق، ولا قصف مدفعي تمهيدي، ولا دعم جوي. ودخل الرتل، الذي كان يتحرك بتشكيل متقارب، إلى ما كان الجميع يعتبرها قرية عدائية. وربما يكون الروس قد ضلّوا الطريق أو أن أوامرهم كانت غير واضحة.

وكان ردّ فعل رجال ساماشكي مماثلاً لرد فعل كل القرويين في الشيشان على الغزو المسلح: قفز حوالى 30 مراهقاً ورجلاً إلى شاحنة مع أسلحة مضادة للدروع وبنادق، وهم يصرخون بمتعة ويطلبون منا البقاء بعيداً. وتسابقوا إلى طرف القرية واختبأوا، وعندما أصبح الرتل في مدى أسلحتهم، فتحوا عليه النار.

وفي الصباح التالي، كانت جثث ثلاثة شبان روس لا تزال ملقاة في الوحل تحدّق نحو السماء، والأوساخ والدماء في أفواههم المفتوحة. وتناثرت حولهم بقايا عرباتهم وثياب رفاق السلاح القتلى. وأصابت قذيفة مضادة للدروع مستودع ذخيرة إحدى الدبابات، واستقر برجها على بعد 10 أمتار عن بقية الآلة. وقد تنحّت شاحنة الإتصالات إلى جانب الطريق.

وكان الاشتباك بدون نظام أو تخطيط. ولم تكن تلك حرباً بالنسبة للقرويين في ساماشكي؛ كانت دفاعاً عن الوطن. وهذا ما كانت تعتمد عليه القيادة الانفصالية عندما اتسع نطاق الحرب إلى خارج غروزني.

وصرخ رجل غاضب مشيراً إلى الجثث: "هذا ما حصل للروس عندما أتوا إلينا وهم سكارى!". وقال رجل آخر يدعى ماجومد: "ليس لدينا مكان آخر نذهب إليه. هذا وطننا ولن نغادره. ولن أبقى لأنني أكثر شجاعة من الآخرين، وإنما هي روحنا التي تدفعنا للبقاء. لقد ولدنا معها، ورضعتها مع حليب أمي".

وكان الرد بسيطاً: حاصر الجنود الروسيين في عرباتهم المدرّعة ساماشكي، ثم قصفوا القرية بقذائف الدبابات ومدافع الهاون. ثم جاءت المروحيات لتقصف الشوارع والمنازل. ولقي حوالى20 شخصاً حتفهم أو تعرضوا للإصابة، وكان هناك جرحى ماتوا بسبب النزيف لأنه لم يستطع أحدٌ إخراجهم من القرية المحاصرة. وبعد خمس ساعات، ابتعدت العربات الروسية المدّرعة عن القرية.

كانت الغارة العقابية روتينية، ولكن الأسوأ كان قادماً. وأرادت القوات الروسية، التي كانت تشق طريقها عبر شرق الشيشان، أن تُحكم سيطرتها في الغرب ولهذا كانت بحاجة إلى ساماشكي. وخوفاً من الأسوأ، طلب الكبار من جيش البويفكس مغادرة القرية، ولم يتبقَ سوى حوالى 50 رجلاً محلياً يحملون السلاح. ولم يكن ذلك كافياً بالنسبة للروس الذين أرادوا استسلام المدينة بالكامل.

وكانت هناك اشتباكات عديدة مع القوات التي حاولت الاقتراب من القرية، وهناك حالات قام بها المزارعون المحليون بقيادة جراراتهم فوق مناطق الألغام الأرضية التي تركها الروس. وفي كل أسبوع، كان الكبار والقادة الدينيون ينطلقون للتفاوض مع القوات الروسية التي نزلت في الحقول

المجاورة، وكانوا يلتمسون منهم أن لا يجتاحوا القرية، والتي لا تشكّل أي تهديد. ولكن ساماشكي كانت قد حصلت على سمعتها، وكانت شياطين الانتقام والرغبة في سفك الدماء قد انطلقت.

وفي 6 نيسان، سلمت قوات وزارة الداخلية الروسية التي تحاصر القرية إنذاراً يقول: عند الساعة السابعة صباحاً من 7 نيسان، يجب أن تسمح ساماشكي للجنود الروس بالدخول، ويجب تسليم 264 بندقية، ورشاشين وعربة جند مدرعة.

وأجاب الكبار بأنه لا يوجد لديهم ذلك العدد من الأسلحة في القرية، وأنهم يحتاجون إلى المزيد من الوقت لمحاولة نزع فتيل التوتر. ولكن الإنذار استمر. وأخبر العقيد الكبار بأن القوات ستدخل القرية في الصباح التالي، وأنه إذا كان هناك إطلاق نار من أحد المنازل، سيتمّ تدميره بالدبابات. وكانت تلك هي القواعد.

وفي تلك الليلة، بدأت المدفعية الروسية بإطلاق النار على ساماشكي. وبدأ القصف الجوي قبل بضع ساعات من انتهاء مهلة الإنذار. وفي الصباح الباكر من 7 نيسان، تعرضت القرية لوابل من نيران المدفعية الآلية المستمرة. وعند الظهيرة، حاولت مجموعات كبيرة من القرويين المغادرة، ولكن معظمهم عاد بسبب إطلاق النار. والتقى وفد من الكبار مجدداً مع ضباط وزارة الداخلية الروسية، والذين أخبروهم مجدداً: "سلّموا الأسلحة".

وكانت الرواية الرسمية لما حدث أن القوات الروسية تقدمت لتدخل القرية واشتبكت في معركة شرسة مع أكثر من 300 مقاتل مجهزين بالسلاح من جيش الانفصاليين، وقد أظهر المهاجمون بطولة كبيرة. وقالت إيتار - تاس في تقريرها بأن 130 من مناصري دوداييف لقوا حتفهم خلال المعركة.

وتقول رواية الناجين، وشهود العيان وجماعات حقوق الإنسان أن قوة وزارة الداخلية المكوّنة من 350 فرداً، بما فيها وحدات من النحبة، لم تلقَ سوى معارضة محدودة مما يصل إلى 40 مواطناً محلياً وليسوا دخلاء من الجيش المركزي، ثم بدأت تلك القوة بتنفيذ مجرزة وسلب القرية بشكل منظّم. ووفقاً لتقرير ميموريال لحقوق الإنسان، كان هناك أكثر من 100 جثة بعد القتال، معظمها لرجال غير مسلحين، ونساء، وأطفال، وشيوخ، وليس لمقاتلين شيشانيين.

ووفقاً لدراسة ميموريال، لقي العديدون حتفهم نتيجة لقصف المدفعية والهاون التمهيدي. ومات المزيد عندما اجتاحت القوات الشوارع في عرباتها المدرّعة، وأطلقت النار من رشاشاتها ومدافعها الثقيلة على المنازل وكل من رأوه يتحرك. وبدأ ما كان الرسميون الروس يسمونه "التطهير" في ساماشكي في صباح الثامن من نيسان. وكنت موجوداً أثناء تلك العملية، وشاهدت وحشية الجنود الروس بعد أن توقفت المقاومة المسلحة عن القتال. وقال سكان ساماشكي بأن الجنود الروس أحرقوا النساء وهنّ أحياء، واصطادوا الشيوخ في الشوارع باستخدام بنادقهم، وقذفوا قنابل يدوية في أقبية المنازل حيث كانت العائلات تحتمي، وقاموا بإعدام الناس في منازلهم.

وبالطبع، أنكرت وزارة الداخلية والحكومة ذلك، واعتبر البرلمان الذي يسيطر عليه الشيوعيون أن تقرير ميموريال مثير للسخرية. ولكنّ المدافعين عن القضية واجهوا كماً هائلاً من تقارير الشهود الذين كانوا على قيد الحياة، إضافة إلى وجود جثث المدنيين المحترقة والمصابة، والتدمير الذي لحق بالمباني نتيجة إضرام النار فيها عمداً وليس نتيجة القتال.

واحترقت الكثير من المنازل من الداخل، ولم تنفجر نتيجة تعرضها لقصف مدفعي. وانتشرت آثار الرصاص وشظايا القنابل على الجدران الداخلية مثل الرذاذ، فيما لم تظهر أي آثار للعنف على تلك كانت المنازل التي لقي فيها المدنيون حتفهم.

وكانت الإصابات البشرية، بحسب ميموريال، مروّعة: أكثر من 100 قتيل معروفة أسماؤهم وعناوينهم. ومن بين هؤلاء كان عدد الرجال بين 19 - 45 سنة، وهو عمر حمل السلاح بنشاط، 45 رجلاً. وكان البقية 13 امرأة وسبعة أطفال تحت سن 18، و19 رجلاً بين 46 - 60 عاماً، و20 رجلاً فوق 61 سنة. وكانت أصغر ضحية تبلغ من العمر 15 سنة، وأكبر ضحية 96 سنة. وكان هناك أربعة سكان من أصل روسي مصابين في منازلهم. ونجا أحدهم، ودعمت الدلائل الحسية روايته للأحداث: جدار داخلي مليء بثقوب الرصاص وبحيرات من الدماء أسفله.

وكان يوسف سعد الله أحد الذين نجوا من مذبحة ساماشكي، وهو رجل كهل يعيش في شارع فيكونيا. وقام بإبعاد عائلته عن القرية قبل انتهاء مدة الإنذار الأساسية فيما بقي هو فيها على غرار عادة الشيشانيين، وكان ينوي المغادرة في الدقيقة الأخيرة. وانتظر طويلاً وكان مجبراً على المكوث في منزله الفارغ حتى نهاية القتال.

لم يكن هناك قتال في منطقته خلال ليلتي السابع والثامن من نيسان. ولكن في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثامن، ركض الجنود في شارعه وهم يصرخون: "أيها الكلاب، اخرجوا"، وأطلقوا النار بعدها من بنادقهم على البيوت. وقال سعد الله أنه ركض واختبأ في قبوه الصغير عندما وصل الجنود إلى بابه.

> **"جلست متكئاً على الجدار الأيمن. وكنت قد وضعت هناك سريراً صغيراً لأرتاح عليه عندما يكون هناك خطر. وأطلق الجندي النار على ذلك المكان تماماً. وبعدها كان على وشك أن يغادر عندما قال له زميله: "قد يكون هناك شخص ما على قيد الحياة هنا". وعاد ورمى بقنبلة يدوية، ثم سمعت صوتاً خفيفاً تبين فيما بعد أنه لتهيئة البندقية. وقلت في نفسي: "حسناً، إنها النهاية. لقد انتهيت وأريد أن أموت بهدوء". ولم أكن حتى خائفا. وانفجرت القنبلة وانكسر السرير الخشبي المتين، ولم أسمع شيئاً بعدها. لقد انفجرت القنبلة تحت السرير، وأصاب شيء ما أكتافي وساقي، وسقطت على ركبتي أصماً تماماً.**
>
> **...وبدأوا يغادرون، واعتقدت أنهم ذهبوا. وتفقدت ساقيّ وحركتهما إلى اليمين والشمال، وكانتا على ما يرام وليستا مكسورتين. لقد ضربهما شيء ما لا أدري ما هو بالضبط. وكانت الدماء تسيل من ذراعيّ. وخرجت من المنزل. وكانوا قد أخذوا الخزنة الصغيرة التي أحتفظ فيها ببعض النقود والأوراق. وكان اثنان منهم يحاولان فتحها فيما كان الثالث يحرسهما وهو يطلق النار على المنزل. يا إلهي! إذا رأوني، سيحاولون قتلي مجدداً للمرة الثالثة."**

وفي نهاية شهر آذار، انفجر العنف واندفعت الدبابات الروسية عبر آخر الدفاعات الشيشانية في السهول. وكانت كل القرى الكبيرة ومدن السهول - آرغون، وستاري أتاجي، ونوفي أتاجي، وساماشكي، وأتشخوي مارتان - تحت الحصار، أو تمّ الاستيلاء عليها أو هجرها البويفكس. ولم يتبقَ عندها سوى غوديرمز، غير المهمة استراتيجياً بالنسبة للانفصاليين، وشالي التي جعلها الثوار عاصمة لهم بعد أن فقدوا غروزني. وبدأ الثوار بالتراجع نحو الجبال.

واتجه المقاتلون والمدنيون إلى التلال باتجاه الجنوب مستبقين التقدم الروسي. وحتى في الليل، كان آلاف الأشخاص يشكّلون أرتالاً من الشاحنات، والجرارات، والدرجات النارية، والسيارات في طريقهم إلى الوديان الضيقة، وكانت قوافلهم تشكل سلاسل من الأضواء المتوهجة. وتشير التقديرات إلى أن حوالى 500.000 شخص - أي نصف سكان الجمهورية - هجروا قراهم ومنازلهم، وهربوا إما إلى أنغوشيا وداغستان أو إلى قرى أخرى ضمن الشيشان.

وبفضل الضيافة القوقازية، لم تجد غالبية هذا الطوفان البشري نفسها في معسكرات اللاجئين، وإنما وجدت مأوى لها مع الأقارب والأصدقاء أو حتى الغرباء. واستضافت المنازل في القرى الجبلية، مثل فيدنو ودارغو - واللتين كانتا مقر الإمام شامل قبل قرن مضى - ما يصل إلى 20

شخصاً. وامتلأت المعسكرات الصيفية القديمة ومعسكرات رواد الشباب الشيوعي، والتي تمّ بناؤها للمصطافين السوفيات، باللاجئين وكان لكل عائلة غرفة صغيرة.

وخصصت منظمة "أطباء بلا حدود" الشجاعة جرّاحين لمشفى فيدنو، واستعدّت للقيام بعملية إخلاء كاملة للسهول. وسرعان ما انتقلت المستشفى في توستين يورت، التي أصبحت مركزاً لتجمّع الجنود الروس، إلى مبنى مدرسة في القرية المجاورة تدعى باتشي يورت، رغم مقاومة القرويين لذلك بادئ الأمر خوفاً من تعرضهم للقصف.

وقد يصبح الهروب صعباً بقدر البقاء. وتبدّل الوضع العسكري بسرعة كبيرة في نهاية شهر آذار حيث لم يعد باستطاعة المرء الذي يمشي على الطرقات أن يعرف فيما إذا كان سيواجه موقعاً روسياً جديداً أو سيتعرض للهجوم من الجو. وتعرض معلم مدرسة، أثناء هروبه من الروس في مسكر يورت إلى الشمال من أرغون، مع ثمانية أطفال صغار محتشدين في سيارته، لإطلاق النار من مدفع رشاش. وقال شاربودين عبدو أصلانوفيتش: "لقد تعرضت السيارة لإطلاق نار متكرر، وتعرضت للإصابة بذراعي، ولم يتعرض أي من الأطفال للأذى". وكان يبلغ من العمر 57 سنة، ولا يزال يشعر بالصدمة خصوصاً أن ساعديه كانا ملفوفين بالضمادات الملوثة بالدماء. وأضاف: "عملت 33 سنة. وكنت مدير مدرسة 15سنة، ولا أعرف الآن فيما إذا كان ساعداي سيعملان من جديد".

وكان الهدف النهائي للاختراق الروسي السيطرة على شالي، التي أعلنت نفسها عاصمة جديدة لجمهورية الثوار. وعندما اتخذ الروس مواقعهم، لم يبقَ أحد عدا بعض المقاتلين، والمدنيين الذين ليس لديهم أي مكان يذهبون إليه، وحفنة من الناس الذين يلتزمون بالمبادئ مثل شيخ بوجه أحمر وأسنان ذهبية، والذي قال لي عندما التقيته: "إنني أدافع عن وطني".

وفي جوٍ عصيب، لم يكن أمام الشيشانيين سوى أملين: الله ومسار الهروب إلى الجبال، والذي يبلغ طوله ستة كيلومترات إلى الجنوب. وفي إحدى الليالي في شالي، بدأت الطائرات تحلّق أثناء إقامة المؤذن للصلاة عبر مكبر الصوت من مئذنة الجامع. وكان الصوتان - إسقاط القنابل وصوت الشيخ الهادئ والحزين - متنافرين للغاية، وشعرت أنه على أحدهما أن يطغى على الآخر. وربح صوت الصلاة، وحتى عندما بدأت القنابل تسقط على أطراف البلدة مضيئة السماء بألوان صفراء باهتة، بقي المؤذن يرفع الأذان. وبعد أن ابتعدت الطائرات، كان ما يزال يرفع الأذان.

وانسحب صديقي موسى، الذي كان يرافقني على خطوط الجبهة بسيارته الأودي، من شالي في اللحظة الأخيرة. وتعرضنا لهجوم بصواريخ غراد، ونجونا بأعجوبة. وتحول العالم إلى بحر أحمر وأسود، وتغير ضغط الهواء، وتساءلت لبرهة فيما إذا كنت على قيد الحياة. وأخطأت شظايا أحد الصواريخ مقدمة سيارتنا بمتر واحد - وتفحصت الجدار الذي أصابه الصاروخ فيما بعد - وضرب الصاروخ الثاني المنزل الذي كان إلى يسارنا تماماً، وضرب صاروخ آخر الجسر على بعد 20 متراً أمامنا، ونزل آخر في مكان ما على الطريق خلفنا. وحصل كل ذلك في غضون ثوانٍ بطيئة الحركة، وشكل الحطام فوق الشارع وسيارتنا قبل أن يتلاشى كل شيء في غيمة سميكة من النيران والدخان، والتصقنا بالرصيف وامتلأت أذناي بالصوت المرعب لصرخات امرأة.

وكانت النجاة محض صدفة. ولم أستطع فعل شيء سوى الصلاة والتضرع لله شكراً. ولم يكن ممكناً أن تحصل المعجزة مرتين على التوالي، وقرر موسى أن يهجر منزله وبلدته. وحرّر كلب الرعي القوقازي الذي كان لديه، وترك له بعض الطعام. وعندما خرجنا، بدأ موسى بالبكاء، وبعد إيصالي إلى سيرزين يورت، وهي أوّل قرية على سفوح القوقاز، تابع إلى منطقة هادئة ليكون وحيداً. وكان من الصعب على الرجال الشيشانيين البكاء، وقال: "أرجوك لا تخبر أحداً هنا".

واستخدم الهجوم الروسي الأخير على شالي، والذي بدأ في 29 آذار عام 1995، أسلحة ثقيلة كنت أعتقد أنها لا توجد سوى في الأفلام. وكان الهجوم ذروة الحملة العسكرية في السهول، وهو يجعل المرء يتساءل كيف استطاع الشيشانيون الصمود في تلك الشهور الباردة. وكانت الطائرات تأتي في تشكيلات سداسية، وتحلق ثم تنقض من اتجاه الشمس الساطعة. وقصفت تلك الطائرات أطراف مدينتي شالي وسيزرن يورت، وكنت جالساً على سفح التّل أراقب. وبعد الطائرات، جاءت المروحيات التي تطير على ارتفاع منخفض، وقصفت الضواحي. وكان هناك مقاومة في شالي، وتعرضت المروحيات لنيران بأضواء صفراء من أطراف البلدة. ولكن معظم المحاربين كانوا قد انسحبوا ليتجنبوا الحصار، وهو تكتيكهم المعتاد. وأخيراً، بدأت المدفعيّة بإطلاق دفعات من القذائف، والتي نتج عن انفجارها تصاعد دخان أسود وبني كثيف بين الأبنية التي كان يوجد فيها المدافعون. وقبل أن تبدأ الدبابات بالاتجاه جنوباً لإكمال حصار البلدة، بدأت المدفعيّة بقصف خندق محفور عبر الحقل كان لا بد أن تعبره الدبابات. ورغم أن الخندق لم يكن طويلاً، إلا أنه تعرض للقصف عشرات المرات. وكانت تتصاعد أعمدة الوحل والدخان واحدة بجانب الأخرى في كل مرة يتعرض فيها ذلك الخندق للقصف، وبدقة ممتازة.

في 30 آذار سقطت غوديرمز بيد الروس، وسقطت شالي رسمياً بعد ذلك بيوم واحد. ومضى آخر المقاتلين في البلدتين جنوباً نحو التلال. قال رستم، والذي يبلغ من العمر 20 سنة، وعضو في كتيبة شامل باسابيف الأبخازية، والذي انسحب لتوه من شالي: "هذه البندقية الآلية عديمة الفائدة. لا يوجد أشخاص يقاتلون هناك، وإنما مجرد آلات. تدوي المدافع لنخسر ثلاثة أو أربعة منا. ويفقدون نصف ملابسهم وأرجلهم. وليس لدينا ما نأكله أو نشربه. انظر إلى نحولي. لقد كنت بطلاً في الكاراتيه يوماً ما".

وأضاف: "لا توجد مشكلة، إنّ الله معنا، سنذهب إلى الجبال، وهناك سيكون الوضع أفضل بكثير بالنسبة لنا".

شالي

في مستشفى الأمراض العقلية قرب شالي، كان المرضى المهجورون يعيشون مثل الحيوانات، وتحيط بهم فضلاتهم، ويصرخون ويضحكون في البرد القارس. خرج بعضهم وضحك عندما حلقت الطائرات الحربية فوقهم.

بحلول شباط 1995، لم يبقَ سوى 24 مريضاً في المستشفى والتي كانت تحتوي على أكثر من 200 مريض، ومثالاً عن المؤسسة السوفياتية النموذجية. كانت نينا إيفانوفا، الممرضة الروسية التي تبلغ من العمر 75 سنة، أملهم الوحيد والأخير في النجاة. وقالت إيفانوفا: "هربت الممرضات الأخريات عندما بدأ القصف حولنا. لم أستطع تركهم. إنهم مثل الأطفال، ولكنهم يبقون بشراً."

كانت الحالات الصعبة تعيش خلف أبواب موصدة. وكانت امرأتان تجلسان على فراش حتى بدأت إحداهما بالصراخ وعضت ساق الأخرى. جلس شخص ثالث ـ رجل أو امرأة؟ ـ بلا حراك تحت البطانيات. وقالت إيفانوفا: "ليس بوسعنا فعل شيء من أجلهم."

كان أحد الرجال يجلس في الخارج. كان يرتدي معطفاً كبيراً من الحرب العالمية الثانية، ويلوح للسيارات. وإذا تعرضت المنطقة للقصف سيلقى حتفه بالتأكيد بسبب وقوفه في العراء. وقال: "أخبر أمي أن تأتي لرؤيتي."

همست إيفانوفا: "لم يأتِ والداه مطلقاً، ولم يأتِ أحد أبداً منذ بداية الحرب، حتى عند موت شخص ما. لقد دفناهم خلف المستشفى."

كان يوجد 100 خط من التجاعيد على وجه إيفانوفا، وعندما حاولت حبس دموعها ظهر 20 مريضاً آخرون. أرتني مجموعة من الأدوية التي تبرع بها أحد الأشخاص. لكنها لم تكن قد تلقّت تدريباً جيداً، وكانت التعليمات مكتوبة باللغة الإنكليزية المبهمة بالنسبة لها.

قالت: "لا شيء صحي، ولا بطانيات، ولا ملابس، ولا مخازن، ولا شيء يمكنني فعله. إذا قصفوا هذا المكان سنموت جميعاً."
عدت إلى المستشفى بعد عدة شهور عندما أصبحت شالي وكامل المنطقة حولها تحت سيطرة الروس المطلقة. لم يبقَ من البناء سوى نصفه، ولم أرَ إيفانوفا العجوز المسكينة.
كان هناك ستة مرضى، وتعرفت على إحداهم؛ امرأة ذات أسنان بارزة ونحيلة للغاية بحيث برزت عظام وركها للخارج مثل مقابض، وكانت واحدة من الحالات الخطيرة في ذلك القفص، وكانت تعدو عارية آنذاك عبر الحديقة الكثيفة، وتصرخ بصوت عالٍ.
قال صوت من ورائي: "إنها تصرخ لتقول بأنها جائعة". واستدرت إلى الخلف لأجد امرأة شيشانية كانت قد تولت زمام الأمور. وقالت المرأة، ليلى موزيفا: "لا تستطيع الكائنات البشرية العيش هنا، ولا يجب أن تعيش الخنازير هنا."
تساءلت عمّا حدث بعد أن نظرت إلى أنقاض المبنى. وقالت لي: "اتخذ البويفكس مواقع لهم هنا خلال الحرب على شالي. وتواجد هناك حوالى 15 - 20 منهم ليوم واحد فقط، وجميعهم تقريباً لقوا حتفهم. كانت المروحيات تطلق الصواريخ على المبنى. حاولنا أخذ المرضى إلى القبو، لكنهم لم يفهموا أي شيء."
هل كانت تلوم المحاربين؟ بالمحصلة، لو لم يأخذوا مواقع لهم هنا، لما مات هؤلاء الأشخاص ولبقي المبنى سالماً. إنها معضلة كل المعارك في الشيشان، وخاصة في السهول، حيث يكون الإقليم صغيراً جداً ولا يجد المقاتلون مكاناً يتحصّنون فيه عدا الأبنية. إنهم يجلبون الدمار لكل شيء يلمسونه.
قالت موزيفا: "لا، لا ألوم المقاتلين. لقد كانوا ينسحبون بسرعة كبيرة، ويصمدون في الحقول المكشوفة ضد المروحيات والطائرات، ولغاية ذلك الوقت، كانوا الوحيدين الذين أحضروا الطعام لهؤلاء الناس. لا ألومهم."

3. الحصون

"الحرية أو الموت، كانت الصرخة تتردد في الجبال من جديد.
الحرية أو الموت، نعم والله معنا."
من أغنية حرب شيشانية سنة 1995، لإمام علي -سلطانوف.

جلب الربيع الجنون للجبال. وتخيّل البويفكس أن حربهم ستكون على الطراز الأفغاني في المناوشات والمعارك النارية القريبة المدى. بدلاً من ذلك، بقي الروس في معسكراتهم في السهول، ووجد الشيشانيون أنفسهم محاصرين في معركة غير متكافئة مع مدفعية العدو البعيدة المدى. لم تكن مرحلة الجبال كما توقعها اللاجئون أيضاً، الذين ذهبوا إليها بحثاً عن الأمان، لقد اكتظت القرى البعيدة بالمدنيين وخاصة الأطفال؛ لم يسبق أن شاهدت هذا العدد من الأطفال أبداً. لكن بعد ذلك بدأت الطائرات بالقصف، واكتشف اللاجئون أنهم لم يكونوا أكثر أماناً مما كانوا عليه في السهول، وبحلول الصيف عاد معظم الهاربين إلى قراهم.

بالنسبة للقادة الشيشانيين الانفصاليين في قرى أعالي التلال دارغو، وفيدنو، وشاتوي، كان التراجع إلى الجبال مفتاحاً لاختبار القوة السياسية إضافة إلى العسكرية. بعد أن فقدوا كل بلداتهم وقتذاك، كانوا تحت ضغط هائل، ليثبتوا للعالم أن جمهوريتهم الثورية، التي لم يعرف بها أحد، لا تزال موجودة. في ذلك الوقت، تمركز البويفكس في الصف الأمامي من القرى الجبلية - من باموت في الغرب إلى سيرزن يورت وألروي في الشرق - اشتبك فريق جوهر دوداييف مع الروس في حرب دعائية شرسة.

كانت رموز الدولة هامة بشكل خاص. لذلك كانت كل التصاريح الرسمية تشير إلى الشيشان على أنها أشكريا، وأشكريا هو الاسم التقليدي للشيشان، وهو اسم لا تستخدمه الحكومة الروسية أو وسائل الإعلام أبداً، ولكنّ الانفصاليين أصرّوا عليه كجزء من معركتهم للحفاظ على هويتهم. لقد انتشرت الرايات الخضراء - الحمراء - البيضاء التي تزينها صورة لذئب نائم وبدر في كل مكان،

وتدلت من البيوت الجبلية، وعلقت على مركبات الثوار، أو خطت على ملابس المقاتلين. لم يكن القادة الكبار يقابلون الصحفيين دون أن تكون هذه الراية على الجدار خلفهم، وهي صورة مهمة وخاصة على التلفاز.

حافظ الثوار على آثار البنية الحكومية بعد أن تلاشت عملياً. أحب قادة الثوار التحدث عن الدستور، والذي سيكون مصدر السلطة للبرلمان الثوري ومجموعة متكاملة من الإدارات الحكومية في دولتهم التي بنوها في أذهانهم، وطالما كان هناك دستور، سوف يستطيع الشيشانيون الادعاء بأنهم ليسوا قطاع طرق، وإنما حكومة قانونية، أجبرت مؤقتاً على العيش في الجبال. لذلك كان دوداييف رئيسهم المنتخب، وتحوّل عدد كبير من أمراء الحرب القساة أو المدنيين المغمورين إلى وزراء شرعيين، وقضاة عسكريين، فيما طمح أصلان مسخادف لتولي منصب "رئيس أركان القوات المسلحة للشيشان - أشكريا". كان هناك عدد مذهل من الضباط برتبة عميد ولواء. وعقد البرلمان جلسات سرّية في أوقات متفرقة، واستمّر دوداييف الرئيس والقائد العام بإصدار المراسيم ونشرها في الصحيفة السرية أشكريا. لقد أحببت المرسوم رقم 16 الصادر في 20 آذار عام 1995 حول "تشكيل كتائب انتحارية خاصة"... وفقاً للمادة 73 من الدستور الشيشاني. كان من الواضح أنه مرسوم فارغ من المعنى لأن أحداً لم يستمع إليه - كانت معظم الوحدات المقاتلة قريبة من الانتحار - ولكنّ المرسوم تمتع بكل العناصر الضرورية والأهمية الذاتية للأغراض الدعائية.

كانت القوة الحقيقية في يد مجموعة مؤلفة من قرابة اثني عشر قائداً برئاسة دوداييف، وضمّت المجموعة مسخادوف وكبار القادة الميدانيين ورؤساء أجهزة الاستخبارات. كان القادة الميدانيون أمراء حرب أساساً، ويسيطرون على مناطقهم بجيوش خاصة. كان إشراكهم في عملية اتخاذ القرار حيوياً، لأنهم كانوا يقاتلون، ويتخذون القرارات التكتيكية اليومية.

كان هناك العديد من القادة العسكريين الأقل شأناً، مع وحدات متعاونة أصغر، ولكن الشخصيات المحورية كانت بعدد أصابع اليد. في الجنوب الغربي، كان القائد الميداني الأعلى سلطان جلسخانوف، يليه أحمد زكييف الممثل السابق الوسيم، والذي تقلّد منصب وزير الثقافة في حكومة دوداييف. وفي الجنوب الشرقي، تولّى خونكار باشا ازرابيلوف - القائد الشاب الرشيق بوجهه الماكر - القيادة من قريته أليروي. وفي الوسط ومناطق فيدنو - وأي منطقة من الشيشان يختارها - كانت القيادة بيد شامل باساييف القاسي والمتقلب المزاج.

كانوا جميعاً يتمتعون بشخصيات قوية، سواء بسبب حاشيتهم من المقاتلين المعجبين بهم، أو بسب قدرتهم على التهديد، أو بسبب ثقافتهم العالية. تفاخر جلسخانوف قائلاً بأنه: "عندما أذهب إلى المعركة، لا يكون رجالي خائفون، ويتبعوني إلى أي مكان". كان باساييف أكثرهم دهاءً ومهارة في التكتيك الميداني، وغالباً ما أظهر مواهبه بالتعامل مع الغرباء والمرؤوسين بحس الفكاهة، ولم يكن يتصرف معهم بشكل رسمي.

في مناحٍ عديدة، كان موفلادي أودوغوف، وزير الإعلام في حكومة دوداييف، أخطر شخص واجهه الروس. لقد أثبت أنه العقل المدبر في الحرب من خلف الستار. لم يستخدم الدعاية بمثابرة ومهارة كبيرتين وحسب، إنما كان أيضاً مستشاراً أيديولوجياً رئيسياً للقادة الانفصاليين الآخرين، ومؤمناً حقيقياً بالهدف السياسي للحرب؛ أي الاستقلال. كان أودوغوف ملتحياً، ولم يحمل السلاح قط سواء علناً أم خفيةً، كان يستخدم هاتفاً فضائياً لإبقاء دولة الشيشان - أشكريا حية في أذهان الأجانب والروس الذين قد يعتقدون أن حلم الانفصاليين المجنون قد تبخر في الدخان.

كانت معركة أودوغوف الإعلامية ملحمية مثل الحرب العسكرية. كانت الآلة الدعائية للحكومة الروسية والإعلام الموالي لها تعمل ضده، وخاصة القناة التلفزيونية الحكومية "أو آر تي"، ووكالتي الأنباء إيتار تاس وإنترفاكس، والتي بثّت في السنة الأولى من الحرب على الأقل كل ما كانت موسكو تقوله. عندما كان التلفاز الروسي يقدم الأكاذيب - عدم تعرض أي مدني للقتل، وإصابة المحاربين الشيشان بالذعر، وعدم استخدام الطائرات - كان أودوغوف يرد بأرقامه: لقي 500 مدني حتفهم في غارة واحدة، و800 جندي روسي في هجوم واحد. كان على اتصال منتظم بوكالات الأنباء الأجنبية أو الروسية، ومحطات الإذاعة، وقنوات التلفاز والصحف لشرح وجهة نظر الانفصاليين فيما يحدث. بالنسبة للعالم الخارجي، كانت الأنباء تبدو حقيقية عندما كان أودوغوف يصرّح بأن: "رئيس جمهورية ورئيس أركان الشيشان - أشكريا اتخذا قراراً أو آخر". كانت لغته رسمية وبيروقراطية دائماً. وهو لم يخبر أحداً أبداً بأن الاجتماع حدث في الغابة. في بعض الأحيان، لم يكن أودوغوف المتصل وإنما رجله في إسطنبول والذي كان يوزع "البيانات الشيشانية" إلى كل أنحاء العالم بفضل سياسة الحكومة التركية التي غضت الطرف عن النشاطات المؤيدة للشيشانيين على أرضها.

شنّ الشيشانيون أيضاً حرباً دعائية بطريقة مؤثرة ولكنها بسيطة للغاية: كان للصحفيين حرية التجول حيثما يشاؤون، كانوا يبقون مع المحاربين على خطوط الجبهات، ويقابلون القادة ويشاهدون تأثيرات الحرب الروسية، والتي كانت شاهد عيان معهم. كان الانفتاح الشيشاني غير المصاب بداء الارتياب من الجواسيس، متناقضاً بشكل صارخ مع عدم القدرة على الوصول إلى الجانب الروسي من الخطوط. مثل معظم القوات المسلحة الرسمية، حظّرت القوات الروسية عمل المراسلين المستقلين والأجانب في القواعد والصفوف الأمامية، وكانت المعلومات الوحيدة عن الجيش تأتي من الناطقين الرسميين الذين لا يصدقهم أي صحفي يحترم نفسه.

عانى الجانب الروسي من مشاكل كثيرة مع إعلامه نفسه. ولم تكن قناة أو آر تي ووكالات الأنباء تخرج عن الخط الرسمي، وتنقل أكاذيب المسؤولين الرسميين حرفياً. لكنّ صحفاً مثل ايزفيستا، وسيفودنيا، وموسكوفسكي كومزومولتس، وقناة إن تي في التلفزيونية الخاصة، وإلى حدّ أقل، قناة آر تي آر هاجمت الحرب بعنف. بدأت إنترفاكس، وإلى حدّ أقل إيتار تاس، بنشر تقارير تصدر عن الرسميين الانفصاليين. وأصبحت نشرات الإذاعة على الموجة القصيرة من أندريه بابيتسكي، وهو أحد المراسلين باللغة الروسية لراديو "الحرية" الأميركي الحكومي، ركناً ثابتاً في المنازل الشيشانية. استمرت استقلالية الإعلام الروسي معظم السنة الأولى من الحرب تقريباً، ولم توجّه اهتمامها نحو الكرملين - وخصوصاً تلفزيونياً - سوى عند اقتراب حملة إعادة انتخاب الرئيس يلتسن سنة 1996. كانت تلك التقارير، رغم أنها ليست حاسمة مثل عمل الصحفيين الأجانب، كافية للسخرية من إصرار الحكومة بأنه لا توجد حرب رئيسية، وإنما مجرد حصار لقطّاع طرق مبعثرين. ورغم أن معظم الروس لم يكونوا يتعاطفون مع معاناة الشيشانيين، إلا أن صور خوفهم وخيبة أمل مجنديهم سببت الغضب الشديد.

واجه الصحفيون الروس خطراً مضاعفاً نتيجة عدم حصولهم على جوازات سفر أجنبية. لقد وجهت لهم اتهامات شبه متكررة بالتجسس في الأراضي الشيشانية، وتعرضوا لمضايقة رجال الاستخبارات الروسية السرية. من بين 20 صحفياً ماتوا في الحرب، كان اثنان منهم غربيين وتسعة روس وتسعة شيشانيين، كما أنهم عانوا أيضاً من اعتقال رجال الاستخبارات أو الجنود الروس لهم. لقي روسيان، أحدهما مراسل قناة أو آر تي حتفهما على يد القوات الروسية في وضح النهار عند

إحدى نقاط التفتيش، وتعرّضت المرأة الشابة ناديزدا تشيكوفا - التي كتبت قصصاً عن انتهاكات الروس لحقوق الإنسان في أسبوعية أوبشايا غازيتا - للقتل خارج المدينة في آذار عام 1996، كما اختفى ثلاثة صحفيين روس إضافة إلى ثلاثة أوكرانيين، وشاب أميركي وشيشاني. لم يعرف أحد مصيرهم أبداً، لكنهم ربما يكونون قد تعرّضوا للقتل من أحد الجانبين لأي سبب.

فيما كان أودوغوف يتعامل مع العالم الخارجي، قامت محطة تلفزيونية سرية تدعى بريزيدنتسكي كانال أو القناة الرئاسية بالبث إلى البيوت الشيشانية عن طريق جهاز إرسال سري معلّق فوق الجبال، وعملت القناة بشكل متقطّع، وبجودة متدنية، وبتغطية محدودة ولكن تأثيرها المعنوي كان هائلاً.

وكانت الجرأة الكبيرة للقناة مصدر سعادة للشيشانيين، الذين كان العديدون منهم يسهرون إلى وقت متأخر من الليل محاولين التقاط بثها، ومثل قرصان إلكتروني حقيقي، كان إرسال القناة يتداخل مع برامج محلية عادية تضعها السلطات الروسية، وأجرت مقابلات مع القادة الميدانيين، وأذاعت خطابات دوداييف، وقدّمت صوراً إخبارية التقطها فريق التصوير النسائي في القناة والتي كانت ترأسه امرأة مميزة تدعى خزمان عمروفا والتي تبلغ من العمر 34 سنة. لقد صوّر ذلك الفريق عدداً من أشرس المعارك في الحرب. وبعكس الرجال، كان باستطاعة النساء الانتقال بحرية عبر الأراضي التي يسيطر عليها الروس، ولم يكن يتعرضن للتفتيش على الحواجز. وغالباً ما كان التلفاز يقدّم ببساطة محاربين يغنون مع القيثارة أو يتحدثون بثقة عن الحرب؛ ليس كل شيء كئيباً على الجبهة.

ولم يكن هناك إعلام في ظل حكم ستالين، أو خلفائه بالطبع. أما الآن، ورغم الأكاذيب التي تقدمها الدولة إلا أن موسكو لم تحاول فرض رقابة حقيقية على المراسلين المحليين أو إبعاد الصحفيين الأجانب وسبب هذا بشكل جزئي هو التقانة، ومثل أودوغوف، يستطيع أي صحفي مزود بتلكس أو هاتف فضائي ومدّخرة سيارة (بطارية) أو مولد محمول إرسال تقاريره بحرية، حتى من أبعد أصقاع العالم. لكن الرقابة غير المنظّمة على الإعلام أظهرت مشكلة موسكو العامة في الحرب؛ أي الارتباك بين ردود الفعل الإمبراطورية والطموحات الديمقراطية، رغم عدم وجود القدرة الطبيعية أو قوة الإرادة لتحقيق إحداها على نحو تام.

أظهر الروس قسوة كبيرة في حملتهم لإفراغ الجبال من اللاجئين، وبالتالي حرمان البويفكس من الدعم الاجتماعي وإحباط محاولتهم في تشكيل دولتهم الانفصالية. كان أول مركز لاجئين يتعرض للقصف هو معسكر *الروّاد* في قرية سيزرن يورت في 27 آذار، عندما كانت القرى الجبلية بين شالي وفيدنو مليئة بالمدنيين، ولقي 4 أشخاص حتفهم، وتعرض 10 للإصابة. كان أحد القتلى رجلاً دعاني لتناول الشاي في الليلة التي سبقت القصف، وكان قد سألني عن مانشستر يونايتد، وعندما اعترفت له بأنني لا أعرف شيئاً عن كرة القدم، أخبرني عن كل ما يعرفه. لقد فقد الشياطين الحمر (مانشستر يونايتد) أحد مشجعيهم المتحمسين، وتعرضت زوجته لجروح بليغة، ولكنها نجت. لم تنفجر قنبلة أخرى سقطت على المعسكر، وقد اخترقت مباشرة السطح والأرضية واندفعت عميقاً في الأرض. كان أفراد العائلة لا يزالون في الغرفة، ويحاولون تنظيف حفرة الانفجار عندما وصلت، ورغم أنهم نجوا من الإصابة، إلا أنهم كانوا مذعورين جداً، وبدوا أكثر هشاشةً من الزجاج. في الخارج، كان هناك تمثال سوفياتي بالحجم الحقيقي لفتى وفتاة يرتديان قمصان وسراويل الروّاد الأنيقة، نجا ذلك التمثال من الانفجار، واستمر بالنظر ببراءة إلى الغابات. في آخر الطريق، بعثر القصف أشجاراً كبيرة مثل القش، وقتل رجلاً كان يجلس في سيارته.

في مركز اللاجئين في إستانزي، وهي قرية تجثم في أعالي السفوح، أحصيت 20 حفرة انفجار. وتعرضت ثمانية مبانٍ فيما كان يعرف في السابق بمعسكر الترفيه للقصف، وانشطرت بقرة إلى نصفين، وابتعد النصفان عن بعضهما عدّة ياردات. بعد القصف، مشّطت الطائرات المنطقة، ومزّقت الجدران بنيران رشاشاتها. نتيجة لذلك، لقي خمسة أشخاص حتفهم وتعرض 12 للإصابة. في معسكر آخر على طول طريق شالي - فيدنو، حيث كان اللاجئون يعيشون في حظيرة قديمة، اندفع الجميع خارجاً حالما حلّقت الطائرات فوق المنطقة، ولم يعد أحد يرغب بأن يعيش هناك فقد انهار البناء، وأحاطت به حفر الانفجارات بعرض عدة أمتار وعمق مترين.

لم أستطع رؤية سوى تلك المعسكرات. كان هناك معسكرات مشابهة منتشرة في جميع أنحاء منطقة فيدنو، وكانت القصص التي ترشح عنها مطابقة تماماً لما رأيته. كان يعيش في تلك المعسكرات أكثر من 1000 لاجئ؛ ولم يكن أيٌّ منها يستضيف محاربين.

قد يصل ضغط الغارات الجوية إلى مرحلة لا يستطيع المرء احتمالها. لقد أثار الطقس الجيد المخاوف لأن الطيارين يستطيعون رؤية الأهداف بسهولة أكبر. لم يكن الناس يقفون أبداً في مجموعات كبيرة. فيما أصبح الاعتماد على حاسة السمع شديداً. كانت المحادثات تتجمد عندما يسمع الموجودون في إحدى الغرف هدير الطائرات القادمة، وكان الناس يقفون فجأة في الشوارع، ويقولون "اسكت"، ويرفعون رؤوسهم، ثم يفتحون أعينهم ليجدوا مثلث الموت الصغير. إذا كان المرء في سيارة، فإن أمله الوحيد هو مراقبة المشاة بعناية، وإذا كانوا يفتشون في السماء، سيعرف السبب، وسوف تسري قشعريرة في جسده.

كان هناك منهجية وبعض الرحمة في القصف. وكان باستطاعة الروس قتل أعداد كبيرة من الناس بالإغارة ليلاً، عندما تكون تلك الأبنية مليئة باللاجئين النائمين. إلا أنهم كانوا يهاجمون في منتصف الظهيرة، عندما يكون الجميع بعيدين أو في الخارج، وحذرين من الخطر. كانت الغارات الجوية تتكرر في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، وبين الغارات، كان هناك هدوء ووقت يكفي لتحميل الشاحنات بالأطفال والحيوانات والأثاث والمغادرة. كان الجميع يغادرون فعلاً، وبحلول الصيف أصبحت تلك القرى، التي كانت مكتظّة بالسكان هادئة مثل الأشباح.

في سيزرن يورت، المحطة الأولى للاّجئين قبل أن يتحركوا إلى أعالي التلال باتجاه فيدنو، قام يراغي والذي يبلغ من العمر 54 سنة بدفن ابنه وعيناه معلقتان بالسماء. كانت ضواحي القرية قد تعرّضت للقصف في ذلك الصباح، وكان يراغي، أو أحد أقاربه، ينظر للأعلى، ويتوقف في صلاته، ويحدق حوله بعصبية. لم يكن أحد يشعر بالراحة سوى الجثة الملفوفة بملاءة بيضاء. تعرض يراغي وابنه لإطلاق النار فيما كانا يهربان من شالي قبل أن يتمّ الاستيلاء عليها. أصابت رصاصة الولد، الذي كان يقود السيارة، وقتلته. قال يراغي: "خرجنا من السيارة. ثم قاموا بإطلاق قذيفة، واشتعلت النار بالسيارة. استلقيت في قناة ري هناك مع ولدي الميت لست ساعات. لم يكن هناك أي طريق للخروج حتى حلول الظلام. بعدها هربت، وخلال الليل عدنا وأحضرنا جثته. لقد كانت الرصاصات في كل مكان، واعتقد أنه لم يكن مقدراً لي الموت".

قال يراغي، عندما كان بعض البويفكس يمشون في رتل خلف بعضهم إلى الغابات فوق سيزرن يورت: "إنه خطأ هؤلاء السفلة. إننا لا نريد هذه الحرب. وهناك الكثير من الجنازات، ولقي الكثير من الشيوخ حتفهم، أو تمّ إجبارهم على النزوح". لقد أصبح كره الروس غريزياً، ولكن بعض الناس كانوا غاضبين أيضاً من المحاربين؛ لأنهم يجذبون القصف. كان الجميع يخافون من اليوم الذي يأتي فيه هؤلاء المقاتلون إلى قريتهم، وينصبون فيها مواقع قيادة محلية، ويرفعون رايات الثورة،

ويطلقون نيران الرشاشات على الطائرات لإظهار التحدي وليس بهدف إصابتها. كان الجميع يعرفون أن تلك التصرفات ستكون لها عواقب وخيمة.

> ***سيخاف الفرنسي مما قد يتحمله الجندي الروسي أثناء العمليات الحربية في الجبال، والذي يعيش على الخبز الأسود وينام في الثلج، ويسحب بنفسه ومعداته فوق أرض قاحلة لا يوجد فيها سوى صخور الغرانيت. ويا لها من حرب! حرب دون هوادة، ودونّ أسرى، والتي يموت فيها الجريح، ويقوم فيها الأعداء بجمع الجماجم البشرية. (أكثرهم اعتدالاً يقطع أيدي ضحاياه).***
>
> **واجه رجالنا شيئاً من هذا القبيل في الجزائر، وبغض النظر عن اختلاف التضاريس الموجودة إلا أن الرجال كانوا يتلقون رواتب جيدة، وطعاماً جيداً وكسوة جيدة، وكان لديهم بعض الأمل في الترقية، ورغم كونه ضئيلاً.**
>
> ***ألكسندر دوما، 1858.***

حالما اندلعت الحرب الضارية للسيطرة على سفوح الجبال، اختفت أزياء الجنود الروس المستوحاة من طراز لباس الجيش السوفياتي شيئاً فشيئاً ليحل مكانها اللباس الرياضي المموه وقبعات التزلج. ينسدل الشعر الطويل مسترسلاً، أو يرتفع بطريقة "الماهقان" (قبيلة هنود حمر في أميركا) أو يختفي تماماً ليظهر الرأس أصلعاً. وتحسّن الطقس تدريجياً، ولوّحت الشمس بشرة الجنود، واستطالت لحاهم، وحصلوا على نظارات شمسية يرتدونها تحت عُصبة رأس القراصنة.

كانت القوات المسيطرة على غروزني تسيّر دوريات بالعربات المدرعة على الطرقات مما يؤدي إلى عرقلة حركة السير المدنية بشكل كبير. كانت مراكبهم تحمل رايات حمراء وصور لينين على الهوائيات الخلفية الطويلة في إشارة غير مباشرة إلى أمجاد الجيش الأحمر. عند أنقاض القصر الرئاسي، كان الأطفال الشيشانيون يبيعون المواد المستقطبة للضوء بدولارين، وكان الجنود الروس الشباب يقفون عراة الصدر وحربات البنادق مثبتة في الكلاشينكوف. رأيت مرة جنديين ضخمين يترنحان مع بندقيتيهما، وكان جسداهما مدرعين مثل شيء من فيلم خيال علمي - خوذات كبيرة، وأدوات تموية، ومعدن مضاد للرصاص فوق كتفيهما وجذعيهما - فيما كان أحد أصدقائهما يصورهما بالفيديو.

اعتقدت في بادئ الأمر أنه عرض للأزياء لشباب يشعرون بالقوة والصحة، منتصرين. وقال أولنين، الشخصية المحورية في رواية تولستوي: "الديّ بندقية وقوة وشباب... والجبال!"، عندما كان في طريقه إلى الشيشان في القرن التاسع عشر. ولكنّ لعب دور المنتصر لم يكن سوى خداعاً. لقد كانوا رجالاً محبطين، وليس منتصرين، وكان الجنود يحاربون في معركة سياسية، وغير قادرين على الحفاظ على الانضباط ضمن صفوفهم. تضررت القوات المسلحة الروسية بانهيار الفكر الشيوعي، والتخفيضات الهائلة في الميزانية، والانسحاب المفاجئ للقوات من جميع أنحاء أوروبا والجمهوريات السوفياتية السابقة، وكانت حرب الشيشان القشّة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لتلك المؤسسة العسكرية الفعّالة. وساهم فرار الجنود، وعدم قدرة الضباط على إطعام قواتهم، وإصدار الجنرالات أوامر للهجوم على المدنيين في ذلك الانهيار. أصاب عدم الانضباط المستوى البنيوي، مع اتساع الفارق بين قوات وزارة الداخلية التي تبدو على ما يرام، والجيش النظامي المنهار والساخط.

مع الفشل في تحقيق أي اختراق على خط جبهة التلال، كان على الدعاية الروسية أن تلفّق تبريرات وهمية لذلك التأخير. قالت تلك الدعاية إن باموت كانت منيعة بسبب وجود قاعدة صواريخ نووية سوفياتية فيها، والتي لا تستطيع المدفعية الروسية والقوى الجوية تدميرها؛ وقالت إنه يوجد بالقرب من أورخوفو مئات المرتزقة الأجانب، وقالت إن آلاف المقاتلين مزوّدون بأسلحة أفضل من

الجيش الروسي. كانت تلك الدعاية تصف القرى على خط الجبهة الأمامي على التلفاز بأنها مستعمرات في "الجبال العالية".

كان هناك مستودع قديم للصواريخ في باموت، ولكنه لم يكن عذراً لحل كل مشاكل الروس. لم يستطع الشيشانيون أن يتمركزوا في موقع دفاعي واحد لفترة طويلة، ناهيك عن السيطرة على وادي باموت بالكامل، وكان عليهم الانتشار على مسافة كبيرة وفي كل الاتجاهات، وكان المستودع خارج القرية. كانت حشود المرتزقة الأجانب محض افتراءات، ولم تكن ما يدعى بالجبال العالية سوى تلال يتراوح ارتفاعها بين 500 - 1000 متر فوق سطح البحر. وكان السر البغيض أن عدداً من الرجال لا يتجاوز 200 في كل قرية - كانت أعداد من يقاتلون فعلياً لا تتجاوز 40 شخصاً - يستطيعون صد التقدم الروسي.

كان الادعاء بأن الشيشانيين أفضل تسليحاً مرعباً لعامة الروس، ولكنه مضحك. كانت أفضل ما لديهم الأسلحة المضادة للدروع، والصواريخ المضادة للدبابات، وبعض الأسلحة الثقيلة التي يستولون عليها. كان لدى الكثير من المقاتلين بنادق كلاشينكوف قديمة للغاية بحيث تبدو أنها ستتفكك عند الاستعمال التالي. في باموت، كان فخر ترسانة المقاتلين دبابة استولوا عليها من الرو خلال إحدى المحاولات لاقتحام القرية وما يدعونه "صناعة السلاح الشيشاني". كانت تلك الأسلحة المصنوعة في البيوت قوية بالتأكيد، ولكنها لم تكن مثالية. كان أحد الأسلحة صاروخ مروحية يمكن الحصول عليه من السوق السوداء، والذي يتمّ تحويله إلى سلاح مضاد للدروع. سلاح آخر كان مدفعاً ثقيلاً يمكن الحصول عليه من العربات المدرعة وتحويله ليصبح صالحاً للاستخدام ضد الطائرات.

كان دوداييف قد جمع معظم ترسانة الشيشانيين الرئيسية، وجميعها من الأسلحة السوفياتية أو الروسية، ووفقاً لمصدر عسكري روسي عارض الحرب منذ البداية، تمّ تهريب إمدادات جديدة من الأسلحة والذخيرة مثل صواريخ غراد ومضادات الدروع من أذربيجان وتركيا عبر جبال القوقاز. في بعض الأحيان، كانت الأسلحة تأتي خلسة، وفي أحيان أخرى بتواطؤ حراس الحدود الروس في داغستان. كان هناك أيضاً إنزال جوي واحد على الأقل من أذربيجان. على كل حال، ورغم الاتهامات المتكررة، لم يستطع الروس أن يثبتوا أبداً أن للشيشانيين مصدراً خارجياً يزوّدهم بالأسلحة.

إن الفضيحة الحقيقية - وربما العلامة المظلمة على انهيار انضباط الجيش - كانت أن الروس أنفسهم يبيعون الأسلحة للشيشانيين. اجتمعت المعنويات المنخفضة، وغياب الاحساس بأهمية المهام، والفقر والجوع الحقيقيين لتجعل من أعمال الفساد تلك ضرورة حتمية. كانت العديد من تشكيلات الجيش النظامي تشعر باليأس، ولم يكن راتب الرائد يتجاوز 700 دولار شهرياً - أي 22 دولاراً في اليوم - وكانت الرواتب تتأخر عدّة شهور أحياناً. وكان راتب المجند خمسة دولارات في اليوم، وكانت كل حواجز التفتيش على الطرق بمثابة سوق سوداء يبيع فيها الجنود وقود عرباتهم المدرعة للسيارات التي تمر عبرها مقابل الفودكا والطعام. في بعض الأحيان، يقوم الجنود باستجداء الناس بعد أن يتفحصوا وثائقهم. ورأيت مرة مجنداً هزيلاً يملأ قميصه بالبصل من شاحنة يتمّ تفتيشها عند نقطة التفتيش في أرغون. في تلك الظروف، لم يكن الأمر يستلزم أكثر من خطوة قصيرة فقط لبيع أكثر السلع إثارة على الإطلاق؛ الأسلحة والذخيرة.

في حالة واحدة فقط، تمّ توجيه الاتهام للجنود الروس علناً ببيع عربتهم المدرعة. قال الشيشانيون، وهو ما أيدته كل الدلائل، أن صفقة البيع تلك لم تكن حالة معزولة. كان الجنود يهجرون

بعض الأسلحة، وخصوصاً الدبابات والعربات المدرعة، والتي يقوم الشيشانيون بالاستيلاء عليها في المعركة. كان هناك أيضاً مصدر آخر حيث كان الروس يتظاهرون بالدخول في معارك وهمية وخسارة بعض الأسلحة، والتي كانوا يبيعونها للشيشانيين فيما بعد. أخبرني ضابط روسي عن دبابة بيعت بمبلغ 6000 دولار إضافة إلى صواريخ غراد.

اتسع الفشل العسكري في ساحة القتال إلى ما وراء خطوط الجبهة، ولم يقم الجيش بأي محاولة لكسب تعاطف السكان المحليين. نتيجة لذلك بقي السكان ينظرون إلى تلك القوات على أنها محتلة بغيضة وليس سلطة محترمة. فور الاستيلاء على قطعة من الأرض، كان الجنود يجلسون داخل مواقع المحصّنة عند تقاطع الطرق والجسور الاستراتيجية، ولا يظهرون سوى لتفتيش السيارات المارة، وتفحص الوثائق. ثم يختفون مجدداً خلف أكياس الرمل، وفي الخنادق، وتبدأ عربدة الفودكا والموسيقى الصاخبة. غالباً ما كانت مناطق التفتيش تلك تتحول إلى بؤر كراهية بالنسبة للشيشانيين وتتعرض للهجوم المتكرر. أصبح الجنود بدورهم أكثر عدوانية مع المدنيين، ويرفضون مرور الناس، ويطلقون النار فوق رؤوس البشر وعلى أقدامهم، أو يفجرون إطارات السيارات التي لا تلتزم الوقوف بالدور. العدوان والإدمان؛ صمّاما ضغط الجنود الروس.

حتى في غروزني، لم يخرج الحكم الروسي عن حالة الاحتلال العسكري. كانت التحسينات في أوضاع معيشة السكان العاديين غير ذات شأن. استؤنفت إمدادات الكهرباء والمياه الجزئية مجدداً، وتمّ تجديد مستشفيين نوعاً ما، ولكن ذلك لم يصنع فرقاً جوهرياً مع تدمير عشرات آلاف المنازل والشقق خلال الشهور القليلة الأخيرة. طال الجزء الأكثر وضوحاً في إعادة الإعمار مقر الحكومة الدمية التي نصّبها الروس، والتي يقودها سلام - بك خادزييف وهو وزير النفط السوفياتي السابق. كانت رائحة الطلاء الجديد تنبعث من المبنى الذي يعجّ بثرثرة أمناء السر والموظفين الروس وحلفائهم الشيشانيين. كان الإحساس بأن كل شيء طبيعي هناك بمثابة الصدمة، كما لو أن المرء في موسكو. في الخارج كانت الحقيقة الوحيدة هي الغضب والانتقام والارتياب.

أثناء الليل في غروزني، يقوم القناصّة المختبئون بين الأنقاض بقنص الجنود الروس خلف متاريسهم وحواجزهم الإسمنتية، وكان الروس يتراجعون للخلف. وخلال النهار - كما يعرف كل روسي - كان هؤلاء القنّاصة يمشون في الشوارع في ملابس مدنية، حيث لا يمكن تمييزهم عن الناس العاديين. ونتيجة لعدم قدرتهم على استئصال المقاتلين، تخلّى الروس عن مخابئهم وجرفوا كتلة إثر أخرى من المنازل والشقق السكنية المدمّرة حول القصر الرئاسي وصولاً إلى مركز المدينة حتى مهّدوها تماماً. كان عدم التآلف مع الناس والمكان يعني أنه لا مفر من العدائية حتى يعود الجنود إلى قواعدهم ونقاط تفتيشهم. كان بمقدور الجندي قضاء ساعات في المدينة ولا يستطيع فهم كلمة مما يقال حوله باللغة الشيشانية. ربما يكون الأشخاص على الزاوية يتحدثون عن أسعار الطعام، أو السيارات أو إصلاح بيوتهم المدمرة، أو ربما يكونون ثواراً يتناقشون حول القتال والخراب. لم يكن الجنود يعرفون أبداً، لأن كل الشيشانيين كانوا يبدون متشابهين. ولم يكن جندي روسي عاقل يدخل السوق الرئيسية في مركز المدينة حيث يمكن شراء أي شيء من الأسلحة النارية إلى معاطف الفراء والبهارات. كان هناك حوادث لقي فيها جنود مصرعهم هناك في وضح النهار، وكان المهاجمون يذوبون ضمن الحشود المتنوعة. كان الجيش يفقد أحياناً بعض الجنود في غروزني حتى يعثر على رؤوسهم المقطوعة في الشارع.

في مبنى حكومة خادزييف، لم يكن أي شخص قادراً على تحديد ما يفكر به الناس هناك. كان الشيشانيون المناهضون لدوداييف، والذين يعملون كحراس، يرتدون لباساً روسياً موحداً، وسألني

أحدهم: "إذاً، ما هو رأيك في البويفكس؟". وظننت أنه على وشك شتم دوداييف والثوار، ولكنه عوضاً عن ذلك قال بهدوء: "إنهم يشرحون لهؤلاء الخنازير الروس كيف يكون القتال، أليس كذلك؟". ثم قال:"إذا ذهبت إلى الجبال ورأيتهم، أرجوك أخبرهم بأنهم يتمتعون بدعمنا". كان خادزييف نفسه، ورغم كونه دمية موسكو، يتوسل الروس ليتوقفوا عن الانتهاكات، وكان يدعوهم جيش *الاحتلال*.

لم يكن الرجال فقط الذين تعلموا كره الروس، فبدورهم الأولاد كان لهم دور في المعركة منذ بدايتها حيث كانوا يساعدون في نقل الجرحى أو الذخيرة، ويتطلعون إلى اليوم الذي يستطيعون فيه القتال إلى جانب إخوتهم الأكبر سناً أو آبائهم. لقد كانوا عدواً أيضاً مثلما كانت النساء.

كيف يمكن لجندي أن يعرف بأن المرأة التي تبيع الدخان ليست أم أو ابنة مقاتل، أو حتى عضواً فاعلاً في شبكة الثوار؟ كنت مرة في حافلة مليئة بنساء يثرثرن واللواتي صمتن عندما صعد جندي للتفتيش. قضى ذلك الجندي الشاب ذو الوجه الأحمر أقل من 10 ثوانٍ في *التفتيش* قبل أن يغادر.

لا أهمية لما قد يفعله الروس أو عملاؤهم الشيشانيون في سد ثغرة الحقد. في بعض الأحيان، كان موظفو الدعاية في غروزني يقودون العربات المدرّعة المزودة بمكبرات الصوت في وسط المدينة، وينصحون السكان بالتخلي عن دعم الثوار، وكانت المروحيات تنشر بيانات تحمل نفس الرسالة في المناطق الخاضعة لسيطرة الثوار. لكن ذلك لم يكن يخدع أحداً.

توقفت إحدى العربات المدرعة ذات مرة بجانب السوق، وبدأ ضابط بتوزيع صحف مليئة بالمقالات المناوئة لدوداييف ومعلومات حول فوائد الحكم الروسي. تجمع حشد فضولي حولها، وقبل مضي وقت طويل حاصر الرجال والنساء الغاضبون العربة المدرعة وطاقمها القلق. حاول الضابط، الذي بدا مثقفاً وحسن الأخلاق، التناقش معهم، ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع قوله. صرخ رجل مشيراً حوله إلى أنقاض الدمار قائلاً: "هذا كل جلبتموه لنا!". تراجع الضابط إلى داخل العربة التي غادرت المكان وأصوات مكبراتها تقول: "لا تساعدوا قطّاع الطرق، إن قطّاع الطرق يستغلونكم، إنهم يختبئون خلف الناس لكي يطلقوا النيران على القوات الاتحادية التي تحافظ على النظام. لا تساعدوا قطّاع الطرق...".

بعيداً عن غروزني، وقريباً من جبهة القتال، تضاعف الخوف والارتياب. وبدأ الجنود في شالي بتسيير دوريات على الطرقات، ولكنها لم تلقَ النجاح. استمع جندي خرج دون أن يرتدي قميصاً لمحاضرة من بعض الرجال غير المسلحين، وصرخ شيشاني: "إنكم تخرقون القوانين العسكرية وتهينون عاداتنا". هرب الجندي مسرعاً عندما تزايد عدد الحشد. وخلال إحدى الدوريات، ذهبت مع بعض الجنود في عربة مدرّعة في آذار، وتغيّر الطقس بسرعة بعد أن اجتزنا ضواحي غروزني إلى الأراضي الزراعية، فتمّ إغلاق حجرة القيادة، واتخذ جندي الرشاش موقعه، ووضع الجنود الجالسون خارجاً خوذاتهم الخاصة السميكة.

لم يكن هناك أشخاص أو مركبات على طول الطريق، وزاد ذلك من الاحساس بالعزلة. عند محطة مياه كان يجب تفتيشها، وجدنا بقايا لامرأة في كوخ تعرّض للقصف. كانت ميتة منذ وقت طويل، ومن المحتمل أنها لقت حتفها في غارة جوية عند بداية الحرب، وكانت تبدو من شعب *الماهقان*. كان المكان هادئاً وساكناً. قال قائد العربة المدرعة، وهو ملازم يدعى نيكولاي، ما كان يفكر به كل شخص: "لننتبه جيداً الآن، سنتفقد هذا المكان ونغادر بعدها. لقد شارفت خدمتي على الانتهاء هنا، وأريد الذهاب إلى منزلي". كان اضطرابه معدياً، ونظر من خلال النوافذ الصغيرة

للعربة المدرّعة، وبدأت أتوقع سماع صوت سلاح مضاد للدروع يأتي من تلك الغابات الغريبة والعدائية. إلا أنني شعرت بالراحة لدى العودة إلى أنقاض غروزني.

كلما تراجعت المعنويات، تضاءل احترام القوات لحياة البشر، الشيشانيين وأنفسهم. كانت ثقافة القسوة العامة ضمن القوات المسلحة الروسية معروفة منذ وقت طويل، لكنّ الحرب أوضحت المواقف غير الإنسانية للجيش كمؤسسة. كان هناك فوضى دائمة فيما يخص أرقام الإصابات، ورفض إخبار الأمهات عن مصير أبنائهن وإشاعات المقابر الجماعية التي تخفي الخسائر الحقيقية. عند نهاية الحرب، قامت محطة التلفاز الوطنية آر تي آر بتصوير جنود يعيشون في خيمة إلى جانب جثث ميتة في أكياس كبيرة. السبب الوحيد وراء انجلاء تلك الحقيقة هو اشتعال النيران بالخيمة واحتراقها.

أصبح الموقف أكثر سوءاً عندما تحوّلت القوات المسلحة في الشيشان من تجنيد الشباب إلى كبار السن بعقود جيدة الأجر - كونتراكتنكس. كان الاستخدام الواسع لهؤلاء المقاتلين يعني إدخال رجال أقسى وأكثر خبرة في مصاف المتطوعين، وليس مراهقين مجبرين على القتال. لكنهم لم يكونوا جنوداً محترفين بالمعايير الغربية، ولم تكن عقودهم تستمر أكثر من بضعة أشهر، وغالباً دون خبرة عسكرية سابقة عدا الخدمة الوطنية. مثل المرتزقة التقليديين، كان يتمّ توجيه بعض الأسئلة لهؤلاء الكونتراكتنكس، واعترف الجيش أن العديد من هؤلاء المتطوعين كانوا محكومين، وسكارى، وحتى مشردين يبحثون عن النجاة. قال البعض إنهم تطوعوا بدافع الوطنية أو بحثاً عن المغامرة، ولكن ببساطة لم يكن لدى الكثيرين منهم مكان آخر في المجتمع، وقال بعضهم - الأكثر بؤساً ربما - إنهم جاءوا إلى الشيشان لجني بعض النقود، وأخبرني أحدهم قرب شالي: "سأشتري براداً".

ساهمت التناقضات في العمر والأجر إلى حدٍّ كبير في إفساد القوات المسلحة. غالباً ما كان هؤلاء القادمون الجدد في الثلاثين من العمر، ويتلقون حوالى 360 دولاراً شهرياً، ويقودون بعضاً من المجندين الذين لا يتلقون رواتب نهائياً ويصغرونهم بعشر سنوات. كان هناك توتر أيضاً بين كونتراكتنكس بعقود قصيرة الأجل وبين الضباط المحترفين الذين يعملون تحت إمرتهم ويكونون في أغلب الأحيان بنفس العمر.

كان الشيشانيون يكرهون الكونتراكتنكس بشكل خاص، ويغفرون للمجندين لأنهم لا يحاربون بمحض إرادتهم، ولكنّ المتطوعين - الذين يقاتلون من أجل المال - كانوا مكروهين ومستهدفين. كان يقال إن الكونتراكتنكس يحاربون بقوة في المعارك لأنهم كانوا يعرفون بأنهم إذا وقعوا أسرى سيتمّ إعدامهم.

لعب الكونتراكتنكس دوراً قيادياً في البحث عن المقاتلين المحتملين، والانتقام والقيام بكل الأعمال القذرة ضد الثوار. كان الرجال الشيشانيون يخافون من نقاط التفتيش وخصوصاً التي كان الكونتراكتنكس يديرونها، والذين يتفحصون الكدمات على الكتف الأيمن أو علامات أخرى على استخدام الأسلحة. كان الكونتراكتنكس يعتقلون الرجال لأدنى شك، وكان ذلك يعني الدخول في نظام معسكرات *التصفية* السري وخارج نطاق القانون خلف الخطوط الروسية. كان الرجال في سن القتال يختفون في معسكرات في مدينة غروزني، وعلى أطراف الشيشان في قواعد عسكرية روسية منذ بداية الحرب. لم يعد أحد منهم أبداً. بحلول صيف 1995، كان هناك أكثر من 1000 رجل شيشاني على قائمة المفقودين. لم تتمكن منظمات حقوق الإنسان والصحفيون من دخول معسكرات *التصفية*، ولكن الرجال الذين خرجوا منها كانوا خائفين للغاية. قالوا قصصاً عن إبقائهم في حفر، وتعرضهم للضرب، وإحراقهم بلفائف التبغ، وضربهم بالحجارة، وحرقهم بالمياه الساخنة.

كان العديد من الضباط المحترفين مرتبكين إلى حدٍّ ما من الحرب، وظلوا يحاولون استجماع تدريبهم وذكرياتهم في الجيش السوفياتي مع رؤيتهم للإخفاق التام حولهم. قال ضابط خارج ساماشكي في بداية صيف 1995: "يجب إنهاء هذا، والبدء بالمفاوضات". أشار إلى ساماشكي واعترف بأن القرية ليست تحت سيطرته رغم *تطهيرها* في هجوم الربيع. "إنهم يأتون في كل ليلة من الغابات ويطلقون النار علينا من الرشاشات والبنادق". عندما تكلم عن باموت، لم تكن الدعاية الرسمية في ذهنه. شكّل صدقه صدمة لنا: "هناك حوالى 100 مقاتل، ولكن من الصعب اجتياح ذلك المكان. لقد ضربناه، ولكنهم لم يتعرضوا لإصابات كبيرة في خنادقهم. إننا نضرب باموت كل يوم بالصواريخ، وتقصفها طائراتنا بين الحين والآخر، ولكن ذلك ليس فعالاً جداً. يجب أن نتحدث. وبالنسبة لي، إنني أريد الذهاب إلى المنزل. أنا متعب لأنني هنا منذ ستة شهور".

كانت معظم الإصابات تطال المجندين، وهم نتاج مجتمع لا يدعم الحرب وجيش لا يمكنه القتال. قال ليوند، الذي يبلغ من العمر 20 سنة: "لا أعرف إذا كنت قتلت أحداً، ولكني أطلق النار كل يوم. أريد الآن الذهاب إلى البيت. ولا أعتقد أن هناك أحداً لا يحتاج إلى ذلك. نريد جميعنا الذهاب إلى المنزل. إن الكثيرين منا يموتون. لقد مات صديقي منذ كنا في رياض الأطفال في غروزني". ووقع المئات مثل ليوند أسرى، وغالباً ما كانوا يسلمون أنفسه حالما يتعرضون للهجوم. حالما يصبحون أسرى، كان بعض الروس يموتون جراء قصف قواتهم، ويتمّ إطلاق سراح البعض أو مبادلتهم، وبقيت أقلية غير محظوظة منسية من حكومتها لفترة طويلة بعد الحرب. لكن لفهم اليأس العميق لجيش المجندين، يجب على المرء أن يقابل الفارين من الجندية؛ أولاد هربوا من أكبر الجيوش في العالم وذهبوا إلى العدو، كان الآخرون يقولون إنه يقوم بإعدام كل الأسرى.

كان هناك فارون من الخدمة العسكرية في جميع أنحاء جنوب الشيشان، وكانوا يطهون لوحدات الثوار، ويرعون الحيوانات، ويقاتلون أحياناً إلى جانب البويفكس. في توسيع غريب لتقليد الضيافة، كان الثوار يخبرون المجندين الأسرى والفارين من الخدمة أن بإمكانهم الانضمام إلى المقاتلين إذا تحولوا إلى الإسلام، أو سيبقون أسرى حتى مبادلتهم. ولم يكن لدى الكثيرين منهم أي خيار آخر. كان البقاء مع الشيشانيين، الغرباء بالطبع، أفضل من العودة لمواجهة المحكمة العسكرية والحكم بالسجن بسبب فرارهم.

في بعض الحالات، كان الثوار يتصلون بذوي المجندين ويساعدونهم على تهريب أبنائهم إلى روسيا، ولكن كان هؤلاء قلة محظوظة. كان الشيشانيون يحتفظون بالعديد - قد يصل العدد إلى المئات - من أسرى الحرب ويبيعونهم من أسرة إلى أخرى كضمانة لعودة أبنائهم المعتقلين من قبل الروس. بنفس الطريقة، قام الروس ببيع الشيشانيين أبنائهم، أو جثث أبنائهم مقابل مئات، وفي بعض الأحيان آلاف الدولارات. كانت تلك مقايضة بحياة البشر، والتي وصفها ألكسندر دوما قبل أكثر من قرن مضى.

وفي أحد المعسكرات الجبلية، قال روسي يبلغ من العمر 20 عاماً، ويدعى قسطنطين أنه فرّ من فوجه العسكري: "كنا مثل الحيوانات، وضربني ضابط بمجرفة على قدميّ مما أصابهما بضرر بالغ، تطلب الأمر شهرين لتتعافيا بعد أن فررت من الخدمة. كان الكثيرون يفكرون بالفرار. ولم يكن أحد يرغب بالقتال". اعتنق قسطنطين الإسلام، وغير اسمه إلى يزبك، وانضم إلى وحدة ثوار تقاتل أبناء بلده.

كان ساشا جندياً فاراً آخر ينضم إلى المقاتلين الشيشانيين، ويبلغ من العمر 20 سنة وهو من جنوب روسيا. وفرّ لأن ضباطه جعلوه يعيش في حفرة في الجبال، وبعد انتهاء فترة خدمته

الالزامية، وعندما كان يتوجب تسريحه من الجيش، قاموا بإبقائه ثلاثة شهور أخرى. كان ساشا متأكداً من أنهم لن يطلقوا سراحه أبداً، وأنه لن ينجو. وهكذا في أوائل الصيف، ترك سلاحه وتسلل إلى الغابة، حيث وجده الشيشانيون وأعطوه لباساً مدنياً، وأخذوه إلى معسكر شامل باساييف. وعندما التقيته صدفة بعد شهرين، كان قد غيّر اسمه إلى شيرازي، وكان يمسك مسبحة، وقال: "أنا أعيش هنا مع الإخوة الشيشانيين".

'لقد توقف قلبك عن الخفقان،
وصرخة "الله!" تجمدت في فمك،
لن ترى الشمس مجدداً،
لقد أخذك الله بعيداً،
وعندما قلنا وداعاً قبل رحلتك الأخيرة،
أقسمنا لك بأننا سنضحي بحياتنا،
ليكون القوقاز حراً.
كنت تستطيع المكوث في المنزل،
وتنظر إلى الشر على حياد،
ولكنك أتيت إلى هذه الأرض،
من أجل حرية هذا البلد الصغير،
لقد أتيت إلى هذه الأرض،
أتيت لتنقذ الشيشان من أعدائها،
واليوم، تموت لأجل الحرية.
أغنية محارب شيشاني في باموت، نيسان 1995.

بالنسبة للشيشانيين، تحولت باموت لتصبح إحدى أساطير الحرب، إلى جانب الدفاع عن القصر الرئاسي والمعركة ضد القوات الروسية في رأس السنة الجديدة. بسبب تتابع الأحداث، أطلق عليها دوداييف رسمياً اسم *حصن باموت*. وخلال 18 شهراً، ولغاية الاستيلاء على منازلها البالغ عددها 1300 في حزيران 1996، كانت تلك البلدة منيعة.

مثل قرى أخرى عديدة على خط الجبهة، كانت باموت تقع في وادٍ تحدّه تلال شاهقة مليئة بالغابات والتي كانت مثالية للدفاع. بنفس الأهمية، كانت نهاية القرية متاخمة للحدود مع أنغوشيا. كان الروس يستطيعون تطويق البلدة إذا تسنّى لهم مهاجمتها من تلك الجهة. لكن بسبب خوف موسكو من تورّط الأنغوش، أو حتى مناطق أخرى من شمال القوقاز، في الحرب كان الجنرالات المحبطون مقيدين فيما يمكنهم فعله في الأراضي الأنغوشية. كان باستطاعة القوات التحرك عبر الحدود، ولكنّ شنّ عمليات عسكرية في (أو حتى من) الأراضي الأنغوشية كان مستحيلاً.

مع تأمين جهتهم الخلفية، كان البويفكس في باموت يستطيعون استخدام قرية آرشتي ضمن أنغوشيا للراحة والتزود بما يحتاجونه. كان العديد من لاجئي باموت يعيشون في آرشتي، ويستخدمون القرية كقاعدة خلفية طبيعية. كانت المحاولات لقطع الصلة بين باموت وآرشي، سواء بالغارات الجوية وبإرسال قوات برية، تنتهي بعد الاحتجاجات الغاضبة لرئيس أنغوشيا رسلان أوشيف.

من الجبهة الأمامية لباموت، والتي تطل على السهول، كان يمكن رؤية المواقع الروسية التي لا تبعد أكثر من 700 متر. كان هناك كتلة مبانٍ، وعربات مدرعة، وجنود مستهترون يتجولون في المنطقة، خلال أربع وعشرين ساعة في اليوم، كان البويفكس يسيّرون دوريات في الضواحي، فيما يقوم قناصتهم باصطياد الروس من أماكن مخفية بين الأنقاض. من قمة التل على الخاصرة اليمنى، كانت مدافع الهاون والمدافع الأخرى الشيشانية تطلق النار على المعسكرات الروسية.

ورداً علي ذلك، انهمرت قذائف المدفعية الروسية على باموت ليلاً ونهاراً، واشتعلت النيران في المباني المحطّمة، وتسببت بالمزيد من حفر الانفجارات. وتحول المسجد إلى أنقاض، وتعرضت المقبرة لوابل من النيران. انتشرت رائحة الأموات، والحيوانات المتفسخة التي هاجمتها الكلاب الشاردة، في أرجاء القرية. تعرضت الغابات والسفوح حول باموت للقصف والضرب المدفعي العنيف بحيث تحولت التربة إلى فتات في الأيام الجافة. تحوّلت الأحراج إلى أجزاء ممزقة. لكن بعد كل قصف، كان الشيشانيون المبعثرون في مجموعات صغيرة، والذين يبقون دائماً قريبين من الملاجئ، يظهرون ويطلقون النار. في نيسان عام 1995، صدّوا أربع محاولات اجتياح روسية بالدبابات والعربات المدرّعة.

كان المقاتلون يعرفون أنهم سيمكثون هناك لفترة طويلة، ولهذا تكيّفوا مع التضاريس المحيطة، وعاشوا حياتهم الطبيعية بشكل ظاهري. جاء معظم المحاربين من باموت نفسها، وكانوا يشيرون إلى الأماكن التي كانت منازلهم قائمة عليها والتي نشأوا فيها. كانت منازلهم تتراءى لهم رغم عدم وجودها فعلياً، وكانت إحدى عباراتهم المفضلة: "هوما آ داتس" - *لا مشكلة* بالشيشانية.

كان مركز القيادة على ضفة نهر جارٍ في شارع من المنازل المدمّرة والأشجار الممزقة. بالقرب منه، كان يوجد حمام بخار ومنزل مؤلفٌ من طابقين تلقى ضربة مباشرة، ولكن الحمام الموجود في الحديقة، والذي يعمل موقده على الحطب، بقي سالماً. دخلت مع بويفكس ذي لحية كثيفة يدعى ماجومد إلى ذلك الحمام البخاري، ورشقنا أنفسنا بعدها بدلو من الماء البارد، ووقفنا بسراويلنا ضمن الأنقاض نرتجف من نسيم المساء، ونظرنا إلى الثلج البعيد؛ قمم القوقاز المكللة بالثلوج. كان من الصعب التذكّر أين كنا إلى أن ارتفعت أصوات قذائف المدفعية الروسية في الجو. استلقيت مباشرة على الأرض، ولكن القذيفة سارت في مسار مقوس فوق رؤوسنا وضربت موقعاً في التلال الحرجية. وضحك ماجومد، وطلب مني العودة إلى الحمام البخاري.

لأني كنت ضيفاً، كان القائد خانزاد باتاييف يدعوني دائماً إلى الغرف السليمة في بيت مركز القيادة المحطم، وكانت ريسا، الطاهية والممرضة، تحضّر لي الشاي. عند العشاء، طهت ريسا حساء اللحم والبطاطا، وقدّمته في أوعية صينية لي، ولخانزاد، وبعض المقاتلين. كان الأمر يشبه تناول الطعام في أجواء مسرحية. بدت الغرفة حقيقية، ولكن الغرفة المجاورة، المفصولة عنها بستارة على الباب، كانت كومة من الحجارة. لم يكن باستطاعة أحد التخمين كم من الوقت ستبقى غرفتنا صامدة. بدأ القصف خلال تناول العشاء، واهتزت الجدران وأكواب الشاي. قال خانزاد: "لا تقلق. لن يحدث لك مكروه هنا. أنت محاط بالمؤمنين". اعتقدت أنه يمزح، ولكنّ الشيشانيين يؤمنون حقيقية بتلك المعتقدات.

كان أفراد وحدة خانزاد يضعون الذخيرة في القبو الإسمنتي، ويناموں بكامل ملابسهم، وكانت بنادقهم وقاذفات القنابل اليدوية على رف فوق رؤوسهم. ولمدة ساعة في إحدى الليالي، كان موفلادي الذي يبلغ من العمر 17 سنة، بعينيه اللامعتين وسرواله الأصفر، وحذاء لاعبي التنس، وخوذة الجيش الروسي يغني مع قيثارته داخل القبو.

"لماذا تهتمّ الذئاب بغراتشيف؟ و"لماذا تهتمّ النسور بيرمولوف؟". كانت تلك لازمة الأغنية، وقد ابتهج الجميع وصرخوا "الله أكبر!"، وانهمرت الدموع من أعينهم من شدة الضحك. لم يكن موفلادي يتمتع بصوت متميز، ولكن الجميع استمتعوا بذلك التلميح لحياتهم السابقة. وبدأ بعض المقاتلين ينامون مثل الأطفال.

ينتمي شعب باموت إلى قبيلة **ملخي**، وهي إحدى أكثر القبائل انغلاقاً وحفاظاً على التقاليد في الشيشان. وبالنسبة لهم، لعبت الصوفية دوراً هاماً. خلال ليلة هادئة في نيسان، تجمع ثمانية أو تسعة مقاتلين في ساحة مركز القيادة، وقاموا بأداء الذكر. في البداية، كان الغناء نشازاً دون لحن، ولكن كما يحدث غالباً، نسج الذكر حياة خاصة به. ترافق الإيقاع بالتصفيق، وطريقة التنفس الخاصة به، والتعرّض للهواء الذي ينشّط الذهن، وسرعان ما أخذ المقاتلون يهتفون ويتصببون عرقاً، غافلين عن أصوات نيران الأسلحة على مشارف القرية وأول الشهب النارية الروسية بألوانها الحمراء والخضراء عند الغسق.

أخذت الأحذية تطحن القرميد والزجاج المكسور، وتحول المقاتلون إلى كينونة متحدة، وكانوا يصفقون، ويدورون، ويغنون الأشعار واللازمة "لا إله إلا الله!". كانت وجوههم تتبدل. وعندما كانوا يضربون الأرض بأقدامهم، كانت تتشابك أمشاط ذخيرتهم، وتعلو أصوات سكاكينهم. عند الذروة، كان يمس المقاتلين التهالك، ويصيبهم الهياج، ويصبحون - كما أعتقد - مستعدين للقتل والموت. لقد أبعدوا أنفسهم عن هذا العالم. في نهاية الذكر، كان أحد الرجال يأم بالمصلين، ويستطيع المرء أن يشعر بالمقاتلين يعودون إلى الأرض بهدوء. لقد أصبحوا رجالاً مختلفين، كما لو أنهم رأوا العالم الآخر، وعرفوا أنهم إذا لقوا حتفهم خلال الليل سيذهبون إلى الجنة. لطالما تساءلت فيما إذا كان الروس قد سمعوا مقتطفات من ذلك الذكر وهم في خنادقهم. سيكون ذلك مرعباً.

كانت باموت مكاناً مظلماً، ويدافع عنها رجال أشداء، وقساة، وشريرون في بعض الأحيان. كانوا يقومون بإعدام أي كونتراكتنيكس يقبضون عليه. كانوا يحفظون حياة المجندين، وكان عليهم للنجاة من قصف الجيش أن يعيشوا مثل الصراصير في الأقبية والمخابئ. كانوا يعتبرون أي أجنبي جاسوساً محتملاً لأن نجاتهم كانت تعتمد على عدم معرفة الطائرات والدبابات الروسية لمواقعهم بالضبط، وكان الشيشانيون يخافون بشدة من الطابور الخامس. اختفى فرد كني، وهو خبير مساعدات أميركي، أرسلته مؤسسة **سوروس** المتمركزة في نيويورك، لدراسة الوضع الإنساني، في ربيع عام 1995. كانت باموت آخر الأماكن التي شوهد فيها، ومن المحتمل أنه لقي حتفه هناك على خط جبهة ستاري أتشخوي المجاورة، قد يكون ضحية لهوس التجسس. لقد قضت عائلة **كني** شهوراً خطيرة في الشيشان، ولكنها لم تستطع مطلقاً إيجاد جثته؛ وهناك دليل قوي على أن قتلته كانوا مهتمين بالبقاء غير معروفين مهما كلف الثمن.

عندما قمت برحلة في الشتاء، بعد ثمانية شهور من زيارتي الأولى، واجهت صعوبة كبيرة في التعرّف على البويفكس. أصبح الشباب رجالاً قساة تحكم الريبة أفعالهم. لم يعودوا يزعجون أنفسهم بسؤالي عن العالم الخارجي. أصبحت الضيافة شكلية، وأخذ المزيد من الناس يشكّون بأنني جاسوس أو خائن ولستُ ضيفاً. غادرت الطاهية والممرضة ريسا المكان، وأصبح المقاتلون يشعرون بالجوع في أغلب الأوقات، وكانت خنادقهم رطبة وباردة.

كانت الليلة مرعبة، فقد سقطت صواريخ غراد على الشوارع، واحداً تلو الآخر، وبالقرب من بعضها بحيث لم يعد ممكناً تمييز الأرض من السماء، وركضنا إلى القبو. اشتعل سقف المنزل الذي كنا نقيم فيه والمحطم أصلاً بالنيران، وخرج مجندان روسيان أسيران يحملان دلاء الماء لإخماد النيران. انطلقت أضواء إنارة صفراء من المواقع الروسية، وغمرت الحجارة بضوءٍ شاحب. دخل بويفكس يبلغ من العمر 17 سنة، وكان يمشي في الخارج عندما ضربت صواريخ غراد الشارع، إلى القبو منفعلاً، وكانت عيناه تلمعان خوفاً وقد شحب لون وجهه. بعد دقائق، خرج مع شخص آخر

يبلغ من العمر 17 سنة ليؤديا مناوبتهما في المواقع الدفاعية في الضواحي. وكان كل منهما يحمل بندقية ويرتدي سترة غير ملائمة وقبعة تزلج. ولم أطق صبراً كي أغادر.

باموت

في اليوبيل الذهبي للانتصار في أوروبا في 9 أيار عام 1995، أمر الرئيس يلتسن بعقد هدنة في الشيشان. كان الشيشانيون يعرفون بأنها مجرد كذبة، وكانت القوات الروسية تعرف ذلك أيضاً. لكن قادة الغرب الذين اجتمعوا في موسكو والتقوا يلتسن للاحتفال بالسلام العالمي تظاهروا بأنها حقيقة. تمّ تحديد الهدنة من نهاية نيسان إلى 11 أيار؛ عندما سيغادر القادة الغربيون إلى ديارهم ستبدأ الحرب رسمياً من جديد.

ظهر واضحاً أن القادة الغربيين ساخطون لأنه لم يشارك أي محارب شيشاني قديم في الاستعراض العسكري في الساحة الحمراء، وشرح الناطقون الصحفيون بأن ذلك يشير إلى موقف الغرب الثابت من الشيشان.

ثم، وللتأكيد على مبادئهم، قام القادة الغربيون ـ جون ميجر، وهلموت كول، وبيل كلينتون ـ برفض دعوة ثانية لحضور استعراض عسكري أكبر. أعلنت الأخبار: "إنهم مهتمون بأن لا يظهروا كمن يقدّم الدعم للعمليات العسكرية في تلك المنطقة الانفصالية."

في مؤتمر صحفي في 10 أيار مع الرئيس كلينتون، صرّح يلتسن بكذبة مكشوفة: "لا توجد عمليات عسكرية الآن في الشيشان. وما يجري هو عمل بنّاء". ولم يستغرب كلينتون، وقال: "إن الإصابات التي تعرض لها المدنيون، وتمديد فترة القتال، سببا متاعب جمّة لبقية العالم."

في نفس الوقت تماماً الذي كان فيه الاثنان يقفان أمام الصحافة العالمية، ومباشرة على التلفاز، كانت المروحيات تقصف سيرزين يورت.

عند بداية هدنة يلتسن الزائفة، قام دبلوماسيون من منظمة الأمن والتعاون في أوروبا بزيارة باموت للمرة الأولى. كان مجيئهم متوقعاً منذ عدّة أيام، ولهذا كان اللاجئون خارج باموت والمقاتلون داخلها نافذي الصبر. حالما سيرى هؤلاء الأجانب ما حدث بأنفسهم، ستفهم حكوماتهم ما يجري وستنقشع الغمامة عن أعينهم.

جاء مفوضو منظمة الأمن والتعاون الأوروبية الخمسة في حافلة صفراء من أنغوشيا. أظهر المقاتلون الشيشانيون عنفوانهم وقادوهم في جولة في أرجاء باموت. كان يوماً مشمساً، ولم يكن هناك تبادل لإطلاق النار، وكان الجو هادئاً. شعرت بالفرح للشيشانيين.

لكن هناك شيء ما خاطئ. ولم يكن كل شيء على ما يرام مع مفوضي منظمة الأمن والتعاون الأوروبية، الذين بدوا مثل السياح، بثيابهم الفضفاضة المخصصة للرحلات، والطريقة التي التقطوا بها صور الشوارع المدمّرة، أكثر منهم لجنة تقصي حقائق. كان هناك انطباع بأنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض بدلاً من التحدث للشيشانيين.

سألت أحدهم، وكان أنغلو ـ فرنسياً، ومهذباً، ودمثاً ويدعى أوليفر بيلن لماذا لم يكن هناك أثر لوقف إطلاق النار على العمليات القتالية. تكلم لمدة 10 دقائق دون توقف، ولم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا كان يتكلم عنه. لقد قال شيئاً حول شدة تعقيد الموقف، مع "مستويات ضمن مستويات"، و"شكليات" ومحاضرة عن قرار "التأجيل" وليس "إيقاف النار". فتحت فمي، ثم أغلقته بسرعة خوفاً من جرعة أخرى من الأشياء التي لا أستطيع فهمها.

بالقرب من طرف القرية عند خط الجبهة، تمّ اكتشافنا وتعرضنا لنيران مباشرة. لم يتمّ استخدام أسلحة ثقيلة ضدنا، ولكن تمّ إجبارنا على الجلوس والانتظار تحت جدار محطّم، وعلى بعد عدّة ياردات فقط من بقايا متفحمة لدبابة روسية. ضربت رصاصات القنّاصة الأرض على بعد عدة أمتار خلف الجدار، وسمعنا صوت قذائف الهاون تمر من فوق رؤوسنا نحو القرية. انسحب فريق منظمة الأمن والتعاون من المنطقة.

قال رئيس الوفد، وهو هنغاري يدعى ساندور ميزاروس: "نأمل بأن نتمكن من إقناع الفرقاء باستخدام هذه الفترة للبدء في محادثات وقف إطلاق النار. بكل الأحوال، لا تزال الآلة العسكرية فعّالة كما شاهدنا اليوم". نظر المحاربون الشيشانيون، المتلهفون والمتحمسون، إلى ذلك الرجل بمزيج من الأمل وحس الدعابة.

كانت آرشتي المحطة التالية لوفد منظمة الأمن والتعاون الأوروبية، والتي يعيش فيها سكان باموت في المباني المدرسية، وحظائر الماشية، والمنازل المكتظّة. حاصر المدنيون البسطاء المبعوثين مباشرة، كما لو أنهم يحاولون لمس أثوابهم.
كان رجل يدعى موفلادي يحاول إخبارهم بأنه فقد كل شيء؛ وكان شخص آخر يصرخ بنفس العبارة القديمة: "لماذا لا يفعل الغرب شيئاً؟."
في البداية، أحنى الدبلوماسيون رؤوسهم بوقار، وبعدها بدأ أحد الأشخاص بكتابة ملاحظات على دفتر صغير. ثم بدأت الأمطار بالهطول، وأستطيع القول إن المسؤولين الرسميين لم يكونوا يصغون عندها، وصعدوا بعد ذلك إلى الحافلة، وتركوا الشيشان بانتظار "قرار التأجيل". سألت موفلادي فيما إذا كانت آماله قد تحققت. وقال: "إنهم أناس جيدون، ولكن هذا بلا جدوى. لقد أتوا، وألقوا نظرة سريعة وغادروا. سوف يذهبون إلى منازلهم، ويشربون بعض الفودكا، ويرتاحون. ثم سيخبرون رؤساءهم بما يرونه الأفضل في ذلك الوقت، إنهم لا يهتمون بنا حقاً. يجب أن يبقوا، ويرون كيف يموت الناس هنا، وكيف لا يستطيعون إيجاد ما يأكلونه، وكيف تعيش عائلتي الآن في مزرعة مع الحيوانات لأنه ليس لديها مكان تذهب إليه. عندها سيكون لديهم فكرة عمّا يجري هنا."
كان ذلك صحيحاً. لقد بقيت في آرشتي، والتي تبعد عن باموت 4 كيلومترات، وعندما بدأ القصف، اهتزّت الأرض تحت قدميّ، وتحطمت النوافذ وهزّ اللاجئون حولي رؤوسهم بصمت.

في منتصف أيار عام 1995، بدا أخيراً أن الروس سيخترقون المقاومة، وسوف يصلون إلى الجبال. كانت جدران *الحصن الجبّار*، كما كانوا يصفونها في القرن التاسع عشر، على وشك الانهيار. بالمحصلة، أصبحت قمم التلال والقرى النائية، والتي كانت نقاطاً منيعة قبل قرنٍ مضى، أهدافاً سهلة لقاذفات سوخوي - 25. وقال الجنرال ميخائيل يوغورف، قائد العملية إنه مستعد لإنهاء الهجوم على الجبال باستخدام "كل الوحدات والوسائل الممكنة".

كانت الجائزة الكبرى فيدنو، وهي مكان مثقل بالتاريخ، ومسقط رأس شامل باساييف والعاصمة شبه الرسمية للشيشان - أشكريا. مع بداية الصيف، كانت السماء صافية كل يوم، والطائرات تحوم مثل قططٍ حول وعاء مليء بالأسماك. لدى قيادة السيارة عبر التلال الخضراء، كانت نظراتنا معلّقة خارج النوافذ باتجاه السماء الصافية بحثاً عن الطائرات النفاثة التي تطير على ارتفاع عالٍ. كان الشيشانيون يتناوبون في الجلوس على سفوح التلال، ويترقبون المظليين، ويطلقون نيران بنادقهم بشكل غاضب وعاطفي على الطائرات.

بقيت مع آناتول ليفن في حاجي يورت، وهي قرية مواجهة لفيدنو عبر الوادي. تعرضت هي الأخرى لقصف شديد، وهجرها معظم سكانها مثل معظم القرى. عندما نمنا في قبو مع إسلام، وهو أحد ستة رجال بقوا في القرية، كنا نستطيع سماع الطائرات تضرب فيدنو خلال الليل. في الصباح عادت تلك الطائرات، وكنا نراقب فيما كانت تحلق وتنقض بسرعة، وتطلق صواريخها، ثم تعود مرة أخرى لتتجمع وتطلق النار من جديد.

صمدت دولة دوداييف في فيدنو نفسها. كان الناس يضبطون ساعاتهم على توقيت دوداييف، والذي يسبق توقيت موسكو بساعة واحدة. اتخذت القيادة المحلية مقراً لها في المباني الحكومية في وسط القرية، والتي كانت هدفاً واضحاً للغارات الجوية، ولكنها كانت تتمتع بكل ما يلزم للحفاظ على المظاهر. جعلنا إداري بليد نقوم بتسجيل أسمائنا إشباعاً لرغبته في الروتين، ولكن الغارة الجوية الثالثة في ذلك اليوم قطعت تلك العملية مما جعله يشعر بالحرج.

أنكرت القوى الجوية الروسية استخدام أي قنابل مريبة، ولكننا رأينا الشظايا على الأرض حيث كان الشيشانيون يجمعون الأجزاء بجد. كان هناك قنابل عنقودية والتي نتج عنها قطع صغيرة مليئة بالشظايا، وقنابل مسمارية. في السهول، عالج الأطباء ضحايا انفجار *القنابل المسمارية*، والتي

نشرت آلاف السهام الشائكة الملتهبة. بالطبع، أنكر الروس ذلك أيضاَ، وأنكروا أنهم قصفوا دور الأيتام، وسيارات المدنيين ومنازل الشيوخ. غالباً ما كانوا يُنكرون أن طائراتهم تقوم بطلعات أصلاً.

في معظم الأحيان، كانت الطائرات تلقي ما يسميه الشيشانيون *قنابل العمق*. كانت هذه القنابل تتسبب بحفر في حجم بركة سباحة، وينتج عنها ليس تدمير المنازل وحسب، وإنما اختفاؤها نهائياً. مؤخراً، ضربت إحدى تلك القنابل الطريق الإسفلتي الرئيسي من فيدنو إلى خط الجبهة في سيرزن يورت، وضربت قنبلة أخرى منزل عائلة شامل باساييف، وحوّلته إلى أنقاض بمستوى ارتفاع الركبة. لم يكن باساييف هناك، ولكن أحد عشر شخصاً من أقاربه لقوا حتفهم. قال باساييف دون تردد عندما سألناه عن القصف: "لم يكن شيئاً مهماً". رجل صلب!

خلال الغارة الجوية التي قطعت تسجيلنا، هاجمت الطائرات وسط القرية *بقنابل الأعماق* ودمّرت عدة بيوت، وقصفت مزرعة في الضواحي مما أدى لمقتل رجل يبلغ من العمر 57 سنة، كان يرعى الماشية. السبب الوحيد لعدم قتل المزيد من الناس هو أنه لم يتبقَ الكثير منهم. بعد أن حلّقت الطائرات بعيداً، تمّ إحضار جثة الراعي لدفنها، كان رأسه وساقه اليمنى مفقودين، ولكن القرويين وضعوه في الغرفة الرئيسية وغسلوا البقايا. في الخارج، وقف 20 شيخاً ملتحياً، والذين كانوا يرتدون قلنسوات ضيقة، ويمشون بمساعدة العصي، في دائرة وصلّوا.

خلال التراجع من السهول إلى الجبال في آذار، كان هناك رهّاب الأماكن الضيقة الذي يجب أن تشعر به الماشية عندما تعبر إحدى البوابات. كان الطقس صافياً للغاية في فيدنو في ذلك الوقت، ولم يكن ذلك تراجعاً، ولكنه الوقفة الأخيرة، والإحساس بحقيقة أن الوقت بدأ ينفد مما يجعل الزمن يتوقف. إلى جانب الصحفيين أو الأطباء في منظمة "أطباء بلا حدود"، لم يكن هناك أشخاص من العالم الخارجي. كانت الشوارع الطويلة الفارغة تجعلك تشعر بالأهمية الذاتية وليس الوحدة، وكلما قابلت أشخاصاً غير اعتياديين، كلما بدوا طبيعيين أكثر.

أحاطت الشائعات الغريبة بفرقة من الرجال الذين يرتدون التنانير، والذين بدوا لكل العالم مثل راقصين اسكتلنديين، ورغم أننا لم نرَ أي تنانير، إلا أننا شاهدنا كل الأشياء الغريبة والأبطال الذين تجمّعوا في الوقفة الأخيرة. سمعنا أن إمام علي - سلطانوف، المطرب الوسيم، والذي أصبحت أغانيه حول الحرب أناشيد للمقاتلين، موجود في مكان ما في القرية.

كان هناك شخص قدّم نفسه على أنه *زميل صحفي هولندي*، ولكنه كان يحمل بندقية كلاشينكوف ولا يتكلم الروسية. كان هناك امرأة مقاتلة، تحمل بندقية ولها تسريحة شعر خاصة، تمشي على طول الشارع الرئيسي. وكان هناك عدد من المحاربين الذين ادعوا بأنهم أسقطوا طائرة بأنفسهم، والتي تناثر حطامها على كل الطريق أسفل فيدنو. كان هناك سيارة الفولغا السوداء التي تعود للحاكم خلال العهد السوفياتي، مع هاتف كان من الواضح أنه لم يعمل منذ سنين، وكان هناك غسان باساييف الطبيب المتعب والشجاع، والذي كان يعمل لوحده في مبنى مدرسي آنذاك لأن مستشفاه تعرّضت للقصف.

توقف هناك جوهر دوداييف، واختفى بعدها عائداً إلى الجبال، ثم جاء مسخادوف ليتحدث بأمور استراتيجية مع باساييف، وباحثاً في كل أنحاء العالم وكأن الحرب تسير وفقاً لإرادته: "اعتقدوا أن هذه ستكون نزهة ضد بعض قطّاع الطرق، وأن كل شيء سينتهي في غضون ساعات، إنهم لم يدرسوا الشخصية الشيشانية وتاريخنا، وإذا استطعنا الصمود لشهر، سيكون ذلك انتصاراً ضد مثل هذا الجيش الضخم، وبعد ستة شهور، سيكون الانتصار عظيماً... إن روسيا لا تستطيع الانتصار هنا، إنها مثل أفغانستان أو فيتنام. الهزيمة تنتظرهم، وأنا أضمن ذلك".

عندما مشيت مع آناتول إلى الجبهة في سيرزن يورت، لم يستطع المقاتلون إخفاء مدى سوء الوضع، وبدوا نصف سكارى من العنف، والتوتر، والإرهاق. نظر أحدهم، والذي قال إنه يُدعى 0.545 تيمناً بعيار البندقية الآلية، على مجرى الدمع وقال: "إن كل قادتنا فئران، إنهم يجلسون في فيدنو، ويختبئون من القتال الحقيقي. إننا لا نقاتل من أجلهم، وإنما نقاتل من أجل الله وأقاربنا ورفاق سلاحنا القتلى. نحن لا نريد أحداً، دوداييف أو مسخادوف، إننا نريد الله فقط"، وصلّى بإيجاز، وسألته لماذا يرتدي عمامة حمراء وليس عمامة المسلمين الخضراء مثل معظم الآخرين. وقال: "إنها ترمز إلى دم أخي. لقد لقي حتفه في غروزني. إنني أحارب الآن من أجل دمه".

في الشارع المركزي لسيرزن يورت، حيث طال الدمار كل منزل فيه، وكانت النيران لا تزال تشتعل من آخر غارة جوية، كان هناك شاب يبلغ من العمر 27 سنة، ويدعى بيسلان يركييف، ويحمل سلاحين مضادين للدروع على ظهره وبندقية في يديه، ورفع عينيه الحمراوين، وقال: "دعهم يدمرون كل شيء. سنستمر في القتال".

عند القاعدة الخلفية لسيرزن يورت، والتي تبعد حوالى الكيلومتر عن القرية، كان لدى المقاتلين ست عربات مدرعة، ومدافع مخبأة بين الأشجار. كانت ملكة الأسلحة الثقيلة في سيرزن يورت عربة مدرّعة تحمل منصة إطلاق صواريخ لطائرة روسية، والتي حصل عليها المقاتلون إما من طائرة تمّ إسقاطها أو اشتروها من السوق السوداء. قال أحد الشيشانيين مبتسماً: "إنها بطلتنا - لقد صددنا هجوماً كاملاً بهذا الشيء". كانت إحدى الآليات الموجودة في المعسكر معطوبة من كثافة إطلاق النار، فيما فرغت إطارات عربة مدرّعة من الهواء، وتعطل محرك عربة أخرى وتعذّر إصلاحه. قال بويفكس يدعى صدّيق: "يجب أن نكون حذرين في استعمال ذخيرة بنادقنا الآن".

فيما كنا نتحدث، سمعنا أصوات محركات نفّاثة عالياً في السماء. لم يكن هناك قصف، وإنما مجرد ضجيج الطائرات التي تحوم بشكل متكرر. جلس الجميع بهدوء تحت الأشجار، يشربون الشاي الأسود المغلي على الحطب، أو دخلوا إلى المخبأ. قال صدّيق: "إنهم يفتشون عنا. إنهم يبحثون عن هذه القاعدة". لقد كانوا يلاحقوننا.

بالعودة إلى فيدنو، كان مسخادوف حليق الذقن، ومغتسلاً ويرتدي بدلة مموهة جديدة. احتشدنا حوله فقد تراجع من غروزني إلى السهول إلى سفوح التلال، وإلى أين لاحقاً؟ وبالنظر إلى الخريطة: لم يكن هناك مكان للذهاب إليه خلف سفوح التلال، وإنما مجرد الرسم الطبوغرافي المشوه للجبال التي يبلغ ارتفاعها 15.000 قدم.

إلا أن مظهره أو كلامه لم يكونا لجنرال يريد الاستسلام. لم تتغير شروطه للدخول في محادثات سلام في كل مرة كنت أتحدث فيها إليه؛ إنهاء الحرب، وإخراج القوات، ثم التحدّث عن الاستقلال. أولاً، إيقاف الحرب. "هل نريد استفتاءً؟ هل نريد انتخابات؟ هل نريد محادثات، أو أنواعاً أخرى من العلاقات المتبادلة مع روسيا؟ ما هو شكل تلك العلاقات؟ لندع الشعب يقرر ذلك. نحن مستعدون لكل شيء، ولكن فقط بعد إيقاف الاعتداء وانسحاب القوات.

كان يتحدث بهدوء كما يفعل دائماً، ولكنه بدا خطيراً. "إذا لم تقبل روسيا بهذا، فإن الحرب ستأخذ منحى آخر، وسيفيق الناس النائمون، ثم ستصبح حرباً دينية". لا استسلام.

بعد ستة أيام تماماً، وفي 3 حزيران، اندفعت المدرعات الروسية والجنود المحمولون بالمروحيات عبر الدفاعات الشيشانية إلى الغرب من فيدنو، في جزء من الهجوم المفاجئ عبر الجبهتين الوسطى والشرقية، من شاتوي إلى نوزاي يورت.

عوضاً عن الهجوم الجبهوي المعتاد، كانت العملية مزيجاً معقداً من الانتشار السريع بالمروحيات والاندفاع على فيدنو من الخاصرة والخلف. تباغت الشيشانيون، وحوّلوا وقفتهم الأخيرة إلى انسحاب خاطف، وتخلّوا عن سيرزن يورت وفيدنو قبل أن تطوقهم القوات الروسية التي دخلت فيدنو دون قتال تقريباً. يوم الأربعاء الموافق 14 حزيران، وفي ظروف مشابهة، احتل الروس شاتوي، المركز الجبلي الرئيسي.

كان المقاتلون الشيشان عندها إما قتلى أو مختفين داخل الغابات الجبلية العميقة والقرى النائية، وكانت كل من باموت، أورخوفو، وستاري آتشخوي لا تزال صامدة في الجنوب الغربي، ولكنها كانت حرباً صغيرة ذات أهمية استراتيجية محدودة للجمهورية بأكملها. كانت حقيقة الاستيلاء على شاتوي تعني أن القوات الروسية تقف عند مفترق كل الطرق الرئيسية في الجمهورية، وأن العلم ذا الألوان الثلاثية يرفرف على المباني الحكومية من غروزني إلى الجبال. في موسكو، التي كانت التحضيرات فيها تجري على قدم وساق لزيارة الأميرة ديانا، اعتبر المسؤولون أن الحرب قد انتهت عملياً.

وفي نفس اليوم، أي في 14 حزيران، تمّ نشر مقال غريب في جميع وكالات الأنباء الروسية مفاده حصول إطلاق نار في بلدة روسية هادئة تدعى بودنوفسك، وأن مركز قيادة الشرطة تعرّض للهجوم، وأن الرجال كانوا يقفون على سطح مستشفى البلدة بالرشاشات. كانت هناك مشاهد غير مؤكدة للراية الخضراء - الحمراء - البيضاء.

انتشر الرعب بين الناس مثل صورة فوتوغرافية يتمّ تظهيرها في محلول سائل. بطريقة ما، تسلل شامل باساييف مع 150 من المقاتلين الانتحاريين إلى بلدة روسية تبعد 240 كيلومتراً عن فيدنو. كانوا يركضون مثل المجانين، وتمركزوا في مستشفى مع 1500 رهينة وأكوام من المتفجرات. لم يكن لدى باساييف سوى مطلب واحد: إيقاف الحرب.

4. الثأر

يقولون إننا جبناء، ولكن دعهم وشأنهم. لن نجلس هنا في الشيشان فقط لينبحونا. حذرت أننا سنقاتل في روسيا، وسيكون هناك الكثير من الأهداف الأخرى. لدينا مواد مشعة وأسلحة بيولوجية تركتها لنا روسيا. نستطيع وضع أسلحة بيولوجية في يكاتيرنبرغ، وجعلهم مرضى جميعا. لن يحتاج الأمر لأكثر من شخص واحد لوضع اليورانيوم في موسكو. هكذا يموت أحد رجالنا، وتموت المدينة كلها معه... إذا بصق أحد في وجهك لمدة نصف عام، ألا ترد له ذلك ولو مرة واحدة؟ هذا ما فعلناه وسنكرره ثانية.

شامل باساييف من مخبأه الجبلي بعد الغارة على بودينوفيسك.

هاجم الشيشانيون بودينوفيسك بطريقة النابغ (قاطع الطريق) القديم - وهو هجوم مفاجئ عبر الحدود يهدف إلى أسر الرهائن والتسبّب بدمار هائل في أسرع وقت ممكن - وذلك باستخدام رشاشات ومضادات دروع القرن العشرين التي تتسبب برعب كبير.

كانت قسوة مقاتلي البويفكس، الذين يبلغ تعدادهم 100 - 150 مقاتلاً، بإمرة شامل كبيرة. اختبأ هؤلاء في شاحنات مغلقة، وتسللوا على طول الطريق الذي يخترق الجبال المحاصرة، وعبر السهول وصولاً إلى مدينة بودينوفيسك في مقاطعة ستافروبول، وهي مكان هادئ لا يوجد فيه سوى معمل للبلاستيك وقاعدة جوية تستخدمها الطائرات لقصف الشيشان.

يدّعي باساييف بأنه اخترق نقاط التفتيش الروسية، الواحدة بعد الأخرى، بدفع آلاف الدولارات كرشاوي. قد يكون هذا صحيحاً. وفي غالب الأمر، استطاع الشيشانيون التسلل باستعمال الرشاوي وبعض الحيل البسيطة. ليست المنطقة الواقعة بين الشيشان وبودينوفيسك مزدحمة بالسكان، وبتحليل

متأنٍّ يبدو أنّ الشيشانيين قد التفوا في البداية شرقاً عبر داغستان، ثم نحو الشمال لتطويق القوات ومخافر الشرطة بسهولة. وبدا لي أحد سائقي الشاحنات التي أقلّت المقاتلين، والذي التقيت به فيما بعد، شيشانياً أشقر الشعر وهو يبدو للوهلة الأولى روسياً. بقي ذلك الإنجاز مدهشاً، في وقت كانت فيه الشيشان قد خضعت في معظمها للروس.

خارج بودينوفيسك، دخلت المجموعة أخيراً في مواجهة مع الشرطة التي شكّت بالأمر. بقي المكان الذي كان يقصده الشيشانيون غامضاً، وقال البعض إنه معمل البلاستيك. وفقاً لباساييف، كان ينوي الذهاب إلى أبعد من ذلك، ولكنه قرّر البدء بهجوم مباشر على بودينوفيسك نفسها بعدما افتضح سر تحرّكات قواته. قد يكون الشيشانيون خططوا لاستهداف مركز بودينوفيسك، وحبكوا تلك القصة لاحقاً للتغطية على استراتيجيتهم. سارت الشاحنات نحو وسط المدينة، وانتشر منها مقاتلو بويفكس في كل مكان لإرهاب السكان. خلال بضع ساعات، اجتاحوا قسم الشرطة والمباني الحكومية، وقتلوا العديد من المدنيين في الشوارع واحتجزوا مئات الأشخاص، وأجبروهم أحياناً على الخروج من منازلهم، ثم قادوهم إلى المستشفى. كان من بين أسرى تلك المدينة طاقم ومرضى المستشفى. استطاع الشيشانيون الحصول على 1500 أسير، فيما قال البعض إنهم 5000 أسير. كانت تلك واحدةً من أكبر عمليات احتجاز الرهائن في التاريخ.

قبل أن تتمكّن قوات الأمن الروسية من الردّ بقوة، زرع شامل باساييف الألغام على مداخل المستشفى، ووضع مقاتليه المزودين بالرشاشات والأسلحة المضادة للدروع في مواقع دفاعية، وأعدم العديد من الطيارين الموجودين بين الرهائن، وأضافهم إلى حمولة سيارة من الطيارين الذين مزقهم إرباً خلال هجومه على البلدة. كان الاعتداء مثيراً للاشمئزاز. ومهما تكن الأعذار، فقد اختبأ مقاتلو باساييف خلف ظهور النساء والمرضى والحوامل والأطباء والأطفال. ونجح في تحقيق المطلب الوحيد الذي وضعه للسلطات المغلوبة على أمرها وهو: بدء محادثات السلام في الشيشان.

كان الرئيس يلتسن خارج البلاد في هاليفاكس منشغلاً مع قادة الدول السبع الكبرى عندما كانت بودينوفيسك تحترق. وتكلم باحتقار عن قطاع طرق يضعون عصبة سوداء على رؤوسهم وتعهّد بمواجهة الموقف دون رحمة. وأشار، إلى جانب بافل غراتشيف، وبطريقتهما المعهودة بأن الهجوم على المستشفى لتحرير الرهائن سيكون أفضل ردّ على تلك العملية.

كان واضحاً بأن الهجوم سيكون بمثابة الكارثة: لم تكن القوات الروسية، التي أظهرت ضعفها خلال الحرب على الشيشان، مزودة بتجهيزات جيدة لتشن هجوما على المبنى المليء بالرهائن، والذي يدافع عنه 150 مقاتلاً انتحارياً مدججين بالسلاح. لكن الهجوم استمر بالتقدم. أصابت الدهشة ملايين مشاهدي التلفاز، الذين لم يسبق لهم أن رأوا أو اهتموا كثيراً بحمام الدم في الشيشان، عندما اجتاحت قوات كوماندوس ألفا والمدعومة بقذائف الدبابات ونيران المدفعية المستشفى وهي تطلق النار عبر نوافذه. في غضون دقائق اشتعلت النيران بالمبنى، وتصاعد دخان كثيف من السطح. وعرف أي شخص شاهد ما حدث بأن الهدف الرئيسي كان قتل الشيشانيين وليس إنقاذ الرهائن. توقف الهجوم عندما أجبر الشيشانيون الرهائن على الوقوف أمام النوافذ والتلويح بالرايات البيضاء والصراخ. بعد وقت قصير من ذلك، تمكّن الشيشانيون من صد هجوم ثانٍ للكوماندوس.

كانت العملية برمتها نسخة مصغّرة للحرب في الشيشان خلال الشهور الستة الأخيرة: يحتل البويفكس مواقع مليئة بالمدنيين، ولا يحاول الجيش الروسي تجنب إصابتهم. رغم مستوى العنف الهائل، إلا أن الجيش يفشل في القضاء على عدوه. ما جعل الأحداث في بودينوفيسك مختلفةً جداً عن غيرها أنها تقع في جنوب روسيا، وفي مدينة روسية وأمام شاشات التلفزة الروسية. بالنسبة للروس،

كان الهجوم على مستشفى بودينوفيسك مخزياً لهم، ولكنه فتح عيونهم على أمور أخرى، منها استعراض آلام الحرب، وعدم كفاءة حكومتهم، وإصرار هؤلاء المقاتلين القادمين من الجبال. بعد فشل الهجوم الثاني، قام رئيس الوزراء الروسي فيكتور تشيرنوميردن، وبغياب يلتسن، بما لم يخطر على بال أحد: التفاوض مع المقاتلين شخصياً.

كانت المفاجأة كبيرة لعامة الشعب الروسي بأن يرى تشيرنوميردن، الذي كانت تصوّره عدسات التلفزة الروسية، يرفع سماعة الهاتف ويتصل بباساييف - بقدر ما كانت عملية أسر الرهائن مفاجأة بحدّ ذاتها. كان قائدهم يفاوض لإنقاذ الأرواح، وكان ذلك يعني التخلّي عن أيديولوجية الدولة التي تتبنّى إبادة قطاع الطرق الشيشانيين بأي ثمن. ليس ذلك وحسب، فقد تحدّث أحدهم عن المسؤولية العامة لتلك الأزمة، وهو شيء تفادى الحديث عنه كل الجنرالات والسياسيين خلال الحرب. صرّح تشيرنوميردن فيما بعد أنها كانت: المرة الأولى في تاريخ روسيا التي تتقدّم فيها حياة الناس على مصالح الدولة.

كان مطلب باساييف بإجراء محادثات السلام صارماً، ورفض عروضاً بالمال وطائرة تنقله بأمان إلى أي مكان في العالم. في اليوم السادس بعد بداية الأزمة، رضخ الروس للأمر الواقع: سيكون هناك وقف شامل لإطلاق النار في الشيشان، وسيتمكن رجال باساييف من الفرار. أطلق باساييف سراح جميع الرهائن عدا 150 منهم تطوّعوا كدروع بشرية لمقاتليه، وعاد مع رجاله إلى الشيشان في قافلة من الحافلات وشاحنة مبردة تقلّ جثث 16 مقاتلاً سقطوا في المعركة. كان الجيش الروسي الغاضب يتعقب القافلة في كل كيلومتر من الرحلة، وتمّ إطلاق سراح آخر أسير عند الزاوية الجنوبية الشرقية للشيشان، وتلاشى المحاربون بين القرويين الذين استقبلوهم استقبال الأبطال، ووفاءً لوعدهم، وقّع الروس اتفاق وقف إطلاق النار في 21 حزيران وأوقفوا الحرب. تنفّس المقاتلون والقادة الانفصاليون في الجبال المغطاة بالغابات الصعداء، وبدأت التحضيرات في أطلال مدينة غروزني للبدء في محادثات السلام. لقد أنقذ باساييف الشيشان من الهزيمة.

أصيب الروس بالذهول من أحداث بودينوفيسك - وأثار هدوء باساييف دهشتهم، فيما كان الخجل يعتريهم من تعامل يلتسن مع الأزمة وأداء قواتهم، وأحسّوا بغضب شديد لاحتجاز المدنيين الروس كرهائن، وصعقهم تدخل تشيرنوميردن. لقد كان هناك اشمئزاز ومفهوم جديد للحرب.

وفي بودينوفيسك، كان هذا الاضطراب أكثر وضوحاً. مات 142 شخصاً من السكان المحليين خلال الهجوم، بعضهم مات عندما اندفع الشيشانيون إلى الشوارع، ولكن معظمهم قضوا خلال هجمات المدفعية والكوماندوس الروسي على المستشفى؛ وجرح 198 آخرين. رغم اعتياد الناس على أصوات الطائرات وهي تقلع من أجل قصف بعض الأهداف، إلا أن بودينوفيسك كانت تبدو بعيدة تماماً عن الشيشان، التي تفصلها عنها سهول واسعة فارغة. أكّدت الغارة للعديد من المقيمين فيما كان يعتبر بلدة روسية جنوبية محافظة بأن الشيشانيين ولدوا كقطاع طرق. هل يمكن لأحد ألا يشعر بالصدمة نتيجة الخطة الشيشانية المنفّذة بدقة لغمر مستشفى كبير بحمام من الدماء؟ لكن بالنسبة لإدراك وفهم غالبية المقيمين في بودينوفيسك، خرج معظم الرهائن من السكان المحليين وهم يمتدحون الشيشانيين، وألقوا بنفس مقدار اللوم على السلطات الروسية.

قال هؤلاء الرهائن إن الشيشانيين لم يسيئوا معاملتهم، وأنهم فعلوا ما فعلوه لإنقاذ وطنهم فقط. قال باساييف: كنا نقاتل على أرضنا طوال سبعة شهور، وأصابت كل رصاصة تمّ إطلاقها علينا شيشانياً أو أرضاً شيشانية. لقد طفح الكيل، وسنواصل القتال الآن، ولكن على أرض روسية، وسيصيب الرصاص الروس وليس الشيشانيين. وأقنع العنف الكبير الذي استخدمته القوات الروسية

في محاولة اجتياح المستشفى الكثير من الرهائن المذعورين بأن البويفكس يقومون بحمايتهم، وليس القوات الحكومية.

تقول الطبيبة فالنتينا فاسيلييفا التي كانت رهينة: لم يكونوا بحاجة لمهاجمتنا. وكانوا يتحدّثون عن مصير 5000 شخص، ولم يبدُ عليهم الاهتمام. إذا استطاعوا فعلاً الدخول والاستيلاء على المكان، فلا أعتقد أن أحداً منّا كان سيبقى حيًّا. وزرع الشيشانيون الألغام في كلِ الأرضية وكانت قواتنا تعلم بذلك. أخبرني أحد الشيشانيين بأن لديه أوامر بتفجير المبنى كله. لقد حذّروا القوات من ذلك أيضاً.

عندما بدأ المبنى بالاحتراق، كنا بالكاد نستطيع التنفس، ووضعنا مناشف رطبة على وجوهنا. ردّ الشيشانيون على إطلاق النار بصعوبة بواسطة القذائف الصاروخية فقط. لم يكن هناك مشاة في الخارج، وإنما مجرد ناقلات جنود مدرّعة، ولهذا كانت بنادقهم عديمة الفائدة. كانوا مذعورين أيضاً، وأعتقد أنهم لم يتوقعوا ما حصل.

تابعت تقول: في المرة الأولى التي هاجمت فيها القوات الروسية المبنى، جعلنا الشيشانيون نقف أمام النوافذ ونصرخ ليتوقفوا. أما في المرة الثانية، فأخبرونا أنه يمكننا الاختباء عندما بدأت الدبابات بقصفنا.

مات زوج فالنتينا جراء رصاصة أثناء تبادل إطلاق النار. لم تعرف الطرف المسؤول عن موت زوجها، ولم تكن تعرف أين تصب حقدها. "بالطبع نكره الشيشانيين. لقد جاءوا إلى هنا وهاجموا أشخاصاً آمنين، ولكنهم شرحوا لنا أيضاً ما كان يحصل في وطنهم، ولم يسيئوا معاملتنا، ولولا تلك الحرب، لما تمّ احتجاز الرهائن في المستشفى، ولما شاهدنا تلك الأفعال الشيشانية، أو أياً من تلك الأحداث".

س: لماذا التقيت بجوهر دوداييف؟

ج: عرضت عليه طريقاً سهلاً للخروج: طائرة، ونقود، وضمانات أمنية وعدم ملاحقته من قبل الانتربول.

س: هل نجحت تلك الصفقة؟

ج: لا، كما ترى. ما زال موجوداً في الشيشان.

من لقاء أجرته صحيفة كومسومولسكايا برافدا في تموز عام 1995

مع أركادي فولسكي، وهو أحد مفاوضي السلام في غروزني عام 1995.

على خلفية الأحداث في بودينوفيسك، عزل الرئيس يلتسن وزير الداخلية فيكتور يرين، ورئيس الاستخبارات السرية سيرجي ستيباشين ووزير القوميات نيكولاي يغوروف. وكان الثلاثة ضمن الفريق الذي شجّع على الحرب في الشيشان، ولكنّ نظرة متفحصة على الأمور تبيّن بأن نتائج فورة الغضب تلك لم تكن جيدة بالنسبة للشيشانيين، فلقد جعلت هذه التغييرات فريق الصقور أقوى من قبل.

أصبح الجنرال أناتولي نوليكوف، القائد المحنك للقوات في الشيشان، وزيراً للداخلية، وتولّى الجنرال السابق في كي. جي. بي وعضو فريق الحرب ميخائيل بارسوكوف قيادة جهاز الاستخبارات إف. إس. ب، فيما ترأس ستيباشين لجنة حكومية لإجراء مفاوضات السلام، وجاء فياتشيسلاف ميخائيلوف وهو محافظ على الطراز السوفياتي مكان يغوروف. وبقي وزير الدفاع بافل غراتشيف بشكل مدهش في منصبه. بقي أوليغ سوسكوفيتس، أحد مهندسي الحرب الأساسيين، مسؤولاً عن إعادة إعمار الشيشان، وتمّ تخصيص ميزانية له بمليارات الدولارات، والتي اختفى معظمها. وأصبح أوليغ لوبوف، أمين سر مجلس الأمن القومي في الكرملين، والذي دعم الحرب منذ بدايتها، الممثل الشخصي للرئيس يلتسن إلى الشيشان، ولم يكن في الواقع سوى قط بين الحمام.

رغم ذلك، كانت محادثات غروزني المحاولة الجادة الأولى لإنهاء إراقة الدماء. جرت تلك المحادثات في مركز قيادة الاستخبارات، وهو منزل صغير معزول عن الطريق بواسطة بوابات معدنية زرقاء تقليدية. في الخارج، أمضى الصحفيون والحراس الشخصيون من كلا الجانبين، إضافةً إلى حشود من النساء الثكلى اللواتي يأملن بمعرفة أخبار عن أقربائهن المفقودين، أيام الصيف الحار الطويلة بانتظار بعض النتائج. اجتمعت سيارات المسؤولين الروس مع عربات جيب المتمردين التي تحمل الأعلام الخضراء في نفس المكان، فيما كان الجنود من كلا الجانبين يتفحّصون أسلحة الطرف الآخر ويتجاذبون أطراف الحديث. استمرت المناوشات والقصف المتبادل في الأرياف، ولكن الحرب كانت في أضعف حالاتها. كان هناك أمل.

ترأس عثمان إيماييف وزير العدل في حكومة دوداييف الوفد الشيشاني، الذي جاء من الجبال في قافلة من عربات الجيب التي ترفع أعلام التمرد والمليئة بالحراس الشخصيين، فيما ترأس ميخائيلوف الجانب الروسي. جرت محادثات عسكرية محضة بين القائد الروسي الجديد الجنرال أناتولي رومانوف وأصلان مسخادوف.

في 30 تموز، وبعد ستة أسابيع من الجلسات الماراثونية، وقّع الجانبان اتفاقاً لنزع سلاح الشيشانيين طوعاً والبدء بسحب الجيش الروسي تدريجياً. جرّدت تلك الاتفاقية الشيشان من السلاح، وأخضعتها لإدارة مدنية بدل العسكرية، وأعلنت انتهاء الحرب، ولكن دون عقد صفقة سياسية أو ذكر أي كلمة عن استقلال الشيشان. لم يكن أي من الطرفين مستعداً لعقد تسوية ضرورية للبدء بمحادثات السلام بعد ستة شهور من الحرب. لم يكن الروس، الذين اقتربوا كثيراً من النصر، على استعداد للتنازل في ذلك الوقت، وشعر الشيشانيون أيضاً، خصوصاً بعدما حدث في بودينوفيسك، بأنهم يستطيعون الصمود لوقت أطول. في الحقيقة، لم يكن اندلاع الحرب سوى مسألة وقت.

ولإبقاء مسرحية نزع السلاح حية، بدأ الشيشانيون بتسليم جزء بسيط من أسلحتهم للروس. شهدت عملية نزع السلاح مشاهد طريفة مثل قيام رجال مسنين - تجاوزوا السن التي يمكنهم فيها القتال - بالحضور إلى نقاط تجميع خاصة وتسليم بنادق كلاشينكوف صدئة، ومضادات دروع محطمة، وأسلحة صيد قديمة. دفع الروس، الذين حاولوا تصديق تلك العملية، تعويضات فورية؛ 190 دولاراً لبندقية الكلاشينكوف و220 دولاراً للأسلحة الآلية. يستطيع المرء أن يشاهد ضحكات القرويين الشيشانيين المسنين خلف لحاهم البيضاء ووجوههم الخالية من التعبير. كان التجّار يبيعون الأسلحة بشكل علني في أسواق القرى الكبيرة في السهول، والتي لم يكن الجنود الروس يجرؤون على وضع أقدامهم فيها. كان الأمر شبيهاً بلعبة الكراسي الموسيقية، وقال لي أحد المقاتلين الشيشان بابتسامة عريضة: لقد سلّمنا أسلحة كلاشينكوف عيار 762 مم القديمة للروس، وأخذنا أموالهم، وقصدنا السوق لشراء البندقية الجديدة من عيار 545 مم.

في فيدينو، استلقى الجنود الروس ومقاتلو البويفكس على العشب في يوم صيفي هادئ، فيما كانت إحدى الدبابات تسحق البنادق التي سلّمها السكان المحليون. بدت الغنيمة مثيرة للاهتمام - 135 سلاحاً مضاداً للدروع من طرازات مختلفة، و26 بندقية كلاشينكوف - ولكن كل البنادق تقريباً كانت محطّمة ومن طرازي إي كي - 47 وإيه كي إم القديمين، إضافة إلى صاروخين كبيرين. لم يكن المرء يستطيع إيجاد بعض المسدسات الـ 31 التي تمّ تسليمها (مقابل 30 دولاراً لكل منها) إلا في المتحف. في المقابل، كان على الفوج 506 المزود بالآليات والأسلحة الانسحاب من مواقعه فوق التلال حول فيدينو.

قال الكولونيل فياتشيسلاف ميروشنيتشينكو، قائد الفوج 506: يجب أن نصدّق أن الناس يقومون بهذا بالشكل الصحيح. كلما زادت الأسلحة، زادت فرص قيام حرب، كما يقولون.

قال شيرفاني باساييف، شقيق شامل، ومنظم عملية التحوّل للإدارة المدنية في منطقة فيدينو: آمل أن ينتهي كل شيء خلال أسبوع، وسنصافح بعضنا البعض عندها، ونتناول الكباب، ونرافقهم إلى الحدود، ونعيش بسلام، وننظم انتخابات وما إلى ذلك.

ربما كان ممكناً إجراء مناقشات سياسية مهمة، ومنح عملية التحوّل إلى الإدارة المدنية فرصة. لم يبدُ المقاتلون من كلا الجانبين، والخائفون من التنازل عن كثير من امتيازاتهم على طاولة المفاوضات، مستعدين لإجراء أي تسوية، وقاموا بمناورات لتقويض العملية برمتها.

كان دوداييف، المختبئ في الجبال، يعرف بأن ليس لديه شيء يخسره إذا تمسّك بهدفه غير القابل للتفاوض بالاستقلال وخروج القوات الروسية. إن دوره كقائد للأمة سيسقط إذا توصل إلى تسوية لأنه سيكون قد دفع بأمته الصغيرة إلى مجزرة دموية مقابل لا شيء. عرض الروس الأموال على الجنرال العجوز كي يتنحى ويختفي عن الساحة، ولكنه قدّم لهم عرضاً آخر: التنحّي، ولكن عليهم أولاً الاعتراف باستقلال الشيشان. عزل دوداييف كبير مفاوضيه إيمايف، واستمر بإطلاق تصريحات تضعف الشعور الهش بالتفاؤل بين المتفاوضين في غروزني.

في الوقت ذاته، لم يكن لدى باساييف، تماماً مثل دوداييف، سوى إيمان ضعيف بمحادثات السلام، وهدّد باستخدام أسلحة مختلفة بما فيها الإرهاب البيولوجي والنووي عندما أجريت معه مقابلة صحفية بعد أحداث بودينوفيسك مباشرة. لم يصدق أحد أن باساييف يمتلك القدرة التقنية لتنفيذ مثل تلك التهديدات، وخاصة النووية منها، ولكن كلماته أرعبت الروس العاديين، وجعلت محادثات السلام أكثر صعوبة. عرفت أنه كان يستخدمني كوسيلة للضغط على محادثات السلام، ولم تكن تلك مهمتي. راقب مقاتلو البويفكس العاديون المحادثات بارتياب، وكانت بودينوفيسك تمثّل انتصاراً معنوياً كبيراً لهم، وكانوا قادرين على التغاضي عن خسائر كل بلدة في الشهور الستة الأخيرة من غروزني إلى فيدينو. كان الناس ينظرون إلى باساييف على أنه بطل قومي، وليس إرهابياً، وسلّط الوعد السخيف الذي قطعه المفاوضون الشيشانيون بمساعدة الروس على النيل منه الضوء على خواء اتفاق السلام بأكمله.

كانت موسكو مسؤولة بشكل متساوٍ - إن لم يكن أكثر - عن فشل إجراء مفاوضات جدّية. لم يكن لدى الرئيس يلتسن أي فكرة ولو بسيطة حول كيفية إنهاء المغامرة المأساوية التي أقحم نفسه بها بحماس واندفاع منذ نصف سنة مضت. إضافة إلى ذلك، كانت صحته تتدهور، فقد عولج مرتين بسبب مشاكل في القلب، مرة خلال الصيف وأخرى في الخريف، واستفاد فريق الحرب في الكرملين من هذا الفراغ في السلطة. أراد قادة الأجهزة الأمنية، وضباط من الجيش، وربما الرئيس يلتسن نفسه الانتقام من الخزي الذي لحق بهم نتيجة الأحداث في بودينوفيسك. كان الجميع غاضبين من الطريقة التي ينظم بها الشيشانيون عملياتهم، ونفذ صبرهم من منهج تشيرنوميردن القائل بالحفاظ على الأرواح قبل الدولة.

استهلكت الحرب أعضاء الفريق الذي نادى بها في الكرملين تماماً مثل بعض الشيشانيين، والتي كانت سبباً لاستمرارهم في مناصبهم. لكنّ هؤلاء لم يحاربوا - بخلاف الشيشانيين - من أجل وطنهم، وأرادوا أن يتجنب التاريخ ذكرهم كجزارين، أو بشكل أسوأ، كفاشلين.

رحب كوليكوف، مباشرة قبل ترقيته إلى وزير، بوقف إطلاق النار، وهدّد بإطلاق هجوم جديد إذا لم يستسلم باساييف، وطلب من تشيرنوميردن أن ينتقده علناً أمام الجميع. اعتقد غراتشيف أيضاً

أن محادثات السلام ليست سوى هدر للوقت، وأنه كان بالإمكان إلقاء القبض على باساييف في بودينوفيسك - وأنه يمكن أن يكون ضمن خسائر مئات المدنيين - وأوضح بأن الشيشانيين لا يستحقون من يتحدّث إليهم. وقال: هناك قوى روسية اتحادية فيدرالية على أحد الجوانب، وعلى الجانب الآخر لا توجد سوى عصابات مبعثرة تنشر الدمار والأعمال الإرهابية.

لإضفاء مزيد من التوتر، وقّع يلتسن مرسوماً يقضي بإحداث جيش جديد يدعى الجيش الثامن والخمسين ليتمركز بشكل دائم في شمال القوقاز للدفاع عن الدولة، ووحدة أراضي الفدرالية الروسية. اتخذت تلك القوات قواعد دائمة لها في الشيشان، وكان هناك بعض الشك بأنه حتى في حال إجراء مفاوضات سياسية، لن يكون لاستقلال الشيشان مكان على جدول الأعمال. عند نهاية تموز، قررت المحكمة الدستورية بأنه من حق الرئيس يلتسن إعلان الحرب دون أن يشكّل ذلك مفاجأة لأحد. لم يناقش أحد حقه في الاستمرار بمنصبه.

في تلك الأثناء استخدم الشيشانيون الهدنة لإعادة تنظيم قواتهم المبعثرة، وتهريب الأسلحة والمقاتلين بزي المدنيين إلى قرى السهول التي رسخ فيها الروس سيطرتهم منذ مدة طويلة. استمرت القوات الروسية في القصف المتواصل لمناطق الثوار بالمدفعية دون اللجوء إلى الهجوم المباشر، لأنها كانت هي الأخرى بحاجة للهدنة خلال الصيف: ولا يستطيع الشيشانيون العيش في العراء خلال الشتاء، وستكون الفرصة ملائمة أكثر للهجوم. وحالما بدأت أيام الصيف تقصر، تصاعد التوتر، وكل ما احتاجته الأطراف المتنازعة هو احتراق عملية السلام بالكامل.

في تموز، قام رجال مقنعون بقتل عائلة شيشانية في ضواحي غروزني - ولم يتمّ اكتشاف الجناة - توقفت المحادثات لفترة قصيرة. في آب، قام أحد القادة الشيشانيين الميدانيين ويدعى آلاودي حمزتوف بخرق الهدنة، والهجوم على أرغون واحتلال مركز المدينة، مما أطلق شرارة الهجوم العسكري الروسي. ولكن المحادثات استمرت. في 20 أيلول، نجا لوبوف بأعجوبة من محاولة اغتيال خلال رحلة إلى غروزني، ولم يصرح أحد بمسؤوليته عن الهجوم، ولكن أصابع الاتهام وجهت إلى الانفصاليين الشيشان. في تشرين الأول، بدأت الحكومة الشيشانية الموالية للسلطات الروسية بمضايقة أعضاء الوفد التفاوضي متهمة الدبلوماسيين بمناصرتهم لدوداييف. كل تلك الحوادث ساهمت في تقصير فتيل الأزمة.

اندلعت الشرارة الأخيرة بعد محاولة اغتيال الجنرال رومانوف. وكان الهجوم وقحاً للغاية، إذ انفجرت قنبلة تعمل بالتحكم عن بعد عند مرور موكب القائد الروسي في وضح النهار عبر نفق مينوتكا في قلب غروزني. أحدث الانفجار الضخم حفرة كبيرة في الحائط الإسمنتي الصلب داخل النفق، ونتج عنه مصرع أربعة أشخاص. دخل رومانوف في غيبوبة عميقة، ولم يشفَ منها بعد مرور سنتين على الحادثة. رغم أن أي جهة لم تعلن مسؤوليتها عن الحادث، ولم يتمّ خرق وقف إطلاق النار رسمياً، إلا أن المحادثات توقفت، وتلاشى ما تبقى من أمل بإحلال السلام. في موسكو، توقع غراتشيف حدوث عمليات عسكرية نشيطة في المستقبل القريب في القرى الشيشانية، واستعدّ مقاتلو بويفكس للقتال.

لا يمكن إثبات هوية الذين قاموا بتفجير رومانوف، وبدأوا الحرب من جديد. كان هناك بالتأكيد عناصر في معسكر الانفصاليين الشيشان غير مسرورين من التقدم البطيء لمحادثات السلام، وكان رومانوف مسؤولاً بشكل أو بآخر عن مذبحة ساماشكي، وعن حوادث دموية أخرى في الحرب. قد يكون ذلك التفجير عملاً شيشانياً لاصطياد رؤوس الجنرالات الروس. ولكن مسخادوف، الذي أسس علاقة عمل متينة ووطيدة مع رومانوف خلال المحادثات، أنكر مراراً إعطاء الأوامر لرجاله للقيام بالهجوم. لم يكن لدى القيادة الانفصالية أي مكاسب في إنهاء الهدنة - وبالمحصلة، فقد كانوا يستعيدون قوتهم وشرعيتهم السياسية.

كان الجيش الروسي سيرحب بالحل السياسي للخروج من المستنقع. رغم أن نشاط الشيشانيين كان مستمراً قبل عملية بودينوفيسك، إلا أن أداءهم الجيد خلال الصيف أظهر أن النصر العسكري

الكامل التام ما زال بعيد المنال. من جهة أخرى، عارض جنرالات الصف الأول وسياسيو الكرملين الذين ارتبطت مناصبهم باستمرار الحرب عملية السلام. كانت أي صفقة سياسية مع دوداييف تعني فشل الحرب القصيرة المظفّرة.

خرجت الحكومة الشيشانية الدمية، التي تمّ تنصيبها لإدارة الأراضي التي يسيطر عليها الروس، بخسارة كبيرة من تلك الصفقات السياسية مع الانفصاليين. وتولّى أمور تلك الحكومة كل من سلام - بيك خادزاييف وعمر أفتوركانوف، وهما نفس الشخصيتين الشيشانيتين اللتين استخدمهما الروس سنة 1994 للإطاحة بدوداييف من الداخل، وتوجّها في ذلك الوقت إلى المنفى في موسكو، وكانا يملكان القوة وفوق كل شيء المال لأنهما استطاعا الحصول على المبالغ الضخمة التي تمّ إرسالها لإعادة الإعمار. كان رجل مثل بيسلان جانتيميروف، عمدة غروزني السابق قبل أن ينقلب على دوداييف، نائباً لرئيس الوزراء في الحكومة الدمية، ويدير العاصمة بميزانيته الكبيرة وجيشه الخاص. كان الاتفاق بعودة الانفصاليين يعني النهاية لهؤلاء جميعاً: يعتبر شعب دوداييف أن الحكومة الدمية خائنة.

حمّل موفلادي أودوغوف فريق الحرب في موسكو مسؤولية انهيار عملية السلام، ولكنه رفض ذكر الأسماء، ووفقاً لما قاله، كان اللقاء بين دوداييف ويلتسن، وهو الشيء الذي لطالما سعى إليه الانفصاليون، يعتبر بمثابة الخيانة في الكرملين. اتّهم أودوغوف أيضاً المسؤولين الروس المقربين جداً من الرئيس يلتسن بابتزاز الجانب الشيشاني، وقال إنهم طلبوا منهم المال. ولم يفصح أودوغوف عن العروض التي قدّمها أولئك المبتزّون. ربما يكونون قد عرضوا على الشيشانيين صفقة سلام جيدة، أو حواراً مباشراً مع يلتسن مقابل المال الذي طلبوه. ولم يحدّد أودوغوف التهديدات التي أطلقها أولئك الأشخاص إذا رفض الشيشانيون دفع المال. وقد يكون قتل رومانوف على رأس قائمة المطالب.

غروزني

دخل المسلحون المقنعون منزل عائلة تشابانوفا الصغير في إحدى ضواحي غروزني فجر يوم 7 تموز. وقتلوا الأب، والجد، والعم، وطفلين إضافة لطفلة تبلغ السنتين من العمر، فيما أصيبت العمة بجراح بالغة. أما الأم فنجت لأنها كانت آنذاك ترعى الأبقار.

ولم يسمع أحد صوت إطلاق نار - لابد أنهم استخدموا كاتم الصوت - ويستطيع الشهود القول إن الرجال كانوا مزودين بأسلحة الروسية، ويرتدون أزياء روسية، ولكن ليس هناك دليل على ذلك. كما قال الروس، يستطيع أي شخص ارتداء زيهم العسكري، ولكن الدافع للقيام بتلك المجزرة قبل عدة ساعات من بدء يوم جديد لمحادثات السلام في مركز المدينة كان واضحاً.

تمّ وضع جثث عائلة تشابانوفا في أكفان بيضاء على شاحنة مفتوحة، وإحضارها إلى الساحة المركزية في غروزني، بجانب مبنى القصر الرئاسي، وبرزت الأيدي والأرجل المغطّاة بالشمع من الأكفان الملطخة بالدماء. عندما توقفت الشاحنة المليئة بالدماء في الساحة، تجمع الآلاف في حشد كبير يصلّون ويبكون، ويحدقون بغضب. وصرخت إمرأة: إن كان هذا هو السلام، ستكون هناك حرب أيضاً.

انتشر الجنود الروس حول الساحة، وطوقوا الحشد، وهم يشهرون أسلحتهم، وجلسوا متأهبين في المركبات يحترقون بلهيب الشمس وحقد الناس. سار الحشد بخطىً ثابتة نحو مبنى مفاوضات السلام، وعرضوا الجثث أمامه. وقفت القوات العسكرية صلبة كالصخر، ولم تسمح لأحد بالتحرّك. ارتفعت حرارة الجثث بسبب الشمس، وتجمهر الحشد حول الساحة ينشدون: الشيشان، الشيشان! وقامت مجموعة صغيرة كالعادة بأداء الذّكر.

عندما سمع القادة الشيشانيون المشاركون في مفاوضات السلام بإيقاف الموكب، اندفعوا خارج غرفة المفاوضات. اختفت الأجواء المدنية، وتحول المفاوضون فجأة إلى مقاتلين في

المجموعات المسلحة. في غضون لحظات، استقّل عثمان إيماييف، وأصلان مسخادوف ووزير الثقافة أحمد زكييف سيارات الجيب مع العشرات من الحراس الشخصيين، والبنادق، والأسلحة الرشاشة، ومضادات الدروع. واتجهوا بسرعة نحو الساحة الرئيسية.

حالما وصلوا إلى خلف الخط الروسي، خرج القادة الشيشانيون من سياراتهم وساروا ببساطة عبر الجنود، وعيونهم تتّقد شرراً وأسلحتهم مرفوعة في الهواء. نظر الجنود الروس إليهم بغضب صامت، لأن طلقة واحدة تخرج من أي جانب سوف تتسبب بحمام دم.

صرخ الحشد المتجمع بانتصار الله أكبر عندما شق مسخادوف والآخرون طريقهم إلى الشاحنة وصعدوا إلى جانب الجثث. في تلك اللحظة، كانت ساحة غروزني الرئيسية في قبضة الشيشانيين. رفع إيماييف جثة الطفلة الصغيرة بارتعاش، وجال بنظره على الساحة. رفع الجميع أيديهم تضرعاً ودعاءً، وجلست الأم على طرف الشاحنة بجانب أفراد عائلتها المقتولين تنتحب. قال إيماييف أمام الحشد: سيتمّ تعليق المحادثات حتى يتمّ إيجاد الجناة. كما ترون، أنه من أفعالهم. سوف يستمر هذا الهجوم الوحشي ما لم يمنعه الناس، وسيطال منازلكم جميعاً.

أمر القادة بإحضار الجثث إلى مقر المفاوضات، وكان الروس يعلمون جيداً وقتها بأنه من الأفضل عدم الوقوف في طريقهم. اختفت كل القوات العسكرية مع أسلحتها، وسار الموكب - دون عوائق - بقيادة مسخادوف مشياً على الأقدام نحو مقر المفاوضات.

وبينما كان الجمهور واقفاً مع الجثث أمام مقر المفاوضات ويصدح: الشيشان، الشيشان! حاول أحد أعضاء الحكومة الدمية الدخول إلى المبنى. اندفع الحشد هائجاً يضرب ابن بلده بالعصي والقبضات. دخل الدبلوماسي أوليفر بيلن ضمن ذلك الحشد الهائج، وسحب المسؤول الذي يرتدي البذلة الرمادية السوداء إلى الأمان.

وافق الشيشانيون على الاستمرار بالمفاوضات بعد توقف بسيط. ولم يتمّ التعرف على الجناة، وكان الجميع يعرفون بأنه لن يتمّ إيجادهم.

بعد ثلاثة أيام، تمّ إيجاد رأس مقطوع، تحوّل لونه إلى الأخضر بسبب التفسخ وتجمع الذباب حوله، خارج البيت الذي ذبحت فيه عائلة تشابانوفا. لم يعرف أحد لمن يعود ذلك الرأس، ولكن الرسالة كانت واضحة؛ الإرهاب مستمر. يقول شاراني ياكاييف، وهو أحد جيران تلك العائلة: على من يقع اللوم؟ إنه سؤال صعب. وإن كل ما نريده هو السلام.

5. الثوار

تضاءلت أحلام الكرملين في خوض حرب *قصيرة مظفّرة* إلى هدف وحيد يائس في شتاء عام 1995: إنهاء الصراع قبل انتخابات حزيران عام 1996، وإنقاذ الرئيس يلتسن من الهزيمة التي قد يوقعها به رئيس الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف.

انقسمت الاستراتيجية الروسية في هذه الجولة الجديدة إلى قسمين. عودة الجيش إلى كل تلك القرى التي انسحب منها خلال الصيف، وطرد المتمردين إلى التلال. بعد ذلك، تصحيح خطأ قاتل حدث في السنة الأولى يتمثّل في تنصيب حكومة دمية جديدة قادرة على فرض سيطرتها السياسية بحزم. أينما ذهبت القوات الروسية، كان يلحق بها الشيشانيون الموالون لها والذين سيجعلون من القرى التي ستحتلها روسيا مجدداً *مناطق سلام وتوافق*، وهي مناطق لن يطالها القصف الروسي إذا منعت نشاط بويفكس على أراضيها. كان من المفروض أن يكون هذا نوعاً من أنواع التهدئة، وليس الحرب، وكانت تلك حملة القلوب والعقول التي طال انتظارها.

وقع الدور الرئيسي على عاتق دوكو زافغاييف، وهو آخر رئيس سوفياتي للشيشان، والذي أطاح به دوداييف سنة 1991. تمّ تعيين ذلك الرجل، الذي جاء من موسكو، رئيساً للحكومة الدمية في تشرين الأول، وفاز في انتخابات مشكوك بصحتها في كانون الأول بمنصب الرئاسة. بالنسبة للكرملين، لم يكن زافغاييف أكثر فعالية من سلفه سلامبيك خادزييف فحسب، بل أكثر منطقية في طروحاته، وهو ما مكّن الأخير من توجيه انتقادات علنية لسلوك القوات المسلّحة.

تمحورت الاستراتيجية الروسية حول فكرة تأسيس جيش من الأنصار الانفصاليين؛ والذي سيكون داعماً للشعب. كلما طال أمد الحرب، كلما ازداد اعتماد بويفكس على الدعم اللوجستي والأخلاقي الذي يقدّمه المدنيون. إذا نجحت *مناطق السلام والتوافق*، ستشكّل عامل ضغط على الجيش المتمرد، ولم يكن زافغاييف محبوباً، ولكن وعوده في السلام وإعادة الإعمار كانت تستهوي المدنيين المرهقين من الحرب. كان يتمتع أيضاً ببعض الدعم بين أولئك المتشوقين لعودة الاستقرار الذي كان سائداً إبّان الحقبة السوفياتية. بالنسبة للمتشددين في موسكو، كان زافغاييف أداة رائعة لمنع استئناف محادثات السلام، وبما أن زافغاييف كان *منتخباً*، فقد كان يمثّل القوة الشرعية في الشيشان، فيما لم يكن الانفصاليون يمثلون سوى مجموعة معارضة له على الهامش، والتي لا تحظى بأي انتباه.

بالنسبة للانفصاليين، كان الرد السريع حيوياً. كان عليهم استعراض قوتهم، وأن يدفعوا الروس إلى موقف محرج، ويجعلوا زافغاييف يبدو عاجزاً. اختار مسخادوف غوديرمز، وهي المدينة الثانية في الجمهورية، وسلك الطريق الغربي الشرقي المحاذي لسكة الحديد. في 14 كانون الأول، والذي يصادف يوم التصويت في الانتخابات، والتي لم يكن فيها سوى مرشح وحيد هو زافغاييف، هاجم مئات الثوار الحامية الروسية في غوديرمز وأحكموا سيطرتهم على المدينة، وبعد أن صدّ الشيشانيون الهجوم المعاكس للمشاة والدبابات الروسية، حاصر الروس المدينة، واعتمدوا على قصف الهدف بواسطة المدفعية والمروحيات مما أدّى لإخراج الشيشانيين في 25 كانون الأول.

لم تكن طلقة البداية فيما دعاه الناس *الحرب الثانية* تبشّر بالخير على الروح المعنوية الضعيفة للجيش الروسي. ورغم استعادة السيطرة على غوديرمز، إلا أن ادّعاء النصر ذهب إلى الشيشانيين: لم يجعلوا الجيش الروسي يحارب من أجل مدينة كبيرة سبق أن احتلّها في الربيع الماضي وحسب، وإنما استطاعوا الهروب أيضاً، وقبل أن يلتقط الروس وزافغاييف أنفاسهم من غوديرمز، ضرب الشيشانيون مجدداً عبر حدود داغستان هذه المرة. كانت التأثيرات الناتجة عن تلك العملية الأكثر إذلالاً للروس منذ بداية الحرب.

وكان سلمان رادوييف، وهو ابن أخت دوداييف ويبلغ من العمر 28 عاماً بذقن طويلة وعيون لامعة ووجه نحيف، قائد المعركة في غوديرمز رغم أنه لم يكن معروفاً. وفي 9 كانون الثاني، قاد خونكار باشا إسرابيلوف فرقة فدائيين يصل تعدادها إلى حوالى 200 رجل إلى قاعدة المروحيات الروسية في كزلير شمال داغستان. لكن الهجوم لم يكن ناجحاً، وردت القوات الروسية بسرعة وبقوة، ولم يكن في تلك القاعدة سوى بعض المروحيات التي تمّ تدميرها. بعد محاصرتهم، قام رجال رادوييف باقتحام مستشفى كزلير الذي تواجد فيه أكثر من 2000 شخص بريء، واحتجزوهم كرهائن. وقتل خلال إطلاق النار 9 جنود أو رجال شرطة، والعديد من البويفكس إضافة لأربعة وعشرين مدنياً.

كانت تلك العملية بمثابة بودينوفيسك الثانية، ولكن دون خيبة الأمل التي رافقت عملية شامل باساييف. بعد الاتفاق مع السلطات الداغستانية الذي سمح لرجال رادوييف بالهروب في حافلات مع حوالى 150 رهينة كدروع بشرية، تكرّر سيناريو بودينوفيسك مرّة أخرى. ولكن موسكو لم تكن لتدع الشيشانيين يهربون هذه المرة.

قبل أن تصل القافلة التي تحمل الإرهابيين والرهائن إلى الحدود الشيشانية، والتي كان من المقرر أن يطلق رادوييف عندها سراح الجميع ويهرب مع رجاله، فتحت مروحية النار على الطريق، مما أدى إلى توقف الحافلات. كان الشيشانيون يحتفظون بالرهائن كدروع بشرية، ولم يكن

ممكناً أن يتعرضوا لنيران مباشرة. قاد رجال رادوييف الحافلات بسرعة كبيرة إلى موقع قريب من قرية بيرفوميسكوي الداغستانية المجاورة، وحاصروا مركزاً للشرطة هناك، واتّخذوا أفراده كسجناء دون قتال. لاحقاً، أخذ البويفكس رهائنهم إلى بيرفوميسكوي التي هجرها سكانها بالكامل، وأقاموا مباشرة مواقع دفاعية لهم. استمرّت مفاوضات تحرير الرهائن خمسة أيام، وقام خلالها الشيشانيون بكل الاستعدادات من أجل خوض المعركة. ورغم الحصار المفروض عليهم، كان لدى الشيشانيين الكثير من الطعام والماء، والأبنية التي استطاعوا استخدامها كخطوط دفاعية، إضافة للترسانة التي حصلوا عليها من مركز الشرطة: سبعة أسلحة مضادة للدروع، و35 بندقية، وثلاث بنادق قنص، و10000 مخزن للذخيرة، وقاموا بإجبار الرهائن على حفر الخنادق.

لم يكن هناك أمل في الوصول إلى حل من خلال المفاوضات. ولم يكن الكرملين ليسمح للشيشانيين تحت أي ظرف بأن يساوموا من أجل الهروب. لم تكن الانتخابات الرئاسية تبعد أكثر من خمسة أشهر فقط، وكان يلتسن المريض والضعيف بحاجة لإظهار من الأقوى. إضافة إلى ذلك، كان الشيشانيون محتجزين، ولا يستطيع أي شخص وصفهم سوى بالإرهابيين. لاستغلال ذلك الموقف، قام وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، ورئيس الاستخبارات السرية ميخائيل بورسوكوف بتولّي زمام الأمور وإدارة العملية مباشرة. من أجل المزيد من التغطية، أعلنت موسكو أن رادوييف بدأ إطلاق النار على الرهائن؛ الأمر الذي اتّضح لاحقاً أنه كذبة.

وبدأ الهجوم في 15 كانون الثاني مع وابل من نيران الدبابات، متبوعاً بتدخل وحدات الكوماندوس. كنت قد ركبت الطائرة للتو من موسكو إلى داغستان في ذلك الصباح، وتوقعت الوصول في الوقت المحدد لإحصاء الضحايا فقط. تمركز حوالى 2000 جندي حول القرية، وشاركت كل وحدات نخبة الجيش في الحصار، والتي تحمل صفة نجم الأفلام الذي لا يموت بالرغم من سجلها في الشيشان، وكان أفرادها يرتدون خوذاتهم المثيرة للإعجاب وأقنعتهم السوداء. تحدث الكرملين عن الخطوط الثلاثة للقوات. وجعل الرئيس يلتسن، بصوته المريض من نفسه أضحوكة عندما قطع وعداً أمام التلفزة القومية بوضع 38 قنّاصا يتابعون كل حركة من خلال المناظير.

لكن عندما وصلت إلى تلك المنطقة لاحقاً في ذلك اليوم، كان واضحاً من صوت القصف البعيد أن المعركة لا تزال مستمرّة. تحدّث وزير الداخلية عن *تطهير آخر مناطق المقاومة*، وأن الشيشانيين أصابهم الرعب و*فقدوا الاتصال مع بعضهم البعض*. لكن الحقيقة كانت أن قوات الاقتحام دخلت القرية، ولم يعد من أفرادها سوى القليل. لقد استمر الشيشانيون بالمقاومة.

خلال اليومين اللاحقين، وقفت مع زملائي عند نقطة تفتيش تبعد 4 كيلومترات عن بيرفوميسكوي - وهي أبعد نقطة استطعنا الوصول إليها - وحاولنا تتبّع العملية. لم يكن هناك مجال لنرى الكثير من الأحداث، ولكن قصف المدفعية وانفجارات صواريخ المروحيات في القرية لم يتوقف. تصاعد الدخان نحو السماء الرمادية، وأجبرنا كلب أسود وجنود باردون سيئو المزاج على البقاء في أماكننا. سمح الحراس لكلبهم أحياناً بأن يعضّ الناس، وكانت تمر أمامنا أحياناً أخرى عشرات سيارات الإسعاف أو قافلة من الشاحنات التي تحمل الذخيرة في طريقها إلى الخطوط الروسية. في تلك الأثناء، كان هناك راعٍ محلي غافل عما يدور حوله من سيرك إعلامي يتجول بين كاميرات التلفاز وسيارات الجيب والهواتف العاملة عبر الأقمار الصنعية مع خراف لها صوف أشعث وقرون طويلة. لم يكن هناك الكثير لنكتب حوله، عدا حقيقة حاسمة واحدة: ما يزال الشيشانيون يردون على إطلاق النار. كنا نستطيع سماع صوت تبادل النيران. من كان يقضي على من؟

كلما طالت مقاومة الشيشانيين، كلما ازداد قصف القنابل وأصبح كذب الناطق الرسمي مفضوحاً. قال المتحدّث باسم القوات الروسية أن كل شيء يسير على ما يرام: مات ستة جنود روس و60 شيشانياً. ثم تابع قائلاً: إن سبب اندلاع العاصفة هو أن الشيشانيين أعدموا ثمانية من أفراد الشرطة، وهددوا بقتل باقي الرهائن، ولإضفاء المزيد من الإثارة على تلك القصة، خصوصاً للجمهور المحلي، أصدر الناطق الرسمي بياناً بأن ستة من الكبار الداغستانيين، الذين ذهبوا للتفاوض مع الشيشانيين، لقوا حتفهم جراء إطلاق النار عليهم. قد يكون لتلك القصة تأثيرها في التلفاز الحكومي. إنه اليوم الثالث، وما زال الشيشانيون يقاومون. ماذا يمكن للروس أن يقولوا الآن؟ هل يمكن أن يصرّحوا أن كل شيء يسير وفق الخطة؟ كان لدى المتحدث الرسمي باسم الاستخبارات الجنرال ألكسندر ميخائيلوف شيء جديد:

اليوم سيتمّ إنهاء العملية.

كيف؟

لن أقول كيف بالضبط، ولكنكم ستشاهدون ذلك. سنتخذ أقسى إجراء ممكن.

ماذا عن الرهائن؟ ألم تكن الفكرة منذ البداية إنقاذهم؟ ألم تكن هذه عملية إنقاذ رهائن؟

لم يعد الأمر يتعلق بالرهائن الآن.

نظرنا إليه بشك.

أريد من كل شخص الآن أن يفهم بأن الموقف لم يعد يتعلق بتحرير الرهائن. وإذا تبعتم القوانين العسكرية، ستجدون أن المهمة هنا هي الاستيلاء على حصن عسكري تسيطر عليه وحدة بحجم كتيبة في ظروف مدنية. إنها عملية تحرير مدينة.

تحرير مدينة؟ بيرفوميسكوي؟ ولكن ماذا عن حياة الرهائن؟

يقول الجنرال: "معلوماتنا تقول إن بعضهم لا يزال على قيد الحياة."

استمعت إلى الشريط مرّة واثنتين وثلاث، قبل أن أعي أني قد سمعته بشكل صحيح. لقد أصيب الروس بصدع. لم يتحقق حلم العلاقات العامة لديهم في رؤية لرهائن مبتسمين يحتضنون الكوماندوس الوسيمين، وأن يجدوا قاطعي الطرق الشيشان ملقون على الأرض. حتى أنهم تخلوا عن فكرة التظاهر بأن هذا قد يحدث. لقد بدأوا باعتماد الخطة الثانية: قرية أصغر من أن تظهر على أي خريطة على وشك التعرّض لإبادة شاملة.

عند الظهيرة، قبض الجنود على بعض الصحفيين الذين اقتربوا من بيرفوميسكوي، وسلّموهم إلى نقطة التفتيش حيث الكلب الأسود. وبدأ "أقسى إجراء ممكن" على الأرض. سقطت صواريخ غراد على بعد كيلومترين، مما أدّى لتدمير القرية وإشعال النار في أنقاضها. قامت المروحيات المقاتلة، التي بلغ عددها ست في كل مرّة، بإطلاق النار بطريقة منظمة لساعات، حتى أصبح المشهد مألوفاً جداً: أعمدة الدخان الأسود التي تخرج من الصواريخ، ولهيب النار والدخان بعد انفجارها بين البيوت. حتى في المكان الذي كنت أقف فيه، كانت الأرض ترتجف تحت وطأة الانفجارات. للدهشة الشديدة، كانت بنادق ورشاشات الشيشانيين لاتزال تردّ على إطلاق النار. وقفت في الثلج، وتمنيت أن يكون هؤلاء محظوظين بما فيه الكفاية ليموتوا بسرعة. كانت حالة المقاتلين الشيشانيين، الذين استطاعوا الاستيلاء على المستشفى، والاحتفاظ بدروع بشرية، سيئة. لكن على المرء الإعجاب بالطريقة التي سقطوا فيها.

انطلقت الإشاعات عندما استيقظنا في الصباح التالي. قال شيشانيون محليون يعيشون في تلك المنطقة من داغستان أنهم جلسوا طوال الليل يحاولون التقاط إشارات راديو بويفكس، إن الأخبار كما يأتي: "قام رادوييف وإسرابيلوف بفك الحصار وعادا إلى الشيشان. قالوا إن رادوييف هرب من الجحيم وتمكّن من الاحتفاظ ببعض الرهائن". ضحكنا، ولكن القصة كانت مثل كرة الثلج. بعد ذلك،

أكّد الرهائن الذين تمكنوا من الهرب أثناء القصف الجوي كناجين من سفينة محطمة صحة كل شيء. لقد كانت الشائعة حقيقية.

تبين لاحقاً أن ذلك الهروب ما كان ليتمّ لولا المساعدة التي انطلقت من داخل الشيشان خلف الخطوط الخلفية الروسية حول قرية سوفياتسكوي المحاذية لبيرفوميسكوي. قال أصلان مسخادوف إن حوالى 400 مقاتل ساهموا في هذا الالتفاف مما منح رادوييف وإسرابيلوف الفرصة للهرب. "كانت موسكو تنوي قتل كل الأحياء، ولهذا قمنا بعملية كبيرة ومخطط لها لاختراق حصار رجال رادوييف، وإنقاذ الرهائن من الصواريخ، وقذائف المدفعية والقنابل. لقد أخذنا على عاتقنا هذه العملية ونجحنا بها" لقد نجوا من هزيمة محققة.

اتضحت الحقيقة لاحقاً بأن الحكومة الروسية، التي أثارت ضجَّة عن النصر، كانت تحتضر. في البداية، أقرّ المتحدث باسم وزارة الداخلية بوجود محاولة للهروب تمّ إحباطها، واعترفت الحكومة بالحقيقة، ولكنها قدّمت لوسائل الإعلام بعض الخبراء العسكريين الذين أعلنوا أنه لم تكن هناك قوات كافية، وأنهم كانوا يعانون من نقص في الغذاء، وأن الشيشانيين قد بنوا قاعدة عسكرية ضخمة في بيرفوميسكوي. كشف الكوماندوس لاحقاً بأنهم قد تعرضوا لإطلاق النار من قبل مروحياتهم خلال اليوم الأول للمعركة، مما زاد من إحراج الحكومة، وامتد هذا الإرباك ليطال معدّل الوفيات، إذ قال البعض إن 80 رهينة قتلوا، وقال آخرون 24، فيما صرّح البعض الآخر عن أرقام أقل، رغم أن تعداد الجثث المنتشرة في أرجاء القرية وطريق الهروب كان سهلاً. تقول إحصائية مستقلة عن الخسائر العسكرية أن عدد القتلى 100 مقاتل شيشاني و70 روسياً أو من قوات داغستانية محلية.

بعد ذلك، لم يكن هناك سوى أمل واحد: أن يكون رادوييف قد مات. يمكن للمرء أن يشعر بالكرملين يصلي للحصول على نتيجة واحدة سعيدة: أن يكون رادوييف ميتاً.

لكن رادوييف لم يمت. ورافقني دليل شيشاني مع كارلوتا غال، من صحيفة موسكو تايمز، من إحدى قرى داغستان عبر الحدود إلى الشيشان بعد الهروب الكبير، ومشينا عبر الحقول المتجمّدة، حول المواقع الروسية، واستغرقت الرحلة بالعربة التي كانت تغوص عجلاتها في الأرض الموحلة حوالى الساعتين حتى وصلنا إلى إنغل يارت، قرب الحدود تماماً. كان الناطق الرسمي والمشاهد التلفزيونية تدّعي سيطرة الروس على هذه القرية أيضاً، ولكن في الليل كان كل شيء يعود لسيطرة الثوار، وفي إنغل يارت، كانت شاحنة محمّلة بالمقاتلين تنتظر في الظلام. كانوا يبحثون عن مقاتلين عائدين من بيرفوميسكوي، وعوضاً عن ذلك وجدوني أسحب معدّاتي ملتفًّا بمعطف متجمد من البرد. هل هرب الرهائن؟ نعم. هل سلمان رادوييف على قيد الحياة؟ نعم. بعد ساعتين أخذنا المقاتلون إليه.

تمّ تحرير آخر الرهائن بعد بضعة أيام، وحاول الكرملين جهده لدفن القصّة بأكملها. وتمّ بناء بيرفوميسكوي من جديد لأن كل بيت فيها تضرر أو تدمّر بالكامل، وتمّ منح سكانها نقوداً وسيارات. ولم يتلقَّ كوليكوف وبارسوكوف أي توبيخ. في الحقيقة، أعلنت الحكومة أن أن العملية ناجحة، وعند السؤال عن سبب استخدام المنقذين لصواريخ غراد، وهي أحد أسلحة المدفعية الفتاكة، أجاب بارسوكوف بأنهم كانوا يقومون *بتكتيك نفسي*. عندما صرّح الرهائن بالإجماع أن ذريعة القرار الروسي باستخدام القوة كانت مزيفة، لأن الثوار لم يقوموا بإعدام أيٍّ من الرهائن أو الكبار الداغستانيين، إلا أنه تمّ تجاهلهم ووصفهم *بالمتعاونين مع العدو*.

كشف الرئيس يلتسن عن تخبطه الشديد في هذه المشكلة، وعن الإذلال الذي تعرض له، وقال: "يجب قتل الكلاب المجنونة"، وهدّد بأن: "القوات الاتحادية ستبدأ بتدمير قلاع جوهر دوداييف. "إن

القواعد التي اكتشفتها قواتنا الخاصة تهدد كل الشيشان بالانفجار". لكن الثوار الشيشانيين كانوا مليئين بالثقة بحلول ذلك الوقت. قال مسخادوف: "أرادوا تدمير كل مقاتلي الجيش الشيشاني والرهائن، ولكن إرادة الله العظيم كانت مختلفة. لقد أظهرت القوات الروسية عجزها الكامل".

وزاد الشعور بالإذلال نتيجة ما حدث في بيرفوميسكوي نتيجة لحادث عارض، فخلال المعركة على القرية، قام بعض الأتراك المناصرين للشيشان، والذين ينتمي بعضهم إلى الشتات الأبخازي، بالاستيلاء على مركب وعلى متنه 200 شخص معظمهم من الروس في ميناء ترابزون التركي على البحر الأسود، وطالبوا بإنهاء الحرب في الشيشان. كان الكثير من المسلمين الأتراك، بتواجدهم الكبير في شمال القوقاز يشعرون بالمودة تجاه الثورة الشيشانية، ودعموا في ذلك الوقت خاطفي المركب بوضع الأعلام الشيشانية على طول الساحل، وحرق العلم الروسي.

انتقد يلتسن السلطات التركية لكونها *بطيئة* جداً، واقترح تقديم مساعدة روسية، وهو عرض أقرب إلى الكوميديا السوداء إذا أخذنا بعين الاعتبار المجزرة الدامية التي جرت في بيرفوميسكوي، ولكن في اليوم الثالث، سلّم الرجال المسلحون أنفسهم دون قتال، وتمّ تحرير كل الرهائن.

لم يكن الأمر سراً بأن للشيشانيين مناصرين في تركيا. كان المسؤولون الانفصاليون الشيشانيون يجدون مخابئ لهم هناك، ويستطيعون حتى إنشاء مكاتب في إسطنبول. اتهم بعض المحللين الروس الحكومة التركية نفسها بمساعدة الشيشانيين من أجل تعريض خطوط نقل النفط الروسية في بحر قزوين للخطر. لكن هذا الاحتمال كان بعيداً لأن إسطنبول كانت منغمسة في حربها السرية القذرة ضد الأقلية الكردية في جنوب شرق البلاد، ولأنها كانت بحاجة لعلاقات تجارية جيدة مع روسيا أكثر منها مع الشيشان. رغم ذلك، وبعد انتهاء أزمة السفينة، قالت رئيسة الوزراء تانسو شيلر: "ما تزال المأساة الإنسانية مستمرة في القوقاز، وما تزال المجازر بحق الأمهات والأطفال مستمرة. يجب أن يعير العالم انتباهه إلى ما يحدث هناك".

نوفوغروزني

عندما دخل رادوييف السرداب في مدينة نوفوغروزني، وقف الرهائن الممددون على الفرش لتحيته كصديق قديم. وكانوا يقولون: "مرحباً يا سلمان"، فردّ عليهم مبتسماً: "كيف حالكم جميعاً" من خلف لحيته الشائكة، وصافحهم أو عانقهم واحداً تلو الآخر.

كان بعض الرهائن جرحى، وجميعهم متعبين جداً وغارقين في صمت مطبق يخيّم على الناس عادة بعد نجاتهم من الموت.

بالنسبة لهم، لم يكن رادوييف ذلك الإرهابي، أو مختطف الرهائن، أو الرجل الذي اختبأ في المستشفى لينقذ حياته بعدما فشلت مهمته. إنه سلمان المنقذ، والرجل الذي قاد الرهائن إلى برّ الأمان.

قال وعيناه تومضان: "أريد أن أذكركم فقط أنكم الآن بأمان"، وكان الرهائن يهمسون بالاستحسان والامتنان.

قال الرهائن إنهم سمعوا على الراديو أنهم ماتوا جميعاً في بيرفوميسكوي، وأن الإعدامات قد بدأت. أدركوا بأن ذلك يعني إعطاء الضوء الأخضر للقيام بهجوم يمسح تلك القرية من الوجود، وأدرك القادة الشيشانيون أيضاً بعد ضربات صواريخ غراد بأن الطائرات ستبدأ بإلقاء القنابل، وأن خنادقهم لن تستطيع حفظ حياتهم.

غادر المقاتلون أولاً خلال الهروب الكبير، ولحق بهم الرهائن حاملين معهم الذخيرة والجرحى الممددين على النقّالات، ولم يتركوا أحداً وراءهم. عبرت المجموعة حقل ألغام، ووصف الرهائن الانفجارات بأنها كانت في كل الاتجاهات وكانت تقضي على الناس، ويقول الشيشانيون بأنهم فقدوا عشرات الرجال في ذلك المكان. لقد شقّ البويفكس الطريق عبر حقل الألغام وليس الرهائن.

"وتقول الرهينة ديمة: كان القتال ضارياً، وكان هناك ذعر كبير، وحاول كل شخص النجاة بحياته، ولم يعتقد أحد بأنه سينجو. كان الشيشانيون يطلقون النار من كل الأسلحة التي بحوزتهم ـ قاذفات الصواريخ، والرشاشات، والبنادق ـ كنا نتعرض لإطلاق النار من ثلاثة اتجاهات. لقد دمّروا العديد من المواقع الروسية. مشينا في قلب الخنادق وفي أحد الأنهار لأن نيران الحرب جعلت الليل يبدو كالنهار، ولم يكن هناك مكان للاختباء."

بعد توقف القتال، كان على المقاتلين التسابق عبر الأرض المتجمدة وهم يسحبون الجرحى ليصلوا لبرّ الأمان قبل الفجر، ويقول أركادي، وهو مدرس رياضيات: "كنا نعرف بأن المروحيات ستبدأ بصيدنا عند بزوغ الفجر، ولكننا لم نكن سريعين بما فيه الكفاية. عادت المروحيات حوالى السادسة صباحاً، وأطلقت ثلاث منها النار علينا، ووضعنا وجوهنا في الأرض معظم الأوقات، واستغرق منا الأمر ثلاث ساعات لنقطع مسافة كيلومترين."

قال رهينة يدعى ماغومد: "هل تعرف ماذا يشعر الحمل عندما يكون قريباً من الذئب؟ هذا ما شعرنا به، كان الذئب هذه المرة روسيا بأكملها."

انتقل الهجوم الروسي إلى مستويات جديدة تاركاً وراءه مهزلة بيرفوميسكوي. كانت شهور الشتاء الأفضل للجيوش الروسية في الشيشان لقرون عديدة لأن مستوى مياه الأنهار يكون منخفضاً مما يمكنهم من نقل المعدات الثقيلة والعربات بسهولة عبر الأرض المتجمّدة، ومما يحرم الشيشانيين من غطائهم، ويجعل من الصعب عليهم التخييم في الغابات. عبرت الآليات العسكرية الروسية الحقول، من موقع مقاومة لآخر، وتقدمت بشكل تدريجي نحو الجبال، وتحرّكت القوات من غودرميس في كانون الأول، واستولت على نوفوغروزني، والتي تقع أسفل الطريق الاستراتيجي الشرقي الغربي من غروزني إلى داغستان في شباط. في آذار، بدأ الهجوم الروسي غرب الشيشان ضد مدينة سيرنوفودسك في البداية، ثم ضد سماشكي مع ضغط متواصل على منطقة باموت.

تحدّث وزير الدفاع بافل غراتشيف بثقة عن كيفية مطاردة البويفكس في التلال، وكتب بافل فيلغينور، وهو محرر مشهور في موسكو عن التمرّد ووصف هجوم *الربيع*: "القتال في أوجه الآن، وهو يحدث في نفس الأماكن التي وقعت فيها المواجهات السنة الماضية، ولكن وضع الشيشانيين الآن أسوأ بكثير. فقد كانوا يملكون الكثير من الدبابات والأسلحة السنة الماضية، وليس لديهم الآن سوى الأسلحة الخفيفة والقنابل اليدوية، وقد تضرّر النظام الطبي الشيشاني مما سيلحق بهم خسائر كبيرة."

على الخريطة، بدا الشيشانيون مرّة أخرى، وكأنهم محصورون في الزاوية. كان الجنود الروس يحتلون المراكز الجنوبية من فيدينو إلى شاتوي، وغودرميس إلى أتشخوي مارتان، ولكن ثبت أن ذلك المسار مضلل، لأنه على الرغم من هروب الشيشانيين، لم يتمّ الإمساك بهم أو القضاء عليهم. لقد كانوا يختارون معاركهم، ويقومون بانسحاب تكتيكي عندما يحمى وطيس المعركة، وكانوا يظهرون في قرية أخرى للقتال مجدداً. لقد كانت تلك حرباً دون جبهات قتال. إنها حرب عصابات.

في الجزء الجنوبي الغربي من باموت، تابع ستاري أتشخوي وأوراخوفو القيام بعمليات حربية محدودة في مواقع معينة من الخنادق. وتخلّص البويفكس من مشكلة اتصالات الراديو السيئة من خلال الاستعانة بوسائل اتصال حديثة، وأصبح مسؤولو الصف الثاني يحملون لاسلكياً من نوع موتورولا، وبدا كما لو أن قوة الانفصاليين قد كبرت، وتحولت من مرحلة المقاومة العفوية في الأيام الأولى إلى جيش حرب العصابات المنظم. تطلبت استراتيجية الانفصاليين في الكر والفر تنسيقاً عالي المستوى، وكانت تتسبب بالمتاعب لعدد من القرى الواقعة ضمن مناطق القتال، لكنّ الانفصاليين اعتقدوا أنهم قد وجدوا طريقهم أخيراً، وأنهم يستطيعون الصمود أكثر من الروس مهما حدث. قال لي أصلان مسخادوف في كانون الثاني: "كل قرية هي قلعة. يمكن الاحتفاظ بكل قرية وبلدة حتى النهاية. لقد فعل يلتسن وقواته المسلحة كل ما باستطاعتهم، ولم يبقَ شيء لم يستخدموه سوى الأسلحة النووية. في النهاية، لن يكون لديهم خيار سوى الرحيل".

على سبيل المثال، كان هناك قتال عنيف في ساماشكي، ودخل الثوار في معارك مشاة قاسية بعد تعرّضهم لقصف مدفعي وجوي كثيف. فقد المدافعون الشيشانيون الذين تراوح عددهم ما بين 300 - 400 حوالى 40 رجلاً مع الكثير من الجرحى، وهي خسارة كبيرة نسبياً في معركة واحدة إذا أخذنا بعين الاعتبار معدلات حرب العصابات، ورغم هذه الورطة الفظيعة، تمكّن المقاتلون من الهروب عبر الخطوط الروسية بعد خمسة أيام من الحصار. قال زميلي بوريس باتشورز من وكالة فرانس برس، والذي كان مع البويفكس، إن الثوار كانوا في إحدى النقاط على بعد 100 متر فقط عن المواقع الروسية التي لا بد أنها سمعت حركتهم. لكن تلك القوات، التي لا تتمتع بروح معنوية عالية، لم تحاول انتهاز الفرص في مقارعة عدو مجهول الحجم في الظلام، وتركت رجال العصابات يتسللون حولها دون قتال. كان السماح للعدو بالتسلل دون قتال إنسانياً، وهو ما يحصل غالباً في الشيشان، حيث يتمّ السماح للبويفكس بالقتال في يوم آخر.

في آذار، أصاب الشيشانيون الروس بأكبر صدمة لغاية اليوم عندما هاجموا كامل النصف الجنوبي من غروزني عند الفجر، ودمّروا نقاط التفتيش، وأطلقوا النار على زافغاييف وعلى الأبنية الروسية الرسمية لمدة ثلاثة أيام، قبل أن يختفوا. ولإخراج هؤلاء المقاتلين الشيشانيين الذين بلغ عددهم حوالى 1000، استخدمت القوات الروسية المروحيات المقاتلة وصواريخ غراد. في تلك المعركة قتل 100 جندي روسي وفقاً لإحصائية رسمية، و400 وفقاً لتقارير الضباط. كان هناك نجاح شيشاني آخر محرج للروس في نيسان، عندما وقعت قافلة مدرّعة في كمين على طريق شاتوي في منتصف سفوح التلال. كان ذلك الكمين، الذي يعتبر نموذجاً للعمليات الحربية الجبلية، والتي منحت فيها التضاريس المهاجمين سيطرة مطلقة على القوات المدرعة، مسجَّلا على شريط للتفاخر به. انتظر المقاتلون في حفر صغيرة في أرض مرتفعة تطل على طريق ضيق، وعلى الجانب الآخر هاوية شديدة الانحدار، وعندما مرّت القافلة الطويلة من الشاحنات والمركبات في مجال الرمي، دمّرها الشيشانيون بقاذفات الصواريخ ونيران الرشاشات. بالنسبة للروس، لم يكن هناك طريق للهروب، أو مكان للاختباء فيه أو حتى لإنشاء مواقع دفاعية. لقد كان عرضاً لإطلاق النار، وأشارت الأرقام الرسمية إلى مقتل 37 جندياً من أصل 199.

كان قائد هذا الكمين أصولياً إسلامياً متشدداً يدعى خطاب، وعرّف عن نفسه بأنه قادم من العالم العربي، وقالت المخابرات السرية الروسية أنه كان أردنياً. قاتل خطاب بإمرة شامل باساييف، وقال إنه اكتسب خبرته من الحروب في أفغانستان وطاجيكستان، وادّعى أنه نفّذ الكثير من الكمائن الناجحة الأخرى. وكان خطاب عندها أحد القادة الشيشانيين الشباب الذين ذاعت شهرتهم من العمليات الحربية، والذين أضافوا خبرة ممتازة لجيش الانفصاليين الذي لم يكن لديه وخصوصاً في الأيام الأولى سوى القليل من القادة المدربين.

منحت سرعة الأحداث في المدن والقرى المليئة بالسكان، والتي انتقلت إلى ساحات المعارك، الفرصة للمدنيين للفرار بعد أن عانوا الأمرّين. ووفقاً لشهود عيان، مات أو جرح مئات الأشخاص في قصف المناطق السكنية بمدافع الهاون، وصواريخ الغراد، وصواريخ المروحيات أثناء القتال في غودرميس، ونقلاً عن الجنرال الروسي أناتولي شكيركو، فقد مات 267 مدنياً، ولكنه صرّح لاحقاً بأن تلك الأرقام غير دقيقة، وفي مدينة سيرنوفودسك، تمّ قصف المناطق المدنية حتى احترقت بالكامل، أما في سماشكي، التي شهدت مأساتها الثانية، فتمّ تدمير مناطق واسعة وقتل أعداد كبيرة من المدنيين.

في كل تلك المعارك، قام الروس بإطلاق النار على اللاجئين الذين حاولوا الفرار، ولم يسمحوا لوكالات الأنباء والصحفيين بالاقتراب من موقع الحدث، وأعاقوا بشكل كبير عمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر والتي قدّمت احتجاجاً رسمياً في جنيف. كانت الأخبار التي تسرّبت فظيعة، وبثت التلفزة الروسية فيلماً تمّ تصويره بشكل سرّي في مدينة سيرنوفودسك تظهر فيه الشوارع والبيوت المحترقة، والعربات المشتعلة إضافة لبقايا الجثث المتفحمة في أنقاض جامع المدينة. تحدّث الناجون عن القوات التي لحقت بهم، وقامت باغتصاب، وإعدام الكثيرين. في سماشكي، تمّ احتجاز ما يقارب 5000 مواطن في أقبية المنازل أثناء المعارك، وكان هناك اتهامات بإجبار بعض المدنيين على الجلوس في العربات العسكرية واستخدامهم كدروع بشرية لمنع البويفكس من إطلاق النار.

رغم تعرض المدنيين لرعب القصف الروسي، وعمليات الإبادة الكاملة التي قامت بها وزارة الداخلية، لقي البويفكس دعماً واسع النطاق. في الواقع، لم يكن بمقدور الثوار النجاح بخوض حرب العصابات دون هذا الدعم. كان المقاتلون مزروعين في كل السهول بما فيها غروزني. كان هناك حاجة شديدة للطعام وأماكن تخزين السلاح والعيش بهيئة مدنيين. عاش هؤلاء البويفكس في منازل عادية، ولم يكونوا يحملون السلاح في الشوارع حتى يدعوهم قادتهم إلى عملية ما. قال شامل باساييف إن رجاله تسلّلوا إلى قوات شرطة زافغاييف، ولم يكن ذلك تفاخراً مزيفاً. عندما بدأ الانفصاليون هجومهم على غروزني الذي استمر ثلاثة أيام في آذار، كان هناك الكثير من الحالات التي يلتحق فيها أفراد من شرطة زافغاييف بالثوار، أو يقومون بتسليم أسلحتهم دون مقاومة. وقال باساييف: "واكبت الشرطة قائد المقاطعة إلى غروزني لحمايته".

تُلقي تجارة النفط الضوء على تشابك تنظيم الثوار مع العالم المدني، ووفقاً لمصادر شيشانية وروسية، يتمتع الثوار، إضافة للدعم الخارجي القادم من تركيا، والأردن والمملكة العربية، بمصادر تمويل تأتي من مبيعات النفط. كان هؤلاء الثوار يسرقون النفط الخام من مخازنه في أنحاء الجمهورية، ثم يذهب إلى مصافي منزلية، ويبيعه المناصرون في أوانٍ زجاجية على جوانب الطرق. كان هذا النفط، المصنوع يدوياً بإبداع، المصدر الوحيد لوقود السيارات أثناء الحرب لعدم وجود محطات رسمية للوقود، وكانت إمدادات النفط القانونية من خارج الشيشان نادرة. لم يستطع الروس إيقاف مبيعات النفط، الأمر الذي ساعد على ملء صناديق البويفكس.

كانت معرفة أعداد القوات الشيشانية صعبة نظراً لطبيعة بنيتها التنظيمية. لم يكن هناك سوى بضعة آلاف رجل يقاتلون فعلياً، ولكن تمتع كل بويفكس بدعم أصدقائه وعائلته وحتى أولاده المادي والمعنوي، كان لكل من هؤلاء المناصرين مجموعة من المتعاطفين الذين يقدّمون الدعم الأخلاقي على الأقل، ولم يكن البويفكس سوى الجزء الظاهر من جبل الجليد.

كان جوهر دوداييف مختفياً خلال الأشهر الأولى من سنة 1996، وينتقل من بيت آمن لآخر على سفوح الجبال، ولم يكن يقضي ليلتين في نفس المكان، ولكنه كان أكثر جرأة من قبل. كان ذلك الرجل الذكي، وقائد القاذفة النووية، يبدو شارد الذهن وخيالياً بعض الشيء. كانت بلاغته ودعايته شديدة وتصل إلى حدّ الكوميديا.

قال جوهر دوداييف لإذاعة صوت أميركا من خلال هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصنعية في غابات سفوح الجبال في كانون الثاني، تماماً بعد معركة بيرفوميسكوي: "الآن سيتوحد قادة وشعب داغستان وكل القوقاز ضد الروسنة وضد أيديولوجية وسياسة كراهية الإنسان التي تخرج من المركز الروسي الشيطاني". في شباط، وأثناء مقابلة صحيفة صباح التركية، كان دوداييف واثقاً مما سيجري: "ستشمل حرب الشيشان كل القوقاز في البداية... ثم ستنتقل إلى تركيا وبعدها إلى أوروبا،

وستقود في النهاية إلى نشوب الحرب العالمية الثالثة، وسوف تستمر حربنا لعقود، حتى يقتل آخر شيشاني".

في نفس الوقت، بقي دوداييف كما كان دائماً رجلاً عسكرياً وجنرالاً موهوباً. كانت لديه دائماً فكرة واضحة حول ما سيقوم به العدو، ويعود الفضل في ذلك إلى روابطه الوثيقة مع زملائه في الجيش الروسي، وذكائه الشيشاني الشديد. في آذار، تحدّث بنفس اللغة المخملية خلال مؤتمر صحفي، ولكنه قال أيضاً إن حرب الثلاثة أيام على غروزني في ذلك الشهر كانت *التمرين النهائي*. تمّ تجاهل هذه العبارة على نطاق واسع، ولكنها في الواقع كانت عبارة تنبئ بالمستقبل.

منطقة فيدينو

جاء الثوار إلينا في عمق منطقة تسيطر عليها روسيا في إحدى ليالي أيار. كانوا يقودون جيب للشرطة، استولوا عليها من قبل، مع أضواء زرقاء على السقف والأحرف الأولى من "شرطة الطرقات الروسية الحكومية" مكتوبة بخط كبير على الأبواب. في حوالى الساعة الواحدة ظهراً ذهبنا جنوباً من غروزني دون أضواء أمامية في الشوارع الخالية تحت ضوء القمر القوي. ولمحنا مقاتلين يتحركون مشياً على الأقدام. وقال أسخاب قائد الثوار: "الليل هو وقت الذئاب."

عبر السهول وصولاً إلى ستاري أتاجي على ضفة نهر أرغون، كانت كل الجسور تحت سيطرة الروس، ولهذا قدنا السيارة عبر النهر الرمادي الغزير. كان الماء يتسرب من الأبواب، وعندما شارفنا على عبور النهر، سقطت السيارة في حفرة عميقة، وكان هناك صمت مفاجئ؛ لقد امتلأ المحرك بالمياه. خرجنا من سيارة الجيب بدفع الأبواب بكل ما نملك من قوة، وخضنا في الماء البارد الذي غمر صدورنا وصولاً إلى الضفّة. كان الروس على بعد كيلومتر واحد على الجهة المقابلة من النهر. كانوا يستطيعون رؤيتنا لو أشعلوا بعض أضواء الإشارة. لكنّ الشيشانيين ضحكوا، وأشعلوا لفائف التبغ، وانضموا لإحدى قواعد الثوار الحيوية لدعم عملياتهم. في غضون دقائق، أُحضر رجل مع شاحنة من بلدة ستاري أتاجي لسحب الجيب من النهر. في الرابعة صباحاً، وصلنا إلى القرية التالية تشيري يورت، وتوقفنا عند أحد المنازل لإصلاح المحرك وتناول وجبة ساخنة.

بسبب ذلك التأخير، كانت الشمس مرتفعة في السماء عندما غادرنا السهول ودخلنا الجبال. أصبحت الطائرات منذ ذلك الوقت تشكّل الخطر الحقيقي وليس القوات الأرضية. بدأ أسخاب بقيادة السيارة في حوض النهر مبتعداً عن الطريق الذي يعبر الغابة متجهاً نحو التلال، وهو معبر للثوار. لا أحد يعرف كم ستبقى هذه الكيلومترات التسعة من الأحواض المائية والسفوح شديدة الانحدار مفتوحة قبل أن يكتشفها الروس، ولكن لم يكن أحد قلقاً. قال أسخاب: "سنجد طريقاً آخر"، لأن الانفصاليين يقاتلون بمرونة، ويبحثون دائماً عن خيارات بديلة، ويجدون الأماكن المناسبة لهم مثل المياه المتدفقة.

أقمنا في معسكر يقع على تلال شديدة الانحدار قرب فيدينو. تسكن الوحدة المؤلفة من عشرة *حطّابين*، كما يدعوها أسخاب، في أكواخ صغيرة وتتمركز في مواقع دفاعية. تقوم تلك الوحدات بحماية مستودعات الأسلحة المتوارية في التلال، كما تبذل تلك الوحدات جهدها كي لا يتمّ اكتشافها. عندما تُحلق الطائرات فوقهم، كان كل منهم يختبئ خلف الأشجار. كانت مضادات الطائرات مخبّأة تحت أغصان الأشجار، ولم يكن بمقدور أحد ملاحظتها قبل أن يقع في حفرة مقاتل أو خندق. تمّ إخفاء سيارة الجيب تحت الأغصان. في وقت الصلاة ناماز**، كان صف من المقاتلين يسجد على بطانيات عسكرية، ويكبّرون بالقول: "الله أكبر"، وهي الجملة التي يمكن سماع صداها تتردد في جنبات التلال المجاورة.**

عندما يكون أسخاب بعيداً، يكون المقاتلون الأصغر سنًّا في حالة تأهب تام. قد حوّلهم العيش في الغابات وخارج نطاق القانون إلى متيقظين. لم يسبق لأحد أن علّمهم تلك القاعدة المتعلقة بعدم توجيه السلاح نحو الآخرين، ولهذا يقومون بتوجيه ماسورة رشاش الكلاشينكوف نحو بعضهم البعض. كان علي خان، البالغ من العمر 16 سنة، والمفعم بحيوية وعنفوان المراهقين، على وشك إطلاق النار على شخص آخر بالخطأ قبل وقت قصير. عندما كانت إحدى المروحيات تتقدم بتردد نحو قمة التل، غضب وسحب رشاشاً ثقيلاً

من المخبأ مع حزام طويل من الذخيرة الذي يضعه على كتفيه، قبل أن يطلب الآخرون منه الهدوء والاختفاء عن الأنظار.
يقول أحد الثوار: "نحن حفنة من الأغبياء، أليس كذلك؟ إن الشيشانيين أغبياء. بخلاف ذلك ما كنا لنحارب الروس للسنة الثانية على التوالي."
كان شامل باساييف يتجول في منطقة فيدينو، وهو ما تطلّب يومين لتحديد موعد لإجراء مقابلة معه. تقابلنا في بيت ريفي صغير، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.
تعرّض باساييف لإصابات كثيرة رغم أنه لم يكن يتجاوز 31 من عمره، هو يعتبر متحفاً حربياً حياً. كان لديه شظيتان في ساقيه ورصاصة في إحدى ذراعيه، وفقد 16 من أقاربه، ولكنه نجا ـ حتى أنه نجا من بودينوفيسك ـ مما ساعد على تشكيل تلك الهالة حول شخصيته، كل هذا يجعل جنوده يتبعونه لأي مكان. أخبرني أحدهم: "يكمن السر في أنهم لا يستطيعون حصار شامل باساييف. إنه يجد دائماً طريقاً للخروج". يبدو لون عينيه شديد السواد، وحتى في ضوء الشمس عندما يكون وجهه مطمئناً، تبقى العينان متقدتين. لكن في تلك الليلة، كانت عيناه محاطتين بهالات سوداء، وتختبئان تحت قبّعة صوفية سوداء ملفوفة بعصبة خضراء، مع كتابات إسلامية باللون الأبيض واللغة العربية.
شرح باساييف الحرب الجديدة، وما يدعوه الانفصاليون ***القتال بذكاء***. "لم يسيطر الروس سوى على الأراضي التي يقيمون بها فقط، وأستطيع التحرّك بسهولة بالغة، وليس عليّ الاحتفاظ بالخنادق، لأنه كان لدينا الكثير من الجنود الذين يجلسون في الخنادق من قبل دون أن يفعلوا شيئاً. لديّ الآن قاعدتان أو ثلاث في الجبال تحرسها وحدات صغيرة لأن الدبابات لا تستطيع الوصول إلى هناك. هذا ما يجعل اثنتين أو ثلاث من الكتائب التابعة لي حرّة، وأستطيع استخدامها في السهول.
بعد عدّة أيام، سافرنا عائدين إلى أسفل النهر. سمعنا أن سيارة جيب مليئة بالمقاتلين اصطدمت مع عربة مدرّعة روسية في تلك المنطقة، قتل ثلاثة شيشانيين في تبادل إطلاق النار، وأصيب اثنان إصابات بالغة.
كان لدى أسخاب هذه المرة رجال أشدّاء، وليس أولئك اليافعين من المخيّم. كان أربعة منهم يجلسون على مقدمة سيارة جيب مع بنادقهم، فيما جلس اثنان في القسم الخلفي حيث يجب أن يجلس السجناء، كما كان لديه قاذفات آر بي جي مضادة للدبابات. لم يكن أحد يتحدث عن التوتر، وهو شيء من النادر سماعه في الشيشان. غالباً ما يقول الشيشانيون "هوما آ داتس"، التي تعني ***لا مشكلة***.
كان أسخاب يمزح ويقول إن اثنين من المساجين سوف يقضيان حياتهما في السجن، وكانوا يضحكون دائماً حول الأمور الغريبة في عربتهم المسروقة: هناك مسمار محني بدلاً من المفتاح، ولا يعمل بوق السيارة أبداً عندما يريدون التزمير للبنات. يتحدث هؤلاء الرجال عن كيفية مرورهم بجانب الجنود الروس، متظاهرين بأنهم أفراد شرطة. كما يتحدثون عن الباب الأيسر الخلفي الذي لم يكن باستطاعة أحد فتحه، وهذا شيء قاتل عند محاولة الخروج من المركبة بسرعة للنجاة بالحياة، لكن تلك ما تزال مزحة.
انطلقنا في الظلام، وبدأ المقاتل بجانبي بتلاوة الصلوات. أنشد اثنان يجلسان في القسم الخلفي المخصص للسجناء الذكر. وفي المكان الذي كنا سنترك فيه حوض النهر ونسلك طريقاً موحلاً في مسير عودتنا إلى السهول ـ وهي المنطقة الخطرة ـ خيّم الصمت علينا، ما عدا أصوات مخازن الذخيرة التي كان المقاتلون يضعونها في أسلحة الكلاشينكوف. أخفض المقاتل الذي يجلس بجانبي بندقيته باتجاه منتصف زجاج السيارة الأمامي. ولمع أمامنا مباشرة ضوء إشارة روسي في الليل. بالطبع، كنت أنا من يجلس بالقرب من الباب الذي لا يفتح هذه المرة. قال صوت في الظلام: "ستموت أولاً يا سيباستيان؟" وبدأ الجميع بالضحك.

حتى قبل بداية ربيع سنة 1996، كان واضحاً أن السياسة التي تتبعها موسكو في طريقها للانهيار، وأنها (أي موسكو) غير قادرة على الفوز بالحرب وغير قادرة على التفاوض مع دوداييف، وتواجه منافسة من الشيوعيين للفوز بالرئاسة. كان الكرملين معطلاً. قدّم بوريس نيمتسوف، الحاكم الإصلاحي الشاب لمنطقة نيزني نوفغورود عريضة إلى يلتسن في شهر شباط

لإنهاء الحرب، والتي وقّع عليها أكثر من مليون مواطن، ولكن تمّ تجاهلها. كان إيقاف القتال والتفاوض يمثّل اعترافاً بالحقيقة التي تقول إنه ليس بالإمكان الفوز بالحرب وأنها كانت خطأً فادحاً. كان ذلك يعني إذلالاً شخصياً ليلتسن، المريض بدنياً والضعيف سياسياً، وموتاً سياسياً لكل الفريق الذي تحمّس للحرب. قال قسطنطين بوروفوي، وهو عضو ليبرالي في البرلمان، والذي كان على تواصل مع دوداييف عبر هاتف يعمل عبر الأقمار الصنعية: "في حال إنهاء الحرب، كان يلتسن سيفوز بثقة جمهور الناخبين. لكنه سيفقد الجيش لأنه سيبدو كفاشل مرة أخرى. كان ذلك شديد الخطورة مع عصبة من الوزراء مثل غراتشيف.

كان واضحاً أن الجيش غير قادر على القضاء على المقاومة في المستقبل القريب، وأن زافغاييف غير قادر على إنشاء سلطة، ولم يعد أمام الكرملين سوى اعتماد خطة تراجع واحدة: الآلة الدعائية نحو مسار آخر، وارتداء ملابس الإمبراطور. كانت الخطة تقضي بالتظاهر بعدم وجود حرب أولاً، ثم إعلان النصر قبل انتخابات حزيران، مهما كانت الحقيقة.

وفقاً لموسكو وموظفيها في وكالة أنباء إيتار تاس والتلفزة الوطنية، لم يكن هناك هجوم عسكري بل *عمليات خاصة*. كان ذلك يعني عدم وجود قصف للمدنيين، ولهذا عندما كانت القرى تتعرض للقصف بالصواريخ أو من الطائرات، كانت الدعاية تقول إن مصدر القصف *طائرات مجهولة* أو أن دوداييف يستخدم سلاحاً جويًّا سريًّا ليقصف شعبه. لم يتمّ إجبار القرى على الاستسلام بقوة مدافع الدبابات، ولكنها وقّعت وثيقة *السلام والتوافق*. بعد قصف شديد على جنوبي غربي قرية شالازي، صرّح القائد العام للقوات الجوية الجنرال بيوتر دينكن في مؤتمر صحفي أن مزاعم القرويين الذين تحدّثوا عن ثلاث طائرات تحوم فوقهم، وتطلق عليهم النيران ليست سوى "مشاعر استفزازية وعواطف جيّاشة"، وقال إن الحقيقة هي: "إن الشيشانيين يطلقون النار على أنفسهم، ويضعون كميات كبيرة من المتفجّرات تحت بيوت شعبهم ويفجّرونها عندما تحلّق الطائرات لتنفيذ مهمتها في ضرب مواقع قطّاع الطرق، ومخيماتهم، ومستودعاتهم، وقواعدهم".

كانت إحصائيات الإصابات الرسمية سيريالية. كانت إصابات الثوار التي يعلن عنها الجيش الروسي مرتفعة جدًّا بحيث يستغرب المرء من أين يأتي كل هؤلاء المحاربين. كانت تصدر تقارير عن الخسائر الروسية، ولكنها كانت تشير إلى خسائر طفيفة، وتحدد أماكن المناوشات المستمرة والقتال الضاري. في منتصف أيار، قام قائد قوات وزارة الدفاع الجنرال فلاديمير شامانوف بالإعلان بكل ثقة أن 80% من الأراضي الشيشانية تقع تحت السيطرة الاتحادية، وأنه لا يوجد سوى حوالى 500 - 700 مقاتل، ويحاول 20 % منهم الهروب من الجمهورية. نتيجة للدمار الكبير الذي أصاب قافلة للمدرعات خلال اشتباكات نيسان قرب شاتوي، أكّدت الحكومة والجيش للعامة بأن تلك الكارثة فريدة من نوعها. تحدّث الرئيس يلتسن عن مأساة قومية، ووصف المقاتلين الشيشانيين بأنهم جبناء، حتى أن البعض قال إن القافلة كانت تحمل مساعدات إنسانية. تمّ تشكيل لجنة خاصة للتحقيق في حجم الخسائر. حاولت الدعاية الرسمية تصوير تلك العملية بأنها أول نكبة عسكرية في الحرب، وأنها ليست دليلاً على قوة الشيشانيين الحقيقية.

كانت الجوهرة في لباس الإمبراطور تتمحور حول خطة سلمية أعلنها يلتسن بنفسه في 31 آذار عام 1996، أي قبل أقل من ثلاثة أشهر من موعد الانتخابات. خلال أسابيع، كانت تدعى *الخطة السرية* وانتظر الطرفان تحسباً لما سيطرأ. عندما كشف يلتسن عن الخطة - والتي تقضي بوقف إطلاق النار، وإطلاق المفاوضات، والانسحاب المرحلي للقوات الروسية من المناطق *الهادئة* - أصبح موضع إعجاب الغرب. وفي الشيشان، لم يكن للخطة أي تأثير، واستمرت الحرب هناك، إما

لأن يلتسن لم يكن يريد لأوامره أن توضع موضع التنفيذ، أو لأن غراتشيف، وكوليكوف والمتشددين الآخرين لم يزعجوا أنفسهم بإطاعة أوامره. قال القائد العام للقوات في الشيشان الجنرال فياتشسلاف تيكوميروف وبكل فظاظة إنه سيحترم الخطة، ولكنه سيستمر في تنفيذ "عمليات خاصة ضد العصابات المسلحة والإرهابيين"؛ وبكلمات أخرى، سيستمر بالقتال.

كان هناك أصوات في الظلام. قال المدافع عن حقوق الإنسان سيرجي كوفاليف عن خطة السلام بأنها "منافقة من البداية وحتى النهاية"، وأضاف أن الهجوم بقناع السلام والتوافق هو "الأكثر وحشية وبغضاً". واستمرت تلك الاستراتيجية البغيضة، وكان الرئيس على علم كامل بها. كان كوفاليف يعرف بأن كلماته الآتية لن يكون لها تأثير يذكر: "كان يتمّ تدمير القرى دون أن ينظر أحد فيما إذا كان فيها مدنيون أم لا"، وحتى في بداية الحرب، عندما لفتت شجاعته أثناء التفجيرات في غروزني انتباه العالم، أخبرني خارج القصر الرئاسي بالآتي: "سأعود إلى الكرملين وأخبرهم بكل ما رأيته، ولكن يراودني شعور بأنهم لا يريدون الاستماع لي". ولم يتغير شيء من ذلك.

حاولت منظمة **أطباء بلا حدود**، والتي كان أطباؤها يعملون في كل المناطق الخطيرة في الشيشان منذ بداية الحرب، أن تنقذ الشيشان أيضاً من الالتباس الحاصل بكونها *شؤون داخلية*، كما يدعوها المدافعون عن الرأي في الغرب. قال تقرير للمنظمة في نيسان، والذي صادف توقيته مع اجتماع الدول السبع الكبرى في موسكو، ما لم يستطع كل قادة الغرب قوله خوفاً من تقويض محاولة يلتسن للنجاح في الانتخابات مرة أخرى. "يتمّ قتل المدنيين، واستهداف المستشفيات، والمدارس والمساجد. ويعدّ هذا انتهاكاً سافراً لمعاهدة جنيف والمعاهدات الدولية التي وقّعت عليها روسيا".

وفقاً لمنظمة **أطباء بلا حدود**، تمّ تطويق وقصف قرى في مناطق *السلام والتوافق*، وتمّ إجبارها من قبل الجنود الروس على دفع ما يصل إلى 10.000 دولار لفتح ممرات لمرور المساعدات الإنسانية. عندما حاول المدنيون الهرب، كان أولئك الجنود يطلقون النار عليهم، ويأخذون الأحياء منهم إلى *معسكرات التصفية* السيئة السمعة وغير القانونية. كان هناك حالات يقوم بها الجنود الروس بتجميع النساء لاستخدامهن كدروع بشرية، إضافة لسلب كل القرى التي تقع تحت سيطرة القوات العسكرية. قال الطبيب إريك غويمير رئيس منظمة **أطباء بلا حدود** بأن على الغرب أن يطالب: "بإنهاء المجزرة"، فيما قال الطبيب ماريو غوتالز رئيس العمليات إن: "حكوماتنا تعرف بما يجري ولا تفعل شيئاً. لقد حان الوقت لفعل شيء ما". وكان رأي **اتحاد هلسنكي الدولي لحقوق الإنسان** متطابقاً في أيار؛ بأن الغرب غير قادر على تجاهل ما يحدث في الشيشان. "مات آلاف المدنيين، ليس كضحايا للعمليات الحربية بحدّ ذاتها، وإنما كضحايا للذبح القاسي وعديم الرحمة. لا يمكن اعتبار النزاع في الشيشان "شأناً داخلياً روسياً"، وإنما تهديداً للأمن الأوروبي".

لكن المجتمع الدولي لم يتحرك بسرعة بعد أن اندلع النزاع في الشيشان. أرسلت وكالات الأنباء الخارجية عدداً قليلاً من المراسلين، والذين قاموا بكتابة قصصهم في موسكو، واستمعوا إلى أكاذيب الوزراء، والتلفزة، ومحرري الصحف التي لعبت دوراً أكبر مما تستحق بالتأكيد. في معظم الأوقات، كان هناك ما يقارب العشر قصص من موسكو لكل رواية يقدّمها شاهد عيان واحد من الشيشان.

حتى التقارير الآتية من الشيشان غرقت في عدم الاكتراث العالمي. في أيار، كنا نقود سيارتنا إلى أوروس مارتان مباشرة بعد إحدى تلك الحوادث القاسية التي أطلقت فيها مروحيات مسلحة الصواريخ على تقاطع طرق مزدحم وبعدها على سوق تجاري هو الأكبر في الشيشان. قُتل ثلاثة شبان يافعين وجُرح عشرون شخصاً آخرين؛ كانت الخسائر قليلة نسبة للحشود الموجودة.

فيما كانت النساء يقفن في الساحة ينحن مثل جوقة في مأساة إغريقية، أخذني والد صبي في السادسة عشرة من عمره إلى الداخل لرؤية الجثة، والتي كانت ممددة على بساط أبيض في الغرفة الرئيسية من منزلهم استعداداً لدفنها. كان الصبي جالساً في شاحنة نفط على جانب الطريق عندما أصابها صاروخ. اشتعلت الشاحنة، ولم يتبقَ منها سوى أشلاء إنسانية متفحمة، وانتشرت في الغرفة رائحة كريهة للجسد المحترق، وكانت الجمجمة محروقة بشدة وسوداء، وقمتها مفقودة مثل بيضة مسلوقة مفتوحة من الأعلى، وكان هناك قطع يستحيل تمييزها في دلو عند قدمي الغلام. قال الوالد: "لقد حلّت الكارثة بنا. لقد حضرت اليوم لزيارتي، وستأتي غداً لزيارة الجميع. هذه إبادة جماعية".

مرة أخرى، سرى مفعول دواء الدعاية المخدّر، ونسي الجميع ما قالته موسكو عن تلك "المروحيات التي لا تحمل علامة فارقة" والتي قامت بتلك المجزرة، عدا سكان قرية أوروس مارتان. لقد بدأ النزاع في تلك البلدة، التي كانت معقلاً للمعارضة المناهضة لدوداييف، ولكنها انضمت إلى المقاومة فيما بعد. كان مستشفى القرية مهماً لمعالجة البويفكس الجرحى في القطاع الجنوب الغربي. ربما كان القصد من هجوم المروحية هو التحذير أو العقاب، وربما لم يكن يعني شيئاً. الشيء الوحيد الأكيد أن ذلك حدث، وأن قليلاً من الناس خارج الشيشان اهتموا لذلك. لم يكن ذلك الهجوم الأول أو الأخير من الجو على أوروس مارتان أو العديد من الأماكن الأخرى التي لم تتواجد فيها مقاومة نشيطة، وكان الروس قد قدّموا وعوداً بأن يتركوا الناس يعيشون بسلام.

كان هناك كلام كثير عن الاستنزاف في الخارج - وعلّق وزير الخارجية الألماني كلاوس كينكل في نيسان بأن هناك "حرباً همجية"، وأن على الرئيس يلتسن أن "يثبت نفسه" في وجه القوات العسكرية المتمردة - ولكن لم يضغط أحد على الكرملين فعلياً. في الحقيقة، كان الدعم الذي تلقّاه يلتسن في معركة إعادة انتخابه ضد زيوغانوف كبيراً جداً في الخارج، وأصبح مأخذاً عليه من قبل المصوّتين المعادين للغرب.

في قمة *الدول السبع الكبرى* في نيسان، لم يكلف الرئيس الأميركي بيل كلينتون نفسه عناء التحدّث عن انتهاكات حقوق الإنسان، وقارن بين الهجوم على الأقلّية الشيشانية والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب الأميركي قبل 130 سنة خلت. عندما عقد كلينتون قمة منفصلة مع يلتسن، لم يذكر الشيشان إطلاقاً، وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الأميركية بعد تلك القمة مستعيناً باللغة الدبلوماسية: "لن أقدّم الكثير من الاستنتاجات من حقيقة أنكم لم تحصلوا على كثير من المعلومات عن الحوار المتبادل بشأن حقوق الإنسان بين الرئيسين يلتسن وكلينتون".

كان أكثر الأعمال نفاقاً التصويت من قبل مجلس أوروبا، وهي منظمة أوروبية تعنى باحترام حقوق الإنسان، لقبول عضوية روسيا فيها في كانون الثاني عام 1996. تمّ تجميد القرار منذ بداية الحرب، ولكن بطريقة ما أقنع الدبلوماسيون أنفسهم بأن *الشؤون الداخلية* الروسية لم تعد مركز الاهتمام، ولم تكن هناك عقبة في انضمام روسيا إلى ناديهم. تجبر العضوية الحكومات بمقاضاة منتهكي حقوق الإنسان، واحترام الأقليات، وإلغاء حكم الإعدام، وإنهاء التعذيب. لكن هل كانت موسكو ستلتزم بأي من ذلك؟ حتماً ليس في الشيشان، وهذا ما كان يدركه أعضاء المجلس جيداً. لم يكن عليهم حتى مغادرة ستراسبورغ ليكتشفوا ذلك، لأن تقرير منظمة **أطباء بلا حدود** كان حاضراً دائماً. عندما أخبر الرئيس يلتسن الوفد الروسي إلى المجلس في آذار أن يقوموا "بصد كل المحاولات للضغط على روسيا، أو التدخل في شؤونها الداخلية"، كان لا بد من تصاعد الاحتجاجات ضده. عوضاً عن ذلك، كان هناك *تفهّم* أكثر لانشغال يلتسن بالحملة الانتخابية، ومحاولته استرضاء

القوميين بشتّى السبل. لكن يلتسن، جزار الشيشان على مدى 16 شهراً، كان يهزأ من الجميع؛ لقد كان هو نفسه قومياً.

يحتل دوكو زافغاييف موقعاً مهماً في عجز موسكو عن مواجهة الحقيقة ووقف الحرب. كان زافغاييف، الخبير في الحفاظ على نفسه، على شاكلة الأمناء العامين السابقين للحزب الشيوعي المحلي، والذين كانوا يحكمون الجمهوريات في شمال القوقاز في تسعينيات القرن العشرين. لم يكن لديه أيديولوجية محددة سوى العمل يداً بيد مع المركز، سواء كان ديمقراطياً أم شيوعياً، وأن يحصل على حصته من قالب الحلوى. كان زافغاييف، بقامته القصيرة وحاجبيه المقوسين دائماً، يظهر بشكل يومي على التلفزيون الحكومي الروسي ليتحدث عن مناطق *السلام والتوافق*، وعن الفوضى التي أصابت صفوف *المعارضة المسلحة*. كان كلامه يبدو مقنعاً للغاية.

كان زافغاييف معروفاً جدًّا من قبل الكرملين. بعد أن طرده دوداييف سنة 1991، عمل كرئيس للإدارة الرئاسية المختصة بالمشاكل ضمن جمهوريات الاتحاد الروسي. في بداية الحرب، عارض إرسال الجيش إلى الشيشان، ولكنّه لم يتحدث أبداً بعد أن بدأت الأعمال العسكرية. كانت رغبته في الانتقام من دوداييف واضحة. استخدم نفوذه الخاص ليخبر سادته في الكرملين بما كانوا يريدون سماعه تماماً؛ بأنه يمكن الفوز بالحرب، وتدمير قوى الثوار. بالمقابل، حصل زافغاييف وأصدقاؤه على بيوت، ومناصب، وسيارات كبيرة، وملايين الدولارات من الميزانية الروسية.

كان زافغاييف يمضي معظم وقته في موسكو، ويعيش في مطار غروزني الشمالي أو مطار خانكالا عندما يكون في الشيشان، واللذين حوّلهما الروس إلى قلاع حصينة. ذكر تلفزيون آر تي آر الرسمي في نهاية الحرب أن البيت في خانكالا كان مزوَّدا بحوض سباحة. لم يكن بمقدور زافغاييف إحصاء عدد طالبي الثأر منه، وكان الشيشانيون يلقبونه *بالمضيفة الجوية*، ويتندّرون بالقول إن طائرته جاهزة دائماً.

كانت إدارة زافغاييف، في ظل الحكومة الدمية السابقة بقيادة سلامبيك خادزييف، منشغلة بالتحايل على الميزانية الروسية بدرجة كبيرة. كان يتمّ إرسال الأموال للمساعدات الإنسانية، ولكن تلك المساعدات لم تظهر أبداً، وتمّ إرسال الأموال لإعادة إعمار غروزني، ولكن بعد بناء ستة أبنية حكومية في مركز المدينة، لم تتمّ إعادة بناء أي شيء آخر.

ما يزال السؤال حول من كان يختلس الأموال بالتحديد، وإلى أي مدى، في موسكو أو غروزني سرًّا. الشيء الأكيد أن الشيشان تحوّلت إلى ثقب أسود مالي كما كان الحال أيام دوداييف. في سنة 1995، اختفى مبلغ 2.5 مليار دولار من الأموال المخصصة لإعادة الإعمار، بما فيها - وفقاً لتقارير روسية - مساعدات عاجلة في تشرين الثاني وكانون الأول لدى ظهور زافغاييف على مسرح الأحداث.

تقول الأنباء الواردة من روسيا بأن طعاماً، وملابس، وأغطية قد غادرت موسكو إلا أنها لم تصل إلى أبعد من القاعدة العسكرية الكبيرة في موزدوك شمالي الشيشان حيث تمّ بيعها هناك. بطريقة مماثلة، غادرت أدوية ولقاحات تبلغ قيمتها ملايين الدولارات موسكو، ولكنها لم تصل أبداً إلى الشيشان. وجدت غرفة التدقيق الاتحادية في شباط عام 1996 أن 1082 عائلة فقط من بين عشرات الآلاف قد استطاعت الحصول على المساعدات الموعودة بها لإعادة بناء بيوتها، فيما بقي ما يزيد عن أربعة ملايين دولار في بنوك الدولة، وملايين إضافية كثيرة في بنوك أخرى، ولم تصل إلى أيدي ضحايا الشيشان.

في أيار عام 1996، وبعد سنة من انتخاب زافغاييف، قالت الحكومة الروسية إنها حوّلت 40 مليون دولار لمعاشات التقاعد وإعانات اجتماعية أخرى. لكن في غروزني، كان من الصعب جدًّا إيجاد شخص واحد قد تلقى تعويضاً ضئيلاً لبيته المدمّر، أو أي طريق تمّ إصلاح الحفر فيه. أعلن رئيس الوزراء تشيرنوميردن أنه تمّ إعادة بناء 1.3 مليون متر مربع من الأبنية السكنية في غروزني، ولكن لم يستطع أحد رؤيتها، ولم يزُر تشيرنوميردن المدينة بنفسه إطلاقاً.

في ذلك الشهر، اعتقلت السلطات الروسية بيسلان غانتيمروف، نائب زافغاييف، ومحافظ غروزني السابق تحت سلطة دوداييف، على خلفية اتهامات له بالفساد. كان واضحاً أنه مجرّد كبش فداء، وضحية جشع مقيت، وبقي زافغاييف وبقية فريقه بعيدين عن الشبهات. لم يستطع الكرملين التخلّص من زافغاييف، ومهما كانت الحقيقة، فقد مثّل ذلك الرجل الاستقرار، ومثّل مبناه الحكومي المطلي حديثاً في غروزني النجاح بالنسبة للحرب الدعائية.

فيدينو

في الأعلى فوق فيدينو، وحيث يحتفظ الروس بسيطرة واهية، كانت التلال مليئة بالغابات السوداء والقمم التي يعلوها الضباب. عندما يتساقط المطر، تختفي التلال خلف ستارة من المياه. يعتبر هذا المكان موحشاً لوحدة من الجنود الروس الذين يعتبرون كل قطعة من الغابة وكل منزل بمثابة أرض معادية.

يقول الضابط الروسي، وهو يشير إلى الجبال السوداء: "يوجد البويفكس هناك في الأعلى. إنهم يطلقون النار علينا، ولكننا لا نراهم. سيكون من الصعب إخراجهم من هناك."

داخل الكوخ، كان ألكسندر، الذي يبلغ من العمر 35 سنة، يرأس الجلسة. وهو شاب طويل، حليق الرأس، ويمكن رؤية عضلاته المفتولة من خلال سترته العسكرية الواسعة المخططة بالأبيض والأزرق.

يقول ألكسندر بأنه سعيد: "للقتال من أجل دستورنا، من أجل روسيا"، إنه سعيد خصوصاً لأنه يجني مئات الدولارات في الشهر، وهو أكثر سعادةً لأن لديه الفرصة لاستخدام كل تلك الأسلحة. يبدو الضابط، الشاب الأشقر، والقصير الشعر صعب المراس، فيما جلس المجنّدون في صمت مطبق.

يقول ألكسندر: "أسلحتنا هي الأفضل في العالم. خذ الكلاشينكوف على سبيل المثال، الذي يمكن وضعه في الماء دون أن يحدث له شيء". عندما كان يحس بالملل، كان يجرب بندقية قنص على بعض القرويين الخارجين من فيدينو، ثم يضعها أرضاً، ويلتقط قنبلة يدوية، ويرميها خلف أحد قطعان الخراف التي ترعى في الحقل المجاور. كانت تلك الخراف تفرّ هاربة ومذعورة، ويتردد صدى الانفجارات في أنحاء التلال المليئة بالمياه.

سألت الضابط عن القدرة على تحقيق الانتصار في الشيشان. قال: "لا، لا أعتقد ذلك."

قاطع ألكسندر الحديث، وخيّم الصمت على الضابط، الذي لفت نظري إلى ملازم ثانٍ يجلس عبر الطاولة، ورمقني بنظرة تبريرية خائفة. قال ألكسندر: "يجب أن نقتل كل شيشانيٍ ليس معادياً لروسيا، ونرمي قنبلة ذرية على الباقين. لقد كان ذلك خطأ ستالين، وهو لم يفعل ذلك بالشكل الصحيح. إنهم أشخاص فظيعون". سألت ألكسندر عن السكان المحليين من أصل روسي الذين عانوا الأمرّين، وقال: "إنهم كلاب. لماذا أتوا للعيش هنا؟ أليس في روسيا متسع لهم؟ سأقتلهم جميعاً."

توقف المطر، وقدنا السيارة عبر فيدينو باتجاه شالي في السهول. كان هناك دوريات كل بضعة كيلومترات، بخليط من المجندين والضباط والمليشيا المتعاونة مع روسيا. كانوا جميعاً يرتدون ملابس قذرة ورقيقة.

في إحدى نقاط التفتيش، طلب أحد المجندين لفافة تبغ، وأعطيته علبة كاملة. لم يستوعب الأمر ونظر إليَّ، وأومأت برأسي، ورأيت لمعاناً في عينيه للمرة الأولى. قال: "نحصل على علبة كل أسبوع". وماذا عن الرسائل؟ "تأتي كل 20 - 40 يوماً. ولا نعرف أبداً ما إذا كانت الرسائل التي نرسلها تصل."

في نقطة تفتيش عند سيرزهين يورت، كان الجنود سكارى للغاية، ولم يستطيعوا السير إلى السيارة سوى بصعوبة بالغة. ترنّح أحد المجندين الشباب في طريقه إلينا، وقد خلع قميصه ومالت خوذته إلى الجانب. كان معه رجلٌ أكبر منه سنّاً، وهو أحد أفراد المليشيا الموالية للروس، كان منهاراً تماماً.
سألت عن سبب تطوعه للقتال، وتبين أن شظية قد أصابته. نظر إليَّ بجدّية مصطنعة، كما لو أنه يحاول البوح بسرّ خطير: "لديّ مشاكل خاصة في المنزل. ولكني أريد الخروج من هنا الآن."
تجاوزنا الغابات والتلال والسهول، وكانت نقطة تفتيش واحدة قبل شالي، حيث سنقضي الليلة إذا سمحوا لنا. كان الجنود سكارى جداً بحيث إنهم لم يستطيعوا الاقتراب من السيارة. خرجت وذهبت إلى المركبة العسكرية، حيث كان الجنود يجلسون في ظلها عاجزين عن الحراك.
قال نيكولاي: "بالطبع، سندعك تدخل". ثم راودته فكرة أخرى. "يجب أن لا أسمح لك بالدخول، لكني سأدعك إذا أخذتني لمكان أستطيع فيه شراء الفودكا لرفاقي."
أخبرناه بأننا سنأخذه إلى شالي، ونشتري الفودكا ونعود به إلى رفاقه. ركب نيكولاي في المقعد الأمامي مع بندقيته، وشرح لنا بكل حماسة أن فرقته قد ادّخرت نقوداً لشراء مسجّل كاسيت وأن "بعض الأغبياء قد أشعلوا النار فيه اليوم."
قال: "كنّا نستطيع سماع الموسيقى في موقعنا، وكنّا بحاجة لذلك. لسنا بحاجة للشيشان، وإنما للمسجل"، ولدهشتي الشديدة، بدأ بالبكاء بتنهد وتنشّج.
مسكين نيكولاي المحظوظ. في شالي، أحضر له بعض الشيشانيين زجاجتي فودكا، وعاد إلى نقطة التفتيش ليستمر في الشرب طوال الليل. أخبرنا أنه في 20 من العمر، وأنه من سيبيريا.
لن يعرف نيكولاي أبداً أن الرجال في شالي كانوا قادرين على سجنه، وأنهم يستطيعون الهروب بما فعلوه. من كان يعرف ما سيحدث؟ قال أحد الشيشانيين: "كان يجدر بنا الاحتفاظ به، ووضعه في القبو لبعض الوقت، وتحويله إلى عبد. لقد تركناه يذهب."

6. الانبعاث

الخطة الأساسية هي قتل دوداييف.
جوهر دودابيف في آخر مؤتمر صحفي عقده في آذار 1996،
قبل شهر من موته في غابات جنوب الشيشان.

كان الجنرال دودايف، الذي يطارده كل من الجيش وسلاح الطيران، في حركة دائمة، ويقود ثورته المجنونة دون كلل أو ملل، ويبدو أنيق المظهر. كان الطيّار السابق يمثّل بشاربه الجميل وبذلته السوفياتية الأنيقة قوة تحمّل الشيشانيين. لقد دفع هذا الرجل، الذي هيمن على الشيشان لخمس سنوات، بأمته نحو النار دون أن يتلظّى بحريقها، ومثل أي شخص آخر محط إعجاب من حوله، كان أنصار دودابيف يعتبرونه لا يُقهر.

سأل الصحفيون والسياسيون الروس عن سبب فشل المخابرات السرية والكثير من وحدات الكوماندوس في قتل دوداييف. بالمحصلة، استطاع الالتقاء بانتظام مع الصحفيين، وكان يظهر على شاشة التلفزيون الروسي. أفسح ذلك الفشل المجال لظهور نظرية مؤامرة بأن وزير الدفاع غراتشيف - أو مسؤولين كبار آخرين في موسكو - قد عقد نوعاً من الصفقة مع العدو الأول للشعب.

أثبتت التجربة أنه من الصعب على نخبة القوات البرية أن تقتل دودابيف. لقد تحوّلت محاولة نخبة القوات الأميركية *اعتقال* أمير الحرب الصومالي محمد فرح عيديد في مقديشو إلى مجزرة دموية عندما علقت المروحيات المقاتلة العالية التقنية ووحدات الكوماندوس في شبكة عيديد الدفاعية. كان الاقتراب من دودابيف يعني دخول الأراضي التي يسيطر عليها الثوار، والتي قد يكون فيها كل رجل، وامرأة وطفل إما جامع معلومات استخباراتية أو مقاتلاً. لم يكن بمقدور الغرباء التوغل

كثيراً، وكانت فكرة قيام نخبة من الجنود بالبحث عن رجل واحد في مثل تلك الظروف أشبه ما تكون بالأفلام السينمائية.

يمكن إلقاء القبض على دوداييف بنشر شبكة ضخمة من الجنود حول أرجاء الموقع الذي قد يتواجد فيه. ولكن القوات الروسية لم تكن مدربة بشكل كافٍ لمثل تلك العمليات، وهو ما أثبته هروب المقاتلين الشيشان المتكرر من بين أيديها. لم تكن محاولات ماكرة أخرى، مثل استخدام قناصين شيشانيين متخفين، لتنجح في اختراق دائرة أمن الحراس الشخصيين لدوداييف. رغم أن الصحفيين كانوا يستطيعون رؤيته، إلا أنه كان عليهم أولاً الانتقال من مكان إلى آخر مثل الإوز لمدة 24 ساعة، ومن قرية إلى قرية ومن منزل لآخر، قبل الوصول أخيراً إلى موقعه المحروس جيداً.

كانت أفضل طريقة لقتل دوداييف من الجو، وهو شيء مفهوم كلياً بالنسبة لجنرال سابق في سلاح الجو. كان الروس يعرفون أنه يعيش على خط القرى الممتد من روشني تشو إلى جيخي تشو، وكانوا يستطيعون تتبع تحركاته بمساعدة الجواسيس وطائرات الاستطلاع المتطورة. رغم أن دوداييف كان حذراً، إلا أنه لم يجلس في الخنادق أو الملاجئ. كان شخصاً فخوراً بنفسه وتهكّميا، ولم يكن يستطيع تشويه صورته بإظهار الخوف. جرت محاولات عديدة لقتل دوداييف، بما فيها القيام بغارة جوية على قرية روشني تشو، والتي أودت بحياة 27 شخصاً (أحدهم الحارس الشخصي لدوداييف)، ولكنها أخطأت دوداييف، لأنه لم يكن موجوداً كما كان متوقعاً.

كان دوداييف سيد المواجهات دائماً، وكان يعرف حقيقة أن قدره محتوم، ورغم كونه عضواً في الحزب الشيوعي وبعدها في الجيش الروسي، إلا أنه كان يتكلم آنذاك عن يوم القيامة. في مؤتمره الصحفي الأخير، قال إن لديه معلومات استخباراتية عن قيام الرئيس يلتسن شخصياً بإصدار أمر باغتياله.

بعد شهر، أعلنت القيادة الانفصالية موت دوداييف، حيث قتل بصاروخ القوى الجوية الروسية. فاجأ ذلك الخبر كلا الطرفين. هل استطاعت موسكو أخيراً، بعدما حاولت بشتّى السبل إحراز النصر في الحرب، وتخليص نفسها من مشكلة الانتخابات القادمة، أن توجه له الضربة القاضية؟

عقد مجلس دفاع الثوار - الذي يضم صفوة القادة الميدانيين والسياسيين - اجتماعاً سريًّا للغاية وعين نائب الرئيس زليمخان ياندربابيف خليفةً له. كانت موسكو تأمل بأن لا يستطيع هذا الرجل غير المعروف نسبياً لمّ شمل حركة الانفصاليين. وقال دوكو زافغاييف: لا يمتلك زليمخان ياندربابيف أي سلطة حقيقية، ولا يستحق الحديث إليه". أعلنت تقارير خاطئة أن زليمخان ياندربابيف مات في إطلاق نار مع رجاله.

مرة أخرى، خاب أمل الروس. وجاء أمراء الحرب والقادة مثل شامل باساييف وأصلان مسخادوف واحداً تلو الآخر وأقسموا الولاء للرئيس الجديد. ولم يكن هؤلاء القادة يفعلون ذلك لأسباب شخصية، ولكن لأجل حقيقة بسيطة وهي أن الدستور الشيشاني ينص على أن نائب الرئيس يحل محل الرئيس بشكل تلقائي في حال وفاته. لقد كان ذلك تقيداً حرفياً بالبيروقراطية، وطريقة المتمردين لإخبار العالم أنهم لم يكونوا قطاع طرق كما كانت تصورهم الدعاية الروسية، ولكنهم قوة منظمة شرعية تقاتل لنيل الاستقلال كما كان دوداييف يقول دائماً. تحوّل ما كانت تعتبره روسيا أعقد مشاكل الانفصاليين الشيشانيين إلى عرض للقوة السياسية.

قال خونكار باشا إزرابيلوف، وهو قائد القطّاع الشرقي: "إنها خسارة فادحة بالطبع، كان جوهر رمز الحرية بالنسبة لنا وسيبقى كذلك. لكن الذين يعتقدون أننا سنستسلم بعد موت رئيسنا هم على خطأ. وإذا كان تعيين رئيسنا الجديد قد تمّ وفقاً للدستور، سيكون عندها قائدي الأعلى وسأنفّذ أوامره

حرفياً. لا يهمنا إذا كان الآخرون لا يعترفون بدولتنا. بشكل عام، نحن أيضاً نرفض الاعتراف ببعض الدول بما فيها روسيا".

كانت خلفية ياندربابيف متناقضة تماماً مع خلفية دوداييف. كان يضع ربطة عنق حمراء، ويرتدي قبعة باباخا رمادية مع بدلة مموهة، وكان كاتباً سابقاً ومنظّرا للانفصاليين، وليس بويفكس أو ضابط جيش. خلال الحرب، لم يشارك في القتال وبقي في القصر الرئاسي في غروزني حتى النهاية، ولم يهرب من الجمهورية كما فعل أعضاء آخرون في الحكومة. كان من بين الأوائل الذين ثاروا ضد الحكومة السوفياتية بقيادة زافغاييف، والذين تمّ سجنهم لاحقاً.

كانت سمعة ياندربابيف بأنه قومي متشدد. في قصيدته روسيا، كتب عن: "سيف العبيد وعن القوى القذرة، وفوضى الانتماء للكثير من الشعوب التي تنتشر كالطاعون". لكنه فاجأ الناس في أول مؤتمر صحفي له بالرئيس ياندربابيف المرن والدبلوماسي مقارنة بسلفه.

قال إن المحادثات بشأن استقلال الشيشان يمكن أن تتحّى جانباً "حتى تاريخ لاحق"، وأنه رغم اغتيال دوداييف، إلا أنه مستعد لمفاوضات فورية: "أنا على استعداد للتفاوض مع زعمائهم - الرئيس ورئيس الوزراء، وللتفاوض مع وزرائهم العاديين، لدينا وزراؤنا العاديون".

هذا ما حدث بالضبط بعد أربعة أسابيع، مما أثار دهشة الجميع، حيث سافر ياندربابيف رئيس الشيشان إلى موسكو واجتمع بالرئيس يلتسن ورئيس الوزراء تشيرنوميردن في الكرملين. للمرة الأولى منذ بداية أزمة الشيشان سنة 1991، وافق يلتسن على إجراء محادثات مباشرة.

"هو لم يمت في عقولنا، وقد ذهب مباشرة إلى الجنة. نحن فخورون بأنه كان لدينا رئيس مثله لا يتراجع أبدا. إنها خسارة كبيرة، ولكنها ليست أكثر من ذلك. ولكل شخص وقت محدد. وليس المهم متى تموت، ولكن كيف."

شامل باساييف معلقاً على موت جوهر دوداييف.

رفض الكثير من الناس تصديق الأنباء، وسواء كان محبوباً أو مكروهاً، كان دوداييف يبدو منيعاً عن الأذى، ولم ترَ العامة جثة ولا قبراً ولا صوراً. في البداية، لم يكن هناك سوى كلمات كبار فقط. أصابت بعض مناصريه حالة من الهستيريا، أو حمّى نهاية القرن، والمرتبطة بنظريات المؤامرة السياسية والأساطير الدينية، حيث كانوا يحاولون شرح المستحيل. وقال رسلان، المقاتل الشاب في التلال، بابتسامة عريضة وماكرة على وجهه: "لقد كذبوا عليكم. إنه ليس ميتاً. إنه بأمان".

إذا كان اختفاء دوداييف جزءاً من مؤامرة، فقد أبدت القيادة الانفصالية قدرة غير إنسانية على سرد تلك القصة وعدم البوح بالأسرار. لكن رواية حكومة الثوار الرسمية لم تتغير. وخلال ليلة 21 - 22 نيسان، خرج دوداييف لإجراء اتصال هاتفي فضائي. وقاد سيارة الجيب *نيفا* بمواكبة حراسه الشخصيين إلى غابات جيخي تشو، وتوقّف عند أخدود صغير، وفعّل هاتفه، واتصل بصديق له في موسكو، عضو البرلمان قسطنطين بوروفي لمناقشة فرص استئناف محادثات السلام. قالت صحيفة إشكيريا السرّية: "بعد تحديد مصدر الإشارة، أطلقت طائرة حربية روسية صاروخ جو - أرض أصاب هدفه بدقة. لم يكن الهجوم بالصاروخ نتيجة لغارة جوية، بل محاولة اغتيال باستخدام "نظام توجيه فضائي، والذي لا يتوافر لدى الروس وإنما لدى بعض الدول الغربية". أصيب دوداييف بجروح بليغة، فيما مات ممثله في موسكو خاماد كوربانوف وسمسار السلاح ماجومد جاناييف على الفور.

قال ثائر شيشاني شاب في جيخي تشو، والذي رفض ذكر اسمه، إنه ذهب إلى أرض الحدث مباشرة بعد وقوع الغارة الجوية وأنه رأى كل شيء. "كان الرئيس منشغلاً في نقاش طويل. وكان يقف مع كوربانوف والسمسار. كان الآخرون، أي الحراس، يقفون على مسافة بعيدة بشكل دائرة.

ولم يصب إلا واحد منهم بجروح طفيفة، وعندما انفجر الصاروخ، طارت السيارة لمسافة 15 متراً. وأصيب الرئيس في رأسه وذراعه اليسرى وساقه اليمنى. بقي على قيد الحياة لبرهة تكفي لقول بعض الكلمات: "استمروا في القتال حتى النهاية". لقد انتشلت الجثتين الأخريين بنفسي.

أقسم شامل باساييف على القرآن بأن ذلك صحيح، وهو ما كان كافياً لإقناع زملائه من القادة، ولكنه لم يكن كافياً لإقناع الناس العاديين. لم يرَ أحد الجثّة، كما أن موقع القبر بقي سريًّا للغاية لمنع الروس من تدنيسه. حتى أخ دوداييف، المدعو باسخان لم يحضر الجنازة. قال في منزله في غروزني حيث كان الناس يتلون القرآن: "نزل بعض الناس من الجبال إلى غروزني وأخبروني أن جوهر قد مات، وتمّ دفنه".

ما حدث في غابات جيخي تشو أكيد، لأن آثار الانفجار بادية في الأخدود. يوجد هناك قطع من سيارة نيفا، وإطار محروق، وأجزاء من لوحة القيادة مبعثرةً على مسافة عشرات الأمتار. في المستشفى أوروس مارتان القريبة، أشارت التقارير أن أحد حراس دوداييف الشخصيين قد أصيب بشظية في يوم الانفجار، ويمكن الاستنتاج بأن آثار الانفجار لم تكن ملفقّة وأن انفجاراً قد وقع، وإذا كان الحراس الشخصيون هناك فلا بد أن دوداييف كان هناك أيضاً.

لكن من دبّر الانفجار، وكيف؟

تبدو قصة افتضاح أمر دوداييف من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصنعية مذهلة، ولكنها معقولة. تستطيع طائرة إيليوشن - 76 التقاط الإشارات المنبعثة من الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصنعية وتوجيه مقاتلة نفاثة من طراز سوخوي - 25 إلى الهدف. كان ردّ فعل الروس الأولي حول موت عدوهم مزيجاً من الحيرة والصمت، كأنهم لم يتوقعوا ذلك. رفض الجيش التأكيد بأنه استهدف دوداييف، وقال إن طيرانه الحربي قصف المنطقة تلك الليلة مستهدفاً "قواعد المقاتلين". وقال الرئيس يلتسن: "إننا نتحقق من المعلومات"، وقال مستشاره لشؤون الشيشان إميل بين: "لم يكن بمقدور القادة الروس إعطاء هذا الأمر".

جاء تأكيد آخر من قبل وزارة الخارجية الأميركية، والتي أصدرت - وبشكل مثير للاستغراب - تصريحاً يؤكّد الحادثة. وقال مصدر مجهول في واشنطن أنه "واثق" من موت دوداييف. في وقت سابق من تلك السنة، صرّح الرئيس كلينتون بأنه سيقوم بمساعدة الروس للتخلص من مشكلتهم في الشيشان، ولكنه لم يفسر إطلاقاً ما كان يعنيه بذلك. أثار ذلك نظريات عن قيام واشنطن بتزويد موسكو بأقمار تجسس صنعية عالية الدقة.

"ماذا حدث؟ هل اغتال الروس دوداييف أم رجاله أنفسهم؟ هل مات في غارة جوية عابرة؟ هل هرب من الشيشان، أم أنه تعرض للإصابة وتمّ نقله إلى تركيا، فيما يدّعي رجاله أنه ميت لتضليل الجواسيس الروس؟" وازداد اللغز غموضاً عندما غادرت آلاء، زوجة دوداييف المولودة في روسيا، الشيشان إلى *بلد إسلامي*، والذي كان بمثابة المنفى الذي دبّرته موسكو لقاء ظهورها المؤثّر على شاشات التلفزة الروسية ودعوتها الناخبين لدعم يلتسن في الانتخابات الرئاسية في حزيران. هل من الممكن أن يعود دوداييف، الذي تمّ إعلان موته، كما عاد الإمام شامل بعدما اعتقد الجميع أنه مات في معركة جيمري؟

بعد سنة من الحرب، كان الناس لا يزالون يطرحون الأسئلة. تمّ وضع نصب تذكاري - مجموعة حجارة بسيطة - في موقع الانفجار، ولكن مكان القبر لا يزال مجهولاً بالنسبة للعامة. كان السبب الذي أعطته كل من الحكومة والأقارب، نفسه: يمكن للأعداء الداخليين أو الخارجيين أن ينتهكوا حرمة القبر. استمر بعض الشيشانيين يقولون بنظرية المؤامرة، وأن دوداييف انتقل إلى

خارج البلد. أثارت حقيقة عدم دعوة أخيه لحضور مراسم الجنازة استياء الكثير من الشيشانيين. قدّم لي باساييف جواباً قاسياً ومقنعاً في نفس الوقت لهذه المسألة بأن الجنازة حدثت بشكل سري في 23 نيسان، وهكذا "لا يستطيع الروس دسّ أنوفهم فيها". تمّ تجاهل الأخ، الذي عاش في غروزني ولم يحمل في حياته سلاحاً، بكل بساطة. وقال باساييف بغضب: "نحن أقرب لدوداييف من أخيه، ونحن الذين قاتلنا إلى جانبه"، واستمر الخلاف.

يقول معظم الشيشانيين إنه من المستحيل أن يتمّ اغتيال دوداييف من قبل أبناء شعبه؛ تلك الجريمة ستكون ضد كل العادات والتقاليد. لكن لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال. كان الجميع يعرفون أنه مع اقتراب الانتخابات في ربيع سنة 1996 سيبحث الروس عن طرق لإنهاء الحرب، دون أن يعني ذلك موافقة الكرملين على إجراء مباحثات مباشرة مع دوداييف. في شهر آذار من تلك السنة، هدّد دوداييف بشن عمليات في روسيا، وسخر من محاولات يلتسن المتخبطة السيطرة على الصقور والدخول في عملية سلام. كانت الشيشان مستعدة لمواصلة الحرب لأنه لم يكن لديها شيء تخسره. قال دوداييف: "نحن مهتمون بمواصلة الحرب أكثر من روسيا، لأنه ماذا بقي لدينا؟ اقتصاد محطّم، وصناعة وإنتاج متوقفان". كانت فرصة الشيشانيين الوحيدة للالتقاء مع يلتسن - والذين لطالما اعتقدوا أنها مجرد خدعة كبيرة - هي في تغيير القيادة. ظهرت هذه الحقيقة من خلال الإعلام بعد فترة قصيرة من استلام ياندرباييف، وتبين أن المحادثات مع الكرملين التي طال انتظارها ستتمّ أخيراً.

في النهاية، جاءت الرواية الرسمية - الروس قصفوا دوداييف، وتمّ دفنه في مكان سري - مثل سابقتها. كانت الروايات الأخرى تعني أن عدداً كبيراً من الأشخاص مثل شامل باساييف، وبعض الأقارب، إضافة لبعض الضباط ذوي الرتب العليا يتسترون على رفيق سلاحهم، ويخدعون الناس العاديين في جنوب الشيشان الذين شهدوا العزاء الذي امتد لثلاثة أيام.

لكنّ المؤمنين بنظرية المؤامرة لن يقتنعوا أبداً حتى يروا الجثّة أمامهم. في الشيشان، أصبحت التوقعات عن ظهور دوداييف جزءاً من أسطورة الحرب. في 1 آب سنة 1996، أشارت صحيفة غروزني إلى أن دوداييف على وشك الظهور مجدداً في الشيشان. لكنه لم يظهر، ولم يثنِ ذلك من عزيمة الآخرين. كان الإعلان يتكرر مرة كل بضعة أسابيع، ودائماً مع تحديد مواعيد دقيقة. أصرّ رئيس الاستخبارات الروسية الجديد نيكولاي كوفاليف على أن دوداييف ميت، ولكنه كان مؤمناً بنظرية المؤامرة أيضاً. حذّر من أن الشيشانيين كانوا يحاولون تحضير بديل له.

لعل أغرب ما جاء بعد اختفاء دوداييف هو المؤتمر الصحفي الذي عقدته زوجته بعد بضعة أيام في منزل في جيخي تشو. كانت آلاء، الروسية المتزوجة من قائد التحرير الشيشاني، محاطة لمدة سنة ونصف بالشيشانيين الشباب الذين يقتلون الروس الشباب. لم تكن تقابل أشخاصاً غرباء إلا نادراً، ومعروف عنها بأنها تنظم قصائد وترسم لوحات رديئة. لكن بالنسبة للصحفيين، كانت آلاء مصدراً رئيسياً للمعلومات، والزوجة التي تستطيع أن تحل اللغز، وتخبرنا كيف مات دوداييف. جلست آلاء على مقعد بين مقاتلين بالزي الرئاسي المكوّن من المعاطف وسراويل الجينز السوداء، مع علم أسود على الجدار خلفها، وفي الحال، بدأت بإلقاء إحدى قصائدها. ولم يستطع الكثير من الصحفيين - الذين لم يتمّ السماح سوى للأجانب منهم بحضور المؤتمر - فهم تلك القصيدة حتى أعدنا تشغيل الشريط مرّة أخرى:

عندما أموت وقد خانني صديق،
مرّة أخرى لا تحكم عليّ؛ فأنا أؤمن بالحب.
وعندما أفشل في رؤية الغدر والشر

لا تحكم عليّ؛ قلبي نظيف.
عندما تتعلق عيناي بطبقة من الأرض
عندها سيحكم عليكم الله؛ ويمكنكم أن تحكموا عليّ

وضعت آلاء وجهها بين يديها، وبكت مما جعل متابعة القصيدة أمراً صعباً، ولم تكن قادرة على الكلام بصوتها الناعم والحاد. كانت تلك صورة امرأة في يأسها الشديد.

بعد الانتهاء من القراءة، أعلنت آلاء بأنها أخذت على عاتقها القيام بزيارة سلمية لرئيس الوزراء تشيرنوميردن. قالت إنها ستكون المرأة القوقازية الأسطورية التي ستوقف القتال برمي وشاح أبيض بين المتقاتلين. نظر الصحفيون إلى بعضهم في الغرفة بمزيج من عدم التصديق ونفاد الصبر.

في النهاية، أعلن أحد الحرّاس بأنه يمكننا طرح الأسئلة. وقال متذمراً: "لا أسئلة سياسية".

"هل كنتِ موجودةً عندما مات جوهر؟".

انتظر الجميع، واستعدّت الأقلام لأن هذه ستكون رواية شاهد عيان.

غروان. قصيدة أخرى، ما عدا أنها لم تستمر طويلاً. وقرأت "آلاء" سطرين، ووضعت يديها على وجهها واندفعت خارج الغرفة، وتركتنا في صمت مطبق، ودفاترنا تقريباً خالية.

قبل أن يتفوه أحد بكلمة، انفتح باب الغرفة المجاورة بقوة، وخرجت منه آلاء محاطة بالحرّاس، واندفعت بسرعة إلى الباحة، واختفت في سيارة فولغا رمادية، والتي انحدرت على طريق القرية الترابي.

شعرت كما لو أنني أشاهد مسرحية عبثية، وأزعجني أحد التفاصيل أكثر من أي شيء آخر في ذلك الأسبوع؛ رغم بكائها ونواحها، لم تبكِ آلاء وقد كنت جالساً على بعد مترين وأستطيع أن أرى بوضوح. ولا حتى دمعة واحدة.

موسكو

اعتدى بعض الشيشانيين على سلمان رادوييف في كمين على الطريق في آذار عام 1995 - وأشارت التقارير إلى مقتله. تقول الرواية إنهم نالوا منه من أجل فشل الهجوم على داغستان. وشعر الروس بالراحة.

في تموز، ظهر رجل ملتح يرتدي نظارات شمسية كبيرة على التلفاز الروسي، وقال إنه سلمان رادوييف. في البداية، قال الروس إن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقياً. في الحقيقة، لم يكن الوجه سليماً تماماً، فقد تعرّض للتشويه، وظهرت عليه آثار عملية جراحية. لكن لم يكن هناك خطأ في صوته الرفيع. عاد سلمان من الموت حقاً، أو على الأقل عاد بعد إجرائه لمجموعة من العمليات الجراحية في الخارج.

كان هناك صدمة أكبر: جوهر دوداييف حي يرزق كما قال رادوييف. لقد نجا من الهجوم بالصواريخ، وهو يتلقى العلاج الآن في الخارج، وأقسم رادوييف بهذا على القرآن.

شخصية رادوييف غريبة بلا شك. يقال إن معركة بيرفوميسكوي قد أصابته بلوثة في عقله. لقد أرعبني عندما اجتمعت به في نفس المنزل الآمن بعد هروبه، واستمر في ترديد نكتة واحدة في كل مرّة كان يراني فيها. سيباستيان باه، سيباستيان باه. اكتشفت لاحقاً أنه قد يكون الموسيقار سيباستيان باخ - باه كلمة روسية يستخدمها الأطفال الروس عندما يتظاهرون بإطلاق النار.

جعلته محاولة الاغتيال والعمليات الجراحية مخيفاً أكثر. كان وجهه مشوهاً ولكن ليس ثيابه. قبل ذلك، كان يرتدي بذلة عسكرية عادية، فيما أصبح الآن يرتدي زيًّا عسكرياً خاصاً مع أوسمة، مثل ثياب من تصميم فيرزاتشي، **إنه يسافر مع حوالى 40 حارساً شخصيًّا قساة للغاية، وأضحى شكله غريباً لمعظم الناس، ولكن هناك من يصدّق دائماً ما يقوله. سيبقى رادوييف دائماً، الرجل الذي عاد من الموت، الرجل الذي قال إنه يعرف ما حصل لجوهر.**

في 27 أيار، أي قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات الرئاسية الروسية، غادر كلٌّ من زليمخان ياندرباييف وموفلادي أودوغوف والممثل الذي تحوّل إلى قائد أحمد زكييف إلى الكرملين. هذا ما

أراده الشيشانيون دائماً. كان هناك شعور ساذج بأن يلتسن لا يعرف الحقيقة، وأنه حالما يلتقي بهم سيحاول أن يفهم.

أقله على الورق، لم يفاوض الشيشانيون من منطلق قوة، وغداة محادثات الكرملين، استطاع الروس أخيراً الاستيلاء على ستاري أتشكوي وأوراخوفو وحتى باموت رمز المقاومة العظيم. كان القصف الذي قامت به طائرات توبولوف وسوخوي على مدار أسبوع ثقيلاً جدًّا، مما أدّى إلى تحطّم النوافذ في بلدة تبعد 10 كيلومترات، وتصاعد الدخان من السفوح المغطاة بالغابات. كالعادة، تراجع الشيشان إلى الغابات عندما نفدت الذخيرة منهم، وبقي معظم رجالهم أحياء، ولكن الاستيلاء على باموت كان صدمة نفسية كبيرة. تعرّضت ستاري أتشكوي، التي كانت قرية صغيرة، للقصف العنيف بحيث ارتفعت الأنقاض إلى حدّ الخصر في معظم الشوارع. أصبح التعرّف على معالم أوراخوفو مستحيلاً. قال لي موفلادي شابابيف، أحد مقاتلي البويفكس الذي نجا من ستاري أتشكوي لاحقاً أن 40 رجلاً فقط كانوا يدافعون عن القرية عند الهجوم الروسي النهائي، وقد مات 18 منهم.

كان الشيشانيون يمتلكون بطاقة قوية واحدة: إن يلتسن، الساعي لإنهاء الحرب قبل يوم الانتخابات الذي يصادف في 16 حزيران، سيكون مستعدًّا للتفاوض، وقد وصف بنفسه الحرب بأنها كانت خطأً فادحاً، وأنه لا يمكن أن ينجح بإعادة انتخابه إذا لم تنتهِ.

كان هناك أمل حقيقي في أوساط الناس العاديين. اصطفت الحشود المبتهجة على طول الطرقات عند نزول موكب ياندرباييف من الجبال إلى مطار أنغوشيا. سار ياندرباييف، الشيشاني النموذجي، عبر الجمهورية في سيارة ليموزين **زيل** سوداء، وهي من الآثار الباقية من أيام دوداييف، والتي كان يعلوها الغبار رغم أنها كانت سليمة. كان باقي الموكب عبارة عن سيرك من الأبواق الصادحة، وهتافات "الله أكبر!"، والمقاتلين الذين يخرجون من سيارات الجيب ملوحين بعلم الثورة. تمركزت القوات الروسية على طول الطريق، وراقبت بصمت. كان ذلك هو الهدف من وراء كل هجماتهم؛ اللقاء مع يلتسن.

بعد محادثات مختصرة، وقّع ياندرباييف ورئيس الوزراء تشيرنوميردن على مذكّرة تعلن وقف إطلاق النار لمدة أسبوع. وصرّح يلتسن: "تمّ حل المشكلة الرئيسية للسلام في الشيشان". لكن كما أظهرت الصور التلفزيونية لاجتماع الكرملين، لم يكن هناك سوى أمل ضعيف بالسلام الحقيقي.

ألقى يلتسن التحية على ياندرباييف بازدراء، ووبّخه لحضوره "متأخراً ساعتين ونصف"، وقال: "لم يجرؤ أحد على التأخر عن لقاء الرئيس، حتى لخمس دقائق فقط". ثم جلس الرئيس الروسي إلى طاولة طويلة، وأصرّ على جلوس وفد ياندرباييف إلى يساره، ووفد تشيرنوميردن، الذي يتضمن دوكو زافغاييف إلى يمينه. كان يلتسن يريد تقديم نفسه كوسيط في قضية روسية داخلية.

اعترض ياندرباييف، وهدد بترك الاجتماع. كرّر يلتسن عدة مرّات بصوت مدير مدرسة غاضب: "اجلِس، اجلس". في النهاية، عاد ياندرباييف أدراجه وجلس يلتسن قبالته، كما لو أنه شريك كامل. أجبر زافغاييف على الجلوس في آخر وفد المسؤولين الروس. هذا ما أرضى كبرياء الانفصاليين الشيشان، ولكن الأجواء كانت متوتّرة.

لدى النظر إلى الشيشانيين بملابسهم المموهة، وبينهم أحمد زكييف الذي كان يضع عمامة سوداء على رأسه، على أحد جانبي الطاولة، والروس الأنيقين على الجانب الآخر؛ يعتقد المرء أنهم لن يفترقوا بعد ذلك. لم يكن هناك حوار، وإنما مجرد الصوت السابق للانتخابات لدى يلتسن، وكرم الضيافة لدى الشيشانيين. تحدّث يلتسن وياندرباييف إلى بعضهما البعض، وقاطع أودوغوف يلتسن ليسأل بفظاظة: "هل تعلم ما الذي يجري؟" وعرض تزويده بأشرطة فيديو عن الرعب.

لكن فوق كل شيء، كانت الجلسة حيلة دعائية ماكرة لصالح يلتسن، ورغم أنه كان يتحدث إلى قطّاع طرق، إلا أنه كان يتحدث بقسوة. كان لديه حيلة أخرى، فبعد يوم من محادثات الكرملين، وبينما كان القادة الشيشان لا يزالون في موسكو كرهائن بشكل غير علني، ذهب يلتسن سرًّا إلى الشيشان في أول زيارة له منذ بداية الحرب.

ذهب يلتسن، الذي استخدم إحدى المروحيات العسكرية، إلى برافوبيريزنايا، وهي قرية في شمال الشيشان لم تشهد قتالاً قط، وكان معظم سكانها تقريباً من أصل روسي أو من الشيشانيين الرافضين للاستقلال، ثم حطّ في إحدى القواعد العسكرية في غروزني وأخبر الجنود: "انتهت الحرب، لقد ربحتم". في غضون أربع ساعات،كان يلتسن في طريقه عائداً إلى الوطن، ولم يقابل ضحية حرب واحدة أو حتى أحد سكان غروزني، ومن الجائز تماماً أنه لم يرَ المباني المهدّمة في طريق عودته بالمروحية. لكن لم يأتِ التلفاز الوطني بذكر أيٍ من ذلك. رأى جميع المشاهدين صور يلتسن في الشيشان، وكان ذلك يعني كما قال هو: "أن الشيشان جزء من الفدرالية الروسية وليست

خارجها". استطاع يلتسن أن يقول آنذاك إنه لم يسمع "طلقة واحدة" وهو ما يعني أن الحرب انتهت. "لقد حلّ السلام، ليس فقط على الورق وإنما على الأرض".

رغم ذلك، كان لدى الشيشانيين بعض الأمل، وجرت جولة كاملة من المفاوضات بين الجانبين لمتابعة محادثات الكرملين في نازران في أنغوشيا. في 10 حزيران، قبل ستة أيام من الإعلان عن نتائج الانتخابات بين يلتسن وخصمه المنافس الشيوعي غينادي زيوغانوف، تمّ التوقيع على اتفاقية جديدة لنزع السلاح وانسحاب القوات. كان المجتمع الدولي ينظر إلى تلك الاتفاقية على أنها فرصة أفضل من صفقة سنة 1995.

شهدت الجولة الأولى من الانتخابات منافسة قوية، وتقدّم يلتسن بنسبة ثلاثة بالمئة فقط من الأصوات على زيوغانوف، مما أجبره على خوض جولة ثانية حاسمة في 3 تموز. استمر يلتسن، الذي كان عليه القتال من أجل إعادة انتخابه، في عملية السلام، وحصل أحد أشد المنتقدين للحرب، وهو الجنرال المتقاعد ألكسندر ليبيد على المركز الثالث بشكل ملفت للانتباه في الجولة الأولى. قام يلتسن بتعيين ليبيد مستشاراً أعلى للأمن القومي. وعزل العديد من مؤيدي الحرب مثل وزير الدفاع بافل غراتشيف، ورئيس الحرس الخاص في الكرملين ألكسندر كورزاكوف، ورئيس الاستخبارات السرية أولغ سوسكوفتس وسكرتير مجلس الأمن القومي أوليغ لوبوف.

بعد وقت قصير، هزم يلتسن خصمه زيوغانوف وربح الجولة الثانية في 3 تموز، وأصبح واضحاً بأن عملية السلام ستشهد تراجعاً. رغم طرد صقور مجموعة الحرب، لم يكن هناك أحد يستطيع التراجع عمّا فعلوه. منذ البداية، كان على الكرملين إما الاستمرار في قتال الشيشانيين أو الاعتراف بأنه ارتكب خطأً فادحاً والتوقف؛ وبكلمات أخرى، الإقرار بالهزيمة. ازدهر منطق الحرب بدرجة أكبر آنذاك، ورفعت إعادة انتخاب يلتسن أي ضغوط عن الدخول في المفاوضات. إضافة لهذا، عانى الرئيس البالغ من العمر 65 عاماً من أزمة قلبية بين الجولتين الانتخابيتين، وبدأ الفترة الرئاسية الثانية بعجز، مما أغرق الكرملين مجدداً بفراغ سياسي. عندها حانت فرصة الصقور الأخيرة.

قال الجنرال فلاديمير شامانوف، قائد قوات الدفاع الروسية في الشيشان في 11 تموز، وبعد أسبوع واحد فقط من فوز يلتسن، وبعد شهر من معاهدة أنغوشيا للسلام: "سندمّر جميع معاقل مقاومة قطّاع الطرق. يجب أن نشنّ حملةً ضاريةً ضد هؤلاء الأوغاد في كل المجالات: العسكرية والسياسية والاقتصادية وفي وسائل الإعلام". كمثال على انتشار *قطّاع الطرق* في روسيا، استشهد شامانوف بالعديد من التفجيرات التي جرت آنذاك في موسكو، على الرغم من عدم وجود أي دليل على أن الشيشانيين قاموا بذلك العمل.

تحرّكت الآلة العسكرية للقيام بهجوم عسكري كبير آخر. حلّقت موجة بعد أخرى من الطائرات والمروحيات جنوباً لقصف وتفجير القرى الجبلية. تحرّكت قوات المشاة مع الدبابات والمدفعية بسرعة في الوديان، واستولت بالتدريج على كل قرية من دارغو حتى فيدينو، وأجبرت الشيشانيين على التراجع عدة مرات. في السهول، هاجمت القوات الروسية قرية جيخي الكبيرة بعد قصف مدفعي شديد دمّر منزلاً من كل عشرة فيها، وقتلت القوات الروسية القائد واحتفظت بجثته للمطالبة بفدية.

ربما كانت الغارات الجوية على الجبال هي الأعنف ضد القرى التي بقي سكانها المدنيون فيها. كانت القيادة الكاملة للثوار، بمن فيهم ياندربابيف ومسخادوف على وشك الزوال من الوجود حين خرجوا من ميخيتي بالقرب من فيدينو، والتي حاصرتها القوات البرية، وتعرضت للقصف من

الجو، ولسخرية القدر، كان الشيشانيون يلتقون هناك مع ممثل أرسله ليبيد للحديث عن مفاوضات سلام جديدة. قالت التقارير الروسية إنه تمّ التقاط صور لذلك المبعوث وهو يصرخ خلال الغارة الجوية: "ألا يعرف ليبيد عن هذا! إنه كابوس! ليمهلنا ثلاثة أيام، وسنوقف هذه الحرب". لم يكن هناك أحد يستمع له.

حتى تشيرنوميردن، الذي دعا سابقاً إلى إيجاد حل عن طريق التفاوض، ألقى اللوم على الشيشانيين لبدئهم جولة جديدة من الحرب، ولدهشة الجميع، فعل الشيء نفسه ليبيد الذي التقى القائد العام للقوات العسكرية في الشيشان، زميله القديم الجنرال فاتشسلاف تيكوميروف عشية الهجوم الجديد، ووفقاً لليبيد، كان تيكوميروف يتخذ "الإجراء المناسب".

كان الهجوم مذهلاً، ورغم الفساد وعدم المبالاة في الماضي إلا أنني بدأت أتساءل فيما إذا كان الروس سيحققون غايتهم في النهاية. أصدر الشيشانيون بياناً قالوا فيه: "للأسف علينا أن نشير إلى أن روسيا التي تدّعي بأنها قوة عالمية وأن شعبها الذي يدّعي بأنه عظيم، لا تحافظ على كلمتها". وصوّت الثوار لصالح المقاومة، وقالوا إن "الجانب الشيشاني كان مجبراً على تنظيم المقاومة"، ولكن تحت رحمة الطيران والتقدم المفاجئ لآلاف القوات، لم يكن بمقدورهم فعل الكثير.

قاوم زافغاييف حتى النهاية وقف إطلاق النار بشكل حقيقي، وجاء إلى موسكو وأصرّ على أنه لم يكن هناك هجوم على وطنه، وقال لمجموعة من النازحين الشيشان في العاصمة الروسية: "أستطيع بالسلطة المخوّلة لي أن أعلن أنه لم تسقط قنبلة واحدة، ولم يتمّ إطلاق أي رصاصة في الأيام الثمانية الماضية في الشيشان".

اعتقدت في ذلك الوقت أن ذلك ليس سوى فصل آخر في عملية التغطية التي استمرت طوال العشرين شهراً الماضية، وهي الدعاية التي ساعدت زافغاييف في الحفاظ على منصبه واستمرار الحرب. لكني أدركت لاحقاً بأنني شهدت لحظة تاريخية؛ الظهور الأخير للإمبراطور دون ملابس.

في غفلة من زافغاييف، والقوى التي دعمته للوصول إلى السلطة وكل مفاوضي السلام المصطنعين، كان الشيشانيون في تلك اللحظة ينظفون أسلحتهم ويتلون صلواتهم تحضيراً للحدث الأخير والأكثر إدهاشاً في الحرب؛ استعادة السيطرة على غروزني.

7. العودة إلى الوطن

"تمّ إجبارنا على الانسحاب منذ سنة ونصف. وحان الآن وقت الهجوم المعاكس. إننا نحرر مدينتنا من الاحتلال الروسي."

أحمد زوباراييف مقاتل شيشاني في غروزني 1996.

في الموقع الروسي القريب من معمل التعليب القديم، على الحافة الشمالية لغروزني، كان المسؤول في وزارة الداخلية على وشك الانهيار. لقد كانت الفوضى عارمة في القاعدة العسكرية، والخنادق تتلوى عبر العشب الطويل، والحواجز الإسمنتية مهملة، مع أكياس رمل، ومبنى صغير. بدا المكان مهجوراً، حتى أدركنا أن الجنود كانوا يجلسون في حفرهم الآمنة، حتى أنهم كادوا يصبحون جزءاً من الأرض. على أحد الجوانب، كان يمكن رؤية الحقول الخالية، وعلى الجانب الآخر توجد المدينة التي يعلو فيها ضجيج المعارك.

خرج الملازم وهو يحمل جهازاً لاسلكياً بإحدى يديه، وبندقية كلاشينكوف في الأخرى، وقد لوّحت الشمس بشرته، واتسخت ملابسه. كان يرتدي بذلة فضفاضة وقميصاً مموهاً بأكمام قصيرة، وكان مزاجه سيئاً. قال لي ولرفاقي من تلفزيون دبليو تي إن، ووكالة أنباء إي إف إي وإذاعة الحرية، بعد أن نزلنا من سيارة لاندروفر بيضاء مصفحة: "اذهبوا من هنا. يوجد قتال هنا، ألا

ترون؟ اذهبوا، ولا تصوروا شيئاً وإلا حطمت آلة التصوير". حاولنا الدخول في نقاش مع الضابط لنغيّر موقفه، ولكننا كنا قد وصلنا إلى غروزني للتو، وكان قد عايش أول يومين من الهجوم الشيشاني لاستعادة السيطرة على المدينة. كلما حاولنا معرفة السبب، ازداد تعنّت الضابط حتى أصبح كتلة عضلات خطيرة تحمل بندقية.

لقد مرّ بتجارب جعلته يتصرف على ذلك النحو. لم يكن ما يشعر به مجرد الخوف من المعركة، وإنما كان يمثّل ردّ فعل رجل واحد عن حالة الانهيار التي أصابت معظم القوات المسلحة الروسية في الشيشان.

عند فجر 6 آب - قبل ثلاثة أيام فقط من تنصيب الرئيس يلتسن في الكرملين لولاية دستورية ثانية - تسلل حوالى 2000 - 3000 مقاتل بويفكس إلى غروزني، وبرزوا من مخابئ معدة سلفاً داخل المدينة، بأسلوب **حصان طروادة**. في يوم واحد، اشتبكوا مع جميع المواقع الروسية داخل وحول المدينة، وقاموا بإنشاء مركز قيادة لهم، وسيطروا على ثاني وثالث أكبر مدينتين، وهما غوديرمس وآرغون دون إطلاق رصاصة واحدة.

في البداية، قال النائب الأول لوزير الداخلية الروسي بافل غولبيتس إنه ما من شيء مهم يحدث: "هؤلاء ليسوا سوى بعض قطّاع الطرق الذين يحاولون سرقة المدن، وليس لهم أية أهداف. لقد صمدت غروزني وستبقى صامدة، وأي حديث عن احتلال المدينة هراء".

تراجع ذلك الكلام الشجاع بسرعة، وكان الشيشانيون يعرفون أمكنة تواجد الروس، واستطاعوا محاصرتهم، وإبادة وحدات الإغاثة، وحتى السيطرة على أبنية الإدارة المركزية. كانت سرعة الشيشانيين وبطء ردّ الفعل الروسي مفاجئاً للغاية. نتيجة لسوء التنسيق الطويل الأمد بين وزيري الدفاع والداخلية، استغرقت القوافل المدرعة للجيش النظامي 36 ساعة للوصول من القواعد الموجودة في المناطق البعيدة لمساعدة وحدات وزارة الداخلية المحاصرة داخل المدينة. اعترف الجيش بأن الموقف "خرج عن السيطرة بالكامل".

وجه موفلادي أودوغوف، رجل الدعاية المعروف، ضربة قوية للرئيس يلتسن عندما اتصل بالتلفزيون الحكومي الروسي من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصنعية، وأعلن بأن المتمردين "استعادوا النظام الدستوري". كان 6 آب اليوم الذي يخافه الجميع، ولكن الجنرالات قالوا إن ذلك لا يمكن أن يحدث أبداً.

في 8 آب، وهو اليوم الثالث للهجوم، لم تكن الأمور تجري على ما يرام. امتدت الحرب لتشمل أراضي كثيرة، وزحفت القوات فوق كل الطرقات باتجاه المدينة، وبالقرب من معمل التعليب شمال المدينة، كانت المدافع الروسية الكبيرة تطلق النار بكثافة، وضربت المدفعية صفاً من المنازل التي تصاعد الدخان الأسود الكثيف منها، واحداً بعد الآخر، على بعد مائتي متر من مكان وقوفنا. حامت طائرتان حربيتان فوقنا في الأجواء الزرقاء الصافية. لكن الملازم كان يعرف أن ذلك مجرد استعراض، وأن الموقف كارثي وأن قواته تطلق النار على بعضها في هذه الفوضى.

صرخ الملازم: "اخرجوا من هنا، سيرسلون المروحيات، والطائرات الهجومية في أي لحظة وسيدمرون مركبتكم، إنهم لا يحبون السيارات". كان الملازم خائفاً بشكل واضح "تستطيعون ركن سيارتكم قرب قاعدتنا، ولكنهم سيدمرونها أيضاً. لقد تمّ قصف أربع سيارات بنفس الطريقة على هذا الطريق، وشعرت بالغثيان من رؤية الجثث. أصابت إحدى مروحياتنا أربعة رجال أصيبوا في هجوم شنّه المقاتلون علينا، اخرجوا من هنا".

في الوقت المحدد، حلقت مروحيتان هجوميتان على ارتفاعٍ منخفض فوق الأشجار، تماماً فوق الموقع الذي كان الملازم يتحدث عنه، واستشاط وجهه غضباً. وتمايلت إحدى المروحيات عندما مرّت تماماً فوق رؤوسنا، ثم أطلقت رشقتين ناريتين من أسلحتها الرشاشة باتجاه حقل الأعشاب الطويلة إلى يميننا، لقد كان ذلك تحذيراً.

كان علينا إيجاد طريق آخر للدخول إلى غروزني. لكن ذلك كان يعني قطع عدة كيلومترات في الأرض المكشوفة بين غروزني وتلال مورلاند باتجاه الشمال. كان ذلك يعني المرور من موقع روسي آخر والذي فتح النار من رشاشات الكلاشينكوف على اللاندروفر في وقت مبكر من ذلك اليوم. من مكاننا، كنا نستطيع رؤية الموقع عبر الحقول، الذي يرفرف علم ثلاثي الألوان على حصنه. هل كان الضابط يستطيع إرسال إشارة لهم بأننا أصدقاء؟ قال: "كلا. إنها وحدة مختلفة. لا يوجد اتصال لاسلكي بيننا". فوضى.

حالما ركضنا بموازاة الموقع الروسي الثاني، وعلى بعد 500 - 800 متر منه، فتح الجنود النار من بنادقهم الرشاشة علينا، وارتطمت بعض الرصاصات بالجانب المصفح من اللاندروفر دون أن تؤذيها، مما جعلنا نضحك ونصرخ *أوغاد* بنفس الوقت، ثم حصل انفجار خلفنا على الطريق الموحل مطلقاً سحابةً من الدخان الأسود؛ قذيفة صاروخية أو مدفع خفيف. كان الوضع أكثر جدِّية عندما ضغط فاخو، السائق الجورجي الضخم، على دوّاسة الوقود، وانطلق مسرعاً حول إحدى الزوايا، لتندفع السيارة بقوة عبر الحفر والأخاديد حتى وصلنا إلى مأوىً عند أول تل. لقد فقد الروس السيطرة على أنفسهم؛ والحمد لله أنهم كانوا رماة سيئين.

حاولنا سلوك طريق آخر للوصول إلى غروزني من الشرق. كانت السماء تعجّ بالمروحيات - المزودة جميعها بالصواريخ، والمدافع، والأسلحة الرشاشة - والتي تحلق فوق الغابات، والحقول والأراضي القاحلة الشاسعة. كانت خمس منها تطير على علو منخفض، واحدة تلو الأخرى للبحث عن النيران الأرضية. فجأة غيّرت إحداها مسارها وتركت السرب واتجهت نحو هدف جديد؛ باتجاه الطريق الذي كنا عليه، ورغم أن سيارتنا اللاندروفر كانت الوحيدة على الطريق، إلا أنها كانت تبدو مدنية بما فيه الكفاية، وكنا نسير ببطء خارج منطقة القتال. لكن في كابوس انتزاع غروزني من بين أيديهم، كان الروس يستهدفون أي شيء، وفي أي مكان، وفقدت أرض المعركة أي تعريف لها، كان العدو في كل مكان، وكنا نحن الأعداء.

صرخنا: *بسرعة!*. وكانت منازل نوفي تسينتيروي القرميدية الريفية، على بعد سبعة كيلومترات من غروزني، هي الشيء الوحيد المرئي في الأفق. اقتربت المروحية منا، وعرفنا بأنها ستطلق النار علينا. إذا استطعنا فقط الوصول إلى القرية سوف نخفي السيارة ونجد مأوىً لنا. بالطبع لم يكن هناك ملجأ على هذا الطريق المكشوف المقفر الخالي من الأشجار. لكن عاصفة الرصاص المنطلق من الرشاشات ضربت الأرض بقوة، وأصابت جانب السيارة المصفّح، ولم تكن تشبه أصوات رصاص البنادق العادي إطلاقاً، وإنما كانت مثل مثقب متطور مع تأثير النقر الذي جعل هذا الصندوق المصفح على عجلات يبدو مثل الكفن. انطلقت صرخات متناقضة: *بسرعة!*، *توقف!*، *بسرعة!* *توقف!*، واتّقد وجه فاخو غضباً، ورفع قدمه ثم أعادها للأسفل بعنف، مندفعاً بالكفن نحو بيوت نوفي تسينتيروي. لم يكن هناك جدوى من التوقف، لأن البراءة لن تنقذنا، وإنما الملجأ فقط.

على بعد مئة متر، تعرضنا لوابل ثانٍ من الرصاص الذي صمّ آذاننا، ثم سمعنا صوت المروحية تبتعد فقط لتستعد للعودة. كانت القرية بعيدة حوالى 500 متر، ولن نستطيع الوصول قبل عودة المروحية للمرة الثالثة. ظهرت غابة صغيرة إلى جانب الطريق. صرخنا: *توقف!*، *توقف!*. حصلنا

على فرصة للنزول من السيارة. اندفعنا خارجاً بعد أن فتحنا أبواب اللاندروفر بقوة، وكنا ستة صحفيين وشيشاني شاب، ولم نكن محظوظين بما فيه الكفاية للطلب من أحد ما إيصالنا إلى نوفي تسينتيروي.

تملكتني غريزة واحدة فقط: الابتعاد عن الأنظار. لجأت إلى أول مخبأ تحت شجرة مشوكة كثيفة الأوراق وحيدة إلى جانب الطريق. ركض الآخرون باتجاه الأيكة على بعد 25 متراً. كان اختياري خاطئاً، وعادت المروحية الهجومية مجدداً، وأيقنت أن الطيار رآني أختبئ تحت الشجرة. مزق رصاص الرشاشات فروع الشجرة، وتطاير الغبار خلف قدمي مثل اندفاع مئات الينابيع الصغيرة. حاولت الغوص في الأرض، وأمسكت التراب بأصابعي، ودفعت نفسي تحت الشجرة المشوكة حتى بدأت الدماء تسيل من ذراعي وجبهتي. كان جسدي مفعماً بالطاقة، وصلّيت للنجاة. عند الرشقة الثانية، والتي لا يعلم سوى الله أين ذهبت، ضغطت وجهي بقوة في التراب هذه المرة. دوّى صوت الرصاص في أذنيّ، وامتلأ أنفي برائحة النيران الحقيقية الساخنة، فقد أصبحت الشجرة هدفاً. حالما غادرت المروحية، انطلقت نحو الأيكة، دون أن أنظر، مندفعاً نحو ظل الأشجار البارد، ولدهشتي، كان الجميع هناك في خندق قديم، وهو موقع روسي مهجور منذ بداية الحرب. لقد كانت فرصة رائعة للنجاة!

لم يستسلم طاقم المروحية بسهولة، وكانوا يعرفون أننا موجودون في مكان ما بين الشجيرات؛ وبقيت اللاندروفر مفتوحة الأبواب ومهجورة على الطريق، لم يكن هناك أي مخبأ آخر. استمرت المروحية بالذهاب والإياب لمدة 25 دقيقة، وفتحت نيران رشاشاتها ومدافعها على الأغصان والأوراق التي تناثرت في الهواء. لقد حاولوا قتلنا جاهدين، ولكن المخبأ كان رائعاً.

حتى بعد أن اختفى صوت المروحية، لزمنا أماكننا، ولم نجرؤ على مغادرة الخندق، وفجأة وصل رجال من القرية، وانتظر اثنان منهم رحيل المروحيات الهجومية، وركضا عبر الأرض المكشوفة نحو الأيكة، وظهرا مثل الملائكة فوق الحفرة التي كنا فيها، وطلبا منا الخروج واللحاق بهم. لقد جاء الفرج، لأن المروحيات ابتعدت مؤقتاً فقط، وعادت بعد لحظات لتحلّق فوق الأيكة. لكن عندها كنا قد دخلنا القرية للتو.

هبّت رياح هوجاء - تشبه الرياح الشمالية الغربية الباردة - على الشوارع الحارّة، والمهجورة والمليئة بالغبار. قدمت لنا امرأة شاياً أسودَ، وجلسنا على طاولة في فناء المنزل مع رجل مسن يرتدي قبعة صلاة بحافة مذهّبة فوق شعره الأشيب. قالت إحدى النسوة: "اعتقدنا أنكم متم جميعاً". لا بد أن طاقم المروحية قد أدرك أننا نجونا، وهم يبحثون عنّا الآن، وسيحلقون قليلاً فوق نوفي تسينتيروي، وسيحومون عالياً وببطء. أطلقت إحدى المروحيات صاروخاً على منزل خالٍ يقع على مشارف القرية. لكن ذلك كله لم يعد يخيفنا الآن، فقد أسرنا سحر الشيشانيين كما يفعل عادةً، ورغم أن مظهر الشيشان خادع، إلا أنها تجعل المرء يحتمل الحرب وتُغريه بالعودة دائماً. ينبهر المرء بمظهر الوادي المليء بأزهار الكرز، والثلج السرمدي، وكرم الضيافة في أشد لحظات الحاجة، والإيقاع اللطيف لحياة القرية والذي يتحدى جنون الحرب.

هبت الرياح عبر الباحة. كان الرجل المسنّ يتناول الشاي دون أن يقول شيئاً. جلس الشباب القرفصاء تحت أشعة الشمس مستمتعين بفشل الطيار في قتلنا، وعرض صبي نحيف حليق الرأس مهاراته في الكاراتيه، وضحك والده سلامو وهو أحد الرجال الذين أنقذونا، وتجاهلنا هدير المروحيات الذي لم ينقطع، وأخبرنا سلامو، الرجل الضخم الملتحي ذو الشعر الأحمر، بأن

متطوعين سيذهبون إلى غروزني في اليوم التالي عبر الغابات للانضمام إلى الآخرين في القرية التي يجري فيها القتال آنذاك، وأنهم يستطيعون اصطحابنا.

غروزني

القائد الأول الذي رأيته في غروزني، لم يكن سوى خضر كاتشوكاييف، العملاق الذي التقيته على خط الدفاعات الخارجية لغروزني عند تل كاربينسكي في البدايات الأولى للحرب منذ 20 شهراً مضت.

كانت وحدة خضر تتوغل عميقاً داخل غروزني، بين مستشفى المدينة التاسع ومصنع المطرقة الحمراء، قريباً من شارعين استراتيجيين كبيرين. كان خضر، القادم من غرب الشيشان والمتمسّك بالدين، يحمل مسبحة خضراء. ويرتدي قميصاً أخضر بدون قبة تحت سترته المموهة، ويغطي رأسه الضخم بخوذة القوات الخاصة الروسية، مع لحية سوداء كثيفة. إنه بالغ القوة.

سألته فيما إذا كان الثوّار يهدفون حقاً للسيطرة على غروزني أو للقيام بما فعلوه خلال هجوم الثلاثة أيام في آذار؛ *الضرب والمغادرة*. "لقد عدنا إلى الوطن، وكان شهر آذار مناسباً لإظهار سرعتنا في استعادة السيطرة على المدينة. سوف يشاهدون الآن كيف نستطيع الاحتفاظ بالمدينة. وسنقاتل حتى النهاية، حتى إحراز النصر، ولن نغادر."

مشيت مع أندريه بابيتسكي، من **راديو الحرية**، إلى مشارف المدينة، حيث قادنا الثوار إلى المنطقة القاتلة في المركز. في البداية، مشينا بعكس مجموعة متعبة وخائفة من الناس الذين يهربون مشياً على الأقدام، وفي الجرارات والسيارات والشاحنات، ويحملون معهم حزماً من الثياب، والسجاجيد والأعلام البيضاء التي تمّ انتزاعها من أغطية الأسرّة وربطها إلى عصي المكانس وأغصان صغيرة. كنا الوحيدين اللذين يدخلان المدينة.

ظهر أمامنا موقع روسي تُحيط به أكياس الرمل والكتل الإسمنتية وقد استسلم. كان هناك علم أبيض يرفرف، ولم يُشر الجنود لنا بأي إشارة، ودخلنا بسرعة. ثم مشينا في منطقة لا تخضع لسيطرة أحد، ولم يكن فيها مدنيون، أو مقاتلون ولا حتى روس، وإنما مجرد منازل خالية وشوارع فارغة خطيرة.

ثم وصلنا إلى المركز الرئيسي للحرب؛ المنطقة الداخلية المتنازع عليها. لقد نزلنا على طريق فرعي ضيق عندما تعالت أصوات المعركة. كانت الطرق الجانبية مريحة، وأقل خطورةً إلى حدٍّ ما إلى أن وصلنا إلى طرف شارع عريض. من مخبأنا في الطريق الفرعي، استطعنا رؤية عربة مدرعة محترقة في وسط الطريق المسفلت وخطوط هاتف متدلّية، وزجاجاً محطماً، وبعض الآجر. لقد كانت هذه منطقة الجبهة. هنا يصبح الهدوء مخادعاً لأن كل بناء أو زاوية قد تكون موقعاً لقناص، وأي شارع قد يتعرض للقصف، وأي مساحة خالية قد تكون منطقة موت. كان يجب عليّ وعلى بابيتسكي عبور ذلك الشارع العريض. عددنا معاً إلى ثلاثة، وخفّضنا رؤوسنا، وانطلقنا مسرعين نحو الطريق الفرعي التالي حيث توقفنا، فلقد أطلق أحدهم صافرة. نظرت حولي ببطء، ورأيت أشكالاً تخرج من الظلال. كان هناك شيشاني لا يتجاوز 14 عاماً جالساً في شرفة الطابق الرابع مع بندقية، وظهر أمامنا بعض المقاتلين الأشداء مع بنادق الكلاشينكوف من المداخل، وأشار أحدهم إلينا بإصبعه للتقدّم نحوه. لقد وصلنا إلى ما يسميه مقاتلو البويفكس *غروزني المحررة*.

كان البويفكس يعتبرون المعركة فاصلة في غروزني. وتمّ حشد كل شيء للمشاركة في هذه العملية من القادة الأشداء الذين يتوغلون قطاعاً بعد قطاع، مع تمركز شامل باساييف في المركز الذي كان يضم مكاتب زافغاييف والإدارات الروسية المجددة. شاركت نواة الجيش - حوالى 2000

إلى 3000 رجل - والتي قاتلت خلال الحرب، في تلك العملية. انضمت إليهم آنذاك أفواج المتطوعين وهي ظاهرة لم ترَها في الشيشان لعدّة شهور.

قال رمضان مدزهاييف، الذي يبلغ 21 عاماً، والذي قابلته في مايكروورايون التي تقع في الضواحي على مقربة من القاعدة الروسية في خانكالا: "الكثير منا محاربون قدماء، ولكنّ الآخرين يحملون السلاح للمرة الأولى. عندما استولى الروس على المدينة وانتقل القتال إلى الأرياف، دفن العديد من الناس أسلحتهم، والآن يقومون بإخراجها مجدداً.

مضى وقت طويل منذ رأيت مثل ذلك العدد الكبير من مقاتلي البويفكس في مكان واحد بأزيائهم المميزة، وسراويل الجينز، وبنادق الكلاشينكوف، وقاذفات الصواريخ (آر بي جي). ذكّرني ذلك بالحماس الصبياني الشديد في البدايات الأولى للحرب، مع فارق جوهري واحد: ليس هناك سذاجة هذه المرة. يعرف المتطوعون بدقة تأثير الشظايا والرصاصات على الجسم البشري، ويعرفون عدد الجنود والطائرات والدبابات التي يمتلكها الروس، ويعرفون المخاطر جيداً؛ ومع ذلك يتوافدون بأعداد كبيرة.

تنقسم استراتيجية الهجوم لدى الشيشانيين إلى قسمين، الذين كانوا يعرفون أنهم - بأعدادهم الصغيرة - لن يستطيعوا القيام بهجوم مباشر على كل المواقع الروسية لمدة طويلة باستخدام الأسلحة الخفيفة. لهذا عوضاً عن محاولة سحق أعدائهم داخل المدينة، ركّز مقاتلو البويفكس على تطويقهم والنيل منهم. كان هناك حوالى 12.000 جندي روسي موزعين في أرجاء المدينة. بسبب انتشار الجنود الواسع، سرعان ما تحوّلت تلك الحامية القوية إلى جيوب للقوات المحاصرة التي تنتظر المساعدة بشكل يائس. لدى تطويق القوات داخل المدينة، نفّذ مقاتلو البويفكس النصف الثاني من الاستراتيجية: المواجهة الخارجية، ومنع التعزيزات القادمة من القواعد الروسية في أطراف المدينة من الوصول.

قلبت هذه الخطة القواعد تماماً، وتحول الشيشانيون من مهاجمين إلى مدافعين. تمّ إجبار الروس، الذين أحكموا سيطرتهم على غروزني لمدة سنة ونصف، على التصرف كغزاة في محاولة لإنقاذ قواتهم المحاصرة. مرّة أخرى كان على الروس القيام بمهمة شرسة وإرسال قواتهم المعززة بالآليات إلى مواقع مدنية مليئة بالفرق المزودة بالقاذفات الصاروخية وبالقناصة. أرسلت روسيا أرتالاً من العربات المدرّعة والدبابات من القواعد الكبيرة في مطار *الشيخ منصور* - الذي يسميه الروس *سيفيرني* أو المطار الشمالي - في الشمال، وخانكالا في الشرق، والتي وقعت في كمائن، وتعرّضت لخسائر رهيبة. عند دار العرض الموجودة في منطقة ميكروورايون، والتي هي آخر الأبنية السكنية في مواجهة خانكالا، دمّر الثوار دبابة وعربة مدرّعة. بقيت جثث الطاقم ملقاة على قارعة الطريق. قالت امرأة هناك: "دخل كلب إلى بنائنا وهو يحمل يداً مقطوعة من ساحة المعركة". حتى الأرقام الرسمية أكدت فقدان 27 دبابة أو عربة مدرّعة وست مروحيات في أول يومين من القتال. لقد استولى الشيشانيون أيضاً على عدد من العربات المدرّعة ودبابتين، والتي حوّلوها مباشرة لتقاتل ضد الروس.

كما حدث في المعركة الأولى على غروزني في بداية الحرب، استدعى الروس مدفعيتهم، ومروحياتهم، وطائراتهم البعيدة المدى لقصف المدافعين الشيشان وتجنّب الخسائر. لكنّ القصف الجوي الكثيف، الذي ربح الحرب في 1994 - 1995، كان غير ممكناً هذه المرة، لأن آلاف الجنود الروس، إضافة للمدنيين، كانوا عالقين هناك مع مقاتلي البويفكس. أخيراً، استطاع الشيشانيون الاشتباك مع الروس بأكثر الطرق تكلفة - على الأرض. في 6 آب، **كان الروس يشبهون رجلا**

اكتشف أنه يعاني من السرطان، والذي كان يعتبر نفسه سليماً معافى قبل يوم فقط من الأمر. خلال الأيام القليلة التالية، انتشر السرطان، وأدرك الروس أن إزالة جميع الأورام تعني قتل المريض.

نوفي تسينتيروي - غروزني

كيف استطاع البويفكس الدخول؟ هذا ما أثار غضب الروس فعلاً! ماذا عن كل نقاط التفتيش تلك، والاستخبارات السرية، والمروحيات، والحظر الجوي؟ كيف استطاع البويفكس اختراق أقوى المناطق الدفاعية في الشيشان التي يسيطر عليها الروس؟ وبيّن لنا الرجال من مدينة نوفي تسينتيروي بأن الإجابة بسيطة جداً، وأنه يمكن اختراق كل تلك العقبات حتى بعد أيام من اندلاع المعارك ورغم كل الجهود المبذولة لسد الثغرات.

أخبرنا القرويون أن نتوجه إلى طرف القرية دون سلاح وبلباس مدني. كانت المروحيات ما تزال تحوم فوق الحقول والغابات والأسطح، كما كانت تفعل لمدة 48 ساعة، وحتى أثناء الليل. لتجنّب إثارة الانتباه، انقسمنا إلى مجموعات فردية وثنائية، وحاولنا السير بشكل طبيعي - مشياً - ولم ننظر إلى الأعلى نحو المروحيات. انطلق خلفنا رجلان على دراجة نارية لها عربة جانبية.

بدت الغابات عند نهاية القرية، وكان هناك ممر صغير دخلنا فيه واحداً تلو الآخر. سحب أحدهم القماش المشمع الموجود على العربة الجانبية للدراجة: إنها مليئة بمخازن الذخيرة، والقذائف الصاروخية (الآر بي جي)، والبنادق. بدأ ستة شيشانيين بالعمل بسرعة، وارتدوا ثياباً مدنية وحملوا الأسلحة؛ نموذج لمقاتل البويفكس الذي يعمل جزئياً. كان اثنان منهم مراهقين.

عادت الدراجة النارية، وبدأنا بالدخول عميقاً في الغابة. مشينا سريعاً مع بعض الاستراحات، ولم يكن هناك ممرات دائماً، وكانت النباتات القصيرة في أرض الغابة كثيفة، وحارة، ومليئة بالأشواك. سألت مرشدينا عن الطريقة التي يعرفون بها وجهتنا، وأخبروني أنهم كانوا يلعبون هنا عندما كانوا أطفالاً، ثم أصبحوا يصطادون الحيوانات، وتحوّلوا بعدها إلى مقاتلين.

يمكن للمرء أن يلاحظ فوراً أن أطقم المروحيات لا يستطيعون الرؤية من خلال هذا الشجر المتشابك. كنا غير مرئيين، حتى عند طيران المروحيات بسرعة كبيرة فوق رؤوسنا مباشرة أحياناً. كانوا يبحثون عن مقاتلين متسللين، ولكنهم لن يجدوا هذه المجموعة. لقد خدع ذلك الغطاء النباتي كل تلك التقانة، وهو ما يبدو أمراً بالغ السهولة.

وصلنا إلى حقل مكشوف، وحان وقت الجري. ذهبنا أزواجاً إلى شجرة معزولة، وكنا نجلس القرفصاء ونراقب المروحيات، ثم نركض في الحقل المكشوف مرة أخرى.

تعتبر الوقفة ضرورية للغاية، لأن المرء لا يرى أثناء الجري سوى الأرض الوعرة تحت قدميه، وكل ما يسمعه هو صوت التنفس. في هذه الحالة لن تسمع أبداً صوت المروحية.

كان الحقل التالي أكثر اتساعاً. استطعنا سماع المروحية، ولكن لم نرَها، وركضنا. كان الخوف من أن يصلوا إلينا قبل أن نتمكن من الوصول إلى الجانب الآخر. توقفنا ثانية في منتصف الطريق عند الملجأ الوحيد الموجود - أزهار برية طويلة الساق - وراقبنا السماء. كان يجب علينا قطع حوالى 100 متر إضافية. وفجأة، حلّقت مروحية خضراء فوق خط الأشجار تماماً، وكنا مستعدين لهذا الأمر ورمينا بأنفسنا بين الأزهار والأعشاب الطويلة. بشكل لا يصدق، فشلت المروحية في رؤيتنا وحلّقت مبتعدة. لم نكن بحاجة لسماع أي أمر: حالما أصبحنا خارج نطاق رؤية الطيار، وقفنا كرجل واحد، وركضنا عبر بقية الحقل إلى داخل الغابة.

تلقينا إنذاراً واحداً أخيراً: كان الروس يصرخون، وقاموا بإطلاق الرصاص من بندقية واحدة على الغابات أمامنا. لم يكن المستكشفون يتوقعون دورية أو موقعاً روسياً جديداً. لولا ذلك الصراخ وإطلاق النار، لكنا دخلنا في حقل الألعاب النارية. عوضاً عن ذلك، تلقينا تحذيراً منهم، وسلكنا بعد ذلك طريقاً جانبياً. بعد عدة ساعات، مررنا براعٍ مع قطيع من الماعز، ثم بأرضٍ مقفرة، وبعدها بأبنية وسيارات وشوارع حتى قال أحدهم "أهلاً بكم في غروزني."

كان من السهل اعتبار الحرب الجديدة على غروزني مجيدة. كنت أشعر بنشوة النجاة من الموت كل يوم، وأرى الشيشانيين يفوزون بعد العديد من الهزائم والمعاناة مما أثلج صدري حقاً. لكن

بالنسبة للمدنيين، لم يكن هناك مجد على الإطلاق، وإنما مجرد فصل آخر من سياسة المقاومة لكل من البويفكس والروس لدفع المدنيين باتجاه خط النار.

كان البويفكس يدخلون طوال السنة بشكل مفاجئ إلى المستوطنات التي سيطر عليها الروس بغض النظر عن الكلفة التي سيتحملها المدنيون المقيمون هناك. اعتمد المقاتلون الشيشانيون تلك الاستراتيجية على نطاق واسع، مع وجود حوالى 250.000 مدني محتجزين داخل غروزني. بخلاف ما حدث في سماشكي، وجيخي وعدد لا يحصى من المعارك التي جرت في قرى أخرى، كانت الظروف السائدة في المدينة تعني أن المعركة سوف تستمر لأسابيع وليس لأيام بغض النظر عن النتيجة. كان البويفكس يقاتلون من أجل مدينتهم، ولكنهم استفادوا دون شك من الدرع الذي وفّره لهم كل أولئك المدنيين المحتجزين. ادّعى البويفكس أنهم يحمون المدنيين، ولكن العكس كان صحيحاً في بعض الأحيان.

يقع اللوم بالقدر ذاته على الجيش الروسي الذي جعل جنوده المحبطين يعتقدون أنهم شخصيات رامبو، ودفع بهم إلى أتون حرب لا يؤيدها أحد. كان هؤلاء الجنود يواجهون تهديد الهزيمة المحققة، ونفس مشاعر الذعر والإحباط التي واجهت الشيشانيين مراراً وتكراراً من قبل. كان ردّ الفعل متوقعاً: تحوّل المدنيون ليصبحوا أعداء مثل البويفكس تماماً، وكان يتمّ إطلاق النار على تجمّعات اللاجئين، فيما أصابت صواريخ إحدى الطائرات مستشفى المدينة الرابع. كانت الشوارع تتعرض لوابل من الرصاص والقنابل إذا ظهرت أي علامة على وجود البويفكس، وكانت وحدات مختلفة من الجيش تأخذ المدنيين كرهائن.

كلما اقترب المرء من مركز المدينة، كلما أضحت الشوارع مهجورة. في تناقض واضح، كان هناك ناس أكثر من أي مكان آخر، ولكنهم كانوا مختبئين في الملاجئ. كان هناك إشاعات قبل عدة أيام عن حدوث هجوم على السوق الرئيسي، وهو عصب الحياة في غروزني، مما دفع بالناس للخروج منه قبل أن يحين الموعد. لكن القتال انفجر بشراسة، واستولى مقاتلو البويفكس فجأة في 6 آب على مركز المدينة مما قلل من فرص هروب المدنيين. لم يستطع الناس مغادرة المدينة بأمان سوى من أطرافها الخارجية.

في الأسبوع الأول من المعركة، تجمّع المدنيون الموجودون في مناطق القتال في أقبية المنازل، إذا حالفهم الحظ ووجدوها. لم يكن لديهم كهرباء ولا ماء، وتناقصت كميات الطعام، وكان جلب الماء من الصنابير الخارجية عملاً خطيراً. كان الناس يتعرضون للقتل أو الإصابة من قبل القنّاصة أو قذائف الهاون أثناء ترحالهم. أخبرني رسلان، وهو أحد أفراد طاقم الإسعاف الذي يعيش في المركز، عن كيفية حمايته لسبع أمهات مع أطفال حديثي الولادة خلال القتال. كانت هؤلاء النسوة موجودات في مستشفى التوليد مع مواليدهن الذين لا تتجاوز أعمارهم يوماً أم اثنين عندما اندلعت المعركة. كان أول شيء شاهدوه هو الجنود الروس الذين اقتحموا المستشفى بحثاً عن الطعام. لكن لم يكن هناك طعام ولا ماء ولا شيء على الإطلاق، وحتى حليب الأمهات جف من الذعر. كان على الأمهات الخروج إلى الشوارع، حيث كان الرصاص يتطاير والقنابل تنفجر، ليبحثن بيأس عن الأمان.

بالقرب من مستشفى المدينة التاسع وجدت مع بابتسكي المدعو خضر، والتحقنا ببقية الزملاء، وتحدثت مع نيكولاي، وهو من أصل روسي يعيش برعب في الطابق الثاني من أحد المباني السكنية، والذي قال لي: "سوف نموت هنا. ليس لدينا طعام، وذلك الكيس من الطحين هو كل ما نملك". كان المئات من سكّان مبنى نيكولاي يعيشون على ضوء الشمعة في القبو. كنت أول أجنبي

يراه نيكولاي منذ بداية القتال، ولكنه كان عصبياً جدًّا، ولم يلاحظ ذلك. لقد تجاهلني ببساطة عندما قلت له إنني سأمشي في ذلك الصباح، وأنه يستطيع مرافقتي. كان مستسلماً لقدره: الموت.

كان الشيشانيون قد استولوا على إحدى الدبابات ومدفع مورتر في الجوار. خلال الليل، استلقيت في الظلام في إحدى شقق الطابق الثاني، غير قادر على النوم، أفكّر فيما يحدث. سمعت أولاً صوت قذيفة، وبعد أربع أو خمس ثوانٍ صوت انفجار على بعد عدة كيلومترات إلى الشرق، والذي قد يكون طال المكان الذي حاول فيه الروس إنشاء رأس جسر بني خانكالا ودائرة مرور مينوتكا الحيوية.

رد الروس بإطلاق النار بعدها. وكان القصف، المكوّن عادةً من أربع جولات واحدة تلو الأخرى، خافتاً، ولكنّ أصوات القذائف التي تسقط كانت عالية. كانت قلوبنا تتوقف من وميض الانفجارات حتى وإن سقطت القذائف على مسافة بعيدة. في بعض الأحيان، كانت الشظايا تضرب الجدران عبر الباحة الخلفية. كان الروس يطلقون بانتظام أضواء إشارة لتحديد أماكن الهدف. كان بمقدور المرء سماع صفير القذائف القادمة، وكنا نرى ضوءاً أصفر يدخل عبر نوافذنا عوضاً عن سماع صوت الانفجار. في حال كان الضوء قوياً فعلاً، فهذا يعني أن شعلة متوهجة مرت فوق رؤوسنا، وأنها أضاءت الجوار تحضيراً لإطلاق النار، وإذا أتت الشعلة من الجانب، فإن أحداً آخر سيتعرض للقصف، مما يبعث على الراحة ويثير الخجل بعض الشيء.

لم يكن هناك أقبية، ولهذا دخّنت، وصلّيت في محاولة لمحاربة مرض الخوف، وانتظرت بزوغ الفجر. كان قانون المعدّلات أفضل ما في الأمر: من بين كل الشقق في المدينة، لم يكن محتملاً أن تتعرض شقتنا لضربة مباشرة. وإذا لم تكن الإصابة مباشرة، سيكون لدينا فرصة جيدة للخروج سالمين.

بعد أيام قليلة من المعركة، شعرنا بالملل من سجن الخوف، وتشجّع الناس واستغلّوا فترات الهدوء للخروج واستنشاق الهواء المنعش. فجأة، كان هناك مشاهد طبيعية تماماً: كلاب تلعب، وشابات يتحدثن مع المقاتلين الذين يرتاحون تحت أشعة الشمس، وأشخاص مسنّون يتحدثون. سمعت مرّة إيقاعاً ثابتاً، وانحنيت خارج النافذة لأرى أربع نساء شيشانيات يشكّلن حلقة ويصفقن، فيما ترقص واحدة في الوسط، وتدور وهي ترفع ذراعيها أفقياً وتؤدّي رقصة **ليزجنكا** الرشيقة. كان يفترض بها أن تلوّح بالمناديل، ولكنها كانت تمسك بورقتين عوضاً عن ذلك. صرخت الراقصة وهي تحني رأسها إلى الخلف وتضحك: "إذا كنا سنموت، فلنمت مع الموسيقى". لم يكن هناك كهرباء، ولكن الناس قاموا بوصل أجهزة التلفاز إلى بطاريات السيارات ليشاهدوا بعض الأخبار، وكان بعضهم يستمع إلى الراديو المحمول، ثم يتجه نحو أصدقائه لينقل لهم المعلومات. كان الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصنعية الذي نستخدمه لإرسال تقاريرنا يعمل على بطارية سيارة أيضاً. عندما فرغت تلك البطارية، ذهبنا إلى مرآب محلّي خلال فترة الهدوء وسرقنا بطارية من شاحنة متوقفة هناك. لقد كنا لصوصاً.

سمعنا بعدها، ودون سابق إنذار، انفجارات وأصوات أسلحة نارية، أو هدير مروحية مسلحة تحوم بالقرب منا، وتحولت الحالة الطبيعية للشوارع إلى حالة عدائية مهجورة. حتى الكلاب الضّالة، هربت في محاولة منها لإيجاد مأوى وهي تضع أذيالها بين قوائمها.

قالت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن 1500 مدني تعرضوا للإصابة في المدينة، والله وحده يعلم عدد الذين لم يتمّ إحصاؤهم. خلال فترة الهدوء، كان سائقو سيارات الإسعاف والشيشانيون المحليون يقومون بمهمات انتحارية لإسعاف المصابين. كانوا يقودون شاحنات صغيرة مغلقة دون نوافذ أو أبواب، وكان بعضها يحتاج للدفع كي يعمل. لم يكن هناك سوى إسعافات أولية للجرحى في

المركز، لأن المستشفيات كانت تفتقد للأدوية والكهرباء، والتي تحوّلت فيما بعد إلى هدف للنيران، ثم هُجرت في النهاية.

للوصول إلى المجمّع الطبي خلال فترة الهدوء، كان علينا اجتياز منطقة لا تخضع لسيطرة أحد باستخدام سيارة لادا متهالكة عبر الطرق المقفرة مع تسارع وتيرة العنف عبر التقاطعات، ولم نكن نتوقف سوى عند المنعطفات لتفقّد أصوات إطلاق النار. كنا نقود السيارة، وأعيننا دائماً على المروحيات، ونصلي كي لا نصطدم بوحدة أو عربة مدرّعة روسية. بعد وصولنا بوقت قصير إلى المجمّع الطبي، وقع اشتباك ناري خلف أشجار السور، واندفع المدنيون وسائقو سيارات الإسعاف والممرضات إلى الخارج مثل أوراق في مهب الرياح.

في الداخل، أدهشني فيري ألان، مدير المجمّع الطبي عندما قدّم لي القهوة والبسكويت، وهو ما حلمت به طوال أسبوع كان مثل الشهر بالنسبة لي. وقال: "سقطت قذيفتا مدفعية ضمن المجمّع، مما تسبب بالرعب للناس لكن دون وقوع إصابات، وأصاب القنّاصة أربعة رجال في الشارع". كان المجمّع خاضعاً لحصار كامل تقريباً، وتسبب الجنود الروس المتواجدون على بعد 15 كيلومتراً خارج المدينة في إعاقة وصول قوافل المساعدات. وقال ألان: "رجاءً، افسحوا المجال لنا لمدة ساعتين لإحضار قافلة مساعدات ضرورية، وعودوا لقتل بعضكم البعض بعدها". لقد وجّه ألان دعوته تلك للجميع دون تمييز، إلا أن الجيش الروسي رفض الردّ على النداءات اللاسلكية، فيما كانت نتيجة اتصاله مع الشيشانيين لا شيء، صفر.

غروزني

هرب اللاجئون من الكابوس داخل غروزني إلى أطرافها، وتحرّك الآلاف منهم سيراً على الأقدام بنفس الوقت في مسيرة بطيئة ترافقهم الشاحنات، والجرّارات والسيارات وكانوا يلوحون بالأعلام البيضاء، ويحملون معهم الأطفال والسجاجيد وحزم الملابس.

في المنطقة الواقعة شرق ستارايا سونزا، لم يكن هناك قتال، وكان الروس ما زالوا يسيطرون عليها. لكن عوضاً عن السماح للاجئين بالخروج من البلدة، قاموا بحصار حوالى 40.000 منهم في الشوارع والبيوت المحلية وفي الطابور المتزايد والمزدحم من السيارات. بالعودة إلى مركز المدينة، كان ضجيج الانفجارات ونيران الأسلحة الرشاشة يشبه الرعد.

في النهاية، تمّ إبعاد العربات المدرّعة التي تقطع الطريق، وأعلن الجنود أنهم سوف يسمحون للنساء والأطفال بترك المدينة؛ ولكن سيراً على الأقدام ودون أن يرافقهم الرجال. كان الجنود الروس يشتبهون بأن يكون الذكور الذين تتجاوز أعمارهم 11 سنة من مقاتلي بويفكس، ويجب عليهم إبقاءهم في غروزني. لم تقبل سوى بعض النساء بالعرض. كانت المسافة إلى القرية التالية تبلغ 7 كيلومترات، وكان الحر شديداً.

طلبت زاريما سلطانوفا استثناءً لزوجها المُقعد، وقالت إنه لا ينتمي لمقاتلي البويفكس ويبلغ من العمر 84 سنة، وأشارت إليه يجلس بلا حراك في مقعد لادا العائلة. رفض الجنود الروس الطلب لأن الأوامر هي الأوامر، ولن يسمحوا لمن تجاوز 11 بالمرور.

بدأت زاريما بالبكاء، وبعيداً عن القوات، بدأت العائلة بالكلام بصوت منخفض مع مجموعة من الشبان، وتوصّلوا إلى توافق في الآراء يقضي بحمل الرجل العجوز على نقّالة، والسير به على الطرق التي يستخدمها الثوار عبر الغابات وحول نقاط التفتيش التي تقيمها القوات الروسية.

لا يستطيع المرء التكهّن فيما إذا كان الرجل العجوز قد فهم القصة. لقد جلس دون حراك يحدّق في الفراغ من خلال الزجاج الأمامي.

انحنت زاريما لتوديعه. وبشكل غير متوقع في مكان اعتاد فيه الناس على إخفاء عواطفهم، قامت بتمرير يدها فوق وجهه العجوز الخشن بسبب الذقن القصيرة البيضاء التي لم يحلقها منذ أيام. لم يتحرك رأس الرجل، وبقي جسده ساكناً، وبدأت الدموع تنهمر على بشرته. لقد كان يعي ما يحصل.

أصبح مستشفى المدينة التاسع، وهو أحد أكبر مستشفيات غروزني، رمزاً لحكم الإعدام المزدوج المفروض من قبل البويفكس والقوات الروسية على المدنيين. في اليوم الأول من المعركة، احتل رجال خضر مواقع بالقرب من المستشفى وليس داخله. كان من الواضح أنهم يودّون معالجة جرحاهم هناك، وهكذا حاول الطاقم الطبي مباشرة إخلاء الجرحى ذوي الإصابات الخطيرة ومن ثم أنفسهم، فقد سبق وشاهدوا كل ذلك من قبل.

بالنسبة للطبيب سيبودين مامابيف، كانت هذه المرة الثالثة التي يتوجب عليه فيها الهروب من مكان عمله خلال الحرب، "لقد عملت في المستشفى الجمهوري الرئيسي سنة 1994، والذي تعرّض للقصف آنذاك، وعملت بعد ذلك لعدة شهور في منزلي، والتحقت بعدها بمستشفى المدينة التاسع. اقتحم مقاتلو البويفكس المستشفى الآن، وقاتلوا حولها، وهذا ليس التصرف الصحيح، ولكن ما الذي ستفعله القوات الروسية بعدها؟ وما الذي يسعون إليه برأيكم؟ هل للديمقراطية الروسية أي معنى؟".

كان مامابيف محظوظاً للنجاة من كل تلك الأهوال. عندما حاول طاقم المستشفى الوصول إلى ملجأ سترايا سونزها في قافلة من الحافلات التي ترفع الأعلام البيضاء، تعرّضوا لإطلاق النار من المروحيات الروسية، واضطروا للتراجع. في المحاولة الثانية، حاول الفريق الطبي الخروج مشياً وهم يلبسون رداءهم الأبيض ويلوحون بأعلام بيضاء، ولكنهم تعرّضوا لقذائف الهاون التي أصابت شظاياها ثلاثة منهم. تخلّى الكادر الطبي عن عملية الإخلاء بعد ذلك. لم يكن أحد قادراً على الهروب سوى اللائقين صحياً، والذين تركوا خلفهم الحالات الصعبة مع بعض الأطباء الذين رفضوا المغادرة.

في 9 آب، دخل الجنود الروس المستشفى، واشتبكوا مع البويفكس حول المبنى ثم غادروا. في اليوم التالي، اقتحم 25 جندياً من سلاح المشاة المستشفى، وباشروا البحث عن الثوار، ووفقاً لتقرير مجموعة ميموريال لحقوق الإنسان، أصاب أحد القنّاصين ضابطاً إصابة بليغة عندما كان يغادر المستشفى مما أجبر الوحدة بأكملها على التراجع إلى داخل المستشفى. في رواية أخرى، اقتحمت القوات الروسية بعد اشتباك رتل مسلح مع الثوار في مكان قريب.

أحاط مقاتلو خضر بالمبنى حالما أصبح بالإمكان رؤية الروس من خلال نوافذ المستشفى، ووفقاً للفريق الطبي فقد اتصل الروس لاسلكياً بقاعدتهم، وتلقوا أوامر بالبقاء في مواقعهم وأن يحافظوا على المبنى. كان كل من شامل باسايف وسلمان رادوييف بارعين في هذا النوع من التكتيك: "عندما تشقون طريقكم في مناطق العدو مع الرفاق الجرحى، استولوا على مستشفى، وفاوضوا بشأن خروجكم". وتحوّل "المحافظون على النظام" إلى قطّاع طرق.

وضعت حالة انقلاب الأدوار المقاتلين الشيشان في دوامة. هل يجب عليهم التنديد بأعمال مختطفي الرهائن الروس، أم التفاخر بأنهم قاموا بذلك بطريقة أفضل؟ كان الرياء مثيراً للضحك في ذلك الموقف، وقال مقاتل شيشاني التجأ إلى بيت درج أحد المباني السكنية مع ستة مقاتلين آخرين: "يقوم هؤلاء باحتجاز الرهائن، وهم جميعاً سكارى بعد أن نهبوا متجراً للفودكا. يريد الضابط المسؤول عنهم أن يتحول إلى شامل باسايف آخر، ولكنه لن يستطيع ذلك أبداً". قال خضر: "نحن بانتظار الأوامر، ولم نتلقَ أي شيء حول ضرورة اقتحام المستشفى تجنباً لقتل المرضى. لكن إذا تلقينا الأمر، سنريهم كيف يتمّ اقتحام المبنى، ولن يكون ذلك بالطريقة التي اتبعوها ضد شامل في *بودينوفيسك*. وسوف نخلي المكان في غضون 15 دقيقة".

في الحادي عشر من آب، تحوّل الروس إلى شامل باساييف آخر، وخرجوا من المستشفى سيراً على الأقدام مع حوالى 100 من المرضى والكادر الطبي، ومشوا بصحبة الشيشانيين الغاضبين نحو شارع فرعي يقودهم إلى قاعدتهم. وتمّ إطلاق سراح الناس الذين شكلوا الدرع البشري كما هو متفق عليه، وعاد بعضهم مشياً إلى المستشفى. بعد وصولهم بوقت قصير، قام الروس بقصف المستشفى بقذائف الهاون.

بالطبع كان هناك الكثير من القصف. كان الروس يقصفون المدينة في أوقات فراغهم بعد خروج قواتهم بأمان من المستشفى. كانت لديهم الإحداثيات المحلية، وأرادوا الانتقام. لغاية ذلك الوقت، شكّل وجود هؤلاء الجنود الروس في المستشفى عامل حماية لجميع من كان في الجوار، سواء كانوا رجال خضر أو المدنيين. واستخدم الجنود الروس الأطباء والمرضى كدروع بشرية، بينما استخدم الشيشانيون بفعالية الجنود كدروع بشرية. عادت اللعبة آنذاك إلى نقطة الصفر.

جاء خضر إلى شقتنا قبل بدء القصف بقليل، وكان هناك صمت كامل، لا يتخلله سوى دويّ قذائف الهاون العادي في فترة الظهيرة الحارة. استلقيت على الأرض ودخّنت، وعدّل خضر وضعية خوذة القوات الخاصة، وجلس على الأرض بعد أن أخرج مسبحة. وقال بصوت منخفض: "الأوغاد، كنت أعرف أنهم سيفعلون هذا بعد أن نسمح لهم بالذهاب، ولكن ذلك ليس بالشيء المهم. أهم شيء هو بقاؤنا على قيد الحياة حتى نستطيع الاستمرار بالقتال". في الخارج، قتلت قذيفة هاون ممرضة كانت قد عاشت مأساة الرهائن بكاملها، وعادت إلى المستشفى بعد أن أطلق الجنود الروس سراحها. أصابت الشظايا طبيبين وممرضتين وأحد المرضى بجروح.

تمّ إخلاء آخر 22 مريضاً كانوا في المستشفى التاسع بعد ذلك، وبقي المبنى الضخم خالياً حتى نهاية المعركة. كانت حالات جميع هؤلاء المرضى صعبة، وكانوا إما مصابين بجراح بالغة أو لا يمكن نقلهم بعيداً لسوء أوضاعهم، ولهذا تمّ نقلهم إلى قبو أحد المتاجر بجانب المستشفى. أضاء مصباح الزيت الجدران الرطبة، وكانت الأرض مغطاة بمزيج من الطين والقمامة. في غرف يصل بينها ممر مركزي، كان الجرحى يغرقون بدمائهم. كان أحد الرجال مصاباً بجرح عميق في رأسه، وفيما فقدت إحدى النساء قدمها. اقترب منا مسنان مريضان للغاية، وكانا مثل الزبيب الذابل، وربما كانا يعتقدان أنني عامل إغاثة. وقالت المرأة العجوز: "أُكتب اسمينا على قائمتك. اُنظر إليَّ، وانظر إلى زوجي"، ولكنني لم أستطع.

لم يكن الشخص الوحيد الذي يعتني بهؤلاء البشر قد تلقّت تدريباً كافياً. كانت ناتاشا بابوفا امرأة تبلغ من العمر 26 عاماً، وتتمتع بقوة وهدوء كبيرين؛ ربما بسبب الصدمة. جاءت بابوفا إلى الشيشان من روسيا لتعمل كمتطوعة منذ عدة شهور، ولم تتصور قط ما سيحدث. قالت: "لقد قصفوا المستشفى البارحة عندما كنا فيها، ولهذا نقلنا الجميع إلى هنا خلال الليل. طوال يوم أمس، لم نستطع الخروج لإحضار الماء، ولهذا لا يوجد ما يأكله أو يشربه هؤلاء الناس عدا الكاكاو. ليس لدينا سوى القليل من الضمادات، كما لا توجد أدوية مضادة للالتهاب أو مخدر أيضاً".

غروزني

تحركت مع أندريه بابيتسكي بسرعة عبر إحدى الباحات، وتركنا المستشفى ومقاتلي البويفكس خلفنا. بعد أن قطعنا مسافة 150 متراً على الطريق الرئيسي، ظهرت أمامنا فجأة ثلاث أو أربع عربات روسية مدرّعة، وتجمّدنا في مكاننا، وربضنا على الأرض.

اختفت العربات خلف بعض الأشجار خلال ثوانٍ قليلة بصمت. شعرت بالراحة للحظة لأن تلك العربات ابتعدت عنا. ثم ارتفع مستوى الأدرينالين لدينا: لقد غيّرت مسارها، وعادت أدراجها على الطريق نحونا. لقد كانوا يهاجمون.

بدأت بالصراخ مع بابيتسكي: عربات مدرّعة! عربات مدرّعة! ورغم أنها كانت محض صدفة، إلا أننا كنا أول من يكتشف الهجوم؛ كان البويفكس عند المنعطف يراقبون، وكان شعوراً غريباً أن نقوم بتحذير البويفكس، وأن نشارك في الحرب. لكن قد نموت جميعاً إذا فاجأت المدرّعات البويفكس.
صرخ أحد الشيشانيين: "أين؟" وأجبنا: "على الطريق الرئيسي، ويتجهون نحونا الآن."
سرعان ما سمعنا أصوات محركات العربات المدرّعة، والتي أخذت تقترب شيئاً فشيئاً. زحف الشيشانيون إلى مواقعهم.
وصرخ قائد شيشاني لرجاله: "هيا! هيا!". وظهرت القافلة بشكل كامل في نطاق 25 متراً.
دار مقاتل شيشاني بسرعة حول زاوية مبناه، وجثا على ركبته اليمنى، وأطلق قذيفة مضادة للدروع (آر بي جي) من على كتفه. تحوّلت أول عربة مدرّعة إلى كتلة من اللهب الأصفر.
تعالت أصوات إطلاق النار من البنادق والرشاشات عندما خرج الشيشانيون من مخبأهم، وبادلهم الروس القتال. كان هناك انفجار لقذيفة ثانية مضادة للدروع.
تسابقت مع بابيتسكي عبر المساحة المكشوفة لنتخذ من أحد الأبنية المهجورة مخبأ لنا، وانتقلنا منه إلى شقتنا. بعد دقيقة من دخولنا، عبر أربعة جنود روس نجوا من حطام العربة المدرّعة المصابة باحة البناء الذي كنا فيه، واتخذوا أول شقة سكنية وجدوها ملجأ لهم؛ وكانت الشقة المجاورة لنا. لحق بهم الشيشانيون مباشرة، ولكن تأخروا: أصبح الروس في الداخل، واحتجزوا رهائن في الشقة. إنها الدروع البشرية مرة أخرى. أي شيء للنجاة.
صرخ جندي من البناء: "لا تطلقوا النار، وإلا قتلتهم."
ردّ قائد شيشاني نحيل وأصلع، وكان يتكأ على زاوية الباحة: "أيًّا كان المسؤول عنكم، أخرجوا غير مسلحين، وسنتكلم."
كانت الأصوات متشنجة، وإذا انطلقت رصاصة واحدة، سينفجر المكان برمّته.
بشكل غير متوقع ولكن شجاع، وضع القائد الشيشاني بندقيته جانباً، وسار ببساطة عبر الباحة مباشرة نحو البناء السكني.
بعد دقيقة، ظهر الشيشاني مع الجنود الأربعة المذعورين، وهم يسيرون خلفه، وكان أحدهم جريحاً. لم يكن لدى الروس أي خيار سوى الاستسلام أو الموت مع رهائنهم وهم يقاتلون، ولم يتطلب إقناعهم وقتاً طويلاً. حصل ما كان غير متوقعٍ أبداً في الشيشان؛ تفادي حصول مجزرة وإنقاذ الأبرياء.
فيما بعد، كان من السهل توجيه أصابع الاتهام. لم يكن يجدر بالجنود الروس احتجاز رهائن في تلك الشقة، ولم يكن علينا نحن الصحفيون توريط أنفسنا في المعركة، ومهما كان الدور الذي لعبناه صغيراً، كان سبباً لتوجيه أصابع الاتهام لنا. كان هناك إدانة وذنب، ولكن فقط بعد انتهاء كل شيء. خلال المأزق لا يوجد إدانة أو ذنب؛ ناجون فقط.

بين 11 - 13 آب، أي بعد أسبوع من إنطلاق هجومهم، احتل البويفكس الشيشانيون أو أحرقوا كل مبنى حيوي في مركز المدينة. تحوّل المبنى الإداري لدوكو زافغاييف إلى ركام أسود اللون، وتبعثرت العربات المدرّعة والدبابات المحترقة في شارع بعد الآخر.

نتيجة لحصار القوات الروسية داخل المدينة، وعدم تمكّن قوات أخرى من الدخول، كان المقاتلون الشيشانيون قادرين على التجول بحرية في معظم أرجاء المدينة. كانت المواقع الروسية المحاصرة تواجه أوقاتاً صعبة، ومليئة بالجرحى، وتفتقر للذخيرة والطعام. لم تستطع التعزيزات الروسية دخول المدينة بأعداد معقولة، وتعرّضت القاعدتان المنيعتان في مطار سيفرني وخانكالا للهجوم من قبل المقاتلين الشيشان. اتّخذ زافغاييف ملجأً له في خانكالا، بينما انتظر ممثلوه إلى غروزني في ستارايا سونزها المجاورة لا حول لهم ولا قوة.

أشارت أرقام رسمية إلى مقتل 400 جندي روسي وجرح 1200 في المعركة، فيما تمّ اعتبار 130 آخرين في عداد المفقودين، وربما يكونون موتى أو أسرى. ادّعى شامل باساييف، الذي أصيب بجرح في قدمه بسبب رصاصة، بأن الخسائر الروسية كانت 2000 قتيل. كانت الخسائر الشيشانية كبيرة نسبة لمقاييس حرب العصابات، ولكنها لم تصل إلى حجم خسائر الروس.

أخبر باساييف الصحفيين أن باستطاعة الروس إعادة احتلال غروزني، ولكن ذلك: "سوف يستغرق نصف سنة، وسيضطرون لتدمير المدينة قبل ذلك. سيستطيعون السيطرة عليها خلال شهر أيضاً، ولكن ذلك سيكلّفهم 10.000 - 15.000 رجل. كان باساييف محقاً رغم المبالغة، فقد استطاع الشيشانيون السيطرة على معظم العاصمة، وكانت الوحدات الروسية المحاصرة أسيرة لديهم، ولم يكن باستطاعة الروس قلب الموقف سوى بتكبّد خسائر فادحة. كش *ملك*.

في ليلة 11 آب، قام ألكسندر ليبيد، سكرتير مجلس الأمن القومي في الكرملين، والذي منحه الرئيس يلتسن صلاحيات كاملة فيما يخص الشيشان، بالدخول إلى الجمهورية سرًّا للقاء أصلان مسخادوف. سافر ليبيد من داغستان بسيارة جيب في الظلام دون مرافقة شخصية أو عربات مدرّعة. حالما أصبح في نوفي أتاجي المزدهرة إلى الجنوب من غروزني، ذهب مباشرة إلى اجتماعه المهم في منزل مليونير شيشاني حيث كان مسخادوف ينتظره هناك. قرابة الرابعة بعد منتصف الليل، توصلا إلى الخطوط العريضة لاتفاقية وقف إطلاق النار، وعاد ليبيد نشيطاً إلى داغستان.

في الثالث عشر من آب، التقى مسخادوف مع الجنرال قسطنطين بوليكوفسكي، الذي كان يتولّى مهام القائد العام الروسي في غياب تيكوميروف خارج نوفي أتاجي. التقيا مجدداً في السابع عشر من ذلك الشهر، وكان اللقاء بسيطاً ومتوتراً. جاء مسخادوف بموكب من سيارات الجيب، بينما جاء بوليكوفيسكي بأسطول من المروحيات القتالية. جلس الجنرالان متقابلين على طاولة قابلة للطي في خيمة بسيطة صفراء اللون، وأحاطت الدبابات الروسية بالمكان، وحلّقت المروحيات المسلحة فوقهم على ارتفاع منخفض لدرجة أنني تساءلت كيف استطاع كل من مسخادوف وبوليكوفيسكي سماع بعضهما البعض. لكنهما اتفقا هناك على وقف مبدئي لإطلاق النار. رغم أن ذلك كان سيتطلب أسابيع ليصبح حقيقة واقعة، إلا أن الحرب كانت قد انتهت فعلياً.

عارض كلٌ من الفريق الحكومي المناصر للحرب والشيوعيون والعناصر القومية المهيمنة على البرلمان مفاوضات السلام التي أنجزها ليبيد. كان وزير الداخلية أناتولي كوليكوف العدو الرئيسي لليبيد ولخطة السلام، وهو السياسي الذي استثمر منصبه في الحرب، والذي لاقت قواته المهانة في معركة غروزني. كان واضحاً أن بوليكوفيسكي متفق مع المتشددين في موسكو، وأنه قرر قلب العملية برمتها عندما هدّد فجأة في 19 آب بشن حرب خاطفة للسيطرة على غروزني مجدداً. ستكون تلك آخر عملية عسكرية متهورة، وواجه مقاتلو البويفكس وعشرات الآلاف من المدنيين والجنود الروس المحاصرين داخل المدينة عاصفة نارية، ومنح بوليكوفيسكي المدنيين 48 ساعة لمغادرة المدينة، وهرب الآلاف خائفين ليواجهوا قصف المدفعية والمروحيات - قبل وقت طويل من انتهاء المهلة المحددة - عندما كانوا يتجهون إلى الأرياف. حفر البويفكس الغاضبون والعاقدو العزم في الوقت نفسه، المزيد من الخنادق، واستعدّوا للمعركة النهائية.

لكن تلك المعركة لم تحصل أبداً. تدخّل كلٌ من ليبيد ووزير الدفاع الجديد إيغور روديونوف في اللحظة الأخيرة ليؤكّدا على سلطتهما، وتمكنا من إخضاع الجنرالات لسيطرتهما. أظهر الحدث حقيقة حاسمة ومرّة: إذا كانت الحرب ستنتهي، يجب على موسكو إما أن تذعن أو تسير على خطى بوليكوفيسكي؛ مجزرة كاملة في المدينة، وتنفيذ إبادة جماعية في النهاية.

كان لدى ليبيد، وهو مظليّ سابق ومحارب سابق في أفغانستان، ومثل جميع الضباط الذين حاربوا في الشيشان، حرية الاختيار، وبخلاف المفاوضين السابقين، لم يكن مقيداً بتوقيت معين لبدء أو إنهاء الحرب. لم يكن جزءاً من أي عملية تغطية، كما أنه كسر إحدى المحرّمات باعترافه على

الملأ بأن الجيش لم يشتبك مع قطاع طرق أو إرهابيين، وإنما *قاتل الشعب*. إضافة إلى ذلك، كان لديه رغبة عارمة بأن يصبح رئيساً يوماً ما، ولم يكن لديه سبب لحماية رئيسه يلتسن من المهانة. لهذا اختار ليبيد الاستسلام، وقال: "لن نتكلّم بعد الآن بلغة الإنذارات النهائية".

في 22 آب، وافق الروس على الانسحاب من غروزني والجبال والعودة إلى قواعدهم في خانكالا وسيفرني. كان باستطاعة الشيشانيين استعادة جمهوريتهم. ثم في 31 آب، التقى ليبيد ومسخادوف في مدينة كاسافيورت على الحدود الشيشانية الداغستانية لحل عقدة غوردين التي يطالب الشيشانيون بموجبها بالحصول على الاستقلال. كان الاتفاق يسمح بإيقاف جميع النقاشات حتى يكون الطرفان مستعدين للحديث، ومنحوا أنفسهم مهلة خمس سنوات "حتى تنتصر الرؤوس الباردة" كما قال ليبيد. كانت الصيغة بسيطة وواضحة للغاية: لقد انتهت الحرب.

في البرلمان في موسكو، استقبل النواب ليبيد بصيحات *يا للعار!* و*خائن!*. دخل ليبيد في معركة شتائم لاذعة مع كوليكوف، وكال الاثنان الاتهامات لبعضهما، من إبرام صفقات مع المافيا إلى الخيانة العظمى. لم يكن ليبيد، الجسور جداً في الشيشان، مستعداً للعمل المعقّد في المشاكل الداخلية السياسية، ولم يكسبه تهوره وهجماته المضادة المتغطرسة إضافة إلى خطة السلام سوى المزيد من الأعداء.

في تلك الفوضى، كان الجميع بانتظار تدخّل الرئيس يلتسن. كان الشخص الوحيد القادر على إصدار الأمر بتنفيذ خطة السلام، ووضع نهاية للحرب. لم يتفوه الرئيس بكلمة لضعفه بسبب الأزمة القلبية التي عانى منها ولقلقه من تزايد شعبية ليبيد في الأوساط الشعبية. في 17 تشرين الأول، ظهر الرئيس على التلفاز، وأعلن أنه طرد ليبيد بسبب تمرّده. لكن زخم الحرب تراجع بشكل حاسم، وبدا الإمبراطور عارياً. بدت موسكو "فاسدة، وعاجزة، وغبيةً وغير مبالية" كما وصفها ألكسندر سولزينتسين، وأن ليبيد فعل الشيء الصحيح بإعلانه *الهزيمة الكاملة*. لم يكن هناك مجال للتراجع، وقبل يلتسن الخطّة مرغماً، وكان على وشك عقد سلام مع الشيشانيين أخيراً. في 23 تشرين الثاني، أي بعد حوالى سنتين من هجوم الدبابات على غروزني التي كان يسيطر عليها جوهر دوداييف، قام الرئيس بتصرّف غير مسؤول حين أمر بانسحاب كامل القوات من الشيشان.

لقد ربح الشيشانيون.

بودينوفيسك

عندما انتهت معركة غروزني، غادر الجنود الروس المدينة والجبال في أرتال من مئات الشاحنات والعربات المدرّعة التي تحمل الأعلام البيضاء، ورافقتهم سيارات جيب البويفكس لتأمين سلامتهم. عاد الشيشانيون إلى قراهم بالحافلات، والشاحنات، وسيارات الجيب، والعربات المصفحة التي استولى عليها الرجال المبتهجون، والتي تحمل أعلام الثوار.

عبر الشيشان، كانت نقاط التفتيش والمواقع الدفاعية الروسية، والتي كانت فيما مضى مليئة برجال خطيرين، وشجعان، وخائفين، وسكارى، ورحيمين وغاضبين، خالية تماماً. كان الحديد المصفّح الذي استخدمه المقاتلون كغطاء لمخابئهم منتشراً في كل مكان. أضحى سور الأسلاك الشائكة ضعيفاً، وبدأت الخنادق تنهار ببطء. كانت الرسوم الموجودة على المعاقل الإسمنتية الصغيرة تشير إلى الأمكنة التي أتى منها وسيعود إليها الجنود: سامارا، موسكو، لينينغراد.

بالنسبة للواءين 205 و101، لم يكن خزي تحميل القطارات بالقوات التي ستخرج من الشيشان على وشك الانتهاء. تمّ تشكيل هذين اللواءين خصيصاً لحماية الوجود الروسي الدائم في الشيشان؛ ولم يكن لديهما قواعد يتراجعان إليها. بالنسبة لجنود اللواءين، لن يكون الأقارب القلقون بانتظارهم في محطّات القطارات، ولن يجدوا فرقاً نحاسية تعزف لهم،

أو راحة القاعدة لتخفف من وطأة سقوطهم. حصلوا ببساطة على حقول فارغة في منطقة ستافروبول، وأخبرتهم قيادتهم بأن يقوموا بأفضل ما يستطيعون.
وصل اللواء 205 إلى *بوديونوفيسك*: حقل فارغ مليء بالخيام على أحد جوانبه، وأبنية غير منتهية على الجانب الآخر. لدى وصول الجنود في منتصف الشتاء، قام السكان المحليون بتقديم الطعام والملابس الدافئة لهم، ولكن سرعان ما تلاشى ذلك الترحيب الحار. فقد الجنود انضباطهم، وكان الانسحاب دليلاً على الانحطاط. وفي غضون أسابيع، تحوّلت تسمية اللواء، بناءً على تورية في اللغة الروسية، من 205 إلى اللواء 200 السكّير.
قال مزارع يدعى فيكتور: "إنهم حفنة من قطاع الطرق. لقد جاء إلينا مرةً جندي سكّير وبيده قنبلة يدوية مما جعلنا نهرب جميعاً. استولى ضباطهم على فندق المدينة، وقالت لي فتاة تعمل هناك إنها وجدت ألغاماً أرضية وقنابل يدوية على الأرض ولم تكن تعرف ما تفعله بها. لقد كانوا يشربون حتى الثمالة كل ليلة."
في موقع البناء، الذي كان من المفروض أن يصبح مرآباً كبيراً قبل أن يستولي عليه الجيش، لم يكن هناك أي حارس عند البوابة الرئيسية وحسب، وإنما لم يكن هناك أحد يخبرني أين أستطيع إيجاد الضباط. عندما دخلت أول مبنى وصلت إليه، التقيت برائد شاب على السلالم. ولدهشتي الشديدة، كان لطيفاً للغاية معي، إلا أنني أدركت بعد ذلك أنه ثمل للغاية.
اصطحبني عبر الممر، وتجاوزنا بعض المجندين الذين لم يبلغوا من العمر ما فيه الكفاية لحلاقة ذقونهم، والذين كانت أكمام معاطفهم ـ التي تحمل طابع الحرب العالمية الثانية ـ إما طويلة أو قصيرة جدًّا عليهم. قال لي الرائد: "هنا"، وخرجت من الغرفة غيمة من دخان لفائف التبغ حالما فتح الباب. كان اثنا عشر ضابطاً يجلسون حول طاولة عليها أطباق طعام لم يأكلوا سوى نصفه، وزجاجات، وأكواب. كان بعضهم يرتدي السترات الرسمية، وبعضهم في لباس خفيف، وآخرون يرتدون قمصان الجيش الداخلية ذات اللونين الأزرق والأبيض. أثار حضوري ابتهاجهم. وقال الرائد كما لو أنه يقدّم تقريراً: "أحضرت لكم ضيفاً من فرنسا."
حاول عقيد النهوض لإفساح المجال لي للجلوس في مكانه، ولكنه ترنّح في مشيته، واصطدم بتلفاز عندما كان يحاول الاستناد إليه، وبدأ جميع الضباط بالحديث إليَّ معاً، وتنافسوا في سكب الشراب لي.
قال العقيد: "اشرب المزيد من الفودكا. هيا! هيا! المزيد. إنه لا يخضع للجمارك."
وقال ضابط آخر جلس على الجانب الآخر من الطاولة: "أعطوه بعض الشراب. هل تذوّق الشراب؟ هل تذوّقت شرابنا؟."
قال شخص آخر: "ربما لا يحب الشراب. إليك، اشرب القليل من جعتنا."
كان الوحيد الذي يحمل سلاحاً بينهم مقدّم وسيم الهيئة وقوي البنية، ويجلس في الطرف المقابل لي، ومسدس في قراب على كتفه. وقال بفخر: "أرى أنك تنظر إلى مسدسي. لقد قدّمه لي وزير الدفاع. انظر". سحب المسدس المحشو وأعطاني إياه. اعترض مقدّم آخر سبيله فجأة، وقام بإفراغ المسدس من الذخيرة.
سرعان ما فقد كل شخص منهم الاهتمام بي. غادر أحدهم الغرفة لينام، ودخل آخر في حديث عاطفي مع جاره. فجأة ارتاب العقيد بي وطلب رؤية أوراقي، وأخبرني أنني انتهكت الإجراءات الأمنية، ثم بدا كما لو أنه يعاني من فقدان الذاكرة، وقام بإعادة بطاقتي الشخصية بلطف، وملأ قدحاً صغيراً آخر من الفودكا.
في النهاية، كنت قادراً على التحدّث مع أحدهم بمفرده. وسألت: ما الذي يحصل؟ وقال لي المقدّم صاحب المسدس: "كان هذا اللواء فعالاً ويتمتع بخبرة كبيرة، إلا أنه أصبح لواءً مهملاً الآن. لا يملك أي ضابط شقة، ونعيش في غرف كهذه، ونحن 72 ضابطاً مع عائلاتنا. إنه التناقض الروسي لأن الرجال الذين دافعوا عن مصالح الدولة في الشيشان لم يعودوا مرغوبين الآن. ولن نفهم هذا أبداً."

8. ثمن السلام

غروزني

كان انسحاب القوات يعني حرية الحركة. لم يعد هناك نقاط تفتيش، ولا أرتال عربات مدرّعة ودبابات تهدر على الطرق المدمّرة، ولا حاجة للنظر إلى الأجواء بحثاً عن الطائرات. لا مزيد من مخيمات التصفية، أو الاختفاء دون سبب، ولا مزيد من القتال الليلي في شوارع غروزني. أصبحنا نستطيع قيادة السيارة أينما نشاء وحينما نشاء.

وسط مشاعر الغبطة والارتياح، تمّت إقامة حفلات الزفاف التي تمّ تأجيلها بسبب الحرب على عجل، وكانت قوافل الزواج، المكوّنة من سيارات مزينة بالورود والسجاجيد، تخترق القرى، وكان يتمّ إطلاق الرصاص ابتهاجاً في الحفلات. في الماضي، كانت البنادق والمسدسات كافية، ولكن الضيوف يطلقون النار الآن في الهواء من الأسلحة الرشاشة. قال أحد الأصدقاء بعد حفل زفاف في غوديرمز: "لا بد أن الناس اعتقدوا أن الحرب بدأت مجدداً"، وكانت القذائف الصاروخية تنطلق لتنفجر عالياً في السماء، حيث أوقعت بعض الإصابات، وكان هناك حالات يحتفل بها الناس بالزفاف في أحد الأيام، ويخرجون في جنازة في اليوم التالي. ولكن الشيشانيين يحبون صوت إطلاق النار، ويستطيعون الآن هدر كل ذخيرتهم دون خوف: لقد ربحوا، وهم في غاية السعادة.

قال لي صديقي ماخشاريب مؤنّباً: "أتذكر أنك قلت مرّة أن الحرب لا تستحق أن نستمر بها، لأن الثمن مرتفع جداً. نستطيع الآن التنفس بحرية ثانية؛ هذا ما كنّا نقاتل لأجله، وقد كان يستحق ذلك."

في 27 كانون الثاني، أشرفت *منظمة الأمن والتعاون الأوروبية* على الانتخابات في الشيشان، والتي فاز فيها أصلان مسخادوف بمنصب الرئاسة بأغلبية ساحقة، وتفوق على كل من شامل باساييف وزليمخان ياندرباييف.

بعد خروج آخر جندي روسي، أصبح باستطاعة الشيشانيين تقرير مصيرهم بحرية للمرة الأولى منذ فوضى سنة 1991، وتحولت الانتخابات إلى عرس وطني. ازدحمت المراكز الانتخابية في كل مكان، وامتدت طوابير المصوّتين طويلاً في الثلج، وتمّ تمديد وقت الانتخاب لساعتين لاستقبال الأعداد الكبيرة. قال أسودن، وهو رجل يبلغ 40 عاماً، فيما كان يستعد للتصويت لباساييف في ميخكتي وهي إحدى آخر القرى التي قصفها الروس قبل السيطرة على غروزني: "كان الناس يأملون بالحصول على شيء أفضل. لقد تعبوا من كل ما يجري، ويريدون بناء دولتهم". دُهش خبراء مراقبة الانتخابات في منظمة *الأمن والتعاون الأوروبية* - التي كان يرأس بعثتها في غروزني تيم غولدمان، الشجاع الذي لا يتعب - من حماس الشيشانيين والطريقة التي يتحدون بها التوقعات بتزوير الانتخابات والعنف.

في خطاب قصير بعد انتصاره، صرّح مسخادوف: "الشيشان دولة مستقلّة... وإن ذلك شيء ثابت. إن باقي العالم بمن فيهم روسيا، سيعترفون بهذا الاستقلال". بالفعل، فاز هذا الرجل البالغ من العمر 45 عاماً، والذي قاوم الجيش الروسي، في انتخابات حرة بين أبناء شعبه. كان يجلس آنذاك أمام الصحفيين القادمين من كل أنحاء العالم، ويبدو مثل رئيس جمهورية صغيرة مدمّرة، ولكن مستقلّة.

رغم ذلك، لم يكن الشيشانيون قد حصلوا على الاستقلال الحقيقي بعد، وإنما مجرد تحذير مرير لوضع حدّ لحربهم. كان لديهم آنذاك استقلال *واقعي*، يسمح لهم بانتقاء قادتهم، والاحتفاظ بجيشهم الخاص، ووضع قوانينهم الخاصة. ولكن الاستقلال الشرعي الكامل، مع مقعد في الأمم المتحدة، وسفارات واعتراف عالمي بحق الدفاع عن النفس، بقي بعيد المنال كما كان دائماً.

وفقاً لاتفاقية سلام **كاسافيورت**، كان على مسخادوف التفاوض في غضون خمس سنوات، ولكن التحوّل من الحرب إلى التفاوض جعله معرَّضا للانتقاد بشكل أكبر. رغم أن الشيشان كانت تمتلك

أراضي زراعية غنية، ومصافي لتكرير النفط، ويتمتع شعبها بمهارات تجارية شهيرة، إلا أن الدولة المستقلة لن تكون قابلة للحياة إن لم يكن هناك تعاون اقتصادي من قبل روسيا. كانت الشيشان المدمّرة تابعة بدرجة كبيرة لروسيا، وتحتاج لتعاونها في التجارة، والمساعدات، والخطوط الحديدية، والنقل الجوي، والطرقات. عرضت موسكو تقديم تلك المساعدات، ولكن بشرط انضمام الشيشان إلى الاتحاد الروسي. فشلت موسكو في تخريب حركة الاستقلال الشيشانية، ولكنها حاولت استنزافها حتى الموت.

واجه مسخادوف أيضاً مشكلة حادة في المحافظة على النظام، ومحاربة العصابات الإجرامية المزودة بأسلحة ثقيلة، والتي عاثت فساداً خلال خمس سنوات من عدم الاستقرار والحرب. في كانون الأول عام 1996، قُتل ستة موظفين من اللجنة الدولية للصليب الأحمر أثناء نومهم في المستشفى الذي افتتحوه في نوفي أتاجي، وطوال الشتاء اختطف الكثير من الصحفيين الروس، ولم يتمّ التعرف إلى الجناة أبداً، وادّعى العديد من الشيشانيين بأن اغتيال موظفي الصليب الأحمر إضافة إلى الكثير من الحوادث الأخرى التي تقوض من سلطة مسخادوف ومن سمعة الجمهورية في كل أنحاء العالم، كانت من فعل المخابرات السرية الروسية. كان إلقاء اللوم على الاستخبارات السرية سهلاً للغاية، وحتى في غياب التدخّل الروسي، لم يكن مسخادوف قادراً على ضبط المجموعات المسلّحة التي كانت مثل الأبريغ غير خاضعة لأي قانون. وأصبح الاختطاف، وخصوصاً الصحفيين، عملاً ضخماً. رغم ذلك، لم تكن المخاوف من محاولات المخابرات الروسية السرية زعزعة استقرار الشيشان بعد الحرب دون أساس. كان منع السلطات الانفصالية من فرض سيطرتها الكاملة على جمهوريتها طريقة واضحة لإضعاف موقفها على طاولة المفاوضات.

تمّ خنق أي إحساس شيشاني بالنصر نتيجة الكلفة المادية الهائلة للحرب. أعاد الشتاء الأول بعد السلام معه ذكريات تأبين الموتى إلى الأذهان، وتساقط الثلج على الأسطح المحطّمة، ومرت الرياح الباردة عبر الجدران الخشنة، وملأ الجليد الحقول التي لم يجرؤ أحد على عبورها خوفاً من الألغام الأرضية.

لا يعلم أحد بالضبط عدد الشيشانيين، الذين لقوا حتفهم أو تعرضوا للإصابة خلال 21 شهراً من القتال علماً أن عدد السكان يقارب المليون، وفي نيسان 1996، قدّرت منظمة *أطباء بلا حدود* بأن 40.000 مدني لقوا حتفهم، وأعلن ألكسندر ليبيد بعد الحرب، بطريقته النموذجية التي تعتمد على الصدفة، بأن ما بين 80.000 - 100.000 شخص لقوا حتفهم، وهو رقم استخدمته السلطات الشيشانية أيضاً دون دليل مادي. كل ما على المرء فعله هو النظر إلى صفوف القبور الجديدة، بما فيها قبور المحاربين التي يتمّ تمييزها بلوح خشبي طويل، في كل مقبرة قرية ليدرك حجم المأساة. لا يمكن تحديد عدد البويفكس الذين ماتوا على وجه الدقة، ولكن بسبب طبيعة القتال كانت خسائرهم أقل مما حلّ بالسكّان المدنيين. وقدّر دبلوماسي في "منظمة الأمن والتعاون الأوروبية" الخسائر البشرية والمادية لمثل هذه المنطقة الصغيرة بما يعادل الخسائر السوفياتية المروّعة خلال الحرب العالمية الثانية. كان كل شخص يعرف أحد القتلى، وبقي 1300 شخص في عداد المفقودين، الذين يُعتقد أنهم ماتوا جميعاً، أو اختفوا في نظام *مخيمات التصفية*.

يجب أن تكون خسائر الجيش الروسي ووزارة الداخلية معروفة بدقّة، ولكن السلطات الروسية قدّمت معلومات متناقضة وغير كاملة في غالب الأوقات خلال الحرب، وكان هناك شك في صحّة الأرقام المقدمة عندما انتهت الحرب. قال ليبيد أنه في نهاية عام 1996، لقي 3826 جندياً حتفهم، وتعرّض 17.892 آخرين للإصابة، وتمّ اعتبار 1906 جنودٍ في عداد القتلى أو الأسرى. أعدّ

ناشطون في منظمة ميموريال لحقوق الإنسان قائمةً في بداية سنة 1997 تشير إلى أن 4379 جندياً معروفين بالاسم لقوا حتفهم، وأن 1408 آخرين فقدوا خلال المعارك أو وقعوا أسرى، أو فرّوا من الخدمة. هناك اعتقاد بأن بضع مئات فقط من المفقودين ما زالوا أحياء.

قدّرت جماعة حقوق الإنسان المسمّاة *أمّهات الجنود* عدد القتلى بحوالى 7000 قتيل، بينما أخبرني مصدر في وزارة الدفاع، والذي كان في موقع يمكّنه من معرفة الحقيقة، بأن الخسائر كانت أقل من 10.000 جندي. وقال إن 5620 رجلاً من الجيش لقوا حتفهم، فيما تعرّض ثلاثة أضعاف هذا العدد للإصابة؛ وفقدت وزارة الداخلية حوالى 1800 - 2500 رجل، وفقدت الاستخبارات الروسية السرية وحرس الحدود وفروع أخرى من قوى الأمن بضع مئات أخرى.

لن يعرف أحد القصة الكاملة، وبعد وقت طويل من إبرام اتفاق السلام في الشيشان، ما زالت برادات الجيش في روستوف أون - دون جنوب روسيا مليئة بجثث جنود مجهولي الهوية، وما زالت ترد إليها جثث جديدة تمّ اكتشافها مؤخًّرا في مقابر جماعية في الشيشان. حتى بعد مرور عقد على انتهاء الحرب السوفياتية في أفغانستان، والتي استمرت عشر سنوات، ما زال الكثيرون يعتقدون أن الأرقام الحقيقية لعدد الضحايا - رسمياً حوالى 15.000 قتيل - لم يتمّ نشرها بعد.

كان توثيق الدمار المادي أكثر سهولة. تعرّضت مجمّعات تكرير النفط للتدمير بشكل رهيب، ورغم إمكانية إصلاح تجهيزات المرافق العامة، إلا أنها تعرّضت لقصف مكثّف في العديد من الأماكن بحيث لا يمكن تقديم سوى خدمات بسيطة. تمّ تفجير معامل إنتاج الإسمنت الضخمة في الجنوب، ولم يعد معمل *المطرقة الحمراء* للمعادن في غروزني ينتج سوى بالحدّ الأدنى من طاقته، وتعرّضت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية للإهمال، أو هجرها مالكوها بسبب الألغام الأرضية. في غروزني، أتت النيران على المباني السكنية واحداً تلو الآخر، ولم تترك سوى الجدران الخارجية الخالية. تعرّض مركز المدينة للهدم بالجرافات، واختفت أحياء بكاملها مع منازلها وباحاتها الصغيرة مثلما اختفت قرى بأكملها في الجنوب. قدّر ليبيد عدد البيوت المدمّرة بما يقارب 46.000، وحتى مع نهاية الحرب، بقي حوالى 300.000 إلى 400.000 شخص لاجئين، بمن فيهم الكثير من الروس الذين غادروا منازلهم أثناء حكم دوداييف قبل الحرب.

تمّ إصلاح الدمار في بعض الأماكن بسرعة مذهلة، وعلى طول ضفة نهر أرغون، كان هناك مئات البيوت المهدّمة في نهاية عام 1995، وتمّت إعادة بناء البلدة بالكامل تقريباً عند نهاية الحرب. لم يكن هناك من شواهد على الكارثة سوى بعض الأشجار المقطوعة والأغصان القصيرة البارزة مثل أصابع اليد. كانت مدينة أرغون محظوظة لأن القتال لم يستمر فيها سوى شهور قليلة في بداية الحرب. وسيطر اليأس على الأماكن الأكثر بعداً أو القرى التي استمر فيها القتال حتى النهاية.

في الوقت الذي تمّ فيه انتخاب مسخادوف، لم تعد سوى 10 عائلات فقط إلى باموت، وتحوّل باقي القرية، التي كانت موطناً لحوالى 6500 شخص فيما مضى، إلى أنقاض محروقة ومشوهة، ولم يجرؤ أحد على إعادة البناء بسبب الألغام الأرضية، وكان يتعرض أحد الأشخاص للقتل أو التشويه كل بضعة أسابيع. في أسفل إحدى منحدرات شوارع باموت، والتي كان البويفكس يستعملونها كقاعدة لهم، عرض لي أيوب خانزاتوف، الذي يبلغ من العمر 64 سنة، بقايا منزله. لم تبقَ سوى الأساسات فقط، وبقايا كرمة هشة كانت يوماً تشكّل سقفاً فوق الباحة. في إحدى الباحات في نهاية الشارع، جلس المقاتلون يتكلّمون مثل جندي أسير بائس تخلّى عنه جيشه، وقال أيوب: "لقد بنينا هذا منذ حوالى 40 سنة. وعمري الآن 64 سنة، ولا أستطيع البدء من جديد". بدا حاكم باموت **خنزاد باتاييف** أكثر يأساً مما رأيته خلال الحرب. وقال: "أصبح جامعنا - أكثر الأماكن قداسة -

والذي بنيناه بتبرعات القرويين حُطاماَ، وتمّ تفجير مقبرتنا. إننا نستطيع أن نغفر لما فعلوه بالأحياء، ولكنهم دنّسوا القبور، وتحول عشرون بالمئة من القبور إلى حطام، أو تمّ تفجير جثث الموتى. الناس هنا مرهقون مادياً وبدنياً وذهنياً".

لم يكن هناك سكان في كل من أورخوفو، وستاري أتشخوي وزوني، إضافة إلى أجزاء من ساماشكي والعديد من القرى التي كانت مزدهرة فيما مضى. في ستاري أتشخوي، كان ليتش، وهو رجل يبلغ من العمر 40 سنة، يعمل مع أقاربه على أنقاض ما كان منزله. لم يكن هناك أحد آخر في القرية كلها، التي زرتها عدّة مرّات خلال الحرب، ولم اعد أستطيع التعرّف عليها الآن. قال ليتس: "لم يبقَ سوى غرفتين فقط، وإذا استطعنا بناء سقف جديد، سوف يستطيع بعضنا العيش هنا. المشكلة في الألغام الأرضية، فنحن لا نعرف مكانها أو كيف نتعامل معها، والشتاء قادم، وسيصبح الطقس بارداً، والناس متفرقون في كل مكان، في المهاجع، والحظائر، والخيام، وشقق الأصدقاء. والأسوأ من كل هذا هو عدد الأشخاص الذين فقدناهم، وشبابنا الذين ماتوا وهم يقاتلون ضد هذه الهمجيّة. ما السبب؟ ما أهمية هذه القرية الاستراتيجية؟".

أضاف: "يجب أن نكون متفائلين. لدينا أرض جيدة، وبأي حال، كيف لنا ألا نعود إلى بيوتنا؟ لقد عاش هنا والدي، وجدي أيضاً. وأسلافنا مدفونون هنا".

وجد العديد من البويفكس صعوبة في التكيف مع زمن السلام، ولم يستطيعوا التأقلم معه: لا عمل، وغالباً لا منزل. كان لدى المقاتلين السابقين الأكبر سنًّا عائلات، ولكنّ المحاربين الشباب الذين لم يتزوجوا، والذين أبعدوا أنفسهم بالكامل عن المسؤوليات الدنيوية، كانوا بلا هدف. وتحوّل بعضهم إلى حراس شخصيين لأسياد الحرب، أو للوزراء في النخبة الحاكمة الجديدة، وتحوّل آخرون إلى الجريمة أو سعوا إلى الحرب لملء الفراغ. سعى بعض المقاتلين للذهاب إلى طاجيكستان في آسيا الوسطى للانضمام إلى حركة المعارضة الإسلامية غير الشرعية في معركتها ضد الحكومة الشيوعية الجديدة والقوات الروسية التي تدعمها.

قال ماجومد، الذي يبلغ من العمر 17 سنة والذي قاتل فيباموت، أنه يريد: "الذهاب ومساعدة إخواننا المسلمين الذين أتوا لمساعدتنا، كالعرب. لقد اعتدت على الحرب لمدة، وهناك أماكن كثيرة للقتال". هزّ صديقاه فاخا الذي يبلغ من العمر 18 عاماً، وإسلام الذي يبلغ 16 عاماً رأسيهما بالموافقة. كان الثلاثة ضعيفين جسدياً، ولم يصلوا إلى عمر يسمح لهم بحلاقة ذقونهم بعد. كانوا محبوبين ضمن مجتمعهم، ويجب أن يضع المرء في حسبانه أنهم ليسوا مراهقين عاديين. لم يكن هناك أي إشارة على ما يقولونه سوى في أعينهم، التي تتقد حيويةً رغم الابتسامة على شفاههم. يمكن القول من طريقة حمل لفائف التبغ واستنشاق الدخان بعمق إنهم تعلموا التدخين في الأوقات العصيبة.

وصف فاخا، الذي حارب أيضاً في باموت، احتراق مبنى الحكومة في غروزني أثناء معركة آب بأنه عرض مرح. وقال بسعادة: "كل ما تطلّبه الأمر هو سكب النفط عليه، وإطلاق قذيفة صاروخية لإشعاله. قام ماجومد بما هو أبشع من ذلك، وقال ضاحكاً: "لقد أسرنا شخصاً من أصل روسي خارج باموت، وكان مدججاً بالسلاح، وعندما قبضنا عليه، أخبرنا بأنه كان يصطاد وأضاع الطريق، ولم يعتقد مطلقاً أنه في الشيشان يا له من عذر، لقد كان واضحاً أنه من القوات الموالية للروس، ولهذا قررنا قطع رأسه. أراد الجميع القيام بذلك، ولكنهم اختاروني لأني كنت الأصغر، ولأني قبضت عليه". ما زال يحتفظ بسكين طويلة أخذها من ذلك الرجل كدليل على النصر.

وصف طبيب في غروزني تأثير الحرب على الأطفال بقوله: "لقد أصبحوا أكثر عدوانية، وعصبيةً، وقسوةً ووقاحةً. وهم لا يحترمون الأكبر سنًّا، كما أن التواجد بالقرب منهم خطير. لقد أصيبوا بأمراض نفسية وأصبحت مشاعرهم مضطربة. كلما كانوا أصغر سنًّا، كلما كانت قدرتهم على الفهم أقل، وقدرتهم على النسيان أكثر. منذ أن يبلغوا العاشرة من العمر، يشاهدون ويعرفون كل شيء، وسيتذكرون ذلك مدى الحياة".

وسألت عن ماجومد قاطع الرأس.

"لم يعد إنساناً. ولا يستطيع حل المشاكل سوى بالسلاح فقط. سيقضي بقية حياته على ذلك الحال، لا يمكن إنقاذه. لاحظت يدي الطبيب الروسي ترتجفان بشكل لا يستطيع التحكّم فيه، وقال: "رجاءً، لا تسجّل اسمي. أنا خائف".

بالنسبة للسكّان من أصل روسي، كان انسحاب القوات الروسية يمثّل الضربة الأخيرة لمجتمعهم الذي فقد الأمل بأي حماية من موسكو. لقد وصل عدد السكّان من أصل روسي إلى 300.000 نسمة في جمهورية الشيشان - أنغوشيا السوفياتية، وكانوا يستحوذون على الأعمال المهمة وكل مراكز القوة، ويعتبرون غروزني مدينة روسية تاريخية. تحوّلوا الآن إلى سلالة بائدة لا يتجاوز عددها 30.000 نسمة في المدينة. في كل القرى التي كان يقطنها سكّان من أصل روسي على طول نهر تيريك، أصبح الجميع إما فقراء للغاية أو طاعنين في السن لا يستطيعون مغادرتها. بالتأكيد فإن دوكو زافغاييف، الأثر الباقي من النظام السوفياتي، لن يعود أبداً، وقد تمّ تعيينه، بعد وقت قصير من اندلاع الحرب، كسفير لروسيا في تنزانيا، وهي نهاية مناسبة تماماً لقصته، وأهم ما فيها أنها بعيدة عن كنزال مواطنيه الساعين إلى الثأر.

قريباً من أنقاض الكنيسة الأرثوذكسية المحترقة في حي لانينسكي بروسبيكت في قلب غروزني، كانت بعض النساء المسنّات يعتنين بالكاهن، ويحافظن على مكان إقامتهن نظيفاً. في إحدى المرات التي كنت فيها هناك، ظهر قاطعا طريق شيشانيان في قمصان حريرية سوداء عند المدخل، وأرادا رؤية ساشا. حاولت ماريا، وهي سيدة مسنّة، إبعادهما، ولكنهما أصرّا، وضحك أحدهما بوقاحة وقال: "لا تقلقي، لن نؤذيك، وإذا أردت المشاكل، سندخل بكل الأحوال". اغرورقت عينا ماريا بالدموع فيما كانت تتراجع للداخل لإحضار ساشا، الذي تبين أنه شاب روسي يعيش في مجمّع الكنيسة. قام بمنح الشيشانيين رزمة من المال، وانصرفا بعدها. لم أستطع معرفة ما يجري، ولكن ساشا سار مبتعداً وهو يبدو قلقاً. قالت ماريا وهي تعبر جيئة وذهاباً أمام الموقع الذي سيكون فيه مذبح الكنيسة في حال كانت قائمة: "ليسامحهم الرب، وليحفظنا".

كانت نقطة التحوّل بالنسبة لي عندما استقالت العمة ناتاشا أخيراً من العمل، وتوجهت إلى روسيا بعد أسابيع فقط من نهاية الحرب. لطالما اعتنت هذه المرأة المسنة الثرثارة بي وبالعديد من الصحفيين الآخرين في كوخها الصغير في شارع غريبوفيدوفا خلف السوق التجاري الرئيسي، والذي عاشت فيه كل حياتها. نجت تلك المرأة من الحرب بأعجوبة دون أن تصاب بأذى، ولكن عدوانية الشيشانيين والرغبة بالثأر التي أعقبت الحرب كانتا كبيرتين جدًّا: أرادت تمضية سنواتها الأخيرة في سلام حقيقي، واتّخذت القرار الصائب. بعد عدة أيام من رحيل ناتاشا، سمعت بأن امرأة روسية تبلغ من العمر 72 سنة قد تعرضت لإطلاق نار، ولقيت حفتها في الجوار. لم يعرف أحد السبب، ولكن الجيران قالوا إنها كانت تملك "لساناً سليطاً"، وأنها جرحت كرامة شخص يحمل سلاحاً. كان ذلك ما يتطلبه الأمر؛ حياة الروس لم تكن تعني شيئاً لبعض الشيشانيين.

قال الشيشانيون إنهم لا يريدون إيذاء الروس المحليين، وأصروا على أن ذلك العدوان ليس منظَّما أو واسع النطاق. وبالإشارة إلى ما حدث، كانت عدوانية بعض الشيشانيين مفهومة، ولكن بغض النظر عمّا يقوله المدافعون، كان ما يجري أكثر من مجرد عدوانية البعض، فلقد لقي الأبرياء حتفهم وتعرّضوا للسرقة، والأسوأ أن أحداً لم يتدخل لإيقاف ذلك.

في مركز للاجئين الروس قرب ستافروبول، جلست تاتيانا إيفانوفنا في غرفة تتسع فقط لخزانة وسرير، والتي اشتركت بها مع ابنها الذي يبلغ من العمر 8 سنوات. لقد هربت من غروزني في بداية الحرب، وأصبحت تعرف آنذاك أنها لن تعود أبداً بعد انتهاء الحرب. كانت تاتيانا، المتحدرة من أصل روسي مع وظيفة جيدة في جامعة غروزني، نموذجاً للمقيمين الروس: "لقد اكتشفت أن الشيشانيين انتقلوا إلى منزلي. ولا أجرؤ على الظهور أمامهم". بشكل مماثل، لم تستطع أن تفهم سبب تمرّد الشيشانيين. كان الاتحاد السوفياتي، بالنسبة لها، نموذجاً ناجحاً، وكان لكل شيء معنى في الأيام التي درّست فيها الشيشانيين الأدب الروسي. "كان الوضع رائعاً من قبل، وكنت أذهب إلى فيدينو وشاتوي للتفتيش على المدارس. لغاية سنة 1985 أو 1987، كان الشيشانيون لطفاء للغاية معنا بسبب وجود سلطات صارمة، ولأنهم كانوا يخافون منّا".

طوال شهور، رفضت موسكو التخفيف من موقفها المتعنت في المفاوضات - والذي ارتكز على إسقاط غروزني لمطلبها بالاستقلال - وتطلّعت الشيشان، التي عانت من الإهمال، إلى الخارج للحصول على المساعدة. حذّر وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف عشية انتخاب مسخادوف بأن موسكو ستقطع العلاقات مع أي دولة تعترف باستقلال الشيشان. مع ذلك، كانت أول رحلة لمسخادوف بعد انتهاء الحرب لأداء فريضة الحج في نيسان 1997 بدعوة من الملك فهد. نتيجة لغسل الغرب يديه من المشكلة الشيشانية، لم يخفِ مسخادوف سعيه للحصول على المساعدات السياسية والمادية خلال لقاءاته مع الملك فهد والقادة المسلمين الآخرين. دفعته السعودية ثمن بطاقات الطائرات لحوالى 1000 شيشاني آخرين في لفتة كريمة وقفت في تناقض صارخ مع تعنت المفاوضين الروس.

لقد تمّ حصر الشيشان في الزاوية، وكانت عواقب ذلك كما دلّت التجارب وخيمة. حتى التخلّي عن الشيشان واعتبارها جمهورية نصف مستقلة وخارجة عن القانون كان خطيراً. ستتحول الشيشان المعزولة بالتأكيد إلى منبت خصب للمتشددين الدينيين والسياسيين المسلحين. كانت حرية كامل شمال القوقاز الموضوع المفضّل بالنسبة لجوهر دودابيف، ولم تكن مصادفة أن يكون فيدل كاسترو قدوة لشامل باسايف. بقي خطّاب، صديق باسايف العربي والمتشدد والخبير في حرب العصابات في الشيشان بعد الحرب، وتزوّج واشترى بيتاً وأسس معسكراً للتدريب. في الأحوال المناسبة: استمرار المواجهات والفقر واليأس، استطاع خطّاب أن يدقّ إسفينا عميقاً ويدفع الشيشانيين الصوفيين المتسامحين إلى شكل آخر من الإسلام المتشدد الذي يكره الكافرين.

كما هي الحال دائماً، كان مصير اللعبة في موسكو. تعافى الرئيس يلتسن أخيراً بعد ثمانية شهور قاسية من المرض والعزلة السياسية، وعاد في شباط 1997 ليعيّن اثنين من الإصلاحيين الشباب: أناتولي تشوبايس، المعادي للحرب، حاكماً لمنطقة نيزني نوفغورود، وبوريس نيمتسوف كنائب أول لرئيس الوزراء. وأحدث ذلك تغييراً هائلاً، فقد كان هذان الرجلان مهتمين بالاقتصاد وليس بالأيديولوجيا، ويسمح لهما عمرهما وخلفيتهما بنشر العقلية السوفياتية الإمبراطورية الجديدة. منح هذا التحوّل الليبرالي الذي طال الحكومة قوة دافعة لسكرتير مجلس الأمن المؤيد للسلام إيفان ريبكين الذي حل محل ليبيد، والذي كان يفضّل السياسة الواقعية الجديدة التي تركّز على الاقتصاد،

ولسخرية القدر، لم تكن اليد اليمنى لريبكين سوى بوريس بيرزوفسكي الصناعي البارع الذي ساعدت محطته التلفزيونية أو. آر. تي في إثارة الحرب منذ بدايتها.

كان وزير الداخلية أناتولي كوليكوف، الشبيه بكلب البولدوغ وآخر ممثلي فريق الحرب القديم، أحد آخر العقبات للدخول في مفاوضات حقيقية. زمجر كوليكوف بعدائية وفعل كل ما بوسعه للاستخفاف بحكم مسخادوف المضطرب ومنع أي محادثات مستقبلية. عندما انفجرت قنابل في محطات قطار أرمافير وبياتغورسك في نيسان 1997، أسرع كوليكوف في إلقاء اللوم على الشيشانيين، ولكن كانت هناك شكوك كبيرة بأن تنسيق أعمال العنف يتمّ من قبل الاستخبارات السرية في موسكو وليس في غروزني.

اقترح بيرزوفسكي على الملأ بأن كوليكوف: "لم يكتفِ من الحرب"، وأخبر ريبكين وزير الداخلية بأن يبتعد عن عملية السلام، وقال: "بغض النظر عن عدد النجوم التي يضعونها على أكتافهم، يجب ألا يختنق الناس بطموحاتهم".

ابتلع بوريس يلتسن، الذي يراقب كعادته وزراءه المتناحرين من الأعلى، كبرياءه ووقف إلى جانب الحمائم بطريقة درامية مباشرة، وليس بطريقة تجنّب الخسائر القديمة. في 12 أيار، رحب يلتسن المبتسم بمسخادوف في الكرملين، وكان ذلك لقائهما الأول على الإطلاق، ووقعا على اتفاق سلام مكتوب يعد *بالتخلي عن استخدام القوة أو التهديد بها*. تمّ إرسال كوليكوف في رحلة عاجلة إلى أقصى شرق روسيا.

قرر يلتسن ومسخادوف أن تقوم علاقاتهما، منذ ذلك اليوم، على أساس القانون الدولي. كان ذلك إعلان سلام بين رئيسي دولة متساويين - والأول في تاريخ القوقاز الروسي. وقال يلتسن: "الآن، ومع رئيس جمهورية الشيشان، نوقّع اتفاقية سلام، وهي اتفاقية لها أهمية تاريخية لأنها تضع حداً لـ 400 سنة لطالما شهدت شكلاً من أشكال الحروب، والشك، والارتياب لشعب بأكمله". أخيراً، كان الرئيس، الذي أشار إلى جمهورية الشيشان، يكفّر عن أخطائه الشنيعة.

فتحت اتفاقية السلام - التي تفادت ذكر الوضع السياسي للشيشان - الطريق أمام رجال الأعمال للحديث عن تمويل إعادة إعمار الشيشان، ووقّع المصرف المركزي الروسي اتفاقاً مع المصرف الوطني الشيشاني يمنح بموجبه الجمهورية استقلالها الاقتصادي، ويسمح لها بوضع سياستها النقدية والإشراف على نشاطات المصارف التجارية المحلّية، وتمّ وضع خطة جديدة لإعمار الشيشان، والتي تقضي بأن تقوم المناطق الروسية وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق بالاستثمار فيها مقابل شطب الديون المتوجبة لموسكو على تلك المناطق والجمهوريات، ومما يثير السخرية أن يكون خط أنابيب نقل النفط **أزيري** بمثابة غصن الزيتون لتحقيق اتفاق السلام، وهو الذي كان أحد الأسباب الرئيسية للحرب. فيما كانت الترتيبات الأخيرة تجري لضمان تدفق النفط من قزوين في أواخر عام 1997، كان مفهوماً لدى الاقتصاديين الجدد الأقوياء في الكرملين أن الطريقة المثلى لتأمين الطريق هي إبرام صفقة مع الشيشانيين. كانت المصالح الاقتصادية ضخمة. رغم أن رسوم نقل النفط الخام كانت ضئيلة نسبياً، إلا أن المسار النهائي لنقل النفط الرئيسي في القرن المقبل - عبر جورجيا أو الشيشان وجنوب روسيا - سيعتمد بشكل كبير على المسارات التي تمّ استخدامها في تلك المراحل الأولية. وفي النهاية،كان لدى الشيشان وجارتها الجنوبية قضية مشتركة.

بالطبع، لم تختفِ الرغبة في تحييد الشيشانيين كلياً، وأعلنت موسكو عن خطط لبناء خط أنابيب فرعي حول الشيشان، وقال كوليكوف إنه سيبني حاجزاً عسكرياً على الحدود. لكن رغم اعتبار تلك

الإجراءات بوليصة تأمين مطلوبة بشدة، إلا أنها كانت تخاطر بعزل الشيشانيين، ولم يكن لها تأثير كبير على استئصال الإرهاب.

من تبعات اتفاقية الكريملين أن التقى ممثلون عن روسيا، والشيشان وجمهوريات شمال القوقاز الأخرى في منتجع كيسلوفوديسك جنوب روسيا في 31 أيار، لتوقيع بيان سلام إقليمي. عكس اللقاء إدراك موسكو المتأخر بأنه لا يمكن التعامل مع مشاكل شمال القوقاز بمعزل عن بعضها البعض، وأنه يجب وضعها في سياق سياسة إقليمية مشتركة. كان هناك استحسان لفكرة الشيشان بإنشاء منظمة تعاونية للأمن في القوقاز. أجبرت الشيشان روسيا، بعد خسائر مروّعة من كلا الطرفين، على معاملة شعوب المنطقة باحترام.

لم تكن شهامة موسكو لتخرج خالية الوفاض. لقد ساهمت العدائية والحرب في إبعاد الشيشان عن روسيا، فيما قرّبت العلاقات الاقتصادية الجمهورية من موسكو. قال مسخادوف في أيار: "إن روسيا قوة عظمى. إنها قريبة منّا، ونحن اليوم مرتبطون بها اقتصادياً بكل الطرق. لهذا قد التزمت مع روسيا أكثر من الغرب والعالم الإسلامي".

موسكو

تشرين الثاني عام 1996. يرتدي أصلان مسخادوف آنذاك بذلة سوداء وربطة عنق بدلاً من الملابس المموهة، ويقيم مؤتمراً صحفياً في عاصمة عدوه السابق للمرة الأولى. أخذت أتساءل أين قابلت هذا الرجل من قبل: في قاعة القصر الرئاسي، في الجبال، في الغابات، في منازل آمنة حيث يطلبون منك التعريف عن المكان بأنه *قرية في جنوب الشيشان*. إنه الآن في فندق أربات في موسكو، تماماً خلف برج وزارة الخارجية الستاليني الطراز، ويقف إلى جانب موفلادي أودوغوف وأحمد زكييف. لقد انتهت الحرب بالنسبة لي.

يسأل أحد الصحفيين: أصلان مسخادوف! هل تشعر بأنك ربحت؟

يتوقف مسخادوف الحذر كالعادة، لعدة ثوانٍ قبل أن يتكلّم، وبعدها يقول بصوته الهادئ: "لم يكن هدفنا هزيمة الجيش الروسي. ونحن نعرف أن الجيش الروسي ضخم ولديه أسلحة نووية."

"لقد حاربنا بكل ما أوتينا من قوة كي لا يبقى جندي روسي واحد على أرضينا، وكي لا يتعرض مواطنونا للقتل. وأعتقد أننا حقّقنا ذلك."

الفصل السادس
البحث عن الفردوس

"جبال القوقاز مقدّسة بالنسبة لي. وفي عمر مبكر جدًّا! في العاشرة! يا لذلك اللغز، سيبقى الفردوس المفقود محفوراً في ذهني حتى مماتي".

ليرمونتوف

كاراشايفسك

طلب شيوخ الكاراشاي رؤيتي في المسجد. كان هناك حوالى 30 منهم يركعون على السجاجيد حيث أنهوا للتو الناماز، وأرادوا سماع شيء عن الشيشان. ولم يكونوا يعرفون سوى الرواية الرسمية التي ظهرت في التلفزة.

سألني رجل مسن يرتدي قبعة صلاة: "لماذا ترسل الحكومة الطائرات لقصف شعبها في الشيشان؟."

"من على حق ـ أخبرنا فقط، من على حق؟."

"هل ما يقولونه على التلفاز حقيقي؟ نعتقد في بعض الأحيان أنهم لا يقولون نصف ما يجري هناك؟."

"هل صحيح أن مع المقاتلين الشيشان مرتزقة أجانب؟ هل رأيت أياً منهم؟."

"أخبر كلينتون أن الناس الأبرياء يلقون حتفهم هناك."!

أصبح تنفيس الغضب أكثر أهمية لهؤلاء الرجال من سماع أجوبتي، وشعرت أن باستطاعتي الانزلاق من المنصة التي أجلس عليها مع المفتي وأخرج إلى الشارع دون أن يشعر بي أحد.

فجأة، قاطع أحد الشيوخ، الذي كان واضحاً أنه يتمتع بسلطة إسلامية ما، ويعتمر قبعة أستراخان عالية الجميع ليسألني: "كيف نعرف أنك لست من الاستخبارات الروسية السرّية، وأنك لا تتجسس أو شيء من هذا القبيل؟ من أرسلك؟."

اعتقدت أنه يمزح ويضحك. ولكن كان هناك صمت.

قال المفتي الذي كان بجانبي: "دعه يرى أوراقك". طافت بطاقتي الصحفية الوردية اللون على الرجال الذين يجلسون القرفصاء حتى اطمأنوا. بدأت الأسئلة ثانية. "لماذا تحاول روسيا دائماً سحق الأقليات الموجودة فيها؟."

كيف يمكن إخضاع شمال القوقاز؟ أنت لا تستطيع أن تغيّر العالم والقرون في ساعة واحدة. في يوم واحد، تقابل البطاركة وقطّاع الطرق، ورجال المافيا والرعاة، وهناك وجوه من الفخّار الإغريقي القديم، ومقاطع موسيقية من تركيا. ولا يمكن إخضاع أي منها. إن شمال القوقاز قاعةٌ من آلاف المرايا المشوهة، والتي تعكس كلاً منها صورة مختلفة، وقد نَسي الناس منذ زمن بعيد التفريق بين الصحيح والملتوي.

أغلقت عيني وشاهدت الصور بأي ترتيب جاءت، وفكّرت في قيادة السيارة عبر جبال داغستان، واستنشاق هواء المساء المنعش بين أشجار الحور وبساتين المشمش، وحاولت التخمين عند كل قرية حجرية، وفي شوارعها التي تهب فيها الرياح، أي أمة تعيش هناك، ونادراً ما توصلت إلى استنتاج صحيح.

فكرت في أليك، الذي يعيش في شركسك مع أسرة تبدو كما لو أنه تمّ التقاطها عشوائياً من وعاء من المجموعات العرقية المختلفة. لقد كان شركسيًّا، وكانت طليقته أبخازية، وزوجته الجديدة من نوغاي المتحدرين من عشائر منغولية، وكان ابنه شركسياً ـ أبخازياً وعلى وشك الزواج من روسية. كانوا جميعاً يتحدثون عدّة لغات ولهجات، ولكنهم يتكلّمون الروسية عندما يكونون معاً.

أفكر في كيفية اضطراب القرون، وكيف يربت التاريخ على الكتف عندما لا يتوقع أحد ذلك. لنأخذ إليك كمثال مجدداً، لقد كان سائق تكسي، ولديه صف غير منتظم من الأسنان الصفراء، والذهبية، والمفقودة. أخبرني أن اسم عائلته بشن، والتي تعني *بيت الملك*، وقبل مجيء الروس بوقت طويل، كانت عائلته من الشراكس الملكيين.

نتيجة لقبضة التاريخ، لطالما تمحورت الحياة في شمال القوقاز حول الحرب، حروب قديمة وجديدة، وحروب تنتظر أن تبدأ، وحروب ما لبثت أن انتهت، ولكنها تحتاج لخوضها من جديد. بالنسبة لي، سأشعر دائماً بخوف شديد عند سماع صوت الطائرات النفّاثة، وصوت الشيشاني المدافع عن شالي بمسدسه، وصيحة "الله أكبر" عندما كانت قذائف المدفعية تتساقط حولنا، ورعشة النجاة من الموت، والبراري، وصوت الذكر في ملجأ مدينة ستاري أتشخوي، وصوت الأسرى الروس المحطّمين في زنزانات مظلمة تحت الأرض، ومن الطريقة التي تبدو فيها الجثث البشرية كلها متشابهة، والرعب عندما يدرك المرء أن جثته لن تكون مختلفة.

قال البعض إن الحروب انتهت. في نادي فلاديقفقاز لكرة القدم - الأفضل في روسيا سنة 1996 - كان هناك لاعبون من 14 جماعة عرقية في الفريق، وكان المدير بتراك بيتاروف يتحدث عن السلام. كان بيتاروف الأوسيتي واحداً من تلك الشخصيات اللطيفة التي تتعايش مع قسوة القوقازيين، وكان يضع كمية كبيرة من الذهب على معصميه، ويرتدي معطفاً طويلاً من الشاموا ووشاحاً حريرياً. قال لي: "اُنظر! كابارد، ويونانيون، وجورجيون، ويهود، وأوسيتيون، وروس وجميعهم في نفس الفريق. أربع عشرة جنسية وكلهم سعداء، ولننسَ هذه الفوارق بين القوقازيين والروس. لنعامل بعضنا البعض على أساس أننا مواطنون روس، وليس هناك شيء مثل شعب جيد وشعب سيئ - كلنا متشابهون".

لكن بيتاروف كان مخطأً، لأنه في شمال القوقاز، وخاصة في أوسيتا الشمالية، ليس الجميع متشابهين، وتساهم الحروب في تذكير الناس بهذا جيداً. كانت منطقة بريغورودني على بعد أقل من ساعة بالسيارة من استاد بيتاروف حيث نمت الأعشاب الضارة بكثافة في أنقاض منازل الأنغوش. بعد انتهاء الحرب بأربع سنوات، لم يكن هناك أي أنغوشي في فريقه المتعدد الجنسيات.

لم يكن هناك أحد يشبه الآخر في شمال الشيشان. كان السكّان من أصل روسي هناك، والذين لم يستطيعوا الهرب، فقراء وخائفين. على طول الضفة اليسرى لنهر تيرك، حيث بنى أسلافهم الحصون، لم يتوقع أحد منهم أن الشيشانيين سوف يستولون عليها يوماً ما، ولم يكن الناس متشابهين في أديجي. شرح رجل أديجي عدم انتظام منازل قرية يقطنها سكّان من أصل روسي بالقرب من ميكوب بقوله: "الروس لا يكترثون لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم بأن هذه الأراضي ليست لهم، وهم لا يشعرون بأنهم في وطنهم". عاش الروس في تلك القرية لما يزيد عن القرن، ولكن ذكريات أديجي تعود لأكثر من ذلك بكثير.

هناك أشياء كثيرة أخرى في شمال القوقاز غير الحرب مثل شرب عصير المشمش المنزلي في الشمس بعد السير في الحرّ، وتقديم الخبز للآلهة الوثنية في أوسيتا الشمالية. الشيشاني الذي أهداني قلماً مخادعاً له ريشة في إحدى طرفيه وقدّاحة في الطرف الآخر، ليمنحني السعادة، والذي لم يكن يعرفني إلا منذ عشر دقائق. ما زال لدى رسلان كريموف، الذي عاش في قلب غروزني طوال فترة الحرب، ما يكفي من حس الدعابة لتعليمي رقصة الليزينغا. امتطى أصلان - بيك، الطفل الذي يبلغ من العمر 10 سنوات والذي التجأ إلى غروزني من باموت، حصانه دون سرج وجعله يعدو بسرعة فوق التراب، وقد أجبرته الحرب على النضوج قبل الأوان رغم أنه كان يمتلئ حيوية وطفولة.

المظهر الخاطف للشمس وهي تسقط ضخمة وحمراء قانية فوق القوقاز، وأطفال الجبال اليهود الذين ينشدون أغاني عبرية في نالتشيك، ويشترون الكباب المصنوع من لحم الأغنام في مكان ما في التلال، حيث يضعون قطع اللحم مع قطع البصل النيّئة في علب لفائف التبغ الفارغة، والتي يصبح طعمها أفضل مما قد يتخيّله أي إنسان.

كان شمال القوقاز كالفردوس بالنسبة للروس الإمبراطوريين غنياً، وخصباً وذا موقع استراتيجي، ويحيط به البحر من جانبيه، كان وصول القياصرة إليه محتَّما. لكن ظهرت لعنة القوقاز فيما بعد: كيف يمكن حُكم مثل تلك المنطقة؟ كيف يمكن حُكم بريطانيا إذا كانت كل بلدة تسكنها أمة مختلفة وتتكلم لغة مختلفة؟ كيف يمكن حُكم الغير قابل للحكم؟ ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي، لم يكن معظم الروس يرون في شمال القوقاز سوى مصدر للمتاعب وقطّاع الطرق، ولكن لم يعد هناك مهرب من المنطقة. لا يرتبط مصير شمال القوقاز بتصدير النفط عبر بحر قزوين وحسب، وإنما سيعتمد مستقبل الدولة الديمقراطية الروسية مستقبلاً في جزء منه على كيفية تطوير موسكو للعلاقات مع الجبليين.

هناك بعض الأمل، وفي الشيشان، قد يستطيع الإمبراطوريون الجدد تحقيق الانتصار الأخير، ويمنحن روسيا الفرصة للخروج من الماضي. لا يبدو أن الناخبين الروس، الذين ذهب أولادهم ليموتوا هناك، سيتعرضون للخداع مجدداً بادعاءات السياسيين *إعادة النظام الدستوري*. الأهم من ذلك، أن الحرب قد وصلت إلى حدّها. وقال موفلادي أوغودوف: "لقد كان ذلك نصراً عظيماً للجزء الديمقراطي الحقيقي من روسيا. لقد رفضت روسيا إبادة شعب، وقد يكون ذلك أعظم نصر لروسيا في القوقاز على مرّ التاريخ".

بالطبع، قد تكون الشيشان مجرد صدمة مؤقّتة. دون تغيير في البنية السياسية التي صنعها الرئيس يلتسن، والتي يستطيع من خلالها الرئيس الذي يشبه القيصر اتّخاذ قرارات هائلة لا تستند إلى حسابات أو توازنات، سيبقى الباب مفتوحاً للمزيد من المغامرات السياسية مثل *الحرب القصيرة المظفّرة*. لم يكن يلتسن طاغية بحدّ ذاته، ولكن تعطّشه للبقاء في السلطة قاده إلى التصرف باستبداد، ولم يكن هناك شيء في النظام لإيقافه.

هناك أيضاً الجنود المجهولون المزروعون مثل الألغام الأرضية في الحقول الشيشانية. في مرحلة ما - سنة 2001 وفقاً لمعاهدة كاسافيورت - كان على موسكو وغروزني أن تقرّرا الواقع السياسي للجمهورية، وبقي ذلك القرار قابلاً للتفجير حتى في فترة الهدوء. لن يتنازل الكثير من الشيشانيين الذين قاتلوا وعانوا الأمرّين عن الاستقلال الكامل، وإذا أصبحت الشيشان مستقلة، ما هو التأثير اللاحق لمثل تلك الخطوة؟ ورغم أن موجةً من إعلان الاستقلال تبدو غير محتملة، ستظهر حتماً حوافز جديدة للمطالبة بحكم ذاتي واسع من قبل مجموعات مثل البالاكار. سيكون الإسلام المسلّح، وحرب أنغوشية - أوسيتية جديدة، وانهيار داغستان، ونشوء وحدات مسلحة للسكّان من أصل روسي والتي تعمل كقوات أمن الدولة مجرد شرور كامنة أخرى. ربما لن تجد تصريحات الكرملين الجريئة عن السلام سنة 1997 أي صدى في السنوات العشر المقبلة، وقد يقاتل الجيش الروسي، الذي يخضع لعملية إصلاح كبيرة، مع السكّان من أصل روسي مجدداً.

في القرن التاسع عشر، وصف ليو تولستوي بطل الآفار الحاج مراد مثل شوكة وحيدة في حقل كامل نجت من المحراث، والتي ترفض *الاستسلام لرجل دمّر كل إخوتها من حولها*. تمثّل تلك الصلابة، فوق كل شيء، سحر الجبال وشعبها. يحترم كل العالم الناجين، ويساند الجميع ديفيد ضد العملاق. لكن هذا الإعجاب والاحترام يُخفي خلفه هشاشة ومأساة شمال القوقاز. من الممكن أن

تكون شعوب الجبال صغيرة وقوية، ولكنها صغيرة بما يكفي أيضاً ليتمّ اضطهادها جماعياً، وصغيرة بما يكفي لتختفي من الوجود. في تحذير لجميع الجبليين، فإن آخر ممثل يوبيخي مات في تركيا سنة 1992، بعد قرن من قيام الروس بإجبار شعبه على الخروج من شمال القوقاز. اقترف اليوبيخ، المتحدرون من قبائل أديجي - الشركسية، خطأً بالاندماج الكامل في مكان نفيهم، وعانوا في النهاية من انقراض لغتهم ببطء. وبنفس الطريقة التي تآكلت بها معظم الأرياف الوعرة تحت ضغط السياح، تبدو قوة الجبليين عظيمة ولكنها محدودة.

بروخلادنوي، كاباردينو - بالاكاريا

خرجت من باموت عبر الغابات. وبعد أربع وعشرين ساعة، غادرت الشيشان كليًا ووصلت إلى بروخلادنوي، وهي منطقة يقطنها سكّان من أصل روسي في كاباردينو - بالاكاريا، حيث يتساقط الثلج بلطف على تمثال لينين الكبير في الساحة الرئيسية. دعاني نائب مدير محطة القطار إلى تناول شراب، وهو رجل مهم في هذه البلدة المحورية. وجاء اثنان من أصدقائه، واللذان كانا يرتديان ملابس شبيهة بتلك التي يرتديها زعيم الحزب الشيوعي غينادي زيوغانوف النشيط، والبسيط، واللطيف والمتمسّك برأيه. لم أتفاجأ عندما سمعت أنهم سيصوتون للشيوعيين في الانتخابات البرلمانية القادمة.

قال فالنتين: "لقد سأم الجميع من الفوضى، وهم يحتاجون للانضباط". وأضاف بوريس: "لقد باعوا الشعب الروسي. وهم يمنحون الشعوب الاستقلال في كل مكان، بينما نحتاج للاتحاد، ونحن بحاجة للحزم."

يقول نيكولاي نائب مدير المحطة: "هذا صحيح، يجب أن تحارب النار بالنار هنا، وأنا أحب ما قاموا به في أميركا، فقد ثار السود، ومات بضع مئات منهم حرقاً، ثم هدأ كل شيء بسرعة فائقة."

كان لكل واحد منا كأسان: واحد للبراندي المصنوع محلياً في بروكلادنوي، والذي تجرعّناه برشفات كبيرة، والآخر للشراب غير الكحولي لنستعيد نشاطنا. كان هناك أنخاب مطوّلة، وبدأ رأسي بالدوران وابتسمنا جميعنا لبعضنا البعض. بدت الشيشان بعيدة، ولكني رأيت بين دورات الشراب أحياناً ظلاماً وناراً مثل صدمات كهربائية صغيرة. ثم يسكب أحد ما نصف كأس آخر من البراندي.

عندما حان دوري لتقديم نخب، قلت: *لأجل السلام في الشيشان*. لقد أعجبهم ذلك، حتى عندما قالوا إن الشيشانيين مجرّد قطاع طرق، وأن الشيوعية هي التي تستطيع الحفاظ على النظام. المزيد من البراندي، والمزيد من الأنخاب، لأجل السلام بين جميع الشعوب في العالم، ولأجل صداقتنا. كان كل ذلك يبدو مقنعاً.

انتهى